

دار العیداروس للكتاب الحديث

الكتاب
الأول

دراسات في :

الخليج والجزيرة العربية

البروفيسور الدكتور / محمد حسن العیداروس

دار الكتاب الحديث

دار العيروس للكتاب الحديث

دراسات في:

الخليج والجزيرة العربية

الكتاب الأول

الدكتور / محمد حسن العيروس
أستاذ التاريخ – والعلاقات الدولية
رئيس مركز العيروس للدراسات والاستشارات

دار الكتاب الحديث

953 العيدروس ، محمد حسن.

م ح در دراسات في الخليج والجزيرة العربية/ محمد حسن

العيدروس. - ط 1. - القاهرة: دار الكتاب الحديث، 2008م.

مج 1. 460 ص ؛ 24 سم .

تدمك: 8- 186-350-977

1- الخليج العربي - تاريخ . 2- شبه الجزيرة العربية - تاريخ.

3- الخليج العربي - العلاقات الخارجية - شبه الجزيرة العربية.

4- شبه الجزيرة العربية - العلاقات الخارجية - الخليج العربي.

أ- العنوان

حقوق الطبع محفوظة

1429 هـ / 2008 م

دار الكتاب الحديث

القاهرة	94 شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (00 202) فاكس رقم : 22752992 (00 202) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 - 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (00 965) فاكس رقم : 2460628 (00 965) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 - Draria Wilaya d'Alger- Lot C no 34 - Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail_ dkhadith@hotmail.com
الامارات	دار العيدروس للكتاب الحديث ص ب 2439 دبي هاتف 043522887 فاكس 043522885 شارع خالد بن الوليد - نهاية الماجد 206 دبي إ.ع.م.

رقم الإيداع	2008/4825
I.S.B.N	977- 350-186 -8

إهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام].
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا ... ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء].

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

إلى روح والدي الشريف / حسن أحمد
علوي العيدروس.. طيب الله ثراه.. وأغمده
الجنة إن شاء الله..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أول ما نبدأ بالحمد لله، حمدا كثيرا، وثناء عظيما، والصلاة على نبيه الأمين، وعلى ذريته الطاهرين.

أخيرا كانت بداية فكرة قديمة، تحققت بعد مرور أكثر من خمسة عشر عاما، وهي محاولة لجمع الأبحاث التي قدمت في المؤتمرات العملية، وكذلك التي نشرت في الدوريات العلمية، وهي حصيلة لتلك الأعوام في هذا الكتاب الأول.

ليست هذه هي جميع الأبحاث، وإنما تم اختيار بعض منها في الفترة الزمنية الممتدة من الاستعمار الإرهابي الأوروبي المسيحي، إلى ما بعد قيام مجلس التعاون على نهاية مشارف القرن العشرين، أي أبحاث تتناول في التاريخ الحديث والمعاصر لمنطقة الخليج العربي والجزيرة العربية، كما تشمل مختلف أقاليم المنطقة، وتم ترتيب المواضيع، حسب المراحل الزمنية التاريخية، وعلى حسب الأقاليم الجغرافية وليس حسب الحدود السياسية المصطنعة من قبل الاستعمار الإرهابي المسيحي، لأن التاريخ العربي هو تاريخ واحد، سواء أكان في المشرق أم المغرب، وإن كنا نتناول في هذا الكتاب جزءا من تاريخ المشرق العربي، وبالتحديد في الخليج العربي والجزيرة العربية، وذلك لاختصاصنا الدقيق، في حين سوف يكون هناك كتابات لأبحاث في التاريخ العربي بشكل عام، وخاصة في الأعمال القادمة.

متمنيا أن يكون هذا العمل الإقليمي، دافعا إلى العمل القومي، وهو الهدف والغاية المنشودة لأجل كتابة تاريخ الأمة العربية، فلا يمكن الوصول إلى الكل، إلا

بالبدء عن طريق جمع الأجزاء المتناثرة من التاريخ العربى الموحد، والذي مزقه الاستعمار الإرهابى المسيحى من جهة، والظروف الخارجة عن إرادة الشعب العربى، بعد أن خرج العرب من التاريخ بسقوط «بغداد» فى المشرق، وضياع دويلات وإمارات العرب فى الأندلس بالمغرب العربى، بسبب الملذات والأهواء والاستعانة بالمسيحيين الإرهابيين ضد إخوانهم المسلمين، وبالتالي ضياع المجد العربى، وسيطرة العثمانيين الأتراك من جهة، والتسلل الاستعماري الإرهابى المسيحى من جهة ثانية، وتكوين الكيانات والأنظمة القطرية من جهة ثالثة.

نجد من هنا التاريخ الحديث والمعاصر للعرب، متأثرا بهذه النواحي الثلاثة، وهذا ما نلاحظه من خلال دراستنا للأبحاث العلمية، وبالتالي يجب إعادة النظر فى هذا التاريخ للاستفادة من الدروس والعبر بقدر الإمكان لأننا نجتاز اليوم مرحلة حاسمة من تاريخنا القومى العربى، بعدما أصبحنا نعيش على هامش التاريخ، وليس فى داخل التاريخ، وقد كانت القوى الخارجية هى المحركة لتاريخنا الحديث، ولا يزال كذلك بالنسبة لتاريخنا المعاصر، وهنا تكمن المشكلة. ولكن ما الحل؟

تتناول الدراسات فى الجزء الأول عدة مواضيع وهى:

الصراع العثمانى - البرتغالى فى النصف الثانى من القرن السادس عشر فى الخليج العربى، والفصل الثانى عن تنافس شركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية فى بندر عباس فى النصف الأول من القرن السابع عشر، والفصل الثالث عن هجرة القبيسات الأولى من أبو ظبى إلى العديد «والدور البريطانى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر» وهى «دراسة وثائقية»، والفصل الرابع محاولة انفصال «العديد» عن أبو ظبى، والموقف البريطانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى دراسة من خلال المراسلات الرسمية، والفصل الخامس عن الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود فى قائمقامية قطر العثمانى 1871 - 1882، والفصل السادس الحياة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية

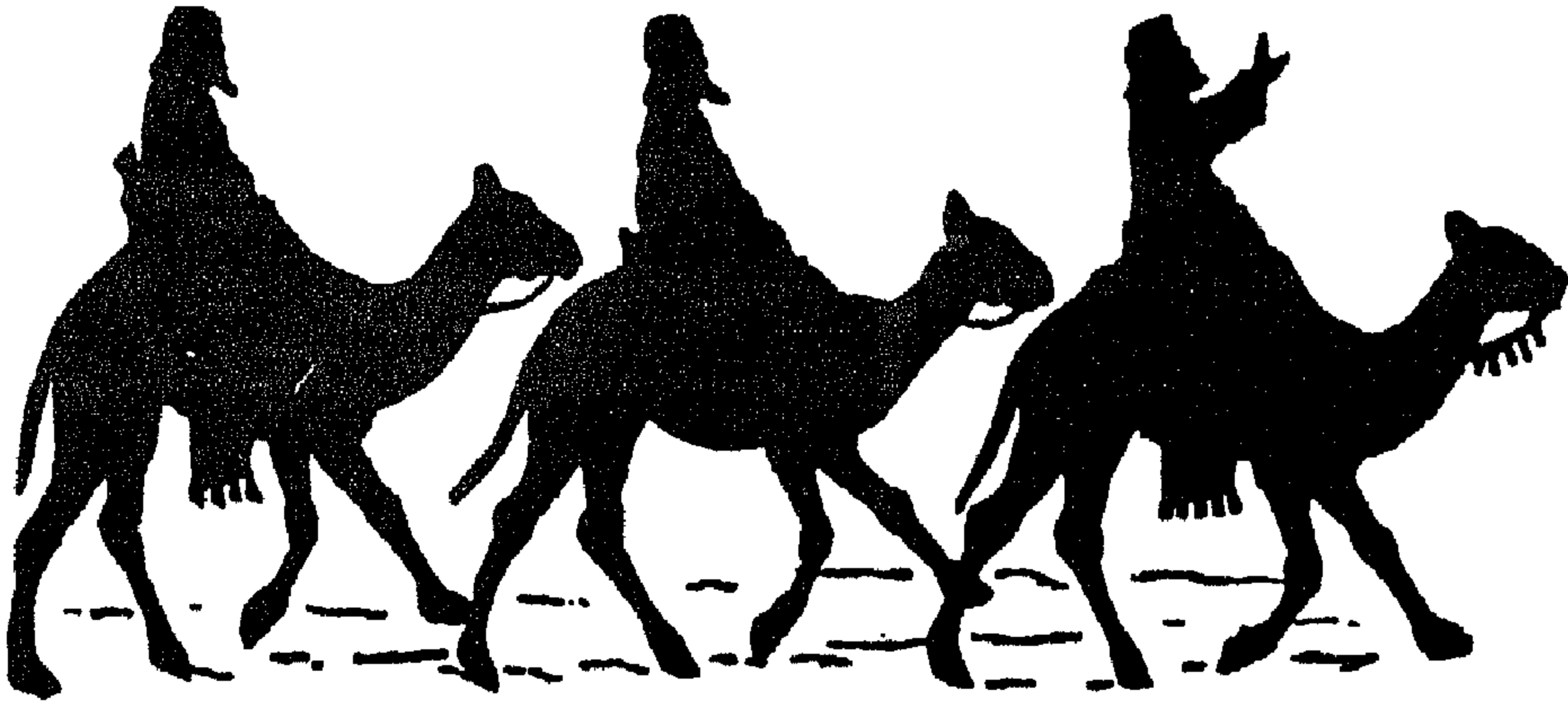
فى العهد العثمانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والفصل السابع - القرار السياسى البريطانى فى ظل النزاع الأنكلو عثمانى فى شرق الجزيرة العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والفصل الثامن، جوانب من الصراع السياسى فى جنوب ساحل عمان من خلال الوثائق البريطانية لعامى 1926 - 1928، أما الفصل التاسع - ظفار بين الماضى والحاضر، والفصل العاشر: العمل العربى الخليجى المشترك وقيام مجلس التعاون الخليجى، والفصل الحادى عشر: مجلس التعاون الخليجى بين الأمن الإقليمى والتحديات الخارجية.

نرجو فى الختام من الله تعالى أن يوفقنا إلى كتابة الحق، وقول الحق، وعمل الحق، إنه ولى التوفيق وهو السميع المجيب، وأن يكون هذا العمل دافعا إلى أعمال بحثية أخرى مستقبلا، وأن يكون البداية وليس النهاية.

وآخر ما نختم، بالحمد لله والصلاة على أشرف خلق الله وعلى آل بيته الطاهرين رضوان الله عليهم أجمعين إلى يوم الدين.

د. محمد حسن العيلروس

الفصل الأول



الصراع العثماني - البرتغالي في النصف الثاني من القرن السادس عشر في الخليج العربي

بحث قدم باللغة الانجليزية إلى الجمعية العالمية للدراسات العثمانية في جامعة مينسوتا في الولايات المتحدة
الأمريكية بتاريخ 14 - 19 أغسطس 1988 تحت عنوان :

The Ottoman - Portugese Conflict in The Arbian Gulf during The
Second half of The Sixteenth Century"

Committee International D,studies - Ottomans

VIII - Symposium - Decision making and the transmission of Au-
thority in the turkish system - the University of Minnesota - Humphrey
Center - August 14 - 19, 1988.

مقدمة

تناول بعض المؤرخين الغزو الاستعماري المسيحي البرتغالي للمياه الجنوبية وأحداثه التي استمرت لفترة طويلة من بداية القرن السادس عشر حتى بداية القرن السابع عشر، في حين أن الصراع العثماني البرتغالي في النصف الثاني من القرن السادس عشر في الخليج العربي لم يحظ بالعناية الكافية من جانب المهتمين بالدراسات العثمانية. ويتناول هذا البحث أهمية الخليج العربي في الصراع العثماني - البرتغالي، وتحويل البصرة كقاعدة عثمانية في الخليج العربي. ثم الحملات العثمانية لإبعاد الوجود البرتغالي من المنطقة. ومن أهم هذه الحملات، حملة «بيرى بك الرئيس» وهجومه على مسقط وهرمز، وحملة «الرئيس مراد بك» وحملة «سيد على الرئيس» ثم هجوم والى الأحساء العثماني على البحرين، وفترة الهدوء التي امتدت من عام 1560 - 1581 على مياه الخليج العربي نظرا لانشغال العثمانيين على جبهات القتال الأوربية والفارسية، ثم عودة السياسة العثمانية لإبعاد البرتغاليين وهجوم «على بك» على مسقط عام 1581، وانتقال الصراع العثماني - البرتغالي إلى سواحل شرق أفريقيا في أواخر القرن السادس عشر، وتحليل الصراع العثماني - البرتغالي، وأسباب إخفاق العثمانيين في إبعاد البرتغاليين من الخليج العربي.

أهمية الخليج العربي في الصراع العثماني البرتغالي؛

احتل الخليج العربي أهمية خاصة منذ وصول العثمانيين إلى العراق وأخذوا على عاتقهم مواجهة الغزو البرتغالي للخليج العربي، وأقام العثمانيون صلات كبيرة مع أقطار الخليج العربي، وكانت هذه الصلات تتفاوت بين مد وجزر وتختلف من وقت لآخر حسب الأوضاع الدولية والظروف التي مرت بها الدولة العثمانية والأخطار التي واجهت الخليج العربي سواء من الاستعمار المسيحي البرتغالي أو التوسع الفارسي تجاه العراق.

استفاد العثمانيون من فتح العراق عام 1534، بعدما كانوا قد انتصروا على الفرس في معركة «جالديران» عام 1514⁽¹⁾، ثم مدوا نفوذهم إلى البصرة وغيرها من الامارات العربية المجاورة القائمة في شمال الخليج العربي لأنها حمت ظهر القوات العثمانية وهي تخوض صراعا ضد التواجد البرتغالي في جنوب الخليج العربي، ووجد الأسطول العثماني ملجأ وقاعدة له في «البصرة»، ولو كانت الدولة الصفوية الفارسية لا تزال تسيطر على جنوبي العراق أو شمال الخليج العربي لأصبح مركز الثوات العثمانية حرجا في صراعه مع البرتغاليين⁽²⁾.

بلغ البرتغاليون ذروة قوتهم في منتصف القرن السادس عشر⁽³⁾. في الوقت الذي بدأ العثمانيون أيضا يقومون بنشاط متزايد في مياه الخليج العربي ويظهرون نفوذهم هناك وتطور الأمر إلى صراع مكشوف⁽⁴⁾ بين هاتين القوتين في الخليج العربي، ورغم أن العثمانيين لم يستطيعوا أن يقوموا بعمل حاسم في المنطقة كما فعلوا في البحر الأحمر⁽⁵⁾، إلا أنهم أوقفوا النشاط البرتغالي ومنعوه من توسيع نفوذهم في المنطقة. وجاء ظهور العثمانيين نتيجة استيلائهم على ميناء البصرة الذي أصبح متصرفية منذ ذلك الوقت وقاعدة للأسطول العثماني في الخليج العربي⁽⁶⁾.

دور البصرة كقاعدة عثمانية في الخليج العربي؛

استخدم العثمانيون ميناء البصرة قاعدة لتوجيه حملاتهم البحرية ضد المسيحيين البرتغاليين، رغم أن البصرة كما هو معروف ميناء نهري أكثر من كونها

ميناء بحريا، ومع ذلك فقد استخدموها للخروج بأسطولهم إلى مياه الخليج العربي، ووجد العثمانيون تجاوبا من عرب المنطقة للاحتماء بزعامتهم الإسلامية⁽⁷⁾، واتخذ العثمانيون من البصرة نقطة انطلاق لهم نحو التقدم إلى مياه الخليج العربي لضم بعض أقطاره إلى دولتهم الشاسعة، ولهذا دخلوا في صراع ضد الاستعمار المسيحي. وفي البداية كانت محاولات توسع العثمانيين ضعيفة لم يستطيعوا تثبيت أقدامهم أو إحداث أى تغيير يذكر في المنطقة، وكانت تلك المحاولات بطيئة لأن العثمانيين عجزوا عن تثبيت نفوذهم في البصرة أو ما حولها، فبقى «آل عليان» قرب «القرنة» في حالة تمرد مستمر، وفشل الأسطول العثماني في احتلال حصونهم ولاقوا فشلا ماثلا في «الحويزة» وبقيت عشائر «المتفق» مصدر ازعاج مستمر للولادة⁽⁸⁾.

لم تختلف البصرة نفسها عما يجرى حولها فكانت تتعرض للغزو الفارسي وأحيانا تنفصل عن بغداد على يد أسرة «افراسياب» والمماليك وعشائر «المتفق»، وكان من الصعب على ولاية بغداد أن ينقذوها من مشاكلها وان الأسطول الذى تم إنشاؤه كان ضعيفا ولذا فإنه لم يوفق فى احراز تقدم، وفشلت معظم المحاولات التى بذلت للسيطرة على بعض أجزاء الخليج العربى، لأنها جوبهت بمقاومة برتغالية وفارسية وبعض العصبية المحلية، إضافة إلى أن القوات البحرية العثمانية كانت بعيدة عن مراكز تموينها فى البحر المتوسط أو حتى البحر الأحمر فى السويس، ومع هذا فإن العثمانيين بذلوا مساعى كبيرة من أجل جعل البصرة قاعدة لعملياتهم البحرية فى الخليج العربى ضد البرتغاليين⁽⁹⁾.

حاول العثمانيون فى عام 1546 عن طريق أسطول صغير متابعة البرتغاليين فى مسقط ووصلت بالفعل إلى مشارف الميناء وقذفته بالمدافع لمدة شهر تقريبا، غير أنه لم يكن بوسع هذه القوة الصغيرة التى تتكون من أربع سفن أن تنزل رجالها إلى البر ولذا انسحبت، ثم أتيحت الفرصة للبرتغاليين التوغل شمالا حتى البصرة عام 1549، ولم يكن ميناء البصرة خاضعا للحكم العثماني فى ذلك الوقت لأنهم لم يكونوا قد وضعوه تحت إدارتهم المباشرة بل تركوه لحكام محليين، وكان يحكمها أحد شيوخ القبائل العربية الكبار ويدعى الشيخ راشد بن مغامس، وكان

فى استطاعته ان يجمع ثلاثين ألف رجل لحماية البصرة، وكان يدير الميناء لحساب الدولة العثمانية⁽¹⁰⁾. كان هذا الشيخ يتمتع باستقلال تام فى حكم شط العرب، فلما قرر العثمانيون تحويل البصرة إلى ولاية عام 1549⁽¹¹⁾، وجعل نفوذهم فيها فعليا، وقاموا بطرد أميرها العربى الشيخ راشد بن مغامس لأنه كان قد شق عصا الطاعة عليهم قبل ذلك بقليل⁽¹²⁾. ولكن الشيخ راشد تغلبت عليه نزعته القبلية فلم يتردد فى طلب المعونة من المسيحيين البرتغاليين لاعادته إلى ولاية البصرة، وقدم لهم عرضا ببناء قلعة برتغالية داخل أراضى الدولة العثمانية الإسلامية ومنحهم امتيازات أخرى فى شط العرب⁽¹³⁾.

ثورة سكان «القطيف» ضد البرتغاليين والاستجداء بالعثمانيين عام 1550؛

أدى وصول الأسطول العثمانى إلى الخليج العربى إلى رفع معنويات المقاومة العربية لدى سكان المنطقة فى مدينة «القطيف» عاصمة الأحساء فى أعقاب السيطرة العثمانية على البصرة⁽¹⁴⁾، وأعلن سكانها أنهم لا يدينون بالولاء «لهرمز» وانهم يضعون أنفسهم تحت حماية العثمانيين ويعتبرون من رعاياهم⁽¹⁵⁾، وأكدوا رفضهم وخضوعهم «لمملكة هرمز» التى كانت تعاني من خضوعها للاستعمار المسيحى البرتغالى، وقد سبق لسكان البحرين والقطيف أن أعلنوا خضوعهم للعثمانيين على أثر فتحهم للعراق عام 1534، واعتبر العثمانيون المناطق التى أعلنت ولاءها لهم «إياله» عثمانية وعينوا «بليربى» أو أمير أول على «إياله» الأحساء، وكان «البليربى» يتشكل طبقا للتقسيمات الإدارية العثمانية من عدة «سناجق» حيث اعتبرت القطيف ضمن مجموعة «سناجق» «إيالة» الأحساء التى امتدت حدودها حتى وصلت جنوبا إلى شبه جزيرة قطر⁽¹⁶⁾. بذلك دخل العثمانيون إلى المواجهة العسكرية مع الاستعمار المسيحى البرتغالى عندما طلب السكان المحليون المساعدة من العثمانيين للتخلص من تبعية «حصن القطيف» لمملكة هرمز⁽¹⁷⁾ عام 1550 ومن الحاكم المحلى لضعفه وتردده، وجاء العثمانيون وساعدوهم فى طرد بقية المسيحيين البرتغاليين، كما تم طرد الأمير المحلى الموالى لهم، وأعلن «مراد بك» قائد الأسطول العثمانى خضوع المنطقة للدولة العثمانية⁽¹⁸⁾.

تقدم آخر الحكام المحليين «للقطيف» الذى كان الأهالى قد طردوه منها، إلى

البرتغاليين يطلب عونهم لاسترجاعه إلى الحكم⁽¹⁹⁾، وفي الوقت نفسه استنجد شيخ هرمز بالبرتغاليين بعدما فقد البحرين والقطيف ووصلت القوة البرتغالية من الهند لشيخ هرمز لخراج العثمانيين من القطيف والبحرين⁽²⁰⁾. من دون شك أن السيادة العثمانية التي أعلنت على الاحساء والقطيف قد أفزعت البرتغاليين خاصة بعد وقوع الحصن في مدينة القطيف في أيدي العثمانيين، وكان البرتغاليون يعتمدون على ذلك الحصن في السيطرة على المناطق الساحلية لشبه الجزيرة العربية⁽²¹⁾. إن هذا التغير الذي حدث في الأوضاع السياسية بشرق الجزيرة العربية أثار مخاوف البرتغاليين، لأن هذه المنطقة كانت بعيدة عن الصراع العسكري البرتغالي - المملوكي، أو البرتغالي - العثماني، ولم توجه هاتان الدولتان المسلمتان قواتهما البحرية إلى شرق الجزيرة العربية وإنما ركزتا جهودهما العسكرية بوجه خاص على الساحل الغربي من الهند، باعتباره أساس التواجد المسيحي البرتغالي ومقر السلطة ونائب ملك البرتغال ومركز التجمعات البحرية البرتغالية، واستطاع البرتغاليون منذ بداية القرن السادس عشر الاستيلاء على مملكة هرمز واحتلال الساحل العربي المواجه لهرمز والجزر التابعة لها والمدن الساحلية واقاموا فيها الحصون القوية والاستحكامات العسكرية ووطدوا نفوذهم وسيطروا على طريق التجارة الشرقية الذي يمر بالخليج العربي وهيمنوا على اقتصاد الامارات السياسية الواقعة شرق الجزيرة العربية، ثم وقع الفرس اتفاقاً مع البرتغاليين لمساعدتهم ضد العثمانيين، وبذلك اعتقد البرتغاليون أن شرق الجزيرة أصبح خاضعاً لهم دون منافس، وان كانت هناك بعض الانتفاضات الشعبية من حين إلى آخر وخاصة في البحرين والقطيف وكان البرتغاليون يقضون عليها باستخدام المدفعية الثقيلة وغيرها من الأسلحة الحديثة⁽²²⁾.

تغير الوضع السياسي بصورة مفاجئة منذ مجيء العثمانيين الذين أرادوا مد نفوذهم الفعلي من شمالي الخليج العربي إلى جنوبه والقضاء على النفوذ المسيحي البرتغالي في هذه المنطقة الهامة من الشرق الإسلامي⁽²³⁾. أما البرتغاليون فأرادوا القضاء على بداية التواجد العثماني الناشئ في شمال الخليج العربي، وخاصة بعدما ضم العثمانيون حصن القطيف كما استنجد الشيخ راشد بن مغامس شيخ البصرة السابق بالبرتغاليين المسيحيين ضد العثمانيين ليعيدوا إليه أملاكه مقابل

إعطاء امتيازات واسعة للبرتغاليين الذين أرادوا أن يغتنموا هذه الفرصة ويعيدوا سيطرتهم على القطيف ولذلك وجه البرتغاليون حملة كبيرة لاستعادة حصن القطيف، واسندت قيادتها إلى «انطونيو دى نورنها» الذى كان نائبا للموانئ فى الهند، على رأس ألف ومائتى جندي تقلهم سبع سفن حربية كبيرة الحجم وسفن متوسطة وصغيرة الحجم بلغ مجموعها تسعة عشر سفينة، إضافة الى قوات من ممكلة هرمز شاركت فى الحملة وقدر عددها بأكثر من ثلاثة آلاف مقاتل للانتقام من السكان المحليين فى القطيف واجلاء الحامية العثمانية التى لم يتعد عدد افرادها أربعمائة مقاتل، ولكنهم دافعوا عن أنفسهم ببسالة وشجاعة وان كانوا اضطروا فى النهاية الى الاستسلام للبرتغاليين بعد أن عمد هؤلاء إلى فرض حصار على الحصن استمر ثمانية أيام، ولم يكتف «انطونيو دى نورنها» بمحاصرة القطيف وإنما واصل الزحف بقواته إلى البصرة باعتبارها قاعدة جديدة للأسطول العثمانى فى الخليج العربى⁽²⁴⁾، ومساندة حاكم البصرة المنشق.

لم يستطع القائد البرتغالى «انطونيو دى نورنها» تنفيذ خطته الإرهابية فى السيطرة على البصرة، وذلك بسبب وصول معلومات عن تلك الخطة إلى «بلير بك» «البصرة» الذى أسرع بتنفيذ خطة لافشال الهجوم المرتقب بحيث جعل القائد البرتغالى يعتقد بأن العثمانيين قد جمعوا حشوداً كبيرة من القبائل العربية فى «البصرة»، وبما أن القائد البرتغالى كان يخشى مواجهة تلك الحشود والقوات العربية فإنه عدل عن خطة الهجوم مفضلاً التراجع إلى «القطيف»، وهناك علم بأنه خدعه ولم يثبت وجود أية استعدادات بحرية فى «البصرة» لتلقى الهجوم البرتغالى⁽²⁵⁾.

يرجع فشل القائد البرتغالى «انطونيو دى نورنها» فى احتلال ميناء البصرة أو ضربها بالقنابل كما فعل فى حصن «القطيف»، لأن هذا الميناء كان حصينا ومحكما ولم يكن من السهل إسقاطه فخشى القائد البرتغالى ان يستغرق الحصار مدة طويلة فيتمرد عليه البحارة والضباط⁽²⁶⁾. وكان استعادة البرتغاليين «القطيف» وإعادة الحاكم المحلى الموالى لمملكة هرمز التابعة لهم خوفاً من أن يؤدى وجود العثمانيين فى القطيف إلى رغبة نفوذهم فى البحرين وفى الخليج العربى⁽²⁷⁾.

إن هذا العمل الإرهابي الانتقامي من جانب البرتغاليين ضد عرب «القطيف» و«البصرة»، كان حافزا قويا للعثمانيين في القيام بعمل ايجابي ضد القوات الأوربية الغازية في مياه الخليج العربي وخاصة أن مناطق البصرة والاحساء والقطيف والبحرين أصبحت تابعة لحكومة الأستانة، فاعتبر العثمانيون أن الاعتداء المسيحي الإرهابي البرتغالي عدوان سافر عليهم وعلى ممتلكاتهم في الخليج العربي⁽²⁸⁾.

خطة بيرى بك الرئيس 1551:

أدت العمليات الحربية الإرهابية البرتغالية سواء الناجحة أو الفاشلة إلى تعميق الاتجاه لدى السلطات العثمانية في الأستانة نحو إرسال خطة بحرية كبيرة ضد التهديدات البرتغالية وعدوانها في المياه الإسلامية الجنوبية، وخاصة تدمير الأسطول البرتغالي لقلعة «القطيف» وإجلاء الحامية العثمانية عنها كان يعنى ضياع هيئة العثمانيين في المنطقة ولا يمكن استردادها إلا بإرسال حملة كبيرة لمنازلة البرتغاليين والتفوق عليهم⁽²⁹⁾.

أكدت المواجهة العثمانية البرتغالية في «القطيف» للعثمانيين، أنه لا قبل لهم بالتصدي للبرتغاليين في معارك بحرية نظامية، وإن التفوق البحري البرتغالي لا يمكن مواجهته إلا بعمليات عسكرية غير نظامية، وذلك لعدم التكافؤ في القوة البحرية بين الطرفين. وأنيط القيام بتلك العمليات البحرية غير النظامية أو الفدائية إلى مجموعة من أشهر قباطنه الدولة العثمانية الذين خلد الكثير منهم أسماء لامعة ليس في المجال العسكري فحسب وإنما في المجال العلمي أيضاً، ومن أهم القادة الذين اشتهروا بعلوم الملاحة وفنون البحر «بيرى بك الرئيس»، «سيد على الرئيس»، «على بك الحلبي»، وتعددت ميادين العمليات الحربية العثمانية ضد البرتغاليين في الخليج العربي والبحر الأحمر ويتضح من ذلك بأن العثمانيين كانوا مصممين على العمل لانتزاع السيادة البحرية البرتغالية من تلك البحار⁽³⁰⁾.

قرر السلطان سليمان القانوني أن يرد على العدوان الإرهابي المسيحي البرتغالي على «القطيف» والبصرة بإرسال حملة بحرية إلى الخليج العربي تستهدف الاستيلاء على جزيرة هرمز والحقاق ادارتها بالبصرة، وصدرت التعليمات اللازمة إلى ترسانة السويس التي أصبحت من أقوى القواعد العثمانية البحرية بأن تعد

وتجهز على وجه السرعة ثلاثين سفينة ذات أحجام وأنواع مختلفة⁽³¹⁾ من نوع «البارستارده» و«القادرمة» و«القاليتة» و«التاليون»⁽³²⁾، وكان على ظهر هذا الأسطول الكبير ستة عشر ألفاً من المقاتلين⁽³³⁾.

تحركت الحملة في 29 ديسمبر 1551 من القاعدة البحرية في مدينة السويس متجهة إلى الخليج العربي، ووضعت الحملة تحت قيادة «بيرى بك الرئيس» أو (محمى الدين الرئيس) الذى كان أحد أبرز القادة البحريين العثمانيين فى القرن السادس عشر (1465 - 1554) واشتهر فى عهد السلطان بايزيد الثانى باعتباره من أهم قادة البحريين فى البحر المتوسط ثم عاون السلطان سليم الثانى فى فتح مصر وفيما تلا ذلك من عمليات فى البحر الأحمر ووضع أكبر موسوعة بحرية عثمانية فى ذلك الوقت. «كتاب بحرية»⁽³⁴⁾، كما كان جغرافيا معروفا وفنانا فى رسم الخرائط صنف كتاباً فى الملاحة فى بحر ايجيه والبحر المتوسط وخريطة الجانب الغربى من العالم⁽³⁵⁾. وكان «بيرى بك الرئيس» قد عين فى عام 1547 قائداً عاماً للأسطول العثمانى فى المحيط الهندى اضافة إلى منصب قبطان أسطول مصر أو قبودان مصر أى قائد القوات البحرية فى مصر⁽³⁶⁾، وكان قد تم فصل هذين المنصبين عن حكومة جنوبى اليمن.

نجد أن من أهم أهداف الحملة اضافة إلى محاربة التواجد المسيحى البرتغالى فى الخليج العربى، تهدئة أوضاع عدن الثائرة ضد العثمانيين⁽³⁷⁾. بعد أن كان البرتغاليون أرسلوا حملة بحرية كبيرة إلى البحر الأحمر ووصلت السويس واحتلت عدن⁽³⁸⁾. فخرج «بيرى بك» الرئيس من السويس ووصل الى «جدة» وبعد أن طاف حول غرب وجنوب سواحل الجزيرة العربية وأعاد السيطرة التامة على عدن⁽³⁹⁾. الذى كان قد وصل على رأس سفيتين كبيرتين من نوع «غراب» grabs⁽⁴⁰⁾ تمكن فيها من استرجاع السيادة العثمانية على عدن ثم مكث يومين فى ميناء «الشحر»⁽⁴¹⁾ فى حضرموت بقيادة السلطان الكثيرى وأخذ بعض احتياجات الأسطول ثم واصل سيره تجاه مدخل الخليج العربى.

أما البرتغاليون الإرهابيون المسيحيون فما أن سمعوا بنبا قدوم الحملة البحرية العثمانية بهدف ضرب حامياتهم المنتشرة فى سواحل الخليج العربى، حتى سادت

تلك المستعمرات حالة من الخوف والفوضى وعدم الاستقرار في الأوضاع الداخلية⁽⁴²⁾، وأثناء وجود «انطونيو دي نورنھا» نائبا للموانئ في الهند في جزيرة هرمز بعث ببعض السفن البرتغالية لاستطلاع النشاط الذي كان يقوم به القائد العثماني بيري بك الرئيس⁽⁴³⁾، ولمعرفة مواقع البحرية العثمانية في محاولة للقضاء عليها قبل أن تصل إلى أهدافها، ولكن هذه السفن لم تتمكن من الأسطول العثماني نظرا لأنه لم يستقر في مكان واحد فترة طويلة بل كانت الخطط الرئيسية «ليرى بك الرئيس» كما يبدو القيام بغارات مفاجئة على الحاميات البرتغالية والاستيلاء على ما عسى أن يكون في حوزتها من معدات وذخائر حربية ومواد غذائية أو بضائع ثم الانتقال إلى موقع آخر لنفس الهدف، وبهذه الطريقة أفلت الأسطول العثماني من عيون جواسيس البرتغاليين⁽⁴⁴⁾، بل إن بعض تلك السفن الاستطلاعية البرتغالية كادت أن تقع في قبضة الأسطول العثماني، لكنها استطاعت الإفلات بصعوبة.

أولا: الهجوم العثماني على مسقط،

قبل وصول «بيري بك الرئيس» إلى مسقط، تفرقت سفنه بسبب الضباب الكثيف وتحطم بعضها بالقرب من «صحار» في عمان بينما توجه ببقية سفنه إلى مسقط⁽⁴⁵⁾ التي كانت تمثل القاعدة الثانية للبرتغاليين بعد جزيرة «هرمز» في ذلك الوقت، وما أن وصل «بيري بك الرئيس» إلى هناك حتى ضرب حصارا محكما حول المدينة، ومنع عنها وصول الامدادات والمؤن والذخائر، علما بأن الحامية المكلفة بالدفاع عن مسقط كانت قد اتخذت الاحتياطات اللازمة فأجلت نساء وأطفال البرتغاليين إلى جزيرة هرمز بينما بقي الجنود وعددهم ستون مقاتلا بقيادة «جوادى لزبوا» في قلعة مسقط الحصينة، ورغم قلة عددهم، إلا أنهم صمدوا أمام العثمانيين الذين كانوا يقذفون القلعة البرتغالية في مسقط بالمدافع والقنابل الثقيلة ليل نهار طيلة ثمانية عشر يوما، وبعد أن يئس البرتغاليون من وصول مساعدات أو نجدات عسكرية لهم، كما نفذ ما عندهم من طعام وماء، طلبوا الاستسلام⁽⁴⁶⁾.

نجح بذلك «بيري بك الرئيس» في مهاجمة القلعة البرتغالية في مسقط وتدميرها وأرغم قائد الحامية على الاستسلام للعثمانيين⁽⁴⁷⁾، وطلب القائد

البرتغالي من «بيرى الرئيس» أن يسمح له ولن معه من أفراد الحامية البرتغالية فى مسقط بالانتقال إلى هرمز بسلام، ولكن «بيرى بك الرئيس» بادر بعد سيطرته على قلعة مسقط بتجريد الحامية من سلاحها⁽⁴⁸⁾ وعامل قائد الحامية وكبار ضباطها معاملة سيئة بعد أسرهم وكان عددهم حوالى ستين مقاتلا، ثم أمر بنقل المدافع والذخائر البرتغالية إلى سفنه، وبعد أن أنهى «بيرى بك الرئيس» تلك العمليات البحرية توجه إلى جزيرة «هرمز»⁽⁴⁹⁾، ويصف الكاتب «فاريا داي سوارا» نشاط بيرى على النحو التالى⁽⁵⁰⁾:

«تقدم أسطول العدو نحو مسقط التى صمدت ما يقرب من شهر ضد الحملة العثمانية العظيمة إلا أنها اضطرت فى النهاية إلى الخضوع لهم، ثم أمر القائد العثماني بالقبض على رجال الحامية وبعد قليل أطلق سراح بعضهم مقابل فدية وشغل القائد البرتغالي وبعض الجنود فى تجديد السفن».

ثم يتابع الكاتب البرتغالي قوله⁽⁵¹⁾:

«وقد سيطر القائد بيرى بك، كما أسر الحامية البرتغالية، و60 من رجاله ونقلوا إلى السفن العثمانية وبعد ذلك غادر «بيرى بك» إلى «هرمز».

ثانياً: الهجوم العثماني على هرمز:

توجه «بيرى بك الرئيس» بأسطوله بعد أسر الحامية البرتغالية فى مسقط إلى جزيرة «هرمز» وكان قائدها البرتغالي «دى الفارورى» اتخذ كافة الاحتياطات الكاملة للدفاع، فحشد فى القلعة رجاله البالغ عددهم تسعمائة جندي برتغالي ومعهم كميات كبيرة من السلاح والذخائر والمواد الغذائية والمياه تكفيهم مدة طويلة، وعندما وصل «بيرى الرئيس» إلى هرمز أمر رجال الأسطول بالنزول إلى البر، وقام بحصار تام ثم أمر بإطلاق القذائف على القلعة من كل جانب لمدة عشرين يوماً بدون توقف إلا أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها إضافة إلى ذلك فأنهم تكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات ثم قرر «بيرى بك» الانسحاب إلى جزيرة «قشم»، وقد وصف لنا «فاريا داي سوارا» هذه الموقعة بقوله⁽⁵²⁾:

«ولدى وصول العثمانيين بالقرب من جزيرة هرمز، رست سفنهم فبادورا إلى إنزال جنودهم إلى البر، ثم رفعوا بطاريات المدفعية وثبتوا مدافع كثيرة وأخذوا

يطلقونها بعنف ودون توقف مدة شهر. . استمر حصار القلعة مدة عشرين يوما ولكن العثمانيين يشوا من اخضاع القلعة بجانب أنهم تكبدوا خسائر كثيرة في جنودهم وأسلحتهم» .

ثم يتابع «فاریا دای سوازا» قوله (53):

«وكان مع «دی الفارودی نورنها» 900 رجل في الحامية، كما التجأ حاكم البلدة وأسرته وقاضی المحكمة إلى الحامية من العدوان العثماني، وكان الأسطول العثماني قد أعد نفسه لحصار طويل واستولى على 40 مركبا شراعيا كانت في الميناء، وبعد رسو الأسطول العثماني نزل الرجال إلى البر وأقاموا معسكراتهم فيها ثم أخذوا في بناء تحصيناتهم ونصب المدافع التي استخدموها بشدة متناهية وبدون توقف لمدة شهر واحد. وكنتيجة للخسائر الفادحة التي تكبدها العثمانيون فقد أمر قائدهم رجاله بنهب المدينة، وبعد ذلك أبحر إلى «قشم» التي كان لجأ إليها عدد كبير من أهالي هرمز، وفي «قشم» استولى العثمانيون على كميات من الغنائم ثم انسحبوا» .

اتجه بعد ذلك «بيرى بك الرئيس» بالأسطول العثماني إلى جزيرة «قشم» متعقبا البرتغاليين هناك وعملوا فيها كما عملوا بمسقط وهرمز ثم انسحبوا منها بعد أن سمع «بيرى بك» عن تحرك الأسطول البرتغالي من مركزه في الهند من «غوا» إلى قاعدته في البصرة ليستطيع الصمود أمام أسطول العدو الإرهابي البرتغالي القادم من الهند ومعرفة حجمه (54).

عودة بيرى بك الرئيس إلى السويس

عندما عرف «بيرى بك الرئيس» أثناء وجوده في البصرة بتقدم أسطول برتغالي قوى نحوه واحتمال غلق مضيق هرمز بوجهه أسرع في مغادرة البصرة وبصحبه ثلاث سفن فقط تاركا بقية أسطوله هناك (55). وفي الطريق تحطمت سفينة واحدة من السفن الثلاث من نوع «القادرغمة» بالقرب من البحرين، وتوجه «بيرى بك» بالسفينتين الباقيتين إلى مصر تاركا سفن الأسطول العثماني بالبصرة (56). أما المسؤولون البرتغاليون في الهند فعندما سمعوا بالحوادث التي تجري في الخليج العربي والتهديدات العثمانية لمستعمراتهم، والنشاط البحري الذي

قام به «بيرى بك الرئيس» ضد تواجدهم فى المنطقة، قرروا إرسال أسطول كبير بقيادة نائب الملك البرتغالى «فيرناندو دى نورنھا» الذى خرج به من «غوا» فى سبتمبر 1552 لانقاذ جزيرة هرمز، ولما وصل إلى الجزيرة وجد العثمانيين قد انسحبوا من تلقاء أنفسهم، ورأى القائد البرتغالى أن الحاجة لا تدعو لوجود أسطولهم الكبير فى المنطقة فعاد إلى «غوا» دون قتال⁽⁵⁷⁾.

لم تؤثر عمليات بيرى بيك الحربية على استراتيجية المنطقة أو تخفف من النفوذ البرتغالى⁽⁵⁸⁾. وأن مصادمات بيرى بيك الرئيس كانت تؤكد بأن كفة البرتغاليين هى الراجحة رغم الارعاج الشديد والاضطراب فى صفوفهم الذى كان قد سببته عمليات «بيرى بك» ضدهم⁽⁵⁹⁾، وكانت بداية حملة «بيرى بك» موفقة عندما نجح فى مواجهة «مسقط» وفى الاستيلاء على قلعتها وأسر قائدها البرتغالى واستطاعت ان تزلزل مركز البرتغاليين القوى لأول مرة فى مدخل الخليج العربى⁽⁶⁰⁾، ولكن عدم تمكن بيرى بيك من اخراج البرتغاليين من هرمز أعطى المجال أمام التفوق البرتغالى الذى أصبح واضحاً فى أعقاب انسحاب أسطول بيرى بيك من جولاته فى الخليج العربى وظل الأسطول البرتغالى هو المسيطر على مياه المنطقة⁽⁶¹⁾. ولكن الأسطول العثمانى سرعان ما بدا يظهر من جديد فى موانئ الخليج العربى بعد حملة بيرى بيك⁽⁶²⁾.

إعدام بيرى بك فى الآستانة:

نظراً لأهمية تلك الحملة التى أعقبها إعدام قائدها بيرى بك الرئيس فى الآستانة ولما يكتنفه من غموض وملابسات حول ذلك فإننا سوف نورد بعض الآراء حول ذلك وقد تكون أقرب إلى الصواب، ومن أهم هذه الآراء ما يقول د. جمال زكريا قاسم فى هذا الموضوع⁽⁶³⁾: بأن الأوامر الصادرة من الآستانة إلى «بيليربى» البصرة فى أكتوبر عام 1552 توضح فيه التعليمات التى أعلنت إلى «بيرى بك»، وفيها كان يتحتم عليه بعد حملته الناجحة على مسقط أن يتجه إلى البصرة للاستعانة ببعض قواتها لكى يقوم بالهجوم على «هرمز» و«البحرين»، غير أن «بيرى بك» أغراه سهولة الانتصار فى «مسقط» فتوجه مباشرة إلى «هرمز» وأطلق المدافع على قلعة البرتغاليين وحاصرها ستة عشر يوماً ولكن البرتغاليين تمكنوا من

الدفاع عن أنفسهم واضطر «بيرى بك» إلى الانسحاب إلى جزيرة «قشم» ومنها إلى «البصرة» بعدما استولى على غنائم كثيرة حيث كان الأثرياء من التجار يقطنون تلك الجزيرة، وفي البصرة وقع الخلاف بينه وبين «البليربى» ولذلك غادر المدينة حاملاً معه الغنائم التي حصل عليها ومن ضمنها الأسرى البرتغاليين، وقدرت بعض المصادر قيمة غنائمه بأكثر من مليون ريال ذهب، في الوقت الذي أرسل فيه بليربى البصرة تقريراً إلى السلطان العثماني، ويبدو أن هذا التقرير لم يكن في صالح بيرى بيك إذ أنه على أثر وصوله إلى السويس استدعى من قبل السلطان العثماني للرد على التهم المتعلقة بقله كفاءته وعدم نجاحه في العمليات الحربية في الخليج العربي، وصدر ضده الحكم بالاعدام وقطعت رأسه بالفعل في الأستانة عام 1553.

يتابع د. جمال زكريا قوله⁽⁶⁴⁾:

بأن الكثير من المصادر لم تستطع أن تعلق السبب الحقيقي لاعدام بيرى فيما أشار البعض إلى أن السبب الحقيقي لم يتضح تماماً ومنهم من أكد كما فعل «فاريا دى سوارا» أنه تجاوز التعليمات الصادرة إليه وهو الأمر الأكثر احتمالاً، إذ أن السلطان سليمان الثاني قد أمر بيرى بيك في أن لا يجد في أخذ هرمز قبل أن يذهب أولاً إلى البصرة لكي يأخذ جنوداً إضافيين غير أن «بيرى بك» نتيجة لما وجدته من ضعف البرتغاليين في مسقط اعتقد أن الحالة في هرمز ستكون متشابهة. واعتقد أن بإمكانه بالأسلحة والدخائر التي استولى عليها من قلعة البرتغاليين في مسقط أن يخضع البرتغاليين في هرمز ولكنه فشل بسبب صمود القلعة البرتغالية الحصينة في هرمز.

أما د. عبد العزيز الشناوى فيقول⁽⁶⁵⁾:

أن «بيرى بك» ضرب حصاراً محكماً على قلعة البرتغاليين في جزيرة هرمز وكادت تسقط في أيدي العثمانيين لولا أن بيرى بيك أمر برفع الحصار عنها فجأة، واتجه بسفنه إلى البصرة وكان السبب في انسحابه من جزيرة هرمز هو الخدعة التي لجأ إليها أسيره قائد حامية مسقط البرتغالية، إذ أدخل في روعه بأن أسطولاً برتغالياً كبيراً خرج من الهند في طريقه إلى هرمز لتدمير الأسطول العثماني في

مياه الخليج العربي، ونصحه بالإسراع إلى مغادرة المنطقة قبل أن يغلق البرتغاليون مضيق هرمز في وجه الأسطول العثماني، إضافة إلى هذه النصيحة الخادعة فإنه قدم لبيري بيك بعض الأموال الذي قبلها، وبما أن الأسطول لا يستطيع العودة مباشرة إلى السويس لحاجة وحدات الأسطول إلى الإصلاح والتزود بالموثون فقد ترك بيرى بيك الأسطول العثماني في البصرة وعاد بسفنه الثلاث إلى السويس بعد أن ملأها بالأموال التي جمعها من مهاجمة الأهداف البرتغالية في الخليج العربي وما كاد يصل إلى القاهرة حتى قبض عليه والى مصر وأرسله إلى السلطان سليمان القانوني مع تفاصيل ما حدث ورأى السلطان أن تصرف بيرى بيك كان خيانة عظمى فأمر بإعدامه ومصادرة أمواله ومقتنياته.

يقول مصطفى عقيل الخطيب في أطروحة الماجستير، بأن القائد البرتغالي «جواى ليزبوا» الذى كان أسيرا فى الأسطول العثماني قد نصح «بيري بك» بالتوجه إلى البصرة، ولما وصل الأسطول إلى البحرين تمكن من الهرب، وكان هذا سببا فى استدعاء بيرى بيك إلى الآستانة ومحاكمته وقد صدر الحكم بضرب عنقه بالسيف⁽⁶⁶⁾. ويقول د. قيس بأن اعدام «بيري» فى الآستانة لعدم اطاعته للأوامر مما أدى إلى فشل الحملة وتدنى سمعة البحرية العثمانية كما ترك انطبعا فى المنطقة بأن البرتغاليين لا يمكن قهرهم⁽⁶⁷⁾.

قد يكون سبب إعدام «بيري بك» هو ما جاء فى قول د. جمال زكريا بأن القائد بيرى بيك لم يطع الأوامر بالتوجه إلى البصرة لأخذ مزيد من القوات والذخيرة نظرا لعلم السلطان سليمان القانوني بقوة التحصينات البرتغالية فى هرمز، وليس معقولا بأن يأخذ القائد العثماني نصيحة أسيره البرتغالي بعدم مواجهة الأسطول البرتغالي والذي عرف عن بيرى بيك مواجهته للسفن المسيحية الأوروبية سواء فى البحر المتوسط أو البحر الأحمر وبشجاعته فى القتال، وكذلك من غير المعقول أن يأخذ هذا القائد المعروف الرشاوى من البرتغاليين وخاصة من أسيره بعدما كان قد استولى على غنائم كثيرة من هرمز وقشم.

حملة الرئيس مراد بك 1553،

نظرا للنتائج السلبية التى انتهت إليها الحملة البحرية «لبيرى بك الرئيس»،

فرض على العثمانيين أن يحاولوا من جديد إنهاء التواجد البرتغالي في مياه الخليج العربي⁽⁶⁸⁾. وبرغم انشغال العثمانيين في صراعاتهم مع الصفويين الذين كانوا أعدوا حملة عسكرية عام 1553 مما اضطر الدولة العثمانية إلى عقد معاهدة «اماسيا» لعام 1553، وبمقتضى هذه الاتفاقية حدث تعديل طفيف على الحدود العثمانية - الفارسية وقسمت جورجيا إلى مناطق نفوذ مشترك وخيم السلام على العلاقات بين الجانبين⁽⁶⁹⁾ لفترة قصيرة مما أتاح الفرصة للدولة العثمانية للتوجه لمحاربة الغرب المسيحي «دار الكفر» على الجبهة الأوروبية والبرتغال في المياه الجنوبية.

اهتم السلطان سليمان القانوني بإعادة الأسطول العثماني المتجمع في البصرة إلى قاعدة السويس البحرية دون أن يتعرض لهجوم الأسطول البرتغالي عليه ولتحقيق هذا الهدف تم الاتصال السريع مع «الريس مراد بك» «سنجق القطيف» وكان يقيم في البصرة في ذلك الوقت⁽⁷⁰⁾ وأصدر إليه السلطان القانوني أوامره بالابحار إلى السويس، وبعدها تابع «الريس مراد بك» عملية تجميع الأسطول العثماني الموجود في البصرة عام 1553⁽⁷¹⁾. وأعد سفناً أخرى لكي تنضم إلى الأسطول ثم عبر الخليج العربي نحو البحر الأحمر لمواجهة الأسطول البرتغالي المتجه نحو «جدة»⁽⁷²⁾. كان «الريس مراد بك» له خبر سابقة بحروب البرتغاليين في الخليج العربي، وكانت تحت قيادته خمسة عشرة سفينة للقيام بهذه الحملة البحرية الجديدة، وقام «مراد بك» بجهود يائسة لاستدراج الأسطول البرتغالي خارج القواعد والحصون البرتغالية في الخليج العربي وخاصة في جزيرة «هرمز»⁽⁷³⁾.

اصطدم «الريس مراد بك» بالأسطول البرتغالي الذي يقوده «ديجو دي نورنھا» في مدخل الخليج العربي بالقرب من جزيرة هرمز أمام السواحل الفارسية حيث القاعدة والحصن البرتغالي القوي، ولكن المعركة لم تسفر عن انتصار حاسم لأى منهما⁽⁷⁴⁾. وفشل «الريس مراد» في إرجاع الأسطول العثماني الذي كان راسيا في ميناء البصرة إلى السويس وإنما اضطر إلى إرجاعه ثانية إلى ميناء البصرة نظرا لإصابة بعض السفن ومن الصعب إبحارها إلى السويس لمسافة طويلة، ولم تكن هذه الحادثة بأية حال نهاية المطاف للعثمانيين لانقاذ أسطولهم الراسي في

البصرة وإنما أمر السلطان سليمان القانوني بتعيين «سيد علي الرئيس» الذي يعتبر من أبرز أعلام القادة البحريين العثمانيين ليتولى هذه المهمة⁽⁷⁵⁾.

خطة سيد علي الرئيس 1554:

شعر السلطان القانوني الذي كان يقيم في «حلب» وقتذاك بقلق بالغ على أسطوله الراسي في ميناء البصرة، وكان من بين أفراد الحاشية قائد بحري يعد من أعلام السلاح البحري العثماني وترك بصمات قوية في تاريخ البحرية كما يعتبر جغرافيًا عثمانيًا مشهورًا وهو «علي شلبي» أو «سيد علي الرئيس» كما تسميه الوثائق العثمانية⁽⁷⁶⁾ والذي نال سمعة طيبة في غزوات البحر المتوسط⁽⁷⁷⁾.

فأمر السلطان القانوني بتعيينه «قبودان مصر» وقبطانا لاسطول البحر الأحمر مع تكليفه بمهمة أخرى هي فرض السيادة العثمانية على الخليج العربي⁽⁷⁸⁾: وطلب منه السفر فوراً من مدينة حلب إلى البصرة عن طريق البر وأن يقود الأسطول العثماني في رحلة العودة إلى السويس، ووصل «سيد علي الرئيس» إلى البصرة في 6 يناير عام 1554 وشرع في إصلاح السفن وإعادة بناء ميناء البصرة وتشيد أسطولها من جديد⁽⁷⁹⁾ وتجهيزه. في 30 من أغسطس من نفس العام أبحر من البصرة على رأس خمس عشرة سفينة⁽⁸⁰⁾ عن طريق البحرين و«رأس مسندم»⁽⁸¹⁾، بعدما وصلته الأنباء بأن البرتغاليين متجهون لاستعادة مسقط بقيادة «فيرناند دي نورنهام» القائد البرتغالي الذي كان قد علم بوصول «سيد علي الرئيس» إلى «البصرة» واعداده للأسطول وتأكد له أن العثمانيين يشكلون خطراً على المستعمرات والمراكز البرتغالية ليس في الخليج العربي فقط وإنما في المشرق الإسلامي كله، ودبر خطة محكمة للقضاء على هذا الخطر، وكان «سيد علي الرئيس» قد توجه إلى «هرمز»، في حين كان الأسطول البرتغالي الضخم قد أقبل على أثره من الهند وانتشر جواسيس البرتغاليين في كل مكان متخفين في زي صيادي الأسماك لعدم إثارة أية شكوك حولهم ونقلوا إلى قائدهم أخبار وصول الأسطول العثماني فأرسل القائد البرتغالي مجموعة من السفن الحربية الكبيرة إلى مسقط في حين ترك نحو أربعين سفينة في عرض البحر لمراقبة تحركات الأسطول العثماني، وعند علم القائد البرتغالي بأن «سيد علي الرئيس» متجه إلى «مسقط» فسار خلفه، وعندما بلغ «سيد علي الرئيس» شواطئ المدينة هاجم الحامية البرتغالية التي كانت قد وصلت مؤخراً

وانتصر عليها فانسحبت الحامية إلى الداخل⁽⁸²⁾. ثم قرر سيد علي الرئيس مهاجمة هرمز بعد إبحاره من مسقط والتقى بالأسطول البرتغالي الكبير الذي كان قد وصل بالقرب من «خورفكان» - هي الآن من أجمل مدن دولة الإمارات العربية المتحدة على خليج عمان - فشن هجوما عنيفا على العثمانيين.

تقابل الأسطولان البرتغالي والعماني ودارت معركة حامية⁽⁸³⁾ وشرسة والتحم فيها الجانبان بالأيدي⁽⁸⁴⁾، ويمكن اعتبارها من أهم المعارك العثمانية البرتغالية في الخليج العربي. وكانت هذه المعركة من أكبر المعارك التي قاتل فيها البرتغاليون منذ أن حطموا قلاعهم في مياه الخليج العربي⁽⁸⁵⁾. ووصف «سيد علي الرئيس» في كتابه «مرآة الزمان» هذه المعركة بأنها كانت من أعنف المعارك البحرية التي خاضها الأسطول العثماني بل كانت أكبر من المعارك التي خاضها «خير الدين بربروس» في البحر المتوسط، وكان «سيد علي الرئيس» قد عمل معه فترة من الوقت، وسجل الأسطول العثماني بقيادة «سيد علي الرئيس» انتصارا كبيرا على البرتغاليين⁽⁸⁶⁾ برغم التفوق الكبير في حجم ونوع سفن الأسطول البرتغالي الذي بلغ عدد سفنه أكثر من خمسة وثلاثين سفينة في حين كان الأسطول العثماني خمسة عشرة سفينة وتم طرد الأسطول البرتغالي من مضيق «هرمز»⁽⁸⁷⁾ وتراجعته إلى قواعده في جزيرة «هرمز»، بينما توجه الأسطول العثماني بالقرب من «مسقط». وبعد انسحاب الأسطول البرتغالي لم يلبث أن أعيد اعداده وتجهيزه وتمكن «فيرناندو دي نورونها» من دخول المعركة للمرة الثانية ضد الأسطول العثماني⁽⁸⁸⁾، وحدث التصادم بالقرب من ساحل عمان بين الأسطول البرتغالي الذي تم تعزيزه بقطاعات بحرية جديدة وقوية وزاد عدده وأصبح يتكون من اثنين وأربعين سفينة مقابل الأسطول العثماني الصغير المكون من خمسة عشرة سفينة بعضها قد تعطلت وأصيبت في تلك المعركة ولم يتم اصلاحها نظرا لبعد قواعدها في البصرة أو السويس، ومع ذلك صمم القائد العثماني «سيد علي الرئيس» على مواجهة الأسطول البرتغالي الكبير وجرت معركة طاحنة تكبد الأسطولان خسائر فادحة في الأرواح والسفن، فتعطل بعضها وجنح البعض الآخر إلى ساحل الباطنة العماني واستقبل عرب عمان جموع العثمانيين الجرحى أو الذين وصلوا سباحة إلى الساحل بكل ترحاب وقدموا لهم كل عون ومساعدته وانتهت المعركة دون أن يظفر أحد بانتصار حاسم⁽⁸⁹⁾.

أراد «سيد على الرئيس» بعد تلك المعركة تجميع الأسطول العثماني للتوجه به إلى السويس، ولكن سوء الأحوال الجوية وشدة العواصف البحرية والرياح الموسمية العكسية التي هبت في الصيف غيرت اتجاه السفن العثمانية وجرتها إلى القارة الهندية، ولاقى الأسطول العثماني الأحوال الكبيرة في ذلك، ولكن «سيد على الرئيس» نجح واستطاع في آخر الأمر أن يقود الأسطول العثماني إلى ميناء «سورات» التابع لحاكم «كجرات» الهندي المسلم⁽⁹⁰⁾، حتى لا تتعرض السفن العثمانية للهجمات البرتغالية من قواعدها في «غوا» القريبة من سواحل مملكة «كجرات». فبلغت السفن مدينة «سورات» بعد مرور ثلاثة أشهر على إبحارها من «البصرة»، ونظرا لصعوبة عودة معظم البحارة وجنود الأسطول العثماني إلى ميناء السويس في مصر، فقرروا الالتحاق بخدمة سلطان «كجرات» المسلم والاستقرار في الهند، أما «سيد على الرئيس» فقد أبى عليه ولاؤه للدولة العثمانية وللسلطان سليمان القانوني وقرر العودة إلى الأستانة على الرغم من إلحاح سلطان «كجرات» عليه بالدخول في خدمته مقابل إغراءات كثيرة ومرتب ضخم، أما الأسطول العثماني الذي وصل إلى «سورات» فلم يكن قد تبقى من سفنه سوى بعض السفن بينما الباقي قد جنحت وتعطلت من المعركة، ولذلك قدم «سيد على» تلك السفن لحاكم «كجرات» على أن يدفع ثمنها فيما بعد للسلطان العثماني، وبعدها عاد «سيد على الرئيس» ومعه خمسون جنديا إلى الأستانة عن طريق البر عبر آسيا الوسطى حتى لا يقع أسيرا في أيدي السلطات الفارسية المعادية للعثمانيين، وفي 30 أبريل عام 1557 وصل «سيد على الرئيس» إلى الأستانة أي بعد مضي أكثر من عامين على مغادرته مملكة كجرات في الهند⁽⁹¹⁾.

فشل الهجوم البرتغالي على البصرة 1556

وطد البرتغاليون بعد خطة «سيد على الرئيس» عزمهم على إنهاء وجود العثمانيين في الخليج العربي، ولذا فإنهم أعدوا خطة بحرية كبيرة في عام 1556 واتجهوا بها إلى البصرة قاعدة العثمانيين البحرية، ومن سوء حظهم أن خططهم منيت بالفشل بسبب رداءة الأحوال الجوية التي صادفتها، إضافة إلى المقاومة العنيفة من العثمانيين ومن دفاعاتهم في البصرة، مما اضطرهم إلى الانسحاب والعودة إلى جزيرة هرمز دون تحقيق أهدافهم في الاستيلاء على البصرة⁽⁹²⁾.

رحلة سيد على والسيادة العثمانية على البحرين،

عندما خرج «سيد على الرئيس» من البصرة عام 1553 على رأس الأسطول العثماني لمحاربة البرتغاليين فإنه توجه إلى القطيف فسأل عن البرتغاليين فلم يعرف عن تواجدهم فعبر إلى البحرين وسأل حاكم البحرين «مراد رئيس» الذي أخبره بأن البرتغاليين ليسوا في البحر، وكان سيدى على الرئيس شاعرا وأديبا ومما كتبه عن رحلته إلى البحرين ما يلي⁽⁹³⁾:

«وصلت إلى مدينة القطيف الواقعة بالقرب من الحسا (الأحساء) وهناك وجدنا دليلا فسألناه عن العدو البرتغالي ولم تتمكن من الحصول على خبر بهذا الشأن فاجتزنا البحر إلى البحرين حيث التقينا بمراد رئيس (رئيس مراد) سألناه كذلك عن العدو فقال أيضا أن العدو ليس بالبحر، وفي البحرين وجدنا - ويا لها من حكمة عجيبة - الغواصين وكان واحد منهم يمسك بيده من رق بماء عذب من القاع، وكان هؤلاء الغواصون يأتون بالماء العذب إلى مراد رئيس دائما. وفي أيام الصيف يكون هذا الماء أكثر برودة من المياه الأخرى وأكثر عذوبة أيضا وحيث أنه كذلك فقد كان مراد رئيس يكثر الشرب منه. وقد أرسل مراد رئيس إلى هذا العبد (الكاتب سيدى على يقصد نفسه) من هذا الماء كنوع من مظاهر الاحترام، والحقيقة أن هذا الماء - كما يقول السكان جيد جدا وأن الآية الكريمة (مرج البحرين يلتقيان) بينهما برزخ لا يبغيان) إنما تتحدث عن هذا وهم يعتقدون أن هذا الماء هو سبب إطلاق هذا الاسم على هذا البلد».

أبلغ سيدى على رئيس حاكم البحرين مراد رئيس قرار السلطان العثماني الذي أصدره بالنسبة للحكام الموالين وهو أنه لا يحق لأى والٍ أو مسئول كبير من العثمانيين دون أخذ أمر من السلطان أن يقض بأى شكل من الأشكال مضاجع الدول التي تدخل تحت حماية الدولة العثمانية وأكد لحاكم البحرين أن علاقات الود والصداقة بين والى البحرين والدولة العثمانية ستستمر فى طريقها المعهود وأنه من الممكن لوالى البحرين التعايش الطيب مع الحكام العثمانيين فى المنطقة وأن السلطان يقظ لأى اعتداء برتغالى على سواحل البحرين وأن الديوان السلطانى سيقدم كل عون ممكن⁽⁹⁴⁾، ومن هذا يتضح بأن البحرين كانت موالية للدولة

العثمانية في هذا الفترة وأن حاكمها أصبح يتمتع باستقلال محدود كما جرى تبادل المراسلات بين حاكم البحرين والدولة العثمانية ومنح حاكم البحرين لقب «سنجق باد» في عام 1558، ولكن يبدو أن هذه العلاقة لم تستمر لفترة طويلة عندما قرر حاكم القطيف دخول البحرين، وبسبب تصرفه تعكرت العلاقات العثمانية مع البحرين.

هجوم والى الاحساء العثماني على البحرين،

توجه مصطفى باشا «بليربي الاحساء» في عام 1559 إلى شواطئ البحرين، ويبدو أن ذلك التصرف كان بدون علم السلطان العثماني، لمحاصرة المنامة ومعه عدد كبير من انكشارية بغداد⁽⁹⁵⁾، على رأس أسطول عثماني من البصرة وفيه سفيتان كبيرتان من نوع «غالليون» وسبعون سفينة ذات حجم صغير من نوع «صندل» بالمجاديف، وحاصر العثمانيون القلعة بألف ومئتي جندي مقاتل⁽⁹⁶⁾، وكان يحكم جزيرة البحرين رئيس مراد، وحين وصلت أخبار هذا الحصار إلى هرمز بادر البرتغاليون بإرسال قطع من أسطولهم للتصدي للعثمانيين⁽⁹⁷⁾، ووصل الأسطول البرتغالي تحت قيادة «سالفرودي سلفيرا» وحاصر الأسطول العثماني⁽⁹⁸⁾.

جمع مصطفى باشا قواده من ذوى الرأي واستشارهم فأشاروا عليه بحراسة جزيرة البحرين خشية الهجوم البرتغالي المفاجئ عليها حتى وصول الامدادات اللازمة من والى بغداد، وعندما شعر مصطفى باشا بأن الأمور لا تسير في صالحه فالبرتغاليون على وشك أن يحكموا حصارهم حوله والدولة الصفوية تسعدها أن يشتركوا في الإجهار على القائد العثماني، وحاكم البحرين يراقب الأمور وهو لا يستطيع أن ينسى أن مصطفى باشا دخل جزيرته رغم ولائه للسلطان وقرار السلطان العثماني له على جزيرة البحرين، ولهذا فإنه اتصل بحاكم البحرين «مراد الرئيس» عارضاً عليه أن يترك الجزيرة بشرط أن يقدم له السفن التي تنقله هو ورجاله ويدفع قيمة نقلها، ولكن حاكم البحرين رفض ذلك فانسحب مصطفى باشا بقواته إلى مكان بعيد عن الشاطئ في داخل الجزيرة لا تصل إليه قذائف السفن البرتغالية، وانتظروا ثمانية أيام وصل خلالها مدد من «بغداد» يتكون من ثلاثمائة فارس وأربعمائة مقاتل مسلح⁽⁹⁹⁾.

خرج الرئيس مراد حاكم البحرين من القلعة ومعه ثلاثمائة جندي وانضم إلى صفوف البرتغاليين وطاردهم الاثنان الجيش العثماني داخل الجزيرة، لكن العثمانيين نصبوا كمينا للبرتغاليين خلف النخيل وقتلوا عدداً كبيراً منهم بما فيهم القائد البرتغالي «الفارو دي سلفيرا»⁽¹⁰⁰⁾، كما انتصرت القوات العثمانية على قوات حاكم البحرين وأسرت معظم الجنود وقد غير ذلك سير المعركة لصالح العثمانيين، وبذلك تمكن العثمانيون من إلحاق خسائر جسيمة بأعدائهم إذ بلغ عدد القتلى سبعين قتيلًا⁽¹⁰¹⁾ إضافة إلى الأسرى. وبمساعدة النيران الموجهة من سفنهم حاصر البرتغاليون العثمانيين على الشاطئ⁽¹⁰²⁾، وبسبب نقص مؤن العثمانيين وذخيرتهم قرروا إنهاء هذا الصراع والدخول في مفاوضات مع البرتغاليين ولم تنجح المفاوضات وقال حاكم البحرين أن هذه الحملة هاجمت البحرين دون موافقة السلطان سليمان القانوني ودون علم أو أمره، فأجابته الوفد العثماني بأن السلطان باق على عهده وأن الحملة بالفعل لم تكن بأمره وهو يطلب المَعذرة⁽¹⁰³⁾ وفي النهاية اتفق الجانبان على أن يسلم العثمانيون ما لديهم من أسلحة ومعدات والأسرى والخيول وغرامة 10.000 دوكات إلى البرتغاليين⁽¹⁰⁴⁾، واكتفى السلطان سليمان بإصدار فرمان بمنح حاكم البحرين «رئيس مراد» لقب سنجق بيك على الرغم من النفوذ البرتغالي الذي كان واضحاً في الجزيرة⁽¹⁰⁵⁾.

يقول «محمد عدنان مراد» بأن البرتغاليين اصطدموا بالعثمانيين الذين حاولوا بدورهم إخضاع البحرين لسيطرتهم ونجحوا في بادئ الأمر، ولكن بعض السكان من الأصل الفارسي عاونوا شيخ هرمز والبرتغاليين مما أدى إلى انسحاب القوات العثمانية واستعادة الجزيرة للسيطرة البرتغالية⁽¹⁰⁶⁾.

فترة الهدوء 1560-1581:

توقفت الحملات العثمانية في هذه الفترة على مراكز وتجمعات البرتغاليين في الخليج العربي وانحسر النفوذ العثماني عن البحرين، إلا أنها ظلت مع ذلك تشكل منطقة عازلة بين الجانبين، فالعثمانيون في الإحساء والقطيف والبصرة، والبرتغاليون في جزيرة هرمز ومسقط، ويبدو أن البرتغاليين حاولوا مهادنة العثمانيين ويتضح ذلك عندما أوفد نائب الملك في الهند رسولا إلى الأستانة في

عام 1562، لعرض مشروع للسلام بين الدولتين، وهو المشروع الذى لم يكتب له النجاح والتنفيذ بسبب اصرار السلطان العثماني على كسر نظام الاحتكار البرتغالي وتأمين الطرق البرية والبحرية وحمايتها لصالح الرعايا والتجار التابعين للدولة العثمانية⁽¹⁰⁷⁾. ثم جرت محاولة ثانية عندما اتصل على باشا والى البصرة بالحاكم البرتغالي في هرمز بهدف استئناف العلاقات التجارية عبر الخليج العربي، ومن هذا المنطلق بعث البرتغاليون «انطونيو تكسيرا» في عام 1563 إلى الأستانة لمقابلة السلطان العثماني وإشعاره برغبة والى البصرة في إعادة العلاقات التجارية الحرة مع هرمز، وتقابل هذا المبعوث البرتغالي مع السلطان سليمان القانوني في الأستانة الذي أخبره على حد قول «سوسه»⁽¹⁰⁸⁾:

«بأنه (أي السلطان سليمان القانوني) لا يطلب السلام من أحد وإذا كان ملك البرتغال يحتاج إلى السلام فإنه ينبغي عليه أن يبعث رسولا كبيرا من حاشيته أو بلاطه إلى الأستانة لمناقشة الموضوع».

اضطر المبعوث البرتغالي إلى العودة إلى هرمز دون تحقيق أى تقدم، وبرغم فشل الاتصالات العثمانية - البرتغالية لتحسين العلاقات التجارية بينهما إلا أن حدة الصراع قد خفت، كما قلت حالة الصدام المسلح والمواجهة العنيفة بينهما في المياه الشرقية إلى حد كبير ولجأ كل من الطرفين العثماني والبرتغالي إلى المحافظة على مكتسباته الاقتصادية في المناطق الخاضعة له وتشجيع التجارة عبر تلك المناطق التي لم تكن تخلو من المناقشة بين الجانبين⁽¹⁰⁹⁾. وكان نائب الملك البرتغالي في الهند قد بعث في 1563/12/11 بتقرير مهم جدا إلى الملك البرتغالي «جوا الثالث» يقول فيه، بأنه كلف أحد أتباعه من البرتغاليين بمرافقة مبعوث البصرة خلال تنقلاته بين هرمز والهند والبصرة، بقصد التفاوض، والتقرير يتعلق بأوضاع مدينة البصرة الطبوغرافية وموقع المصب وبأسوار المدينة وتحصيناتها ومواقع أبوابها وبالقوة العسكرية المتوفرة لديها من الأسلحة والحامية والأسطول، وكذلك الأوضاع الاقتصادية من رفاهية سكانها ورواج تجارتها، وأن أهمية التقرير يرجع إلى أن محرره أرسل خصيصا لهذه الغاية، وكان عليه أن يجمع تلك المعلومات التي كانت تتعلق بمشروع هجوم برتغالي على المدينة لأنه أولى اهتماما خاصا لأماكن إنزال الجنود ونقط الضعف في التحصينات ووسائل الدفاع المتوفرة⁽¹¹⁰⁾.

يرجع توقف الصراع العثماني - البرتغالي في الخليج العربي ، بسبب انشغال الدولة العثمانية في صراعتها ضد الدولة الفارسية عندما أقدم الشاه «طهماسب» على التقدم إلى الأراضي العثمانية وبمجرد توقف هذه العمليات في عام 1575، جدد السلطان العثماني أوامره بفتح البحرين وطرد البرتغاليين منها، وأصدر فرماناً إلى والي العثماني في بغداد لاستطلاع الموقف بعد أن كتب والي الأحساء العثماني يطلب منه السماح له بفتح البحرين الذي سيضمن 400000 «فلوري» سنوياً، ولكن هذا المشروع توقف بعد أن تبين للدولة العثمانية أن هذا الدخل ليس وشيك الظهور، وإنه قد يقل عن النفقات والمصروفات المحلية⁽¹¹¹⁾، وبالتالي لا يغطي الميزانية ويكلف الخزينة أكثر مما قد تستفيد منه الدولة العثمانية ولو حتى من الناحية السياسية.

حملة علي بيك على مسقط 1581؛

لم تحاول الدولة العثمانية تجديد نشاطها في الخليج العربي بعد فترة الهدوء من عام 1560 إلا في عام 1581 عندما فقدت البرتغال استقلالها بعد الاحتلال الإسباني لأراضيها في عهد الملك فيلب الثاني التي استمر حوالي ستين عاماً⁽¹¹²⁾. وقد رت أهمية الاستفادة من هذه الفرصة. وجهز العثمانيون آخر حملة لإخراج البرتغاليين من مسقط عام 1581، حيث أعد والي اليمن «مرآة الزمان» وكان إيطاليا اعتنق الدين الإسلامي، حملة صغيرة وأسند قيادتها إلى علي بيك لاستعادة مسقط وكانت ذلك آخر حملة جهزها العثمانيون إلى الخليج العربي⁽¹¹³⁾.

اشتهر «علي بيك» كقائد بحري وأصاب الملاحة البرتغالية بأضرار جسيمة في المحيط الهندي⁽¹¹⁴⁾، وفي عام 1581 تمكن «علي بيك» من الاستيلاء على مسقط التي أبحر إليها في ثلاث سفن من ميناء «مخا» اليمنى⁽¹¹⁵⁾، وعندما وصل علي بيك إلى مسقط شن هجوماً مفاجئاً على البرتغاليين الذين لم يكونوا مستعدين إطلاقاً وسلط عليهم المدافع الثقيلة من البحر بينما الأهالي عرب عمان شاركوا في الهجوم على الحامية البرتغالية من البر⁽¹¹⁶⁾، مما أثار الفزع في صفوفهم ففر البعض إلى داخل البلاد والبعض الآخر استسلم وبذلك تحقق النصر وسلم العدو، إلا أن العثمانيين انسحبوا فجأة إلى عدن بسبب ما ترامي إلى أسماعهم من قدوم

أسطول برتغالي إلى الميناء، وكانت هذه المعركة آخر المعارك التي خاضها العثمانيون في صراعهم ضد البرتغاليين في مياه الخليج العربي في القرن السادس عشر (117). وبعد انسحاب القائد العثماني على بيك عاد البرتغاليون إلى مسقط ولكنهم وجدوا المدينة مدمرة ومنهوبة (118).

لم تكن لتلك العمليات التي قادها «على بيك» أية فائدة تذكر بالنسبة للعثمانيين بل على العكس من ذلك جعلت البرتغاليين ينظرون إلى ضرورة تعزيز قواتهم في مسقط وبناء التحصينات اللازمة لهم وتقويتها، واعتبر البرتغاليون سيطرة العثمانيين على مسقط بمثابة عار لحق بسلاحهم البحري مما اضطرت معه الحكومة الإسبانية التي كانت تشرف على المستعمرات البرتغالية في ذلك الحين إلى إصدار تعليماتها بتقوية التحصينات العسكرية وزيادتها وبناء قلعتين كبيرتين لا تزالان قائمتين إلى يومنا هذا تحيطان بخليج مسقط وتكسبه جواً من الغموض والرغبة، وعرفت هاتان القلعتان باسم قلعة «كابيتان» و«سان جوا» في حين تعرفان حالياً بقلعتي «الميراني» و«الجلالي» وترجع هذه التسمية إلى الفرس (119) الذين أطلقوا على هاتين القلعتين عندما دخلوا مسقط بطلب من الامام المخلوع «سيف بن سلطان الثاني» مساعدة «نادر شاه» لارجاعه إلى الحكم عن طريق القوات الفارسية بين عامي (1738-1741)، ولم تكن التركة التي خلفها الاستعمار المسيحي البرتغالي في مسقط مقتصرة على المباني العسكرية وإنما جاء البرتغاليون بروح التعصب الإرهابي الديني الصليبي المعروف لدى مبشريهم وقاموا ببناء ثلاث كنائس في مسقط ولا تزال الكنيسة الصغيرة أو المعبد الصغير الذي بناه البرتغاليون باقيا حتى الآن في قلعة «الميراني» أما الكنيستان الأخريان فمن المحتمل أنهما قد تهدمتا بفعل الزمان (120).

على بيك والصراع العثماني، البرتغالي في شرق أفريقيا،

لم يقتصر الصراع العثماني - البرتغالي على الخليج العربي بل امتد إلى بحر العرب وسواحل شرق أفريقيا، وإن جهود على بيك لم تقتصر على مدينة مسقط وإنما اتجه إلى مدن «مباسة» و«لامو» و«ملندي»، وكان البرتغاليون منذ بدء رحفهم على بحار الشرق قد استولوا على معظم موانئها، واتخذوا من الحصون والقلاع

التي أنشأوها مثل قلعة «موزمبيق» و «قلعة المسيح في ممباسا» كمحطات تمديد سفنهم الزاهية إلى الهند والآية بالمؤن والعتاد (121).

عندما وقعت البرتغال تحت قبضة الأسبان عام 1580، اغتتم سكان السواحل هذه الفرصة وثاروا عليهم وأخرجوهم من مدينة «ممباسا»، ورغم أن القائد البرتغالي «دالميدا» كان قد أحرق المدينة بعد قصفها بالقنابل عام 1505 إلا أن شيخها عاد إليها بعد انسحاب الأسطول المسيحي البرتغالي وشكل جيشا من العرب والافارقة وأعلن الثورة على البرتغال عام 1528، وطلب من سكان «رنجبار» و «مببا» بالتعاون معه، ولكنهم رفضوا وصادف مرور القائد البرتغالي «دي كونها» في طريقه إلى الهند مع «البوكيرك»، فهاجمت «ممباسا» من جديد واضطر سكانها للاستسلام وتعهد حاكمها بدفع الجزية وعدم الاتصال بالعثمانيين الذين كانوا قد سيطروا على عدن منذ عام 1538، وعندما سمع شيخها بتفشي الأوبئة في الجيش البرتغالي أخذ في التلکؤ في تنفيذ الاتفاقية مما جعل البرتغاليين يطلقوا النار على مدينة «ممباسا» وينهبوها ويدمروها مرة أخرى (122).

ظهر على بيك في هذه الأثناء بالاسطول العثماني عام 1585 أمام سواحل شرق أفريقيا، وكان على بيك من مجاهدي البحر وحارب في اسطول «خير الدين بربروس» في البحر المتوسط، وأدى ظهوره إلى رفع معنويات السكان الذين لاقوا الأمرين من الإرهاب المسيحي البرتغالي فأعلنوا ولاءهم للسلطان العثماني (123)، وحاول على بيك أن يعتمد على تأييد السكان المسلمين في شرق أفريقيا وشجعهم على القيام بالثورة ضد البرتغاليين والعمل على ضمهم إلى الدول العثمانية، وأخذ يطمئنهم بوصول أسطول عثماني كبير في الطريق إليهم، ونجح على بيك في فرض السيادة العثمانية على كثير من المقاطعات في شرق أفريقيا مثل «ممباسا» و «لامو» و «مقديشو» و «بات» ولكن الاسطول العثماني الكبير الذي وعد به لم يصل، وتقدم عوضا عنه اسطول برتغالي بقيادة «دي كونها» تمكن من قمع الثورات الناشئة (124). وعاد حاكم «ملندي» لخيانته وتعاون مع البرتغاليين ضد سكان شرق أفريقيا مما اضطرت الامارات والمشيخات الافريقية للتسليم بدفع الجزية والتبعية البرتغالية.

استنجد سكان شرق أفريقيا بعلي بيك الذي عاد إلى المنطقة عام 1588 على

رأس قوات كبيرة، وأخذ يحصن مدينة «مباسا» ويضع فيها الحامية العثمانية، وبينما يستعدون للدفاع عن مدينة «مباسا» ضد الاسطول البرتغالي القادم من البحر، فإذا بسكان «مباسا» والعثمانيين يفاجأون بخطر قادم من الداخل، عندما خرجت القبائل الافريقية المتوحشة من أكلة لحوم البشر من حوض نهر «الكنغو» الأعلى، واجتاحت شرق افريقيا وطافت «بموزمبيق» ونشرت الدمار والخراب في كل مكان وصلت إليه، كما أحاطت بمدينة «مباسا» الثائرة والسواحل القريبة منها، وتسمى هذه القبائل المتوحشة «بالوازمبا»، وبذلك وقعت المدينة بما فيها سكانها الافارقة والعرب والعثمانيين بين حصارين، الأول من البرتغاليين الذين وصلوا من الهند ويحاصرونهم من أمامهم في البحر بالأسطول الحربي، ومن الخلف القبائل الوحشية القادمة من أواسط غابات وأدغال افريقيا، وكان خطر هؤلاء أشد من البرتغاليين فحاولت الحامية العثمانية الهرب سباحة بما فيها القائد «على بك» ولكن البرتغاليين المحاصرين أسروهم وقتلوهم (125).

يقول د. جمال زكريا، بأن البرتغاليين نجحوا في القبض على «على بك» وأسره وإنه أرسل إلى «لشبونة» حيث أجبر على اعتناق المسيحية ومات هناك (126).

دخل البرتغاليون مدينة «مباسا» بعد حرقها وتهديمها على يد قبائل «الوازمبا» المتوحشة وتحطمت آمال مسلمي شرق افريقيا من عرب وسواحليين في التخلص من نير الإرهاب المسيحي البرتغالي، والمدينة الوحيدة التي كافحت وصمدت أمام الغزاة هي مدينة «مقديشو» بسبب قربها من المساعدات العربية، ولا تزال آثار لبعض المدن العربية باقية في غابات كينيا ويعتقد بأن سكانها هجروها خوفا من القبائل المتوحشة أو قتلوا عن بكرة أبيهم من قبل تلك القبائل أكلة لحوم البشر «الوازمبا» الذين يشكلون الآن اكثريه ساحقة لسكان شرق افريقيا بعدما تزاجوا مع العرب الحضارمة والشيرازيين وأصبح يطلق عليهم شعب افريقيا أو الشعب السواحلي بفرعها الشمالي ذى الاصل العربي الحضرمي والجنوبي الذين يدعون الانتماء إلى أسرة الحسن الشيرازي ويفتخرون بماضى دولة «الزنج» (127).

يمكن القول بأن العثمانيين خرجوا من الصراع البحري مع البرتغاليين في نهاية القرن السادس عشر، ولم يعد بمقدورهم ارسال حملات أخرى إلى الخليج

العربي أو المحيط الهندي للتصدي للنفوذ البرتغالي، ومع ذلك فقد ظل العثمانيون يتمتعون بنفوذ سياسي واسع في المنطقة العربية وبعض منافذها البحرية مثل البحر الأحمر، وأصبح هدفهم الأساسي هو تحقيق عوائد مادية واقتصادية، وهذا هو سبب تمسكهم بالمنطقة في الفترات التالية ومحاولة دفع أي خطر خارجي عنها⁽¹²⁸⁾. ولكنهم لم يفكروا في إعادة الكرة من جديد في الخليج العربي، وبذلك خرجت الدولة العثمانية عن سياستها التقليدية التي جعلت منها حامية العالم الإسلامي من الغزو البرتغالي والاسباني، سواء في الغرب أو الشرق، وبخروج العثمانيين من ساحة الصراع في الخليج العربي، أصبح على القوة العربية المحلية القيام بمسئوليتها في المنطقة، وظهرت قوة عربية اسلامية ناشئة وهي إمامة اليعاربة في عمان، لكي تنهض بالتعاون مع القبائل العربية في المنطقة لتحرير سواحلها من الإرهاب المسيحي البرتغالي، وهو الدور الذي لعبه عرب الخليج، مستغلين الظروف الداخلية التي كانت تمر بها الامبراطورية البرتغالية، ويقفون منها موقف التحدى ويشكلون عاملا مهما من عوامل انهيارها⁽¹²⁹⁾ ليس في الخليج العربي وإنما في شرق افريقيا أيضا، وان سقوط الدولة النبهانية وقيام الإمامة اليعربية في عمان كان يعنى الاطاحة بالنظام القديم وقيام نظام سياسي جديد في الخليج العربي، وخاصة إمامة اليعاربة التي أخذت على عاتقها الجهاد ومقاومة البرتغاليين وطردتهم من الخليج العربي وملاحقتهم في مستعمراتهم على سواحل ايران الجنوبية وشرق افريقيا وبذلك قامت الإمامة اليعربية.

تحليل الصراع العثماني، البرتغالي،

أولا: من الناحية السياسية:

عند تحليل الصراع العثماني - البرتغالي نتطرق أولا، إلى وجهة النظر الغربية وخاصة المؤرخ البريطاني «أرنولد توينبي» الذي يؤكد على ضعف القوة البحرية العثمانية في خلال النصف الأول من القرن السادس عشر بقوله⁽¹³⁰⁾:

«فشلت الهجمات البحرية العثمانية في الانتصار على الاساطيل البرتغالية سواء في غرب البحر المتوسط أو المحيط الهندي، ولو كانت تلك الهجمات ناجحة لأدت إلى قطع المواصلات البحرية بين البرتغال والهند». ثم يضيف إلى أن

«التقصير العثماني البحري أدى، من الناحية الاستراتيجية، إلى غلق العالم الإسلامي بواسطة الأمم الأطلسية، وهذه الأخيرة استخدمت فيما بعد تفوقها البحري في سبيل السيطرة السياسية على الأقطار الإسلامية».

أما الاستاذ «كارلوكيولا» الذي يقرر في مؤلفه المعنون «المدافع والمراكب الشراعية والامبراطوريات» بقوله⁽¹³¹⁾:

«إن ميزان القوى العالمية أصبح في صالح الغرب منذ القرن الخامس عشر عندما استغل الملاحون الأطلسيون البدع التكتيكية في فن الملاحة وصناعة المدافع كي ينشروا تفوقهم على المحيطات، في حين أن المجتمعات الآسيوية فشلت في الاستجابة للتحدي الأوربي لأن عوامل حضارية - اجتماعية قوية منعتها من تبني التكنولوجيا الغربية المتفوقة».

إننا نجد عند تحليل الصراع العثماني - البرتغالي، بأن الحملات العثمانية الأولى بدأت بأساطيل قوية وكبيرة بقيادة سليمان الخادم «بيري بك»، وكبدت البرتغاليين خسائر كبيرة⁽¹³²⁾، ولكنها لم تستمر أو تتطور بل العكس تراجعت وأصبحت الحملات العثمانية البحرية بعد «بيري بك» ضعيفة غير مؤثرة بل وأضعف من سابقتها، فالحملة الأولى على يد سليمان الخادم ضمت أكثر من ثلاثين سفينة ثم خمسة وعشرين سفينة بقيادة بيري بك ثم أصبحت خمسة عشرة في حملة مراد بك، وأخيرا حملة على بيك على مسقط عام 1581 كانت مؤلفة من ثلاثة سفن فقط، في حين كانت سفن الأسطول البرتغالي لا تقل عن ثلاثين سفينة ذات الأحجام الكبيرة والتسلح الجيد.

كف العثمانيون بعد حملة «بيري بك» عن إرسال حملات بحرية كبيرة، ولجأوا إلى الهجمات الخاطفة البحرية غير المستديمة وإلى الحملات البرية غير الجدية مما أدى ذلك إلى نمو القوة البحرية البرتغالية في المياة الجنوبية وفي تصاعد مستمر خلال الصراع ضد وقف المحاولات العثمانية لإنهاء الوجود البرتغالي في المنطقة⁽¹³³⁾. ولم يكن في مقدور العثمانيين أن يرسلوا حملات بحرية أخرى إلى الخليج العربي لإنهاء الوجود البرتغالي، لأن السلاح البحري العثماني كان قد توقف عن النمو منذ منتصف القرن السادس عشر تقريبا، وأصبح النشاط البحري

للدولة العثمانية محدودا في نطاق ضيق لا يتعدى سواحل اليمن والمناطق المجاورة للمدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وكان هدف الدولة العثمانية هو غلق البحر الأحمر في وجه الأسطول البرتغالي⁽¹³⁴⁾. أما بالنسبة للمؤرخين المسلمين المعاصرين ومن بينهم العثمانيين فيشيرون بوجهة نظرهم حول الصراع العثماني البرتغالي بأن الدولة العثمانية في القرن السادس عشر كانت قوية استطاعت المحافظة على العالم الإسلامي وطرق الحج والمدن المقدسة كما حمت الحدود الإسلامية من هجمات البرتغاليين والاستعمار الإرهابي المسيحي الأوربي بواسطة سفنها الساحلية من نوع «الغاليون»⁽¹³⁵⁾. وفيما يلي سوف نورد بعض الآراء للمؤرخين العرب في هذا الشأن فيقول د. جلال يحيى⁽¹³⁶⁾:

كانت الدولة العثمانية منذ أن تولى السلطان القانوني أمور السلطنة قد ورث منها مشكلات الأقاليم التي كان والده السلطان سليم قد فتحها، ومع السيطرة على الشام ومصر ورثت الدولة العثمانية مشكلات التجارة العالمية بين الشرق والغرب ومشكلات تجارة التوابل والبهارات، ووصول البرتغاليين إلى مياة الهند، وكان على السلطان سليمان القانوني أن يواجه الموقف ويواجه غزو البرتغاليين الذين كانوا قد التفوا حول العالم الإسلامي من الجنوب ووصلوا إلى المحيط الهندي ثم أخذوا يهددون بالتدخل في الخليج العربي والتدخل كذلك في البحر الأحمر من الهجوم والضغط من الخلف في المشرق الإسلامي ولأول مرة في تاريخ المنطقة.

أما الدكتور صلاح العقاد فيقول⁽¹³⁷⁾:

حاولت الدولة العثمانية الدفاع عن العالم الإسلامي في هذه الأرجاء وكان لدى الباب العالي الرغبة لتحقيق هذا الدور لابعاد الغزو البرتغالي من الخليج العربي على نسق الدور الذي لعبته الدولة العثمانية في وجه الغزو الإسباني لحوض البحر المتوسط، وفي هذه الفترة يبدو أن شواطئ الخليج العربي كانت خلوا من أي تنظيم سياسي يشبه الدولة ما عدا عمان، فقد كانت منذ عهد بعيد أكثر ازدحاما بالسكان وأقرب إلى المجتمعات الحضرية، وساعد على هذا التنظيم النسبي وجود المذهب الإباضي الذي اشتهر بنظام الإمامة على أساس البيعة لا التوارث.

أما المؤرخ والسياسي محمد عدنان مراد فيقول (138):

«لم تكن محاولات العثمانيين للدفاع عن المنطقة جدية مستمرة لكي تعطى النتائج الإيجابية بسبب بعد المنطقة عنهم وانشغالهم بحروب داخل القارة الأوربية، وعدم تفكيرهم بالامتداد في بلاد لا تقدم لهم الجزية. والواقع أن الاستراتيجية العثمانية، إن صح أن يقال عنها استراتيجية، كانت قصيرة النظر، فكان الأولى للعثمانيين عوضاً عن التوجه إلى أوربا واستنفاد قوتهم في بلاد تفوقهم حضارة وذات تاريخ قتالي عريق، التوجه نحو الشرق وأفريقيا وإعادة الامبراطورية الإسلامية إلى وحدتها والامتداد في أفريقية وكان بالامكان جعلها في ذلك الوقت جميعها مسلمة».

ثانياً: من الناحية الاقتصادية:

رغم السيطرة البرتغالية على المياه الشرقية فإن سيطرة العثمانيين على البحر الأحمر قد مكنت السلطان سليمان القانوني من استعادة قسط كبير من التجارة الدولية القديمة عبر مصر والشام في الوقت الذي كانت تعوز فيه للبرتغاليين القوة البحرية اللازمة لاحكام حصار الطرق القديمة (139).

حاول البرتغاليون في منتصف القرن السادس عشر منع التجارة المتجهة إلى البصرة، وفي رسالة مؤرخة في 1550/11/24 من قاضي هرمز إلى الملك البرتغالي يخبره فيها بأن نائب الملك بالهند منع جميع التجار مهما كانت جنسيتهم، أن يلتحقوا بالبصرة وهدد من فعل ذلك بالعقاب الشديد والأسر، كما جدد القبطان الحالي نفس العمل الذي أعلن حالة الحصار ضد البصرة ومقاطعتها تجارياً، ولكن هذه المقاطعة لم تعط نتائجها لاستمرار التجار في الإقبال على البصرة من البحرين (140). مع هذا الاحتكار الاقتصادي للبرتغاليين وما بذلوه من جهد في هذا السبيل لقطع الطرق التجارية التي تربط الهند واندونيسيا بالخليج العربي والبحر الأحمر فإنهم لم ينجحوا، واستمرت الاقاليم العثمانية تسلم التوابل والبهارات بصورة مباشرة من الهند واندونيسيا أثناء القرن السادس عشر رغم وجود بعض النقص في كمية البهارات أحياناً، ولكنها لم تنقطع واستمرت عمليات تبادل البضائع الهندية مع التجار الأوربيين في أسواق حلب والقاهرة

والأستانة وبورصة، وكمثال على استمرار التبادل التجارى مع الشرق الإسلامى نجد فى عام 1554، اشترى البندقيون وحدهم ستة آلاف قنطار (القنطار يساوى 100 كجم) من البهارات فى الاسكندرية، ولو نظرنا إلى مشتريات البندقيين السنوية والبالغة 12 ألف قنطار فى الفترة من 1560 - 1564، نجدها هى نفس الكمية تقريبا التى كانوا يشترونها قبل تغير الطريق التجارى من قبل البرتغاليين⁽¹⁴¹⁾.

بدأت الحركة التجارية السابقة تعود من جديد إلى الظهور عبر البحر الأحمر والخليج العربى، وأصبحت الأسواق فى مصر والشام مزدهرة من جديد حتى إن الاسكندرية حصلت عام 1564 تقريبا على شحنات من الفلفل تساوى أو ربما تزيد على حجم تلك الشحنات التى كانت تصل من هذه السلعة إلى «الشبونة» عاصمة البرتغال نفسها⁽¹⁴²⁾، كما استمرت البضائع تصل إلى ميناء «جدة» فى كل عام بحوالى عشرين سفينة محملة بالبضائع الهندية والإندونيسية، وكان الحجاج العائدون إلى الأقاليم العثمانية يحملون معهم تلك البضائع من البهارات والأنسجة والأصباغ الهندية، وفى عام 1562 ارتفعت قيمة الضرائب الجمركية فى دمشق على البهارات القادمة مع قوافل الحجاج إلى عشرة آلاف دوقية ذهبية (دوقية تساوى حوالى دولارين و 25 سنتا) بينما استمر وصول البضائع الشرقية عبر الخليج العربى فى نفس الوقت، ويقول أحد الرحالة البريطانيين «ج. الديرى» الذى زار البصرة عام 1583 بقوله ما يلى⁽¹⁴³⁾:

«تصل شهريا إلى ميناء البصرة سفن مختلفة من «هرمز» محملة بجميع أنواع البضائع الهندية كالتوابل والأدوية وصبغة النيل والمنسوجات».

يقول المؤرخ عبدالقادر عبدالله العيدروس الذى عاصر تلك الفترة من القرن السادس عشر وذكر فى كتابه «النور السافر» بأن التجارة كانت عامرة ومزدهرة فى «سوارت» التى هى من أهم موانئ مملكة كجرات الإسلامية فى الهند وكانت تجارتها مستمرة مع مصر والمدن العربية الأخرى حيث يقول⁽¹⁴⁴⁾:

«بأن «سوارت» فى أيامه السعيدة كانت طافحة بالمشايخ . . مملوءة بأعيان التجار . . وكانت عامرة أشد العمارة يجلب إليها سائر البضائع والنفائس للتجارة وكان يسافر فيها عدد من المراكب والسفن إلى سائر النواحي كمصر وغيرها من المدن».

ازدهرت مدينة حلب التي كانت في تلك الفترة من أهم مراكز القوافل التجارية التي تأتي من العراق وفارس، وأصبحت أسواق مصر والشام من أكبر أسواق العطار والحريز في شرق البحر المتوسط، وكان التوازن دقيقاً بين الحركة التجارية القديمة والحالية ولو أن التوازن كان يميل في نهاية الأمر وبطريقة لا رجعة فيها في صالح الطريق الجديد⁽¹⁴⁵⁾ حول رأس الرجاء الصالح ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد نهاية النفوذ البرتغالي في القرن السابع عشر.

أسباب إخفاق العثمانيين في إبعاد البرتغاليين من الخليج العربي؛

نتناول بعض الأسباب التي أدت إلى فشل المحاولات العثمانية في إبعاد البرتغاليين من المياه العربية. ومن هذه الأسباب ما يلي:

أولاً: طبيعة الحملات البحرية:

ترجع طبيعة الحملات البحرية بالتأكيد إلى طبيعة الحروب الصليبية التي دفعت بالشرق إلى التفوق البري وبالغرب الأوربي إلى التفوق البحري، وكان اعتماد الحملات الصليبية الأوربية إلى الشرق على السفن مما زاد مران الملاحين الأوربيين الذين عرفوا أساليب أعداد الأساطيل والحملات البحرية الطويلة التي تحملهم لمسافات كبيرة، وكان اعتمادهم الرئيسي على الأساطيل في مهاجمة موانئ المسلمين في المشرق، وقلة ما نجد حملة صليبية لا يرافقها أسطول «جنوى» أو «بندقى» ويساهم في الحروب والغنائم⁽¹⁴⁶⁾. وهذا ما جعل الغرب المسيحي الأوربي يكسبون خبرة واسعة في أساليب الحرب البحرية، وعندما خفت الملاحية في الشرق وقلت سفنه وأغلقت ثغوره، وعرف الغرب موضع الضعف في الشرق الإسلامي في هذه الناحية، فصار يهاجمه من البحار ويحصره في المياه إذا أراد أن يصيب منه مغنماً لا يصيبه في البر، ونجد أوربا كلها تخاف من اجتياح العثمانيين الذين يغزون قلب أوربا حتى يحاصرون أسوار «فيينا»، فلا يجد الأوربيون سبيلاً لردهم إلا إجبار الدولة العثمانية بالدخول في حرب بحرية تتجلى عن هزيمة للأسطول العثماني في معركة «ليانتو» عام 1571 في عهد سليمان القانوني، أي في أوج التفوق الإسلامي البري⁽¹⁴⁷⁾.

ثانيا: السفن الحربية:

خاض العثمانيون حربا محيطية غير تلك الحروب البحرية التي تعودت عليها أساطيلهم في البحر المتوسط أو في البحر الأسود⁽¹⁴⁸⁾. وبذلت الدولة العثمانية مجهودات كبيرة في البحر الأحمر والخليج العربي من أجل الاحتفاظ بأسطول قوى يمكنه مقاومة البرتغاليين، وهذا كان يتطلب من العثمانيين القيام بنفقات كبيرة في الرجال والمعدات، وكان عليهم احضار المخزونات والمعدات والمدافع والأخشاب عبر البر إلى السويس أو إلى مواقع أخرى عبر أنهار العراق حتى البصرة، وأن طريقة صناعة السفن من الانشاءات والبناء المستخدمة في البحر المتوسط لا تصلح في المياه العربية القريبة من المياه العميقة في المحيط الهندي، ولذلك فإن الأمر كان يتطلب العثور على فنيين وبحارة وبالمهارة والكفاءة العالية من أجل بناء وتسيير السفن من هذا الطراز المعدل لمجاراة السفن البرتغالية ذات التقنية العالية، ورغم تلك الصعوبات فإنهم واجهوا صعوبات أخرى مثل قلة الموانئ الصالحة في الخليج العربي والبحر الأحمر، ومع ذلك فإن العثمانيين تمكنوا من الوصول إلى حد كبير من النجاح، وحتى نهاية النصف الثاني من القرن السادس عشر لم يكن البرتغاليون على درجة من القوة تسمح لهم بالحصول على التفوق الكامل ليس فقط في الخليج العربي وإنما في المحيط الهندي⁽¹⁴⁹⁾.

رغم التجهيزات الفلكية المتقدمة للسفن العثمانية، إلا أن التفوق كان واضحا في الصناعة البحرية وأن صناعة السفن البرتغالية كانت في تطوير مستمر فاق تطور صناعة السفن العثمانية خاصة السفن المعروفة باسم «كرافيل» التي جهزت فيما بعد بالمدافع وكثافة النيران وازدادت سرعتها بعد تجهيزها بالأشعة المثلية التي أخذوها من السفن العربية واستطاعت الإبحار في البحار العالية وفي المحيط⁽¹⁵⁰⁾. وأن طبيعة بناء الأسطول البرتغالي كانت هي الأنسب لمعارك فيما وراء البحار، كما كانت قدرات الأسطول البرتغالي البقاء بصفة مستمرة ما وراء البحار بعيدا عن بلادهم برتغال، كانت لا تبارى من جانب الأسطول العثماني⁽¹⁵¹⁾. في حين كان الأسطول العثماني مؤلفا من سفن صغيرة من نوع «غاليون» غير قادر على التأثير الفعال ضد السفن المحيطية الكبيرة، وخاصة في عرض البحار، وقد أشار «السير

توماس شيرلى» عام 1607 على سبيل المثال⁽¹⁵²⁾. «إن سفينة حربية بريطانية واحدة باستطاعتها نحر عشرين سفينة عثمانية صغيرة (غالليون)».

ثالثا: الإمدادات والتجهيزات:

ما يسترعى انتباه المؤرخين هو سرعة تجهيز الحملات البرتغالية وإدامة المعركة، فلم تكد يخرج أسطول إلى بحار الشرق إلا ويلحق به أسطول آخر بكامل تجهيزاته وعتاده، وكان التنسيق تاما بين تلك الأساطيل والتوقيت دقيقا، ولهذا فإن البرتغاليين لم يكونوا يستسلمون فى حصار ما، ويدافعون أطول مدة ممكنة وهم يعلمون بأن النجدة سوف تصلهم منذ خروجهم من البرتغال ويعرفون عددها ومن هم قادتها، مما كان عاملا مهما فى رفع معنوياتهم القتالية ويجعلهم يصبرون على الحصار ويدافعون الدفاع المستميت بأمل وصول النجدة، إضافة إلى توفير القيادات المدربة والعناصر الشابة خاصة من طبقة النبلاء الذين كانوا يفضلون القيام بالمغامرات البحرية البعيدة عوضا عن البقاء تحت ظلم الملك⁽¹⁵³⁾. فى الوقت الذى كانت قطع الأسطول البرتغالى تتوافد على المحيط الهندى عن طريق رأس الرجاء الصالح الطويل، كان العثمانيون يبنون أسطولا لكل حملة فى السويس الأقرب إلى ذلك المحيط⁽¹⁵⁴⁾، يضاف إلى ذلك صعوبة تجهيز وإدامة الأسطول العثمانى لكى تكفى قواته لمواجهة الأساطيل الأوربية فى البحر المتوسط والمحيط الهندى فى وقت واحد، إضافة إلى انشغال العثمانيين فى نفس الفترة بالحروب البرية الطويلة ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة وضد الإمبراطورية الفارسية الصفوية⁽¹⁵⁵⁾. ومن الواضح أن العثمانيين تداركوا دلالات الثورة المحيطية منذ تولى السلطان سليم الأول، وفى عهد خلفه السلطان سليمان القانونى وجدوا أنفسهم وقد دخلوا فى صراع عالمى مع القوة الألمانية - الأيبيرية التى سيطرت على أواسط أوربا وغربها، وبدأت تنعم بموارد الطرق المحيطية الجديدة والمستعمرات⁽¹⁵⁶⁾.

رابعا: اختلاف مفهوم الدفاع:

اختلف مفهوم الدفاع والقتال بين الجانبين، ففي الوقت الذى كان البرتغاليون يعتبرون الدفاع عن مراكزهم فى الخليج العربى كدفاع عن ذاتهم ويعتبرونها أحد أهم المراكز الرئيسية أو ربما كان أكبر مركز لهم فى المحيط الهندى، ولذا فإن

دفاعهم يختلف اختلافا كليا من ناحية الحماس والتصميم إذا ما تركنا الجانب الدينى والتعصب الصليبي، بينما كان دفاع العثمانيين الذين يعتبرون المنطقة طرفا بعيدا من أطراف دولتهم فى قتالهم على قواد غرباء عن المنطقة وجنود متطوعين لم يكن هدفهم سوى جمع الغنائم⁽¹⁵⁷⁾.

خامسا: عدم مشاركة عرب المنطقة:

هناك عدة آراء حول مشاركة أو عدم مشاركة القوة العربية المحلية وتعاونها مع الدولة العثمانية، ومن الآراء التى تقول إن القوة العربية كان موقفها سلبيا ولم تتعاون مع الحملات العثمانية، يقول د. عبدالعزيز نوار⁽¹⁵⁸⁾.

«إن هذا الضعف فى المياه الجنوبية الإسلامية يرجع فى الواقع إلى أن قوى اليمن والخليج العربى والهند لم تكن على استعداد لتعاون كامل منسق مع الحملات العثمانية، فضلا عن أن معظم تلك القوى وضعت مصالحها الخاصة فوق المصالح العامة».

يقول أحمد عبدالرحيم مصطفى⁽¹⁵⁹⁾:

«كان رد زعماء القبائل العربية فى منطقة الخليج العربى على التوسع العثمانى هو التعاون مع البرتغاليين الذين بنوا قلعة فى كل من مسقط وهرمز وزودوها بالحاميات ثم نزلوا فى القطيف بهدف عرقلة تحويل البصرة إلى قاعدة بحرية عثمانية».

يعلل د. محمود الداود على عدم تعاون أبناء المنطقة بقوله⁽¹⁶⁰⁾.

«إن أهالى مسقط وهرمز من المسلمين لم يتعاونوا مع العثمانيين رغم أنهم كانوا حماة العالم الإسلامى واعتبروهم محتلين جددا، لا يقلون طمعا عن البرتغاليين الذين حرموا العرب من مصدر ثروتهم وهى التجارة».

ويقول «تشارلز بلغريف» الضابط البريطانى بأن أبناء المنطقة تعاونوا مع العثمانيين حيث يقول⁽¹⁶¹⁾:

«إن العرب كانوا ينظرون إلى البرتغاليين بأنهم كفار ولا يجوز التعاون معهم وانضموا إلى العثمانيين المسلمين» فى حين يقول محمد عدنان مراد بأن العثمانيين لم يقدموا المساعدة اللازمة لأبناء المنطقة أو يمدوهم بالسلاح حيث يقول⁽¹⁶²⁾:

«ولم يحاولوا الاعتماد على السكان المحليين أو يمدوهم بالمال والسلاح وكان باستطاعة هؤلاء لوحدهم اخراج البرتغاليين ولكن العثمانيين كانوا يخافون من تسليح السكان أكثر من خوفهم من الاحتلال البرتغالي».

أما د. صلاح العقاد فيقول بأن البحارة العثمانيين لم يحاولوا إقامة حكم مستقر بعد طرد البرتغاليين من مراكزهم وأن العرب فيما بعد استطاعوا طرد البرتغاليين من الخليج العربي حيث يقول (163):

«ولكن مثل هؤلاء البحارة لا يكلفون أنفسهم عناء الحكم المستقر. وهكذا قيض للدول والشعوب التي هي أكثر التصاقاً بمنطقة الخليج أن تقوم بمهمة تحرير بلادها من الغزو البرتغالي. وقد بدأت بذلك الدولة الصفوية ثم تبعها عرب عمان مع ملاحظة أن الفرس استعانوا بالانجليز وبالقبايل العربية النازلة على الشاطئ الشرقي، بينما اعتمد العرب على أنفسهم في النضال ضد الغزاة».

الخلاصة:

يتضح من خلال تلك الدراسة أن الدولة العثمانية وخاصة السلطان سليمان القانوني كان قد بذل جهداً كبيراً في إبعاد النفوذ الإرهابي المسيحي البرتغالي من مياه الخليج العربي عن طريق أسطوله، الذي كان دائماً محل رعايته واهتمامه رغم اخفاقه، ومع ذلك لا يمكننا أن نحمل هذا الاخفاق للأسطول العثماني أو السلطان سليمان القانوني، ولكن للظروف الدولية وخاصة مجابهة الدولة العثمانية بمفردها للقوة الأوربية في جبهات القتال في قلب أوروبا نفسها والانتصارات التي حققتها على تلك القوة الأوربية التي فتحت جبهة جديدة بالمواجهة البحرية وخاصة في الشرق الإسلامي، ولعلمها بأن القوة العثمانية قوة برية أكثر منها بحرية، والتفوق البحري الأوربي كان واضحاً منذ الحملات الصليبية وحتى عصر الاكتشافات البحرية. ومع ذلك فإن الدولة العثمانية بذلت أقصى جهدها لمجابهة الإرهاب المسيحي البرتغالي في المنطقة، ورغم اخفاقها في اخراج البرتغاليين من الخليج العربي، إلا أن الدولة العثمانية استطاعت أن تحافظ على الوطن العربي والعالم الإسلامي وخاصة الديار المقدسة في الحجاز وفلسطين من عبث الإرهاب المسيحي الأوربي، وهذا في حد ذاته يعتبر في نظرنا انتصاراً كبيراً للدولة العثمانية. كما لا ننسى أنها كانت مشغولة دائماً في جبهات القتال في أوروبا التي كانت تسمى «دار حرب».

الهوامش:

- (1) Sidney Nettleton Fisher - The Middle East P. 191.
- (2) د. عبدالعزيز محمد الشناوى - بحوث مؤتمر شرق الجزيرة، ص 687.
- (3) د. صلاح العقاد - التيارات السياسية فى الخليج العربى ج2.
- (4) أرنولد. ت: ويلسون - تاريخ الخليج ص83.
- (5) د. صلاح العقاد - المرجع السابق ص5.
- (6) عائشة السيار - دولة اليعاربة ص 285.
- (7) د. جمال زكريا قاسم - الخليج العربى فى عصر التوسع الأوروبى الأول ص85.
- (8) د. مصطفى عبدالقادر النجار - مجلة دراسات تاريخية ص98.
- (9) د. مصطفى عبدالقادر النجار - نفس المرجع ص98.
- (10) مصطفى خطيب عقيل - التنافس الدولى فى الخليج العربى ص33.
- (11) د. صلاح العقاد - المرجع السابق ص20.
- (12) د. عبدالعزيز محمد الشناوى - المرجع السابق ص683.
- (13) مصطفى خطيب عقيل - المرجع السابق ص33.
- (14) د. عبدالعزيز سليمان نوار - الشعوب الإسلامية ص142.
- (15) ج . ج . لوريمر - دليل الخليج ج1 ص 16.
- (16) د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص86.
- (17) مجلة الوثيقة - مقالة عن البحرين ص116.
- (18) د. عبدالأمير محمد أمين - المصالح البريطانية فى الخليج العربى ص 133.
- (19) ج . ج . لوريمر - المرجع السابق ص17.
- (20) محمد عدنان مراد - صراع القوى ص 141.
- (21) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص86.
- (22) د. عبدالعزيز الشناوى - المرجع السابق ص683.
- (23) د. عبدالعزيز الشناوى - نفس المرجع ص 684.

- (24) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 86.
- (25) د. جمال زكريا - نفس المرجع ص 87.
- (26) مصطفى عقيل خطيب - المرجع السابق ص 38.
- (27) مجلة الوثيقة - المرجع السابق ص 141.
- (28) مصطفى عقيل خطيب - المرجع السابق ص 75.
- (29) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 143.
- (30) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 78.
- (31) د. عبدالعزيز الشناوى - المرجع السابق ص 684.
- (32) مجلة الوثيقة - المرجع السابق ص 141.
- (33) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 143.
- (34) أحمد عبدالرحيم - فى أصول التاريخ العثمانى ص 98.
- (35) مجلة الوثيقة - المرجع السابق ص 141.
- (36) فالح حنظل - المفصل فى تاريخ الإمارات العربية المتحدة ص 49.
- (37) د. عبدالوهاب القيسى - مجلة الخليج العربى لعام 1980 عدد (6) ص 49.
- (38) أحمد عبدالرحيم - المرجع السابق ص 98.
- (39) د. عبدالوهاب القيسى - المرجع السابق ص 49.
- (40) HADRAMI CHRONICLES - BY R . B . Serjeant. P. 109.
- (41) HADRAMI CHRONICLES - Ibid P. 109.
- (42) مصطفى عقيل خطيب - المرجع السابق ص 34.
- (43) أرنولد ويلسون - المرجع السابق ص 83.
- (44) مصطفى عقيل خطيب - المرجع السابق ص 35.
- (45) مجلة الوثيقة - المرجع السابق ص 141.
- (46) مصطفى عقيل خطيب - المرجع السابق ص 35.
- (47) Sir Charles Belgrave: - The Pirate Coast P. 8.

- (48) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 82.
- (49) أرنولد ويلسون - المرجع السابق ص 83.
- (50) مصطفى عقيل خطيب - المرجع السابق ص 35.
- (51) أرنولد ويلسون - المرجع السابق ص 84.
- (52) مصطفى عقيل خطيب - المرجع السابق ص 36.
- (53) أرنولد ويلسون - المرجع السابق ص 84.
- (54) مصطفى عقيل خطيب - المرجع السابق ص 36.
- (55) د. عبدالوهاب القيسى - المرجع السابق ص 49.
- (56) مجلة الوثيقة - المرجع السابق ص 142.
- (57) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 87.
- (58) فالح حنظل - المرجع السابق ص 87.
- (59) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 143.
- (60) د. عبدالعزيز الشناوى - المرجع السابق ص 687.
- (61) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 143.
- (62) Sir Charles Belgrave - O. P. ict P. 8.
- (63) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 88.
- (64) د. جمال زكريا - نفس المرجع ص 88.
- (65) د. عبدالعزيز الشناوى - المرجع السابق ص 684.
- (66) مصطفى عقيل خطيب - المرجع السابق ص 35.
- (67) د. عبدالوهاب القيسى - المرجع السابق ص 49.
- (68) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 143.
- (69) د. بدر خصوصى - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربى - العدد 44 ص 149.
- (70) د. عبدالعزيز الشناوى - المرجع السابق ص 685.
- (71) د. طارق الحمدانى - مركز دراسات الخليج العربى، جامعة البصرة - دراسات فى تاريخ الخليج العربى ص 33.

- (72) د. بدر الخصوصى - دراسات فى الخليج العربى ص 26.
- (73) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 89.
- (74) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 143.
- (75) د. طارق الحمدانى - المرجع السابق ص 194.
- (76) مجلة الوثيقة - المرجع السابق ص 142.
- (77) د. عبدالوهاب القيسى - المرجع السابق ص 49.
- (78) أحمد عبدالرحيم - المرجع السابق ص 99.
- (79) أحمد عبدالرحيم - المرجع السابق ص 99.
- (80) مجلة الوثيقة - المرجع السابق ص 142.
- (81) د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص 76.
- (82) مصطفى عقيل خطيب - المرجع السابق ص 38.
- (83) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 79.
- (84) د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص 26.
- (85) مصطفى عقيل الخطيب - المرجع السابق ص 38.
- (86) د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص 89.
- (87) نونو - بى - سلفا - مجلة الوثيقة عام 1986، العدد (8) - ص 129.
- (88) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 89.
- (89) د. عبدالعزيز الشناوى - المرجع السابق ص 686.
- (90) د. عبدالعزيز الشناوى - نفس المرجع ص 696.
- (91) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 89.
- (92) مصطفى عقيل الخطيب - المرجع السابق ص 38.
- (93) مجلة الوثيقة - المرجع السابق - وانظر مرآة الممالك ص 37 و ص 38 الطبعة التركية، إسطنبول 1313هـ.
- (94) مجلة الوثيقة - المرجع السابق ص 143.

- (95) د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص 89.
- (96) نونو - بي - سلفا - المرجع السابق ص 139.
- (97) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 89.
- (98) نونو - بي - سلفا - المرجع السابق ص 129.
- (99) مجلة الوثيقة - المرجع السابق ص 146.
- (100) نونو - بي - سلفا - المرجع السابق ص 130.
- (101) مصطفى عقيل الخطيب - المرجع السابق ص 38.
- (102) نونو - بي - سلفا - المرجع السابق ص 130.
- (103) مجلة الوثيقة - المرجع السابق ص 149.
- (104) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 143.
- (105) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 89.
- (106) محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص 141.
- (107) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 90.
- (108) د. طارق الحمداني - المرجع السابق ص 198.
- (109) د. طارق الحمداني - نفس المرجع ص 198.
- (110) د. أحمد بوشرب - مجلة الخليج العربي - عام 1984، العدد (1) ص 38.
- (111) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 143.
- (112) Sir Charles Belgrave - OP. Cit. P. 8.
- (113) مصطفى عقيل الخطيب - المرجع السابق ص 39.
- (114) د. صلاح العقاد - المرجع السابق ص 21.
- (115) عائشة السيار - المرجع السابق ص 21.
- (116) مصطفى عقيل الخطيب - المرجع السابق ص 39.
- (117) مصطفى عقيل الخطيب - نفس المرجع ص 39.
- (118) أرنولد ويلسون - المرجع السابق ص 85.

- (119) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 91.
- (120) د. جمال زكريا - نفس المرجع ص 91.
- (121) د. جمال زكريا - نفس المرجع ص 91.
- (122) محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص 142.
- (123) محمد عدنان مراد - نفس المرجع ص 142.
- (124) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 92.
- (125) محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص 142.
- (126) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 92.
- (127) محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص 144.
- (128) د. طارق الحمداني - المرجع السابق ص 194.
- (129) د. جمال زكريا - المرجع السابق ص 92.
- (130) د. عبدالوهاب القيسي - المرجع السابق ص 50.
- (131) د. عبدالوهاب القيسي - نفس المرجع ص 50.
- (132) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 144.
- (133) د. عبدالعزيز نوار - نفس المرجع ص 144.
- (134) د. عبدالعزيز الشناوي - المرجع السابق ص 687.
- (135) د. عبدالوهاب القيسي - المرجع السابق ص 50.
- (136) د. جلال يحيى - العالم الإسلامى الحديث والمعاصر ص 197.
- (137) د. صلاح العقاد - المرجع السابق ص 13.
- (138) محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص 144.
- (139) أحمد عبدالرحيم مصطفى - المرجع السابق ص 99.
- (140) د. أحمد بوشرب - المرجع السابق ص 38.
- (141) د. عبدالوهاب القيسي - المرجع السابق ص 50.
- (142) د. جلال يحيى - المرجع السابق ص 405.

- (143) د. عبدالوهاب القيسى - المرجع السابق ص 50.
- (144) عبدالقادر بن عبدالله العيدروس - النور السافر ص 272.
- (145) د. جلال يحيى - المرجع السابق ص 405.
- (146) حسين مؤنس - الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ص 43.
- (147) حسين مؤنس - نفس المرجع ص 43.
- (148) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 144.
- (149) د. جلال يحيى - المرجع السابق ص 405.
- (150) محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص 133.
- (151) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 145.
- (152) د. عبدالوهاب القيسى - المرجع السابق ص 49.
- (153) محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص 134.
- (154) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 145.
- (155) د. عبدالوهاب القيسى - المرجع السابق ص 49.
- (156) أحمد عبدالرحيم مصطفى - المرجع السابق ص 99.
- (157) محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص 142.
- (158) د. عبدالعزيز نوار - المرجع السابق ص 124.
- (159) أحمد عبدالرحيم مصطفى - المرجع السابق ص 99.
- (160) مصطفى عقيل الخطيب - المرجع السابق ص 36.
- (161) مصطفى عقيل الخطيب - نفس المرجع ص 36.
- (162) محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص 142.
- (163) د. صلاح العقاد - المرجع السابق ص 21.

المراجع:

أولا : المراجع العربية:

- 1 - أحمد عبدالرحيم مصطفى - فى أصول التاريخ العثمانى - دار الشروق - بيروت - 1982 .
- 2 - أرنولد . ت . ويلسون - تاريخ الخليج - وزارة التراث القومى والثقافة - مسقط 1981 .
- 3 - أمين سعيد - الخليج العربى - دار الكاتب المصرى - بيروت - تاريخ الطبع غير مكتوب .
- 4 - بدر الدين عباس الخصوصى - دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر - ذات السلاسل - الكويت - 1984 .
- 5 - ج.ج. لوريمر - دليل الخليج - ترجمة وطباعة مكتب أمير دولة قطر - الطبعة الثانية - التاريخ غير معروف .
- 6 - جلال يحيى (دكتور) - العالم الإسلامى الحديث والمعاصر - المكتب الجامعى الحديث - الإسكندرية 1982 .
- 7 - جمال زكريا (دكتور) - الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الأوروبى الأول دار الفكر العربى - القاهرة 1985 .
- 8 - حسين مؤنس - الشرق الإسلامى فى العصر الحديث - مطبعة حجارى - القاهرة 1938 .
- 9 - صلاح العقاد (دكتور) - التيارات السياسية فى الخليج العربى - مكتبة الانجلوا - مصرىة - القاهرة 1974 .
- 10 - عبدالأمير محمد أمين (دكتور) - المصالح البريطانية فى الخليج العربى - مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة - بغداد 1977 .
- 11 - عبدالعزيز نوار (دكتور) - الشعوب الإسلامية - دار النهضة العربية - بيروت 1973 .
- 12 - عبدالقادر عبدالله العيدروس - النور السافر - عام 1012 هجرية .
- 13 - عائشة السيار - دولة اليعاربة - وزارة الإعلام والثقافة بدولة الإمارات العربية المتحدة - بيروت 1975 .
- 14 - فالح حنظل - المفصل فى تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة - لجنة التراث والتاريخ - أبو ظبى 1985 .
- 15 - لجنة تدوين تاريخ قطر - البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية - الدوحة 1976 .
- 16 - محمد عدنان مراد - صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج العربى - دار دمشق 1984 .
- 17 - مصطفى عقيل الخطيب - التنافس الدولى فى الخليج العربى - دار دمشق 1984 .

18 - مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة - دراسات عن تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية - البصرة 1985 .

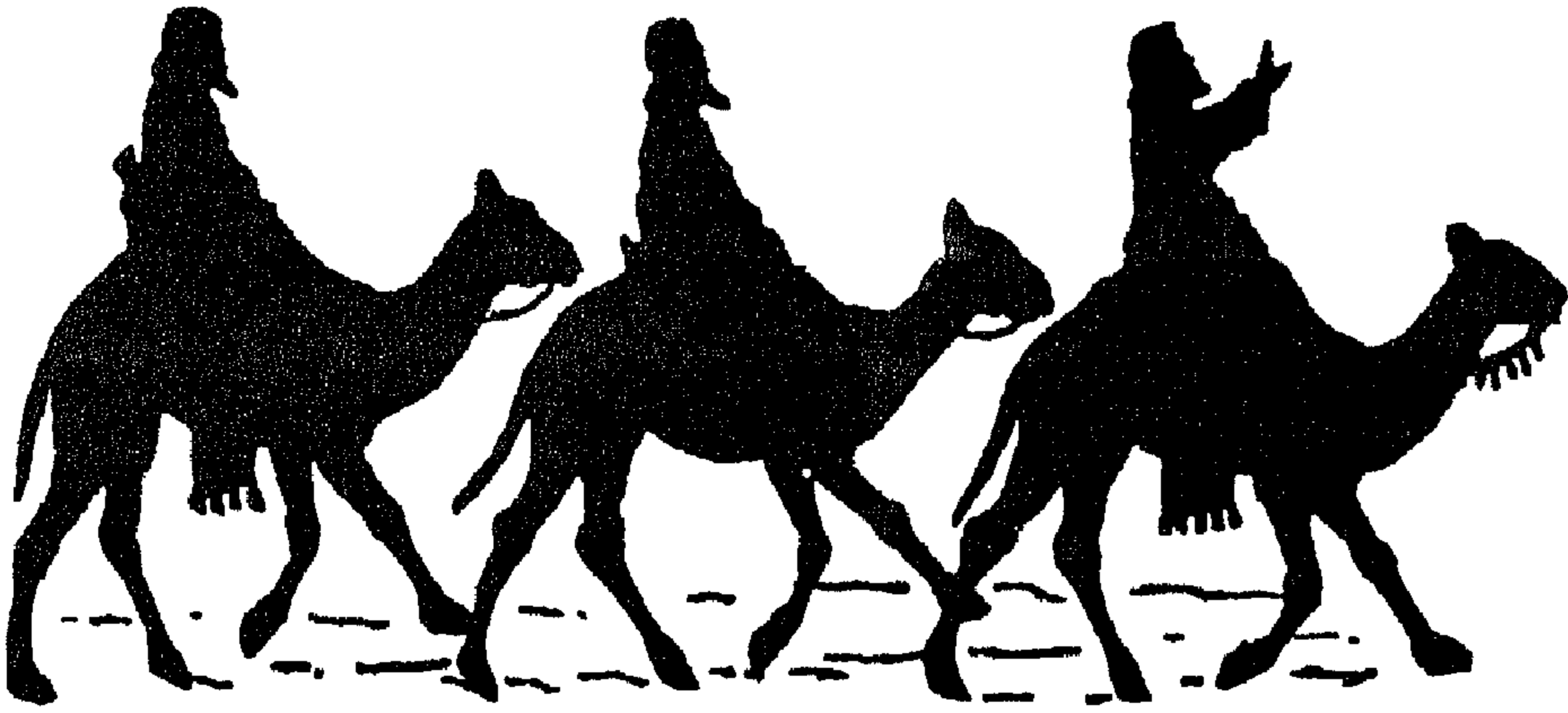
ثانيا : المراجع الأجنبية:

- (1) HADRAMI CHRONICLES BY R.B Serjeunt - The Portuguese In the South Arabian Coast - Librairie De Liban - Beirut 1974.
- (2) Charles Belgrave (Sir) - The Pirate Coast - Librarie De Liban - Beirut - 1972.
- (3) Sidney Nettleton Fisher - The Middle East - third Edition - ALFRED - A - KNOPF. NEW YORK - 1979.

ثالثا: الدوريات:

- 1 - أحمد بوشرب (دكتور) - مجلة الخليج العربي - السنة 1984 - العدد (1)
- 2 - بدر الدين الخصوصى (دكتور) - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد (44) أكتوبر 1985 .
- 3 - على عنان - مجلة الخليج العربي - السنة 1985 - العدد (2)
- 4 - عبدالوهاب القيسى - مجلة الخليج العربي - السنة 1980 - العدد (1)
- 5 - لجنة تحرير مجلة الوثيقة - السنة 1982 - العدد (1)
- 6 - مصطفى عبدالقادر نجار (دكتور) - مجلة دراسات تاريخية - السنة 1980 - العدد (3)
- 7 - نونو - بي - سلفا - مجلة الوثيقة - السنة 1986 - العدد (8)

الفصل الثاني



**تنافس شركتي الهند الشرقية
الهولندية والبريطانية في بندر عباس
في النصف الأول من القرن السابع عشر**

بندر عباس (1623 - 1645)

نشر هذا البحث في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد (80) لعام 1996 - الكويت.

مقدمة

حاولت أن اقتصر في هذه الدراسة على فارس ومينائها بندر عباس، وكان اختياري لهذه الفترة بالذات أي عام (1623م) وهو العام التالي لطرد البرتغاليين وعام الامتيازات التجارية للهولنديين ومن قبلهم للبريطانيين، وبذلك يمثل البداية الحقيقية للوجود المسيحي الأوروبي في الخليج العربي بعد الاستعمار المسيحي البرتغالي مرورا من البوابة الاقتصادية التجارية للوصول إلى البوابة السياسية والعسكرية. أما ختام الدراسة فكانت عام 1645 وهي فترة أوج التفوق التجاري الهولندي مع خروج البريطانيين من بندر عباس وإغلاق مقر شركتهم وبذلك خرجوا من المنافسة التجارية مع هولندا.

بدأت بالدوافع التي كانت وراء مجيء الهولنديين إلى المنطقة ومن ثم كيف بدأ هذا التنافس من ميناء بندر عباس الذي أصبح بوابة فارس على العالم الخارجي والنشاط الاقتصادي وبعدها نتقل إلى الامتيازات الفارسية للهولنديين، والموقف البريطاني ثم الأساليب والطرق التي اتبعتها الهولنديون في منافسة البريطانيين وأخيرا نصل إلى نتائج هذا التنافس الذي أدى إلى تدهور التجارة البريطانية مع تفوق التجارة الهولندية وأسباب هذا التفوق.

دوافع التوجه الهولندي نحو بحار الشرق والخليج العربي:

نجحت الثورة البرجوازية فى المناطق الشمالية من الأراضى المنخفضة (أى هولندا) فى عام 1566 بطرد الإقطاع الإشباني، مما ساعدها فى تطور الرأسمالية الزراعية، وبالتالي نجحها فى التجارة⁽¹⁾، بنقل المنتجات الشرقية من إسبانيا والبرتغال إلى ميناء «انتويرب»⁽²⁾، ومنها إلى مختلف مدن وموانئ أوروبا، وحققوا من وراء ذلك مكاسب كبيرة. مما أدى إلى الازدهار والانتعاش الاقتصادى فى أسواق هولندا، وظهور الطبقة البرجوازية التجارية مع نمو الشركات الرأسمالية الاحتكارية فى هولندا قبل غيرها من البلدان الأوروبية، مما جعلها أكثر هذه البلدان تطورا⁽³⁾، فى المجالين التجارى والصناعى، ولكن ما الذى دفعهم نحو الشرق؟ قد يكون هناك عدة دوافع سوف نتناول أهمها وهى:

أولا: مضايقات الإشباني للهولنديين:

استعمرت إسبانيا هولندا لفترة من الزمن ولكن جاء خروجها نتيجة لضغوط سياسية أوروبية وللمقاومة الهولندية، مما نتج عنه عداء تقليدى، فى الوقت الذى كان الاستياء الإشباني يتزايد من نشاط الهولنديين اللافت للنظر فى موانئهم. ورغم أن الإشباني والبرتغال كانوا يجلبون مختلف السلع من الشرق والغرب بعد عناء وجهد كبير، إلا أن الهولنديين كانوا يحققون أرباحا كبيرة بجهود بسيطة وذلك بنقل تلك المنتجات من موانئ إسبانيا والبرتغال إلى الموانئ والمدن الأوروبية. وهذا ما دفع الإشباني بعد ضمهم للبرتغال عام 1580م إلى مضايقة التجار الهولنديين والتعرض لسفنهم إلى درجة إغراقها وأسرها فى بعض الأحيان لمنعهم من التعامل مع الموانئ الإسبانية البرتغالية⁽⁴⁾.

ثانيا: رفع أسعار السلع التجارية من قبل البرتغال:

بدأت التجارة البرتغالية تتدهور بعد وقوعها تحت السيطرة الإسبانية وسياستها المعادية تجاه البرتغال ومستعمراتها، مما حدا بالتجار البرتغال إلى رفع أسعار سلعهم القادمة من الشرق، وهذا بالتالى أثر فى التجار الهولنديين الذين كانوا يشترون تلك السلع بأسعار عالية مما يعنى صعوبة تسويقها فى مدن وموانئ أوروبا، وبالتالي تأثيرها فى الأوضاع الاقتصادية. وهذا ما دفع الهولنديين إلى التفكير فعليا فى

ايجاد حل المشكلة التى يعانى منها نظام الاقتصاد الرأسمالى الناشئ، وكان البديل هو التوجه مباشرة نحو الشرق لتحقيق عدة أهداف، وذلك بعد التصدى للأسطول البرتغالى والإسباني فى تلك الفترة، ولا سيما أن الأسطول الهولندى الناشئ كان قد حقق عدة انتصارات على الأسطول الإسباني والبرتغالى وكسر الاحتكار الاستعماري لاسبانيا والبرتغال مما مهد السبيل أمام السفن الأوروبية للتوجه نحو الشرق، وكان أهم أهداف الهولنديين من التوجه إلى الشرق ما يلى:

أولاً: الحصول على السلع والمنتجات الشرقية بأسعار رخيصة وبكميات كبيرة دون أية ضغوط لتحقيق مزيد من الأرباح مقابل تكاليف قليلة خاصة إذا ما استعمروا أو سيطروا على المواد الخام الأولية واحتكروا مقدرات الشعوب والمصالح الاقتصادية، ومن هنا كانت بداية التفكير الاستعماري الإرهابي لإيجاد مستعمرات فيما وراء البحار أسوة بجيرانهم الإسبان والبرتغال.

ثانياً: وهو مرتبط بالهدف الأول، وهو إيجاد أسواق لتجارتههم ومنتجاتهم، لأن النظام الرأسمالى الذى بدأ فى النمو، يحتاج إلى أسواق لتصريف المنتجات، وإلا فإنه يصاب بالركود، ولهذا كانت بداية إيجاد الأسواق والمستعمرات مع بداية قيام النظام الرأسمالى وما هو قائم حتى الآن.

فرغم استقلال كثير من دول العالم الثالث إلا أنها فى حقيقة الأمر مستعمرات اقتصادية وسياسية، ورهينة بالقروض والمعونات المتسلطة بالتبعية لهذا النظام الرأسمالى الذى يصعب استمراره بدون تلك السياسة.

لهذا كانت الرأسمالية تخلق القلاقل والمشكلات، وتغير أنظمة الحكم بشتى الأساليب والطرق سواء بانقلابات أو إثارة الشعوب تحت ستار إسقاط أنظمة الحكم الديكتاتورية وشعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان حتى تستمر فى نهب ثروات ومقدرات الشعوب وتمنع الأمن والاستقرار كما تمنع قيام التنمية الصناعية والتطور الاقتصادى والعسكرى.

وهذا يعود إلى أن نجاح أنظمة العالم الثالث فى التنمية والاستقلال من التبعية يعنى انهيار النظام الرأسمالى، وإن اختلفت الأساليب والطرق باختلاف التطور الحالى عن القرون الماضية، ولكن الأهداف الرأسمالية ما زالت قائمة منذ بداية القرن السابع عشر وحتى يومنا هذا هى نفسها لم تتغير.

التوجه نحو الشرق وإنشاء شركة الهند الشرقية الهولندية 1602:

بينما كانت البرتغال تحاول المحافظة على سرية الطريق إلى الهند، تمكن الهولندي «هوبن فان لينشوتن» "Hubhen Vanlinschoten" من إخفاء هدفه، وذلك بالانضمام إلى الرهينة رغم اختلاف المذهب البروتستانتي الهولندي عن الكاثوليكي البرتغالي، واستطاع أن يصل إلى الهند عام 1583 برفقة أسقف «غوا» وعمل أميناً لأسرار كبير الأساقفة، كما جمع معلومات عن المتوجات ذات القيمة التجارية والمواصلات. وعندما عاد إلى هولندا عام 1592، قام بنشر هذه المعلومات، مما كان له أصداء واسعة لدى تجار البلاد الذين يعانون من الضائقة المالية والتجارية بسبب اضطهاد البرتغاليين لهم⁽⁵⁾.

إثر انتشار هذه المعلومات قام تسعة من تجار هولندا عام 1594 بتأسيس شركة «الأراضي البعيدة»، وقاموا بإيفاد أسطول تحت قيادة «كورنيليس» "CORNELIS HOUTMUN"، والذي شجع نجاحه إنشاء العديد من الشركات والمؤسسات التجارية في هولندا التي رأت حكومتها ضرورة دمج مؤسساتها وشركاتها التجارية في شركة احتكارية واحدة وكبيرة، وصدر مرسوم ملكي بتأسيس شركة «الهند الشرقية الهولندية» في مارس عام 1602 مع امتياز لمدة عشرين عاماً، وبعد تأسيسها وجدت هذه الشركة نفسها أمام السوق الآسيوي الكبير⁽⁶⁾، وأصبحت لها فعاليتها في مجال التجارة الدولية، وأداة للاستعمار الهولندي فيما وراء البحار، ودخلت في صراع عنيف مع الإسبان والبرتغال في الشرق.

استطاعت هولندا أن تحكم سيطرتها على جزر «ملايو» و«أرنخيل اندونيسيا» بعد عدة معارك حربية مع البرتغاليين، ففي عام 1607 وصل الهولنديون إلى الملايو وأندونيسيا، واحتلوا جزيرة «ملقا» وأسسوا مدينة «بتافيا» عام 1619 كما احتلوا جزيرة سيلان (سيرلانكا حالياً)⁽⁷⁾.

بذلك ترسخت أولى الأطماع الاقتصادية للرأسمالية المسيحية الهولندية في الشرق على الرغم من عدم ظهور سفنها في الخليج العربي في ذلك الوقت، ولكن بعد ذلك بوقت قليل توجهت إلى «اليمن» ثم إلى الخليج العربي. على الرغم من

كون شركة الهند الشرقية الهولندية شركة تجارية رأسمالية احتكارية، إلا أنها من الناحية الفعلية كانت دولة مسيحية إرهابية استعمارية كبيرة فى آسيا، إلى درجة أنها خرجت عن نطاق الشركات الرأسمالية الاحتكارية وبدأت تنشئ علاقات سياسية مع دول آسيا، وأحيانا تعقد أحلافًا عسكرية وتمتلك الأساطيل الحربية، ولكنها تحولت فيما بعد عام 1800 إلى واقعها الحقيقى كحكومة إرهابية مسيحية استعمارية فى أندونيسيا⁽⁸⁾.

التوجه الهولندى إلى السواحل اليمنية 1614:

استطاع الهولنديون أن يثبتوا أقدامهم فى الشرق الأقصى وخاصة اندونيسيا، وكان الحصارمة قد سبقوهم إلى هناك ونشروا الإسلام عن طريق التجارة، واستمروا فى حركة الملاحة بين أندونيسيا وسواحل «حضر موت».

لذلك فكر الهولنديون فى التعامل مع الحصارمة مباشرة وذلك عام 1614 عندما أرسل الحاكم الهولندى «لبانتام» أول سفينة تجارية وهى «تاسو» بقيادة «بيترفان دون بروكة» لدراسة الأحوال الاقتصادية، وما مدى إمكانية التجارة مع موانئ حضر موت⁽⁹⁾.

استطاعت السفينة أن تجمع معلومات قيمة عن التجارة فى أهم المدن مثل «شحر» «مخا»، «عدن»، «قشن» وحققت هذه الرحلة نتائج جيدة⁽¹⁰⁾، مما شجع الهولنديين على الاستمرار بالتجارة إلى هناك، وتعهد السلاطين فى «حضر موت» واليمن بفتح موانئهم أمام التجارة الهولندية التى أخذت تزداد يوما بعد يوم.

لكن عندما استولى الهولنديون على السفن البرتغالية خلال صراعهم مع هذه الأخيرة كانت تلك السفن تحمل بضائع تخص الحصارمة مما أثار غضب اليمن، وأدى ذلك إلى سحب الامتيازات التجارية الممنوحة للهولنديين فى الموانئ الحضرمية واليمنية، ابتداء من «قشن» وحتى عدن و«مخا»، وطرد المسؤولين الهولنديين من تلك الموانئ⁽¹¹⁾.

خسرت الشركة الهولندية كل شئ ابتداء من الامتيازات وحتى الأرباح التجارية التى كانت تجنيها من نقل البضائع والتعامل مع هذه الموانئ، ولهذا فكر الهولنديون فى إيجاد معقل آخر لأطماعهم الاقتصادية التوسعية بعدما فشلوا فى

تثبيت أقدامهم في موانئ حضرموت، ولما كانوا يمرون عن طريق هرمز ومسقط في رحلاتهم من أندونيسيا إلى سواحل حضرموت، فإنهم فكروا في منطقة الخليج العربي وبخاصة فارس، وقرروا التوجه في معاملاتهم إلى فارس على أساس أنها أكثر ربحا وفائدة من مغامراتهم مع عرب اليمن⁽¹²⁾، ولم يكن الهولنديون يتوقعون تلك الامتيازات السخية من حكام فارس إضافة إلى أهمية بلاد فارس التجارية منذ فترة طويلة⁽¹³⁾.

التوجه البريطاني نحو الشرق:

بداية التوجه البريطاني نحو بحار الشرق كانت في 13 من فبراير عام 1601، عندما تحركت الرحلة الأولى، في حين جاءت الرحلة الثانية بعد أكثر من عامين، ولكنهما لم يتجها نحو الساحل الهندي، وإنما توجهتا نحو جزيرة سومطرة وجاوة وملقا، في جنوب شرق آسيا⁽¹⁴⁾.

ولأن الشركة البريطانية شركة ناشئة، فإنها لم تجرؤ على التوجه إلى الهند، لأن بريطانيا كانت ما تزال في حرب مع إسبانيا الموحدة مع البرتغال، والتي تملك قوة كبيرة في الهند، فأرادت تجنب المواجهة العسكرية على الأقل في المرحلة الأولى.

قررت الشركة بعد انتهاء الحرب بين البلدين بموجب اتفاق لندن عام 1604، أن تقيم علاقة مع الهند بموافقة البرتغال، لاسيما وأن الرحلتين إلى جنوب آسيا لم تحققا أهدافهما لعدم وجود ما يمكن للشركة البريطانية أن تبيعه هناك لتشتري بثمنه ما تحتاج إليه من توابل، ولهذا أرسلت الشركة البريطانية رحلتها الثالثة في مارس عام 1607 إلى الهند⁽¹⁵⁾، وهي أول رحلة تجارية بريطانية إلى الهند، ومنها بدء التطلع الاستعماري الإرهابي المسيحي البريطاني لاتخاذ الهند كقاعدة للانطلاق نحو بقية المناطق الأخرى لإيجاد مستعمرات في آسيا وشرق أفريقيا والخليج العربي.

التعاون الأتكلو.هولندي في الخليج العربي:

أخذ الهولنديون يتطلعون من باتافيا (جاكرتا حاليا) إلى الخليج العربي، ووجدوا في حكام فارس خير معين لتحقيق أطماعهم لضرب البرتغاليين من جهة وضرب أية مقاومة عربية قد تظهر ضدهم من جهة أخرى⁽¹⁶⁾، وبخاصة بعد طرد

عرب حضرموت واليمن لهم من موانئهم، إضافة إلى مقاومة الحضارمة مع الوطنيين الأندونيسيين ووقوفهم معهم ضد إرهاب الاستعمار المسيحي الهولندي هناك، وتشكيلهم جبهة إسلامية ضد الوجود الاستعماري المسيحي الإرهابي الأوروبي في الأرخبيل الأندونيسي.

سنحت للهولنديين فرصة ذهبية لتحقيق أطماعهم عندما عقدوا اتفاقية مع البريطانيين في مجال تسليح السفن الأخيرة، لإرسالها إلى فارس محملة بالصوف، وبما أن القدرة التسليحية ضعيفة لدى البريطانيين ولم تكن تصل إلى مستوى الهولنديين في تلك الفترة لمواجهة البرتغال المتمركزين في جزيرة هرمز بمدخل الخليج العربي، مما يعيق تجارتهم إن لم تتكبد خسارة فادحة، اقترح أحد أعضاء شركة الهند الشرقية البريطانية، إدخال هولندا في مجال التسليح مع بريطانيا لاستطاعتها إرسال سفنها إلى الخليج العربي متى أرادت وكيفما تشاء⁽¹⁷⁾، وخاصة بعد تفوقها الساحق على البرتغاليين في أرخبيل «ملايو» وأندونيسيا في الوقت الذي كان فيه الهولنديون تواقين لدخول الخليج العربي وإيجاد مراكز تجارية لتعويض فشلهم وفقدان امتيازاتهم التجارية بعد طردهم من موانئ «حضرموت» واليمن.

بما أن الهولنديين يدينون بالمذهب البروتستانتي فهم أقرب إلى البريطانيين من البرتغاليين الكاثوليك، وبرغم المساعدة الهولندية في مجال التسليح والصداقة والمذهب الديني، إلا أن الهدف الحقيقي من وراء ذلك كان مشاركة البريطانيين في التجارة في بداية الأمر، ومن ثم منافستهم، مما يوضح أطماعهم الاقتصادية منذ البداية، كما أن التحالف البريطاني مع الفرس سهل دخول الهولنديين إلى الخليج العربي.

لهذا يمكن القول بأن التعاون الأنكلو- هولندي لإخراج البرتغاليين من جزيرة «هرمز» وتسليمها للفرس لم يكن مجرد رغبة في القضاء على البرتغاليين، بقدر ما كان طمعا في احتلال محلهم والهيمنة التجارية على الأسواق الفارسية وهذا ما حدث فعلا بمجرد طرد البرتغاليين حيث بدأ التنافس الانكلو- هولندي.

يرى معظم المؤرخين الأوروبيين أن الاقتصاد الأوروبي والعالمي دخل في تلك الفترة أي مع بداية عام 1620⁽¹⁸⁾ في انتعاش وذلك قبل سقوط هرمز بستين، وقد

يرجع ذلك لتدفق الفضة الإسبانية من العالم الجديد إلى أسواق أوروبا⁽¹⁹⁾، مما عزز التنافس الأنكلو- هولندي ضد الوجود البرتغالي في الشرق ثم فيما بينها.

الاستقرار في بندر عباس

(أ) نبذة عن بندر عباس:

يقع ميناء بندر عباس (وهي جملة فارسية تعني بالعربية «ميناء عباس») في مدخل الخليج العربي إلى الشمال الشرقي من جزيرة قشم وإلى الغرب من جزيرة هرمز، وبذلك يطل على مضيق هرمز، قام ببناء هذه المدينة أو الميناء «الشاه عباس الأول»، وأطلق عليه اسمه، وذلك بعدما أصدر أوامره إلى «وردى خان» حاكم فارس بإعداد حملة قوية إلى «جمبرون» وطرد البرتغاليين منها «وهو الاسم القديم لبندر عباس» وكان على رأس هذه الحملة إمام «قلی خان» حاكم «لار» ابن «وردى خان»، وبعد الحصار الفارسي للمدينة توقفت مياه الشرب والمواد الغذائية والحاجات الضرورية إلى «هرمز»، إلا أن إمام «قلی خان» اضطر إلى فك الحصار والانسحاب من المنطقة بسبب وفاة والده «وردى خان» ثم صدر مرسوم من الشاه عباس بتعيين إمام «قلی خان» حاكماً لمقاطعة فارس خلفاً لوالده وكلف باحتلال ميناء «جمبرون» بأية وسيلة ممكنة.

جهز إمام قلی خان حملة ثانية تولى قيادتها بنفسه وتمكن من طرد العدو ودخول المدينة المحررة عام 1615 وبعد أن تمت سيطرته عليها أمر بهدم القلعة البرتغالية وشرع في بناء قلعة فارسية على بعد ثلاث أميال من البحر، وهكذا فقد البرتغاليون هذا الميناء إلى الأبد، وتوسعت مملكة فارس وامتدت لأول مرة إلى حدود «بلوشستان» بعدما كانت تلك المنطقة تحت سيطرة مملكة هرمز العربية التي حكمت المنطقة لفترة طويلة أكثر من قرن ونصف. كان شاه عباس يهدف من وراء تحويل الميناء إلى مركز تجاري رئيسي يجذب التجارة القادمة إلى فارس والخليج العربي ويكون بديلاً عن هرمز⁽²⁰⁾، التي دمرها الشاه عباس بنفسه ونقل معظم بنائها حتى الحجارة كي لا تقوم لها قائمة فيما بعد أسر القوات البريطانية للبرتغاليين⁽²¹⁾.

أطلق البرتغاليون في القرن السابع عشر على المدينة التي بنيت مكانها بندر

عباس تسمية تهكمية من باب السخرية بالأسرة الصفوية الحاكمة في فارس، وهى تسمية «جمبرون» أو «كودوران» وهى تعنى بالعربية «برغوث البحر أو الجمبرى» (22).

قد تكون مأخوذة من العربية إلى البرتغالية، وعلى كل حال فإن هذه التسمية استمرت بالنسبة للأوربيين حتى القرنين السابع والثامن عشر والبعض استمر بها حتى القرن التاسع عشر.

ب) قدوم الهولنديين والبريطانيين إلى بندر عباس:

قدم الهولنديون مساعدات حربية فى مناسبات عديدة لكل من بريطانيا وفارس ضد البرتغاليين (23) وكان هذا أمرا طبيعيا نتيجة للصراع البرتغالى - الهولندى، سواء فى موانئ شبه جزيرة «أييريا» أو الصراع فى مياه المحيط الهندى، وهذا ما انعكس على أوضاع البرتغاليين فى الخليج العربى عندما أرسل الهولنديون بعض سفنهم الحربية إلى هناك (24).

إثر طرد البرتغاليين من معقلهم الرئيسى فى مدخل الخليج العربى بهرمز عام 1622 أنشأت شركة الهند الشرقية البريطانية والهولندية مقراً للوكالة التجارية فى هرمز، ولكن خبرة الهولنديين الطويلة فى النشاط التجارى دفعتهم إلى نقل مقر - وكالتهم التجارية من هرمز إلى بندر عباس وذلك قبل أن ينتقل البريطانيون، مما أفادهم فى التعرف بسرعة على المنطقة، وعلى النشاط التجارى وسرعان ما أصبح ميناء بندر عباس يعج بالحركة التجارية، نظرا لانتقال الوكالة الهولندية والبريطانية (25). وهاجرها سكان هرمز إلى بندر عباس نظرا لقلة الماء والزاد الذى كان يأتيهم من المناطق البرية المجاورة.

قام الهولنديون بالدفاع عن بندر عباس عندما أشركوا سفنهم الحربية مع السفن البريطانية لصد الهجوم البرتغالى أمام الميناء عام 1625، ونتج عنه هزيمة الأسطول البرتغالى (26). وبعدها رفض الهولنديون دفع الضرائب فى بندر عباس أسوة بالبريطانيين نظرا لاشتراكهم فى الدفاع عن هذا الميناء التجارى مما أغضب البريطانيين وشاه فارس، ولكن الهولنديين لم يعيروا ذلك أى اهتمام واستمروا فى عدم دفع الرسوم والضرائب، ومن هنا بدأ التنافس الأنكلو - هولندى تجاريا فى بندر عباس.

التنافس الأنكلو.هولندي؛

بذل البريطانيون والهولنديون جهودًا كبيرة لمنافسة البرتغاليين في المجال التجاري والعسكري، ولم يتحقق نجاح البريطانيين والهولنديين في انتزاع تجارة الخليج العربي من البرتغاليين إلا بعد جهود مفضية في هذا المجال⁽²⁷⁾، فقد كانت هولندا أكثر القوى إسهامًا في تصفية الوجود البرتغالي في البحار الشرقية في نهاية القرن السادس عشر وبالتالي كانت أكثر هذه القوى استفادة من هذه التصفية.

بمجرد زوال الخطر البرتغالي، واجه البريطانيون خطراً من نوع آخر، إذ سرعان ما ظهر الهولنديون منافسين أشداء للبريطانيين⁽²⁸⁾، الذين لم يستطيعوا التقاط أنفاسهم لتثبيت المصالح السياسية والاقتصادية وأصبح أصدقاء وحلفاء الأمس، أعداء اليوم، ودخلوا في صراع وتنافس تجاري، وتغلبت المصالح الاقتصادية على الأخوة البروتستانتية الدينية والصداقة القديمة⁽²⁹⁾، مما كان له أثر كبير في المنظور القريب للنشاط التجاري الهولندي.

في حين نظر الهولنديون لهذا التنافس من وجهة أخرى. حيث كان البرتغاليون خصومهم منذ أن حرّمهم تجارة «إيبيريا» إلى شمال أوروبا، ولهذا دخلوا في صراع وتنافس مع البرتغال، ونجحوا في إقصائهم عن تجارة جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى، واليوم وجدوا أنفسهم مع أصدقائهم البريطانيين الذين جاء دورهم الآن، وذلك للسيطرة على معظم تجارة الشرق وسلعها الهامة⁽³⁰⁾.

ومن هذا دخل الهولنديون في تنافس تجاري من نوع جديد دون اللجوء إلى القوة العسكرية إلا في أضيق الحدود، وفي حالات طارئة، ولهذا أرادوا كسر احتكار تجارة الحرير البريطانية في فارس، ومعارضة الامتيازات التي منحها لهم الشاه بعد طردهم البرتغال من «هرمز»⁽³¹⁾، وخاصة بالحصول على ضرائب مدينة بندر عباس مناصفة.

أولى خطوات الهولنديين كانت الامتناع عن دفع الرسوم والضرائب المفروضة على سلعهم لبريطانيا وفارس في بندر عباس عام 1625، مما كان له أبعد الأثر في عوائد الدخل التجاري البريطاني، ولم يكتفوا بذلك وإنما دمروا المراكز والوكالات التجارية لشركة الهند الشرقية البريطانية في «جاوة، وسيام» وحتى الصين⁽³²⁾.

الامتيازات الهولندية في فارس والتخوف البريطاني،

استطاع «هاربرت فينش» "HARBERT BISNICH" المبعوث الهولندي، بعد مفاوضات مع الشاه عباس الصفوي عام 1623 الحصول على فرمان لتأسيس مصنع هولندي للحرير في بندر عباس إلى جانب المصنع البريطاني، مع امتيازات كثيرة لم يكن يتوقع الهولنديون أنفسهم أن يوافق شاه عباس عليها بهذه السهولة، رغم اعتراض المسؤولين الفرس والبريطانيين، ومن أهم البنود في فرمان الفارسي والذي يتكون من ثلاثة وعشرين بنداً والذي تم توقيعه في 17 / 11 / 1623⁽³³⁾:

1 - تسهيلات تجارية واسعة في البيع والشراء في جميع المدن والموانئ الفارسية دون استثناء.

2 - عدم تحديد نوع معين من المتوجات أو المواد الخام الأولية من الأسواق الفارسية، وإنما ترك لهم حرية الاختيار والحجم والكمية والنوع الذي يريدونه.

3 - عدم إلزامهم بدفع العوائد الجمركية نقداً.

4 - حرية استخدام أوزانهم الخاصة في المعاملات التجارية وفي الأسواق الفارسية.

5 - الحرية الكاملة في وكالاتهم التجارية، ولا يحق للراعي الفرس الدخول إلى الوكالات الهولندية إلا بعد موافقة رئيسها بالسماح له بإذن مسبق.

6 - حرية استخدام القوة العسكرية إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

7 - تعهد الشاه الفارسي بتغطية الخسائر التي قد تلحق بهم نتيجة السرقة أو السطو، على وكالتهم في بندر عباس.

8 - حرية ممارسة الشعائر المسيحية، وبناء الكنائس والأديرة، ومما جاء في فرمان أنه إذا ما اعتنق أحد الهولنديين الدين الإسلامي فلهم الحق في نفيه خارج فارس ومصادرة أمواله.

9 - حرية اقتناء وامتلاك الأسلحة والعييد وعدم الارتباط بالمحاكم الفارسية.

ولم يكتف شاه فارس بذلك فرمان وإنما أصدر أوامره إلى شعبه بتقديم كافة التسهيلات الممكنة للهولنديين، من توفير القوافل والمأكول والمشرب والسكن إذا ما طلبوها، كما أعفاهم من الضرائب الجمركية الباقية من أول عام 1623 وسلم

رسالة إلى حاكم هولندا معبرا فيها عن ترحيبه بقدوم الهولنديين إلى فارس والسماح لهم بإقامة وكالات تجارية في بندر عباس، وفي أية مدينة يختارونها في أنحاء مملكته.

يتضح من ذلك أن الفرس هياؤا الجو المناسب لتحقيق الأطماع الاقتصادية للاستعمار الأوروبي في الخليج العربي، ومنذ تلك الفترة وحتى يومنا هذا. وإن اختلفت القرارات السابقة فإن هذه الامتيازات والاتفاقيات الاقتصادية والسياسية غير المتكافئة بين دول الخليج العربي والدول المسيحية الأوروبية الصناعية الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية سواء امتيازات البترول أو غيرها، فهي أشبه بالقرمات القديمة وإن اتخذت ثوبا جديداً يناسب هذا العصر، ويساير السياسات الإرهابية الاستعمارية المعاصرة.

على كل حال فقد زادت المصالح التجارية الهولندية في فارس بصفة خاصة والخليج العربي بصفة عامة نتيجة للسياسة التي اتبعها شاه فارس، والذي أخطأ في تقديراته لأنه كان يتوقع من تقديم تلك الامتيازات السخية الحصول على المساعدات العسكرية الهولندية ضد الجارة المسلمة، الدولة العثمانية، بغية التوسع تجاه العراق وضد عرب عمان في المنطقة المعروفة اليوم برأس الخيمة وخورفكان، وذلك بعد ما رفضهما البريطانيون، إلا أن الهولنديين أيضا رفضوا تقديم المساعدة العسكرية ضد أحد من العثمانيين أو العمانيين، وإنما كان هدفهم في تلك الفترة احتكار التجارة مع فارس وتحجيم المصالح البريطانية⁽³⁴⁾.

الموقف البريطاني من الامتيازات الفارسية للهولنديين،

أصاب البريطانيين ذعر وخوف من الامتيازات التي منحها شاه فارس للهولنديين وخاصة لدى المسؤولين في شركة الهند الشرقية البريطانية التي كانت على علم بمجريات الأمور، ومدى خطورة المنافسة الهولندية على مصالحها التجارية في المنطقة خوفا من ضياع النفوذ التجاري والسياسي الذي كانوا قد حققوه في فارس، لأن الهولنديين ركزوا نشاطهم التجاري لانتزاع امتيازات كثيرة من شاه فارس من أجل الحصول على حصة كبيرة في تجارة الحرير.

احتج بعض المسؤولين في شركة الهند الشرقية البريطانية بأنهم قدموا

تضحيات كثيرة للفرس في مختلف المناسبات، وخاصة في صراعهم ضد البرتغال، واليوم يجدون الفرس يفضلون الهولنديين عليهم تجاريا، مما جعلهم يسيطرون على تجارة الحرير ويلحقون خسائر كبيرة بالبريطانيين الذين لم يتمكنوا من مجارة الهولنديين⁽³⁵⁾. وكان البريطانيون يدمرون من الأساليب الهولندية ومخططهم تجاههم. فقد كتب «فيرولانا» "FURSLANA" مدير الوكالة البريطانية في «سورات» خطابا إلى إدارة الشركة بلندن عام 1623 محذرا «بأن الهولنديين شعب فاسق ومتعطش لإراقة الدماء وأنهم ارتكبوا في هذه المناطق أبشع الجرائم والأعمال الوحشية فقتلوا أصدقاءهم وأعداءهم على حد سواء ثم جذر من التعامل معهم»⁽³⁶⁾.

زاد التخوف البريطاني عندما جدد الشاه عباس معظم امتيازات شركة الهند الشرقية البريطانية بعد فترة قصيرة عام 1624، إلا أنه رفض بعض الفرمانات الضرورية التي لها طابع تكميلي فقط، لعدم شراء البريطانيين الحصص المخصصة لهم من الحرير، وهذا راجع لشدة منافسة الهولنديين الذين لم يعطوا مجالا للبريطانيين لشراء الحرير من الأسواق الفارسية، وقد أوجد المؤرخ البريطاني ج. ج. لوريمر بعض التبريرات لهذا الإخفاق والفشل في منافسة الهولنديين بقوله «إنه كان ناجما عن ارتقاء شأن مذهب المتطهرين في بريطانيا وتأثيره في سائر الأحوال البريطانية»⁽³⁷⁾.

وجه الهولنديون ضربة أخرى للمصالح الاقتصادية البريطانية عقب وفاة الشاه عباس عام 1629 عندما تمكنوا من خليفته الشاه صفى في أخذ امتيازات جديدة تفوق ما أخذه البريطانيون الذين فقدوا بموت شاه عباس صديقا مخلصا ومؤيدا مما شكل تهديدا لنفوذهم في فارس، وكانت العادة قد جرت بتجديد الامتيازات والترخيصات التجارية وما إليها مما يكفله شاه فارس، كلما تولى حاكم جديد⁽³⁸⁾. لأن الامتيازات السابقة كانت تنتهى بوفاة صاحبها الذي منحها ولا بد من تجديدها كلما تولى حاكم جديد في فارس. وهذا ما لم تكن تدركه شركة الهند الشرقية البريطانية حسب ما قاله المؤرخ البريطاني لوريمر، وهذا يصعب تبريره لأنه ليس من المعقول ألا تعرف شركة الهند البريطانية وهي خبيرة في شؤون وأمور المنطقة وبخاصة فارس.

على أية حال فإن الشركة البريطانية قامت بتجديد فرمان عام 1617 بعدما تعهدت من قبل وكيلاها بأن يأخذوا من الشاه كل عام ما قيمته (20) ألف تومان من الحرير مقابل دفع ثلث المبلغ نقدا علما بأن تنفيذ هذا فرمان يتطلب أن تنفق شركة الهند الشرقية البريطانية حوالى (1500) جنيه استرليني كل عام ثمنا لهدايا لشاه فارس ورجال البلاط⁽³⁹⁾.

الأساليب التى اتبعها الهولنديون فى منافستهم ضد البريطانيين؛

أدرك الهولنديون وهم المتمرسون فى التجارة العالمية نتيجة للظروف الطبيعية لبلادهم، وخبرتهم فى التجارة الأوروبية، وخاصة مع بلاد البلطيق، الأهمية الحيوية للخليج العربى، فلهذا ركزوا جهودهم على تثبيت الوجود التجارى فى بلاد فارس وبخاصة فى بندر عباس، وعملوا منذ البداية على إقصاء البريطانيين من المنافسة التجارية، وذلك مع بداية إنشاء وكالتهم جنبا إلى جنب مع الوكالة البريطانية فى بندر عباس، مما كان سببا من أسباب التنافس بين الطرفين. ولإزالة النفوذ البريطانى استخدم الهولنديون مختلف الأساليب، وسوف نستعرض بعض هذه الأساليب التى اتبعها الهولنديون فى منافستهم منذ الوجود البريطانى فى «بندر عباس».

أولا: كسب التجار الفرس:

أخذ الهولنديون يسعون إلى الإساءة إلى البريطانيين وشركتهم لدى أعيان البلاد والتجار ورجال البلاط الفارسي بمختلف الوسائل، واستغلال الخلافات بين التجار الفرس والبريطانيين حول الأسعار، وكان الهولنديون يشترون السلع التى يرفضها البريطانيون نتيجة ارتفاع أسعارها لكسب التجار الفرس إلى جانبهم، وشراء الحرير بأسعار أعلى من الأسعار التى يشتريها البريطانيون، وهذا الأسلوب اشتهر به الهولنديون مع تخفيض أسعار البيع⁽⁴⁰⁾.

وهذا أدى إلى عدم قدرة البريطانيين على شراء الحرير وبالتالي إلى نقص فى مدخولهم التجارى، وتقلصت استثماراتهم فى بندر عباس، لارتفاع أسعار الحرير وبالتالي نجح الهولنديون فى حرمان البريطانيين من أهم سلعة مربحة.

ثانيا: الامتناع عن دفع الضرائب والتخويف:

امتنع الهولنديون عن دفع الرسوم والضرائب في بندر عباس، نظرا لحصول البريطانيين على نصف الدخل بموجب الامتياز الذي منحه شاه عباس مقابل طردهم للبرتغاليين من هرمز، واتبع الهولنديون أسلوب التخويف، فأشاعوا أنهم دفعوا عشرة آلاف روبية للبريطانيين مقابل تركهم بندر عباس لكي يحتفظ الهولنديون بالتجارة لأنفسهم، ومما أثار تخوف البريطانيين هو منع الحكومة الفارسية الوكيل البريطاني من القيام بأي نشاط معاد ضد الهولنديين، ووعده باتخاذ الإجراء المناسب تجاه الهولنديين.

ثالثا: بيع وشراء مختلف البضائع:

اعتمد البريطانيون على بيع المنسوجات الصوفية وشراء الأصواف عندما لم يتمكنوا من شراء الحرير نظرا لسياسة الاحتكار التي اتبعها الهولنديون الذين اعتمدوا على بيع مختلف أنواع السلع، منها التوابل والبهارات والمنسوجات والمصنوعات الهولندية الأخرى، وشراء مختلف البضائع والسلع الفارسية ويعرضون أثمنا مرتفعة للسلع التي يحصلون عليها⁽⁴¹⁾.

ركز الهولنديون على نوعين من البضائع وهما التوابل وشراء الحرير، نظرا لأن آسيا كانت تأتي في المرتبة الثانية في استهلاك التوابل بحوالي (200) ألف ليرة بعد أسواق أوروبا، التي تستهلك (450) ألف ليرة⁽⁴²⁾.

أصبحت تجارة التوابل والبهارات تحت سيطرة الهولنديين الذين اتخذوا من ميناء بندر عباس مركزا تجاريا وتكفلوا بتزويد فارس بحاجتها من الفلفل والقرنفل وجوز الطيب في حين لم يتمكن البريطانيون من تصريف سلعهم ومنتجات بلادهم⁽⁴³⁾.

رابعا: استخدام القوة:

استخدم الهولنديون القوة العسكرية وهو نفس الأسلوب الذي اقترحه شركة الهند الشرقية البريطانية لحمل المسؤولين على إعطاء حقوق استثنائية في تجارة البلاد⁽⁴⁴⁾.

هاجم الهولنديون قلعة «قشم» عام 1645 فى الوقت الذى كان أسطول هولندى كبير يربط فى الخليج العربى، وقد أدى هذا الهجوم إلى تخوف الشاه الذى طلب هدنة من القائد الهولندى الكومندور «يلوك» وعرض اتفاقا للسلام ومنح امتيازات تجارية، واستقبل شاه فارس فى أصفهان القائد الهولندى، وتم التصديق على شروط السلام، وتوقفت العمليات العسكرية وعقد اتفاقا حصل بموجبه الهولنديون على امتيازات شراء الحرير وحق تصديره دون دفع أية رسوم مما أثر كثيرا على التجارة البريطانية فى المنطقة(45).

خامسا: احتكار الحرير:

حصلت شركة الهند الشرقية البريطانية فى بداية عام 1633 على عقد من شاه فارس بنقل الحرير، غير أن الهولنديين كانوا لها بالمرصاد ومستعدين باتباع شتى الطرق والأساليب لإفشال هذا العقد واحتكار تجارة الحرير بأى ثمن، ولهذا فإنهم اتفقوا سرا مع بعض التجار الفرس وتلاعبوا بالكميات المنقولة من الحرير مما ألحق خسارة كبيرة لشركة الهند الشرقية البريطانية قدرت بآلاف التومانات، ولم تغامر الشركة البريطانية مرة أخرى بأن تطلب من شاه فارس عقد أية اتفاقية جديدة لشراء الحرير رغم حاجتها الماسة خوفا من الهولنديين ومزايداتهم بأسعار أعلى أو أية أساليب أخرى(46).

كثيرا ما كان الهولنديون يبيعون منتجاتهم ومن العائد يشترون معظم الحرير الفارسى وبذلك احتكروا الحرير وأصبح التبادل التجارى لصالحهم(47).

استغل الهولنديون ضائقة البريطانيين من النقص الحاد فى الحرير الخام، وانشغال شاه فارس فى الحرب مع الدولة العثمانية وحصلوا على صفقة تجارية فى إبريل من عام 1625 من وكيل شاه فارس «مولاييم بك» "MULLIAM BAG" لمدة ثلاثة أعوام مع تثبيت أسعارها والكميات المخصصة، وبلغت قيمة الصفقة (600000) فلورن، وعندما وصل خبر الصفقة إلى البريطانيين اندهشوا وأصيبوا بصدمة وخيبة أمل لأن مخازنهم كانت شبه خاوية من الحرير الخام الفارسى فى تلك الفترة ولم يتمكنوا من الوصول إلى شاه فارس نظرا لانشغاله فى ميدان القتال(48).

سادسا: تقديم الرشاوى لرجال الحكومة الفارسية:

قدم الهولنديون رشاوى إلى رجال الحكومة الفارسية وإلى الموظفين العاملين في الجمارك، وبقية القطاعات العامة الرسمية، وهو ما يحدث حاليا في الدول النامية وخاصة بعض الدول العربية حيث يدفع رجال الشركات الغربية بل وحكوماتها، لتمرير الصفقات السياسية والاقتصادية الرشاوى للوزراء وكبار موظفي الحكومة مما يؤدي إلى سوء الإدارة والفساد وتراكم الديون، حيث لم تستطع بعض هذه الدول سداد فوائده مستحقات الديون، وبالتالي دفع الرشاوى لرجال الحكومة مرض قديم وليس جديداً حالياً، ابتدعه المسيحيون الأوروبيون وخاصة الهولنديون ثم سرعان ما لحق بهم البريطانيون والآن يستخدمه الأمريكيون في منطقتنا العربية والإسلامية.

أكدت التقارير والرسائل من وكيل شركة الهند الشرقية البريطانية في بندر عباس اتباع أسلوب الرشاوى التي قدمها الهولنديون لرجال الحكومة الفارسية، وذلك في الرسالة التي بعثها إلى مقر الشركة في سوربات بالهند حيث يقول فيها(49):

«لقد عينا محاسبا يحسب لنا الخسارة ذلك، نظرا للحالة البائسة التي تمر بها تجارتنا ومن الأفضل لنا أن نفكر بطريقة نصلح بها الحال وأن التجار هنا ليس لديهم رغبة في الاتجار مرة أخرى، والتجارة الأهلية باتت غير مربحة أيضا حيث دخل الهولنديون كل مكان وكل منفذ، ويدفعون الرشاوى هنا وهناك والعامل الوحيد الذي يقلقنا هو التنافس الهولندي معنا ونحن نعرف تصرفاتهم أنهم يرغبون في أن نخسر لنذهب بعيدا عن هذه التجارة التي جاؤوا من أجلها بعد أن عرفوا أن لنا تجارة مربحة وحررة هنا».

استطاع الهولنديون عام 1624 إقناع شاه فارس عن طريق الرشاوى التي قدموها لحاشيته والتي لعبت دوراً في إقناع الشاه بالإصرار على تسليم كامل التحرير نقداً والذي سبق وأن سلم البريطانيون بقيمة «100000» جنيه استرليني مقابل تسليم الشاه نصف المبلغ بضائع، وفعلاً تم التوصل إلى ما أراده الهولنديون ولكن البريطانيون أصروا على تطبيق بنود العقد كاملاً، مما جعل هذه التصرفات تؤثر على النشاط التجاري البريطاني وأدت إلى تدهورها خلال العامين الأخيرين، مما

دفع وكيل الشركة البريطانية في بندر عباس إلى طلب (30000) ألف فلورن لتغطية الخسائر ومواجهة نفقات الشركة البريطانية بغية المحافظة على ما تبقى من النشاط التجارى (50).

سابعاً: تقديم الهدايا لشاه فارس:

حصل الهولنديون من خلال تقديم الهدايا للشاه وكبار الموظفين في البلاط وأسرة الصفويين على امتيازات كثيرة وأولوية وسمعة طيبة، وهذا ما كانوا يهدفون إليه حتى يحتكروا التجارة في فارس ويخرجوا البريطانيين خارج دائرة النشاط التجارى والسياسى.

تسببت زيارة سفير امبراطورية المغول الإسلامية في الهند إلى فارس في عام 1629 في خسارة كبيرة لشركة الهند الشرقية البريطانية، عندما أصر شاه فارس بأن يحول ثلثا حمولة إحدى سفن الأسطول البريطانى هدايا له (51).

يقول «فوستر»: «في حفلة استقبال الشاه لسفير امبراطورية المغول الإسلامية في الهند أراد أن يقدم له هدية ثمنها مئتا بالة من الحرير في الوقت الذى لم يكن لدى الهولنديين سوى اثنتين وأربعين بالة، فأسرعوا لشراء مائة وثمانية وخمسين بسعر خمسين تومانا للبالة الواحدة، أى بزيادة قدرها ثمانية تومات على كل بالة، ولم يتركوا مجالاً للشاه لشراء الحرير من البريطانيين الذين عرضوا بقيمة أربعين تومانا خوفاً من حصول تقارب بينهما، وقدمت تلك البالات إلى الشاه مجاناً كهدايا في احتفال أقيم بهذه المناسبة (52).

نتائج التنافس الأنكلو.هولندى:

لعب الهولنديون دوراً في التصدى لسياسة الهيمنة البريطانية في الخليج العربى، والتي كانت قائمة على منع غير البريطانيين من الإيجار والاتجار في الخليج العربى (53)، مما دفع الهولنديين إلى التنافس لشل حركة البريطانيين التجارية إن لم يكن لإنهاء وجودهم من بندر عباس.

بذل الهولنديون جهوداً كبيرة في التنافس التجارى مع البريطانيين الذين كانوا قد حققوا نفوذاً في الخليج العربى بعامه، وفي فارس وبندر عباس بخاصة بعد

جهد وعناء كبير، إلا أن مجيء الهولنديين حلفاء الأمس وأعداء اليوم شكل خطراً كبيراً في المنافسة وأدى إلى نتائج لم تكن في صالح بريطانيا في المدى القريب أى خلال القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر عندما بدأ النفوذ التجارى الهولندى فى التراجع، ولكن فى الفترة التى نحن بصدد دراستها سوف نستخلص بعض النتائج، ومن أهمها ما يلى: أولاً تدهور التجارة البريطانية وثانياً تفوق التجارة الهولندية.

أولاً: تدهور التجارة البريطانية:

تدهورت التجارة البريطانية فى بندر عباس بسبب الأساليب التى اتبعها الهولنديون فى منافستهم، وهذا لم يؤثر على التجارة البريطانية فى فارس فحسب، وإنما على التجارة الأخرى التى اعتبرت بريطانيا من شؤونها بين ساحل «كوراماندل» ومنطقة مدخل الخليج العربى التى استولى عليها الفرس بمساعدة بريطانيا بعد طرد البرتغاليين من هرمز، ورغم الخسائر الكبيرة التى لحقت بالبريطانيين إلا أنهم ظلوا متمسكين بمناصفة دخل الجمارك مع الفرس فى ميناء بندر عباس (54).

منذ البداية شهدت التجارة البريطانية تدهوراً ملحوظاً، فلم تزد فى المتوسط ' عن ألف وستمئة جنيه استرليني سنوياً، وبحث إدارة شركة الهند الشرقية البريطانية موضوع تصفية أعمالها وإغلاق وكالتها فى بندر عباس، وجرت مناقشات حول ذلك، بين المقر الرئيسى للشركة فى «لندن»، والمقر الإقليمى فى «سورات» بالهند، ولقى معارضة شديدة من بعض رجالها الذين قالوا بأن البريطانيين قدموا مساعدات كبيرة للفرس وقاموا بطرد البرتغاليين، والآن يتمتع الهولنديون بامتيازات واسعة وإعفاءات كاملة من الرسوم الجمركية والضرائب، ورغم أن البريطانيين يدفعون رسوماً مخفضة إلا أن تفضيل الهولنديين أدى إلى احتكارهم تجارة الحرير.

طرح المتخصصون عدة تساؤلات منها هل يجب استخدام القوة لإجبار شاه فارس على تغيير سياسته؟ وهل يمكن إرسال قوة برية أو فرض حصار بحرى فقط، فى حين كان رأى الأغلبية أن تجارة فارس لا تساوى قيمة أو تكاليف الحملة.

مع استمرار هذا التدهور وصلت تعليمات إلى الوكالة البريطانية في بندر عباس من مقررها الإقليمي في «سورات» بضرورة تصفية أعمالها تمهيدا لإغلاقها وعندما علم شاه عباس تدخل شخصيا لمنع التصفية ووعده البريطانيين بأن يمنحهم امتيازات جيدة، ولكن تلك الامتيازات كانت مؤقتة لتخدير الموقف أكثر من علاجه، واستمرت الأوضاع وظل التدهور على حاله، في حين اتبع الهولنديون أسلوبا آخر وهو زيادة حجم الاستيراد في الشهر الواحد من أجل زعزعة استقرار البريطانيين وإثارتهم حتى يرحلوا، وهذا ما يؤكد الرسالة التي بعثها ممثل الوكالة في بندر عباس إلى زميله في الوكالة البريطانية في أصفهان يقول: (55).

«لقد أفرغت السفن الهولندية بضاعتها قبل ساعات قلائل حيث كانت محملة بأنواع البضائع من «بتافيا» وهولندا وهذا شيء يخيفنا إذا ما استمرت الحالة لفترة طويلة على هذا النشاط اليومي المستمر، إضافة إلى أن السفن كانت تحمل بعض الأسلحة ومن المحتمل أن تصل سفينة أخرى خلال دقائق وتخرج سفينة أخرى محملة بالبضائع الفارسية بعد يومين أو أقل».

يتضح من ذلك زيادة حجم النشاط التجاري الهولندي في بندر عباس وأثره السلبي على النشاط التجاري البريطاني لأنه كان من الطبيعي أن يقبل التجار الفرس على شراء بضائع جديدة تصل كل يومين أو أقل أحيانا، أكبر من إقبالهم على السلع البريطانية التي لا تصل إلا خلال شهر أو أكثر من ذلك في بعض الأحيان، وخوفا من التدهور السريع فإن الشركة البريطانية عينت وكيلا جديدا اسمه «كيرج» "KERIDGE" رئيس الوكالة البريطانية نفسه في سورات مشرفا مباشرا على مصالح الشركة في فارس مع إعطائه كافة الصلاحيات اللازمة عند الحاجة.

بعد وصول الممثل الجديد إلى بندر عباس عام 1625 قام بدراسة أوضاع المنطقة والنشاط التجاري وقام بمقابلة المسؤولين الحكوميين والرسميين والتجار الفرس، وبعد ذلك قرر تصفية أعمال الوكالة التجارية. غير أن وكيل الشركة الرسمية في سورات «كيرج» اتهم الهولنديين بالتآمر ضد مصالح البريطانيين (56). في حين طلب ممثل الشركة في بندر عباس عدم التسرع في تصفية الوكالة والبقاء رغم الخسائر، لأن ذلك قد يشجع الهولنديين على الانتقال من التفوق التجاري إلى التفوق السياسي ليس في فارس فقط وإنما في الخليج العربي.

جاءت هذه الفكرة خوفا من ظهور فراغ بعد انسحاب البريطانيين من فارس مما قد يشجع الهولنديين على ملئه، وفي أثناء المناقشات حول تلك المشكلة، وقع نزاع شخصي بين «روبرت شيرلي» ومبعوث شاه فارس في لندن فتدخل الملك البريطاني وأرسل مبعوثا خاصا ويدعى السير «ديدموركتن» لهذا الذي استمر الهولنديون في تفوقهم التجاري (57).

يبرر لوريمر المؤرخ البريطاني تدهور التجارة البريطانية بوجود خونة في صفوف البريطانيين، ففي عام 1637 وبعد أن مات جيسون الوكيل البريطاني في أصفهان تبين أنه كان يقرض الهولنديين من أموال شركة الهند الشرقية البريطانية مما مكنهم من ابتياع الحرير وضرب التجارة (58).

استمر الهولنديون باحتكار معظم السلع حتى اضطر البريطانيون التقدم بطلب إلى شاه فارس يدعون فيه إلى (59):

1 - الحد من تصرفات الهولنديين والمعاملة السيئة من قبل التجار الفرس أنفسهم تبعا لذلك.

2 - السماح للبريطانيين بإعادة التصدير لأكثر من سنة للحد من الاحتكار الهولندي للسلع.

3 - منع زيادة الضرائب على البضائع الهندية.

4 - أن يولى عناية أكثر البريطانيين.

5 - تجديد عقد الشركة.

كل ما فعله الشاه تجاه هذا الطلب، هو تنفيذ الفقرات (4.3.2) أما الفقرتان (5.1) فلم يستجب لهما، لأنه كان يخشى الهولنديين، ووعد بأنه سيتعاون معهم لاتخاذ خطوات للحصول على تعويضات من الهولنديين لصالح البريطانيين بعد خسارتهم من الفلفل التي قدرت بأكثر من (100000) ليرة.

تراجع عوائد البريطانيين من الجمارك في بندر عباس؛

زادت حدة التنافس عندما رفض الهولنديون دفع الجمارك للبريطانيين في ميناء بندر عباس حيث كان نصيب البريطانيين (50٪) من دخلها السنوي بموجب الامتياز الذي حصلوا عليه من شاه عباس مقابل إخراج البرتغاليين من هرمز وتسليمها للفرس.

ولهذا ظل نصيب البريطانيين من عوائد الجمارك بميناء بندر عباس مخيبا للآمال وفيما يلي جدول يوضح ذلك (60).

السنوات	نصيب البريطانيين من عوائد الجمارك
1630 - 1631	55 تومان
1632 - 1633	هبط 242 تومان
1639 - 1640	341 تومان
1640 - 1641	200 تومان حصلت بصعوبة عن متأخرات العوائد على الفرس، وكان ثمة أمل في تحصيل 500 تومان عن نفس العام ولكن ذلك لم يحصل. 700 تومان حيث ارتفعت العوائد

ترجع ضالة العوائد الجمركية في بعض الأعوام إلى عدة أسباب بحسب تبريرات المؤرخ البريطاني لوريمر⁽⁶¹⁾ منها:

- 1 - سوء الأحوال التجارية في بعض الأعوام.
 - 2 - نصب واحتيال بعض الفرس.
 - 3 - إهمال بعض العاملين في شركة الهند الشرقية.
 - 4 - رفض الهولنديين دفع عوائد المستحق عليهم.
- اتهم كابتن «ويدل» في عام 1630 بارتكاب خطأ كبير أدى إلى خسارة، ورغم أنه حصل للشركة (200) جنيه استرليني في بندر عباس إلا أنه أقام حراسة تراقب المركز الجمركي مما نتج عنه خسائر مادية قد ترجع إلى تلاعب بعض الفرس، إلا أن الوضع تحسن قليلا في عام 1633 بمجهود «لوقتوس» الوكيل البريطاني الجديد الذي قام بنشاط لإنعاش الحركة التجارية للشركة.

هبطت عوائد الجمارك فيما بين عامي 1627 - 1638 إلى حدها الأدنى وبرر البريطانيون ذلك بوجود تواطؤ بعض ربانة سفن الشركة ووكلائها والمسؤولين الفرس، وذهب بعض البريطانيين حرصا على مصالح الشركة إلى حد التوصية باستخدام القوة لإرغام الفرس على التعامل التجاري الشريف (على حد قولهم) وقيل مرة إن نصيب البريطانيين لو حصل كاملا قد يصل إلى خمسة آلاف أو ستة آلاف تومان أي أكثر من خمسة عشر ألف جنيه استرليني في العام، وقد قال «ماندلسلي» أحد سفراء «دوق هولشتاين» إلى شاه فارس عندما رار بندر عباس عام

1637 إن البريطانيين لم يكونوا يحصلوا بالفعل على أكثر من عشر ما يستحقونه (62).

بعض خسائر التجارة البريطانية،

رغم التقارب البريطانى - الهولندى فى أوربا، إلا أن ذلك لم يمنع من التنافس فى الخليج العربى، فقد استمرت المنافسة الأنجلو - هولندية إلى درجة بات من الصعب على البريطانيين معها الاستمرار لشدة المنافسة الهولندية.

نلاحظ ذلك من حجم الخسائر التى لحقت بالتجارة البريطانية من جراء التنافس الهولندى والأساليب التى استخدموها ضدهم، ففي الفترة من 1624 - 1627 قدرت خسائر شركة الهند البريطانية بما يلى (63).

1 - (74.638) ألف فلورن بضائع تالفة نتيجة بيع الهولنديين بضائعهم بأسعار منخفضة.

2 - (50.000) ألف فلورن بضائع وأطعمة، وهذا يعنى خسارة تقدر بـ (30.000) ألف فلورن.

3 - (20.000) ألف فلورن بضائع شحنت وبقيت كاسدة حتى عام 1624.

4 - خسر البريطانيون (77.200) ألف فلورن من جراء تكديس البضائع وعدم سماح الهولنديين لهم بنقلها فى سفن أهلية بغيرهم.

وهذه الخسائر أدت إلى قلة عوائد شركة الهند الشرقية البريطانية فى الفترة من 1626 - 1632.

تراجع الصادرات البريطانية أمام الهولندية،

أ - تجارة الحرير:

أدى تفوق الهولنديين على البريطانيين فى تجارة الحرير إلى تراجع حاد فى الصادرات البريطانية من هذه التجارة فى فارس، وفيما يلى جدول يوضح الفرق فى الميزان التجارى لصالح شركة الهند الشرقية الهولندية، وفى صادرات الشركتين من الحرير الفارسى للأعوام (1626 - 1635) بالبالات (ورن الباله الواحدة يساوى مائة كغم).

يتضح من ذلك تفوق الهولنديين فى الصادرات على البريطانيين ويرجع

جدول يوضح صادرات شركتى الهند الشرقية البريطانية والهولندية من الحرير الفارسى
للأعوام (1626 - 1635) (64).

السنة	شركة الهند الشرقية البريطانية	شركة الهند الشرقية الهولندية	المجموع
1626	105	352	457
1627	60	602	662
1628	938	350	1288
1629	93	910	1003
1630	186	297	483
1631	790	-	790
1632	350	750	1100
1633	224	193	417
1634	110	784	894
1635	370	870	1241
المجموع	3227	5108	8335

انخفاض نسبة الصادرات الهولندية عام 1628 لتحسن وضع البريطانيين فى عهد شاه عباس، وقبل وفاته بالتحديد، وفى عام 1631 بسبب حصول البريطانيين على امتيازات من شاه صفى علما بأن الشركة البريطانية كانت تقايض بمختلف أنواع البضائع والأنسجة والفولاذ والأقمشة الهندية والقطن وغيرها مقابل الحرير الفارسى، غير أن خسائرها بلغت (214.798) ألف جنيه استرلينى، خلال خمس سنوات.

هذا راجع إلى التنافس الهولندى إضافة إلى نسبة الكمية المسلمة إلى شركة الهند الشرقية البريطانية، حيث كانت عام 1637 أقل بنسبة (25%) من الكمية السابقة، وهى ذات نوعية سيئة أما النوعيات الجيدة فكانت ترسل إلى هولندا مباشرة.

كثيرا ما كان الهولنديون يبيعون منتجاتهم ومن العائد يشترون معظم الحرير،

وأصبح التبادل التجارى لصالحهم⁽⁶⁵⁾، وكان الهولنديون قد احتكروا تجارة الحرير العالمية، وفيما يلى توضيح لـ تجارة الحرير الهولندية، ونسبة الحرير الفارسى من تجارة الحرير العالمية فى عام 1630⁽⁶⁶⁾.

الحرير الفارسى والأرمينى المصدر عن طريق البر عبر روسيا إلى موسكو وأرشفل "ARCHANGEL" ومنها إلى هولندا. 400

الحرير المصدر من ميناء سورات على بواخر شركة الهند الشرقية الهولندية 400

الحرير الفارسى المصدر من ميناء بندر عباس 400

الحرير من موانئ إيطاليا و «ليفنتا» "LAVANT" 300

المجموع بما يعادل 420.000 رطل 1500

ولم يبق فى يناير من عام (1640) أى نوع أو كمية من الحرير أمام البريطانيين للشراء وعندما وصلت سفينة لشركة الهند الشرقية البريطانية، وحاولت الحصول على كمية من الحرير للشراء لم تجد للحرير أثرا.

السبب فى ذلك راجع إلى وصول أربعة سفن هولندية إلى بندر عباس قبل شهر من وصول السفينة البريطانية، فأفرغت السفن الهولندية حمولتها من الفلفل الأسود، وأخذت معظم كميات الحرير إضافة إلى السكر.

ب - تجارة صبغة النيل:

لم يكتف الهولنديون بمنافسة البريطانيين فى تجارة الحرير، وإنما شملت معظم السلع والمنتجات، ومنها تجارة صبغة «النيلة» التى لم يسمحوا للبريطانيين بنقلها بواسطة العربات، فاضطروا لنقلها بواسطة الجمال فتعرضت للتلف، فخسروا فى هذه الصفقة عدة آلاف من التومانات.

ج - الفلفل الأسود:

عرض البريطانيون فى مارس عام 1637 كميات كبيرة من الفلفل الأسود بأسعار تراوحت ما بين (100 - 155) فلورن لكل وزنة، بينما عرض الهولنديون أسعاراً تتراوح ما بين (55 - 60) فلورن لكل وزنة، مما دفع التجار الفرس لشراء

الفلل الأسود الهولندي الرخيص الثمن، بينما لم يشتتر أحد الفلل الأسود البريطاني الذي تعرض للكساد، وبذلك خسر البريطانيون كثيرا.

د - القرنفل:

اتصفت العلاقات الأنجلو - هولندية بالتذبذب بين التقارب والتنافر، ففي عام 1633 حاول البريطانيون تحسين علاقاتهم مع الهولنديين للوصول إلى التعامل التجاري بدون تنافس، والموافقة على إيجاد طريقة معينة في المنطقة لتجارة القرنفل، لأنها كانت أصبحت تعاني من العجز والكساد في نهاية عام 1633 وهي السلعة الوحيدة التي لم يتاجر بها الهولنديون في المنطقة، ولهذا خشيت الشركة البريطانية عليها كثيرا.

طلبت من الهولنديين التوقف عن المنافسة حتى يلتقى ملك هولندا ملك بريطانيا، وفعلا تم الاتفاق بينهما، وأعطى بموجبيه للهولنديين حق شراء كل القرنفل من البريطانيين، ويلتزم الهولنديون بدفع مبلغ (1.000.000) و(200.000) روبية سنويا في نهاية كل ثلاث أعوام من أرباحهم و(500000) روبية تدفع من القرض السنوي، ولكن لم يستمر الحال حسب ما أراده البريطانيون، فسرعان ما عاد الهولنديون إلى مضايقاتهم التجارية وإغراق السوق بالسلع مما اضطر الوكيل البريطاني للشركة في بندر عباس أن يكتب لإدارة الشركة في سورات الرسالة التالية (67).

«يرجى عدم إهمال طلباتنا ورغباتنا وقد كتبنا لكم عدة مرات بأن رحلاتنا إلى بلاد فارس مخيفة وفاشلة ويجب أن تتوقف ويحل محلها وكالات تجارية في أوربا، طالما يوجد معنا صديق يضمم لنا العداء وطالما يوجد هبوط في التجارة بصورة عامة، حتى تجارة الفلل والقرنفل التي كانت مصدر ربحنا، إضافة إلى ارتفاع أسعار الأقمشة التي ندخلها قياسا بأقمشة الهولنديين، لذا نؤكد مرة أخرى على ضرورة إعطاء اهتمام أكثر بنا وبوضعنا الذي أصبح سيئا في هذه المنطقة».

جهزت شركة الهند الشرقية الهولندية في مارس 1640 كميات من القرنفل قدرت بقيمة (70.000) روبية، فسدت حاجة السوق، وقطع الهولنديون الطريق أمام البريطانيين الذين استلموا طلبية صغيرة جدا بعد شهر، ولم يستطيعوا تجهيزها لأنها تكاد تسد النفقات التي ستصرف على النقل والتعبئة.

وقرر مسئولو الشركة البريطانية تصفية وكالتها في «أصفهان»، ورفض العاملون في شركة الهند الشرقية أوامر شركتهم، وأجلوا تنفيذها حتى لا يعطوا مجالا لمنافسة الهولنديين.

ثانيا: التفوق التجاري الهولندي:

يبدو أن الهولنديين قد حققوا تفوقا واضحا، فقد شهدت الفترة (1622 - 1641) سيادة التجارة الهولندية على فارس ومينائها بندر عباس الذي كان يعج بالسفن والبضائع الهولندية⁽⁶⁸⁾.

نلاحظ ذلك من خلال الأعلام المرفوعة على السفن الراسية مقارنة بالأعلام البريطانية المرفوعة على سفنها، وكان متوسط السفن الهولندية التي تتردد على «بندر عباس» حوالي ثمانى إلى عشر سفن سنويا، وتتراوح قيمة التجارة مع فارس ما بين مائة ألف وعشرة آلاف جنيه استرليني سنويا⁽⁶⁹⁾.

وفيما يلى يوضح الجدول حركة السفن الهولندية ومحتوياتها مع حمولاتها خلال (1637 - 1640) والواصلة إلى ميناء بندر عباس⁽⁷⁰⁾.

السنة	عدد السفن	حمولاتها	جهة الاستيراد	مبلغها/ فلورن
1638	8	توابل	بتافيا	
1638	8	سلع أخرى	شرق آسيا	214.262.000
	2	فلفل أسود	ملبار	28.607.000
1639	4	سكر	سورات	36.278
	1	سكر	مخا	450.000
1640	2	فلفل، جوزة الطيب، القرنفل	بتافيا	220.424.000
	2	ثلاث بلا ملابس	بتافيا	46.268.000
	4	(44) بالة أقمشة قطنية	بتافيا	548.000.000
	2	رنجبل، صمغ، هيل، بخور، خشب الصندل	بتافيا	

زاد الهولنديون في عام 1641 من حجم صادراتهم والتبادل التجاري فأغرقوا السوق الفارسية بالبضائع الهندية والأوربية بأسعار رخيصة، تقل عن سعر التكلفة لضرب التجارة البريطانية، وإخراجها من المنافسة التجارية، حتى تصبح المنطقة خالية من أى منافسة وبالتالي يكتمل احتكار تجارة الصادرات الفارسية⁽⁷¹⁾، وبات من الصعب على البريطانيين الاستمرار في التجارة ومنافسة الهولنديين.

لكي يتفادى البريطانيون هذا الموقف، وجدوا أنفسهم في موقف حرج، وأنه من الضروري شحن ممتلكات الشركة من بندر عباس وإرسالها إلى البصرة لتوفير الأمن والاستقرار، وفعلاً وصلت الممتلكات في شهر يونيو من عام 1654⁽⁷²⁾ ولكن الهولنديين لم يتركوا مجالاً للبريطانيين، ووسعوا رقعة حربهم التجارية إلى العراق فأرسلوا أسطولاً مكوناً من ثماني سفن إلى البصرة، مما أدى إلى تدمير مؤقت لأعمال الشركة البريطانية التي أنشئت مؤخراً⁽⁷³⁾.

هكذا تزعزع مركز البريطانيين وغدا الهولنديون أسياد المنطقة واحتكروا تجارة فارس⁽⁷⁴⁾، منذ بداية القرن السابع عشر، ووصل الاحتكار ذروته في منتصف هذا القرن، خصوصاً بعد طرد الاستعمار الإرهابي المسيحي البرتغالي بتحرير مسقط عام 1650، وأعقب ذلك ازدياد هذا النفوذ حتى منتصف القرن الثامن عشر، مع تعرضها لبعض الهزات بسبب الأوضاع السياسية في فارس نتيجة لتغير أنظمة الحكم والأسر الحاكمة فيها.

أما بالنسبة للشركة البريطانية، فرغم محدودية النشاط التجاري، إلا أنه لم يقض عليه نهائياً، وقد يرجع ذلك إلى نوع التنافس الذي كان تجارياً أكثر منه سياسياً أو عسكرياً رغم الأسطول الهولندي القوي في الخليج العربي، كما أن العلاقات الهولندية في أوروبا كانت جيدة وأقرب إلى التحالف على عكس العلاقات بينهما في الخليج العربي والذي كان فيه التنافس والتنافر قائماً ومستمرًا.

فعلى الرغم من الوضع السياسي القوي إلى حد ما للبريطانيين، إلا أنهم لم يتمتعوا بنفوذ قوي في الخليج العربي في تلك الفترة، وإنما استفادوا من تلك التجربة وثبتوا هذا النفوذ مع بداية القرن التاسع عشر⁽⁷⁵⁾.

أسباب التفوق الهولندي التجاري:

سبق وأن درسنا التفوق الهولندي التجاري والتراجع البريطاني، ولكن ما

هى الأسباب؟ وكيف تفوقت هولندا فى التجارة؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عنه، ويمكن تلخيص عدة أسباب أهمها:

1 - حصول هولندا على استقلالها من أسبانيا: وكانت من أغنى الأقاليم السبعة ولا ننسى أن الهولنديين كانوا بحارة ماهرين بسبب طبيعة بلادهم، قبل أن يكونوا تجارا بارعين يتمتعون برؤوس أموال كبيرة(76).

ولذلك أدركوا قيمة البحر والتجارة وأهمية المشرق والدول الواقعة على سواحل المحيط الهندى بدرجة أولى ثم منطقة الخليج العربى وفارس بدرجة ثانية فى التجارة العالمية فى تلك الفترة.

2 - اعتبرت الحكومة الهولندية أن من مصلحتها العليا جعل شركة الهند الشرقية الهولندية قوة عسكرية منذ بداية تأسيسها(77) وذلك لحماية المخاطر المستقبلية التى قد تتعرض لها، ولهذا فإن الشركة كانت لها عدة حقوق خاصة منها استقلالية الإدارة والسيادة، ولها كامل التصرفات والحقوق لعقد وتوقيع المعاهدات والاتفاقيات مع الحكومات والدول الأجنبية ومع القبائل والقوى الأخرى فى آسيا(78).

لهذا اعتمد الهولنديون على أسطول بحرى قوى، فقد كان هذا الأسطول كبيرا ورخيصا، ويتألف من عشرة آلاف سفينة من مختلف الأحجام، وهى معظمها تجارية تتحول إلى عسكرية، وعلى ظهرها مائة وستون ألف من البحارة(79).

أما السفن الحربية فى البداية فلم تكن تتجاوز عشر سفن، ولكن ارتفعت عددها بعد مرور عشرين عاما على تأسيس الشركة إلى سبع وعشرين سفينة حربية جيدة التسليح ترابط فى الهند، إضافة إلى وجود ثلاثين مصنعا وعشرين حصنا وقلعة فى آسيا ثم ازداد عدد قطع الأسطول بشكل كبير، وكثيرا ما كانت تساعد حكومتها فى أوروبا فى أوقات المحن، فقد فقدت أربع سفن حربية فى الصراع مع بريطانيا فى الحرب الأولى عام 1639، فى حين كانت التضحية الكبرى فى الحرب الثانية مع بريطانيا، عندما ساعدت الشركة بعشرين سفينة حربية، وكلفها ذلك ما يعادل خمسة ملايين فلورن(80).

3 - دخل الهولنديون فى التنافس مع البريطانيين بخبراتهم الطويلة، سواء من خلال تعاملهم التجارى السابق فى أوروبا الغربية وخاصة بين البرتغال وأسبانيا

ووسط أوروبا ودول البلطيق، أو بتعاملهم التجارى بين منطقة المشرق فى المحيط الهندى ثم مجيئهم إلى الخليج العربى بعامة وبندر عباس وفارس بخاصة .

ظهرت الخبرة الهولندية الطويلة فى التجارة قبل البريطانية، نتيجة لظهور الطبقة البرجوازية والرأسمالية التجارية فى هولندا قبل بريطانيا، التى كانت تعتمد فى تلك الفترة على تجارة الأصواف، إضافة إلى المحاولات الهولندية الوصول إلى الشرق قبل بريطانيا .

ولعل من الأسباب التى جعلت الشركة تنجح فى مشروعاتها التجارية أيضا، هو اتخاذها مقرا خارج هولندا وهو فى بتافيا (جاكرتا حاليا) لأعمالها فى آسيا ومنها كانت ترسل معظم الرحلات والتعليمات إلى سفنها ووكالاتها فى المنطقة ومن بينها فارس (81).

4 - عدم حصول شركة الهند الشرقية البريطانية على الكميات الكافية من الحرير الفارسى بعد وفاة شاه عباس الأول عام 1627، أثر على صادراتها عبر ميناء «بندر عباس»، مما يعنى نهاية الاحتكار البريطانى لتجارة الحرير، فى حين حصلت شركة الهند الشرقية الهولندية، على مكاسب تجارية واسعة فى فارس واستمرت فى تركيز امتيازاتها وزيادتها عندما تمكنت فى عام 1636 من الحصول على امتيازات كبيرة، منها احتكار تجارة الحرير الخام وتصديره إلى الخارج . وفقد الشاه السيطرة على هذه التجارة، ولم يستطع إصدار أية تعليمات بخصوصها إلا بعد موافقة الهولنديين، مما أثر على تدهور التجارة البريطانية وحرمانها من شراء الحرير، كما اتفق الهولنديون مع شاه صفى لشراء الحرير بأسعار مرتفعة مقابل عدم بيعه للتجارة فى الأمم الأخرى، كما أصبح الهولنديون يزودون جميع أنحاء فارس بالتوابل والبهارات والأقمشة والحرير والتعامل بالنقد والذهب والفضة وجنوا من تجارة فارس أرباحا كبيرة (82).

ركز الهولنديون على تجارة التوابل والبهارات من جنوب شرق آسيا، تلك التجارة التى لم يشارك فيها البريطانيون وخاصة بعد سقوط «ملقا» من البرتغاليين تحت أيدي الهولنديين وأصبح طريق التوابل إلى جزر الهند الشرقية تحت سيطرتهم، حيث كانت مدينة «ملقا» الحصن الذى يتحصن فيه البرتغاليون ويسيطرون على الطرق التجارية للتوابل فى تلك المنطقة، وبعد احتلال الهولنديين

لها أصبح مركزهم لا يضارع فى التجارة مع الشرق وبخاصة ماليزيا وأندونيسيا. إلى جانب احتكار الهولنديين تجارة الحرير الفارسى وبذلك لم ينافسوا البريطانيين فقط وإنما أصبحوا أسياد التجارة فى آسيا تقريبا فى تلك الفترة.

5 - غالبا ما كان يجمع الذين يملكون الشركة بين وظيفتين أساسيتين هما عضوية مجلس إدارة الشركة وعضوية مجلس الوزراء الهولندى، وبالتالي كان لهم تأثير قوى فى اتخاذ القرارات المصيرية والحاسمة لصالح الشركة ومن ورائها الحكومة. مما جعلهم أكثر تقبلا للنفقات والتضحيات التجارية، وفرض سياسة الامتيازات بشتى الوسائل بخاصة القوة العسكرية فى مختلف أنحاء العالم نتيجة لوجود الاعتمادات المالية الضخمة التى كانت تمول الشركة الهولندية والدعم والعون الكبير المتواصل الذى كان يأتىها من الحكومة، سواء كان دعما سياسيا أو ماديا. بينما لم تجد شركة الهند الشرقية البريطانية هذا الدعم من حكومتها التى كانت تحدد من الامتيازات الاستثنائية للشركة فى لندن، كما لم تكن شركة الهند البريطانية تملك أى تأثير على حكومتها للنشاط التجارى.

اعتبرت الحكومة الهولندية شركتها أو التعامل التجارى مع المشرق، مسألة وطنية وقومية هامة يجب مساندتها بكل الوسائل، فى حين نظرت الحكومة البريطانية إلى شركتها فى تلك الفترة بأنها أمر يخص القطاع الخاص⁽⁸³⁾، وأنها كانت تسمح من وقت لآخر للمجموعات والأفراد بممارسة التجارة فى المحيط الهندى إلا أن احتكارها للتجارة لم يكن تاما⁽⁸⁴⁾ وبذلك تمتعت الشركة الهولندية باحتكار تام بينما تعرضت الشركة البريطانية لانتقادات كثيرة وتدخل مجلس الدولة الهولندى ليقضى على المعارضة المحلية للشركة وإنشاء شركة احتكارية قوية، ودمجت ست شركات أو مشروعات فى مؤسسة واحدة وهى شركة الهند الشرقية الهولندية، وأصبح فى وسعها الاحتفاظ بأسطول كبير بنفقات أقل مما يعنى ضمان النجاح فى العمليات التجارية⁽⁸⁵⁾.

هذا إلى جانب تصميم الشركة والحكومة معا على احتكار تجارة التوابل والبهارات والحرير، ومحاولة الحصول على أكبر نصيب ممكن من شركة وميراث الاستعمار المسيحى البرتغالى فى المحيط الهندى.

6 - أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية عدة محطات بحرية ومراكز لإنشاء وصيانة السفن ومخازن ومستودعات للوقود والبضائع على طول الطريق إلى الهند، نظرا لحاجة الشركة المتزايد إلى النشاط التجاري، كما انتزع الهولنديون رأس الرجاء الصالح من البرتغاليين وأقاموا محطة لتموين سفنهم مما وفر على الشركة الوقت والجهد ومكنها من نشاط كبير⁽⁸⁶⁾.

7 - انتهج الهولنديون سياسة المضاربة، وحققوا من ورائها أرباحا كبيرة، فعلى سبيل المثال تجاوزت ديونهم لدى تجار الأرض في إيران مبلغ (100) ألف جنيه استرليني، ولما كان رصيدهم المخزون من الحرير قليلا فقد عجزوا عن الوفاء بديونهم ولم يستطيعوا في نهاية الموسم دفع سوى (165) ألف جنيه، مما أوقع تجار الأراضي في حجز مؤقت على صادراتهم من الحرير⁽⁸⁷⁾. وبذلك أصبح الباب مفتوحا لتجارة الحرير الهولندية.

8 - تمتع الهولنديون بشبكة واسعة للتجارة تمتد من اليابان في الشرق الأقصى مرورا بالصين وجنوب شرق آسيا والهند والخليج العربي، وأفريقيا حتى غرب أوروبا ومنها إلى شرق ووسط أوروبا ودول بحر البلطيق ومنها بالطرق البرية إلى آسيا عبر روسيا.

بذلك تمكنوا من نقل وتصريف مختلف المنتجات والسلع في هذه الأسواق الواسعة والكبيرة والمتنوعة.

الخلاصة:

يمكن القول إن هذا التفوق الهولندي ونجاح المشروعات التجارية في المحيط الهندي وخاصة في بندر عباس وفارس والخليج العربي، راجع إلى افتقار المؤسسات البريطانية ليس لوسائل الدفاع فقط، وإنما إلى ما كان يملكه الهولنديون من المهارة البحرية والحنكة التجارية وحب المغامرة والتضحية والفداء، ودعم الحكومة بلا حدود والخبرة والدبلوماسية في المفاوضات. وحتى عام 1649 استمر الهولنديون في تصاعد وبدأ أنهم سوف يحصلون على مكاسب وامتيازات من شاه فارس الذي كان يخاف منهم أكثر مما كان يحترمهم.

وذلك بالرغم من أن الشركة الهولندية والشركات الأوربية الأخرى اقتصر

على نقل التجارة بطريقة تقليدية فى آسيا كما كان يفعل التجار العرب وخاصة الحضارمة، ونظم الهولنديون طريقة تجارتهم بدءا من اليابان وحتى الخليج العربى بطريقة المبادلة التجارية، وينقل المواد من مكان إلى آخر، ومن جراء فرق الأسعار كانوا يحصلون على فائض فى المال لشراء التوابل والبهارات والحرير ومن ثم احتكروا بيعها.

ولم يظهر التعامل مع البضائع المصنعة فى أوربا وينتشر إلا فى بداية القرن الثامن عشر تقريبا، وكان الفرق بين التجار العرب والشركات الأوربية هو أنها مارست الاحتكار بشتى الطرق وبخاصة العسكرية لبعض المنتجات مما أضر بمصالح الشعوب الآسيوية.

لقد كانت دوافع ووسائل الشركات الأوربية وخاصة الهولندية فى البداية مالية وتجارية أكثر منها سياسية استعمارية، ولكنها تحولت إلى الهدف الأخير نتيجة لتزايد الرغبة فى نهب ثروات الشعوب، مما جعلها تتحول إلى استعمار إرهابى متسلط جعل تلك الشعوب لا تستطيع التحكم فى مقدراتها على نحو يؤثر فى أنظمة الحكم الرأسمالى الغربى المسيحى وخاصة الاقتصاد.

اتبعت الحكومة الهولندية فى هذه الفترة سياسة المتاجرة وكسب الثروة عن طريق رؤوس الأموال المتدفقة من البنوك والشركات، وعدم التدخل فى الأمور الداخلية للمناطق التى كانوا يتعاملون معها، وإنما اكتفوا باحتكار التجارة.

ولهذا يمكن اعتبار بداية القرن السابع عشر فترة إنشاء وانتشار الشركات التجارية الرأسمالية الأوربية التى أصبحت احتكارية إرهابية فيما بعد ثم جلبت الاستعمار على شعوب المنطقة، ليس لاستمرار نهب خيراتها وإنما لعدم إتاحة الفرصة لنهوض تلك الشعوب لحماية ثرواتها، وبينما استسلمت تلك الشعوب للاستعمار الإرهابى الأوربى وشركاته وبينما اشتد نشاط الأسطول الهولندى واستعمار اندونيسيا ثم جاء بعده الأسطول البريطانى واستعمار الهند ثم الاستعمار الفرنسى واستعمار معظم أجزاء أفريقيا.

وأخيرا جاء الأسطول الأمريكى ليفرض على العالم الثالث أمنه وواقعه وإرادته.

الختام:

أتمنى أن أكون قد وفقت في دراسة هذه المرحلة التي بدأت بعد طرد الاستعمار الإرهابي البرتغالي الأوربي ومجيء الاستعمار الهولندي والبريطاني الأوربي، في بداية النصف الأول من القرن السابع عشر حيث ذهب قيصري وجاء قيصري بثوب جديد. وإن هذه الحقبة تمثل بداية ظهور الشركات الرأسمالية الأوربية التي تحولت إلى شركات احتكارية ثم أداة من أدوات الاستعمار الإرهابي المسيحي.

ولعل الدراسة تكشف عن أن الأطماع الاقتصادية التجارية تأتي بالصدقة فإذا ما وجدت ثروات مع ضعف الدول فإنها تتحول إلى سياسة نهب واستعمار وإرهاب أو هيمنة سياسية كما تتحول إلى استعمار عسكري إذا ما كان ذلك ضروريا للحفاظ على مصالحها كما تفعل الدول الغربية الآن - وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية - في منطقة الخليج العربي العزيزة على قلوبنا.

الهوامش :

- (1) عباس العصفور: بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ص 98.
- (2) ميناء انتورين أو انتوريوب من الموانئ الذي اشتهر منذ تلك الفترة وحتى يومنا هذا ويعتبر حاليا من أهم موانئ بلجيكا إن لم يكن الميناء الرئيسي.
- (3) عباس العصفور : المرجع السابق ص 98.
- (4) مصطفى عقيل الخطيب: التنافس الدولي في الخليج العربي ص 144.
- (5) أرنولد . ت. ويلسون : تاريخ الخليج ص 126.
- (6) ARTURATTMAN: DUCH ENTERPRISE IN THE WORLD BUL- LION TRADE (1550 - 1800) P.9
- (7) عباس العصفور: المرجع السابق ص 99.
- (8) وزارة الخارجية الهولندية: هولندا والعالم العربي ص 30.
- (9) بيرين جاكليين: اكتشاف جزيرة العرب ص 30.
- (10) مصطفى عقيل الخطيب: المرجع السابق ص 147.
- (11) بيرين جاكليين: المرجع السابق ص 30.
- (12) D.W.DAVIES: APRIMER OF DUTCH SEVENTEENTH CETU- RY OVRSEAS TRADE. P.97.
- (13) D. W. DAVIES. IBID. P. 97.
- (14) عبدالعزيز عبدالغنى إبراهيم: حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي ص 14.
- (15) سليم طه التكريتي : المقاومة العربية في الخليج العربي ص 63.
- (16) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعي: غزاة في الخليج ص 30.
- (17) JONUTHANI. ISRAEL: DUTCH PRIMACY IN WORLD TRADE P. 121. (1585 - 1740)
- (18) JONATHANI. ISRAEL: IBID P.121.
- (19) د. عبدالعزيز محمد الشناوي: المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية. بحث مقدم إلى مؤتمر شرق الجزيرة العربية ص 655.
- (20) LAURENCE LOCKHRT: OP. CIT. P. 106.

- (21) د. عبدالعزيز محمد الشناوى : المرجع السابق ص 965.
- (22) LAURENCE LOCKHART: OP. CIT. P. 106.
- (23) د. صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى ص 30.
- (24) د. بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ج 1 - ص 36.
- (25) LAURENCE LOKART: OP. CIT. P. 106.
- (26) د. بدر الدين عباس الخصوصى : المرجع السابق ص 26.
- (27) د. عبدالعزيز محمد أمين: بحوث المؤتمر البترولى للتاريخ ص 652.
- (28) د. بدر الدين عباس الخصوصى : المرجع السابق ص 35.
- (29) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 31.
- (30) أرنولد . ت. ويلسون: المرجع السابق ص 128.
- (31) حسن أحمد إبراهيم : المطامع الأوربية فى الخليج . بحث مقدم إلى مؤتمر شرق الجزيرة العربية ص 895.
- (32) سليم طه التكريتى: المرجع السابق ص 63.
- (33) مصطفى عقيل الخطيب: المرجع السابق ص 149.
- (34) مصطفى عقيل الخطيب: نفس المرجع ص 150.
- (35) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 71.
- (36) مصطفى عقيل الخطيب: المرجع السابق ص 150.
- (37) ج. ج. لوريمر: دليل الخليج ج 1 ص 12.
- (38) د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص 37.
- (39) ج. ج. لوريمر: المرجع السابق ص 62.
- (40) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 31.
- (41) د. بدر الدين عباس الخصوصى ص 37.
- (42) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: المرجع السابق ص 46.
- (43) أرنولد . ت. ويلسون - المرجع السابق ص 132.
- (44) د. بدر الدين عباس الخصوصى: المرجع السابق ص 31.
- (45) ج. ج. لوريمر: المرجع السابق ج 1 ص 69.

- (47) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعي: المرجع السابق ص 56.
- (48) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعي: نفس المرجع ص 56.
- (49) ج. ج. لوريمر: المرجع السابق ص 62.
- (50) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعي: المرجع السابق ص 58.
- (51) محمد أمين: الخليج العربي ص 24.
- (52) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 31.
- (53) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعي: المرجع السابق ص 47.
- (54) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعي: نفس المرجع ص 48.
- (55) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 31.
- (56) ج. ج. لوريمر: المرجع السابق ص 69.
- (57) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعي: المرجع السابق ص 59.
- (58) ج. ج. لوريمر: المرجع السابق ص 62.
- (59) ج. ج. لوريمر: نفس المرجع ص 63.
- (60) ج. ج. لوريمر: نفس المرجع ص 63.
- (61) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعي: المرجع السابق ص 50.
- (62) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعي: نفس المرجع ص 58.
- KRISTOF GLAMANN: CIT. P. 120. (63)
- JONOTHAN I.ISRAEL: OP.CIT. P. 154. (64)
- (65) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعي: المرجع السابق ص 55.
- (66) أرنولد. ت. ولسون: المرجع السابق 132.
- (67) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 32.
- (68) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعي: المرجع السابق ص 62.
- (69) أرنولد. ت. ولسون: المرجع السابق ص 30.
- (70) محمد أمين: المرجع السابق ص 30.
- (71) ج. ج. لوريمر: المرجع السابق ص 61.

- (72) د. محمد رشيد الفيل: الأهمية الاستراتيجية للخليج العربى ص 51.
- (73) د. عبدالامير محمد أمين: المصالح البريطانية فى الخليج العربى ص 21.
- (74) د. جلال يحيى: العالم الإسلامى الحديث والمعاصر ص 280.
- (75) C.W.DAVIES: OP. CIT. P. 97.
- (76) KRISTOF GLAMANN. OP. CIT. P. 7.
- (77) د. جلال يحيى: المرجع السابق ص 280.
- (78) KRISTOF GLAMANN: OP.CIT. P.6.
- (79) C.R. BOXER: DUTH MERCHANTS AND MARINERS IN ASIA
P. 89. (1602 - 1795)
- (80) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 59.
- (81) د. حسن أحمد إبراهيم: المرجع السابق ص 89.
- (82) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 37.
- (83) د. جلال يحيى: المرجع السابق ص 484.
- (84) C.R.BOZER. OP. CIT. P.93.
- (85) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 32.
- (86) محمد عدنان مراد: صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج العربى ص 166.
- (87) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 32.

المراجع:

أولا: المراجع العربية:

- 1 - أرنولد . ت . ويلسون: تاريخ الخليج: وزارة التراث القومى والثقافة. مسقط 1981.
- 2 - أمين سعيد: الخليج العربى: دار الكاتب العربى بيروت.
- 3 - بدر الدين عباس الخصوصى (دكتور) دراسات فى الخليج العربى الحديث والمعاصر. الجزء الأول. ذات السلاسل الكويت 1984.
- 4 - بيرين جاكليين: اكتشاف جزيرة العرب.
- 6 - ج. ج. لوريمر: دليل الخليج. القسم التاريخى. ترجمة وطباعة دولة قطر. الدوحة.

- 6 - جمال زكريا قاسم (دكتور): الخليج العربي عصر التوسع الأوربي الأول. دار الفكر العربي. القاهرة 1985.
- 7 - جلال يحيى (دكتور): العالم الإسلامى الحديث والمعاصر: المكتب الجامعى الحيث الإسكندرية 1982.
- 8 - فؤاد سعيد العابد (دكتور): سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ذات السلاسل. الكويت 1981.
- 9 - سليم طه التكريتى: المقاومة العربية فى الخليج العربى. وزارة الثقافة والإعلام. دار رشيد. بغداد 1982.
- 10 - صلاح العقاد (دكتور): التيارات السياسية فى الخليج العربى. مكتبة الانجلوا المصرية - القاهرة 1974.
- 11 - عائشة السيار: دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا. دار القدس. بيروت 1975.
- 12 - عبدالأمير محمد أمين (دكتور): المصالح البريطانية فى الخليج العربى. مركز دراسات الخليج العربى. مسقط 1983.
- 13 - عبدالعزيز عبدالغنى إبراهيم (دكتور): حكومة الهند البريطانية والإدارة فى الخليج العربى، دراسة وثائقية. دار المريخ. الرياض 1983.
- 14 - عبيد طويرش: الصراع حول مضيق هرمز: اتحاد كتاب وأدباء الإمارات. الشارقة 1990.
- 15 - محمد رشيد الفيل (دكتور): الأهمية الاستراتيجية للخليج العربى. رابطة الاجتماعيين. الكويت 1974.
- 16 - محمد أمين: الخليج العربى.
- 17 - محمد عدنان مراد. صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج العربى. دار دمشق 1984.
- 18 - مصطفى عقيل الخطيب: التنافس الدولى فى الخليج العربى (1622 - 1763). المكتبة العربية - بيروت 1981.
- 19 - هيفاء عبدالعزيز الربيعى (دكتورة): غزاة فى الخليج. دار الكتب للطباعة والنشر. جامعة الموصل 1989.

20 - وزارة الخارجية الهولندية : هولندا والعالم العربى . لاهى 1987 .

ثانيا: بحوث وندوات:

- 1 - حسن إبراهيم (دكتور): ندوة تاريخ شرق الجزيرة العربية . لجنة التاريخ . الدوحة . المطامع الأوربية فى الخليج العربى 1976 .
- 2 - عبد العزيز الشناوى (دكتور): ندوة تاريخ شرق الجزيرة العربية . لجنة التاريخ الدوحة 1976 .
- 3 - عبدالعزيز العصفور: بحوث المؤتمر الدولى للتاريخ (1973 /3 /25) . منشورات وزارة الإعلام . العراق . بغداد 1974 .
- 4 - عبد الأمين محمد أمين: بحوث المؤتمر الدولى للتاريخ (1973 /3 /25) منشورات وزارة الإعلام العراق . بغداد 1974 .

ثالثا: المراجع باللغة الأجنبية:

- 1) Artur Attman: Dutch Enterprise in The World (Bu1-1800) Kungl. Vetenskaps. Och. Vitte-lion Trade (1550-Rhets. Samhallet. Gte-borg-1983.
- 2) C.r.Bozer - Dutch Merchants And Mariners in Asia Orum Re-prints. London 1988. (1602 - 1795) Vari.
- 3) D.W. Dvies Aprimer Of Dutch Seventeenth Century Overseas Trade - Martinus Nijhoff The Hague 1961.
- 4) Kristof Glamann: Dutch - Asiatic - Trade (1620 -1740) - Martinus Nijhoff-the Hague 1958.
- 5) Laurenc Lockhart - Famous Cities Of Iran-published Walter Pearce & Co. Brent Ford Middle-sez 1939.
- 6) Jonathan I.Israel-Dutch Primacy In World Trade (1585 - 1740) Clarendon Press Oxford 1989.

الفصل الثالث



هجرة القبيسات الأولى من أبوظبي إلى
الحديد والدور البريطاني في النصف
الأول من القرن التاسع عشر

« دراسة وثائقية »

نشر هذا البحث في مجلة دراسات تاريخية - العددان 45 - 46 آذار - حزيران 1993 - دمشق.

مقدمة

نتناول في هذا البحث هجرة القبيسات الأولى إلى العديد من عام (1835 - 1837) والموقف البريطاني تجاهها، ودوره المزدوج في البداية بعدم معارضة سياسة التجزئة التي مارستها في المنطقة وتمشيها معها، وخاصة تجاه رأس الخيمة وأبوظبي، وتفتيت وحدة ساحل عمان بعد انفصاله عن عمان الام، في نهاية الدولة اليعربية، وصولاً إلى اعترافها بانفصال دبي عن أبوظبي 1833. ثم محاولة بريطانيا الاعتراف بانفصال القبيسات عن أبوظبي (1835 - 1837).

لقد فشلت عملية الانفصال بسبب ضعف الأسرة وصغر حجمها وعدم مقدرتها على حفظ المصالح البريطانية. إضافة إلى التخوف البريطاني من تحول منطقة «العديد» إلى مصدر أزعاج وتهديدها للامن البريطاني. لذلك فإن بريطانيا تراجعت عن مواقفها السابقة بتشجيع الانفصال وقيام امارات جديدة، إلى السماح لحاكم أبوظبي باسترجاع أسرة القبيسات بشن حملة عسكرية.

تقوم هذه الدراسة أساساً على الوثائق التي تنشر لأول مرة، والتي تلقى الضوء على ما كان يجرى من مراسلات بين حاكم أبوظبي، وشيخ القبيسات المنشق، والوكلاء البريطانيين في الشارقة والبحرين، والمقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، وحكومة بومباي في الهند.

أسرة القبيسات: القبيسات أسرة صغيرة تعمل في صيد الاسماك واللؤلؤ وبناء السفن، من تحالف عشائر بني ياس في إمارة أبوظبي، يعيش غالبية أفرادها فصل الشتاء بمنطقة «ليوا»، على أطراف الربع الخالي في الظفرة، ويملكون اشجار نخيل وأغنام وماعز. وهم الذين قاموا ببناء مدينة على الساحل الجنوبي «لخور العديد» في بداية القرن التاسع عشر، عرفت بمدينة «العديد»، التي اكتسبت أهمية استراتيجية عندما جاء العثمانيون إلى الاحساء وقطر، إذا كانت الحد الفاصل بين النفوذ العثماني والبريطاني في شرق الجزيرة العربية، إضافة إلى حكم أسرة القبيسات واقامتها هناك في تلك الفترة. وتحظى حالياً المنطقة بأهمية كبيرة، لوجود احتياطي من البترول فيها، ولكونها الحد الفاصل بين إمارة أبوظبي وقطر والسعودية. كما أن السعودية تسعى لايجاد منفذ بحري لتصدير النفط في المستقبل القريب.

أسباب هجرة القبيسات من أبوظبى إلى «العديد»: عندما قامت السلطات البريطانية بجمع الغرامة التى فرضتها على حاكم أبوظبى خليفة بن شخبوط، لتعديه وتعرضه للسفن البريطانية فى الخليج العربى، هرب رعاياه فى كل الاتجاهات ليتفادوا دفع أنصبتهم، إلى درجة أن بريطانيا طلبت من بقية حكام مشيخات ساحل عمان عدم استقبال الهاربين من أبوظبى. ومن هؤلاء الهاربين كان أهل «القبيسات»، الذين تركوا ديارهم وديونهم دون سداد وانتقلوا إلى «العديد» فى المنطقة الساحلية الجنوبية الغربية غير الاهلة بالسكان، بزعامه خادم بن نهيمن، وأسسوا لأنفسهم موطنًا جديدًا هناك.

إضافة إلى الضرائب كان هناك سبب آخر وراء خروج أسرة القبيسات من «أبوظبى»، وهو الأمل فى تكوين مشيخة مستقلة أسوة بمشيخة دبهى التى انشقت وانفصلت عن «أبوظبى» عام 1835 بعدما شجعتها بريطانيا لإضعاف قوة أبوظبى و«رأس الخيمة» وتجزئة أملاكها إلى إمارات صغيرة، حتى تستطيع مواجهتهم بأسطولها فى الخليج العربى. وبذلك كانت بعض القيادات والزعامات المحلية من القبيسات وراء قيام مشيخة مستقلة عن مشيخة أبوظبى دون أن تدرك الدوافع البريطانية وراء ذلك، وتكون بذلك قد وضعت مصلحتها الخاصة ونظرتها الضيقة فوق مصلحة بنى ياس أو إمارة أبوظبى الوطنية العليا.

لكننا نلاحظ توجه شيخ القبيسات إلى البحرين بعدما أسكن أفراد أسرته فى «العديد»، وقد يرجع ذلك لطلب الحصول على مساعدات مالية ومعنوية من بعض أفراد المقيمين فى البحرين والذين لا يتجاوزن العشرين شخصًا⁽¹⁾. ويبدو أنه حاول الحصول على دعم من حاكم البحرين، إلا أنه لم يوفق فى ذلك نظرا للعلاقة القوية بين حاكم البحرين وحاكم أبوظبى، وخاصة أن الأخير كان دائما يبعث بقواته لمساعدة حاكم البحرين كلما حاولت قطر الانفصال عنها.

إعلان استقلال العديد وموقف حاكم أبوظبى: أعلن خادم بن نهيمن شيخ القبيسات انفصاله واستقلاله عن أبوظبى وعزمه على إقامة مشيخة خاصة به فى العديد، وقام بحفر إبار المياه العذبة واسكن جماعته هناك. وأول رد فعل كان من قبل خليفة بن شخبوط، إنه كتب إلى الوكيل البريطانى فى الشارقة الملا حسين يبلغه بأمر الانفصال، وبأنه لن يسكت هذه المرة على اقتطاع جزء من إمارته أو قبول انفصاله عنها، علما بأن «البوفلاسة» كانوا قد انفصلوا عن أبوظبى وأقاموا

لهم مشيخة خاصة بهم فى عهد خليفة نفسه عندما هاجروا إلى دى وأعلنوا الاستقلال عام 1833. وقد اعترفت بريطانيا بذلك ومنعت أبوظبى من استعادة دى.

خاطب حاكم أبوظبى المقيم السياسى البريطانى فى 15/11/1835 بقوله:

إن القبسات هى جزء من قبيلته وإن مساكن افرادها واسرها موجودة، ولكنهم غادروا أبوظبى باختيارهم إلى مدينة الدوحة، وطلب منهم شراء عدد كبير من املاكهم، وبما انهم خرجوا عن طاعته وسيادته فإنه غير مسؤول عن تصرفاتهم التى قد تلحق ضررا بالغا بالامن فى المياة الاقليمية مما قد يشكل خطرا ومصدر ازعاج وقلق للسلطات البريطانية⁽²⁾. وإنه يهدف إلى إعادتهم إلى منازلهم، وبالتالي إلى سلطته وسيادته. وإنه يعلم المقيم السياسى البريطانى أولا بأول. حتى لا يتخذ المقيم عدم إخباره بتصرفاته المستقبلية ذريعة ضده.

بناء على ذلك فإنه طلب من المقيم السياسى البريطانى السماح له بإعادة افراد أسرة القبسات، أو أن يطلب منهم العودة طوعا إلى أبوظبى، وإنه ينتظر استلام الرد سريعا قبل ان يتحالفوا مع القبائل الاخرى وخاصة قبائل شرق الجزيرة العربية مثل «الهواجر» و «بنى مرة»، مما يعنى حدوث شغب وفوضى، علما ان القبسات حتى تلك اللحظة لم يكونوا قد انضموا إلى أية قبيلة أو تحالف غير أبوظبى.

اختتم خليفة بن شخبوط طلبه بقوله:

أنت موقن انهم من رعايانا ومن المهم أن تأمرهم بالعودة، ونأمل إما أن تسمح بأن نرجعهم أو أن تأمرهم انت بالعودة.

يتضح من ذلك مدى التزام حاكم أبوظبى باتفاقيات الهدنة البحرية التى فرضتها بريطانيا على حكام مشيخات ساحل عمان، اضافة إلى طلبه الموافقة البريطانية لنقل قواته عبر البحر إلى العديد، لاعادة المنشقين إلى سيادته.

حذر المقيم السياسى البريطانى حكومته من مغبة تجاهل طلب حاكم أبوظبى، الامر الذى قد يشير هؤلاء القبسات المنشقين ويدفعهم إلى أعمال مخلة بالامن فى المنطقة والى تجاوز اتفاقيات الهدنة البحرية فى مياة الخليج العربى. ولم تشأ بريطانيا التدخل آنذاك إلا فى اطار مصلحتها، وأرسلت عام 1836 أسطولا صغيرا مؤلفا من ثلاث سفن حربية إلى «البدع والوكرة والعديد» وأخذت تعهدا كتابيا من

حكام تلك المناطق بعدم التعرض للسفن والمصالح البريطانية في الخليج العربي، ومراقبة الساحل وبذل أقصى طاقة ممكنة للحيلولة دون التعرض لسفنها، ولضمان تنفيذ المطالب البريطانية.

كما طلبت من خادم بن نهيمان القبيسي تقديم كفالة تقدر بقدر معين من المال أو الممتلكات العينية ترد إليه عندما يظهر سلوكا متجاوبا، ويظهر أن العهد الذي قطعه على نفسه غير كاف لان بريطانيا كانت تخشى ان تتحول «العديد» إلى قاعدة لضرب السفن والمصالح البريطانية في الخليج العربي من المقيمين في تلك المنطقة أو المناطق المجاورة لها. وهذا يعنى انها لم تكن تمنع في انفصال «العديد»، بشرط الالتزام بالامن البريطانى والتعهد بذلك، وفي الوقت نفسه تتخلى عن التزاماتها تجاه حاكم أبوظبي الذي وقع أيضا تلك التعهدات، كما تحاول تجزئة مشيخته الكبيرة إلى مشيخات صغيرة.

أثنى «ويلوغبى» وزير الدولة في حكومة بومباي على تصرفات المقيم السياسى البريطانى تجاه القبيسات بتسوية خلافاتهم مع حاكم أبوظبي بموجب رسالة بعث بها بتاريخ 1826/7/9⁽³⁾: أمرنى حاكم المجلس ان اعلمك انك تصرفت بحكمة عندما بعثت برسالة إلى شيخ القبيسات توصيه فيها بتسوية خلافاته مع خليفة بن شخبوط وتعلمه فيها عن مغبة عدم الالتزام بهذه التوصية.

ولكن يبدو ان هذه المحاولات لم تنجح فى اقناع القبيسات فى التوصل إلى حل مرض، وذلك واضح من خلال الرسالة التى بعثها «ويلوغبى» وزير الدولة فى حكومة بومباي إلى المقيم السياسى البريطانى بتاريخ 1836/9/9، وجاء فيها⁽⁴⁾: اننى أعبر عن اسف الحكومة لفشل محاولتك التوصل إلى صلح بين رعايا خليفة بن شخبوط وشيخ القبيسات.

برغم هذا الفشل فقد كان الاتجاه السائد لدى السلطات البريطانية هو المحافظة على كيان المشيخة الجديدة والاعتراف غير المباشر بها فى هذه المرحلة. فقد جاء فى رسالة من مكتب الاشراف فى بومباي إلى الكابتن «هنيل» مساعد المقيم السياسى البريطانى بتاريخ 1836/12/17⁽⁵⁾: نأمل ان نتمكن من الاحتفاظ باكواخ الخشب الخاصة (ويقصد فيها منازل العشيش والقصب) بأفراد القراصنة الذين توطدوا بالقرب من العديد.

وهنا نلاحظ استمرارية حكومة الهند البريطانية في إطلاق اسم «القراصنة» على افراد القبيسات الذين استوطنوا في العديد، أما قوله بالقرب من «العديد» فيقصد به السكن بالقرب من مياة «خور العديد».

ويتضح من هذه الرسالة رغبة بريطانيا في تقديم الحماية غير المباشرة للقبيسات مع عدم التورط باعطاء أية تعهدات مكتوبة لهم، فقد كان «و.ه. وولترس» رئيس الحكومة في بومباي قد كتب إلى المقيم السياسى البريطانى بتاريخ 1836/10/29⁽⁶⁾: أود إعلامك أن حاكم المجلس قد أقر باجراءاتك المؤقتة والمتعلقة بنقل مدفعين و14 قذيفة مع توابعها اللازمة إلى السفن الحربية التى هى على وشك التوجه إلى العديد.

نجد من خلال رسائل المسؤولين فى الخليج العربى إلى حكومة الهند البريطانية التناقض فى السياسة البريطانية مع القبيسات، ففى حين لا تمنع فى المصالحة بين القبيسات وحاكم أبوظبى، فإنها تشجع الانفصال، وهذا يعنى ان بريطانيا كانت تجس نبض القبيسات وخاصة إذا ما اثبتوا قدرتهم على حماية أنفسهم ونجحوا فى الاستقلال عن أبوظبى، كما فعلت البوفلاسة فى امارة دىي عندما انفصلوا وحافظوا على استقلالهم. ولا شك ان بريطانيا تدعم استقلال القبيسات. ولكنها فى حال فشلهم، سوف تعمل على تشجيع حاكم أبوظبى لإعادتهم إلى سيادته ولو بالقوة العسكرية، وهذا ما حدث فيما بعد، ونلاحظ هذا من الرسائل المتبادلة بين بريطانيا من جهة وحاكم أبوظبى والقبيسات من الجهة الأخرى.

وجدت بريطانيا فيما بعد ان التكوين الاسرى للقبيسات صغير لا يستطيع حماية «العديد»، أو يحول دون استخدامه كمركز لتهديد السفن والمصالح البريطانية والاخلال بالامن البريطانى، اضافة إلى ترك القبيسات يحكمون تلك المنطقة دون تقديم المساعدات اللازمة لهم يجعل وجودهم فى خطر بمواجهة القبائل القوية المجاورة. فى حين ان عدم السماح لخليفة بن شخبوط - المرتبط مع بريطانيا بمعاهدات الهدنة البحرية - باستعادة العديد، ومنعه من حرية الحركة فى البحر، كان من الممكن ان يشجع شيوخ القبائل الأخرى على تأسيس مشيخات صغيرة فى مناطق يصعب تقديم الحماية اللازمة لها لارتباطها بعمق الجزيرة العربية وقبائلها الكبيرة. مما يعنى بأنها ستكون بادرة مشيخة فى المستقبل لظهور كيانات ضعيفة لا

تستطيع حماية نفسها مما يترتب عليه جهد مضاعف من الأسطول البريطاني لمراقبة تحركاتها وحفظ أمنها.

المشكلات البحرية: حدث ما كان متوقعا، وبدأت المنطقة تشهد عدة أعمال سلب ونهب، وجاء في الرسالة التي بعث بها «و.ه. وولترس» رئيس الحكومة في بومباي إلى المقيم السياسي البريطاني بتاريخ 1936/10/20⁽⁷⁾: وردت رسالة من الوكيل البريطاني في الشارقة بأعمال السلب والنهب التي ارتكبتها أفراد لهم علاقة بالعديد. وأود أعلامك أن حاكم المجلس راض عن نهج السياسة التي تتبعها في اعتبار «شيخ البدع»(*) و«الوكرة»(**) و«العديد» وأبوظبي مسئولين عن تلك الأعمال، وكذلك قاسم بن جابر ورفاقه(***) . ولو لم تكن هناك مساعدة من تلك الأماكن لما حصل المذكور على المنصب الرفيع الذي يتمتع به.

يبدو من تلك الرسالة استياء السلطات البريطانية وتخوفها من الأعمال التي تهدد أمن المنطقة، ولذا قدمت حكومة بومباي المعلومات الكاملة إلى المقيم السياسي البريطاني عن «البدع» و«الوكرة» وهما من أهم المدن القطرية، في حين أن «العديد» من المناطق التابع لمشيخة أبوظبي، وزاد من التخوف على المصالح البريطانية، وخاصة من قبل قاسم بن جابر، كما كان من قبل ذلك رحمة جابر الجلاهية، وتحدث عن أهمية الموقع الجغرافي «للبدع» و«الوكرة» و«العديد»

* البدع: تعتبر البدع حاليا أحد الأحياء المهمة في مدينة الدوحة عاصمة قطر، وقد لعبت مدينة البدع في القرن التاسع عشر دورا مهما في تاريخ قطر بصفة خاصة: إذ كانت من أهم المدن لكونها مقر الحكم لفترة طويلة، وذلك قبل أن تتوسع مدينة الدوحة وتضم البدع إلى أحيائها. وقد أسس مدينة البدع أفراد من أسرة «السودان» ومفردها «السويدي» والتي هاجرت من ساحل عمان، كما توجد بعض أفرادها في العراق، ومن أهم شخصياتها «توفيق السويدي» الذي كان وزيرا للخارجية في العهد الملكي في العراق.

** الوكرة: تعد مدينة الوكرة من المدن المهمة في شبه جزيرة قطر، وقد لعبت دورا بارزا في تاريخها، ولاسيما أنها كانت تربط الطريق القادم من ساحل عمان إلى مدينة البدع والدوحة في الشمال، وكثيرا ما تمتعت بحكم ذاتي ولفترات طويلة.

*** قاسم بن جابر: كان من الزعماء البارزين في الخليج العربي، وهو الذي تصدى للاستعمار البريطاني وقام بعدة عمليات ناجحة ضد سفن الأسطول البريطاني، وكان قاسم ابن جابر قد اتخذ من قطر والعديد مقرا لعملياته العسكرية ضد الوجود البريطاني في الخليج العربي، وضد كل من يتعامل مع الاستعمار البريطاني، ولهذا كانت بريطانيا تحذر زعماء المنطقة كشيخ البدع وشيخ الوكرة وغيرهم من التعامل مع قاسم بن جابر.

ومميزاتا للسفن الحربية⁽⁸⁾، حتى يأخذ المقيم السياسى البريطانى بعين الاعتبار تلك التوجهات.

أمام هذه الاتهامات، وخاصة الموجهة إلى شيخ العديد، فإن شيخ القبيسات بادر إلى شرح وجهة نظره للمقيم السياسى البريطانى بتاريخ 1837/1/7 يقول فيها⁽⁹⁾:

اذكر بما كنت قد ذكرته فيما يتعلق بالعهود التى قطعتها على نفسك أمامنا، القائلة بأنه سيتم تجديد هذه العهود لدى الاستيلاء على قوارب (القرصنة). فليكن معلوما لديك أنه لا سلطة لنا عليهم نظرا لانهم تحت إمرة خليفة بن شخبوط. انت تعلم أننا أعداء هذا الشيخ وان العرب القراصنة وضعوا انفسهم تحت حمايته ولن نسمح لهذا الشرير ان يدخل إلى أراضينا. ولقد اعتقل الشيخ خليفة ابن شخبوط أحد أفراد اسرتنا وقمنا بالمقابل فى اعتقال اهالى أبوظبى، وكنت قد طلبت أن تتركهم وشأنهم، وقد نفذنا ما طلبته إلا أنك لم تأخذ بعين الاعتبار حرية جماعتنا. وأرسل إلينا ردا على ذلك مرفقا بمسدسين وبعض مسحوق البارود.

يبدو من رسالة شيخ القبيسات بأنه غير قادر على تحقيق الأمن ومنع حوادث السلب والنهب التى تنطلق من منطقته، كما أنه يلقي اللوم على حاكم أبوظبى ويطلب من المقيم السياسى البريطانى إرسال مسدسين وبعض مسحوق البارود، ونعتقد أنه لو لم يكن شيخ القبيسات موقنا باستجابة المقيم السياسى البريطانى لما كتب يطلب ذلك.

أرسل ملا حسين الوكيل البريطانى فى الشارقة بتاريخ 1837/3/23 برسالة إلى المقيم السياسى البريطانى يبلغ فيها عن الأحوال فى الساحل العربى، وأنه حدث نزاع بين حاكم أبوظبى وشيخ قبيلة المزاريق، بسبب مقتل اثنين من اقرباء قاسم بن جابر فى أبوظبى، ويقول أيضا بان قاسم بن جابر من أسرة المزاريق وليس من أسرة القبيسات كما ذكر فى سجلات بومباي⁽¹⁰⁾. كما بعث الوكيل البريطانى فى البحرين برسالة إلى المقيم السياسى البريطانى بتاريخ 1837/4/5 جاء فيها⁽¹¹⁾: ظهر العداء علنا بين بنى ياس والقبيسات، وكتبت إلى خادم بن نهيمان شيخ القبيسات رسالة تهديد، ويساورنى الشك أن يكون خادم بن نهيمان شخصيته سيئة.

بعث «س. هنيل» المقيم السياسى البريطانى رسالة إلى «ج. ب. ويلوغبى» رئيس حكومة بومباى بتاريخ 1837/4/9 يقول فيها⁽¹²⁾: أرفق لحاكم المجلس الرسالة الواردة من ملا حسين الوكيل فى الشارقة يعلمنا فيها عن بداية العداء السحيق والذى يهدد العلاقة بين خليفة بن شخبوط حاكم أبوظبى وخادم بن نهيمان شيخ العديد، أحد رعاياه المتمردين. ومن المحتمل ان ينشأ العنف بين الطرفين المتنافسين خارج مسار السفن التجارية التى تبحر شمال وجنوب الخليج العربى. وإنى لا أتوقع حدوث أمور وخيمة العواقب والتى ربما نتجنبها باستمرار المراقبة الصارمة لأعمال المتحاربين.

أما عن التخوف من حدوث مشكلات اثناء موسم الغوص فيقول المقيم السياسى البريطانى فى رسالته إلى «ج. ب. ويلوغبى» رئيس حكومة بومباى بتاريخ 1837/4/29: «أعتقد أنه من المحتمل أن يحل هدوء فى موسم صيد اللؤلؤ على الرغم من وجود خطر ضئيل بأن يتوقف هذا الهدوء بسبب حالة الحرب المستمرة بين العديد وأبوظبى، فقد لاحظت حالياً واستناداً لمعلوماتى السابقة بأنه لا يتوقع أن ينشأ أى ضرر منهم (يقصد أبوظبى والعديد) أو من غير المحتمل أن يكبح أو يبطل هذا الضرر عن طريق مراقبة هذه الأطراف المتورطة مراقبة صارمة وقوية⁽¹³⁾.

برغم ذلك فقد حدثت بعض المشكلات، وفى الرسالة التى بعثها الوكيل البريطانى فى البحرين إلى المقيم السياسى البريطانى بتاريخ 1837/5/6⁽¹⁴⁾ قال: أفاد خادم بن نهيمان فى رسالته الموجهة إلى بقوله: «ذهبت جماعتنا إلى أبوظبى للحصول على مؤن فألقوا القبض على ستة رجال وقتلوهم بنهب سفينة «بقارة واحدة» (وهى نوع من السفن الكبيرة التى كانت وما زالت بعضها تستخدم مع إضافة الاجهزة الملاحية والميكانيكية الحديثة) ومارسوا طغيانهم، فالرجاء اعلام المقيم بهذا الامر». ويقول الوكيل البريطانى فى البحرين: «أنا موقن أن اللوم يقع على عاتق خادم بن نهيمان»⁽¹⁵⁾.

لهذا فإن الموقف البريطانى تغير وبدأت بريطانيا تشعر بأن تشجيعها للقبيسات أو على الأقل سكوتهما عنها من شأنه أن ينعكس سلباً على علاقاتها مع حاكم أبوظبى، الذى سيفقد الثقة فى الموقف البريطانى ويجعله يشك فى نوايا البريطانيين، مما قد يدفع به إلى البحث عن دعم خارجى لموقفه. وهذا ما جعل

الإدارة البريطانية تعيد تقييم سياسته بهذا الشأن، ولذا فإنها وافقت على طلب حاكم أبوظبي لاسترجاع رعاياه من العديد.

إعادة العديد إلى أبوظبي؛

طلب خليفة بن شخبوط من سلطان عمان امداده بقذائف مدفع ومسحوق البارود للقيام بهجوم على العديد، إلا أنه لم يستجب لطلبه⁽¹⁶⁾. وأثناء لقاء حاكم أبوظبي بالمقيم السياسى البريطانى الذى زاره فى أبوظبي وبحث معه الاعمال العدوانية التى حدثت بين أبوظبي والعديد، سأل خليفة بن شخبوط عما إذا كان الصراع مع قبيلة القبيسات يمكن أن يتوقف حتى نهاية موسم صيد اللؤلؤ، فأجاب بأن دماء كثيرة قد أهدرت من الطرفين، ومن المستحيل أن يتوقف العداء. وأضاف بأنه فى انتظار ورود الاذن منى لإرسال قوة لمحاصرة العديد، وتمنى فى الوقت نفسه بأنه ينبغى منع الزعماء المجاورين من مساعدة القبيسات أثناء اقتحام العديد⁽¹⁷⁾. فأجاب المقيم السياسى البريطانى بقوله: بأنه سيكون هناك حصار حقيقى مميز، ولكنه ضئيل، وعليه فقد وافق خليفة بن شخبوط.

بعث الوكيل البريطانى فى البحرين بتاريخ 1837/5/24 برسالة إلى المقيم السياسى البريطانى يقول فيها⁽¹⁸⁾: وصلت أخبار تفيد بأن خليفة بن شخبوط وصل فى 12 مايو إلى جزيرة «صير بنى ياس» ومعه ثلاثمائة سفينة وسفينة القيادة «بتيل»، وأرسل من ذلك المكان ولده «شخبوط» و«ابن سلمى» إلى شيخ القبيسات لمحاولة اقناعه بالعودة بهدوء إلى أبوظبي والاقامة فيها، وفى حالة رفضهم لذلك فإنه (أى خليفة) سيستولى على العديد بالقوة.

هجوم خليفة بن شخبوط: بما ان موافقة بريطانيا على هجوم خليفة بن شخبوط على العديد يعنى أنها ارادت وضع نهاية للمشكلة، كما ان الوكيل البريطانى فى الشارقة والمقيم السياسى البريطانى طلب من حاكم دبی عدم التورط فى إثارة المشكلة، سواء بمساعدة القبيسات أو باخبارهم عن الحملة العسكرية لأبوظبي، أو بايوائهم بعد استعادة العديد، ومحاولته مساعدته فى الهجمات على أبوظبي، ولولا التحذير البريطانى لحاكمى دبی ورأس الخيمة لتطورت المشكلة، فى الوقت الذى يجد فيه خليفة بن شخبوط مبررا لاستعادة دبی أيضا من المنشقين البوفلاسة.

حاول حاكم أبو ظبي بوسائل سلمية مختلفة استعادته العديد، وطلب من رعاياه المنشقين بشتى الوسائل العودة إلى أبو ظبي، ولكنهم أصرروا على البقاء كمشيخة مستقلة، أملا في الحصول على مساعدة من حكام دبي ورأس الخيمة والبريمي، ولاعتقادهم بأن بريطانيا لن تسمح لحاكم أبو ظبي بالهجوم على العديد، فيما هم يطلبون الحماية البريطانية.

جعلت كل هذه العوامل القبيسات يتشددون في عدم العودة إلى أبو ظبي، والرغبة في إقامة مشيخة مستقلة، وكان الاعتقاد السائد لديهم أنه في حالة الهجوم عليهم فإنهم سوف يستطيعون الصمود والمقاومة، وإن حكام دبي والبريمي ورأس الخيمة سوف يقومون بهجوم مضاد من الخلف على أبو ظبي مما قد يجعل خليفة بن شخبوط يسحب قواته لمواجهة الخطر القادم على مشيخته من الخلف. ولذلك لم يكثرثوا لرسائل التحذير التي وجهت إليهم من أبو ظبي أو الرسائل التي أرسلها حاكم دبي عن الحملة العسكرية لأبو ظبي.

أما عن هجوم خليفة بن شخبوط على العديد، فسوف نورده كما جاء في التقريرين التاليين، الأول من الوكيل البريطاني في الشارقة، والثاني من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، نظرا لأن التقريرين يمثلان واقع الحال من وجهات النظر الرسمية:

1 - تقرير الوكيل البريطاني في الشارقة:

نظرا لما يمثله الوكيل البريطاني في الشارقة من مكانة إدارية وسياسية في مشيخات ساحل عمان، وباعتباره شاهد عيان، فإن تقريره ذو أهمية في معرفة الأحداث التي جرت والملابسات التي صاحبته، وفيما يلي نص التقرير⁽¹⁹⁾.

غادر خليفة بن شخبوط أبو ظبي ومعه أربع مائة وخمسون مركبا من جميع الأحجام بغرض شن هجوم على العديد، وكان قد وصل إلى هناك في الرابع عشر من شهر مايو، مما أثار الرعب والهلع بين سكان العديد، الذين لم يصدقوا من قبل أنه كان جادا في نواياه القتالية. وبالرغم من أن أهالي دبي كانوا قد بعثوا بمركب لتحذيرهم، إلا أنه مكث لبعض الوقت في عرض البحر، حيث كان يقوم بميد اللؤلؤ، إلا أنه وصل قبل وصول خليفة بن شخبوط بخمسة أيام، وأوصل الرسائل التي كان يحملها ولكن القبيسات أصرروا على رفضهم الوثوق بالمعلومات

التي وصلتهم، وذلك لأن واحدا من أسيرة البوفلاسة الذي كان قد وصل مؤخرا من الشارقة، أكد لهم أنه لا أساس لصحة هذه المعلومات، وإن حاكم أبوظبي لن يجرؤ على بدء القتال ضدهم لأنه يعرف تمام المعرفة أن الشيخ مكتوم حاكم دبي والشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة سوف يقومون بشن هجوم عليه من الخلف. واعتمادا منهم على هذا الاعتقاد لم يقوموا بأية استعدادات، وفوجئوا بوصول حاكم أبوظبي على رأس قواته، ولم يكن لديهم أكثر من مئة وخمسين عبدا وخادما في المدينة، ولكن كان هناك مراكبان «بقارة» تابعان لدبي، وعلى متن أحدهما عبدالله بن بدر وابن أخ أو ابن أخت الشيخ مكتوم.

بغض النظر عما سبق، فقد اقيمت الاستعدادات للدفاع، وتم إرسال عشرة أفراد تحت قيادة غايب بن هامل لاحتلال البرج الذي يشرف على المياه الإقليمية، بينما اقام الباقون التحصينات في المراكز الدفاعية الأخرى.

بعد أن وصل الشيخ خليفة إلى العديد بفترة قصيرة، وكان قد ترك خمسة عشر مراكبا مقابل المدينة، توجه نحو البر، مقابل الأبار حيث كان هو أول شخص يطأ الشاطئ بقدمه وما لبث أن اكتشف أمر الذين كانوا يحرسون آبار المياه، علما بأنهم لم يكونوا مزودين بالمدفعية. وقد شجعتهم هذه الظروف للقيام بهجوم عام تحت قيادة الشيخ نفسه، كما تمت إقامة سلالم بالاضافة الى الرماح التي بحوزتهم.

امطر رجال الحصن بنبالهم من جميع الجهات، وتم قتل جميع افراد الحامية بالسيف، وعندما رأى أهالي العديد ذلك، فقدوا الأمل في المقاومة إذ أنهم فقدوا البرج البحري، ولم يفكروا الا بالفرار، فامتطى كل من خادم بن نهيمان وشقيقه جواديهما ولاذا بالفرار، أما محمد بن على وعبد و بعض أصدقائه فقد نجحوا في ركوب «البقارة» الخاصة به في البحر، وتبعتهم أربعة مراكب تابعة لأبوظبي، ولم يعرف ما إذا كانت قد لحقت به أم لا. أما بالنسبة للمركبين الخاصين بدبي في «العديد»، فقد وصل أحدهما بسلام إلى مينائه في دبي ومعه «بقارة» صغيرة تابعة لدبي، وعلى متنه اثنان وعشرون من السكان، إلا أن الحظ لم يحالف المركب الآخر، والذي كان على متنه ابن أخ أو ابن أخت الشيخ المكتوم وقريبه الذي يدعى عبدالله بن بدر، فيقال أن ملاحى المركب كانوا قد اشتركوا في القتال، وعندما فقد الجميع، حاولوا الفرار حاملين معهم عشرين شخصا من السكان، إلا أنهم وقعوا

فى أيدى قوات أبوظبى، فقتلوا مع خمسة من ملاحى المركب، ومن بينهم قريب لحاكم دى، وقد صرح بعض أفراد قوات أبوظبى أن قريبى الحاكم قد قتلوا وهما يقاتلان على البر. وبعد أن تم الاستيلاء على المكان بعد حصاره، نقل الشيخ خليفة بن شخبوط جميع النساء والأطفال مع متاعهم، ودمر جميع الأبراج والمنازل، ورمى فى الآبار اثنتى عشرة جثة من القتلى، ثم قام برمى بقية الجثث فى الآبار الأخرى ثم ملأها ببقايا الأبراج المدمرة مزيلا كل أثر لهم، وحتى لا يستخدموا تلك الآبار مرة أخرى. وكان من بين السكان تاجر بحرينى قد جاء إلى العديد لشراء بعض اللآلىء، ويقال بأنه كان يحمل أشياء كثيرة ذات قيمة، منها بعض الأموال النقدية والارز والاقمشة.

ويذكر البعض من قوات أبوظبى أن خمسين شخصا من الأعداء قد قتلوا كما تم أسر خمسين آخرين، واحتجار ثلاثين مركبا بالاضافة إلى «بقارة» و«بغلة» كان الشيخ سلطان بن صقر قد أعطاهما إلى محمد بن عتيق.

علمت أن الشيخ خليفة بن شخبوط كان قد بعث بسبعة مراكب إلى الوكرة لكى يطلب تسليم خمسة وعشرين رجلا من القبيسات الذين كانوا قد التجأوا إليه، بالاضافة إلى مركبين من مراكبهم كانا قد استعملا لهذا الغرض، وهو يخشى من أن يبدأوا عمليات سلب وما إلى ذلك. وكان الشيخ خليفة بن شخبوط ينوى العودة إلى أهالى دى الذين تتفخ صدورهم بالكبرياء ويميلون دائما إلى إثارة الفوضى والشغب. فعند معرفتهم بأن الشيخ خليفة بن شخبوط قد تلقى إذنا بالتوجه إلى العديد، سارعوا إلى اعلام أهل العديد بدلا من التزامهم الصمت كباقى القبائل، كما أنهم بعثوا برسلمهم إلى الشيخ سلطان بن صقر، ويتهموننى بأننى كنت الوسيط الذى استطاع الشيخ خليفة بواسطته الحصول على إذن للقتال.

منذ ذلك الحين بعثوا بمركبين إلى جميع أفراد أسرهم الذين كانوا فى مغاصات اللؤلؤ. ويقول البعض أن الغرض من ارسال هذه المراكب كان لتحذيرهم من أى هجوم قد يحصل من جهة أبوظبى، ويقول البعض الآخر أنهم قد أدلوا بارشاداتهم إليهم لكى ينتهزوا أقرب فرصة للانتقام من أهالى أبوظبى لموت أقرباء شيوخهم. لو أن الامر كان كذلك فإن أهالى أبوظبى لن يصبوا انتقامهم على رعايا الشيخ مكتوم فقط، بل أنهم سوف يقومون على الأرجح على حلفائه أيضا، كما شيخ سلطان بن صقر، وبذلك يكون قد تم خرق لموسم الصيد بأكمله.

لدى وصول الاثنين وعشرين هاربا من «العديد» إلى دبي بعث بهم الشيخ على متن مركب إلى «رأس الخيمة»، وقد طلب من الشيخ سلطان بن صقر ان يزودهم بمركب وبعض الرجال للتوجه إلى البحر سرا والبدء بشن الهجمات على أبوظبى. وعندما وصلوا إلى عاصمة رأس الخيمة وأبدوا للشيخ سلطان بن صقر عن رغباتهم، عبر الشيخ عن أسفه الشديد لسماع أنباء محاصرة العديد، وأخبرهم أنه من المستحيل الان وفي ظل هذه الظروف أن يزودهم بالمساعدة التي طلبوها، لان جميع المراكب الان فى مفاصات اللؤلؤ. ولكنه وعدهم بتنفيذ رغباتهم عند انتهاء موسم الصيد وعودة المراكب والرجال.

تابع الشيخ قائلًا: إنه عندما جاء المقيم السياسى البريطانى لزيارة الساحل الغربى من اجل اقامة الصلح، فإنه لم يكن لديه (أى الشيخ سلطان) أية فكرة عن أنه قد سمح لخليفة بن شخبوط بشن الحرب على العديد. وعندما منحهم طلبا على الشارقة بمبلغ مئة كرون، أرسل بهم إلى ذلك المكان، وعندما استلموا المبلغ عادوا إلى دبي، وأخشى الان ان يقوم سكان دبي بتزويدهم سرا بوسائل الهجوم على أبوظبى. ولقد مضى وقت منذ ان زارت آخر سفينة حربية الساحل، ولا حاجة للتكرار بأن لا شيء يمنع ارتكاب الاعمال غير القانونية مثل زيارة الطرادات الحربية المستمرة للموانئ العربية.

2- تقرير المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى:

بعث (س. هنيل) المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بمذكرة فى تاريخ 1837/6/17 إلى (ج.ب. ويلوغبى) وزير الدولة فى حكومة بومباى بعد استيلاء «أبوظبى» على «العديد» مباشرة، جاء فيها⁽²⁰⁾: لى الشرف أن أبلغ حاكم المجلس الموقر عن الاستيلاء على «العديد» فى 14 من الشهر الجارى من قبل شيخ أبوظبى خليفة بن شخبوط. وقد تم نقل التفاصيل التامة لهذا الهجوم فى الرسالة المرفقة للوكيل من الشارقة، غير أننى لا أرى ضرورة الدخول فى دقائق هذا الهجوم.

يبدو من هذا التقرير أن أسرة القيسات قد سمحت لنفسها أن تباغت على حين غرة، إذ فقدت خمسين رجلا لدى مقاومة قوات أبوظبى، وذلك عندما وجدوا ان المدخل إلى المياة العذبة قد عزل الباقين منه فاستسلموا. ومع ذلك

استطاع بعض زعماء القبيلة الهروب إلى الداخل، ونجح آخرون في الإفلات من سفن أبوظبى والوصول إلى عرض البحر فى قواربهم.

توجه الشيخ خليفة بن شخبوط لجعل هذه المنطقة غير مأهولة وذلك بهدم جميع الحصون والمباني، وجعل الأبار عديمة الفائدة بقذف جثث المذبوحين فيها، وملئها بعد ذلك إلى القمة بأنقاض الحصون وما جاورها. وبالرغم من ذلك، فهناك بعض الأسباب التى يخشى أن تؤدي إلى جر شيخ أبوظبى إلى الحرب مع شيخى دى ورأس الخيمة بسبب عمله البطولى، فما رلت أنظر إلى أمر ترحيل قبيلة القبيسات من «العديد» على أنه أمر مفيد، إذ لم يعد للشيخ خليفة عذر فى أن يقلل من مسؤولية خط الساحل بأكمله، وهو الخط الواقع بين «العديد» وأبوظبى والمشمتم على منطقة «حيزان». ولقد تردد على جزيرة «بنى ياس» فى السنة الماضية الرجل الشرير قاسم بن جابر وأصحابه الخارجون عن القانون.

حول حجز قارب دى فى «العديد» وفقدان بعض أفراد طاقمه الذين نوه عنهم الوكيل، فلانى لا أشك أن يثير الشيخ مكتوم هذا الحادث ليبرر قيامه بأية محاولة للمعاقبة، إما علنا بواسطة أسرته، أو سرا عن طريق دعم القبيسات الذين لجأوا إلى مينائه بهدف ارتكاب عدوان على أبوظبى.

ومع هذا فإننى أرى أن التدخل غير ملائم، ومخالف للاصول والقواعد البحرية لقاربى شيخ دى فى العداءات القائمة بين الشيخ خليفة ورعاياه المتمردين، ولقد ثبت هذا تماما بواسطة نقل أحد القاريين عشرين من السكان، ومحاولة القارب الثانى القيام بنفس العمل. كما أرى أن يرفع اللوم فى انتهاك الهدنة عن كاهل حاكم أبوظبى ويوضع على عاتق شيخ دى.

واضح من فحوى رد الشيخ سلطان بن صقر على أسرى «العديد»، والذين طلبوا منه الوسائل التى تمكنهم من مهاجمة قوارب أبوظبى، التحريض من شيخ دى. كما إنه من الواضح أنه على الرغم من كونه ما زال يكره الاستيلاء على العديد، إلا أنه لا يميل إلى سحب رعاياه من مفاصات اللؤلؤ ليكون نصيرا للأسرة المهزومة. ولقد تأكدت من هذا الأمر لدى تسلمى رسالة من شقيقه صالح شيخ الشارقة، وبعد الإشارة إلى نجاح شيخ أبوظبى، أعرب عن أمله أن لا يسمح له بأن ينفذ الهدنة إذا تمت السيطرة على الروح المخادعة والمضطربة لشيخ دى. ولدى أمل بأن تبقى الأمور هادئة على الأقل فى فترة صيد اللؤلؤ.

أرسلت الآن رسائل إلى شيخ دبي أحذره فيها من أنه سيكون مسؤولاً عن أي عمل عدواني يرتكبه اللاجئون من «العديد» إلى منطقته، وسأرسل سفينة الشركة المسجلة الحربية (مكيف) بأقرب وقت لدى عودتها إلى هذا الميناء، وأعلن فيها عدم السماح له بانتهاك الهدنة أو اتخاذ أي إجراءات لها طبيعة عدائية حيال أبو ظبي على الأقل قبل انتهاء الفترة المحددة له. وبالنسبة لقسم من تقرير الوكيل فيه أن الشيخ خليفة قد أرسل قوارب إلى الوكرة والبدع طالباً أن يسلم إليه أفراد معيون ينتمون إلى العديد لجأوا إلى تلك المناطق. وفي ذلك الوقت وصلتني أخبار أن الشيخ خليفة توجه شخصياً إلى ساحل قطر مكتفياً بتحذير الزعماء المجاورين بأنه سيعتبرهم جميعاً مسؤولين في حالة انتهاز أسرة القبيسات فرصة الحماية المقدمة إليهم ليقوموا بإزعاج رعاياه أو أتباعه.

علمت من الجميع أن سلوك الشيخ خليفة بن شخبوط يتميز بالاعتدال إزاء رعاياه المتمردين منذ أن قام بإخضاعهم مرة ثانية، واستعاد جميع الناس الذين تم ترحيلهم إلى أبو ظبي قواربهم، كما أصدر الشيخ عفواً عاماً وصفح عن اللاجئين الذين ربما يختارون العودة، ووعد في الوقت نفسه أن يرد لهم سفنهم وممتلكاتهم شريطة أن يسلكوا في المستقبل سلوك الرعايا المطيعين والمسالين.

ترتبت بعض النتائج على استعادة العديد، ومن أهمها عودة الاستقرار إلى المشيخة وعودة القبيسات إلى ديارهم.

نتائج الدراسة:

أولاً: توجه القبيسات إلى دبي والتخوف من تطور الأوضاع في إمارات ساحل عمان: بعد دخول قوات أبو ظبي إلى العديد واستعادته، هرب معظم أفراد القبيسات. فالبعض توجه إلى قطر، والبعض الآخر توجه إلى المشيخات الشمالية في ساحل عمان، وخاصة إلى مشيخة دبي التي كانت تدعم الانفصاليين بغية ممارسة الضغط على أبو ظبي وإشغالها باتجاه «العديد» وإضعافها حتى لا تحاول استعادة المنشقين الذين أسسوا لأنفسهم مشيخة دبي، ونتيجة لفشل شيخ القبيسات في تحقيق الانفصال، أراد حكام دبي استخدامهم من جديد كورقة ضغط على أبو ظبي، ولكن المقيم السياسي البريطاني حذرهم من الاخلال بالأمن أو تقديم أية مساعدة للقبيسات من أجل القيام بهجمات على أبو ظبي. وطلب «س. هينل»

المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى من العميد البحرى القائد سرية الأسطول البريطانى فى الهند اصدار تعليمات إلى قائد السفينة الحربية التى كانت راسية فى ميناء «باسيدو» بجزيرة «قشم»، التوجه إلى الشارقة ودبى وتحذير الشيخ مكتوم حاكم دبى بأنه سيكون مسؤولاً عن أية أعمال يقوم بها أفراد أسرة القبيسات، الذين اتخذوا من دبى ملجأ لهم، وفى حالة ارتكابهم أية أعمال مخلة بالأمن ومخالفة للأصول أثناء وجودهم تحت حماية شيخ دبى ضد سكان أبوظبى أو أفراد آخرين، فسيكون «مكتوم» مسؤولاً عن أعمالهم تلك مسؤولية مباشرة⁽²¹⁾.

أرسلت رسالتان إلى سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة، الأولى من المقيم السياسى البريطانى يقول فيها⁽²²⁾: بالنسبة لرعايا دبى والذين قدموا لمساعدة القبيسات وقضى عليهم أثناء مهاجمة قوات أبوظبى للعديد، فإن خرق اتفاقية الهدنة قد تم من حكام دبى وسكانها، وإليك مزيداً من المعلومات بهذا الشأن:

أرسل أكثر من قارين من قبل الشيخ مكتوم لتحذير أسرة القبيسات من الشيخ خليفة بن شخبوط على وشك مهاجمتهم، وعلمنا الآن أن القتال قد جرى بين أفراد طاقم القارين وقوات أبوظبى. ولو أنهم ذهبوا بهدف التزود بالماء لكان من الغريب أن القارب الذى احتجزه شيخ أبوظبى وهرب عائداً إلى دبى، كان مكتظاً بأفراد من القبيسات وممتلكاتهم.

باختصار فإن تدخلهم بين الشيخ خليفة بن شخبوط وأعدائه سيؤدى إلى وقوع العواقب الوخيمة على رؤوسهم.

وفى الرسالة الثانية من مساعد المقيم السياسى البريطانى إلى سلطان بن صقر يقول:

أود إعلامك رداً على ما ذكرته فى رسالتك بأن الشيخ خليفة بن شخبوط قد استأذن لمهاجمة دبى، وأنه جرى إعلامك بشكل خاطئ حول هذا الموضوع، ومع ذلك إذا كان خليفة بن شخبوط قد استأذن، فليكن معلوماً لديك أنه لن يمنح أى إذن للقيام بذلك طالما اتفاقيات الهدنة سارية المفعول، كما أنه لن يسمح للزعماء الذين وقعوا على وثيقة الهدنة أن يعلنوا الحرب ضد بعضهم البعض فى الفترة المحددة فى وثيقة الهدنة.

تأسف الحكومة البريطانية جداً عندما ترى أن التفاهم التام الذى استمر طوال

السنوات العشر الماضية بين مشايخ العرب قد تلاشى، وطالما أن حروبهم مع بعض ظاهرة للعيان ومعتترف بها، فإن الحكومة البريطانية لن تتدخل فى أية منازعات داخلية. وأنا واثق أن خليفة بن شخبوط ليست لديه النية فى مهاجمة دبی كما ذكرت، ولكن تحت أى ظرف من الظروف سيكون لك ولا شك مطلق الحرية فى دعم أصدقائك وحلفائك فى الساحل العربى فى حالة مهاجمتهم من قبل قوى أخرى⁽²³⁾.

هذه إشارة واضحة لمساعدة شيخ رأس الخيمة لحاكم دبی فى حال مهاجمتها من أبوظبى، أى أن السياسة البريطانية لم تكن تهتم بانتهاء المنازعات أو فرض الأمن إلا إذا كان ذلك يشكل تهديدا لمصالحها وليس لمصالح مشيخات ساحل عمان.

تأكيدا على هذه السياسة فقد بعث (س. هنيل) المقيم البريطانى تقريرا عن ذلك إلى (ج. ب. ويلوغبى) رئيس حكومة بومباى بتاريخ 1837/7/15 جاء فيه⁽²⁴⁾: على الرغم من الازعاج والفرع المستقرين فى أذهان شيوخ رأس الخيمة ودبی بسبب استيلاء وتدمير العديد من قبل خليفة بن شخبوط، إلا أنه لم تجر أعمال عدوانية أو ارتكاب لأى حواث «قرصنة» سواء من قبل جماعة خادم بن نهيمان أو معظم أفراد القبسات الذين هربوا لدى سقوط بلدتهم، وتم اقناعهم بوضع شروط مرضية عقدها حاكم أبوظبى معهم للعودة والاستقرار فى ديارهم فى أبوظبى، ومن المحتمل أن يحذو حذوهم بقية الهاريين. وهكذا فإن حدوث اضطرابات نتيجة محاولاتهم للثأر من الطرف المعتدى سيتقلص بشكل نسبي.

ولى أمل كبير أن لا يحدث انتهاك للهدنة يستعدى تدخلنا، ولكن تحت أى ظرف من الظروف سأعتبر أنه من واجبى أن أبذل قصارى جهدى للمحافظة على عدم انتهاك هذه الهدنة، وفيما يتعلق بالاعتقاد بوجهة النظر التى أبداهها الشيخ سلطان بن صقر من أن شيخ أبوظبى قد أضمر نوايا سيئة حيال دبی، أرى أنه من غير المحتمل اطلاقا أن يكون الشيخ خليفة بن شخبوط قد تشجع نتيجة للنجاح الذى لاقته حملته على العديد لأن يحاول إعادة دبی تحت سيطرته. ومع ذلك صرحت فى رسالتى الموجهة إلى شيخ رأس الخيمة، أن الشيخ خليفة بن شخبوط لم يصرح لى عن نوايا كهذه، وإذا استأذن فيما بعد لمهاجمة دبی خلال فترة الهدنة

فسأرد عليه برفض قاطع. وفي حالة تقديم طلب الاذن بعد فصل صيد اللؤلؤ، فساخبره بضرورة الرجوع إلى الحكومة قبل اعطائه ردا محددا بهذا الخصوص.

في حين بعث مكتوم بن بطي شيخ دبي برسالة إلى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة بتاريخ 1837/7/22، يحاول فيها تبرئة نفسه من تهمة مساعدة القبيسات التي وجهتها إليه بريطانيا، ويطلب إعادة بعض ممتلكاته التي فقدت أثناء مهاجمة العديد، وقد جاء فيها⁽²⁵⁾: سبق أن أعلمتنا أن سفيتي (بقرة) العائدين لنا قد غادرتا (العديد) للمشاركة في الحرب ضد خليفة وأنتك بعيد النظر ومتفهم للأمور أكثر من الآخرين، وإذا تلقيت أنباء تعود إلى سفيتي «البقارة»، فأرجو أن تسمح لي بإعلامك أننا لو كنا ننوي القيام بمساعدة العديد في الحرب لما اتفقنا قبل إبرام الهدنة دون أن تعلمنا بالعمليات التي عزم على القيام بها الشيخ خليفة بن شخبوط، وبعد أن شاهدنا قوة تقترب منهما هربتا كلتاهما ودخلتا «خور العديد»، ولدى وصول خليفة تم احتجارهما، وبعد أن استولى الشيخ خليفة بن شخبوط على «العديد» حاولت السفيتان الهرب، ألا أنه تمت مطاردتهما وتم الاستيلاء على إحداهما وقتل أفراد طاقمها بعد 24 ساعة من الاستيلاء عليها. ولن نقوم بأي عمل يغير رغباتكم، ونفيدكم أن رجالنا الذين قتلوا كانوا تحت حمايتكم.

سبق أن ذكرت أن الأربعة والعشرين رجلا من أهالي العديد هم معنا، وأنا بالتعاون معهم فقد نقضنا الهدنة، ولكن إذا كان بوسع هؤلاء الرجال أن يقدموا لنا مساعدة فعالة فإنهم سيظهرون قوتهم وهم في بلدهم.

لم نبعث بالرسالة الموجهة إلى عبدالله بن أحمد التي سبق أن أرسلتها إلينا، وكنت ترغب أن تبعث بها إلى البحرين، نظرا لأننا نخاف من الشيخ خليفة بن شخبوط لذا نعيدها إليك راجين أن تقوم بإرسالها عن طريق أية سفينة من سفن الحكومة التي قد تتوجه إلى البحرين، فيكون ذلك كرما منك ويرجى إعلامنا لدى استلامك الرد عنها.

ثانيا: فقدان بعض الممتلكات الخاصة والأضرار الناجمة عن الهجوم: لاشك أن أي هجوم أو معركة لا بد أن تخلف وراءها دمارا تبعا لنوع الهجوم وقوته، وخاصة عندما هاجمت أربعمئة سفينة وما عليها من قوات منطقة «العديد»، التي لا تتجاوز قواتها ثلاثمئة مقاتل، فإنها لا بد تخلف دمارا وأضرارا ليس للقبيسات فقط، وإنما لغيرهم من المقيمين في «العديد» أو القادمين أو العائدين، من التجار

وغيرهم. ومن هذا الأضرار فقدان بعض الممتلكات لتجار المنطقة. وخاصة تجار البحرين الذين كانوا في «العديد» أثناء المعارك، فقام حاكم البحرين عبدالله بن أحمد بكتابة رسالة عن سرقة ممتلكات بعض من تجار البحرين وفقدانها. ورد عليه المقيم السياسى البريطانى فى 28/6/1837 برسالة يقول فيها(26): بالنسبة لما ذكرت حول سرقة ممتلكات التجار المعنيين والمقيمين فى «العديد»، والتي قام بها أفراد من قوات أبوظبى لدى استيلائهم على «العديد»، فأود أن أعلمكم أن العداءة المستمرة بين أهالى أبوظبى والعديد مسألة غير محمودة السمعة، ومنذ أربعة أشهر قتل فى خيران أبوظبى (جمع خور للمياه الإقليمية فى أبوظبى) عدة أفراد من كلا الطرفين.

مضى الآن أكثر من عام منذ أن تسلم الشيخ خليفة بن شخبوط إذن الحكومة لإعادة رعاياه المتمردين إلى سلطته، وتحت هذه الظروف فإن هؤلاء الأفراد الذين استمروا فى الإقامة فى العديد، ذلك المكان الذى يجرى فيه القتال، يستحقون اللوم لأنهم عرضوا أنفسهم إلى خطر النهب مع المقيمين الآخرين عند مهاجمة مكان إقامتهم.

كما ذكرت فإننى لا أستطيع أن أطلب من الشيخ خليفة بن شخبوط التخلّى عن الممتلكات المحتجزة، إلا أننى سأكتب له وأوضح له بطريقة ودية وذلك من أجل إزالة كل أسباب الفوضى والاضطراب، لذلك من المستحسن إعادة الحاجيات للأفراد والرعايا التابعين لسلطة شيوخ «العديد»، حيث إن الشيخ خليفة على وفاق ودى معهم، ولدى وصول رد منه فسأنتهز أول فرصة للاتصال معك مرة أخرى.

بعدها بعث المقيم السياسى البريطانى برسالة إلى خليفة بن شخبوط بتاريخ 6/7/1837، عن الأضرار التى لحقت بتجار البحرين مع نسخة من رسالة حاكمها يطلب فيها إذا أمكن استعادة تلك البضائع، وجاء فيها(27): أود إعلامك أننى تسلمت مؤخرًا رسالة من الشيخ عبدالله بن أحمد شيخ البحرين من قبل اتباعك حال استيلائهم على «العديد». وبما أننى متأكد أنه لدى بعض رعاياك المتمردين تحت سلطتك يعانون من ضيق، فأنا واثق بأنك ستخذ إجراءات لاستعادة البضائع المأخوذة من الأفراد المذكورين آنفاً وإعادتها إلى أصحابها الشرعيين، وقد أرفقت لك لائحة بالممتلكات المذكورة لإعلامك بها.

ثالثاً: عودة القبيسات إلى أبوظبى واستقرارهم فيها: برغم تصرفات

القييسات وخروجهم عن سيادة أبوظبى، ومحاولة الاستقلال وعمل كيان خاص بهم، ويرغم فشلهم واستيلاء خليفة بن شخبوط على «العديد» ثم هروبهم والتجائهم إلى دى، وعلى الرغم من اغراءات حاكم دى للقييسات لمهاجمة أبوظبى أو خلق المشكلات، إلا أن خليفة بن شخبوط تصرف بحكمة وسعة صدر عندما أصدر العفو العام عن جميع أفراد القبيسات، ورد إليهم جميع سفنهم وممتلكاتهم التى صودرت أثناء الحرب، أو بعدما تركوا أبوظبى، ثم قام بتقديم الاغراءات المادية السخية لتشجيعهم على الاستقرار والعمل من جديد تحت سيادة أبوظبى.

الخلاصة،

أتمنى أن أكون قد وفقت فى اعطاء الصورة الواضحة، من خلال الوثائق الرسمية لأطراف المشكلة المتمثلة فى محاولة شيخ القبيسات اقامة مشيخة مستقلة أسوة بمشيخة دى التى أقيمت قبل ذلك بعامين، معتمدا على بريطانيا وعارضا عليها الدخول تحت حمايتها، وذلك باقتطاع الاجزاء الجنوبية الغربية من إمارة أبوظبى التى تعادل مساحة إمارة قطر والبحرين والكويت معا. ولكن بريطانيا رفضت ذلك لارتفاع تكاليف حماية الأمن والاستقرار، إضافة إلى قربها من قبائل وسط وشرق الجزيرة العربية، مما يصعب معه التحكم وتقديم الحماية الكافية.

لا ننسى أن بريطانيا كانت تشجع الانقسامات والتجزئة إضافة إلى حكام مشيخات الساحل العمانى أيضا، كما حدث لحاكمى دى و«رأس الخيمة»، اللذين شجعا انفصال «العديد» عن أبوظبى، ولكنها عندما وجدت أن ذلك لا يتفق مع أمنها ومصالحها، مع ارتفاع تكاليف حمايتها، فإنها تخلت عن القبيسات، وسمحت لحاكم أبوظبى باسترجاع العديد، فعاد الاستقرار والأمن إلى مشيخات ساحل عمان من جديد.

ولكن المشكلة لم تنته عند هذا الحد، فقد هاجرت أسرة القبيسات للمرة الثانية عام 1849، ولكن حاكم أبوظبى استطاع اعادتها بالحكمة والدبلوماسية قبل تفاقم الأمور، ثم هاجرت الأسرة للمرة الثالثة عام 1869، وكادت بذلك أن تخلق مشكلة كبيرة، فبعد مجيء الحملة العثمانية عام 1871 ودخول حاكم قطر تحت السيادة العثمانية، وحدودها تتاخم منطقة «العديد» ويتشجع من حاكمها الجديد قاسم بن ثانى، قامت أسرة القبيسات بالانفصال عن أبوظبى، ولكن هذا الانفصال كانت له أبعاد جديدة، وهذا ما سوف نتناوله فى بحث خاص.

الهوامش والمصادر ووثائق تنشر لأول مرة

- (1) R/15/1/68 صفحة (180): رسالة من الوكيل البريطاني في البحرين إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بتاريخ 23/9/1835.
- (2) R/15/1/68 صفحة (204-205): رسالة من خليفة بن شخبوط إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي 15/11/1835.
- (3) R/15/1/69 صفحة (7): من «ويلوغبي» وزير الدولة في حكومة بومباي إلى المقيم بالوكالة في الخليج العربي 9/7/1836.
- (4) R/15/1/69 صفحة (11): من «ويلوغبي» وزير الدولة في حكومة بومباي إلى المقيم بالوكالة في الخليج العربي، رقم (1690) 9/9/1836.
- (5) R/15/1/69 صفحة (43): من مكتب الأشراف - بومباي إلى المكتب الكابتن «س. هنيل» مساعد المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي، رقم 2622 (1836/12/17).
- (6) R/15/1/69 صفحة (13): من «و.ه. ولترس» رئيس الحكومة إلى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي، قلعة بومباي 29/10/1836.
- (7) R/15/1/69 من «و.ه. ولترس» رئيس الحكومة إلى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي، رقم (2055)، - قلعة بومباي - 20/10/1836.
- (8) R/15/1/69 صفحة (26): من «ويلوغبي» وزير الدولة في حكومة بومباي إلى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي، رقم (2183) قلعة بومباي (1836/11/19).
- (9) R/15/1/69 صفحة (24): من خادم بن نهيمان شيخ العديد إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي (1837/1/7).
- (10) R/15/1/75 صفحة (81): رسالة من ملا حسين الوكيل البريطاني في الشارقة إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي (1837/3/23).
- (11) R/15/1/75 صفحة (49): من الوكيل البريطاني في البحرين إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي (1837/4/5).
- (12) R/15/1/75 صفحة (17 - 18): من «س. هنيل» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي إلى «ج.ب. ويلوغبي» رئيس حكومة بومباي، الدائرة السياسية 9/4/1837.
- (13) R/15/1/75 صفحة (13-17): من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي إلى «ج.ب. ويلوغبي» وزير الدولة في حكومة بومباي 29/4/1837 صفحة التقرير الثانية.

- (14) R/15/1/75 صفحة (31 - 32): من الوكيل البريطاني في البحرين إلى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي (6/5/1837).
- (15) R/15/1/75 من الوكيل البريطاني في البحرين إلى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي (6/5/1837).
- (16) R/15/1/75 صفحة (123): من الوكيل البريطاني في مسقط إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بالوكالة عام (1837).
- (17) R/15/1/75 صفحة (13 - 17): من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي إلى «ج. ب. ويلوغبي» وزير الدولة في حكومة بومباي (29/4/1837)، صفحة التقرير رقم (4).
- (18) R/15/1/75 صفحة (64 - 66): من الوكيل البريطاني في البحرين إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بالوكالة 24/5/1837.
- (19) R/15/1/75 صفحة (69 - 76): من ملا حسين الوكيل البريطاني في الشارقة إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي (1/6/1837).
- (20) R/15/1/75 صفحة (66 - 72): من «س. هنيل» المقيم البريطاني في الخليج العربي إلى «ج. ب. ويلوغبي» وزير الدولة في حكومة بومباي (17/6/1837).
- (21) R/15/1/72 صفحة (66 - 72): من «س. هنيل» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي إلى العميد البحري قائد سرية الأسطول البحري الهندي (14/6/1837).
- (22) R/15/1/74 صفحة (5 - 6) من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي إلى الشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة (14/7/1837).
- (23) R/15/1/74 صفحة (5 - 6): من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بالوكالة إلى الشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة (14/7/1837).
- (24) R/15/1/72 صفحة (88 - 90): من «سي. هنيل» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي إلى «ج. ب. ويلوغبي» رئيس حكومة بومباي (15/7/1837).
- (25) R/15/1/75 صفحة (141 - 142): من مكتوم بن بطي حاكم دبي إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بالوكالة (22/7/1837).
- (26) R/15/1/74 صفحة (2 - 3): من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي إلى الشيخ عبدالله بن أحمد حاكم البحرين (28/6/1837).
- (27) R/15/1/74 صفحة (4): من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي إلى الشيخ خليفة بن شخبوط حاكم أبوظبي (6/7/1837).

الفصل الرابع



محاولة انفصال الحديد عن أبو ظبي
والموقف البريطاني في النصف الثاني من
القرن التاسع عشر

«دراسة من خلال المراسلات الرسمية»

مقدمة

يحتوى هذا البحث على هجرة القبسات وهى فرع من تحالف بنى ياس التى تقطن فى صحراء ليسوا بمشيخة أبو ظبى على أطراف الربع الخالى، وقد هاجرت أسرة القبسات ثلاث مرات إلى منطقة «العديد»، وقد أدت هجرتها الثالثة والأخيرة إلى قيام مشكلة بين حاكم أبوظبى وبريطانيا حول هذه الأسرة المنشقة.

كما أدى إلى التغير فى الموقف البريطانى من سياسة التجزئة فى ساحل عمان إلى المحافظة على وحدة أراضى مشيخة أبوظبى، ليس حفاظا على تلك المشيخة ولكن خوفا من التدخل العثمانى بعدما دخل المنشقون القبسات تحت سيادة حاكم قطر الذى كان خاضعا للسيادة العثمانية.

قد لا يكون هذا البحث ذا أهمية حاليا، ولكنه فى المستقبل القريب إن لم يكن البعيد ستكون له أهمية قصوى، وسوف يشهد صراعا عنيفا حول ملكية وسيادة منطقة العديد. نظرا لما تحتوى عليه من احتياطى كبير للبتروى حسب تقارير الشركات الأمريكية واليابانية، إضافة إلى موقعها الفريد. وهناك بعض المشاكل التى دفنت حية تحت التراب بين الدول المجاورة لها لأسباب سياسية، ولست أريد أن أوضح أكثر من هذا لأن المهتم بها سوف يعرف أهميتها جيدا.

خور العديد:

يقع هذا الخور على شاطئ مشيخة أبو ظبي عند أقصى نهايتها الغربية بحوالى مائة وثمانين ميلا تقريبا إلى الغرب من مدينة أبو ظبي، وتقع حدود مشيخة قطر قريبا من هذا المدخل أو إلى جواره مباشرة⁽¹⁾. ولا يوجد هناك أية حياة الآن، ولكن بعض الصيادين يستخدمونها فى فصول الشتاء لاصطياد بعض أنواع الأسماك الجيدة، أما القرية التى سكنها القبيسات فكانت تقع على الجانب الجنوبي من الخور وعلى مقربة من المدخل، وكانت تتكون من مائة منزل تقريبا وكان السكان يعيشون على صيد الأسماك ويشربون المياه من أربع آبار على بعد أقل من ميل وتحتوى على مياه حلوة على عمق قمتين وليس فيها مزارع أو نخيل. وكان يوجد فى عام 1856 حصن له برجان فى المدخل وسبعة أبراج أخرى متفرقة وحصن صغيرة لحماية الآبار بناها سكان المنطقة.

تعود مشكلة «العديد» إلى هجرة القبيسات، علما بأن هذه الأسرة كانت قد هاجرت عدة مرات من أبو ظبي إلى منطقة العديد نتيجة للخلافات التى كانت تنشأ مع حكام أبو ظبي، ولكن الهجرة الثالثة والأخيرة أدت إلى ظهور مشكلة سوف نتناولها بالتوضيح.

هجرة القبيسات الثالثة إلى العديد عام 1869:

حاولت هذه الأسرة الانفصال للمرة الثالثة فى عام 1869، وأعلنت أنها لا ترضى بحكم زايد وانتقلت فى أعداد كبيرة إلى العديد⁽²⁾، بزعامة الشيخ بطى بن خادم القبيسى وخلعوا عنهم ولأهم لحاكم أبو ظبي⁽³⁾، واستقرت بعض أفرادها فى جزيرة «دلم» القريبة من سواحل «العديد»، واعتادوا بجلب المياه العذبة إليها فى أيام الغوص من آبار «العديد» وآبار سكاك وأمباك القريبة منها فى جنوب شبه جزيرة قطر والتى قد حفرها أفراد من قبيلة «بنى هاجر» و«آل مرة»، كما اعتادت بعض أفراد من «المناصير» المجيء إلى العديد فى فصل الشتاء⁽⁴⁾.

ترجع هجرة القبيسات إلى عدة أسباب منها، وجود إغراء خارجى كما يقول لوريمر والذى كان قريبا من الأحداث «بأنه ليس هناك شىء يميز طابع هؤلاء البدو من رعايا شيخ أبو ظبي أكثر من استعدادهم بعد أى إغراء طفيف لترك ديارهم

وللاستقرار فى أى مكان آخر، وكما حدثت هجرة البوفلاسة فى عام 1823، وهجرة القبيسات فى عام (1835 - 1849) وهذه المحاولة لتحرير أنفسهم من سيطرة حاكم أبوظبى بانتقالهم للإقامة بعيدا عنه ولأسباب لم تتأكد لنا، وقد تكون أسبابا تافهة لا قيمة لها⁽⁵⁾.

نعتقد أنه كانت محاولة بطى بن خادم القبيسى إعادة ما فعله والده خادم بن نهيمان القبيسى فى عهد خليفة بن شخبوط، تأسيس مشيخة مستقلة بزعامته، ومن المؤكد أن بطى كان قد أجرى الاتصالات مع المشيخة الناشئة فى قطر بزعامه قاسم بن محمد بن ثانى، وهو الذى كان يتطلع للثأر من زايد بن خليفة لهجومه على مدينة الدوحة وتدميرها فى موقعة خراب الدوحة الثانى عام 1867.

نشأت باستقرار القبيسات مشكلة ولكنها لم تكن جديدة على مشيخة أبوظبى ولا على حكم زايد بن خليفة⁽⁶⁾، وفى تاريخ 1869/8/25 أرسل بطى بن خادم القبيسى رسالة إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى، يطلب فيها حمايته من الشيخ زايد بن خليفة ويبدو أنه تطلع إلى تكوين مشيخة مستقلة أسوة بجيرانه طالبا الحماية البريطانية شارحا موقفه بقوله⁽⁷⁾:

«أنتسمى إلى قطر منذ أن كان والدى وأجدادى فيها، وكنا قد أقمنا فى «العديد» وكان لنا فيها منازل ما زالت قائمة حتى الآن، وأجبرنا الشيخ خليفة بن شخبوط على مغادرة «العديد» وأخضعنا لإرادته، اضطررنا للموافقة على الذهاب إلى أبوظبى حيث عوملنا فيها بكل احترام، وبقينا معه لمدة قصيرة، قام الشيخ زايد بإقناعنا بالمجئ إلى قطر مع قواته (ويقصد مشاركة زايد فى حملة مع البحريين للقضاء على انفصال قطر فى وقعة خراب الدوحة الثانى عام 1867 ثم ذهبنا إلى الشارقة ونشبت معركة بيننا وبين أهالى الشارقة حيث قتل الشيخ خالد بن سلطان ثم عدنا فيما بعد إلى أبوظبى وعلمنا أن الحكومة البريطانية لا توافق على هذه الأعمال».

يتضح من هذا بأن شيخ القبيسات يجد المبررات لانفصاله عن أبوظبى سواء بانتقال أجداده أو بعدم موافقته على الأعمال التى لا توافق عليها بريطانيا كالتى قام بها زايد فى قطر والشارقة والأعمال التى تصف بريطانيا بأنها إخلال بأمن المنطقة. ويتابع قوله⁽⁸⁾:

«لذا فقد انتقلنا من أبو ظبي إلى قطر حيث وجدناها تحت حماية الحكومة البريطانية (ويقصد اتفاقية 1868 بين بريطانيا والشيخ محمد بن ثاني) والناس هناك يعيشون في سلام.

هدفنا هو أن نعيش بسلام ونكسب رزقنا، ولذا نود من الحكومة أن تبقىنا تحت حمايتها وبهذا لا يمكن لأحد أن يتدخل بشئوننا.

الرجاء أن تزودونا بعلم وبذلك نكون في أمان من الظلم.

وإذا لاحظتم أننا نتصرف عكس رغباتكم فباستطاعتكم أن تفرضوا علينا غرامة وأن تعاقبونا. نود الحصول على الرسالة التي تمنحنا هذه الحماية كي يعلم الجميع أننا تحت حماية الحكومة البريطانية وهذا هو هدفنا».

يتبين من هذا بأن القبيسات فكروا في تكوين مشيخة صغيرة مستقلة ترفع علم مشيخات ساحل عمان تحت الحماية البريطانية، وإن شيخهم بطي بن خادم القبيسي رأى أن إعلان ولائه لقطر، مع تبعية «العديد»، أجدى وأنفع له⁽⁹⁾، وبأن تصبح منطقة «العديد» مستقلة فيما بعد.

كما أكد القبيسات بأن جذورهم تمتد من «رأس الحالة» في الشمال من منتصف الطريق فيما بين «العديد» و«الوكرة» إلى الجنوب والشرق على ساحل أبو ظبي حتى نقطة في مواجهة جزيرة «صير بني ياس» وأدخلوا جزيرة دلمة وغيرها من الجزر المجاورة التي تعتبر تابعة لأبو ظبي⁽¹⁰⁾.

أرسل الكولونيل «لويس بيلي» المقيم السياسي البريطاني في بوشهر، رسالة بتاريخ 1869/8/28 إلى وزير الدولة في الدائرة السياسية في بومسبای، ردا على رسالة شيخ القبيسات يقول فيها⁽¹¹⁾:

«إن شيخ القبيسات بحد ذاته لا يتمتع بأهمية فائقة إلا أن رسالته التي تدور حول مراسلاته مع بقية الزعماء والتي قدمها لي الآن ذات أهمية حيث تدل على الرغبة الزائدة بترك عرب الساحل للقرصنة والسلب وتكريس أنفسهم لصيد اللؤلؤ وبعض الأعمال المسالمة الأخرى. فقد جاء الشيخ شخصيا إلى «بوشهر» ليشرح لي وجهة نظره حول مدى صدق أقواله».

يتضح من الرسالة استمرار بريطانيا بإطلاق تسمية القراصنة على عرب ساحل عمان برغم فرضها عدة معاهدات ابتداء من عام 1820 إلى معاهدات الصلح البحري، كما استمرت في مناقشة هذا الموضوع ولم تحدد موقفها بوضوح، برغم موافقتها ضمناً على إقامة القبيسات في «العديد»، وذلك بعدم منعهم من الانفصال عن أبوظبي. لو قبلت بريطانيا هذا الأمر أو ما جاء في رسالة شيخ القبيسات، لتكونت فعلاً مشيخة عربية جديدة منفصلة عن أبوظبي تقع جنوب قطر⁽¹²⁾، ولم يكن بوسع السلطات البريطانية اتخاذ موقف محدد إزاء تلك المنطقة، لأن رجالها يتبعون سياسة التجزئة تجاه مشيخات ساحل عمان، ويشجعون على قيام دويلات منفصلة، ولذا فإنهم اعتبروا «العديد» تابعا لقطر عند عقد اتفاقية 1868⁽¹³⁾، مع الشيخ محمد بن ثاني.

وفيما بعد وافقت بريطانيا على إقامة القبيسات في «العديد» عندما أرسل المقيم السياسي البريطاني في أغسطس 1869 بالموافقة على عودة القبيسات لسكن ديارهم القديمة، ولكن الموقف السياسي للمنطقة تغير عندما وصل العثمانيون في حملة مدحت باشا إلى مدينة الدوحة، واتجهت أنظارهم بعد ذلك إلى الساحل الجنوبي للخليج العربي⁽¹⁴⁾. وهذه التطورات الجديدة أملت على بريطانيا أن تراجع حساباتها وأن تقف بجانب حاكم أبوظبي والذي يرتبط باتفاقيات معها، وخشى البريطانيون من امتداد السيطرة العثمانية واستطاع زايد بن خليفة استغلال هذا الموقف لصالحه بعد منافسة المستوطنة الجديدة التي باتت تهدد اقتصاد مدينة أبوظبي، كما أنها أصبحت ملجأ يأوي إليه كل هارب من أداء دينه، فطالبهم بالوقوف معه أمام مشكلة الانفصال القبلي في تحالف بني ياس بخروج أسرة منها وهم جماعة القبيسات واستيطانهم في العديد.

زايد يطالب باستعادة «العديد»

بعد المساعدات التي تلقاها القبيسات من الشيخ قاسم بن ثاني حاكم قطر الجديد، طالب زايد بن خليفة بإعادة العديد والقبيسات إلى مشيخة أبوظبي بالصفة القانونية، ولكن المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي المقدم «بيلي» رفض هذا الطلب بحجة المحافظة على أمن الخليج العربي، ولكن زايد بن خليفة كرر الكتابة

إليه مذكرا الحكومة البريطانية بأن انفصال العديد عن أبوظبى يعتبر أمرا غير قانونى وأن «العديد» ستتصبح ملجأً للهاربين كما تشكل خطرا على الملاحة البريطانية وتهدد مصالحها فى المنطقة، ولذا فإنه ستقوم قوات عسكرية لضرب بطى بن خادم القبيسى وأنه لن يستطيع السكوت أكثر مما هو عليه. بعد مطالبة زايد بن خليفة استعادة العديد بموجب معاهدة السلم الدائمة لعام 1853، وللظروف المستجدة على الساحة السياسية بعد وصول العثمانيين إلى المنطقة، كان المقيم السياسى البريطانى غير متأكد من تبعية «العديد» لأبوظبى حسب قوله، ورغبة منه فى تحرى الحقائق حول تبعية هذه المنطقة، أرسل مساعده «سميث» يزوده بالمعلومات الصحيحة عن كذب. كما قام بنفسه بإجراء أبحاث مستفيضة بهذا الخصوص.

وبعدها بعث العقيد «بيلى» مذكرة إلى حكومته يقول فيها:

«لما كنت غير واثق من أن «العديد» يمت فعلا إلى حاكم أبوظبى، ولما كنت راغبا فى مزيد من التحقق من أن مخاوف زايد تستند إلى مبررات صحيحة، فقد طلبت إلى الرائد «سميث»، أن يولى أثناء زيارته للساحل العربى هذه القضايا اهتمامه. ووصل الرائد «سميث» إلى رأى القائل بأن «العديد» يمت إلى أبوظبى وأن مدن الشيخ تضررت تجاريا ضررا بالغا. ووجود هذه الأسرة ومستوطناتها إن عاجلا أو آجلا سيؤدى إلى اصطدام فى البحر».

يتابع قوله: «إننى رجوت شيخ أبوظبى مؤقتا عن عدم القيام بأى عمل فى البحر، ووصلت تحرياتى التى استندت فيها إلى الكثير من المصادر المستقلة فى مختلف مناطق الخليج العربى، والمعلومات التى جمعتها إلى الاستنتاج بأن «العديد» تتبع لأبوظبى بينما يتجاهلها حاكم قطر الذى تقع أراضيه على الجانب الآخر. ولقد وجهت رسالة بناء على تلك المعطيات إلى الأشخاص المقيمين فى «العديد»، وحذرتهم من أن عليهم إذا رغبوا فى الإقامة فى الأراضى التابعة لشيخ أبوظبى، أن ينسجموا مع حكمه» (15).

رد سكان «العديد» على قرار المقيم السياسى البريطانى مذكرينه بما قاله شيخهم بأن القبيسات عادوا إلى «العديد» بعد موافقة المقيم السياسى البريطانى بموجب رسالته المرسلة فى أغسطس عام 1869، وما قاله شيخهم «إننا إذا أثرنا أن

نعود إلى سكن ديارنا القديمة قلنا أن نفعل وذلك في وسعنا أن نثبت أن هذه الديار هي ديارنا القديمة»(16).

بوصول العثمانيين إلى الدوحة، واعتراف قاسم بن ثاني بالسلطة العثمانية شجع القبيسات المطالبة بالاستقلال، وعند زيارة الرائد «سميث» للعديد في نهاية شهر يوليو لم يكتف بطى بن خادم برفضه العودة إلى أبوظبى، وإنما حدد المنطقة التى يدعى السيادة المستقلة عليها، وهى تشمل أراضى كثيرة من إمارة أبوظبى وجزره مما أغضب «سميث» وجعله يعلق قائلا إن مثل هذا الادعاء يمثل أكثر من نصف أراضى أبوظبى(17).

يبدو أن مهمة «سميث» لم تنجح، لأن بطى بن خادم القبيسى رفع العلم العثمانى فوق قصره وطرده النقيب «سميث» وأعلن تبعيته لمشيخة قطر التى تتبع الدولة العثمانية. ولولا التوسع العثمانى لكان لهذه المشيخة أن تنجح فى انفصالها عن أبوظبى، ودخولها فى معاهدة مع بريطانيا، وعلى كل فإن «سميث» قدم تقريره، وجاء فيه: «إن العديد تتبع أبوظبى فعلا وأن قيام ذلك الوطن الجديد سيكون موثلا للفوضى ويؤثر على أمن المنطقة، وسيؤدى إلى صدام بحرى لا محالة» وبعد أن استلم «بيلى» ذلك التقرير أعلن فى مايو 1871 ضم «العديد» إلى أبوظبى، وكان وكيل الخارجية فى حكومة الهند المستر «إيتشن» قد أعلن بأن المقدم «بيلى» قد أنهى موقف التردد من مشكلة العديد(18).

مع ذلك فإن السياسة البريطانية تجاه قضية «العديد» كانت متحفظة لعدة سنوات ولم تكن واضحة نتيجة لتواجد القوات العثمانية فى المنطقة، كما طرأ تغير شكلى متحفظ على رأى «بيلى» فى 31 يوليو 1871، فقد كانت وجهة نظره بأن تسوى المسألة سلميا بين زايد بن خليفة وسكان «العديد»، وكان يخاف من تعقيدات المشكلة بسبب العثمانيين، فبرغم اعترافه بأن طلب زايد بن خليفة إرجاع من خرجوا عن طاعته حق من حقوقه المشروعة وأنه يتمشى مع أحكام اتفاقيات الهدنة البحرية، إلا أن الحكومة البريطانية اعترضت عندما طلب زايد بن خليفة السماح له باستخدام سفنه لنقل قواته ضد القبيسات فى «العديد»، وقد يرجع سبب رفض بريطانيا إلى اعتراض سكان «العديد» على محاولة إرجاعهم إلى

أبوظبى، وأعلنوا أنهم مستقلون تحت راية اتفاقيات الهدنة البحرية، وقد حدد شيخهم حدود إمارته وأقربان هذه الأرض هي موطنهم القديم الذى دافعوا عنه سابقا ضد حاكم أبوظبى وأنهم لا يعترفون بزايد بن خليفة شيخا عليهم وإنما بطنى بن خادم القبيسى هو الحاكم الحقيقى للقبىسات، وأنهم لا يفكرون فى تعكير السلام فى البحر، كما أنهم عاجزو عن القيام بأى عملية بحرية، وكان والده قد تسلم العلم المحايد الذى يجوب البحر دائما فى ظله فهم لا يعلقون آمالهم على دولة سوى بريطانيا، وأقروا بأن العلم العثمانى قد عرض عليهم بواسطة الشيخ قاسم بن ثانى وأنهم رفضوه لأنهم تحت الحماية البريطانية(19).

فى حين بعث زايد بن خليفة برسالة إلى المقيم السياسى البريطانى فى 1871/9/20 يقول فيها:

«كنت قد كتبت لى فيما يتعلق بممتلكاتى فى «العديد»، وإنك تحدثت الى الحكومة البريطانية حول هذا الموضوع، وإنك ستصل بى على الفور لى وصول الأوامر من الحكومة. ومن المؤكد أنك ستهتم بهذا الموضوع، مع العلم بأنى أقوم بمراسلتك منذ ثلاث سنوات، ومن المحتمل أنه قد ثبت لديك أن «العديد» تعود إلى منذ قديم الزمن حتى الآن، مع أنه انقضى وقت طويل، وقد علمت بما قمت به إزاء المقيمين الذين قاموا بأعمال مخلة فى الأراضى العائدة إلينا، فقد عانيت الكثير ولكنى كنت دائما أستمع إلى نصائحك فأنا أثق بالله أولا ثم بك»(20).

استلم المقيم السياسى البريطانى هذه الرسالة، ورفعها إلى وزير الدولة فى الدائرة السياسية «بومباى» فى 1871/11/1، قائلا فيها:

«عظفا على رسالتى وإلى المراسلات السابقة المتعلقة بالنزاع بين شيخ أبوظبى والمستوطنين فى «العديد»، تسلمت رسالة من شيخ أبوظبى والتى يرغب فيها بإلحاح معرفة رأى الحكومة حول هذا الموضوع.

أخشى أن يتعقد هذا الأمر الدقيق بسبب النفوذ التركى فى الخليج العربى، وصلتنى التقارير والإشاعات فى أكثر من مناسبة والتى مفادها أن المستوطنين فى «العديد»، يرفعون العلم التركى أيام الجمع، من المحتمل أن تكون جميع هذه التقارير غير صحيحة ومهما كانت هذه التقارير، فمن الواضح أن الدافع للقيام بذلك كان مضمرا»(21).

لهذا فإن الحكومة الهندية قررت في 2 مايو 1872، ألا تتدخل بين الجانبين أبوظبى و«العديد»، وعدم إعطاء إجابة واضحة عن نواياها الشيخ زايد بن خليفة إلا إذا وجد المقيم السياسى البريطانى أن العديد قد تهدد المصالح البريطانية أو إذا عزم العثمانيون على فرض سيادتهم على «العديد» (22).

لكن عندما تم رفع العلم العثمانى فوق قلعة «العديد» بدأ البريطانيون يرون فى مسألة «العديد»، قضية ذات أبعاد أخرى.

الاهتمام البريطانى «بالعديد»:

بوصول النفوذ العثمانى إلى الأحساء وقطر، فإن الاهتمام البريطانى بهذه المنطقة اتخذ طابعا مميزا، جعلها تخشى امتداد ذلك النفوذ على مشيخات ساحل عمان مما يكشف عن مخططات السياسة البريطانية فى المنطقة، والتي كانت تقتضى بتفكيكها ليسهل السيطرة عليها وتمزيق مشيخة أبوظبى وخلق مشيخة ضعيفة وجديدة فى العديد تعتمد عليها كليا، ولكن مجيء العثمانيين وانضمام حاكم قطر لهم، ورفع بطل بن خادم القبسى العلم العثمانى ومحاولاته ربط مستوطنة «العديد» بقطر، أفسد حسابات البريطانيين وأثار مخاوفهم من أن يؤدى ذلك إلى تغلغل النفوذ العثمانى عبر العديد إلى مشيخات ساحل عمان.

لهذا سارعت بريطانيا إلى مجابهة الموقف، واتصلت بزايد بن خليفة وأبلغته بأنها تؤيد حقه فى العديد، فى الوقت نفسه أبلغت حاكم العديد بأنه ورعاياه يتبعون أبوظبى وعليهم أن يعلنوا ذلك وبأن لا يلجأ زايد بن خليفة إلى تحقيق ذلك بالقوة (23).

رغم ذلك فإن المقيم السياسى البريطانى رفض طلب زايد باستخدام القوة لاسترجاعها. وطلب منه تأجيل النظر فى موضوع العديد إلى فرصة أخرى مناسبة، وقد يرجع ذلك إلى أن الموقف فى المنطقة كان يهدد بالانفجار، بينما تجاهل وجود الحامية العثمانية التى وصلت مدينة الدوحة فى قطر وجاورت «العديد»، إلا أنه كتب إلى حكومته محذرا بأن اقتراب العثمانيين من حدود المشيخات سيؤدى إلى إثارة المشاعر الإسلامية فى المنطقة واحتمال قيام تعاون بين الباب العالى وحكام مشيخات ساحل عمان.

ايقن زايد عام 1872، بأنه لا بد من تعليق موضوع استعادة «العديد» لأن الموقف السياسى لم يعد موافيا لشن حملته العسكرية ضد الانفصاليين، لأن جميع المؤشرات كانت تدل على أن بريطانيا لن تسمح له بذلك خوفا من أن تجر إلى حرب بين أبوظبي وقطر، وبالتالي قد يؤدي ذلك إلى نوع من الاحتكاك بين بريطانيا والباب العالى.

كانت التعليمات المعطاة إلى المقيم السياسى البريطانى «بيلى»، تقضى بأن يبلغ حكومته فورا عن أى تقدم عثمانى يهدف إلى السيطرة على «العديد». وتم فى هذا العام نقل «بيلى» الذى كان خبيرا بأوضاع المنطقة إلى منصب آخر وحل محله المقدم «روس» كمقيم سياسى بريطانى جديد فى الخليج العربى، وكانت التعليمات النهائية له إبقاء مشكلة «العديد» معلقة.

قد يرجع ذلك إلى أن الحملة العثمانية تركت أثرا كبيرا فى تفكير رجال السياسة البريطانية، ورأوا فيها بوادر خطيرة تهدد وجودهم ومصالحهم فى الخليج العربى بعمامة ومشايخات ساحل عمان بخاصة، ولذلك لم يتركوا فرصة دون انتهازها فى تنبيه السلطات العثمانية إلى الاتفاقيات المبرمة بينها وبين مشايخات ساحل عمان، وحرصها على منع أى نفوذ أجنبى من التقدم نحوها، ورغم التطمينات العثمانية فإن البريطانيين لم يطمثوا لنواياهم، بل سيطر الشك فى نفوسهم.

كان مساعد المقيم السياسى البريطانى «جرانت» - الذى قام بمهمة استطلاعية - يميل إلى الاعتقاد بأن زايد بن خليفة قد يلجأ الدعوة لزيارة الأحساء للتشاور مع العثمانيين بسبب مشاكله مع قبائل «النعيم» فى البريمى والقييسات فى العديد، وإحساسه بأن البريطانيين قد تخلوا عنه فى معالجة هذه المسائل، ورفع تقريراً عن المعلومات التى حصل عليها إلى المقيم السياسى البريطانى «روس»، والذى استنتج من هذا التقرير بأن الظروف التى تحيط بزايد بن خليفة قد تؤدي به إلى الوقوع فى النفوذ العثمانى فى الوقت الذى كان الباب العالى يعتبر مشايخات ساحل عمان والبريمى من ممتلكات مقاطعة الأحساء التابعة للبصرة وبغداد، مما قد يجعلهم يعملون على انتهاز أية فرصة موافية لتحقيق ادعائهم، فرفع روس المقيم السياسى البريطانى رأيه إلى حكومة الهند مبينا بأن العديد من أملاك زايد بن خليفة، معتمدا

على ما كان قد توصل إليه المقيم «بيلي» في بحثه السابق الذي أجراه عام 1871 حول تبعية «العديد» لحاكم أبوظبي (24).

كتب زايد بن خليفة في شهر يونيو 1873، إلى المقيم السياسي البريطاني يخبره بأن أربعة من ضباط القوة العثمانية الموجودة في قطر قد دخلوا إلى «العديد»، وهناك عقدوا عدة اجتماعات مع المنشق بطي بن خادام القبيسي، وأن أعلاما عثمانية قد وزعت على منازل البلدة، كما وافق بطي على دفع مبلغ من المال كضريبة سنوية للعثمانيين لقاء حمايته. وحذر زايد بن خليفة بأنه لن يسكت أكثر من ذلك وطلب القيام بعمل عسكري لاستعادة «العديد» إلى حكمه.

أما المبلغ الذي وافق على دفعه فقدر بحوالي من أربعين إلى خمسين روية عن طريق قاسم بن ثاني، أما الضباط العثمانيون فقد رحلوا عن «العديد» بعد أن منعهم ندرة المياه عن إقامة موقع لهم (25). وكان بطي بن خادام القبيسي قد كتب إلى المقيم السياسي البريطاني محذرا إياه من انتهاك حقوقه في «العديد» لأن الدولة العثمانية ستحميه. كان شيخ القبيسات بطي بن خادام يرفع العلم العثماني على العديد من وقت لآخر. وبخاصة عندما كان يترقب وصول ضيوف من العثمانيين، وفي المناسبات الأخرى كان يرفع علم معاهدات الهدنة البحرية التي أعطاها المقدم «بيلي» لوالده خادام بن نهيمان، وقد تجرأ بطي بن خادام القبيسي إلى درجة أنه أبلغ المقيم السياسي البريطاني أنه إذا لم تحترم حقوقه في «العديد»، سيطلب الحماية العثمانية، مما جعل السلطات البريطانية تفكر في احتمالات التدخل العثماني في حالة العداء بين أبوظبي و«العديد»، ولذا فإن المقيم السياسي البريطاني كتب في 20 من أغسطس إلى حكومته يقول (26):

«من المؤكد تقريبا بأنه في ظل الوضع الراهن للأمر لن يقدم العثمانيون على إرسال حملة عدائية ضد أبوظبي أو أي ميناء عماني آخر، وإذا ما وصلت أي قوات إلى هذا الموقع فسوف يكون ذلك بلا شك على دعوة من العرب أنفسهم».

استجابة لطلب زايد بن خليفة باستعادة العديد كان على المقيم أن يأخذ موافقة حكومته ولذا فإنه رفع الأمر إلى حكومته في بومباي مطالبا النظر فيها بإيجابية لمشكلة «العديد» (27)، وأوضح بأنه لا بد من أخذ بعض الأمور بعين

الاعتبار لكي تكون القرارات مناسبة على ضوء ما استجد من الأحداث، كالوجود العثماني في قطر ومحاولات الحكومة العثمانية الأخيرة التقرب من زايد بن خليفة، ولذا فإنه كتب إلى حكومته قائلاً (28):

«ربما يقوم شيخ أبوظبي بالتفاوض مع العثمانيين وطلب مساعدتهم لإجبار القبيسات الموجودين في «العديد» على الدخول في طاعته، يحتمل حينذاك أن يقوم زايد بن خليفة نفسه بتسهيل تدخل العثمانيين في شئون عمان بصورة عامة».

تابع «روس» تقريره قائلاً بأن زايد قد طلب منه إذنا لعمل بحري ضد المتمردين في العديد على أساس أن الحملة البحرية أمر ليس عمليا بالنظر لعقبات وصعوبات الطبيعة، وأنه كان يميل إلى الاعتقاد بأن رفض مطالب زايد قد يلقي به في أحضان الحكومة العثمانية. من المصادفة أن «بيلى» المقيم السابق كان في زيارة إلى «سمالا» عند وصول تقرير «روس» مما جعل وزير خارجية حكومة الهند «اينشيسون» يطلب منه إبداء الرأي بهذا الموضوع فأجاب «بيلى» مؤكداً على رأيه السابق بأن شيخ أبوظبي له الحق في «العديد»، ورغم ذلك فإنه يعتقد بأن التطمينات العثمانية بعدم التدخل في مشيخات ساحل عمان يمكن الوثوق بها إلى حد ما، وبالتالي فليس هناك داعٍ للتحرك ضد «العديد» ما لم تتحرك السلطات العثمانية في هذا الاتجاه وتخلف وعودها وتطميناتها (29).

جاء رأى «بيلى» متفقاً مع رأى «اينشيسون» ولذا فإن الأخير بعث بتعليماته إلى «روس» في شهر أكتوبر عام 1872، جاء فيها بأن عليه أن يحاول قدر الإمكان التملص من إعطاء زايد إجابة واضحة على مطالبه، ويأنه لا داعى لتقديم جواب لزايد ما لم يواصل الإلحاح في طلب مثل ذلك وفي هذه الحالة يجب أن يقال له بأن الحكومة الهندية لا توافق على قيامه بحملة بحرية ضد «العديد»، بل وستعمل على إيقافها (30).

لذا يجب أن يبلغ حاكم أبوظبي بمعارضة الحكومة البريطانية لأي تحرك بحري مضاد «للعديد». ونظراً لموقف حكومة الهند بتجميد الوضع، كتب المقيم السياسى البريطانى بدوره إلى زايد بن خليفة في 27 أكتوبر 1973 بضرورة ضبط النفس ويبلغه بأن حكومة الهند سوف تمنعه من القيام بأية حملة عسكرية ضد

العديد إضافة إلى أنها ستستخذ إجراءات عملية لوقفه، مما جعل موضوع «العديد» معلقا إلى حين.

بينما كتب بطى بن خادم شيخ القبيسات رسالة إلى المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر والذى استلمها بتاريخ 9/9/1874، يقول فيها بطى بن خادم (31):

«أود إعلامك أن زايد شيخ أبوظبى قال: «إننى سأذهب إلى «العديد» بحرا ولا أبالى بالمقيم السياسى ولا بأى شخص آخر».

الرجاء أن تكتب إلى شيخ أبوظبى أننا توطنا فى «العديد» بمشيئة الله أولا ثم بمقتضى أوامرك. وأنت تعلم أننا امتنعنا عن القيام بأية خطوة تعرض سلام البحار للخطر إلا أن زعيم أبوظبى ليس كذلك.

لذا فإنى واثق بأنك ستكتب لزعيم أبوظبى قريبا بأن يتركنى وأتباعى بشأننا فأنت تعلم أننا رعايا الله ورعاياك».

رد المقيم السياسى البريطانى عليها بتاريخ 15/9/1874 إلى بطى بن خادم يقول فيها (32):

«ليس لدى معلومات بشأن ما يعزم عليه زايد فى مهاجمتك بحرا ولم يتسلم أى إذن بهذا الخصوص. ومن المفيد لك أن تبقى مع أتباعك بعيدين عن انتهاك قواعد البحار».

كتب زايد بن خليفة فى عام 1874 إلى المقيم السياسى البريطانى يبلغه بأن السلطات العثمانية المحلية كتبت إليه بأن العديد تحت حمايتها وتطالبه بعدم التدخل فى شئونها ورفض زايد تقديم تلك الخطابات للسلطات البريطانية (33).

حدث فى مجال العلاقات العثمانية مع مشيخات ساحل عمان، ما كان متوقعا عندما قام ضابط كبير من رئاسة الأركان العثمانية، فريق باشا بزيارة الأحساء، وهناك لفت نظر الضابط العثمانى المسئول عن تلك المنطقة، والتى يقضى بضرورة التحرك جنوبا تجاه مشيخات ساحل عمان وإثارة المشاعر الدينية الإسلامية عند الحكام لإبعاد النفوذ البريطانى عن المنطقة، وقد قام يوسف أفندى قائد الحامية العثمانية فى قطر بإرسال رسائل إلى حكام المنطقة، ومنها إلى زايد بن

خليفة حاكم أبوظبي، وحشر بن مكتوم حاكم دبي، يؤكد فيها رغبة الحكومة العثمانية في التفاهم مع جميع شيوخ المنطقة لتنظيم علاقات جديدة في الأمور السياسية والتجارية.

أما الرسالة الموجهة إلى زايد فقد تضمنت فقرة تقول بأن العديد تعتبر من المحميات العثمانية وأنه لا حق لزايد بالمطالبة فيها، وهذا ما جعل الأخير لا يتعاطف كثيرا مع الدعوة العثمانية بقدر ما تأثر بموضوع «العديد» الذي بدا وكأنه سيفلت من يده إذا لم يواجه الأمر بسرعة، ولحسن حظه كان المقدم «روس» في المشيخات الشمالية، فذهب زايد لزيارته وقام بشرح وجهة نظره وتوضيح الأبعاد المختلفة لمشكلة «العديد»، كما أبلغه بالرسالة التي استلمها من يوسف أفندي، ثم كرر زايد مطالبته ألا تتدخل بريطانيا في شئونه الداخلية وأنه ينوي مهاجمة «العديد»، وعندما طلب «روس» هذه الرسالة أجابه زايد بأنه فقدوها وعندما يجدها سيرسلها (34).

بعث زايد رسالة بتاريخ 1875/1/11 إلى المقيم السياسي البريطاني «روس» يقول فيها (35):

«بالنسبة للرسالة التي بعثت بها السلطات التركية من قطر التي أعربت عن رغبتك في الاطلاع عليها، لى الشرف أن أعلمك أن جميع محاولاتي للبحث عن هذه الرسالة باءت بالفشل.

يسرني ألا تتدخل بيني وبين الأهالي المقيمين في العديد».

بعث في الأول من فبراير 1875 بطي بن خادم شيخ القيسيات رسالة إلى المقيم السياسي البريطاني يقول فيها (36):

«تسلمت رسالتك وسررنا أنك بخير، وكلنا ثقة أننا تحت حمايتك وأنا بأمان من أن تحدث لنا أضرار بحرا».

تجاه تطور هذه الأحداث بعث المقيم السياسي البريطاني برسالة إلى وزير الدولة لحكومة الهند في الدائرة الخارجية «بكلكتا»، يقول فيها (37):

«كنت قد أبلغت في رسالتي ذات الرقم (1313/274) المؤرخة في 1874/11/24 أن شيخ أبوظبي أعلمني عن تسلمه رسائل من المسؤولين الأتراك

مفادها أن العديد هي تحت حماية الحكومة التركية، وأنه فقد الرسائل المعنية إلا أنه سيوافيني بها لدى العثور عليها. وفي ذلك الحين تسلمت رسالة من شيخ أبوظبي يؤكد أنه غير قادر على العثور على الرسالة ولا أن يفيد عن فحواها. لا شك أن لدى الشيخ زايد أسبابا خاصة دعت له لعدم إبراز الرسائل، وكان في بادئ الأمر قد عرض علينا تقديمها.

فأود أن أرفق الرسائل المتبادلة بيني وبين شيخ «العديد» حول الموضوع، والتي يبدى فيها تخوفه من أن تقوم أبوظبي بمهاجمته».

كما قام المقيم السياسى البريطانى بإرسال رسالة أخرى إلى «ماركيز سالسبورى» وزير خارجية الدولة لمجلس الهند فى لندن يقول فيها عن رسائله الموجهة إلى حكومة الهند والمراسلات بين شيخى أبوظبي والقياسات وكذلك المتعلقة بالاحداث المنسوبة للعثمانيين لدى قيامهم بتقديم عروض حماية مكتوبة لشيخ القبيسات فى «العديد»⁽³⁸⁾.

وعندما استلم «روس» خطابا من مساعده الرائد «جرائت» يخبره بمعلومات وصلتته من مشيخات ساحل عمان حول الخطط العثمانية بمد سيادتها لتشمل عمان، كذلك تضمن الخطاب ترجمات للرسائل التى وصلت إلى شيوخ المنطقة من المسئول العثمانى «يوسف أفندى» وقد عقب «روس» على ذلك بقوله بأنه من خلال المراسلات العثمانية يبدو أنهم يحاولون إيجاد علاقات ودية مع شيوخ مشيخات ساحل عمان لأغراض سياسية وتجارية ويظهر ذلك واضحا من صياغة خطاب يوسف أفندى، كما أن حاكم دى وأبوظبي ينفصلان من أى رغبة للدخول فى علاقاتهم مع السلطات العثمانية⁽³⁹⁾.

وأضاف روس يقول: «وبينما لا تدل هذه الرسائل بحد ذاتها على نية مؤكدة من العثمانيين للتدخل السياسى فى عمان ولكن لدورها مع المعلومات الواردة من هناك لنجد أنها تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الأسباب متوفرة بأن عمليات العثمانيين فى تلك المنطقة تستدعى التشكيك اليقظ فى نواياهم، والأمر متروك لحكومة الهند لتقرر ما تراه مناسبا للحصول على تفسير من الحكومة العثمانية حول تصرفاتها المذكورة»⁽⁴⁰⁾.

بريطانيا تسمح لزايـد باستعادة العـديد:

حدث بعض التغير فى السياسة البريطانية تجاه زايد والسماح له باستعادة «العديد»، وذلك لسببين وهما:

أولاً: التخوف من تحول العديد إلى ملجأ لضرب المصالح البريطانية وتهديد سفنها فى الخليج العربى.

ثانياً: عدم السماح للسلطات العثمانية بالمزيد من الاعتداء على الساحل العربى للخليج؛ لأن اتساع الحكم العثمانى يجعل الإشراف على القبائل البحرية يتقل من المقيم السياسى البريطانى إلى السلطات العثمانية. فى الوقت الذى لم يكن المقيم السياسى البريطانى على استعداد للتنازل عن سيطرته وإيقاف عمل نظام المعاهدات البريطانية مع حكام مشيخات ساحل عمان، والسماح لحكام أبوظبى بالمضى إلى العمل ضد الاتفصاليين فى العديد بالحملة البحرية، إلا إذا تحول ذلك المكان بالفعل إلى خطر يهدد المصالح البريطانية وسفنها فى مياه الخليج العربى.

لهذا السبب رفض المقيم السياسى البريطانى المطالب المتلاحقة التى قدمها زايد بن خليفة فى الأعوام السابقة للسماح له بمهاجمة هذه المستوطنة المنفصلة عن أبوظبى عن طريق البحر (41).

وسوف ترفض بريطانيا طلباً آخر لزايـد عام 1874، ولكنها توافق فيما بعد وتسمح لزايـد باستعادة خور «العديد» عندما تتعرض مصالحها فى الخليج العربى للخطر وذلك فى عام 1876.

فى نوفمبر من عام 1874 بعث المقيم السياسى البريطانى يقول بأن الفرصة قد لاحت للقيام بإجراء مناسب، لأن زايد بن خليفة عاد يتحدث عن رغبته فى إخضاع المنشقين فى «العديد» بحملة بحرية، وأنه أخبره بأن حكومة الهند لا تسمح (42)، ثم أفاد زايد بن خليفة بأن الحكومة العثمانية تدعى حمايتها «للعديد» وأن الموظفين العثمانيين المحليين قد كتبوا إليه فى هذا الصدد، وكان المقيم السياسى البريطانى يعتقد بأن شيخ «العديد» لما خشى هجوم زايد بن خليفة، قد يكون التجأ إلى السلطات العثمانية وأن الرسائل التى أشار إليها زايد بن خليفة ربما كانت نتيجة ذلك الالتجاء، فى حين أقرت حكومة الهند إجراءات المقيم السياسى،

ولكنها قررت أن تنتظر ورود تقارير أخرى بشأن عروض الحماية والتي قيل إن العثمانيين بعثوا بها إلى شيخ «العديد» (43).

تبين في عام 1875 بأن شيخ العديد كان يملك علمين أحدهما لمشيخات ساحل عمان تحت الحماية البريطانية والآخر للدولة العثمانية، وأنه يرفع أحدهما أو الآخر حسب ما تقتضيه المصلحة. وقد قال المقيم السياسي البريطاني في تقريره إلى وزير الدولة لحكومة الهند (44):

«يبدو أن لدى شيخ العديد علماً تركياً كان يرفعه في بعض المناسبات، وفي بعض الأحيان يستخدم العلم البريطاني للعرب الذين هم تحت الحماية البريطانية إثباتاً للعلاقات الودية مع الحكومة البريطانية.

توترت الأمور في عام 1876 بين أبوظبى و«العديد»، عندما اعتدت مجموعات من قبائل آل مرة ومجموعات أخرى كانوا قد استوطنوا في بلدة العديد، وانضموا إلى بطى بن خادم القبيسى، على بعض السفن التابعة لأبوظبى أثناء موسم الغوص، كما هاجموا سفينة ظبيانية كانت راسية في ميناء الدوحة وقتلوا أفرادها، وفي شهر أغسطس أيضاً هوجمت سفينتان لأبوظبى كانتا تمران بالقرب من العديد، من قبل رجال القبيسات وسلبوها وقتلوا أحد ملاحيه (45).

إزاء هذه الهجمات كتب زايد إلى المقيم السياسى البريطانى عن الاعتداءات التى وقعت ضد سفن أبوظبى ومصدرها «العديد»، كما أوضح بأن انفصال «العديد» سيؤدى إلى مشاكل أمنية وإلى عدم استتباب السلم فى المنطقة، وأكد على ضرورة القضاء على انفصال «العديد» واستعادتها إلى أبوظبى وأن الوقت لم يعد يحتمل التأخير.

وقفت حكومة الهند حائرة حول هذه المشكلة وحول ما يجب اتباعه من أسلوب لمعالجة المشكلة التى أثارت حنق زايد فى الوقت الذى وجد الأخير عاجزاً عن التصدى لها فى ظل الأوامر البريطانية التى منعه من القيام بأى أعمال بحرية ضد الانفصاليين فى «العديد»، كما كانت بريطانيا تخشى أن تؤدى موافقتها لزايد باستعادة «العديد» بأن يضطر الشيخ بطى القبيسى إلى طلب الحماية العثمانية، كما أنها لا يمكنها تجاهل غضب زايد بن خليفة.

أصبح التفاهم مع الحكومة العثمانية بهذا الصدد ضرورياً، للحصول على اعتراف بالسيادة البريطانية على الساحل العربى مما سيطلق يدها فى التصرف لإيقاف الأعمال التى تهدد سفنها ومصالحها فى الخليج العربى، ولذا قام الكابتن «بريدوكس» القائم بأعمال المقيم السياسى البريطانى بإرسال قائد الأسطول البريطانى فى الخليج العربى الكابتن «جوثرى» إلى الدوحة والعديد فى مهمة استطلاعية حول مدى تغلغل النفوذ العثمانى فى هذه المناطق.

وصل جوثرى بتاريخ 15/10/1876 إلى الدوحة واطلع على معسكر القوات العثمانية، كما علم أن حاكم قطر يدفع ضريبة للحكومة العثمانية تقدر بحوالى عشرة آلاف قران، وأنه لم يحاول التزول إلى الدوحة أو التحقيق مع حاكمها حول الاعتداءات التى حدثت ضد السفن الظاينية، وفى 18 أكتوبر توجه إلى خور العديد وقد عدد المنازل بما تسمى منزل، كما شاهد ثلاثين سفينة راسية فى الميناء وأربعة لحراسة مدخل الخور والممر المائى المؤدى إلى بلدة العديد، ولاحظ الأعلام المرفوعة فوق الأبراج وكانت أعلام الهدنة البحرية(46).

بعد عودة «جوثرى» رفع تقريره بهذا الخصوص إلى «بريدو» مساعد المقيم السياسى البريطانى وهو بدوره رفع مذكرة إلى حكومته يقول فيها(47):

«بالرغم من المبالغات فى البيانات السابقة عن الحوادث البحرية فإنه يدل على أن اليقظة البريطانية قد خفت تجاه الساحل القطرى منذ دخوله السيادة العثمانية، لأن القبائل العربية الخاضعة للسيطرة العثمانية تسرت لها فرص أكبر من السابق للعمل ضد المصالح البريطانية ولا يمكن اعتبار شيخ العديد مسئولا عنها ولكنه عاجز عن كبح جماح البدو الذين وجدوا فى موائله ملجأ مناسباً للتملص من إيقاع القصاص أو الثأر منهم على تعدياتهم، وأنه سيطلب من الوكيل البريطانى فى الشارقة أن يتوصل إلى حل للمشكلة بالطرق السلمية بين شيخى أبو ظبى و«العديد»، وإذا لم تنجح هذه الجهود فإنه يجب السماح للشيخ زايد باستعادة السلطة وإخضاع المنفصلين عنه، ومع أنه يقال بأن لدى شيخ العديد علما عثمانيا لكنه من غير المحتمل تماماً أن تتقدم الدولة العثمانية بأية ادعاءات بشأن العديد التى ظلت حتى السنوات القليلة الماضية جزءاً من إقليم «أبو ظبى» بغير

منارع. وقد أقرت الحكومة الهندية وجهة نظره وخولته الصلاحيات اللازمة لاستعادة العديد إلى حاكم أبوظبى (48).

قامت حكومة الهند برفع مذكرة إلى وزير الدولة حول قضية «العديد» مشيرة إلى الرسالة التى بعث بها مساعد المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى، ومن الرسائل السابقة حول هذا الموضوع وشفعتها بالنقاط التالية (49):

1 - إن الأعمال البحرية المشتكى منها قد ارتكبتها جماعة من قبيلة بنى مرة وهى قبيلة تخضع اسميا للحكومة العثمانية.

2 - إن مرتكبى تلك الأعمال قد انطلقوا لغزوتهم من موانئ تابعة لشيخ «العديد».

3 - إن شيخ العديد لم يعارض أو يساعد استخدام موانئه كمكان انطلاق لغزواتهم وأعمالهم البحرية.

4 - إن سبب ضعف شيخ العديد ناجم من كونه هو وأتباعه لا يشكلون إلا مستعمرة صغيرة من الناس الساخطين الذين انفصلوا عن قبيلتهم الأم الكبرى بنى ياس فى أبوظبى.

5 - إن سبب تخلف حاكم أبوظبى عن إخضاع هؤلاء المنشقين فى «العديد» هو كونه قد منع من ذلك من قبل الحكومة البريطانية.

اختتمت تلك النقاط باقتراح هو محاولة إغراء الدولة العثمانية باتخاذ التدابير اللازمة لمنع قيام أعمال تهدد المصالح البريطانية من قبل بنى مرة. أو أن تقوم السلطات البريطانية فى الخليج العربى بالإجراءات اللازمة التى تحول دون استخدام موانئ العديد كمصدر لتلك العمليات.

وطلبت حكومة الهند من الحكومة البريطانية بأن تتولى وزارة الخارجية مخاطبة الحكومة العثمانية حول العديد، أما بالنسبة لموانئ العديد فإن مصلحة الحكومة البريطانية كحامية للسلام ضد الانتفاضات فى الخليج العربى أن تكون كل قبيلة مستصالحه على الشاطئ العربى قوية وغير مقسمة، ومن الإنصاف أن تقوم الحكومة التى تمنع حاكم أبوظبى من إحلال النظام فى وسط قبيلته المنشقة بتأمين هذا الحاكم من ناحية حاجته إلى الحصول على ولاء وخضوع هؤلاء المنشقين عليه،

إما بالطرق السلمية أو إذا لزم الأمر بالطرق القهرية. ثم أشارت إلى صعوبة إخضاع سكان العديد، قد يرجع إلى كونهم يرفعون العلم العثماني، كما لا يوجد دليل ملموس بأنهم تحت السيادة الفعلية العثمانية، فإننا نرى أن مجرد رفع العلم العثماني لا يستدعي بحال من الأحوال تقييد حريتنا في التصرف تجاه هذا الموضوع (50).

يتبين من هذا أن التغير الذي حدث في السياسة البريطانية تجاه «العديد»، وهو ظهور عبارات جديدة كالمحافظة على وحدة مشيخات المنطقة ويقصد بها مشيخة أبوظبي «وأن تكون قوية وغير منقسمة» ومنذ متى كانت بريطانيا تريد وحدة المنطقة وقوتها، وهي التي جزأتها إلى كيانات هزيلة، كما تريد من حاكم أبوظبي إخضاع المنشقين، ولعل سبب هذا التغير في سياستها راجع إلى استخدام القبائل العربية ميناء «العديد» مسرحاً لنشاطهم البحري ضد السفن البريطانية ومما قد يؤثر على أمن الملاحة والمصالح البريطانية في المنطقة، كما نظروا إلى العلاقات الوثيقة بين شيخ «العديد» وحاكم قطر بعين الرضا لكون الأخير تحت الحكم العثماني، كما كان سكان «العديد» يدفعون الضريبة السنوية لحاكم قطر، لهذا كله قررت الحكومة البريطانية اتخاذ الإجراءات اللازمة لعودة خور العديد إلى أبوظبي لخطورة انفصالها.

لهذا فإن وزير الدولة البريطاني بعدما تسلم تلك المذكرات من حكومة الهند راح يتصل بوزارة الخارجية طالبا منها إصدار توجيهات إلى السفير البريطاني في الأستانة بجلب انتباه الحكومة العثمانية بشدة إلى تزايد الأعمال البحرية ضد السفن البريطانية على امتداد الساحل القطري والذي لحجم عن توسع السيادة العثمانية في تلك الناحية وطلب منه أن يلمح بتصميم الحكومة البريطانية على عدم السماح باختلال الأمن في الخليج العربي من جراء غارات تنطلق من موانئ خاضعة للحكومة العثمانية أو من قبائل تخضع للسيادة العثمانية وتنطلق غاراتها من أراضي شيوخ مستقلين هم أضعف من أن يمنعوا إساءة استخدام موانئهم (51).

كما نصحت الحكومة البريطانية سفيرها في الأستانة بعدم ذكر العديد أو الإشارة إليها عند تبليغ الحكومة العثمانية عن العمليات التي تمارس ضد السفن البريطانية في الخليج العربي، لأنه من المشكوك فيه ما إذا كانت الحكومة العثمانية تمارس أي نفوذ فعال على شيخ بطي القبسي في هذه المنطقة ولأن ذكر العديد قد

يثير مشكلة إقليمية بينهما⁽⁵²⁾، وقد أنكرت الحكومة العثمانية أى معرفة عن الهجمات التى تشن ضد السفن البريطانية من سواحلها فى الخليج العربى، كما طلبت من السفير البريطانى «لايارد» تقديم مزيد من التفاصيل والإيضاحات حول هذه الموضوع.

طلبت حكومة الهند من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى شهر يونيو من عام 1877 أن يتفاوض بين الطرفين زايد وبطى القيسى لحل مشكلة «العديد» بالطرق السلمية، وإذا فشلت هذه المحادثات فيجب مساعدة شيخ أبوظبى لإعادة سيادته على خور «العديد»⁽⁵³⁾. ولكن شيخ العديد رفض الشروط التى عرضها الجانب البريطانى بالتوصل إلى الصلح فحذره المقيم السياسى البريطانى من موقفه هذا بأن بطى القيسى يستند إلى الدولة العثمانية، وفى نفس الوقت كتب إلى زايد يخبره بأن حكومة الهند قد قررت عودة «العديد» إلى سيادته وأنها على استعداد لتعزيد محاولاته فى ذلك.

ينظر الساسة البريطانيون من أمثال «السبورى» و«ليتون» إلى السياسة العثمانية تجاه الخليج العربى بصفة عامة وتجاه العديد بصفة خاصة، بأنهم يستنزفون النفوذ البريطانى سواء بالطرق المباشرة أو باستغلال القبائل الساحلية التى كانت تساند السياسة العثمانية، كما كان «السبورى» يرى بأن انشغال العثمانيين فى حربهم ضد روسيا وانسحابهم من البلقان سببا كافيا لسكوت بريطانيا عما يجرى فى الخليج العربى، ولذا فإنه طلب السفير البريطانى فى «اسطنبول» السير «هنرى لايارد» فى شهر يوليو عام 1877 أن يلفت نظر الحكومة العثمانية إلى ما يشكله الأعمال البحرية على ساحل قطر و«العديد» من خطورة على المصالح البريطانية وسببها تزايد النفوذ العثمانى فى الخليج العربى والجزيرة العربية، وأن يحذر بأن الحكومة البريطانية لن تقف متفرجة من أية محاولات لخرق السلام والأمن فى الخليج العربى أيا كان مصدرها، كما أرسل تعليمات أخرى إلى «لايارد» بشأن العديد بأنه لا يرغب فى أن يتطرق السفير البريطانى فى مفاوضاته مع الحكومة العثمانية إلى أية عبارة تنطوى على التشكيك فى سلطة الدولة العثمانية على رعاء «العديد» وإلى عدم الإشارة إلى هذه المسألة بالذات⁽⁵⁴⁾. علما بأن حكومة الهند كانت قد وافقت على طلب زايد بن خليفة لإعداد حملة عسكرية لاستعادة «العديد».

قام السفير لايارد بتقديم مذكرة إلى صفوت باشا وزير الخارجية العثمانية في يوليو حول الشكوى البريطانية عن ارتكاب بعض الأعمال ضد مصالحها في الخليج العربي من قبل القبائل الخاضعة للسيادة العثمانية، ولكن صفوت باشا أبلغ السفير بأنه لا بد أولاً من الاتصال بالوالي العثماني في البصرة لمعرفة رأيه قبل الرد على مذكرة الحكومة البريطانية، وفي بداية شهر أغسطس ذكر صفوت باشا للسفير البريطاني بأن رد الوالي العثماني في البصرة يتضمن التفسير الحقيقي للمشكلة، فقد أكد بأن الهدوء يسود المنطقة من أقصاها إلى أقصاها وأنه لم تقع أية أعمال ضد المصالح البريطانية كالتى أشار إليها السفير البريطاني. ولكن بعد الانتهاء من الحرب الروسية - العثمانية، أبدت الحكومة العثمانية استعدادها لمناقشة تلك الموضوعات ولكن بشروطها(55).

أما زايد بن خليفة فقد نفذ صبره وخاصة عندما علم بأن إحدى سفن أبو ظبي قد تعرضت لهجوم من الجماعات المقيمة في «العديد» فقرر إصدار أمر بالتجمع لمقاتليه في أبو ظبي فاجتمعت لديه كتائب من كافة عشائر وقبائل أبو ظبي في أوائل شهر ديسمبر، وحشد أسطوله البحرى المكون من سبعين سفينة مقاتلة بهدف تدمير «العديد» تدميراً كاملاً، وقبل أن تغادر الحملة البحرية ميناء أبو ظبي كتب زايد إلى المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر يعلمه بقراره النهائى بإعلان الحرب واسترجاع «العديد». وقد وصلت رسالة زايد بعد عودة المقيم السياسى البريطانى «روس» من إجازته فوجد قضايا كثيرة فى مقدمتها قضية «العديد»، كما وجد كتاب الهند والتى أعطته فيها صلاحيات حل المشكلة عسكراً إذا ما فشل الحل السلمى، فلما وافق المقيم السياسى البريطانى على مهاجمة «العديد» وبعث كتابه إلى زايد كانت قوات الأخير قد قطعت أكثر من نصف المسافة فى طريقها إلى «العديد»، مما حدا بالمقيم أن يركب السفينة الحربية «تبرر» للأسطول البريطانى واتجه مسرعاً لملاقاة زايد قبل أن يصل الأخير إلى هدفه فى «العديد»(56).

وصلت الحملة البحرية بقيادة زايد بن خليفة لاستعادة «العديد» إلى «جبل الظنة» وجزيرة «صير بنى ياس» فى يناير من عام 1878 كانت أنباؤها قد وصلت إلى الشيخ بطى القيسى ولم يكن فى مقدوره ولا شيخ قطر مقاومتها ففزع هو وقومه وهرعوا للهرب بأرواحهم وتم جمع النساء والأطفال فى قافلة وتم إرسالها إلى قطر فى حين بقى الرجال فى جمع أمتعتهم وأدواتهم الخاصة(57)، وخلعوا

أجزاء منازلهم ورموا بها فى الآبار ولاذوا بالفرار وذهب معظمهم إلى البدع فى قطر واحتموا بقاسم بن ثانى .

عندما وصل زايد على رأس حملته إلى «العديد» وجدها خالية فقد هرب سكانها وهجروها وقام رجال زايد بتدمير بلدة «العديد» ومسحوها عن وجه الأرض، وفى تلك الأثناء كان المقيم السياسى البريطانى قد وصل إلى جزيرة «قفاى» بطراده فشاهد من على بعد عشرين سفينة محملة بالنساء والرجال تابعة للقبيسات وهى تحاول الهروب إلى جهة الساحل القطرى ثم توجه إلى بلدة «العديد» فوجدها قد زالت من الوجود، وعرف أن زايد قد انسحب بقواته إلى أبوظبى بعد أن ترك حامية صغيرة من قواته هناك فأيقن المقيم السياسى البريطانى بأن العملية قد انتهت بالنجاح، فتوجه إلى مقره فى بوشهر ومنها كتب إلى حكومته يخبرها بانتهاء العمليات الحربية وباسترجاع «العديد» إلى أبوظبى .

الاحتجاج العثمانى ضد هجوم زايد على «العديد»:

بينما كانت المفاوضات البريطانية - العثمانية جارية حول مشكلة قبرص فى شهر مايو عام 1878، استدعى صادق باشا السفير البريطانى وقرأ عليه نص البرقية التى تلقاها من ناصر باشا السعدون الوالى العثمانى فى البصرة، تتضمن معلومات مشيرة عن هجوم بحرى لزايد بن خليفة وقدم احتجاج الحكومة العثمانية ضد السلطات البريطانية وسلمه إلى السفير البريطانى «هنرى لايارد»، وذلك فى اسطنبول فى 28 مايو من عام 1878 جاء فيها بأن صادق باشا وزير الخارجية العثمانية قد قرأ عليها برقية من والى البصرة يشكو فيها قيام زايد بن خليفة على رأس سبعين سفينة ورفقة سفينة حربية بريطانية عليها المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر بمهاجمة بلدة «العديد» التى هى محمية تابعة لقضاء قطر العثمانى، مما أسفر عنه فرار السكان وتبعه نهب القرية وتدميرها ونهب جميع مراكبها، ثم قال السفير البريطانى بأن الباب العالى أعرب عن أمله فى تقديم إيضاح لهذا التجاوز من قبل حاكم أبوظبى على الإقليم العثمانى، ولكن وزير الخارجية البريطانية اللورد «كران بروك» الذى حولت إليه أوراق القضية رفض أن يقدم أية إيضاحات تفصيلية إلا بعد التشاور مع حكومة الهند، كما لفت أنظار الخارجية البريطانية إلى

مراسلات وزارة الهند لعام 1877، والتي أوصت بتجنب البحث مع الباب العالي بشأن بلدة «العديد» كلما كان ذلك ممكناً (58).

عاجلت حكومة الهند مشكلة العديد في ظروف التدخل العثماني بمذكرة مؤرخة في 12 مايو عام 1879، اعتماداً على مذكرة المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى حول المسألة الخاصة بالسلطة الشرعية العثمانية تتضمن ثلاث نقاط، وهى:

أولاً: أنه لم يتضح بعد نية العثمانيين نحو بسط نفوذهم فى خور «العديد» وأنه على ما يعلم لم تقم أى سلطة أو سيطرة من هذا النوع.

ثانياً: استندت حكومة الهند بناء على تأكيدات العقيد «بيلى» عام 1871، بأن العديد لا تدخل ضمن حدود مقاطعة قطر.

ثالثاً: لقد أشار التقرير إلى أن شيخ «العديد» يلح برغبته فى الاستقلال بحكم «العديد» ويطلب الاعتراف البريطانى بحكمه لكى يدخل تحت الحماية البريطانية، وكان ذلك غير جدير بالقبول إلا إذا كفت الحكومة البريطانية عن مطالبة شيخ أبوظبى «بالعديد»، لأن سكان «العديد» هم فى الأصل من أتباع أبوظبى ولا يمكن الاعتراف باستقلالهم الكامل.

ثم تابعت المذكرة قولها فى ظل هذه الظروف والعامل الجغرافى «للعديد» لا يحق للدولة العثمانية أن يكون لها ولاء فى مناطق تقع خارج حدودها فكيف لها الحق بالمطالبة فى السيادة الشرعية على هذا الوضع؟ ثم إن حكام أبوظبى كانوا يطالبون «بالعديد» جيلاً كاملاً ويحكمونه من وقت لآخر إلى درجة اعتبار العرب سكان «العديد» من أتباع أبوظبى وأن حاكم أبوظبى فى «العديد» معترف به من قبل بريطانيا وقد أقرته منذ سنوات، أما المزاعم العثمانية التى ظهرت أخيراً، فقد قامت بناء على طلب من الشيوخ المحليين جهلاً بالواقع، فقد تأكد عام 1877 أن والى البصرة لم يسمع قط عن اسم «العديد»، فليس للدولة العثمانية أى مطلب شرعى فى «العديد» ولو فرض بأن المسألة سياسية ولا تتصل بحقوق أبوظبى فهى مسألة تضر بالمصالح البريطانية وتضعف من نفوذها فى الخليج العربى، ولربما تحول الخليج العربى إلى ملجأ للأعمال البحرية ضد المصالح البريطانية إذا ملكت الدولة

العثمانية سلطة «العديد» فهو موقع مناسب لتلك العمليات، وإذا عادت السلطة العثمانية إلى «العديد» كثرت معها الادعاءات وربما تخطتها إلى الجزر المجاورة الملحقة به فتزيد القلاقل فيمتد إلى كل المنطقة ولا يمكن القضاء عليها والعثمانيون ينظرون إليها بلامبالاة(59).

عودة القبيسات إلى أبو ظبي:

عندما علم زايد بالظروف والحالة القلقة التي يعيشها بطنى وأفراد القبيسات اللاجئين إلى قطر، تأثر بحالتهم وقرر أن يعفو عنهم وأن يعيدهم إلى ديارهم وقرر أن ينفذ عفوه عند رجوعه من أداء فريضة الحج عام 1880، وأمر ابنه الأكبر الشيخ خليفة بن زايد أن يتوجه إلى البحرين وأن يتوقف في طريق عودته في بلدة الوكرة ليبلغ بطنى القبيسى وأتباعه عفو زايد عنهم، ولذا فقد سار خليفة بن زايد بنفسه حسب أوامر والده وأخبرهم بعفوه فتقبله بطنى بلهفة شديدة وأظهر ندمه على ما فعله ثم قرر العودة إلى أبو ظبي، ولكن نظرا لالتزاماته المالية وديونه المرهقة التي وقع فيها كانت تمنعه من السفر علانية، ولذا اتفق مع خليفة بن زايد أن يعود إلى أبو ظبي عندما تسنح له الفرصة المناسبة، وجاءت هذه الفرصة مع بداية موسم الغوص الكبير، فتظاهر بطنى بن خادم القبيسى وأفراد قبيلته بأنهم متوجهون إلى مغاصات اللؤلؤ، وكانوا قد أرسلوا قبل ذلك نساءهم وأطفالهم إلى أبو ظبي، ولكن بدلا من الذهاب إلى مغاصات اللؤلؤ توجهت سفنهم مشرقا إلى أبو ظبي، وعندما علم زايد بن خليفة بنجاح الخطة ذهب مسرعا إلى العديد وهناك استقبلهم بكل حفاوة في حين أعلن بطنى بن خادم القبيسى ولاءه، وأظهر له الطاعة والإخلاص، فأمر زايد أن تشيد للقبيسات مساكن في «العديد» وتم حفر الآبار وتوزيع الأسلحة على العائدين وعين مفارز لحراسة المنطقة وأخرى لمراقبة الطرق البرية والبحرية(60).

ثم رجع زايد بن خليفة ومعه أفراد من القبيسات إلى أبو ظبي وهناك سلمهم أشجار النخيل التي كانت لهم وغيرها من أملاكهم التي تحفظ زايد بن خليفة عليها عندما انفصلوا عنه.

الخلاصة:

هذه الدراسة كانت عن محاولة أسرة القبسات الانفصال والاستقلال عن القبيلة الأم، بنى ياس، وإنشاء كيان جديد تحت الحماية البريطانية.

شجعت بريطانيا إقامة مشيخة «العديد» بقيادة المنشقين القبسات لاستمرار سياسة التجزئة وفتيت مشيخة أبوظبى بعدما كانت نجحت بريطانيا فى فصل دبنى عام 1830، ولكن مجيء الحملة العثمانية إلى قطر، جعل بريطانيا تخشى أن تنضم «العديد» إلى السيادة العثمانية أو أن تخضع أبوظبى للعثمانيين حتى تمنع انفصال العديد.

كل ذلك جعل بريطانيا تفكر فى وقف امتداد النفوذ العثمانى بإعطاء الموافقة لحاكم أبوظبى باسترجاع العديد بعد تردد استمر أكثر من ثلاثة أعوام.

والآن بدأت مشكلة «العديد» تثار من جديد ولكن بطريقة دبلوماسية هادئة بين أبوظبى والسعودية؛ نظرا لحساسية الوضع، وقد تكون قبلة موقوتة لمشاكل المستقبل، ولهذا فإنها محاولة لتزع مشاكل الحدود كما تسعى لإزالتها بقدر الإمكان بمعرفة الحقائق الثابتة والمدعمة بالوثائق، ولهذا فإن الدراسة كانت من خلال المراسلات الرسمية.

الهوامش:

- (1) ج.ج. لوريمر: دليل الخليج - القسم الجغرافي - الجزء الخامس ص 1736.
- (2) دار الهلال: بلادنا العربية - أبو ظبي ص 58.
- (3) جى.إى. سالدانا: وثائق التاريخ القطرى ص 65. رقم الوثيقة (49).
- (4) محمد مرسى عبد الله: دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها ص 218.
- (5) ج.ج. لوريمر: الخليج - القسم التاريخى - الجزء الثالث ص 1165.
- (6) دار الهلال: المرجع السابق ص 58.
- (7) وثيقة رقم "L/P&S/5/15" ص 425 - 427. رسالة من بطى بن خادى بن نيهمان شيخ قبيلة القبيسات إلى المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر بتاريخ 1869/8/25.
- (8) وثيقة رقم "L/P&S/5/15" نفس المرجع.
- (9) زهدى سمور: ساحل عمان الجزء الثانى ص 115.
- (10) ج.ج. لوريمر: المرجع السابق ص 1166.
- (11) وثيقة رقم "L/P & S/5/15" ص 425 - رسالة من الكولونيل «لويس بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى بوشهر إلى وزير الدولة فى الدائرة السياسية بمبائى بتاريخ 1869/8/28.
- (12) د. صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى ص 177.
- (13) د. جمال زكريا قاسم: دولة الإمارات العربية المتحدة «دراسة مسحية» ص 40.
- (14) زهدى سمور: المرجع السابق ص 115.
- (15) جى.بى. كيلى: الحدود الشرقية لشبة الجزيرة العربية ص 143. وانظر إجراءات الهند السياسية. المجلد (763) مارس (1872) رقم (369) من «بيلى» فى 1876/3/11.
- (16) د. عبدالعزيز المنصور: التطور السياسى لقطر ص 69.
- (17) جى.بى. كيلى: المرجع السابق ص 144. وانظر إجراءات الهند السياسية المجلد (763) مارس 1872 رقم (374) من سميث إلى بيلى فى 21 يوليو 1871 رقم (26).
- (18) د. عبد العزيز المنصور: المرجع السابق ص 90.
- (19) د. عبد العزيز المنصور: نفس المرجع ص 170.
- (20) وثيقة رقم "L/p&S/9/19" ص 231 - 235 رسالة من الشيخ زايد بن خليفة إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» فى الخامس من رجب 1288 الموافق (1871/9/20).

(21) وثيقة رقم "L/P&S/9/19" ص 23 - 235 رسالة من الكولونيل «لويس بيلي» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي «بوشهر» إلى وزير الدولة - الدائرة السياسية «بومباي» حررت الرسالة على متن السفينة الحربية البريطانية «هوغ رون» في «جوادرا» بتاريخ 1/11/1871.

(22) . محمد مرسى عبدالله: المرجع السابق ص 31.

(23) . فؤاد سعيد العابد: سياسة بريطانيا في الخليج العربي . الجزء الثاني ص 85.

(24) د. فؤاد سعيد العابد: نفس المرجع ص 85.

(25) د. عبد العزيز المنصور: المرجع السابق ص 91.

(26) د. عبد العزيز المنصور: نفس المرجع ص 170.

(27) Clarence. c. Mann - Abu Dhabi - P. 54.

(28) فالح حنظل: الفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة . الجزء الثاني ص 641.

(29) د. فؤاد سعيد العابد: المرجع السابق ص 86.

(30) جى . إى . سالدانا : المرجع السابق ص 74 وثيقة رقم 58.

(31) وثيقة رقم "L/P&S/9/62" المجلد الثاني ص 355 - 365 رسالة من بطى بن خادم بن نهيمن شيخ العديد إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي «بوشهر» بتاريخ 9/9/1874.

(32) وثيقة رقم "L/P&S/9/62" ص 355 - 365 من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي «بوشهر» إلى بطى بن خادم بن نهيمن شيخ العديد. فى الثالث من شعبان (1291) الموافق 15/9/1874.

(33) ج. ج. لوريمر: المرجع السابق ص 1242.

(34) فالح حنظل: المرجع السابق ص 643.

(35) وثيقة رقم "L/P&S/9/62" المجلد الثاني ص 355 - 365 من الشيخ زايد بن خليفة بن خليفة شيخ أبوظبى إلى الكولونيل «ى. س. روس» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي «بوشهر» فى الثاني من ذى الحجة 1291 الموافق 11/1/1875.

(36) وثيقة رقم "L/P&S/2/62" ص 35 - 365 رسالة من بطى بن خادم بن نهيمن شيخ العديد إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي «بوشهر» فى الثالث عشر من ذى الحجة 1291 الموافق 1/2/1875.

(37) وثيقة رقم "L/P&S/5/15" ص 355 - 365 المجلد الثاني رسالة من المقدم

«ى.س.روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» إلى وزير الدولة لحكومة الهند. الدائرة الخارجية «كلكتا» بتاريخ 20 / 3 / 1875.

(38) وثيقة رقم "L/P&S/2/62" ص 355 - 365 المجلد الثانى من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» إلى «ماركيز ساليزيرى» وزير خارجية الدولة لمجلس وزير خارجية الدولة لمجلس الهند . لندن بتاريخ مارس 1875.

(39) جى . إى . سالدانا: المرجع السابق ص 75. وثيقة رقم (59).

(40) جى . إى . سالدانا: نفس المرجع ص 76 وثيقة رقم (59).

(41) جى . بى . كيلي: المرجع السابق ص 145.

(42) جى . إى . سالدانا: المرجع السابق ص 77. وثيقة رقم (60) من الوكيل السياسى البريطانى فى ديسمبر 1874 رقم (146) خطاب المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى رقم (274 / 13 / 13) بتاريخ (21) نوفمبر.

(43) جى . إى . سالدانا: نفس المرجع ص 71. وثيقة رقم (61).

(44) وثيقة رقم "L/P&S/2/62" المجلد الثانى ص 355 - 365 رسالة من المقدم «ى.س.روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» إلى وزير الدولة لحكومة الهند. الدائرة الخارجية كلكتا بتاريخ 20 / 3 / 1875.

(45) د. فؤاد العابد: المرجع السابق ص 86.

(46) فالح حنظل: المرجع السابق ص 649.

(47) جى . إى . سالدانا: المرجع السابق ص 80 وثيقة رقم (64) وزارة الخارجية رقم (947) سياسى بتاريخ 7 مايو 1871.

(48) جى . إى . سالدانا: نفس المرجع ص 80 وثيقة رقم (64) الرسالة رقم (78) سياسى بتاريخ 10 مايو 1877 الأرقام (263 - 269).

(49) جى . إى . سالدانا: نفس المرجع ص 85 وثيقة رقم (65) الخطاب رقم (78) سياسى بتاريخ 10 مايو 1871.

(50) جى . إى . سالدانا: نفس المرجع ص 83 وثيقة رقم (62) بتاريخ 14 أكتوبر 1877 الوكيل السياسى فبراير 1878.

(51) جى . إى . سالدانا: نفس المرجع ص 84. وثيقة رقم 66.

(52) د. عبدالعزيز المنصور : المرجع السابق ص 173.

Muhammad Morsy Abdullah: The United Arab Emirates Amodern (53)

History P. 162.

(54) جى . بى . كيلي : بريطانيا والخليج ج 2 ص 667.

(55) جى . بى . كيلي : نفس المرجع ص 668.

(56) فالح حنظل : المرجع السابق ص 651.

(57) فالح حنظل : نفس المرجع ص 652.

(58) جى . إى . سالدانا : المرجع السابق وثيقة رقم (71).

(59) د . عبدالعزيز المنصور : المرجع السابق ص 175.

(60) فالح حنظل : المرجع السابق ص 661.

المصادر والمراجع:

أولاً: الوثائق الأجنبية غير المنشورة:

1 - وثيقة "L/P&S/5/515" ص 425 - 427 رسالة من بطى بن خادم بن نهيمن شيخ قبيلة القبيسات إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» بتاريخ 1869 / 8 / 25.

2 - وثيقة "L/P&S/5/15" ص 425 رسالة الكولونيل «لويس بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلى وزير الدولة فى الدائرة السياسية «بومباى» بتاريخ 1869 / 8 / 28.

3 - "L/P&S/9/19" ص 231 - 235 رسالة من الشيخ زايد بن خليفة إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» بتاريخ الخامس من رجب 1288 الموافق 1871 / 9 / 20.

4 - "L/P&S/9/19" ص 231 - 235 من الكولونيل «لويس بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلى وزير الدولة. الدائرة السياسية «بومباى» حررت الرسالة على متن السفينة الحربية البريطانية «هوغ روز» فى جوادر» بتاريخ 1871 / 11 / 1.

5 - "L/P&S/9/62" المجلد الثانى ص 355 - 365 رسالة من بطى بن خادم بن نهيمن شيخ القبيسات فى «العديد» إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» بتاريخ 1874 / 9 / 9.

6 - "L/P&S/9/62" ص 355 - 365 رسالة من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» إلى بطى بن خادم بن نهيمن شيخ العديد بتاريخ الثالث من شعبان (1391هـ الموافق 1874 / 9 / 15م).

7 - "L/P&S/9/62" المجلد الثانى ص 355 - 365 من الشيخ زايد بن خليفة شيخ أبوظبى

إلى الكولونيل «ي. س. روس» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي «بوشهر» في الثاني من ذي الحجة 1291 الموافق 1875/1/11.

8 - "L/P&S/9/62" ص 355 - 365 من بطي بن خادم بن نهيمان من شيخ العديد إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي «بوشهر» في الثاني عشر من ذي الحجة (1291) الموافق 1875/2/1.

9 - "L/P&S/9/62" ص 355 - 365 من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي «بوشهر» إلى ماركيز ساليبيري وزير الخارجية - لندن - مارس (1875).

10 - "L/P&S/9/62" المجلد الثاني ص 355 - 365 من المقدم «ي. س. روس» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي «بوشهر» إلى وزير الدولة لحكومة الهند. الدائرة الخارجية ككتا في 1875/3/20.

11 - From R/15/6/19 - NO - 381 dated Therapia The I st October 1888 - Sir W.A. White, her Majesty Anbassador at constantinople To The Marguis of salisbury, K. L, Secertary of stste, for Foraign Affairs - P.2.

12 - R/15/6/19 -No. 121, dated Constan tinople, The I st October 1888. - P.2.

13 - R/15/6/19 -Translation from The Persianpaper "Ittalu" of 9th August - 1888 P.3.

ثانيا : المراجع باللغة العربية:

1 - ج.ج. لوريمر : دليل الخليج . ترجم بإشراف ديوان حاكم قطر - الدوحة - الطبعة الثانية . السنة غير مكتوبة.

2 - جى. إى. سالدانا: الشئون القطرية. ترجمة أحمد العنانى. لجنة كتابة تاريخ قطر . الدوحة 1976.

3 - جى. بى. كيلي.

أ) بريطانيا والخليج . ترجمة محمد أمين عبدالله . وزارة التراث القومى والثقافة . عمان . مسقط 1979.

ب) الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية. ترجمة خيرى حماد. منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1971.

- 4 - زهدى عبدالمجيد سمور: تاريخ ساحل عمان السياسى الجزء الأول. ذات السلاسل . الكويت 1985.
 - 5 - دار الهلال : بلادنا العربية . أبوظبى . القاهرة.
 - 6 - صلاح العقاد (دكتور):
(أ) الاستعمار فى الخليج الفارسى: مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة 1956.
(ب) التيارات السياسية فى الخليج العربى. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة 1974.
 - 7 - عبدالعزيز المنصور (دكتور): التطور السياسى لقطر ذات السلاسل . الكويت . الطبعة الثانية 1980.
 - 8 - فتوح عبدالمحسن الخترشى (دكتورة) عبدالعزيز المنصور (دكتور):
(أ) مصادر تاريخ قطر. الطبعة الثانية. ذات السلاسل . الكويت 1984.
(ب) قطر وتطورها . ذات السلاسل . الكويت 1977.
 - 9 - فؤاد سعيد العابد (دكتور): سياسة بريطانيا فى الخليج العربى. الجزء الثانى. ذات السلاسل . الكويت 1984.
 - 10 - فالح حنظل: الفصل فى تاريخ الإمارات العربية المتحدة . الجزء الثانى. لجنة التراث والتاريخ . أبوظبى 1983.
 - 11 - محمد مرسى عبدالله (دكتور): دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها. دار القلم . الكويت 1981.
 - 12 - محمود الداود: الخليج العربى والعلاقات الدولية. معهد الدراسات العربية. القاهرة. السنة غير مكتوبة.
 - 13 - معهد البحوث والدراسات العربية: دولة الإمارات العربية المتحدة. دراسة مسحية شاملة . القاهرة 1978.
 - 14 - ناجى صادق شراب: دولة الإمارات العربية المتحدة . مؤسسة الاتحاد . أبوظبى 1983.
 - 15 - وزارة الخارجية لدولة الإمارات العربية المتحدة الندوة الدبلوماسية الثامنة. أبوظبى 1980.
- ثالثاً: المراجع باللغة الأجنبية:

1 - Clarence c. Mann - Abu Dhabi - Khayats - Beirut - 1969.

2 - Mohammad Morsy Abdullah - The United Arab Emirates - London 1968.

الفصل الخامس



الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود في قائمة قاطمة قطر العثمانية

1871 - 1882

قدم هذا البحث ونشر ضمن أعمال - المؤتمر العالمي الثاني للدراسات العثمانية عن الحياة الاجتماعية في الولايات العربية في العهد العثماني - مركز الدراسات والبحوث العثمانية - حمامات في 5 مارس 1986 - تونس.

مقدمة

يعد البحث حول موضوع الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود في قطر، من المواضيع المهمة، ولكن المشكلة الأساسية التي تواجه الباحث هي قلة المصادر والمراجع، وخاصة في الفترة من دخول العثمانيين وحتى خروجهم من قطر، وذلك لعدة أسباب، أهمها: اعتبار هذه المرحلة من أهم مراحل فترة تأسيس مشيخة قطر، وخاصة بعد ظهور الشيخ قاسم ابن الشيخ محمد بن ثاني مؤسس الأسرة الحاكمة، إضافة إلى الدور الذي لعبه الشيخ قاسم في بناء أركان حكم الأسرة في الوقت الذي اشتد فيه الصراع البريطاني - العثماني حول قطر ومحاولة بريطانيا إيجاد منفذ لها في الدوحة، إلا أن الشيخ قاسم الذي طلب من القوات العثمانية الدخول إلى قطر ثم خضوعه لسيادة الباب العالي، جعله في وضع أقوى ومتساو مع جيرانه، خاصة مع شيخ البحرين الذي كان يطالب بقطر باعتباره تابعاً لشيخ البحرين، وكذلك مطالب شيوخ أبوظبي في أجزاء من قطر، ولكون البحرين وأبوظبي خاضعتين للنفوذ البريطاني فإنه من الصعب على الشيخ قاسم الحصول على استقلاله إن لم يكن مستحيلاً وإذا علمنا أن الأمير سعود حاكم نجد العثماني كان أيضاً متعاوناً مع البريطانيين ويطالب بل وأرسل رجاله لاحتلال قطر، كل هذه العوامل دفعت الشيخ قاسم أن يطلب الدخول في طاعة السلطان عبد الحميد، ومن ثم يواجه المشاكل التي أثارها بريطانيا عن طريق التجار الهنود، ولذلك كان اعتمادنا على الوثائق البريطانية المترجمة من قبل د. فتوح، ود. المنصور في كتاب مصادر تاريخ قطر، وكتاب «جى اى سالدانا» والمترجم من قبل لجنة كتابة تاريخ قطر، وأيضاً كتاب دليل الخليج للوريمر والذي عاصر تلك الفترة ثم كتب عنها بتكليف من حكومته، ولذلك فإن المصادر التي بين يدينا تعبر عن وجهة النظر البريطانية، ونظراً لصعوبة البحث عن الوثائق العثمانية التي جات في هذه الفترة، وايضاً لضيق الوقت حيث لم يكن أمامنا سوى بضعة أشهر للكتابة في هذا الموضوع، فإني بذلت كل جهدي للحصول على

مراجع أخرى، كما قمت بتحليل المعلومات البريطانية وصياغتها في نظرة علمية منصفة وأتمنى أن اكون قد حققت بعضها على الأقل في هذا البحث.

بدأت البحث بالموقع وأهم المدن في قطر في تلك الفترة، السكان والتركيب القبلي، وضع قطر قبل مجيء العثمانيين إليها، وبعد دخولهم، والموقف البريطاني من الوجود العثماني في قطر، مشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود وطردهم من قطر والضغوط التي مارستها بريطانيا على الوالي العثماني الشيخ قاسم ورفضه لهذه الضغوط، والتهديدات مما اضطرت بريطانيا لتغيير من استخدام القوة إلى سياسة المرونة واستخدام الطرق السلمية والتقرب من الشيخ قاسم، مما أسفر عنه دفع الشيخ قاسم التعويضات للتجار الهنود والسماح لهم بعودتهم إلى قطر.

يكشف لنا هذا كيف أن بريطانيا حاولت استغلال هذه المشكلة لصالحها لإيجاد بعض النفوذ لولا وقوف قاسم في مواجهة هذا المخطط البريطاني وإفشاله، إلا أن بريطانيا نجحت في سياستها بعد وفاة الوالي الشيخ قاسم واستطاعت أن تطرد العثمانيين من قطر وإن توقع اتفاقية الحماية مع ابنه الشيخ عبدالله بن قاسم الثاني. ولم تخرج بريطانيا من قطر إلا في عام 1971 بعد سياسة الانسحاب من شرق السويس، واليوم تعتبر قطر واحدة من أقطار الخليج العربي وأحد أعضاء مجلس التعاون.

موقع قطر:

نجد أن شبه جزيرة قطر عبارة عن لسان كبير من اليابسة يمتد داخل الخليج العربي في منتصف المسافة تقريبا بين مدخل الخليج العربي في مضيق هرمز ورأسه عند مصب شط العرب، وتبلغ مساحتها حوالي 4000 ميل مربع والطول حوالي 100 ميل، والعرض حوالي 55 ميل تقريبا⁽¹⁾ وتحيط بها مياه الخليج العربي من الشمال والشرق والغرب، أما الجنوب فتبدأ حدودها من نهاية دوحة سلوى على الجانب الغربي من شبه الجزيرة وتمتد هذه المنطقة في اتجاه الجنوب الشرقي إلى أن تصل إلى آبار «اسكاك» ثم تمتد بعد ذلك حتى تصل إلى شرق الشمال للطرف الشمالي للتلال الرملية «النقيان» ثم تتجه نحو الجنوب الشرقي للنهاية الجنوبية لهذه

التلال على الجانب الشمالى لمدخل خور العديد، وقد قيل انه يمكن لثلاثة رجال يقفون فى «دوحة سلوى» و«اسكالك» و«خور المحارف» على التوالى رؤية جميع ساحل قطر الجنوبى من البحر إلى البحر⁽²⁾.

تحتل قطر أهم موقع فى الخليج العربى⁽³⁾، ولكن الجزء الأكبر من شبه جزيرة قطر عباره عن أرض صحراوية حصوية⁽⁴⁾، إلا أن بعض القبائل البدوية تجد لها فيه مراعى لمواشيها، كما توجد بعض قرى الصيد على الساحل مثل «الزبارة» و«خور حسان» وغيرها⁽⁵⁾.

الدوحة:

هى عاصمة قطر كما تعتبر أهم مدنها وأكبرها سكانا ومساحة، ويسمى البدو أحيانا «دوحة قطر» كما كان يطلق عليها اسم البدع، وقد اشتهرت بهذا الاسم وهى المدينة الهامة فى قطر القديمة⁽⁶⁾، والبدع حاليا أحد الأحياء القديمة فى الدوحة وتقع على الجانب الشرقى لشبه جزيرة قطر، وعلى بعد حوالى 63 ميلا من الطرف الجنوبى لرأس «الركن» و45 ميلا شمالى خور «العديد»، ومينائها يقع على الجانب الجنوبى من خليج عميق، وهو ميناء طبيعى يبلغ طوله حوالى ثلاثة أميال وهى محمية من جهتى الشمال الشرقى والجنوب الشرقى بصخور طبيعية، ويبلغ اتساع المدخل أقل من ميل من جهة الشرق ولكنه ضحل بين رؤوس الصخور، وصعب بعض الشيء، ولا تستطيع المراكب ذات الغاطس الأكثر من 15 قدما المرور فيه ويتراوح عمق الميناء ما بين 3 إلى 5 (قامات) وقد بنيت المدينة فوق الأرض المرتفعة⁽⁷⁾.

أسس البدع «أفراد من قبيلة السودان المهاجرين من أبوظبى وكانت مدينة مزدهرة ولكن المنازل ضيقة وصغيرة ويفصل بين الأزقة عمارات معتمة، وكانت بها مراكز لتجارة اللؤلؤ فى قطر أما مدينة الدوحة فقد أسسها أفراد من قبيلة «أبوعينين» الذين نزحوا إلى «الوكرة» فيما بعد⁽⁸⁾، وقد تعرضت الدوحة للتدمير مرتين فى الماضى وذلك بسبب الحروب القبلية والاقليمية التى كانت تدور بينها وبين أبوظبى والبحرين فى تلك الفترة⁽⁹⁾، وقد كان تعداد السكان فى الدوحة

أوائل القرن العشرين اثنى عشر ألف نسمة، وقد ذكر العثمانيون أن تعدادها كان عشرة آلاف، ويفصلها عن مدينة البدع حي صغير عرف «بالدوحة الصغيرة» أو «الدويحة» وقد كان حيا صغيرا تسكنه جماعات من الهولة ذات أصول إيرانية(10)، وتتكون مدينة الدوحة من تسعة أحيا وتمتد الواجهة الكلية للمدينة على البحر حوالى ميلين.

الوكرة:

تعتبر ثانياً مدينة من حيث الأهمية بعد الدوحة(11)، وتقع إلى الجنوب الشرقى منها بحوالى 10 أميال على الساحل الشرقى لقطر وليس فيها ميناء، واعتمادها على ميناء الدوحة، ولكن لها ساحل يتكون من الشعب المرجانية الموجودة فى البحر ويمتد لمسافة ميل واحد من شمال إلى شرق «الوكرة»، إضافة إلى شعب مرجانية أخرى تمتد لمسافة سبعة أميال من الجنوب الشرقى كما تبرز من الساحل شعب مرجانية أخرى تعرف باسم «فشت الشويمة» أو «رأس العليج» ولا تستطيع المراكب الكبيرة أو البخارية الرسو بها إلا على بعد ميلين على الأقل، والمنطقة الواقعة بين الوكرة والدوحة خالية من الزراعة وقاحلة، أما المنازل فتتكون من الطوب الأخضر ولا يوجد بها أعداد كبيرة من نخيل ليستعمل سعفه فى بناء المنازل، ولكن فى السنوات الأخيرة بنى بها حي يعرف باسم الرميلة على بعد 800 ياردة إلى أقصى شمال المدينة(12)، وقد تعرضت مدينة الوكرة أيضاً للتدمير والخراب عندما هوجمت من قبل البحرين وأبوظبى عام 1867(13).

السكان:

لا شك أن للظروف البيئية والطبيعية والجغرافية، تأثيراً واضحاً على نشاط الناس وأساليبهم المعيشية وخاصة سكان قطر لارتباطهم بالموقع البحرى الممتد، فاستفاد الناس من العمل فى مياة الخليج العربى منذ القدم فى نشاط اللؤلؤ وصيد السمك(14)، فقد كان اعتماد السكان الرئيسى فى الاقتصاد يقوم على عملية الغوص على اللؤلؤ وصيد السمك، وتعتبر عملية الغوص من الاعمال الشاقة، فيها الكثير من المخاطر اضافة إلى الأمراض الناتجة عنها كداء الرئة ونحوه وما يتعرض له الغوص من اخطار الاسماك المتوحشة، وكان يعمل فى الغوص اكثر من

نصف سكان قطر (15)، وكان سكان قطر قد عرفوا قيمة اللؤلؤ منذ مئات السنين فاهتموا باستخراجه، كما كان لهم اسطول بحرى يزيد عدده على اربعمائة سفينة تعمل فى صيد اللؤلؤ، وكان اللؤلؤ يصدر إلى مدينة بومباى بالهند ومنها إلى الدول الاوربية (16).

أما صيد الاسماك فيأتى فى المرتبة الثانية بعد الغوص على اللؤلؤ من حيث الاهمية كمورد رزق للسكان، ومن المعروف ان الخليج العربى غنى بكميات كثيرة ومتنوعة من الاسماك نظرا لوجود الاعشاب البحرية ونتيجة للدفء الذى تمتاز به مياه الخليج العربى (17) وقد يرجع اتجاه السكان إلى البحر منذ أقدم العصور لجذب شبه جزيرة قطر اضافة لاحاطتها بالمياه فى معظم اجزائها مما جعلهم يتخذونه مصدرا للرزق والغذاء واكتسبوا فى ذلك خبرة ومهارة عظيمة (18).

اما النشاط الزراعى فقد كان محدودا نظرا لقلة المياه بالاضافة إلى أن التربة غير صالحة للزراعة فى معظم ارجاء قطر لكونها صحراوية، وبعض المناطق مغطاة بطبقة من الحجارة والجير وملوحة التربة وشدة الحرارة (19)، اما مياه الامطار فقليلة وغير منتظمة ولا تتعدى البوصتين سنويا ولا يمكن الاعتماد عليها فى الزراعة، فهى تكفى فقط لبعض الاعشاب، ولهذا حفرت عدة آبار للمياه العذبة فى وسط وغرب شبه الجزيرة القطرية (20).

يتركز سكان قطر كمعظم سكان المناطق العربية على الساحل الغربى من الخليج العربى بدو وحضر، ويتراوحون زيادة ونقصا ويتألف التركيب السكانى للمقيمين من مختلف الجماعات والقبائل التى تتواجد معظم عناصرها تقريبا فى كل من قطر والبحرين، ولا يقل عدد سكان قطر المستقرين فى مدينتى الدوحة والوكرة وفى قرى «الظعابين» و«الذخيرة» و«ابو الظلوف» و«هدية» و«خور حسان» و«الوسيل» و«الرويس» و«خور شقيق» و«سميسمه» عن 27 ألف نسمة، إذا ما أضفنا لهم أفراد القوات العسكرية العثمانية المتواجدة فى الدوحة، والعائلات القليلة من أصل زنجى والتى تعمل فى زراعة حديقتين أو ثلاث فى قطر، ويضرب عدد كبير من السكان المقيمين خيامهم فى الداخل اثناء فصل الشتاء مع قطعانهم وماشيتهم، والبدو ينتمون إلى مختلف القبائل (21).

يتوزع السكان إلى عدة قبائل عربية اضافة إلى بعض العائلات من السادة، أما افراد القوات العسكرية العثمانية فإنها تبلغ حوالى ثلاثمائة وخمسين رجلا، وكان يوجد فى السابق بعض الرعايا البريطانيين من التجار الهنود والذين طردهم الشيخ قاسم فيما بعد نتيجة لتصرفاتهم غير اللائقة، ولكن ما يزال منهم اثنان أو ثلاثة يقيمون اقامة دائمة، ولكن اعمالهم التجارية لم تعد مشمرة فى تجارة اللؤلؤ بعد ترحيل معظم الهنود(22).

يبلغ عدد السكان فى مدينة «الوكرة» حوالى ثمانية آلاف نسمة ويبدو أنهم ينتمون للقبائل التالية حسب تعدادهم: ال بوعيين 200، العمامرة 100، عرب من نجد 250، خليفات 850، معاضيد 350، ال بن مقله 50، القبيسات 75. هولة 1000، بحارنة 200، عبيد محروون 1000، زنوج لا يقيمون مع اسيادهم 2000، ايرانيون 125، ويسكن حى «الرميلة» كل من الخليفات و«المعاضيد» وعبيدهم بصفة خاصة، أما البحارنة والهولة فيعملون بالتجارة والاعمال الحرفية ولا يوجد رعايا بريطانيون من أى نوع فى الوكرة(23).

التركيب القبلى لسكان قطر:

يتكون سكان قطر كغيرهم من سكان الخليج العربى، من مجموعات عديدة من القبائل العربية التى نزلت من اليمن ومن وسط وغرب الجزيرة العربية على فترات مختلفة، وأخذت تتنقل فى منطقة الخليج العربى من مكان لآخر، اما طلباً للرزق أو نتيجة لحروب قبلية فتترح القبيلة أو جماعة منها من مكان إلى آخر(24)، اضافة إلى القبائل العربية يوجد بعض العبيد الذين تم جلبهم من مناطق متفرقة من أفريقيا وآسيا واعداد قليلة من البحارنة والهولة.

لهذا يمكن القول بأن النمط القبلى هو النموذج السائد فى قطر وبقية المناطق فى الخليج العربى، وحتى هذه القبائل بعد ان استقرت توزعت على اجزاء من شبه جزيرة قطر وفى المدن والاحياء على شكل عائلات ممتدة، وتخضع هذه الاحياء لها وتسمى بأسمائها احيانا، ويعتبر شيخ كل قبيلة بمثابة رئيسها والمسئول عن شئونها، وتخضع القبيلة لإرادته وتأمر بأمره، كما نلاحظ ان قبائل الحضرة هى التى تقيم على السواحل وتعمل بالتجارة والغوص وصيد الاسماك(25).

فيما يلي نتحدث عن هذه القبائل والعشائر القطرية:

آل مسلم:

والنسبة إليها «مسلمى» وهى عشيرة صغيرة فى قطر بينما كانوا يشكلون القوة الرئيسية والحاكمة لقطر فى القرنين السادس والسابع عشر، وينتسبون إلى بنى خالد، وكان شيخ البحرين قد أسكن عدداً منهم فى عام 1850 فى مدينة الدوحة، وذلك لموازنة نفوذ عشيرة «السودان» وينتقل آل مسلم فيما بين «فويرط» و«الحويلة» وقد بنوا قلعة الدوحة الحالية التى عرفت سابقا باسم قلعة «آل مسلم» كما أسسوا «الدويحة» وظلوا على علاقات وثيقة مع المعاضيد، ولكن عدة ظروف ادت إلى خفض عددهم فى تجارة اللؤلؤ وقليلون منهم من المجندين فى خدمة شيوخ آل خليفة(26).

المعاضيد:

النسبة إليها «معضادى» ومن الصعب ان تقرر ان كان «المعاضيد» أو جز منهم يعاملون كقبيلة مميزة أو أنه ينظر إليهم كشعبة من قبيلة «ال بن على» فى البحرين وقطر، وهى القبيلة التى تنتمى إليها الاسرة الحاكمة لذلك فإنها تعد القبيلة الرئيسية على الرغم من انها ليست أكبر القبائل(27).

يقال ان «المعاضيد» فى قطر يتصلون من ناحية الدم «بآل بوكوارة» الذين هم أنفسهم يدعون بأنهم من سلالة بنى تميم. ويتكون المعاضيد من سبع عائلات انقرضت منها واحدة، ومن العائلات الست الباقية: آل على، آل طلع، آل ثانى الذين ينكرون أية قرابة لهم بآل بن على، بينما يعترف العسيري وآل فضل بذلك، وآل بن مقبل منقسمون، ولكن يبدو أن الباقين يدعون أنفسهم من آل بن على(28)، وكان آل ثانى قد وصلوا إلى قطر فى أوائل القرن الثامن عشر، وفى عهد محمد بن ثانى برزت رعاة ال ثانى للقبائل القطرية والتفوا حوله(29) وقد سميت آل ثانى نسبة للجد الأكبر ثانى بن محمد بن ثامر بن على(30).

المقيمون الاصليون من «المعاضيد» فى قطر موجودون فى الدوحة ولهم مائة منزل، وفى «الوكرة» 70 منزلاً، وفى «الوسيل» خمسة منازل ولكن رئيسهم يعيش فى هذه القرية، والعائلات المختلفة من المعاضيد يعيشون مختلطين فى اقاماتهم المختلفة، ويشغل المعاضيد فى تجارة اللؤلؤ والملاحة وتربية الجمال والماشية(31).

آل بوكوارة:

والنسبة إليها «كواري» وتقيم هذه القبيلة بصفة رسمية في قطر ولهم 250 منزلا في «سميسمه» و150 منزلا في «الضععين» ومائه منزل في «الفويرط» وعشرون منزلا في «الدوحة» وينقسم «آل بوكوارة» إلى أربعة أقسام وهي: آل عبد الشيخ، وآل كليب، وآل بهام، والمطاوغة، ويعملون في تجارة اللؤلؤ وصيده وتربية الإبل والماشية ومنهم أيضا بحاره، ويقال ان «آل بوكوارة» تربطهم صلة دم وثيقة بالمعاضيد فكلاهما من بنى تميم⁽³²⁾.

آل بن مقلا:

وهي قبيلة صغيرة وتدعى إنها فرع بوكوارة الذين أنكروا عليهم صحة هذا الادعاء، ويعملون في صيد اللؤلؤ وتربية الماشية⁽³³⁾.

النعيم:

يسكنون قرب الزبارة، وينزحون في الطقس الحار إلى البحرين وقيمون معسكراتهم في الجزء الشمالي من الجزيرة الرئيسية وبعضهم يقضى الصيف بجوار الدوحة، وهم منفصلون تماما عن الجسم الاصلى للقبيلة في البريمي وساحل عمان ولا يحافظون على الصلة بهم وان اجدادهم هاجروا من اليمن إلى عمان ومنها إلى قطر منذ بضعة أجيال، بناء على دعوة من العتوب إلى قطر من أجل طرد ال مسلم، وقد أصبح بعض النعيم الشماليين صيادى لؤلؤ ولكن الاغلبية رعاة، ويعتمدون في حياتهم على رعى الحيوانات. وبدو النعيم الشمالية يكتسبون من وراء شيوخ آل خليفة وآل ثانى، وحماية هذه المشيخات يعتمد اساسا عليهم اثناء غياب سفن صيادى اللؤلؤ عن مساكنهم، وقدرتهم أنهم يتمتعون بثقة فوق مستوى الشبهات، ويشتهر النعيم بأنهم يملكون أكثر من 100 حصان و600 جمل و1000 رأس من الماعز، وأهم أقسامهم: آل بوخريبان، الجفافلة، المطاوغة، القماطين، الزائده، خلوى، آل فهد، آل رمضان، الوارة، آل بوشامس، آل جمعان، الحتوم، آل حى، آل جبر. وهذه الاقسام وحتى الاقسام الاساسية مختلفة ويتبعون شيخين من قسمى آل حى وآل رمضان على التوالى، وينظر نعيم البحرين لشيخ «عجمان»

على إنه جفالى ويحتمل ان قسم جفافة النعيم فى شمالى قطر، يناظر قسم القراطسه والذين يقيمون فى البريمى (34).

بنى هاجر أو الهواجر:

يعتبرون من البدو الرحل فى شرقى الجزيرة العربية، ويلفظ محليا «بنى هاجر» و «الهواجر» ومفردها «هاجرى» أو «هاجرى» ومعظمهم يتواجدون فى سنجق الاحساء العثمانى ولكنهم لا يملكون اقليما معيناً بعينه، باستثناء ارض كبيرة من قطر يعيش فيها فخذ «المنحضة» من الهواجر وهم يصطحبون رفاقاً من قبيلة عجمان نظراً لرباط الدم والقرباة وهى من القبائل اليمنية القوية المعروفة يتجولون بأراضيهم بحرية، وكثيراً ما يضرب الهواجر خيامهم جنوباً فى خور «العديد»، وأحياناً يزورون المناطق الخاضعة لشيخ الكويت، كما يزور بعضهم قرية «عنك» فى واحة القطيف سنوياً، والقسم المستقر من الهواجر غير مرتبطين مع القبيلة، وطبائعهم فظـه وخشنه، ولكنهم ذو فكر بناء ومزاجهم مرح يوفون بالوعود والعهود، وتتمتع نساؤهم بحرية كبيرة، ومع إنهم لا يملكون سفناً خاصة بهم إلا أنهم يعملون فى البحر، اما مهتهم الرئيسية فهى رعاية الماشية ويعيشون على انتاج قطعان الماشية وتربية الحيوان والجمال ولديهم عدد صغير من مزارع النخيل فى بر «العقير» و «الظهران» وخيامهم ذات ألوان سوداء بها خيوط بيضاء، ويبلغ عدد المقاتلين لديهم حوالى 1500 منهم 150 ينتمون إلى «المنحضة» و 850 إلى «آل محمد» اما عدد أفرادهم الاجمالي فيبلغ 5000 نسمة، وتستحكم العداوة القوية بين الفخذين الرئيسيين وهما «المنحضة» و «آل محمد» وهى الحالة السائدة بينهما فى هذه الفترة، ولهذا فإنه لا يوجد شيخ واحد للقبيلة بأسرها، كما يتلقى وجهاء القبيلة معونه مالية من متصرف سنجق الاحساء العثمانى وهدايا من شيخ الكويت، وشيوخ آل ثانى فى قطر (35).

السودان:

والنسبة إليها «سويدى» وهم منتشرون فى ساحل عمان وقطر البحرين، ويقال أنهم هاجروا من اليمن وينحدرون من سلالة الاسود الكندى الحضرمى، ويسكنون فى الدوحة ويملكون 80 منزلاً ويمكن تمييز السودان بسهولة عن القبائل

الأخرى التى يعيشون معها، وأهم الأقسام فى قطر هما آل رمضه وآل سالمين، وكانوا يتمتعون بقوة ونفوذ كبير إلا أن قوتهم ضعفت بعد عام 1768 نتيجة لهجوم شيخ أبوظبى والبحرين على قطر، وهم يعملون فى مهنة صيد اللؤلؤ والملاحة (36).

آل بوعينين:

هم فرع من فخذ «آل صبيح» من قبيلة «بنى خالد» المشهورة ويقسمون فى قطر والبحرين، وفى قطر يملكون 400 منزل فى مدينة الوكره ويعتمدون فى مصدر رزقهم على صيد اللؤلؤ وتجارته وليس بينهم مزارعون إلا أن جزءا منهم يعيش فى خيام خلال فصل الشتاء، ويقال إنهم أسسوا مدينة الدوحة فى أوائل القرن التاسع عشر ولكنهم اخرجوا منها عام 1828 إلى «الرويس» و«فويرط» وفى النهاية أقاموا فى «الوكرة» (37).

العمارة:

النسبة إليها «عمارى» وهى تعمل فى شئون البحر وصيد اللؤلؤ والملاحة فى كل أجزاء الخليج العربى، وهى فقيرة نسبياً ويقال إنها تنتمى الى فرع «عمار» المتفرع من قبيلة الدواسر، ولهم عشرون منزلا فى الدوحة، وعشرون فى الوكرة ويبلغ عددهم الكلى حوالى 900 نسمة، وتربطهم صلة قرابه بقبيلتى ال بواكرة و«المعاضيد»، كما انتقل البعض منهم الى البحرين مع العتوب وفى هذه الفترة يقوم عداء مستحكم فيما بينهم وبين «آل بن على» و«آل بجج» المتفرعين من «آل مرة» (38).

كبسة:

النسبة اليها «كبيسى»، وهى قبيلة عربية صغيرة وغير مستقره ويوجد أفرادها بصفة رئيسية فى قطر وإن كان البعض يقيم فى البحرين، ومقرها الرئيسى فى «خويرحسان»، وفى الاولى يملكون 80 منزلا وفى الثانية 50 منزلا، كما يمتلكون منازل أخرى فى كل من «الهدية» و«سميسمه»، يعملون بصناعة اللؤلؤ ويملكون الجمال والاغنام والحمير والابقار، ويرحلون الى الاجزاء الداخلىه فى فصل الشتاء ويتركون ماشيتهم مع البدو المحليين اثناء فصل الصيف ويتجهون الى البحر لصيد

اللؤلؤ، وكان معظمهم يقيم فى وقت من الاوقات ولكنهم اضطروا للرحيل الى «خوير حسان» بسبب تأزم المشاكل كما شاركوا فى تأسيس الزبارة مع قبيلة النعيم، ولكنهم عادوا بعد فترة الى خوير حسان التى ما زالت مقرهم الرئيسى (39).

السلطنة:

النسبة اليها «سليطى» وهى قبيلة تقسم بشكل مستقر فى قطر ويقال إنها فرع من «بنى مالك» وأنها وصلت من العراق العثمانى عن طريق ايران ولذلك يمكن تصنيفهم ضمن الهولة الإيرانية وهم غير رحل، ويملكون 650 منزلا فى الدوحة، ويعيشون على صيد اللؤلؤ والملاحة وتربية الماشية والابل، والبعض منهم كان قد هاجر مع العتوب الى البحرين عام 1723، كما استقر بعضهم فى الدمام فى واحة القطيف فى أوائل القرن التاسع عشر وقد عاد بعضهم إلى قطر ثانية عام 1869 نتيجة لسوء التفاهم الذى حدث بين الدوحة والى البصرة (40).

المهاندية:

النسبة إليها «مهندى» وهى قبيلة من اشباه الرعاة وتقول بعض المصادر انها قدمت من ايران إلى قطر والذين يرون هذا رأى يتقبلون الحقيقة القائلة بأن القبيلة تنتمى إلى «الهولة» الإيرانية وأهم فروعها: آل حسن، وآل إبراهيم، وهم يعيشون فى 500 منزل ويعملون بتجارة اللؤلؤ وصيده ويقومون بتربية الماشية والجمال (41).

وضع قطر قبل دخول العثمانيين:

خضعت قطر منذ بداية التاريخ الحديث لحكم بنى خالد أو أحد فروعهم وخاصة ال مسلم، وهى احدى القبائل العربية القوية ذات نفوذ، وكان آل مسلم يدفعون الزكاة لبنى خالد الذين كانوا يسيطرون على الاحساء والساحل الشرقى من الجزيرة العربية ابتداء من قطر وحتى حدود البصرة (42). وكان نائب المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى قد بعث بتقدير يقول فيه بأنه لم تتقرر مسألة السيادة أبدا بشكل عام فى هذه الموقع ولم يحصل ان بت على الاطلاق فى أمر السيادة على شبه جزيرة قطر ولا شك أنها كانت متنازعا عليها بين أبو ظبى وحاكم نجد العثمانى، وفى وقت من الاوقات مارس شيخ أبو ظبى السيادة على قطر، (43)

ولكن بعد وصول العتوب الى «الزبارة» فى الشمال الغربى من قطر أخذوا يمكنون لانفسهم فى موطنهم الجديد ومن ثم انفرد آل خليفة فى حكم البحرين وخاصة بعد فتحها وطردهم منها، (44) بينما كانت الزبارة خاضعة لهم وبعد ذلك توسعوا فى حكم شبه الجزيرة القطرية حتى شملت معظمها.

وصل فيصل بن تركى قائم مقام العثماني فى نجد فى اوائل عام 1851 الى الدوحة خلال رحله كان يقوم بها فى اقاليم حكمه وقد أبى سكان «الدوحة» و«الوكرة» و«الفويرط» عقب زيارته رغبته فى التخلّى عن ولايتهم لشيخ البحرين والانضمام الى رعايا الدولة العثمانية ولكن هدنه مواتيّه عقدت فى يوليو عام 1851 جنب آل خليفه المخاطر التى كانوا معرضين لها بفقدان أملاكهم فى قطر، كما كانوا قد فقدوا فعلا مدينة الدمام على شاطئ الاحساء، وكان الراحل «بيللى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى قد أفاد فى تقرير عام 1866 وأقرته حكومة الهند لاحقا عام 1867 بأن ولاء شيخ البحرين لنجد العثمانى كان مقصودا للمحافظة على املاكه فى قطر اما بالنسبة لبلده البحرين فإنه كان مستقلا عنهم كل الاستقلال، والجزية التى يدفعها لنجد العثمانى كل عام وقدرها اربعة آلاف روبية فهو ينظر إليها على أنها ضريبة لحماية رعاياه فى قطر من أى هجوم قد تشنه القبائل الاخرى على البر، وفى الفترة ما بين عامى 1852 و1866 يبدو أن القائم مقام العثمانى فى نجد كان له مثل فى الدوحة ولكن من المحتمل ان وكيله هذا إنما كان شيخا من شيوخ قطر (45).

حدث فى أكتوبر من عام 1867 هجوم مدمر على مدينتى الدوحة والوكرة واشترك فى هذا الهجوم كل من شيخ أبوظبى والبحرين معا، فى حين كان دافع الاخير هو رغبته فى معاقبة الاهالى بسبب تمردهم ضده، وان مدينتى الدوحة والوكرة كانتا فى نهاية عام 1867 قد أزيلتا تماما من الوجود ولو إلى حين، فهدمت المنازل وهجرها اهلها، وقدرت الخسائر بمبلغ يزيد عن مائتى الف روبية، وبعد اخفاق القبائل المنكوبة فى الحصول على ترصية عن طريق الاستغاثه بحاكم نجد العثمانى، شنت غاره انتقامية على البحرين ولكنها لم تنجح (46).

برز فى هذه الفترة الشيخ محمد بن ثانى المؤسس الأول للأسرة الحاكمة فى قطر إلى الساحة السياسية متبعا الأسلوب المرن والمعتدل فى إدارة شؤون حكمه مع

القبائل ولم يكن مطلق التصرف وكما برز ذلك من خلال حله لخلافاته مع آل خليفة في البحرين عندما عقد معاهدة مع بريطانيا عام 1868 لفض خلافاته مع آل خليفة⁽⁴⁷⁾، كما لزم محمد بن ثاني نفسه بموجب تلك الاتفاقية التي وقعها مع الكولونيل «بيللى» مع إنه ليس من الشيوخ الداخلين في معاهدة «السلم البحرى» بالأبى بحر لغرض عدوانى فى أى وقت وان يرجع إلى المقيم السياسى البريطانى بشأن أى خلاف أو سوء تفاهم يقع له مع الآخرين⁽⁴⁸⁾.

رغم ان هذه الاتفاقية تنطوى على الاعتراف الضمنى بالكيانات القبلية، إذ تعهد محمد بن ثاني بتأدية الجزية نيابة عن القبائل القطرية إلى شيخ البحرين⁽⁴⁹⁾، إلا إنها تعتبر محاولة من بريطانيا لإدخال قطر ضمن حلقة النفوذ البريطانى فى الخليج العربى، رغم ان سكان قطر لم يمارسوا أى دور عدوانى مما قد يشكل خطرا على الملاحة أو على المصالح البريطانية فى الخليج العربى، ولكن نجد فيما بعد ان ابن الشيخ محمد ويدعى قاسم سوف يلجأ إلى العثمانيين للتخلص من التزامات والده تجاه البريطانيين وشيوخ البحرين وبالتالي يصبح القائم مقام العثمانى فى قطر.

وقعت هذه الاتفاقية فى جو من الضغط البريطانى وذلك عندما زار الكولونيل «بيللى» من البحرين إلى مدينة الوكرة فى قطر فى أوائل سبتمبر عام 1868، تصحبه السفن الحربية البريطانية مثل السفينة «فيجيلافت» والقارب المسلح «هيوروز» والباخرة «سند» وبعد وصوله إلى الوكرة اجتمع بكبار الشيوخ فى قطر على ظهر سفينة وأبلغهم استياء الحكومة البريطانية الشديد من حملتهم على البحرين وقال ان الحكومة تفهم حجتهم فى أنها لم تكن سوى حملة انتقامية وتعتبر ذلك سببا يهدى من الاضطراب الذى أثارته الحملة وفى النهاية توصل إلى عقد اتفاقية مع الشيخ محمد بن ثاني فى 12 سبتمبر تعهد فيها بأن يعود إلى الدوحة التى هجرها، وان يقيم فيها فى سلام وألا يرتكب أى عمل عدوانى فى البحر، بل عليه ان يحيل كل الخلافات والمنازعات التى قد تنشأ بينه وبين جيرانه إلى المقيم السياسى البريطانى للفصل فيها، ولا يساعد شيخ البحرين السابق، بل عليه ان يسلمه للسلطات البريطانية لو وقع يوما فى قبضته وأخيرا ان يقيم مع الشيخ الجديد فى البحرين نفس العلاقات التى كانت قائمة بينه وبين الشيوخ السابقين لهذه الجزر، وان يخضع لقرار المقيم السياسى البريطانى فيما يتعلق بأى خلاف فى

وجهاً النظر يقوم حول مشاكل مثل الجزية (50)، بعدها عقد محمد بن ثاني اتفاقية جديدة لدفع الجزية من قطر إلى البحرين عن طريق المقيمة البريطانية.

دخول العثمانيين إلى قطر:

اتبعت الدولة العثمانية سياسة تقليدية تجاه وسط وشرق الجزيرة العربية، وهي تجنب أعباء الحكم المباشر والاكتفاء بالسيادة الاسمية للدولة العثمانية، والتدخل في أضيق الحدود إذا دعت الحاجة باستخدام الزعامات القبلية لاثبات وجود سلطة من نوع ما هنا وهناك في مناطق متفرقة من الجزيرة العربية، لذا يمكن اعتبار حملة مدحت باشا تحولا هاما في السياسة العثمانية كما كانت لها اصداء كبيرة في المنطقة من شمال الخليج العربي في الكويت وجنوبا إلى مشيخات ساحل عمان وعمان مما نتج عنه قيام حكم عثماني في الاحساء وقطر (51).

يرجع هذا التحول إلى شخصية السلطان عبد الحميد أولا، وشخصية مدحت باشا والى العراق ثانيا، حيث ان الاخير قام بمحاولة اعادة النظر في النظام الإداري في الدولة العثمانية ودعا إلى اصلاحات جذرية في انحاء مختلفة من الدولة، كما كان من ألد اعداء السياسة البريطانية في الخليج العربي، واعتبر الكويت والبحرين وقطر بلادا عثمانية ليست لبريطانيا أي سيادة عليها (52)، وهذا ما نجده عندما ولى مدحت باشا الامير عبدالله بن فيصل قائم مقام عثمانيا خلفا لوالد فيصل بن تركي القائم العثماني السابق لنجد واشعر الجميع بأنه ينظر أكثر شمولا واتساعا إلى حدود الدولة العثمانية وإلى الشرق من الجزيرة العربية معتبرا ان هذه الحدود لا تضم منطقة الاحساء وحدها بل أيضا البحرين وقطر وساحل عمان وعمان في حين رفضت الحكومة البريطانية هذا الادعاء ويعشت بمذكرة احتجاج وجهتها إلى الباب العالي (53).

اتبع مدحت باشا سياسة تهدف إلى انشاء اسطول بحري عثماني قوى في الخليج العربي، كما أنشأ خطا للبواخر التجارية أيضا تربط البصرة بالسويس والاستانه لأنه كان يرى وجود القوة البحرية ضروريا لإثبات الوجود العثماني وان يحكم قبضته على الولايات والمشيخات في شرق الجزيرة العربية التي لم ترتبط باحلاف مع بريطانيا، ولذا فإن مدحت باشا كان قد اقتنع بوجهة نظر عبدالله بن فيصل عندما أخبره بأن سعودا متعاون مع بريطانيا وسيلقى بها بيد الأجانب،

لذلك فإنه يطلب النجدة من الدولة العثمانية حماية للإسلام والمسلمين، وهنا قرر مدحت باشا أن يغزو الاحساء وبقية مشيخات شرق الجزيرة العربية، فكتب إلى شيخ الكويت يطلب منه المساهمة في الحملة، فوافق الشيخ على ذلك وحشد قواته بسرعة وأمر أسطوله بالانضمام إلى الحملة إدراكاً منه بأن البريطانيين خطر يهدد مستقبل الإسلام ومناطق شرق الجزيرة العربية، وكان مدحت باشا قد وزع منشورات تبين أن أهداف الحملة هو انقاذ نجد وتوابعها من الخارج على الإسلام وعلى طاعة خليفة المسلمين وإعادة الحكم إلى قائم مقام نجد الأمير عبدالله بن فيصل (54).

بعث في عام 1871 مدحت باشا بحملة إلى الاحساء للاستيلاء على هذه المناطق باسم السلطان عبدالحميد الثاني (55). وسقطت الاحساء بيده على الرغم من صرخات الأمير سعود يطلب النجدة من المقدم «بيللى» المقيم السياسى البريطانى والذي كان قد قدم مساعداته لسعود وقال فى مراسلاته للحكومة البريطانية بأن سعود خير للسياسة البريطانية من أخيه عبدالله بن فيصل ولكن عندما انهزم سعود من الجيش العثمانى فإنه لم يحرك ساكناً وكان جوابه هو أنه يهتم بأمن مياه الخليج العربى فقط وأنه سيقاوم التقدم العثمانى إذا ما تعرض لاحدى المشيخات المرتبطة بمعاهدات مع بريطانيا (56).

بعد دخول العثمانيين إلى الاحساء أرسل قائدها حملة بقيادة شيخ الكويت، وقد وصلت هذه الحملة فى شهر يوليو عام 1871 بقيادة الشيخ عبدالله الصباح بدعوة من قاسم بن محمد والذي كان قد بعث بها إلى نافذ باشا، وكان مع حاكم الكويت أربع رايات عثمانية مع رسالة من نافذ باشا إلى قاسم بن محمد يمتدح فيها الحكم العثمانى، وقبل قاسم هذه الرايات ورفع احداها على بيته وأرسل الثانية لوالده محمد بن ثانى فى «الوكرة» والثالثة لعلى بن عبد الله شيخ «الخور» والرابعة أرسلها إلى «العديد»، وقد برر قاسم خضوعه للعثمانيين بأنه يعيش فى البر والعثمانيون قوة برية عظيمة وأن بريطانيا أخفقت فى تحقيق العدالة لرعاياه فى أكثر من حادثة من حوادث السلب والنهب، وفى شهر يناير 1872 وصلت القوة العثمانية إلى الدوحة تحت قيادة شيخ الكويت وتحولت قطر إلى قائم مقامية تتبع لواء الاحساء التى يحكمها متصرف يرجع فى أموره إلى والى الولاية بالبصرة وكان

يتبع قائممقامية قطر بعض القرى الصغيرة يحكم كلا منها مدير يرجع فى أموره إلى قائممقام قطر (57).

ولكن الشيخ محمد بن ثانى والد قاسم كان قد رفض رفع العلم العثمانى فوق منزله لأنه كان قد وقع اتفاقية عام 1868 مع بريطانيا واستمر يرفع علمه الخاص، وذلك لم يؤثر لأن الشيخ محمد كان طاعنا فى السن بينما أخذ شأن ابنه قاسم يرتفع منذ عام 1868 وقد كان يريد تأكيد استقلال قطر عن البلدان المجاورة وبالتالي فإن خضوعه لسيادة دولة كبيرة مثل الدولة العثمانية قطع الطريق على شيوخ البحرين وأبوظبي فى المطالبة بأية حقوق لهم فى قطر، كما قد يكون قاسم بدوافع دينية لم يرغب فى الدخول تحت الحماية البريطانية وإنما أثر التقارب مع الدولة العثمانية، إذ كانت الزعامة الروحية لدولة الخلافة هى العامل الأول فى اجتذاب الشيخ قاسم إلى التعاون مع العثمانيين والدخول فى سيادتهم، إضافة إلى عامل محلى هو تعدى القبائل المتحالفة مع سعود بن فيصل صديق بريطانيا على قطر مما جعل الوجود العثمانى نوعا من الحماية من هذه القبائل (58).

يمكن القول إن مدحت باشا أرسل قواته إلى قطر بناء على طلب من قاسم وأعيان البلاد، لتلك الأسباب التى ذكرناها آنفا، كما أوضحوا لمدحت باشا أنه فى حالة عدم ارسال القوات المسلحة العثمانية بأنهم يطلبون السماح لهم بالهجرة فى موسم الحج. ولهذا أرسل مدحت باشا سرية من القوات العسكرية الموجودة فى الاحساء بقيادة عمر بك، وهذا يعنى ضمنا بأن السياسة العثمانية لم تستهدف فى بداية الأمر وجودا عسكريا مستديما فى قطر وخاصة أن الشيوخ وأعيان البلاد كانوا قد طلبوا بأنفسهم السيادة العثمانية (59) وإرسال أعلامها للتوزيع على المناطق الادارية فى البلاد.

تم فى عام 1873 سحب القوات النظامية العثمانية التى كانت فى الدوحة وتم ابدالها بثلاثين رجلا من القوات العسكرية، واحتفظت هذه الحماية العثمانية بموقعها فى الدوحة حتى عام 1914 (60)، وفى عام 1915 أجلت القوات البحرية البريطانية قوات الحماية العثمانية من مدينة الدوحة (61) ورغم خضوع قطر للحكم العثمانى إلا أن الوجود العسكرى لم يغير أو يؤثر فى قطر، وظلت العلاقات القبلية كما كانت من قبل وظل شيوخ آل ثانى فى الدوحة من أقوى وأهم العناصر فى الحياة الاجتماعية والسياسية.

الموقف البريطاني من الوجود العثماني في قطر؛

لقد كانت السياسة العثمانية بالنسبة للخليج العربي متأثرة إلى حد كبير بالفكرة التي كان السلطان عبد الحميد الثاني يحملها عن الجامعة الإسلامية وإعادة الخلافة إلى سابق عهدها هيبتها وجعل استنبول عاصمة العالم الإسلامي (62).

جاء الاهتمام البريطاني في الوقوف ضد التوسع العثماني في شرق الجزيرة العربية في الوقت الذي قل فيه الخطر الروسي على الخليج العربي، وأصبح أمرا ثانويا بالنسبة لمركز بريطانيا في الخليج العربي وذلك لانشغال روسيا في الأوضاع السياسية في المناطق الإيرانية المحاذية لها وكذلك في الصراع الدولي في أفغانستان (63).

لهذا كان للحملة العثمانية أصداء كبيرة على الصعيد المحلي والدولي وخاصة من جانب الحكومة البريطانية، والتي قابلتها بالمعارضة والرفض نظرا لمصالحها الكبيرة في منطقة الخليج العربي والتي كانت تهدد تلك المصالح وتعكر الأمن البريطاني في مياه الخليج العربي نتيجة لوصول منافسين جدد وهم العثمانيون إلى الساحل الغربي من الخليج العربي وحتى منطقة العديد فيما بين قطر وأبوظبي وأصبحت قطر الحد الفاصل بين النفوذ البريطاني والعثماني، بعدما كانت بريطانيا هي المسيطرة على الساحلين الشرقي والغربي من الخليج العربي فالوجود العثماني على الساحل الغربي من الخليج العربي. يعنى انتقاصا من السيادة البريطانية رغم وجود الاساطيل البريطانية في مياه الخليج العربي.

عندما طالب شيخ البحرين في عام 1873 بسيادته على قطر، أوضح له المقيم السياسي البريطاني بأن هذه المسألة صعبة ومعقدة وان القضايا الخاصة بالسيادة البحرية ينبغي تجنبها الآن، وخاصة بعد دخول القوات العثمانية إلى هذه المنطقة، وكانت بريطانيا تفكر في المحافظة على وضعها في مشيخات ساحل عمان والبحرين، ولكن بعد التأكيدات من الباب العالي بأنه لا ينوي التدخل في استقلال الشيوخ الخاضعين للحماية البريطانية أبدت ارتياحا كبيرا، واعتبرتها أكثر قيمة من أي تحديد خاص ولكنها رأت إن عاجلا أو آجلا أنه سيتخذ التدخل العثماني في بلاد العرب طابع الاستمرار والثبات أو ستكف عن العداوات وبالتالي سوف تحين لها الفرصة المناسبة للتصدي للقضايا الخاصة بالحدود أو السيادة، كما تم الاعتراف

بان للبحرين حقوقا معينة مثل حق الرعى على ساحل قطر عن طريق الحق فى الاعتداء على أى ميناء فى قطر(64).

بعث نائب المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بتقارير سرية إلى حكومته فى الهند موضحا فيها بأن العثمانيين أصبحت لهم السيادة الفعلية على ساحل قطر حتى مشارف العديد منذ أغسطس عام 1873، كما بعث السير. «هـ. اليوت» بتقرير إلى اللورد «جرانفيل» فى 22 أغسطس 1871، يقول فيها بأنه تلقى برقية من نائب الملك فى الهند تتساءل عن وجود اساس من الحقيقة عن كون الجنود العثمانيين سيلقى بهم فى ساحل قطر وإن قلاعاً ستبنى فى القطيف «والعقير» وقد سأل فى ذلك الافندى العثمانى الذى صرح له بأنه بعد مراجعة المراسلات الواردة له لم يجد الحكومة العثمانية فى وضع يسمح لها بأن تقضى بالمعلومات حين تسأل عن اجراءاتها فيما تعتبره أقاليمها الخاصة، وذلك يشير إلى سنجقى النجد واليمن، اما فيما يتعلق بقطر، فمن المؤكد إنه فى شهر يوليو رفرى العلم العثمانى فوق «البدع» فى ظروف لم توضح من أى مصدر وهى ميناء على الساحل الشرقى لقطر(65).

يقول المستر «أتشيسون» فى ملاحظة له فى هذا الصدد ضمن محضر مؤرخ فى 19 يوليو عام 1971 «إن احتلال البدع يبدو مناقضا لروح التأكيدات التى قدمها الباب العالى والباشا أنها بلا شك المحاولة الأولى نحو تأسيس سيادة على القبائل فى الشرق ممن أدخلت مدنهم، كما هو معروف فى الجريدة الرسمية التركية على أنها بيوتات وحدائق نجد والاتراك أشد ذكاء من ان يشهدوا أى تأكيد عنيف مفاجئ لسيادتهم... هناك أولا تلميحات الباشا بأن التأكيدات المعطاه «الضمانات» تشير إلى القبائل المنشقة التى ليس منها قبيلة واحدة فى نجد ثم هناك إدخالات فى الأوراق الرسمية لأماكن معينة على أنها توابع لنجد، ثم رفع العلم التركى كما ذكرنا وهكذا(66)».

كما جاء فى رسالة المقيم السياسى البريطانى إلى سكرتير الدولة وفيه رسالة للملحق السياسى فى الخليج العربى فى 22 أغسطس عام 1882 بأن والد قاسم كان منذ عام 1868 داخلا فى ارتباطاته بعلاقات حسنة مع الحكومة البريطانية واستمر عليها حتى وفاته، فى حين تخلص عن شئون الحكم فى أواخر ايامه إلى ابنه قاسم بعد ان بلغ فى السن وأخذته الشيخوخة، اما قاسم فإنه كان ساخطا

على البريطانيين نتيجة لتصرفاتهم ضده بعد أن قام المقيم السياسى البريطانى بفرض رغبات شيخ البحرين ودفع الجزية مما دفعه إلى طلب الحماية والدخول تحت السيادة العثمانية وخلال السنوات الماضية فإنه اكتسب صفة الرجل السياسى والمتصلب العنيد لكن وجود ابيه على قيد الحياه كان عاملا مهدئا حال دون نشوء صعوبات خطيرة (67).

نجد البريطانيين سوف يقبلون بالامر الواقع بالسيطرة العثمانية على «قطر» و«الاحساء» و«نجد» وعلى هذا الاساس يعملون فى خلق مشاكل داخلية ومنها مشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود فى قطر.

مشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود فى قطر:

لقد كانت السياسة البريطانية فى الفترة من عام 1871 إلى عام 1881 وحتى بداية عام 1913، لا ترغب فى الاعتراف بالسيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية ومنها قطر والوقوف فى وجه التقدم العثمانى تجاه هذه المنطقة، لكى لا تنافس مصالحها ونفوذها وتشكل تهديدا لها، ولذلك نرى هذا الصراع واثبات النفوذ البريطانى واضحا فى الخليج العربى، وخاصة فى قطر وبالذات عندما حاولت ان تفرض هذا النفوذ من وراء تصعيدها لمشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود، والقصد من وراء ذلك لم يكن الوقوف مع التجار الهنود ضد حاكم قطر بقدر ما كان فرض النفوذ البريطانى وطرد العثمانيين منها، وهذا ما نجده من خلال مراسلات الجهات الرسمية البريطانية حول هذه المشكلة إضافة إلى عوامل أخرى سوف نتطرق إليها.

استطاعت بريطانيا ان تحصل على مكاسب كبيرة فى الخليج العربى منذ ان عقدت اتفاقيات ومعاهدات مع حكام المنطقة وقيدتهم بأحكام فرضتها لخدمة الاقتصاد البريطانى ولرعاياها أو الداخلىين فى الرعاية البريطانية التى تكفل لهم سبل العمل والتجارة فى الخليج العربى، ولذا وفدت على المنطقة وبتشجيع من بريطانيا أعداد كبيرة من الهنود البريطانيين ومعظمهم من طائفة «البانيان» وكان انتشارهم فى الخليج العربى مظهرا من مظاهر النفوذ الاقتصادى البريطانى و كانوا يتمتعون بالامتيازات القنصلية وكانوا معروفين «بالبانيان» سواء كانوا من الهندوس أو السيخ أو غيرهم وكثيرون منهم وصلوا إلى مراكز كبيرة فى مسقط وفارس

والخليج العربى، وباستثناء المسلمين منهم لم تندمج الجاليات الهندية فى المجتمعات الوطنية بل كانت تنتظر تنمية ثرواتها ثم تتهز الفرصة للعودة إلى اوطانها(68).

أصبحت الدوحة عاصمة قطر من المراكز التجارية الهامة والمستقرة فى الخليج العربى اثناء حكم الشيخ قاسم، وجذب هذا الانتعاش التجار الهنود من طبقة البانيان إلى هذا الميناء الناشئ ولكن قدوم التجار «البانيان» فى هذه الفترة اختلف عن قدومهم فى الفترات السابقة، وكانوا يمثلون شركات الملاحة التجارية والوكالات التجارية الضخمة فى بومباى وغيرها من المدن الهندية الكبيرة، وإن قدومهم كان كرعايا بريطانيين يتمتعون بالحماية البريطانية التى اتخذت فى كثير من الاوقات ذريعة لامتداد النفوذ البريطانى والتدخل فى الشؤون الداخلية لدول المنطقة.

فقد كان افراد جالية «البانيان» من الرعايا البريطانيين يتمتعون بحرية العمل فى مدينة الدوحة مركز النشاط الاقتصادى والذى يمثل فى تجارة اللؤلؤ والتجارة البحرية وعملية الاستيراد وإعادة التصدير إلى وسط شبه الجزيرة العربية فى قرى ومدن «نجد» وهؤلاء التجار «البانيان» بدأوا ينافسون التجار الوطنيين فى ارزاقهم وهم فى الحقيقة يمتصون الثروة الوطنية بسبب رؤوس الأموال الكبيرة التى يديرونها فى احتكار اللؤلؤ وفى عمليات اقراض التجار واصحاب السفن الخارجة إلى الغوص، فالوثائق المحلية تكشف لنا عن مدى ما وصل إليه نفوذ رأس المال الاجنبى فى قطر وذلك بقيام التجار «البانيان» بعملية الطواشه فى كل صيف بقواربهم الخاصة المجهزة بالبحارة والأغذية والأموال، وكانوا يمرون على مغاصات اللؤلؤ ويجمعون اللؤلؤ من اصحاب السفن مما يعنى منافستهم واخراجهم من قطر أو شل حركتهم الاقتصادية، وذلك هو فى الحقيقة السبب المباشر فى الصراع بين التجار «البانيان» من الرعايا البريطانيين والتجار المحليين فى قطر (69).

اضافة الى تشكيل هؤلاء التجار «البانيان» تهديدا خطيرا للنظام الاقتصادى القطرى وسيطرتهم على معظم الاعمال التجارية فى قطر فان اثرهم على الحياه الاجتماعية ايضا كان يشكل خطرا، لان معظم التجار الهنود ان لم يكن جميعهم من جماعة «الشيخ» و«الهندوس» أى يعبدون البقر والأصنام وفى نظر الاسلام يعتبرون كفارا، وبذلك كانوا يشكلون خطراً على الحياه الاجتماعية الدينية وتصرفاتهم ومعاملاتهم كانت لا تخلو من الكراهية والتسلط، وخاصة أن هؤلاء

من طبقة الهنود البانيان كانوا من المقربين من البريطانيين على عكس التجار المسلمين من الهنود والذين كانوا كثيرا ما يتعرضون لمضايقات من قبل السلطة والاستعمار المسيحي البريطانى فى الهند مما كان يحد من نشاطهم التجارى فى داخل الهند بخاصة والخارج بعامة كمنطقة الخليج العربى ذات الديانة المسلمة مما قد يؤثر فى تعاطفهم الدينى تجاه مسلمى الهند، وبالتالي لا يقل أهمية العامل الدينى عن العامل الاقتصادى.

هذا وقد كان الشيخ قاسم فقيها وعالما ورعا متبحرا فى أصول مذهب الامام أحمد بن حنبل ومتشددا جدا فى احكامه ويمنع إدخال عامل الخوف أو المهادنة أو التسامح فى أمور الحياة على حساب المبدأ الدينى، فيروى عن الرسول ﷺ قوله: «لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان»، وقد أخرج اليهود وأجلى النصارى فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فكيف بالكفار، ولأن «البانيان» يعبدون الاصنام فهم وثنيون فكان عداؤهم وحربهم وإخراجهم عملا دينيا محضا⁽⁷⁰⁾.

إضافة إلى العامل الاقتصادى والدينى عامل سياسى وهو أن قاسم كان قد قبل الحكم العثمانى منذ عام 1871 وبذلك أنهى معاهدة 1868 التى عقدها والده مع بريطانيا وقد نتج عن وصول العثمانيين إلى قطر أول احتكاك مباشر بين العثمانيين وبريطانيا رغم أن الشيخ محمد بن ثانى كان على ولائه للبريطانيين لفترة معينة إلا أن تولى ابنه قاسم مقاليد السلطة فى قطر وحصوله على منصب القائمقامية عام 1876 جعله يضرب مصالح التجار الهنود بين فترة وأخرى لتنفيذ سياسة العداة تجاه بريطانيا فقد كان الهنود هدفا سهلا فى متناول يده طوال فترة مواجهه، وكان يتهرب فى كثير من الأوقات من العقوبات البريطانية بالاستعانة واللجوء إلى العثمانيين أو قوته الذاتية، فى حين كان «البانيان» يستعينون بالحكومة البريطانية وقد افتخروا فيما بعد بالخطبة التى القاها مندوب عنهم فى الشارقة أمام اللورد «كيرزون» نائب الملك فى الهند أثناء جولته بالخليج العربى بالخدمات التى يقدمونها للحكومة البريطانية ويأن وجودهم فى الخليج العربى ارتبط مع بداية ظهور السفن البريطانية فى مياهها، وما أعطى لهم القادة البريطانيون من امتيازات اقتصادية ظلوا يتمتعون بها أينما كانوا باعتبارهم من رعايا التاج البريطانى وبعدها تعهد اللورد «كيرزون» نيابة عن حكومة الهند البريطانية بمزيد من الاستقرار

للبانيان مادامت البوارج البريطانية تستطيع أن تحفظ الطريق آمنا إلى اجزاء امبراطوريتها⁽⁷¹⁾ من القوى المحلية والأجنبية في الخليج العربي.

طلب الشيخ قاسم من السلطات العثمانية عام 75 - 1876 أن يمارسوا سيادتهم على هؤلاء الأجانب للحد من تدخل السلطات البريطانية في الشؤون الداخلية لقطر ولم تكن الحكومة البريطانية تستطيع أن تعترض على تلك التصرفات لأن الوالي قاسم لم يكن يرتبط معها بأية علاقة خاصة أو منصوص عليها في معاهدات، وكل ما فعلته الحكومة البريطانية هو إنها قدمت احتجاجا لدى الباب العالي على المعاملة التي لاقاها التجار من رعاياها، ولكن العثمانيون لم يتدخلوا كثيرا في شؤون الشيخ قاسم الداخلية في تلك الفترة في حين استمرت التعديات من قبل القبائل وسكان قطر على الرعايا البريطانيين بل وامتدت أيضا للبحر، ففي شهر نوفمبر عام 1878 استولى قاسم بمساعدة القبائل القطرية على منطقة «الزبارة» مما شكل خطرا على البحرين، أما بريطانيا فإنها بعثت بعدة رسائل إلى الباب العالي تطالب باتخاذ الإجراءات اللازمة للحد من أعمال سكان قطر طالما إن الباب العالي يمارس سيادته على تلك المواقع ولكن شيئا لم يحدث⁽⁷²⁾.

كانت أول حادثة مضايقة تعرض لها التجار البريطانيون من الهنود «البانيان» عندما فرض الشيخ قاسم محمد بن ثاني عام 1870 ضرائب جديدة، فقد تسلمت الحكومة البريطانية التماسا من رعاياها من الهنود في الدوحة يشكون فيه من ابتزاز الشيخ أموالهم ويعربون عن الرغبة في مغادرة البلده، ولكن ثبت العكس وأن ما كانوا يشكون منه هؤلاء التجار لم يكن سوى الضرائب المعتادة التي كانت تجبي منهم لحمايتهم⁽⁷³⁾. فقد جاء في التقرير الذي قدمه أحد العاملين في المعتمدية البريطانية في يونيو عام 1875 بأن الشيخ قد فرض الضرائب على شعبه أولا ثم على الرعايا البريطانيين من التجار الهنود مقابل تأمين لحمايتهم من البدو وغيرهم، وقد قال الكولونيل «روس» المقيم السياسي البريطاني بأن الشيخ قاسم محمد بن ثاني كان جادا في صداقته مع بريطانيا وبالتالي فإنه من حقه ان لا يعفى التجار البريطانيون من الهنود من نفس الضرائب والمكوس المحلية والتي كان قد فرضها على شعبه.

جاءت في شهر سبتمبر من عام 1875، تعليمات إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي من حكومة الهند بأن يبلغ التجار البريطانيين من الهنود

بأنهم أحرار في أن يغادروا قطر أو أن يظلوا فيه وإذا ما فضلوا البقاء فيه واستمروا في الإقامة بها فيجب عليهم أن يخضعوا للقوانين والضرائب المحلية⁽⁷⁴⁾.

لقى في عام 1876 القبطان «جوثرى» قائد سفينة «مائي فريز» بعض المتاعب أثناء زيارته للدوحة من قبل المسؤولين العثمانيين عن الموقع، فقد تجمعوا وراءه أثناء خروجه من الميناء إلى سفينته يصيحون به أن الدوحة ميناء عثماني وأنه ليس من حقه النزول إلى هذا الميناء دون إذن من السلطات المختصة وأن عليه أن يغادره قبل غروب الشمس، وقد حاول جوثرى أن يمكث في الدوحة أربعة وعشرين ساعة أخرى رغم التهديدات العثمانية⁽⁷⁵⁾.

جرت عدة حوادث في عام 1874 منها عندما قام رعايا من قطر من قبائل بني هاجر في صيف تلك السنة بالاعتداء على قارب لتاجر من البحرين يدعى عبدالكريم بالقرب من «خور شقيق» وتضرر منه بعض الرعايا من التجار الهنود، ولكن المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي «روس» استطاع أن يحصل على تعويض لتلك الخسارة عن طريق إرسال مساعده «فريزر» للتاجرين وهما «تشيل» و«راما»⁽⁷⁶⁾ ولكن الشيخ قاسم الذي كان قد أصبح مؤخرًا قائمقاما عثمانيا، قد دعا التاجرين السابقين والذين حصلوا على التعويضات من قبل «فريزر» ودبر نفهم إلى عاصمة اقليم الاحساء البعيدة في «الهفوف» وزعم أن نفهم إلى هناك أمر ضروري ولا بد منه مما اعتبرته بريطانيا عدوانا سافرا كبيرا على اثنين من الرعايا البريطانيين الهنود من «البانان» ومن ثم طوب وزير الخارجية بحكومة الهند بأن يحيط وزارة الخارجية البريطانية في لندن علما بالامر من أجل مطالبة الباب العالي بتفسير الامر والتحرك من أجل تقديم التعويض المناسب للتاجرين⁽⁷⁷⁾.

اما العقيد «روس» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي فقد اعتبر تصرف الشيخ قاسم بأنه تحد لبريطانيا وعمل ثأرى من جانبه في مقابل الغرامة التي أكره على دفعها من جراء الضريبة التي كان انتزعها من نفس هذين التاجرين⁽⁷⁸⁾.

توالت الحوادث وخاصة فيما بين عامي 1878 - 1879 في حين كان العثمانيون يتجاهلون أو غير راغبين في ذلك بل ورفضوا التعاون مع بريطانيا في سبيل ذلك، كما كانت بريطانيا عاجزة عن مواجهة هذه الأعمال على السواحل

القطرية باستثناء البحر وخاصة عندما تكون البحرين هي الهدف، وازادت حكومة الهند ان يكون هناك تحديد للمدى الذى يمكن معه ان يصل فيه النفوذ العثمانى، وكانت تصر على ان تنفذ الدولة العثمانية التزاماتها بإقامة النظام حتى ذلك الحد، وكانت موافقة فى أن تدخل قطر فى إطار منطقة النفوذ العثمانى على أن الهدف من وراء ذلك كان ان يعقبه هذا التحديد تكوين قوة بحرية لمقاومة النشاط البحرى القوى الذى كان يمارسه ابناء قطر، وكانت وزارة الخارجية ترى إنه يمكن دفع العثمانيين إلى الامتناع ولكن على بريطانيا نفسها ان تقرر الحدود وان تمارس السلطة البوليسية خارجها وألا تتدخل فى الداخل إلا فى الأحوال الخاصة وفى أضيق الحدود إذا دعت الضرورة لذلك⁽⁷⁹⁾.

فى حين كان رأى نائب المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بأن الاقتراح الأول غير عملى لأن العثمانيين لن يوافقوا عليه وحتى إذا وافقوا فإنهم سوف يعجزون عن ممارسة السلطة على الساحل على المستوى المطلوب، أما إذا أخذ باقتراح وزارة الخارجية فسوف يكون فى مقدور سكان قطر أن يتخذوا لأنفسهم مرافئ لممارسة أعمالهم البحرية ضد النفوذ البريطانى على السواحل التابعة للسلطات العثمانية التى ستمنع مطاردتهم ولذلك فقد قدم اقتراح آخر بأن توجه رسالة إلى الباب العالى يخطر فيها بأن بريطانيا سوف تعترف بالسيادة العثمانية شمالى منطقة العديد، ولكن بقدر ما تتم به ممارسة هذه السيادة بالفعل، وإن الأعمال البحرية التى يشنونها تدل على انعدام هذه السيادة وبذلك يصبح من المتعين مطاردتهم والقضاء عليهم بصرف النظر عن الموانئ التى يستخدمونها، وسوف يتم الاتصال مباشرة بالولاة المحليين ولن يسمح بأى تدخل عثمانى فى شئون البحرين أو القبائل البحرية فى مشيخات ساحل عمان شرقى «العديد»، كما تقدم اللورد «كرانبروك» وزير الهند بتلك الاقتراحات والتى قدمها نائب المقيم فى الخليج العربى، ولكن وزارة الخارجية رفضتها بعد استشارة مستشاريها القانونيين، وايضا بعد مراجعة التفاصيل والاتصالات التى جرت مع الباب العالى منذ ذلك التاريخ⁽⁸⁰⁾.

تضايقت بريطانيا من تصرفات رعايا قطر ضد الأعمال التى كانوا يقومون بها سواء ضد الرعايا البريطانيين من التجار الهنود، أو ضد جيرانهم فى البحرين ومشيخات ساحل عمان والتى كانتا من ضمن النفوذ البريطانى، وحاولت فرض

نفوذها على قطر ولكنها كانت تخشى من التواجد العثماني وبذلك لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً سوى تقديم الاحتجاج لدى الباب العالي وتقديم الإنذار إلى شيوخ قطر.

الاعتداء على أحد التجار البانين،

وقع اعتداء على أحد التجار البانين من الهنود في يناير من عام 1879، ويدعى «فورسو» عندما ضرب وأسيئت معاملته⁽⁸¹⁾ من قبل الحاكم العثماني محمد أغا، وذلك لأن التاجر الهندي قام بتهرب التمور من الدوحة إلى الخارج بدون علم السلطات المحلية علماً بأن التمور كانت تستورد من الخارج وخاصة من «البصرة»، ولا تصدر إلى الخارج، إضافة إلى ذلك فقد يكون الهدف من وراء ذلك إرغام التجار البريطانيين على مغادرة أراضي قطر بعدما لوحظ تدخلهم في جميع المجالات والشؤون الاقتصادية القطرية والخاصة بالوطنيين.

تدخلت الحكومة البريطانية نتيجة لتلك الحادثة وطلبت التعويض للتاجر الهندي، ونظراً لتأثير هذه الحوادث تأثيراً سيئاً على سمعة بريطانيا في الخليج العربي، قام العقيد «روس» المقيم السياسي البريطاني بإرسال نسخ من أوراق القضية إلى الوكيل السياسي في بغداد مع استفسار بشأن الموضوع، وأشار إلى أنه لم يوقع أى قصاص بالنسبة لحادث سابق من نفس القبيل حين أسيئت معاملة التجار البانين في الدوحة عام 1875، كما أشار إلى حكومة الهند بأن حوادث من هذا النوع سوف تسيء لهيبة الحكومة البريطانية في الخليج العربي وحوله⁽⁸²⁾، ولذا فإنه طلب بضرورة تنفيذ إجراء ما لإجلاء الرعايا البريطانيين من التجار الهنود من الدوحة، ولكن حكومة الهند كانت ترى غير ذلك بأنه من الأفضل أبعاد الحاكم العثماني محمد أغا إذا ما ثبتت ضده تهمة إساءة معاملة الهندي، وقد وجه خطاب بهذه الفحوى إلى الوكيل السياسي البريطاني في العراق لكي يمارس نوعاً من الضغط لإجبار الحاكم العام العثماني بسحب محمد أغا من قطر، كما اعتبرت سحب جميع الرعايا البريطانيين من قطر لن يؤدي إلا إلى فقدان النفوذ البريطاني⁽⁸³⁾ في حين إنها تريد أن تعزز هذا النفوذ، وفي النهاية استطاعت بريطانيا إبعاد المسؤول العثماني في الدوحة محمد أغا على اعتبار إنه المسؤول المباشر عن مشاكل الرعايا البريطانيين التي وقعت في مارس عام 1878⁽⁸⁴⁾.

ازدياد حالة التوتر بين بريطانيا والوالي قاسم:

ازدادت حالة التوتر بين الجانبين إلى درجة إصدار المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى عام 1879 إنذاراً لشيخ قطر بالآلا يرتبطوا بأية أعمال مع بنى هاجر والذين كانوا يحدثون أضراراً كبيرة ضد المصالح البريطانية على طول الساحل الغربى من الخليج العربى، وكان الكابتن «وودروف» وكيل المقيمة فى البحرين قد سلم إنذاراً موجهاً للشيخ قاسم عن الحادثة التى ارتكبها بنو هاجر عندما استولوا على سفيتين «اللمهاند» من رعايا البحرين، كما ثار التساؤل حول ما مدى استطاعة بريطانيا التدخل فى شؤون قطر عام 1881 بمناسبة تهديد ناصر بن مبارك بغزو البحرين بمساعدة الشيخ قاسم فى الدوحة، ويسبب مشروعات الشيخ قاسم أيضاً، والذي كان ينوى القيام بعمل بحرى ضد قبائل أبو ظبى وكانت حكومة الهند البريطانية ترى الاتفاقية التى عقدت عام 1868 مع والده الشيخ قاسم والتى تعهدا بمقتضاها بالآلا يثير الاضطراب فى البحر أنها هى اتفاقية ذات طابع شخصى الى حد كبير، ولذلك لا يمكن اعتبارها ملزمة للشيخ قاسم، ولذا تم رفع تلك المسألة إلى الحكومة البريطانية⁽⁸⁵⁾.

بالرغم من إن الشيخ قاسم كان قد أصبح قائمقاماً فى أوائل عام 1882 إلا أن الحكومة البريطانية طالبت من الجهات الرسمية بتشجيع الشيخ قاسم على إقامة علاقات وثيقة ومباشرة مع المسؤولين فى حكومة الهند، وبأن يرجع إليهم فى الوقت الذى يرغب فيه وخاصة فى الأمور التى تتعلق بالأمن فى البحار، أما فيما يتعلق بما يجب ان يحدث إذا ما قام شيخ قطر بعمل عدائى فى البحر دون استشارة المقيم السياسى البريطانى أو اهماله لتحذير صادر منه فإن الحكومة البريطانية طالبت بتقديم نصائح أو تعليمات دقيقة، وعلى حكومة الهند أن تقرر وفق ما تقتضيه الضرورة، كما أبلغ الباب العالى فى يوليو عام 1881 بأنه ما دام العثمانيون يرفضون الموافقة على سياسة مشتركة فى البحر، فإن الحكومة البريطانية مضطرة لأن تكفل وحدها بحرية مطلقة ودون إشارة لتعليمات السلطان العثمانى بالفصل فى كل المنازعات الاقليمية فى هذه المياه، كما أعطت تعليماتها لقادة السفن لمنع اضطراب السلم فى البحار وان يتجنبوا بقدر الإمكان إثارة مشاكل لاداعى لها مع السلطات العثمانية فى المكان الذى قد توجد به هذه السلطات وأن يتجنبوا أيضاً

بقدر الإمكان الاقتراب من حدود الأراضي التابعة للدولة العثمانية على ان تسرى هذه التعليمات ايضا على الساحل شمالي «العديد» والتابع لقطر (86).

وفي تلك الفترة كان الخطر على النفوذ البريطاني في البحرين قد ازداد من قبل سكان قطر، كما طالب العثمانيون بالسيادة على البحرين ولكنهم لم يفرضوها عمليا ابدا. وكان العثمانيون ينوون الاستفادة من الوالي قاسم لحشه على الهجوم ضد البحرين، ولكن الحكومة البريطانية حذرت الشيخ قاسم في 7 مايو عام 1881 وخطرته بأنه سيمنع بالقوة وان الدوحة سيتم مهاجمتها بواسطة بريطانيا، في حين اعترضت الحكومة البريطانية في لندن على هذا التصرف في 26 أغسطس عام 1881، وفي شهر يوليو من نفس العام كانت قد جرت مراجعة للأوامر الصادرة للأسطول البريطاني وأزيل خطر التدخل ضد الأعمال البحرية التي تجرى في المياه الساحلية العثمانية من قبل رعايا قطر، كما طلبت حكومة الهند في رسالتها المؤرخة في 30 أكتوبر عام 1881 بأن تصلها التعليمات فيما يتعلق بمستقبل العلاقات مع الولاة العثمانيين في مدينة الدوحة، وقد تسلم وزير الهند مشروعا بالرد على اللورد «جرانفيل» وزير الخارجية في 4 يناير 1882، أشار فيه إلى أن السيادة العثمانية لا تعدو ان تكون شكلية في الخليج العربي وإنه نزل على طلب المقيم السياسي البريطاني وهذا النزول على رغبة الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالمسائل التي تؤثر على السلام في البحر والتي ينبغي ان يقابل بالتشجيع، وإنه لا يتعارض من حيث المبدأ بالاعتراف على السيادة الداخلية للعثمانيين، وقد حاولت بريطانيا تجديد الاتفاقية التي كانت قد وقعتها مع والد قاسم عام 1868، ولكنها لم تنجح ثم رأت حكومة الهند إنه من غير المرغوب فيه الدخول في علاقات رسمية مع الوالي العثماني الشيخ قاسم لأن هذا من شأنه ان يثير الصدام مع العثمانيين ولذلك صدرت التعليمات للمقيم السياسي البريطاني بأن يحصل على مجرد تعهدات شفوية من الشيخ قاسم، في حين كان قاسم يواصل تهديده لرعايا البريطانيين في قطر (87).

طرد الرعايا البريطانيين من التجار الهنود «البانيان»

على الرغم من دخول الشيخ قاسم في معاهدة مع بريطانيا وإن لم تكن

مكتوبة أى تعهد شفوى منه بأنه يلتزم بأحكام الاتفاقية القديمة⁽⁸⁸⁾ كما تم التزام قاسم بالسلام مع جيرانه، إلا إن ذلك لم يمنعه من اتخاذ إجراءات مشددة تجاه الرعايا البريطانيين من البانيان⁽⁸⁹⁾.

ففى أواخر عام 1881، كان الوالى العثمانى قاسم قد ضاق ذرعا بنشاط هؤلاء التجار الهنود من «البانيان» والذين كانوا يتمتعون بحمايته لهم والتي كلفته كثيرا، ولكنهم كانوا يرفضون دفع أية التزامات والضرائب المفروضة عليهم، كما زاحموا بإمكانياتهم المادية الضخمة تجار اللؤلؤ المواطنين فى قطر، وكثير من هؤلاء التجار الهنود كانوا يقومون بعمل البنوك الربوية، إذ يقرضون تجار اللؤلؤ المال بالربا لتمويل عمليات الغوص، ويطالبون بفوائد عالية لتسديد تلك الديون، وهو نشاط أصبح وقتاً عليهم لرفض المسلمين هذا اللون من الكسب غير الشرعى والجرام، مما اضطر معه الوالى الشيخ قاسم إبلاغ رغبته الملحة فى يناير عام 1882 إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بنقل وترحيل الهنود «البانيان» من قطر إلى البحرين⁽⁹⁰⁾.

دافعت بريطانيا عن طبقة التجار الهنود «البانيان» وتصرفاتهم وألقت اللوم على الشيخ قاسم والأعمال التى قام بها فى أكتوبر عام 1881 وعام 1880 عندما تقدم الرعايا البريطانيون من الهنود فى الدوحة بشكوى ضد اساءة معاملتهم، وعلى إثر هذا التصعيد من قبل قاسم، أرسل الكولونيل «روس» مذكره إلى حكومة الهند فى 12 نوفمبر من عام 1881، حول هذا الموضوع، والتي جاء فيها ما يلى:

نظرا لاهمية الوثائق البريطانية، فإننى سوف أنقل هذه المذكرات والرسائل المتبادلة فيما بين الجهات الرسمية حول الموضوع، كما هى دون صياغتها خوفا من أن ذلك قد يفقدها معانيها وهى لا تتجاوز سبع مذكرات أو رسائل:

«تمت معاينة الواقع بصورة كاملة بعد تحقيق جرى فى المكان قام به «كابتن بشام» والمقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى الذين كلفتهما بزيارة «البدع» لم تقع مخالفة من طرف «البانيان» التجار «الهندوس» من طائفة اجتماعية معينة تمتنع عن أكل اللحم وليس هناك مبرر لمعاملة «قاسم» لهم والذريعة بالمصاريف فى حمايتهم غير مخلصه وقاسم بلاشك يرغب فى الخلاص من التجار الهنود جميعا.

إلا أنني أشك بأنه أيضا متأثر بشعور آخر غير مجرد الجشع وهو أنه لا يشعر باطمئنان إلى حقيقة وضعه الآن بالنسبة للحكومة البريطانية وهو بلا شك يرغب في التدخل إلى استتاجات معينة عن ملاحظته الإجراءات التي قد تطبقها السلطات البريطانية حيال تصرفاته. فإذا رأى أننا امتنعنا عن إجراء مباشر فإنه يعتبر نفسه في مجال من الحصانة عن طريق الهيبة البريطانية وعدم التمييز ولربما تمادى أكثر ضد رعايانا وقد لا يعتبر مصالحنا ورغباتنا في كثير من النواحي الأخرى، إنها لمشكلة محيرة فيما إذا كان يجب علينا اعتبار هذا الشيخ ما يزال مستقلا أو مجرد حاكم عثماني أو في منزلة متوسطة بين هذا وذاك علما بأن الرجل نفسه حساس تماما حيال الموضوع. ثم يتابع التقرير قوله:

يبدو أنه ضروري أن تلاحظ سلوك قاسم بن محمد الجريء، ففي حالة متشابهة سابقة حدثت أثناء حياة والد قاسم حيث فضل الأخير تقديم تعويض مباشر لنا، وهكذا سوى الأمر، مع هذا فلو كان رفض التعويض والتجأ إلى الوالي العثماني لاستعملنا القوة ضده أنني أخشى أن يرفض قاسم إعطاء ترضية كافية لأساءه تصرفه الحالي وأنه يفضل مواجهة النتيجة، وقد يبدو الالتجاء إلى السلطات العثمانية للتعويض وكأنما هو أسهل طريق، ولكن لهذه مساوئه وهو أن تعطى حكما على أساس الخبرات السابقة لا ينتج عنه نتيجة مرضية كما أن الحكومة لا ترغب، كما هي عليه الأمور الآن في تقديم اعتراف حول وضع قاسم بن محمد وقضاء «البدع»، إن العودة للحكومة العثمانية دون نجاح سيزعج ويشجع قاسم في نفس الوقت وإذا تبين ذلك المسلك فإنه من المرغوب فيه إنذار الحكومة العثمانية بأنها إن قصرت في معاقبة قاسم بن محمد وجعله يعتذر لسلوكه العدائي فإن الحكومة البريطانية سيكون عليها أن تأخذ زمام الأمر بيدها⁽⁹¹⁾.

أما الشيخ قاسم فكان موقفه غير ايجابي تجاه السياسة البريطانية بل وقف ضدها وإنه رد في يناير عام 1882 على الإنذار الموجه من قبل المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي حول الامتناع عن معاملة التجار الهنود من الرعايا البريطانيين والمقيمين في بلاده بأن يذهبوا إلى البحرين وذلك لتدخلهم في تجارة اللؤلؤ مما كان له أثر سيئ على الوضع الاقتصادي لرعاياه ولهذا المورد الاقتصادي الوحيد لبلاده. ولكن وزير المستعمرات البريطاني طالب في رسالته المؤرخة في 24 مارس 1882، بعد عدة شكاوى من التجار الهنود «البانيان» بضرورة الاتصال

مع الشيخ قاسم ولهذا أرسل المقيم السياسى البريطانى إلى قطر أحد موظفيه ومنشئ المقيمة «ميرزا أبو القاسم» والذي يتمتع بخبرة واسعة فى الساحل العربى وقد سبق له أن قام بعدة مهام وواجبات توكيلية، وكان على «الميرزا» أن يمثث فى قطر عدة أيام لسمع ويحقق حول أية شكاوى يقدمها الوالى قاسم ضد «البانيان» ولإزالة الأسباب التى أدت إلى سخطه وأن يحاول إقناع قاسم بسحب اعتراضه على إقامة الهنود فى العاصمة القطرية لأغراض تجارية وإن يحصل على وعد بمعاملتهم معاملة حسنة فى المستقبل، ولذا فقد بعث المقيم السياسى البريطانى إلى الوالى العثمانى الشيخ قاسم فى 26 مايو عام 1882 برسالة جاء فيها مايلى (92):

«أرسل الآن ميرزا أبو القاسم إلى مدينتكم للتحقيق فى الاتهامات الموجهة ضد الهنود وسماع جميع الأطراف، وعليك أن تعرف أننى دائماً على إستعداد لسماع الشكاوى وإن أحقق فيها فإذا اعترف الرعايا البريطانيون أية جرائم تستحق العقاب فإنهم سيعاقبون، فإذا كانوا يسلكون مسلكاً صحيحاً فإنه سيكون منافياً للعلاقات الودية المتواجدة حتى الآن بين الحكومة البريطانية والدكم وبينكم أنتم، فيما إذا أخرجتم هؤلاء الرعايا البريطانيين أو أذيتموهم أو سببتم لهم الإيذاء، أننى أمل من شعوركم الودى الذى عبرتم عنه مراراً إنكم ستمنحون «البانيان» معاملة عادلة ولطيفة فإذا اتخذتم لسوء الحظ منهجاً آخر فإن ذلك سيتنافى مع العلاقات الودية، وإنكم بكل تأكيد ستكونون مسؤولين مباشرة وشخصياً عن جميع الخسائر التى تلحق بالرعايا البريطانيين، أننى واثق أنكم ستعيرون هذه الرسالة عنايتكم الفائقة إذ إنه محرر بموجب أوامر من الحكومة».

لم تنجح جهود ميرزا فى إقناع الشيخ قاسم بل كانت عديمة الجدوى وفشلت المفاوضات برغم إبداء الشيخ قاسم شعوراً ودياً تجاه المقيم السياسى والحكومة البريطانية، لأنه كان مصراً على نقل التجار «البانيان» من العاصمة القطرية لعدة أسباب منها (93):

أولاً: إنهم كانوا يتدخلون فى العمليات التجارية وخاصة تجارة اللؤلؤ التى يمارسها معظم سكان قطر ويرتزقون من ورائها، ومنافسة التجار الهنود «البانيان» فى عمليات البيع والشراء وفرض أسعار معينة من قبلهم والتعامل بالربا والفوائد، مما كانت لها آثار سيئة على الوضع الاقتصادى القطرى.

ثانيا: وكان وجود هذه الطبقة من البانيان والذين يتمتعون بطقوس دينية معينة تعتبر في نظر الإسلام كفرا وخارجه عن الإسلام وعن المجتمع القطري، مما يجعل وجودهم في قطر خطراً على حياتهم مما دفع الشيخ قاسم إيجاد حرس خاص لحمايتهم مما سبب له خسائر كبيرة، في حين كان هؤلاء البانيان يرفضون دفع أية تكاليف أو نفقات من أجل حمايتهم أو دفع الضرائب المقررة.

ثالثا: كانوا يسيئون في تصرفاتهم وسلوكهم بصفة عامة تجاه المجتمع القطري وتجاه الشيخ قاسم بصفة خاصة، ولكن ميرزا رفض الاتهامات الموجهة ضدهم ووصفها بأنها مجرد قذف وتشهير، وهي اعذار لتجنب ضرورة القول بأن «البانيان» لم يكن وجودهم في قطر مرغوبا فيه لمجرد أنهم كانوا تجارا، في حين قال الشيخ قاسم بأنه كان قد اصدر قراراً في الأيام الأولى من يوليو بتكليف ابنه خليفة للبت في جميع الدعاوى والشكاوى التي تحال إليه وان تطاع أوامرهم، وعندما قام خليفة بفرض ضرائب مالية على البانيان فإنهم رفضوا دفعها مما اضطر معه بأن يقفل متاجرهم وحوانيتهم بالقوة بموجب أوامر من والده⁽⁹⁴⁾ ومما شجع الشيخ قاسم في الماضي قدما في معاملته تجاه الرعايا البريطانيين من التجار الهنود هو الحصانة التي رافقت اجراءات مماثلة في عام 1881.

ازداد هذا الموقف سوءا عندما وصل إلى الدوحة وكيل الشيخ قاسم والمقيم في مدينة بومباي الهندية. ومعه أخبار ثورة عرابي في مصر ضد الامتيازات الأجنبية والنفوذ البريطاني والفرنسي، وقد ذكر له وكيله بأن اخراج الشيخ قاسم للرعايا والأجانب من قطر هو حق من حقوقه⁽⁹⁵⁾، حين قال: «قبل المصريون أربعة سفراء لحكومات أجنبية منهم سفيرا فرنسا وبريطانيا وقد تجمع الآن 80.000 رجل يودون محاربة الحكومات الأجنبية وكانت الأسباب أنهم لا يريدون رعايا تلك الحكومات أن يكونوا في بلدهم وأنت يا قاسم إذا لم تر من الضروري أن يبقى «البانيان» في بلدك فلا اكراه عليك»⁽⁹⁶⁾.

يتضح لنا مدى التطور الفكري والثقافي في الحياة الاجتماعية في قطر وشرق الجزيرة العربية في ذلك الوقت، نظرا للدور الذي لعبته مدينة بومباي في تاريخ المنطقة الحديث، لأنها كانت تمثل صورة للواقع العربي الحديث، بكل تطوراته وأبعاده الجديدة، مما كان له أثر كبير على تجار شرق الجزيرة العربية ومنهم تجار

قطر، حيث كانوا يجتمعون هناك كل عام لأغراض تجارية وخاصة تجارة اللؤلؤ ثم يتبادلون أحاديثهم حول قضايا المنطقة وقضايا العرب بصفة عامة، ثم الدور المهم الذى كان لفتح قناة السويس ومرور السفن التجارية بمصر وساحل الشام واشتراك تجار اللؤلؤ فى المجلات والصحف العربية سببا فى التعرف مرة أخرى ولو بصورة بطيئة على ما يجرى فى أنحاء الوطن العربى، وذلك ما نجمده من قضية أحداث التجار الهنود «البانيان» فى قطر وكيف كان دور وكيل الشيخ قاسم فى بومباى فى نقل أخبار الثورة العراقية فى مصر ومحاولة طرد الأجانب وسحب الامتيازات (97).

عندما وصلت السفينة البريطانية «وودلارك» فى 20 يوليو إلى الدوحة كان التجار الهنود «البانيان» محاصرين فى بيوتهم من قبل الحرس الخاص من أفراد قبائل بنى هاجر من القيام بأية اتصال مع سكان المدينة، وبعد عدة اتصالات ومحادثات اجراها المبعوث ميرزا أبو القاسم المبعوث من قبل المقيم السياسى البريطانى مع الشيخ قاسم وبعد الالتاح الشديد وافق قاسم على فك الحصار عن الرعايا البريطانيين والسماح لهم بمغادرة قطر، كما سمح لهم بنقل بضائعهم على ظهر السفن الوطنية فى الوقت الذى كانت السفينة البريطانية راسية بعيدا عن الميناء، وفى 22 يوليو غادر ميرزا أبو القاسم على ظهر نفس السفينة البريطانية بعد فشل تلك المحادثات علما بأن معاملة قاسم كانت جافة وهدده باستعمال العنف مع الرعايا البريطانيين، وقد كتب ميرزا إلى الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين متهما قاسم بأن تصرفاته غير لائقة، وانتقد قول قاسم بأن رحيل الرعايا البريطانيين بأنه عمل اختياري تم من طرفهم، بأنها رائقة وخادعة والحقيقة أن قاسم تصور أن اتصاله مع العثمانيين آمنة من العقاب من الحكومة البريطانية (98).

الضغوط البريطانية على الشيخ قاسم:

وعلى أثر هذا التصعيد حول مشكلة التجار من الرعايا البريطانيين من «البانيان» بين الوالى قاسم والحكومة البريطانية قامت الحكومة العثمانية بإرسال وفد من القضاة للتحقق والنظر فى هذا الأمر نيابة عن الحكومة العثمانية، ولكى يقوم بدور الفصل فى المشاكل والمنازعات والقيام بواجبات القضاة، وفى هذه الفترة كان المقيم السياسى البريطانى الكولونيل «روس» يقضى اجازته فى لندن وعندما وصلته تلك الاخبار، قطع اجازته وعاد إلى بوشهر لياشر عمله تجاه هذه المشكلة، وفى

22 أغسطس قدم تقرير إلى حكومة الهند حول أبعاد مشكلة الرعايا البريطانيين من «البانيان» والحلول الممكنة لهذه المشكلة من وجهة النظر البريطانية، وقد المح في تقريره عن تاريخ العلاقات البريطانية مع قطر وعن شئون «البانيان» وحتى فترة الزيارة التي قام بها ميرزا إلى الدوحة، وقد جاء في تقريره ما يلي (99).

«كنت على أمل كبير بأن ترتيبات مؤقتة على الأقل سوف تنفذ لكن الموقف الذي اتخذه الشيخ قاسم قد أثار استغرابي فلقد كنت على علم بأن اعتراضه ضد «البانيان» ناشئ عن مصالح شخصية فهو تاجر باللؤلؤ ويرغب بنوع من الاحتكار المحلي وكانت عمليات «البانيان» تتدخل فيه، ولذا كان من المتوقع بأنه سوف لا يرضخ فورا ولكن اخراج الهندوس المفاجئ والعنيف في وجه الانذار المنقول إليه كان لا يقل كثيرا عن تحد للحكومة التي هم رعاياها، ويظهر بأنه كان إلى حد ما متأثرا ومشجعا من قبل مستشاري سوء الذين أبلغوه أن الأوربيين قد أخرجوا من مصر وأن اتصاله مع الحكومة العثمانية سيجنبه من النتائج غير السارة، ومع هذا فأننى أفهم أنه أثير ضد السلطة البريطانية بسبب رفض السماح له باحتلال «العديد» وغير ذلك من أمور.

نجد أن المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى يحاول أن يجد المبررات التى من خلالها يمكنه توجيه التهم إلى الوالى الشيخ قاسم، وبغض النظر عن تصرفات الرعايا البريطانيين مع «البانيان» وذلك باعتباره يحتكر تجارة اللؤلؤ محليا وكذلك أنه لا يرغب فى بقاء الأجانب فى بلاده أسوة بمحاولة طرد الأوربيين من مصر، وأنه يعتمد فى تصرفاته على مساندة الحكومة العثمانية وأنه تابع للباب العالى.

كما طالب المقيم السياسى البريطانى من الشيخ قاسم يتعويض قدره خمسون ألف روية وذلك نتيجة للخسارة التى لحقت بالتجار الهنود من جراء التدخل المفاجئ فى تجارتهم واخراجهم من قطر، واعتبر أخذ هذا المبلغ ضروريا باعتباره يمثل الادعاء البريطانى ضد قاسم ثم يقول: «فى معاملتى مع الشيخ قاسم مارست كل صبر واستخدمت كل محاولة نحو المصالحة ولكن الاستمرار على هذه المحاولات سيكون بلا نفع ومجحفا، فهو مصمم بكل قوة على ابقاء التجار الهنود خارج البدع ولم تفد اية مناقشة أو اقتناع فى ثنيه عن ذلك، وقد أبلغ بوضوح أن مثل هذا السلوك سيعتبر غير ودى وأنه سيعتبر مسئولا مباشرة عن التعدى على

حقوق البريطانيين ويمكننى أن أشير هنا إلى أن حق التجار فى الإقامة فى البدع ليس حقاً يمكن التخلي عنه، إنه شىء له أهميته الكبرى فيما يتعلق بالخليج العربى، لقد اعتبر قاسم شيخاً عربياً مستقلاً ضمن منطقة النفوذ البريطانى ولست بحاجة أن أبين بالنقاش كم سيضار نفوذنا العادل إذا سمح لقاسم أن يفعل ما يريد فمن الجائز أن يتخذ غيره من الشيوخ نفس «التكتيك» مما سيضر رعايانا التجار فى الموانئ الأخرى ومرة أخرى إذا كانت البدع معتمدة كإقليم تركى فإن لتجارنا الحق بموجب المعاهدة بالإقامة هناك» (100).

يدلنا هذا على مدى التخوف البريطانى من تصرفات قاسم وخاصة إذا ما أقدم عليها الشيوخ الآخرون فى معاملتهم تجاه الرعايا البريطانيين من الهنود، إضافة إلى أن هذه التصرفات تشكل تحدياً للسلطة والنفوذ البريطانى فى الخليج العربى، ولذا وجد المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى وكذلك حكومة الهند فى سياسة الشيخ قاسم تحدياً لنفوذهم فى المنطقة كما خشوا أن تمتد سياسة اخراج التجار الهنود من قطر إلى بقية المشيخات الأخرى (101)، ولذا فإن المقيم السياسى البريطانى طالب باستخدام القوة ضد الوالى قاسم دون الرجوع إلى السلطة العثمانية ومحاصرة الميناء بالأسطول البريطانى وحدد شهر أكتوبر لتنفيذ طلباته وهى التعويض عن الخسائر والسماح بعودة التجار الهنود إلى قطر وتقديم الاعتذار عن تلك التصرفات.

رفض الوالى قاسم للضغوط البريطانية؛

رفض الوالى قاسم الضغوط والتهديدات البريطانية ولم يستجب لمطالب المقيم السياسى البريطانى الكولونيل «روس» فى حين بدأت الجهات البريطانية مثل وزارة الخارجية وحكومة الهند ووزارة المستعمرات تتدارس الوضع حول مشكلة الرعايا البريطانيين فى قطر، وخاصة بعدما رفض قاسم تلك التهديدات والانذار المعطى له، ولم يبق سوى التصديق على مقترحات المقيم السياسى البريطانى بالعمل العسكرى، وجاء فى التعليمات الصادرة بأنه كان عليهم استعمال القوة فىجب بذل كل ما فى وسعهم لتحاشى التصادم الفعلى مع القوات العثمانية المتواجدة فى قطر ثم الموافقة من قبل وزير الخارجية، ونظراً للظروف التى كانت تمر بها العلاقات البريطانية مع الدولة العثمانية حول شئون مصر جعلت الوقت غير مناسب لاتخاذ أية اجراءات ضد قطر يعتبرها السلطان تعدياً على امتيازاته وأن

موافقة الخارجية جاءت مترددة بسبب الضرورة، وفي 10 أكتوبر طلب من نائب الملك في الهند ألا يتخذ أى إجراء حتى يتلقى معلومات إضافية وطلب منه أن يوضح إلى أى مدى يمكن تأجيل عمليات الاسطول البريطانى، ونظرا لظروف الدولة وخاصة العلاقات البريطانية - العثمانية كان الشيخ قاسم أخذ يخفف من موقفه وكتب رسالة حول ذلك إلى المقيم السياسى البريطانى ولكن موقف الأخير لم يكن إيجابيا، فقد قال حول ذلك:

«إننى اعتبر كتب الشيخ قاسم غير مخلصة وغير صحيحة فى نقاط جوهرية، أنه من الواضح أنه لو كان مدفوعا فقط بالرغبة لتفادى عواقب أى ضرر وقع على التجار الهنود من طرف العرب فإنه قد يعمل بشكل مغاير جدا، كما وأن تأكيدات فى بعض الوجوه كانت تناقض بعضها البعض، وتناقض الحقيقة بما يبرهن بوضوح عدم الاخلاص، ونلاحظ أنه بينما كان يتحجج بأنه كان يخشى أن يصاب «البانيان» بسوء فإنه يتهمهم أيضا بطريقة جافة اتهامات يدل التحقيق الدقيق بأنها لا تستند إلى أساس، وليس فى الكتب الأخيرة من قاسم أية علاقة تدل على الاستعداد لتقديم ترضية جوهرية مقابل سلوكه وأنا متأكد أن ذلك لا يمكن الحصول عليه منه إلا والقوة مهيأة، ولذلك فأننى رغبت فى أن يقوم الوكيل المحلى فى البحرين بأخبار قاسم بأننى تلقيت كتبه العديدة وأن وجهات نظر حكومة الهند بما يتعلق بالأمور المشار إليها سوف تبلغ إليه فى حينه⁽¹⁰²⁾، وفى نفس الوقت كان المقيم السياسى البريطانى قدم بيانا معدلا إلى حكومته بشأن ادعاءات التجار «البانيان» والتي خفضها من 40.759 روبية إلى 27.114 روبية ويشمل هذا على 10000 روبية تعويض عن فقدان كسب كان متوقعا و5.400 روبية عن الفائدة على رأس المال خلال فترة توقف الأعمال التجارية لمدة أربعة أشهر ونصف و6.45 روبية على مبالغ الديون المعلنة من أشخاص متخلفين.

تغير السياسة البريطانية من التهديد إلى التفاهم بالطرق السلمية:

برغم تحذير المقيم السياسى البريطانى الواضح من الرعايا البريطانيين من الهنود، إلا أن الحكومة البريطانية لم تشأ أن تتورط فى قطر أو أن تقف ضد الشيخ قاسم وإنما طالب المقيم السياسى البريطانى بأن يحل هذه المشكلة بالتفاهم والطرق السلمية مع الوالى قاسم، وقد جاء فى المذكرة التى بعث بها نائب الملك فى الهند إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى قوله:

«أمرت أن أضيف بأن فخامته راغب في عدم توريط الحكومة البريطانية في دعم كامل لكافة الادعاءات التي يقدمها «البانيان» أنه قبيح جدا ان يكون باستطاعة طبقة من الناس تقديم طلبات غير معتدلة وكسب امتياز بصفتهم رعايا بريطانيين، وهم بالطبع يستحقون الحماية وتعويضا معقولا عندما يمارس ضدهم ضغط أو سوء معاملة، ولكن حتى في المناطق البريطانية لا تقوم المحاكم العدلية بالزام ادعاءات مثل هؤلاء الناس بصورة كاملة أو لشيء متوقع، عندما يختارون من أجل الكسب الواسع ان يتحملوا المخاطر التي تلازم بحكم الضرورة الأعمال التجارية في بلاد غير متمدنه فليس من المرغوب فيه ان يمنح لهم دعم الحكومة البريطانية بلا تحفظ أو بدون دراسة ادعاءاتهم دراسة مستفيضة في خلافاتهم مع الحكام الأجانب، إن الحاكم العام في مجلسه لا يشك في أنكم تدركون عدل هذا الرأي وإنكم سوف تتمكنون من تجنب أي مظهر من مظاهر التمييز في معاملة قاسم بن ثاني أو في التدخل بحقوقه، وعلى أن أشير في الختام إلى أن الوضع الحالي قد يتيح لكم فرصة توطيد تفاهم مع الشيخ» (103).

كما سبق يتبين إن الحكومة البريطانية وحكومة الهند لم توافق على اقتراح روس باستخدام القوة وبضرورة دفع الشيخ قاسم تعويض مالي كغرامة قيمتها 40 ألف روبية وخفضها إلى 8 آلاف روبية فقط (104)، وعلى ضوء هذه التعليمات بحسن المعاملة مع الوالي العثماني في قطر، أرسل المقيم السياسي البريطاني «روس» كتابا إلى الشيخ قاسم جاء فيه بأنه:

«في وضع هذه المطالب بوسعي أن أؤكد لكم أن الحكومة البريطانية إنما هي مدفوعة بنيتها في تأكيد حقوق رعاياها العادلة وهي في نفس الوقت راغبة بأن العلاقات الودية السائدة بين أسلافهم والحكومة سوف تستمر ولكن على أيضا أن أؤكد لكم بأن مقررات الحكومة التي هي معتدلة وعادلة إنما هي حازمة وأن أي تجنب أو رفض لهذه المطالب سيؤدي إلى عواقب مؤسفة. ولقد كانت غايتي الدائمة ومحاولتي أن أقرب صلات الصداقه بيننا بفضل ما أحمله من احترام لوالدكم وكذلك للصداقة الشخصية الموطدة بيننا عندما زرت معسكركم في «الزبارة»، تلك الصداقة التي كنت راغبا في تحسينها إلا أنكم تتذكرون أنه منذ عدة شهور مضت كنت أخبرتكم أن سوء معاملة وطردهم الرعايا البريطانيين الهنود من بلادكم يعتبر عملا منافيا للعلاقات الودية وذلك بأن التجار البريطانيين في بلاد

الحكومات الصديقة كافة فى جميع أنحاء العالم يسمح لهم بالذهاب والإياب والمتاجرة وينالون الحماية اللازمة ولقد أرسلت وكيلا ليوضح كل هذا شخصيا لكم وقد استغربت جداً أعلم بأنكم لم تلفتوا لاندارى وعاملتم وكيلى بدون لباقة وإذا كان «البانيان» يتدخلون بمعاملاتكم التجارية فيجب أن تتوقعوا من الحكومة البريطانية أن تعتبر هذا تعذراً لطردهم أو رفض ادخالهم، إذ أن الحكومة تعتبركم شيخاً وحاكماً وليس تاجراً. وسوف لا تعترض على أية نفقات معقولة لحماية «البانيان» ولكن يجب أن تكون مقرونة بموافقتى وليست عرضة لزيادة بدون موافقتى» (105).

حمل الوكيل البريطانى أغا محمد عبدالرحيم، هذه الرسالة من المقيم البريطانى فى الخليج العربى إلى الشيخ قاسم وهو معروف لديه ويحمل تعليمات لتوضيح تفاصيل المطالب المالية التى خفضت لمبلغ 8490 ولا تتضمن سوى الادعاءات عن الخسائر المالية المباشرة والفعلية فقط والتى تكبدها التجار «البانيان» من الهنود، وبعد عدة محادثات بين الطرفين أسفرت عن موافقة الشيخ قاسم بتقديم اعتذار كما أبدى رغبته فى عودة التجار الهنود وإن كان ذلك بشروط غير مرغوب فيها، ولكنه رفض دفع تعويض ما لم يعد التجار الهنود ويثبتوا ادعاءهم، أما بخصوص تهديدات المقيم السياسى البريطانى فإن هناك رأيين للشيخ قاسم، فالأول يقول بأنه قال: «إذا استعمل الضغط والقوة ضدى سأضطر أركب مع عشرة آلاف رجل وأن أذهب إلى البحرين، وعلق الوكيل قائلاً: لقد حلمت بأنك أصبحت عرابى باشا الثانى، فأجاب الشيخ قاسم «أننى عرابيين اثنين» (106) ورفض الاجتماع.

أما رأى الثانى فيقول أنه اثناء المناقشة قال الشيخ قاسم للوكيل البريطانى أغا محمد «أنه إذا كان هناك ضغط واستخدام قوة من جانب البريطانيين فسوف يجمع رجاله ويقاتل، قال أغا محمد عبدالرحيم: هل تحلم أنك عرابى باشا الثانى؟ قال قاسم: نعم أنا عرابى الثانى» وترك المجلس وذهب (107) وقد يكون الحديثان صحيحان وخاصة الثانى، نظراً لأنهما أخذاً من المصادر والوثائق البريطانية نقلاً عن المراسلات الرسمية التى جرت بين الجهات الرسمية البريطانية.

على أية حال يمكن القول أن الشيخ قاسم رفض عودة «البانيان» إلى الدوحة وتسوية حقوقهم حسب الأصول بعد تلك المناقشة والذى فشل أغا محمد

فى مهمته، ومن ثم توجه إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى وأبلغه ما جرى فى تلك المحادثات ثم أرسل الكولنيل «روس» المقيم السياسى البريطانى كتابا إلى قاسم مصوغا بلغة استرضائية ولكنه يصر على دفع التعويض المطلوب فوراً وعلى ضمان معاملة ودية ولطيفة لتجار الهنود فى المستقبل.

المفاوضات البريطانية مع الوالى العثمانى الشيخ قاسم:

عندما يثس المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى، قرر أن يذهب بنفسه لإنهاء هذه المشكلة مع الشيخ قاسم وعرض عليه أن يقدم اعتذارا للحكومة البريطانية وأن يدفع التعويض للتجار الهنود البريطانيين ويسمح لهم بالعودة للاستقرار فى الدوحة⁽¹⁰⁸⁾. وعندما وصل إلى الدوحة فى أول نوفمبر 1882، مع قطع الأسطول البريطانى، فإذا به يفاجأ بطلب من الوالى قاسم لمقابلته على الشاطئ ويقول المقيم السياسى البريطانى الكولونيل «روس» أن من عادة الشيخ قاسم أنه إذا لم يعجبه الحديث فإنه يمتطى ناقته ويذهب، ومع ذلك فإنه قرر النزول إلى الشاطئ لمقابلة الشيخ علما بأن جميع الشيوخ والأمراء فى الخليج العربى كانوا يأتون إلى المقيم السياسى البريطانى ويقابلونه على ظهر السفن البريطانية إلا الشيخ قاسم فإنه كان يرفض الذهاب إلى السفن البريطانية ويفضل أن يجتمع معهم على أرضه وفى منزله ويقول حول هذا «لقد كان من عادة شيوخ المدن أن يزوروا المقيم السياسى وهو على ظهر السفينة ولكننى كنت متأكداً أن طبيعة الشيخ قاسم المشحونة بالشك سوف لاتسمح بمجيئه إلى ظهر السفينة»⁽¹⁰⁹⁾.

من المعروف أن الشيخ قاسم قد اشتهر بشخصية فذة وروح صلبة فى الإصرار على تحقيق أهدافه والحفاظ على استقلاله أمام الصراعات الدولية والمحلية إضافة إلى تلقى علومه على أيدي رجال الدين وتفقه حتى وصل إلى مرتبة القضاء والحكم بين الناس بالعدل⁽¹¹⁰⁾، ولهذا يمكننا أن نعتبر تعليل المقيم السياسى البريطانى خاطئاً بأن الشيخ يشك فى نوايا البريطانيين وعلى العكس من ذلك أنه كان معترا بنفسه ويرفض الخضوع للبريطانيين المسيحيين المستعمرين ولا يخاف من تهديداتهم، وهذا ما نجد فى سلوكه وفى تصرفاته تجاه البريطانيين، وقد يكون لوجود الحاميات العسكرية العثمانية فى قطر، دور كبير فى تصرفاته وثقته بهم إذا ما أرادت بريطانيا إنزال قواتها لاحتلال البدع، كما أنه لم يكن تابعا لبريطانيا أو من ضمن الشيوخ الموقعين على معاهدات الحماية والاتفاقيات العسكرية، بل كان

تابعاً للدولة العثمانية، إضافة إلى ذلك فإنه لا يمكنه الاطمئنان لبريطانيا أو أى استعمار فى نواياهم الخفية.

بعد نزول الكولونيل «روس» المقيم السياسى البريطانى ويرافقه كل من الكابتن «نیشام» ومستر «أ. ر. حكيم خان بهادر»، إلى الشاطئ لمقابلة الشيخ قاسم جرت محادثات بين الجانبين البريطانى والقطرى، ويصف لنا المقيم السياسى البريطانى عما دار فى المحادثات وطبيعتها بقوله:

«فتوجهنا إلى منزل قاسم فاستقبلنا بأدب وود ظاهرين ثم بدأ بعض المحادثة حول مواضيع عامة فضضنا الاجتماع إلى غرفة علوية ودخلنا فى موضوع الشكاوى ضد الشيخ، وسألنى إن كان لدى الصبر لسماع كل ما يريد قوله فأخبرته إن هذا هو رغبتى وقصدى، فقال إنه بعد سماع شرحه سينفذ ما أقرره أنا، ولم يكن فى بيانه ما من شأنه أن يلقي الضوء على سلوكه أكثر من هذا، وكرر تأكيدات أنه لم يطرد «البانيان» طرداً عاجلاً ولم يكن بأية وسيلة مسئولاً عن خسائرهم، وبعد سماع ما كان لديه ليقول، أخبرته أننى لا أرى سبباً لتغيير رأى بالنسبة إلى لومه وأملت بأنه سوف يسوى الأمر بطريقة ودية ويدفع التعويض المعتدل المطلوب وبعد أن وجدت بأنه عنيد جداً حول هذه النقطة قلت أننى آسف جداً ولكن حيث أنه لا يوجد شىء آخر نقوله فأننا نستأذن بالذهاب ثم طلب منى الشيخ قاسم الانتظار حتى تتم الصلاة ويسمع إلى ما سيقوله وزيره محمد بن عبدالوهاب الفيحانى وكان هذا الشخص مستشاراً سيئاً لقاسم وهو المسئول جزئياً عن عدم الرضا الذى حل فيما بعد، وكان قد اقترح شروطاً مخفضة جداً، ذهبت أنا مع الكابتن «نیشام» إلى ظهر السفينة تاركين المساعد المحلى والمستشار مع قاسم، وفى مساء ذلك اليوم قدم محمد بن عبدالوهاب وبعد بعض المناقشة عرض دفع 2000 روبية كعربون فى صباح اليوم التالى وطلب ضمانه كافية بأننى ساقبل بهذه الترتيبات، وقد أفهمته بوضوح أنه ما لم يحضر الدراهم إلى ظهر السفينة فى الوقت المحدد فأننى سأعود إلى المطالبة بدفع كامل المبلغ نقداً» (111).

حصل المقيم السياسى البريطانى بعد ذلك على مبلغ 8 آلاف روبية (112) من الشيخ قاسم حسب الموعد الذى حدده وزيره محمد بن عبدالوهاب الفيحانى وكان قد عمل مستشاراً لمحمد بن ثانى فى شئون اللؤلؤ وكاتباً لديوانه وأقام فى بلد «الغارية» وهى كانت من بين أقوى قرى قطر فى ذلك الوقت (113).

الاحتجاج العثماني على التصرفات البريطانية في قطر:

بمجرد أن عرفت الدولة العثمانية عن تحصيل المبالغ المالية من الوالي قاسم قائم مقام قطر من جانب الأسطول البريطاني في البدع تقدمت باحتجاج رسمي إلى السفير البريطاني في استنبول ورفعت مذكرة أخرى إلى الحكومة البريطانية نفسها جاء فيها أن المقيم السياسي البريطاني في إقليم فارس الإيراني قد زار قطر ومعه بارجتان وأكره الوالي العثماني هناك على دفع ثمانية آلاف روبية تحت طائلة التهديد بقصف بلده بمدافع البحر إذا هو رفض الدفع⁽¹¹⁴⁾، وكانت التعليمات الصادرة للسفير البريطاني في استنبول بأن يحاول في البداية أن يتهرب ويرaug من مناقشة هذا الموضوع، وإذا تعذر ذلك فعليه أن يذكر بوضوح أن الحكومة البريطانية لا تعترف للباب العالي بأي سيادة على قطر⁽¹¹⁵⁾.

كتب اللورد «جرانفيل» مذكرة في 7 مايو 1883 إلى «موسوروس باشا» جاء فيها بأن الحكومة البريطانية لم تعترف بالحقوق العثمانية في قطر، مما أدى ذلك إلى تقديم الاحتجاج من قبل السفير العثماني في لندن ورد عليه اللورد «جرانفيل» في 22 سبتمبر 1883 بأن الحكومة البريطانية لا تستطيع الموافقة على آراء الباب العالي في هذا الموضوع وهي مستعدة أن تتنازل عن الحقوق التي عدم خلال فترات تخللت سنوات طويلة من الاتصال المباشر مع الشيوخ العرب على الساحل القطري كلما دعت الضرورة لصيانة السلام البحري أو لتحصيل تعويضات عن الحوادث التي تقع ضد الرعايا البريطانيين أو على الأشخاص المشمولين بالحماية البريطانية⁽¹¹⁶⁾، وهذا يدل على إصرار بريطانيا على ممارسة الاعتراف بالحقوق العربية أو حقوق الدولة العثمانية في قطر أو الاحساء.

احتج وشكا الشيخ قاسم من التصرفات البريطانية ونقل ما حدث إلى السلطات العثمانية، وخاصة متصرف الاحساء، ووالي البصرة والطريقة التي عومل بها على يد المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي وهدد بالاستقالة من منصبه كقائم مقام قطر إذا لم يرجع المبلغ الذي دفعه كتعويض للتجار الهنود، كما كتب إلى قاسم مذكرة حول هذا الموضوع إلى شيخ البحرين والذي قام بتحويل خطابه إلى المقيم السياسي البريطاني والذي طلب من شيخ البحرين بأن يخبر الشيخ قاسم بأنه مادام قد كف عن التدخل في شئون الرعايا البريطانيين فالسلطات ترغب رغبة كاملة في أن تكون على وفاق معه في حين كانت حكومة الهند ترى بأن السلطات

العثمانية في الاحساء وبغداد لاتوافقه على اجراءات الشيخ قاسم في طرد «البانيان» (117) ولذلك فاجأت بالاحتجاج العثماني وموقف الباب العالي من التصرفات البريطانية ضد القائمقام العثماني في قطر.

ظل الشيخ قاسم يصبر على التمسك بالقول والفعل بأن قطر تابعة للحكومة العثمانية وأن على الحكومة البريطانية بالتالي أن تتعامل في شئون قطر مع حكام الدولة العثمانية وليس معه، فهو لا يعدو أن يكون مجرد تاجر يرى أن يظل على أحسن أحوال الصداقة مع البريطانيين في شئونه الخاصة فقط، (118) ويقول المقيم السياسي البريطاني عن قاسم بأنه لم يتوقف أبدا عن استجلاب كراهية البريطانيين وبعض رعاياهم في قطر وربما كان في الواقع العامل الحقيقي وراء الكثير من أعمال التعديات على التجار «البانيان» من الهنود البريطانيين في قطر (119)، ولم تتطور هذه المسألة إلى حد كبير نظرا لوجود المشاكل والقضايا الدولية وخاصة العلاقة بين بريطانيا والباب العالي في تلك الفترة.

عودة الرعايا البريطانيين من التجار «البانيان» وظهور بعض المشاكل:

رجع بعد اتفاقية 1882 خمسة من التجار الهنود «البانيان» من رعايا البريطانيين الذين كانوا قد طردوا من قبل والى الدوحة ولكن عودتهم وإقامتهم ظلت غير مرغوب فيها بسبب تصرفاتهم غير اللائقة، وفي عام 1886 كان الشيخ قاسم قد انتقل من الدوحة إلى «العديد» وبعدها مباشرة هاجم رجال من قبائل بني هاجر بعض التجار من الهنود «البانيان» وجرحوا منهم اثنين جراحا غير خطيرة مما أرسل المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي مساعده خان بهادر عبدالرحمن حكيم، لبحث الحادثة، ورفع تقارير جاء فيها بأن الهدف من وراء ذلك هو إرغام التجار الهنود على مغادرة الدوحة والخلاص من تصرفاتهم، وكما ذكر المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بأن الشيخ قاسم أنكر بشدة اشتراكه في هذه الحادثة وأبدى اعتذاره لوقوعها (120).

وقعت في العام التالي أي عام 1887 بعض الاضطرابات في الدوحة وفي البداية قام أقارب الشيخ قاسم بحماية التجار «البانيان» من الهنود ولكن في أول أغسطس هاجم بعض الرجال تاجرين هنديين وأصابوهما ببعض الجراح، مما أدى إلى غضب المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي وطلب بترحيل التجار

البانيان من الرعايا البريطانيين من الدوحة على ظهر السفينة «اوزيري» التي نقلتهم إلى البحرين، واعتبر المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى الشيخ قاسم هو المسئول عن هذه الحادثة وطلب من حكومته ممارسة ضغطها على الشيخ قاسم فحمله على دفع التعويض عن الجراح والخسائر التي أصيب بها التجار الهنود وأن يضاف إلى ذلك غرامة تفرض على الشيخ قاسم (121).

ولكى يرغم قاسم على دفع التعويضات اللازمة، طلب المقيم السياسى البريطانى من شيخ البحرين مصادرة أموال قاسم واستثماراته فى البحرين وفرض الحظر عليها وخاصة على البهارات واللالئ الخاصة بالشيخ قاسم والبالغة قيمتها الاجمالية عشرين ألف روبية ثم أرسل المقيم السياسى البريطانى مذكرة إلى حكومة الهند فى 23 أغسطس، أكد فيها بإلقاء المسئولية على عاتق الشيخ قاسم وفى صدد علاقة شيخ البحرين بأموال قاسم فإنه أشار بقوله: وإذا أقرت الحكومة (الهندية) اقتراحى بالزام الشيخ قاسم بالتعويض فإن أمواله الموضوعة تحت اليد قد تلغى الحاجة إلى اللجوء للقوات البحرية، أما لو رفضتم توصيتى فيمكن أن نرد أموال قاسم تلك إلى وكيله» (122).

نتيجة لحجز بريطانيا أموال الشيخ قاسم فى البحرين فإن الأخير اضطر لدفع مبلغ 6.390 روبية تعويضا عن الخسارة للتجار «البانيان» وكان قائد القوات العثمانية فى الاحساء قد وصل إلى الدوحة لدى سماعه تلك الأخبار ومعه فرقة من الحرس لمساعدة الوالى قاسم ثم عقد عدة مفاوضات وجلسات معه حول تلك الأحداث، فى حين كان قد تقدم الشيخ قاسم بشكوى إلى الباب العالى ضد التصرفات البريطانية تجاهه، كما تقدم إلى والى البصرة، وبغداد شاكيا لهما أنه قد جرد من أمواله جميعا فى البحرين، وهنا قام متصرف الاحساء بتقديم خطاب إلى شيخ البحرين يطلب فيها إعادة جميع الأموال إلى الشيخ قاسم والتي تم مصادرتها كما تم توجيه احتجاج للسفير البريطانى فى استانبول حول تصرفات المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى تجاه قاسم (123).

يمكن القول بأن الوالى قاسم استطاع أن يحافظ على قطر من التدخل البريطانى حيث أنها اتخذت من مشكلة التجار الهنود ذريعة لكى تتدخل فى الشؤون القطرية، والوقوف فى وجه أطماعها بكل قوة رغم أن الدولة العثمانية كانت تمر فى هذه الفترة بظروف صعبة، ولم تكن فى استطاعتها مواجهة بريطانيا

فى مفاة الخلفف العربى؁ هفث كانت قطر تشكف فافزا بفسن مناطق نفوذ برفطانفا فى مفاة الخلفف العربى وفجزره بما فىفا البحرفن ومشففخاف ساحل عمان وعمان وامفداد النفوذ العفثمانى من العراق إلى الكوفف وففجف والاحساء فى قطر فى شرق الففزفرة العربفة.

لذا كان موقف الشفخ قاسم دفققا وحساسا فى قطر ولكنف اسفطاع أن فوفر الأمن والاستقرار للمفجمع القطرى وأمكنف أن فوفر لهم مزافا عملهم المفجهد فى صفد اللؤلؤ؁ والحفاظ علفها من الفجار الففود والأطماع البرفطانية من ورائهم؁ ولم فسفطع برفطانفا أن ففجف لها موطأ قدم فى قطر اثناء فففرة ففكم الوالى الشفخ قاسم؁ كما لا ننسى الداعم العفثمانى ولو لم فكن حسب ما هو المطلوب نظرا لظروف الدولة العفثمانفة الفف كانت تمر بها فى ففلك الفففرة؁ ولكن مفجود وفجود الحامفاف العسكرففة العفثمانفة فى قطر إفضافة إلى الداعم المعنوى من السلطان عبفالحمفد للشفخ قاسم كان له أبعد الأثر فى ففضافر كل ففلك العوامل معا فى ففجل الففاة الاففماعفة فى قطر فى ففلك الفففرة أكثر اسفقرارا وهدفوفا.

الهوامش:

- 1 - 6 - Qatar Government Publication - Qatar P. 6
- 2 - ج. ج. لوريمر - دليل الخليج الجغرافى ج 6 ص 1942.
- 3 - 7 - Qatar Government Publication P. 7
- 4 - يوسف عبدالرحمن الخليفى - النهضة البهية فى الآداب والعادات القطرية ص 24.
- 5 - د. فتوح الخترشى ود. عبدالعزيز المنصور - مصادر تاريخ قطر ص 101 مكتبة وزارة الهند وسجلات الزيارة - سرى - 1888م، B49، .
- 6 - محمد أحمد عبدالرزاق غنيم - التضرع فى المجتمع القطرى ص 71.
- 7 - ج. ج. لوريمر - المرجع السابق ج 3 ص 627.
- 8 - محمد أحمد عبدالرزاق غنيم - المرجع السابق ص 80.
- 9 - محمد عبدالرحيم قاعود - الأدب القطرى الحديث ص 19.
- 10 - محمد أحمد عبدالرزاق غنيم - المرجع السابق ص 80.
- 11 - 7 - Qatar Government Pubication P. 7
- 12 - ج. ج. لوريمر - المرجع السابق ج 7 ص 2556.
- 13 - محمد عبدالرحيم قاعود - المرجع السابق ص 20.
- 14 - أحمد على المنصور وسليمان محمد - المجتمع القطرى - ص 24.
- 15 - محمد عبدالرحيم قاعود - المرجع السابق ص 34.
- 16 - وزارة المعارف - نهضة قطر ص 22.
- 17 - محمد عبدالرحيم قاعود - المرجع السابق ص 37.
- 18 - وزارة المعارف - المرجع السابق ص 22.
- 19 - المرجع السابق، نفس الصفحة.
- 20 - يوسف عبدالرحيم الخليفى - المرجع السابق ص 29.
- 21 - ج. ج. لوريمر - المرجع السابق ج 6 ص 1987.
- 22 - ج. ج. لوريمر - نفس المرجع ج 2 ص 631.
- 23 - ج. ج. لوريمر - نفس المرجع ج 7 ص 2551.
- 24 - جهينة سلطان سيف العيسى - المجتمع القطرى - ص 43.
- 25 - د. جهينة سلطان سيف العيسى - المجتمع القطرى - ص 43.
- 26 - ج. ج. لوريمر - المرجع السابق - ج 4 ص 1624.
- 27 - د. جهينة سلطان العيسى - المرجع السابق ص 46.
- 28 - ج. ج. لوريمر - المرجع السابق ج 4 ص 1394.

- 29 - محمد عبدالرحيم قاعود - المرجع السابق ص 30.
- 30 - د. خالد العزى - الخليج العربى فى ماضيه وحاضره ص 162.
- 31 - ج.ج. لوريمر - المرجع السابق ج 4 ص 1394.
- 32 - ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 4 ص 1345.
- 33 - ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 4 ص 1474.
- 34 - ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 5 ص 1719.
- 35 - ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 2 ص 786.
- 36 - ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 7 ص 2405.
- 37 - ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 1 ص 66.
- 38 - ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 1 ص 88.
- 39 - ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 3 ص 1284.
- 40 - ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 7 ص 2407.
- 41 - ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 4 ص 1408.
- 42 - د. مصطفى أبو حاكمه - تاريخ شرقى الجزيرة العربية ص 96.
- 43 - مذكرة بقلم أ. و. مورا 1879/9/1 - خطاب سرى من الهند رقم 127 بتاريخ 22 مايو 1879 د. فتوح الخترش، د. عبدالعزيز المنصور - المرجع السابق ص 14.
- 44 - د. مصطفى أبو حاكمه - المرجع السابق ص 98.
- 45 - ج.ج. لوريمر - دليل الخليج - القسم التاريخى ج 3 ص 1214.
- 46 - ج.ج. لوريمر - المرجع السابق ج 3 ص 1215.
- 47 - يوسف محمد عبيدان - المؤسسات السياسية فى دولة قطر ص 40.
- 48 - د. فتوح الخترشى وعبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 101.
- 49 - د. صلاح العقاد - التيارات السياسية فى الخليج العربى ص 178.
- 50 - ج.ج. لوريمر - المرجع السابق ج 3 ص 1230.
- 51 - د. صلاح العقاد - مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ص 931.
- 52 - د. محمود على الدؤاد - الخليج العربى والعلاقات الدولية ص 24.
- 53 - جى بى كىلى - الحدود الشرقية للجزيرة العربية ص 142.
- 54 - فالح حنظل - المفصل فى تاريخ الإمارات الجزء الثانى ص 632.
- 55 - جى بى كىلى - المرجع السابق ص 138.
- 56 - فالح حنظل - المرجع السابق ص 632.
- 57 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور نشوء قطر وتطورها ص 54.

- 58 - د. صلاح العقاد - المرجع السابق ص 931.
- 59 - د. صلاح العقاد - نفس المرجع ص 932.
- 60 - د. خالد العزى - المرجع السابق ص 160.
- 61 - د. جمال زكريا قاسم - تاريخ امارات الخليج 1914 - 1945 ص 269.
- 62 - د. محمود على الداود - المرجع السابق ص 25.
- 63 - د. محمود على الداود - نفس المرجع ص 24.
- 64 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور مصادر تاريخ قطر ص 14.
- 65 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور نفس المرجع ص 102.
- 66 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور نفس المرجع ص 102.
- 67 - د. عبدالعزيز المنصور - التطور السياسى لقطر فى الفترة ما بين 1868 - 1916 ص 92.
- 68 - د. عبدالعزيز المنصور - نفس المرجع ص 92.
- 69 - د. عبدالعزيز المنصور - نفس المرجع ص 93.
- 70 - د. عبدالعزيز المنصور - نفس المرجع ص 93.
- 71 - د. عبدالعزيز المنصور - نفس المرجع ص 94.
- 72 - د. فتوح الخترشى ، د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 16.
- 73 - ج.ج. لوريمر - المرجع السابق ج 3 ص 1227.
- 74 - ج.ج. لوريمر - المرجع السابق ص 95.
- 75 - ج.ج. لوريمر - المرجع السابق - ج 3 ص 1227.
- 76 - د. محمد مرسى - مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ص 730.
- 77 - د. عبدالعزيز المنصور - المرجع السابق ص 95.
- 78 - جى . أى . سالدانا - الشؤون القطرية ص 58.
- 79 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 79.
- 80 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 89.
- 81 - د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 730.
- 82 - د. محمد مرسى - نفس المرجع ص 730.
- 83 - جى أى - سالدانا - المرجع السابق ص 62.
- 84 - د. عبدالعزيز المنصور - المرجع السابق ص 95.
- 85 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 91.
- 86 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 91.
- 87 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 29.

- 88 - يوسف عبدالرحمن الخليفى - المرجع السابق ص 29.
- 89 - د. عبدالعزيز المنصور - المرجع السابق ص 96.
- 90 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 95.
- 91 - جى. أى. سالدانا - المرجع السابق ص 116.
- 92 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 87 - 88.
- 93 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 88.
- 94 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 89.
- 95 - د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 730.
- 96 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 79.
- 97 - د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 731.
- 98 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 89.
- 99 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 91.
- 100 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 91.
- 101 - د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 730.
- 102 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 94.
- 103 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 95.
- 104 - د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 731.
- 105 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 97.
- 106 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 98.
- 107 - د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 731.
- 108 - د. عبدالعزيز المنصور - المرجع السابق ص 96.
- 109 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 98.
- 110 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 91.
- 111 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 91.
- 112 - د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 730.
- 113 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 94.
- 114 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 95.
- 115 - د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 731.
- 116 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 97.
- 117 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 98.

- 118 - د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 731.
- 119 - د. عبدالعزيز المنصور - المرجع السابق ص 96.
- 120 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 98.
- 121 - د. محمد جابر الأنصارى - تراث قطر ص 9.
- 122 - د. فتوح الخترشى - د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 94.
- 123 - د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 731.

المراجع والمصادر:

أولاً: المراجع العربية:

- 1 - أحمد على المنصور - سليمان محمد الشناوى - أحمد على الطوخى - المجتمع القطرى - وزارة المعارف - الدوحة 1968.
- 2 - جى . بى . كىلى - الحدود الشرقية للجزيرة العربية - منشورات دار الحياة - بيروت 1971.
- 3 - ج.ج. لوريمر - دليل الخليج - القسم الجغرافى والتاريخى - طبعة جديدة معدلة - الدوحة.
- 4 - جى . أى . سالدانا - الشئون القطرية - لجنة كتابة تاريخ قطر - الدوحة 1976.
- 5 - جمال زكريا قاسم - (دكتور) - الخليج العربى - دراسة لتاريخ الامارات العربية 1914 - 1945 الطبعة الاولى - القاهرة 1973.
- 6 - جهينة سلطان سيف العيسى (دكتورة) المجتمع القطرى - القاهرة 1982.
- 7 - خالد العزى (دكتور) - الخليج العربى فى ماضيه وحاضره - بغداد 1972.
- 8 - لجنة تدوين تاريخ قطر - البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية الدوحة - 1976.
- 9 - محمد أحمد عبدالراق غنيم - التحضر فى المجتمع القطرى - الاسكندرية 1983.
- 10 - محمد جابر الأنصارى - (دكتور) - تراث قطر وثقافته المعاصرة - وزارة الاعلام القطرية - الدوحة 1980.
- 11 - محمد عبدالرحيم قاعود - الأدب القطرى الحديث - القاهرة - 1979.
- 12 - محمد على الداود (دكتور) الخليج العربى والعلاقات الدولية، معهد البحوث والدراسات - القاهرة
- 13 - فتوح الخترشى (دكتور) عبدالعزيز المنصور (دكتور) مصادر تاريخ قطر - الطبعة الثانية - ذات السلاسل - الكويت 1984.

- 14 - فتوح الخترشى (دكتور) - د. عبدالعزيز المنصور (دكتور) - نشوء قطر تطورها - ذات السلاسل - الكويت 1977.
- 15 - فالح حنظل - المفصل فى تاريخ الامارات - جزئين - لجنة التراث والتاريخ أبوظبى 1983.
- 16 - عبدالعزيز المنصور - (دكتور) - التطور السياسى لقطر فى الفترة ما بين 1868 - 1916 - ذات السلاسل - الكويت - 1980.
- 17 - وزارة المعارف - نهضة قطر - الدوحة - 1962.
- 18 - يوسف محمد عبيدان - المؤسسات السياسية فى دولة قطر - وزارة الاعلام - الدوحة 1979.
- 19 - يوسف عبدالرحمن الخليفى - التحفة البهية فى الآداب والعادات القطرية - الدوحة 1980.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- 1 - Qatar Government Publication - Qatar ` London 1968.

الفصل السادس



الحياة الفكرية في شرق الجزيرة العربية في العهد العثماني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

قدم هذا البحث ونشر ضمن أعمال - المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية عن الحياة الفكرية في الولايات العربية في العهد العثماني - مركز الدراسات والبحوث العثمانية - حمامات في 15 - 20 مارس 1988 -

تونس.

مقدمة

كانت الحياة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية من أبرز سمات عصر النهضة الفكرية التى بدأت فى المنطقة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وبالرغم من أن أبناء المنطقة لم يكونوا بعيدين عنها فى التاريخ الحديث، إلا أن فترة الحكم العثماني بعد مجيء مدحت باشا إلى المنطقة، إضافة إلى العوامل البيئية المحلية والنشاط التجارى والجذور التاريخية للفكر والأدب العربى لدى أبناء المنطقة كل ذلك لعب دورا مهما فى إحياء الفكر فى شرق الجزيرة العربية فى هذه الفترة .

وتبدأ الدراسة بالبحث عن الأسس التاريخية للسيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية، ثم عن أثر البيئة فى الحياة الفكرية، وتدور حول ثلاثة عناصر رئيسية كان لها دور رئيسى فى تطور الفكر، وهى: المساجد ودور الوعظ والأربطة، والكتاتيب، والمجالس، والديوانيات ثم قيام بعض المدارس . وبعد ذلك تناولت الأعمال الفكرية من النثر والشعر النبطى والفصيح والتأليف، ثم تطرقت إلى بعض رواد الفكر، الذين كان لهم بصمات واضحة فى الحياة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية مع بعض أعمالهم .

السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية:

ترجع السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية، إلى النصف الثاني من القرن السادس عشر، عندما قام بعض قواد البحرية العثمانية خلال صراعهم ضد البرتغاليين بمحاولة فرض السيادة⁽¹⁾، وبالرغم من سيطرة العثمانيين على مقاطعة الاحساء عام 1670، إلا أنهم انسحبوا منها عسكرياً، بعدما جعلوا شيوخ قبيلة آل حميد من بنى خالد يحكمون الاحساء اسمياً من قبل الباب العالي ولم تحاول الدولة العثمانية أن تجبى الضرائب، كما لم تقم بمساندة باشواتها الأربعة الذين تداولوا حكم الاحساء بأي دعم عسكري أو مادي، في حين كان النفوذ العثماني ملموساً أكثر في الشمال الشرقي من الجزيرة العربية، عندما ارتبطت الكويت بالدولة العثمانية بعلاقة من التبعية، أما البحرين ومشيخات ساحل عمان وعمان في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية، فقد شكلت منطقة نفوذ بريطانية مرتبطة بالمعاهدات التي أبرمتها مع تلك المشيخات دون الرجوع إلى الدولة العثمانية، وبالرغم من ذلك قد ظهرت السيادة العثمانية واضحة في البحرين وإن كانت مؤقتة ولفترة قصيرة في ظروف معينة، ويبدو أن حكام البحرين أنفسهم لم يمانعوا في إعلان تبعيتهم للدولة العثمانية لمواجهة الضغوط البريطانية⁽²⁾.

أرسل مدحت باشا في أوائل شهر مايو، حملة بحرية من ميناء البصرة باتجاه الاحساء، تضم ست سفن حربية ثم أضيفت سفيتان إلى الأسطول، وكانت معظم سفن النقل والإمداد من الكويت بقيادة شيخها، وقدر عدد السفن بثلاثمائة سفينة، واصطحبت القوات العثمانية السيد محمد سعيد «ابن نقيب» البصرة، ومنصور شيخ قبيلة «المنتفق» وغيرهم من وجهاء واعيان العرب في جنوب العراق⁽³⁾. وضمت الحملة أربعة آلاف من الجند النظاميين وألف وخمسمائة من المقاتلين العرب⁽⁴⁾.

وصلت تلك الحملة العثمانية بقيادة نافذ باشا متصرف البصرة إلى «رأس التنورة» في 26 مايو عام 1871، واعادت الاحساء إلى السلطة العثمانية المباشرة⁽⁵⁾، كما وصلت حملة عثمانية أخرى صغيرة في يوليو من عام 1871 بقيادة حاكم الكويت عبدالله الصباح، إلى الدوحة عاصمة قطر، بدعوة من

شيخها قاسم بن ثاني، الذي طلبها من نافذ باشا في الاحساء، وكان حاكم الكويت يحمل معه أربع رايات عثمانية ورسالة من نافذ باشا إلى قاسم بن ثاني⁽⁶⁾.

تطور الحياة الفكرية:

تعتبر الفترة من 1871 - 1913، فترة انتقالية من مرحلة الجمود إلى مرحلة عصر النهضة، الذي بدأ بعد الحرب العالمية الأولى، ولذا تعتبر هذه الفترة الانتقالية مهمة، حيث كانت البداية الأولى للحياة الفكرية، وبرز فيها بعض الرواد الأوائل. أما عن تأخر الحياة الفكرية في نهضتها في هذه الفترة عن بقية الأقاليم العربية فقد يرجع لسببين:

أولاً: الظروف البيئية

لعبت البيئة الصحراوية الجدية دوراً في عزوف أبناء المنطقة عن الحياة الفكرية، لأن همهم الأول كان السعي للحصول على لقمة العيش، وإذا ما كان لديهم متسع من الوقت فإنهم يقضونه في محاولة لإحياء الفكر.

بالرغم من سفرهم للتجارة في الهند والمدن الساحلية في حضرموت وشرق أفريقيا، إلا أن هذا الاتصال لم يتولد عنه احتكاك فكري في تلك الفترة، وإنما كانت هناك بعض البوادر للبدايات الأولى والتي ظهرت فيما بعد على الحياة الفكرية، وقد يرجع ذلك إلى اختلاف طبيعة هذه المجتمعات وظروفها عن المجتمع العربي، ونظرتهم للاقتباس من الآخرين بحذر، والسبب الثاني قد يرجع إلى عدم تقبل أبناء المنطقة لما هو ليس في أولوياتهم ألا وهو الكفاح من أجل البقاء سواء كان في البحر أو البر، ولذلك كانت البدايات الأولى للحياة الفكرية عبارة عن مبادئ الفقه وعلوم القرآن واللغة العربية والحساب البسيط⁽⁷⁾ ولكنها تطورت فيما بعد ونتاجت عنها بناء أول مدرسة في المنطقة في الكويت عام 1911.

ثانياً: البعد عن مراكز الأحداث:

السبب الثاني في تأخر النهضة الفكرية، قد يرجع لبعد المنطقة عن مراكز الأحداث في ذلك الوقت، نتيجة لوقوعها في الأطراف الشرقية من الوطن العربي حيث كانت التيارات الفكرية في قلب الأمة العربية في بلاد الشام ومصر في أواخر القرن الماضي، وأن الحياة الفكرية في قلب الأمة العربية كانت أقوى وأعمق من

الأطراف، كحركة جمال الدين الأفغانى الذى دعى إلى الإصلاح الدينى والسياسى، ثم حركة سامى البارودى فى الشعر⁽⁸⁾.

تجمعت فى أوائل هذا القرن عدة عوامل ساعدت على قيام النهضة الفكرية وكانت البداية من الشمال، حيث البصرة ومنها امتدت إلى شرق الجزيرة العربية، لأن الصلات البحرية كانت أهم وأسرع من البرية، ثم بدأ الاستعمار المسيحى الإرهابى البريطانى يهتم فى تلك المناطق ويحاول إبعاد النفوذ الإسلامى العثمانى عنها، إلى أن تمكن من عقد اتفاقية 1913 لتقسيم النفوذ بينهما ثم بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة الدولة العثمانية سيطر المستعمر المسيحى على المنطقة، وبعد ذلك بدأ يتجه إلى الداخل فى الفترة ما بين الحربين عندما بدأت شركات البترول المسيحية الغربية تتوغل فى المنطقة، مما أدى إلى وقوع صدام بالحضارة الاستعمارية المسيحية الغربية فبدأت حوافز النهوض التى تحمل فى داخلها عودة المشاعر الوطنية إلى أصولها الموروثة حتى تجد فيها حقيقتها التى تحميها من الفناء⁽⁹⁾، أى نشأت حركة الاحياء الفكرى فيما بين الحربين أو فى عصر النهضة الفكرية.

أثر البيئة فى الحياة الفكرية:

كان للبيئة المحلية دور رئيسى فى الحياة الفكرية لأبناء شرق الجزيرة العربية وتركت بصمات واضحة فى حياتهم اليومية والتى بالتالى أثرت فى الحياة الفكرية وهو التفاعل المستمر بين البحر والصحراء، بين الأمواج الآتية من مياه الخليج العربى وبين رمال الصحراء المتحركة من البر الشرقى للجزيرة العربية، وإن التقاء صحراء شرق الجزيرة العربية بمياه الخليج العربى، خلق التمازج والالتقاء بين الماء والرمل، بين رجال الغوص على اللؤلؤ وبين رجال البادية، بين سفن الخليج العربى التجارية وبين قوافل الصحراء التجارية، بين اللؤلؤ المستخرج من قاع البحر وبين التمر المستخرج من نخيل الصحراء، وإن ذلك التمازج العجيب قد خلق بيئة متميزة ذات طابع خاص، لا هى بالبحرية التامة ولا بالصحراوية الخالصة⁽¹⁰⁾ وإنما يشدها إلى الصحراء نسب وإلى البحر سبب⁽¹¹⁾ ولذا فإنها جمعت بين طراوة البحر وصلابة البر، بين عامل التغير والحركة فى طبيعة الأمواج وعامل الثبات والاستقرار فى طبيعة الهضاب الصحراوية، بين الانفتاح على الجديد الآتى مع التيارات البحرية والتمسك بالشخصية الأصلية وقيمتها الثابتة ثبات الصحراء العربية الصامدة⁽¹²⁾.

عاش مجتمع شرق الجزيرة العربية في كفاح عنيف في سبيل تأمين حياته واستطاع ان يتغلب على كل الصعوبات التي واجهته، وإنه تأثر بالبحر بعد ان كان قد استوطن بالبر على مقربة من شواطئ الخليج العربي، وعمل بالتجارة حتى ازدهرت مع الهند وشرق افريقيا، وحدث توسع في نشاط النقل البحري وإن هذا العمل البحري إضافة إلى الغوص يكسب المرء خشونة وقوة واحتمال والصبر إضافة إلى ما تطبع به الصحراء من ارتفاع وتقلبات في الطقس على حياة الإنسان في شرق الجزيرة العربية، كل هذا جعله قادرا على التحكم في طريقة حياته وهذا المجتمع الذي تحكم فيه البحر من الامام والصحراء من الخلف، لم يخرج عن كونه مجتمعا عربيا صغيرا من ضمن المجتمع العربي الكبير الذي يحتفظ بطابعه المميز، فمن البداوة وحياة البر والصحراء فيه أصول، ومن الانفتاح على العالم الخارجى بفعل الاحتكاك التجارى فيه أصول أخرى (13).

اثر هذه الظاهرة على مختلف اوجه الحياة الفكرية في شرق الجزيرة العربية، الذي يعتبر حصيلة التمازج بين الماثورات البحرية لحياة الغوص والبحر، والماثورات الشفوية لدى أهل البادية من «أمثال» وحذاء وعرضات (14) وهذا يعتبر مجموعة من عادات وتقاليد خاصة اضافة إلى ما ورثه مجتمع شرق الجزيرة العربية عن الآباء والأجداد من تراث إسلامي يتميز بالنخوة والمروءة والشجاعة والكرم والتقوى والتعاضد والتآلف (15).

هذا المجتمع امتداد لواقع عربي إسلامي يحمل كل السمات الروحية والفكرية التي حملها اجدادهم العرب المسلمون إلى جانب حمله لعناصر الحياة الفكرية العربية الممتدة عبر التاريخ، ونظرا لوقوع شرق الجزيرة العربية بمحاذاة ثقافات إسلامية وغير عربية، وأحيانا غير إسلامية، فقد تأثر هذا المجتمع بدرجة أو بأخرى بهذه الثقافات كالهندية وشرق افريقية التي يشارك أبناؤها العرب في الإسلام والعلاقات الإنسانية الاقتصادية (16).

لهذا نجد السمات الفكرية في شرق الجزيرة العربية، هي السمات العربية الإسلامية، مع بعض السمات الهندية وشرق أفريقيا، وذلك راجع إلى العلاقات التجارية وعلاقة السفر في البحر مع موانئ الهند وشرق أفريقيا والتي كانت في تلك الفترات مستقرا لهجرات عربية من شرق الجزيرة العربية أو العكس، وهذا التبادل المادى هو الذى انتج بعض المزيج في الحياة الفكرية. وكانت العلاقات

مفتوحة بين التجمعات السكانية فى شرق الجزيرة العربية، وهذا التفاعل بجانب النشاط الاقتصادى المشترك فى الغوص او التجارة مع الهند وشرق أفريقيا، عزز من الوحدة فى الحياة الفكرية لأبناء شرق الجزيرة العربية(17).

تلك التجمعات السكانية والنشاط الاقتصادى المشترك، اوجدت لديها انتاجا ثقافيا متميزا بموروثات الثقافة العربية، ومجلوبات الثقافة الهندية والأفريقية، كذلك شيدت بعض المباني على الطريقة الهندية الافريقية وايضا استحدثت أدوات لاستخدام الإنسان اليومية، كالأسرة وخزانات الملابس استخدم فيها مزيج من المواد الأولية المحلية، والأفكار فى التصنيع التى جلبها المهاجرون أو التجار من تلك البلاد، والإنتاج الفكرى كان يتواءم مع الإنتاج المادى مثل أغاني الغوص والسفر وأغاني الاستعراضات الحربية وأغاني العمل فى الحقول الزراعية أو تشييد المباني، تلك كانت جزءا من الإنتاج المادى(18) والحياة الفكرية فى هذه التجمعات السكانية فى شرق الجزيرة العربية، كانت تدور اساسا حول الإنتاج المادى معتمدة على موروثات الحياة الفكرية العامة كالتعليم الدينى وقرض الشعر الفصيح أو العامى.

التعليم والأدب،

لم يكن شرق الجزيرة العربية خلوا من أضواء العلم والأدب، لأن المجد التاريخى واللغة بما تعبران عنه من تراث روحى استمرتا تبشان بشعاع وإن كان خافتا، والمجد التاريخى فى شرق الجزيرة العربية اساسه الدور الملاحى والنقل التجارى مع الهند وحضرموت وشرق أفريقيا، كما ان اصالة المنطقة فى عروبتها وسبقها الى الاسلام وقربها من مهبطه جعل حيويتها اللغوية كامنة فى المنطقة عبر قرون، وقد وجهت طبيعة الاعمال الملاحية والتجارة ابناء المنطقة الى ضرورة تعلم القراءة والكتابة والحساب للوفاء باغراض العمل (19).

اضطر أبناء شرق الجزيرة العربية إلى ممارسة التجارة والملاحة التى اصبحت السمة الغالبة لمعظم سكانها الذين ركبوا البحر، واصبحت التجارة مهنة يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد ومارسوها حتى فى البر مع سكان البادية والبلاد العربية المجاورة بعد ما كانوا يتجارون مع شعوب الهند وحضرموت وشرق أفريقيا وان اسفارهم التجارية الى تلك البلدان جعلتهم يقرأون الصحف والكتب، وتأثروا بالتجارب الحية لاسفارهم وتجارتهم بالاحتكاك بتلك الشعوب وحياتهم الفكرية

وقد اسهمت الاسفار بربط حياتهم آنذاك بحب المغامرة والتعرف فى كل مرة بجديد من ألوان الحياة(20).

ربما ان مهنة التجارة تحتاج إلى ضبط الحساب وكتابة الرسائل، فانه كان يستدعى الإمام بالكتابة والقراءة ومعرفة شىء من العمليات الحسابية للتاجر الناجح اما التاجر الذى لا يعرف القراءة والكتابة، فان تجارته تتأثر ولا يستطيع المتاجرة بنفس المستوى الذى يكون عليه القارئ الكاتب من التجار، وإلا فإنه يضطر بان يستعين بغيره فيسلط على نفسه من يتحكم فى أسرار معاملاته.

لهذا فإنهم شعروا بأهمية التعليم باعتباره ضرورة أساسية من ضرورات نهضة الأمم وخاصة بعد ما تأثر بها أبناء المنطقة عندما كانوا يزورون موانئ الأجنبية فى تجارتهم، ولهذا اهتموا ووجهوا جل عنايتهم للتزود بالعلوم والمعارف وكل ما هو جديد فى الحياة الفكرية(21).

نجد أن طبيعتهم التقليدية بالمورثات القبلية العربية وجهتهم إلى تدارس المفآخر والمآثر وتواريخ الوقائع والأيام وحفظ الأنساب، إضافة إلى الإسلام الذى لعب دورا أساسيا ومبكرا منذ اعتناقهم له إلى تعلم العبادات والواجبات والأحكام وخاصة أحكام الموارىث والزواج والطلاق والقضاء وغيرها من أمور الحياة الدينية والدينية(22).

بذلك اندفع أبناء المنطقة إلى التعلم، وكان الخط الذى يسلكونه واضحا فالتجارة والملاحة تحتاج إلى معارف عديدة ولا يمكن الحصول عليه إلا بالشروع فى التعليم أو ما يحتاجه الإنسان من معارف ضرورية لتتير الطريق، وتلك الخطوة هى تعليم القراءة والكتابة عن طريق القرآن الكريم المدرسة الأولى لأبناء شرق الجزيرة العربية، فبشر بتعليم تلاوة القرآن الكريم والتعرف على الحرف العربى من خلاله وإزاله الأمية عن طريقه، والتعرف على التغيرات اللغوية العالية وفهمها فى مراحل تالية، فكان القرآن الكريم هو الأساس وهو حجر الزاوية فى العملية التعليمية، ثم الخطوة التالية، وهى الإمام بأصول الدين الإسلامى الحنيف كالصلاة والزكاة والصوم وغيرها، وهذه المعرفة تستدعى المعرفة التامة بالقراءة والكتابة وبما ان سكان المنطقة كثيرون الأسفار بحكم موقعه الجغرافى ووضعهم الاقتصادى، وإنهم كانوا يتعاملون مع غيرهم من الأمم التى تبعد عنهم آلاف أميال ويتاجرون

معهم، كل هذه الظروف مهدت لهم السبل للتعليم انطلاقاً من الفائدة المادية والمعنوية التي يكتسبها المتعلم عند معرفته للعلوم المختلفة، وعمل الجميع على طلب المزيد من المعرفة كلما أتاحت لهم الفرصة (23).

بداية النظام التربوي الفكري:

كان لشرق الجزيرة العربية نظامها التربوي الفكري والتعلمي البسيط والبدائي المتوارث، وهو عبارة عن المساجد والكتاتيب والديوانيات.

أولاً: المساجد ومدارس الوعظ والأربطة.

لعبت المساجد دوراً هاماً في تعليم أبناء شرق الجزيرة العربية إلى جانب أنها مراكز عبادة لا يمكن تجاهلها إلى يومنا الحاضر وبالرغم من اتساع العملية التعليمية التي شملت جميع المدن والقرى في المنطقة، ومع ذلك فإن المساجد مارالت تؤدي نشاطها في تثقيف المسلمين مع وجود المدارس، والمعاهد والجامعات، وكانت المساجد ومدارس الوعظ والأربطة في تلك الفترة، كخلية يقوم فيها العلماء بتدريس الفقه والحديث والأصول وعلوم اللغة العربية والبلاغة والنحو والصرف والمنطق والأدب (24).

ففي تلك المساجد تقام حلقات يلقي فيها رجال الدين الوعظ والدروس الدينية والتفسير وأصول الدين (25)، كما يعقد علماء الدين مجالس الحديث في أروقه المساجد لإرشاد الأهالي بأمور دينهم وشرح السنة النبوية لسيدنا محمد ﷺ، وكان هؤلاء العلماء يتنقلون في مساجد شرق الجزيرة العربية فيما بين مدنها أو كانوا يأتون من المدن العربية العريقة، وخاصة من بغداد والحجاز واليمن، ويقدمون ما لديهم من المعرفة في علوم القرآن الكريم وتفسير آياته وأحكامه وشرح الفقه والحديث ونصوصه (26)، والسيرة النبوية الشريفة.

إضافة إلى ذلك فإنهم يتطرقون إلى الأدب وخاصة اللغة العربية وما يتفرع عنها من علوم تخدم الدين الإسلامي الحنيف، وأحياناً كان البعض يعرض ما لديه من معرفة بالشعر العربي أيام الرسول الكريم ﷺ، وبعض المساجد المشهورة في شرق الجزيرة العربية كان فيها علماء يقومون بتدريس المتون وشرحها بالأسلوب الذي كان متبعاً في الجامعات الإسلامية الكبرى «كالأزهر» والزيتونة» «ورباط مدينة تريم» بحضرموت، ومساجد النجف وبغداد وغيرها، حيث يلازمون الطلاب

بشيوخهم يأخذون منهم العلم قولا وفعلا، ويأتمون بهم ويجازون على أيديهم في مرحلة ناضجة من أعمارهم⁽²⁷⁾، وإن هذه المساجد كان لها دور إيجابي في الخلفية الثقافية لسكان المنطقة، تلك الخلفية التي فتحت أمامهم آفاقا جديدة في تغير نظرتهم إلى الحياة الفكرية بصورة أشمل.

ثانيا: الكتاتيب

عرف سكان المنطقة أن من أسباب تقدم الشعوب انتشار التعليم بين ابنائها، وذلك عن طريق أسفارهم للتجارة واختلاطهم بالمجتمعات المختلفة وإيمانهم كنتيجة لتجاربتهم الطويلة بأن التعليم هو طريق التقدم، وأن سبب تطور الأمم التي يتعاملون معها هو انتشار التعليم بين ابنائها إلى جانب حاجة تجار المنطقة لوجود كتبه ومحاسبين لضبط السجلات وتنظيم المراسلات الخارجية⁽²⁸⁾.

لذا فإنهم أقدموا على فتح الكتاتيب، وكانت تلك أولى الخطوات على طريق فتح المدارس فيما بعد، وبرغم أن الكتاتيب لم ترتفع إلى الطموح الذي ساور أبناء المنطقة ولكنها كانت نقطة البداية. والكتاتيب عبارة عن مدارس صغيرة أهلية ينهض بالواحدة منها معلم واحد وهو «المطوع»⁽²⁹⁾ أو الملا⁽³⁰⁾، ومن كان معروفا بعلمه الوفير عند الأهالي فإنهم كانوا يطلقون عليه لقب الشيخ اجلالا واکراما لعلمه.

وكانت الكتاتيب على نوعين:

(أ) كتاتيب خاصة يفتحها شخص واحد وهو المطوع على حسابه ويشرف عليها ويعلم، وغالبا ما كان يتوارثها أبا عن جد.

(ب) كتاتيب يتعاون في فتحها كبار التجار من أموالهم الخاصة لتعليم ابنائهم وأبناء الفقراء⁽³¹⁾ وكان مستوى التعليم فيها أعلى من مستوى الكتاتيب الخاصة للمطوع، وهنا كان يتجلى تعاون التجار بعضهم مع البعض في بناء تلك الكتاتيب. والكتاتيب عبارة عن صف صغير يتكون بمجموعة من الصغار غير متجانس الأعمار يتوسطهم «المطوع» والذي غالبا ما يكون الأطفال في منزله يجلسون فيها على حصيرة على الأرض وإمامهم مصاحفهم موضوعة على كراسي خشبية صغيرة على شكل الحرف (X) يوضع بوسطها المصحف⁽³²⁾. وكان يسمى «بشتخته»⁽³³⁾.

زار عبدالمسيح الانطاكي الكويت في عام 1907، ويصف مشاهداته لتلك

الكتاتيب خلال زيارته بقوله «وقد شاهدت في تجوالي مكاتب التعليم وهي كثيرة في الكويت، على أنها كتاتيب لتعليم القراءة والكتابة والقرآن الشريف وآداب اللغة» (34).

تعتبر الكتاتيب مراكز للتعليم في تلك الفترة ويشمل جانباً من منزل صاحبه، ورغم هذا النمط البدائي فإن أول طبقة أحست بأهميتها هي طبقة التجار والذين سارعوا إلى فتح كتاتيب من أموالهم، ويقول د. إبراهيم سليمان، بأن مستوى تلك الكتاتيب كانت احسن من مستوى الكتاتيب المألوفة في كثير من اجزاء الوطن العربي اثناء العهد العثماني، ولكن هذه الكتاتيب لم تتطور إلى مدارس ولم تعمر كثيراً لاعتمادها على التبرع والمجهود الفردي من الأسرة الواحدة (35).

يقوم المطوع بتدريس الأولاد فقط بينما تقوم «المطوعة» بتدريس الأولاد والبنات معا في سن صغيرة حتى البلوغ وبعدها يفصل كل نوع على حدة (36). وإلى جانب المطوع في الكتاتيب يوجد «ريس» وهو يقوم بمساعدة المطوع في تحفيظ الأولاد إذا ما تغيب لأمراً والحفظ النظام وإدارة شئون الكتاتيب ويعاقب الطالب المذنب. وبذلك يمكن القول بأن المرأة لم تحرم من التعليم فكانت لهن كتاتيب وتقوم «المطوعة» بتدريسهن بتحفيظ القرآن الكريم وتلاوته ويكتفى بذلك ولم يتعد مستواهن مستوى الطلاب، نظراً لأن البنت لم تكن بحاجة إلى أكثر من ذلك في تلك الفترة وأحياناً تتجاوز أمر تعليم البنات فيعلمن الحساب والعلوم الدينية، ولبعض المطوعات من كبريات السن كتاتيب للأطفال من الجنسين (37).

العملية التعليمية

تم العملية التعليمية في عدة مراحل:

أولاً: الخالي

هي من أولى المراحل في العملية التعليمية، ويتسبب اليها الأطفال في البداية، ويتعلمون تهجئة الحروف بطريقة منفصلة وخاصة الحركات الاعرابية وكانت تدعى 'تشكيل القرآن' (38) حيث يقوم المطوع في هذه المرحلة بتعليم الحروف الهجائية دون استخدام الألواح، وهذه الطريقة الأولى كانت منتشرة في معظم الكتاتيب بشرق الجزيرة العربية، أن يقوم المطوع بصوت عال بقراءة الحروف الهجائية وبعده الأطفال، ولكي يعرف الطفل شكل الحرف ويرسم في ذهنه فيقول

مثلا لحرف «الالف» الف لا شيله، أى ان هذا الحرف ليس له أو عليه شيء، والباء نقطة من تحت، والتاء نقطتين من فوق، والثاء ثلاث نقط من فوق، والجيم نقطة من تحت، والحاء لا شيله، وهكذا إلى نهاية الحروف الأبجدية⁽³⁹⁾.

أما الطريقة الثانية فيتم استخدام الألواح فيها، وهى مختلفة عن الطريقة الأولى وفيها يجب على الأب أن يجهز ابنه باللوح، ويكتب عليه المطوع حروف الهجاء بالحبر الاسود، وعندما يحفظ الطفل هذه الحروف الهجائية عليه ان يغسل اللوح وينتقل إلى المرحلة الثانية⁽⁴⁰⁾.

ثانيا: الربط

فى هذه المرحلة يتعلم الطفل كيفية ربط الحروف الهجائية المنفصلة بعضها عن البعض الآخر حتى يتمكن من تكوين الكلمات القصيرة والنطق بها⁽⁴¹⁾، وذلك بعد ما يتم غسيل اللوح ويطين ثانية ليكتب عليه حروف الهجاء مشكلة، فإذا عرفها كتب له جملة «رب يسر ولا تعسر، رب تمم علينا بالخير» ثم يكتب له جملة أخرى⁽⁴²⁾. وهكذا ثم ينتقل إلى المرحلة الثالثة.

ثالثا: القراءة

بعد مرور عدة أشهر يتمكن الطفل من معرفة واتقان الحروف الأبجدية ويربطها فى كلمات، وبعدها ينتقل المطوع بتعليم قراءة القرآن الكريم، ابتداء من سورة «الفاتحة» ويبدأ قراءتها بالتهجى، فإذا حفظها تهجياً قراها سرداً، وهكذا حتى يقرأ سورة «الناس»، ثم حتى نهاية جزء «عم» وبعدها تقوى ملكة الطفل على القراءة سرداً، فيترك التهجى، ومعظم الأطفال لا يستطيعون القراءة دون مساعدة المطوع، وطريقتهم فى ذلك ان يتلو المطوع الآية كلمة كلمة، ويعيدها الطفل كلمة كلمة⁽⁴³⁾.

ثم ينتقل الطفل إلى جزء آخر ويتدرج بالقراءة والحفظ إلى أن يختم القرآن الكريم، وإن سرعة حفظه وتلاوته تتفاوت من طفل لآخر، لذا يتم تقسيم الأطفال إلى مجموعات حسب مستوى الأطفال وفق الجزء الذى يقوم بتلاوته⁽⁴⁴⁾.

رابعا: الكتابة

بعد ختم القرآن الكريم يعيد تلاوته كما بداها من آخره إلى اوله، وبعد

التأكد من حفظة تنتهى مرحلة القراءة والحفظ وإذا أراد ولى امر الطفل إن يكمل ولده ويتعلم الكتابة لزمته الدواة والقلم، فإذا حسن خطه واستطاع ان يخط على الورق فإنه يصبح كاتباً(45).

تهتم الكتاتيب بتعليم الطلاب مبادئ الكتابة والقراءة وشيء من الحساب ولهذا فإن معلمى الكتاتيب كانوا يتفنون فى عرض برامج تعليمهم ويعطون الطالب المبتدئ كتاباً واضح الخط، كبير الحروف مرسوماً بدقة وأناة لتعليم الصبى الخط الجميل ويضع الطلاب على الخط ورقة شفافة ثم يحاولون الكتابة عليها برسم تلك الحروف الكائنة تحت الورقة، ويستمررون على هذا التمرين حتى يتمكنوا من كتابة الحروف العربية، هذا فى بداية الأمر ثم يفهمون ما يكتبون، وبجانب الكتابة يحفظون ما فيه، وفى بعض الكتاتيب كانوا يقسمون الطلاب إلى مجموعات كل منها تدرس موضوعاً معيناً(46).

بعد تلك المراحل من حفظ القرآن الكريم والقراءة والكتابة والحساب وغير ذلك، فإذا ما أراد الطالب ان يتوسع فى العلم فما عليه إلا أن يدخل مدارس خاصة تتقاضى أجوراً عالية مقابل تعليم مسك الدفاتر فى المحلات أو لدى التجار، واللغة الانجليزية، وانتشرت هذه المدارس الخاصة مع تزايد الحركة التجارية واحتياجات التجار لهذا الكادر المتعلم، ومعظم هذه المدارس كانت عبارة عن معلم واحد فقط وعدد محدود من الطلاب(47).

رسوم الكتاتيب

يعتمد المطوع فى رزقه على عدة رسوم يدفعها الطلاب فى مناسبات متعددة وهى كما يلى: (48)

أولاً: الدخالة

وهى مبلغ من المال كرسوم تسجيل يدفعها ولى امر الطالب للمطوع، وعادة تكون غير محددة يدفعها كل واحد حسب مقدرة المالية، إلا أن بعض الكتاتيب تحدد رسوم التسجيل، وغالباً ما كان الطالب يدفع نصف روبية على الأكثر ولكن الغنى كان يدفع روبية فى الشهر، وبعض اولياء الأمور لا يدفعون شيئاً على الإطلاق نظراً لعدم مقدرتهم المالية.

ثانيا: الخميسية:

مبالغ تدفع صباح كل خميس للمطوع وتكون هذه المدفوعات نقدية أو عينية.

ثالثا: النافلة:

هى عبارة عن صدقة يدفعها الطالب إلى المطوع فى المناسبات الدينية كيوم المولد النبوى الشريف والإسراء والمعراج وغيرها.

رابعا: العيدية:

وتدفع للمطوع نقدا صباح العيد أو فى اسبوعه.

خامسا: الفطرة

هى صدقة عيد الفطر وقد جرت العادة على تقديمها عينا من «الحنطة» و«التمر» والارز وذلك حسب تقدير ولى أمر الطالب.

سادسا: الجزء

تعتبر الجزء مجموعة من رسوم يقدمها الطالب للمطوع خلال فترة بقائه فى الكتاتيب، وعادة يتم تقسيم القرآن الكريم إلى ثلاثة عشر جزءا غير اجزائه الثلاثين وعندما ينتهى الطالب من حفظ جزء من هذه الاجزاء، يجب عليه تقديم مبلغ إلى المطوع نقدا ولا بد ان تكون الهدية التالية خيرا من سابقتها.

سابعا: الختمة

عبارة عن مبالغ تقدم عند ختم القرآن الكريم وعادة تتراوح ما بين عشرين ومائة روبية حسب ما يتفق عليه ولى أمر الطالب والمطوع، اما إذا كان والد الطالب ميسور الحال اصبح الختمة بكسوة، اما من يدخل ابنه «قطوعة» أى بأجر محدد على ختم القرآن الكريم، فإنه لا يدفع «دخاله» ولا خميسية ولا جزءا بل يكون الدفع عند «الختمة» إلا إذا كان قد اتفق على مقدم ومؤخرا أو اقساط

عندما يختم الطالب القرآن الكريم يحتفل به فى موكب رائع يطوف احياء المدينة ويحاول المطوع ان يظهر بمستوى جيد لطلابيه، فيقرأ المحتفى به سور من القرآن الكريم، برهانا على اتقان ما تعلم، يكون هذا بمثابة دعاية للمطوع وعن

طريقها يجنى بعض الأموال في حين يردد الطلاب اثناء طوافهم في الاحياء ابياتا في مدح سيدنا محمد ﷺ وفي مدح العلم⁽⁴⁹⁾. وخاصة الطلاب الفقراء حيث جرت العادة بأن يدفعوا رسم الختمة مما يستجدونه بقراءة التحميدة ويجمعون بها احسان ذوى الاحسان وذلك بأن⁽⁵⁰⁾ يستعير له أهله سيفاً مذهباً وعباءة وعقالاً مقصباً يرتديهما ثم يسير معه فريق من زملائه الاطفال ووالدته أو احدى قريباته في الاحياء، يدخلون البيوت الغنية ويقرأ احدهم الختم وهو كتيب صغير معد لهذا الغرض يقرؤه جملة جملة ويرد عليه بقية الاطفال كلمة «امين» يبتدئ القراءة هكذا (الحمد لله الذى هدانا) وهنا يردد الاطفال قائلين (آمين) إلى آخره ويظلون يدخلون البيوت بيتاً بيتاً إلى ان يجتمع لديهم المبلغ المطلوب (للملا) وهذه اخر مرحلة من مراحل التعليم.

الذى ينوب عن المجموعة يسمى «عريف» ويقوم بدور جمع الهدايا والهبات في كيس يحمله بجانبه، ومعظم الهدايا التى تعطى على شكل نقدى أو عينى وبعد الانتهاء من الطواف يسلمها للمطوع⁽⁵¹⁾، الذى يرسل معه من يراقب طوافه ويحاسبه على كل ما حصله. ومن حقه ايضا استخدام طلابه في منزله للشئون الخاصة وكثيراً ما يرسل الطلاب إلى منزل في الحى لقراءة القرآن على مريض حتى يتم الله له الشفاء واحياناً يذهب المطوع نفسه لمشاركتهم في قراءة القرآن وما يقدم لهم من الطعام والشراب ويأخذ المال الذى يقدمه اهل المريض لنفسه وليس للطلاب⁽⁵²⁾.

هناك علاقة انسجام بين ولى الطالب وبين المطوع فيما يتعلق بالتربية حيث يقول الاب للمطوع عندما يسلمه ابنه «شوف يا ملا ترى لك اللحم ولنا العظام» أى اعمل ما تشاء وتصرف في الطفل من اجل تعليمه وتربيته. ولذا فإن المطوع يستخدم وسائل العقاب المتنوعة إذا لم يطع الطالب أو أساء تصرفه⁽⁵³⁾، ويكون استخدامه لها بمقدار الطالب السلبي من ذنب كضرب بالعصاة المصنوعة من الخيزران أو «الجيحشة» وهى الضرب على قدمى الولد بعد ربطهما بحبل وكذلك «الصنقل» وهى عبارة عن سلسلة من الحديد ذات حلقات غليظة ثقيلة الوزن يثبت طرفها بنخشة ثقيلة الوزن كذلك ويربط طرفها الثانى فى ساق الصبى بقفل يحفظ مفتاحه عند المطوع⁽⁵⁴⁾، أما (المطرق) فهو عبارة عن عصا وهو نوعان منها عصا

طويلة يستخدمها المطوع إذا كان جالسا فتمتد على ظهور الطلاب القريبين منه وارجل وافخاذ البعيدين عنه، اما العصا الثانية فهي قصيرة ويستخدمها للضرب المبرح والعقاب الشديد، وغالبا ما يكون المطوع قاسيا حتى يبدو في نظر الآباء بمظهر الحازم القوي والأمين الذي لا يغفل عن اداء واجبه في حين كان الطلاب يخافونه ويكرهونه وقد يترتب عليه بعض الآثار السلبية⁽⁵⁵⁾ فكم منهم جن أو اغمى عليه أو بال في ثيابه، أو القى نفسه من السطح فرارا من غضب المطوع ويطشه... اما من ارغمه اولياء امرهم على المثابرة وتحمل آلام التعلم فقد قاسوا الكثير من موت ارادتهم وضعف نفوسهم واضطراب تفكيرهم. واما من حرّموا التعليم وقاسوا مرارة الامية كبارا، فإنهم يذكرون باللعنة ذلك المطوع وسوء معاملته، ولن ينسوا مهما بلغت بهم السن ما كان بينهم وبينه من بغض وخوف.

اشتهرت بعض الأسر بتعليم الكتاتيب وتوارثها افرادها ابا عن جد⁽⁵⁶⁾ ومن اشهر من كان في الكويت: سيد هاشم عبدالوهاب الحنيان - الملا راشد الشرحان - الملا مرشد الحنيني⁽⁵⁷⁾.

وجدت الكتاتيب نظرا لحاجة البيئة ولهذا فإن أهم ما كان يدرس هو لخدمة الملاحة والتجارة واستخراج اللؤلؤ فالمطوع كان يعلم الحساب والقراءة وكتابة الرسائل وغيرها مما يفي باحتياجات تلك المهنة، وهذا ما يدل على ارتباط هذا النوع من التعليم بتلك المهنة، وان التنافس بين «المطوع» كان يحسمه⁽⁵⁸⁾.

ثالثا: المجالس والديوانيات

إلى جانب الدور الذي لعبته المساجد والكتاتيب، كانت المجالس او الديوانيات وهي عبارة عن مجلس كبير للرجال ملحق بمنازل الاسر الكبيرة، وهي بمثابة امتداد لمجلس القبيلة، وهذه المجالس معدة لاستقبال الضيوف، وعادة تكون في غرفة كبيرة امامها بهو وفي احدى جوانبه إيوان للضيوف⁽⁵⁹⁾، وفي صدر الغرفة توجد أدوات الضيافة من القهوة والشاي «وقماقم البراد» ومجامر العود ومرش ماء الورد وهذه المجالس الكبيرة لا توجد إلا في منازل الميسورين والقادرين على انشائها وتحمل اعبائها من المصاريف، وغالبا ما تكون بعيدة عن باقى الغرف الخاصة بالأسرة، والبعض منهم يبنى مجلسه في حوش خاص منعزل عن حوش الاسرة، ويسمى حوش المجلس⁽⁶⁰⁾.

نجد أن مجالس كبار رجال العشائر كانت مفتوحة ومنتابها الضيوف دائما، والبعض منهم يؤثث مجالس إضافية لخدمة طلبة العلم ممن يفدون إليهم من المناطق والبلاد العربية المجاورة، فإذا وصل أحد رجال العلم استقبل استقبالا حافلا يليق بمقامه وانزل في ضيافة كبير القبيلة، ويكلف بإعطاء بعض الدروس مما لديه من علم للأبناء والطلاب الذين حفظوا القرآن الكريم وعرفوا القراءة والكتابة، فيعلمهم في حلقة الذكر في المسجد بعد طلوع الشمس بنصف ساعة وبعد صلاة العصر ويتناول عدة مواضيع من شرح وتفسير آيات القرآن الكريم والسيرة النبوية والحديث والفقه، أما الاخبار والأشعار والأدب فيتم تداولها في المجلس. وإذا ما قرر العودة إلى داره وبلاده بعد إقامته مدة من الزمن، فإن ذوي الكرم يجمعون له كل على قدر مروءته فيعود إلى أهله معززا ومكرما.

يعلق الأستاذ عبدالعزيز حسين على ذلك بأن عملية عرض الخطوط على التجار وتحكيمهم يرمز إلى تأكيد الصلة القائمة بين التجارة والتعليم. مر على الكويت وقت كان التنافس فيه بين الكتاتيب شديدا، إذ كان كل كتاب يحاول أن يلفت نظر المجمع إليه حتى يكتسب أكبر سمعة ويستولى على أكبر عدد من التلاميذ وكانت وسيلة الدعاية ولفت النظر المباشرة في حسن الخط، وكانت تتم بأن يذهب المتبارون في الخط إلى طائفة من التجار في محلاتهم لعرض خطوطهم عليهم والتجار هم الحكم الفصل في ذلك.

عندما كان الغوص والتجارة والملاحة في عنفوانه وازدهاره، كانت الكتاتيب تعمل على مدار العام في حين بعضها الآخر تغلق في الصيف، لأن أصحابها يذهبون للغوص على اللؤلؤ أو للتجارة البحرية، فيقفلون كتاتيبهم نظرا لعدم وجود من يحل محلهم فيذهب الطلاب إلى اقرب الكتاتيب، ومن ذلك يتضح بأن مجال الكسب في الكتاتيب كان محدودا في حين كان العائد من عملية الغوص أكبر برغم مخاطره. كان رجال العلم والعلماء ياتون من العراق وحضرموت والحجاز في حين الآخرين من الأقطار العربية الأخرى لا ياتون إلا نادرا⁽⁶¹⁾ وهذا راجع لصعوبة المواصلات وبعد المسافة مما يكلفهم الوقت والمال وعناء السفر. وبعض أصحاب المجالس كانوا من رجال البيوتات ممن له اطلاع ومعرفة وعلم في أصول الدين والأدب وتقرأ في مجالسهم الكتب وتلقى الأحاديث وتعطى الدروس

من صاحب الدار، أو من الوافد عليه من رجال الدين واللغة فتصبح هذه المجالس قبلة لطلاب العلم فترة من الزمن قد تقصر وقد تطول (62).

يلتقى هذه المجالس أبناء الحى وغالبا ما يكونون من عشيرة وقبيلة معينة فى فترات تقليدية متفق عليها ضمينا صباحا أو مساء، ويتعارف كل مجلس على مواعيد يومية محددة، وغالبا ما يكون لقاءهم بعد صلاة العصر، فى فترة ما بين صلاة المغرب والعشاء ثم فترة ما بعد صلاة العشاء (63).

لذلك تجد المجالس يبحثون فيها شئونهم العامة والخاصة، وتكون عامرة بالمساجلات الادبية، ويندرون بأشعار البادية وقصص الغارات والحروب وايضا بالمطالعات والندوات والأشعار الفصيحة، وفى بعض الاحيان تجد الاولاد الذين حفظوا القرآن الكريم وعرفوا القراءة والكتابة يجتمعون فى المجالس مع ابنائهم واخوانهم وبنى عمهم ويتدارسون الأدب ويعلمونهم الأشعار حتى يحفظوا المعلقة السبع عن ظهر قلب وبعدها ينتقلون إلى غيرها من القصائد العربية المشهورة، اما الاولاد فإنهم عندما يعودون إلى منازلهم يحاولون الحفظ لما قرأوه وسمعوه فى المجالس، والبعض يتبارون فى محاولة لقرض الشعر وتأليف بعض الأبيات فى حين يكون البعض الآخر قد قطع شوطا كبيرا فى هذه المحاولة مع موهبتهم الادبية التى تصقلهم عن طريق قراءة الشعر وحفظه فى هذه المجالس الأدبية (64).

تختلف المجالس الخاصة لرجال العلم، عن مجالس كبار رجال القبائل برغم ان تلك المجالس فى كلتا الحالتين تعتبر بصفة عامة نظاما اجتماعيا يرمز إلى قيمة ومكانة معينة لصاحب المجلس أو عشيرته (65)، ولكن المجالس الأولى لرجال العلم وطلابه ومريديه لعبت دورا فى الحياة الفكرية بمثابة مؤسسة اجتماعية ثقافية ذات أثر عميق فى تطور المنطقة (66)، لأن صاحبه يجعل من مجلسه مجمعا علميا وأدبيا واجتماعيا وسياسيا، وتتسع هذه المجالس للاجتماعات العامة والخاصة فى الأعياد والمناسبات، وتدور فيه المناقشات والأحاديث حول الأوضاع الاقتصادية وأمور الحياة المحلية (67).

معظم المناقشات كانت تدور حول الفقه والأدب، وتتناقل الآراء المطروحة ويتدارسون كتب الأدب، ويتبارون فى الشعر إضافة إلى النوادر والطرائف والحكم

والأمثال والمساجلات، ومع شمول هذه المجالس لمختلف نواحي الموضوعات، إلا أن الأمر لم يخلو من تخصص بعض المجالس لفرع من فروع الأدب والفكر.

فمثلا اختص مجلس الشيخ يوسف بن عيسى القناعي بتدريس علوم اللغة والدين والذي يعتبر من الأدباء الذين تولوا الصدارة في مؤازرة الحركة الفكرية في المنطقة ولم يدخر وسعه لدفعها إلى الامام بفضل ما كان يبذله من جهد ومال، في حين اختص مجلس عبدالله ملا صالح بتدريس القديم، أما مجلس خالد المسلم فكان يتدارس فيها معالم الأدب العربي الحديث، ومع ذلك فإن الآداب العلوم الحديثة لم تكن قد وصلت إلى المنطقة وبرغم ذلك كان هناك بعض الشباب يتطلعون بشوق إلى الكتب الأدبية الحديثة التي كانت تظهر في مصر والشام والعراق، ورواد هذه المجالس كانوا يتزاورون فيما بينهم باستمرار لعدة أسباب منها صلات القرابة والأخوة والتعارف وإذا ما دُعي أديب أو عالم دين إلى إحدى المجالس فيسارعون للقاءه والسلام عليه والتنقل معه من مجلس إلى آخر (68).

يمكن اعتبار هذه المجالس الأدبية كمراكز ثقافية تنهض بما يمكن أن يطلق عليه من الناحية الثقافية «الجماعة الحرة» لأنها لا تقوم بالتعليم الديني المنظم كحلقات الذكر في المساجد، ولا تقوم بالتعليم الديني أو المدني المؤهل مثل الكتاتيب، وإنما تدور فيها الأحاديث والمناقشات الحرة في مجالات مختلفة من دينية وأدبية وتاريخية، وتثار فيها المسائل وتطرح لها الأجوبة، وغالبا ما يتصدى لمثل هذه المناقشات العامة نخبة من رجال العلم والثقافة وكذلك الوافدون من علماء الدين أو التاريخ أو اللغة، وكان لهذه المجالس أثر كبير في النهضة الفكرية في شرق الجزيرة العربية، وبعض هذه المجالس فيها مكتبات تحتوي على كتب اللغة والأدب والدين والمخطوطات والمطبوع من التراث القديم والحديث (69).

رابعاً: أول مدرسة في شرق الجزيرة العربية

أدرك المثقفون في المنطقة منذ الوهلة الأولى، بأن تعليم الكتاتيب يعني استمرار العملية التعليمية في فلك البدائية، وإن المنطقة بدأت تتجه نحو نهضة شاملة في مختلف شئون الحياة، ولا يمكن لهذه النهضة أن تمتد لتشمل كافة أبناء المنطقة، إلا بعد تطوير التعليم المناسب، علما بأن المثقفين في المنطقة، كانوا

يضعون اعتبارهم الاول تعاليم الإسلام والعلوم الدينية التي توجه الجيل نحو التربية الصحيحة، ولهذا كان الأخذ بتعاليم القرآن الكريم وتدارس معانيه وشرحه والاهتداء لسنة سيدنا محمد ﷺ اللبنة الأساسية الأولى في النظرة المستقبلية للتعليم، وكان المثقفون والمعنيون بالعلم يجدون في المناسبات الدينية، خير مجال للتشاور في هذا الأمر الذي يهم مستقبل الأجيال القادمة، على ضوء مايقدمونه بخبراتهم وتجاربهم في الحياة، وكانوا يحستفلون باستمرار بمولد الرسول الكريم، ويتلون فيها سيرته العطرة ويظهرون دعوته للعلم والتعليم(70).

أول دعوة لإنشاء أول مدرسة في شرق الجزيرة العربية كانت في الكويت، عندما كان الشيخ يوسف عيسى القناعي يحتفل بمنزله بذكرى المولد النبوي الكريم عام 1327هـ الموافق 1910م، والمجلس مملوء بالمثقفين وأهل العلم، إذ وقف السيد ياسين الطبطبائي، ويقارن بين تكريم سيدنا محمد ﷺ بالقول وبين تكريمه باتباع تعاليمه، ويقترح إنشاء مدرسة يتلقى فيها أبناء الكويت التعليم بمختلف فروعها، وقد استجاب لهذه الفكرة الشيخ يوسف القناعي، وأصبح داعياً، وبدأ يتصل بوجهاء وأعيان البلاد فخطى بذلك خطوات ناجحة اثمرت بجمع الأموال اللازمة(71).

تبرع الشيخ يوسف القناعي نفسه بمبلغ خمسين روبية، وتبرع إبراهيم بن مضاف بـ 600 روبية، وتبرع كل من أولاد خالد الخضير وشميلان بن علي بن سيف، وهلال المطيري بخمسة آلاف روبية وتبرع قاسم وعبدالرحمن آل إبراهيم بخمسين ألف روبية ثم أجرى اكتتاب بين الأهالي كانت حصيلته 125000 روبية، وأصبح رأس مال المدرسة 77500 ألف روبية وكان هذا المبلغ كبيراً في تلك الفترة، وقد تبرع أولاد خالد الخضير أيضاً بالمكان لبناء المدرسة الجديدة، وتم شراء مجموعة من المنازل لتكون أكبر مساحة ممكنة، وأصبحت القيمة الإجمالية للمنازل التي ألحقت في منزل خالد بـ 400 روبية، وشرع في البناء عام 1911 بإشراف الشيخ يوسف القناعي وفي سبتمبر من نفس العام انتهى بناء المدرسة وفتحت أبوابها للاستقبال الرسمي للطلاب عام 1912م، وبلغ عددهم أكثر من ثلاثمائة طالب، وكانت الرسوم التي يدفعها الطلاب عند دخولهم المدرسة، روبيتان فاكتر للطلاب ميسوري الحال، وروبية واحدة فقط للطلاب متوسطي الحال، أما الطالب الفقير فيعفى من الرسوم(72).

سميت هذه المدرسة بالمباركية، نسبة إلى الشيخ مبارك حاكم الكويت في تلك الفترة، وهي أول مدرسة نظامية في شرق الجزيرة العربية، وعين الشيخ يوسف القناعي أول مدير لها، وعهدت شئونها المالية إلى مجلس مالي يتكون من كبار تجار الكويت وهم:- حمد خالد، شملان بن علي، وأحمد الحميض.

درس في هذه المدرسة أساتذة كويتيون منهم الشيخ عبدالعزيز الرشيد والاستاذ عبدالملك الصالح، والأستاذ جاسم الحجى، كما وفد إليها أساتذة من خارج الكويت، منهم الشيخ عبدالعزيز بن حمد المبارك الذي جاء من الاحساء والشيخ نجم الدين الهندي والشيخ محمود الهيتى الذين جاءوا من العراق⁽⁷³⁾ والشيخ حافظ وهبة من مصر والشيخ يوسف ياسين وفد من سوريا، وآخرين من الحجاز واليمن وبذلك اثروا الحياة الثقافية والفكرية في شرق الجزيرة العربية⁽⁷⁴⁾.

اقيمت ثاني مدرسة في شرق الجزيرة العربية في مدينة دبي، عندما انتشرت اخبار الدعوة لإقامة مدرسة في الكويت، فعمل أهالي دبي على الاستجابة لهذه الدعوة، وكانت دبي من أكبر المراكز التجارية المزدهرة بتجارة اللؤلؤ، وما ان وصلت اصدااء دعوة العلم إليها، حتى قرر أحمد بن دلوك احد كبار تجار اللؤلؤ في مشيخات ساحل عمان فتح مدرسة على نفقته الخاصة في مدينة دبي، وفي عام 1912 فتحت المدرسة ابوابها للطلاب وسميت بالمدرسة الأحمدية، واحضر لها ثلاثة أساتذة من مدينة الزبير في العراق⁽⁷⁵⁾ ثم تتابع المدرسون من مصر وسوريا وبقية البلاد العربية. إلى جانب هذا التطور في التعليم، فإن كثيراً من أبناء شرق الجزيرة العربية قد رحلوا لطلب العلم إلى الأزهر الشريف والنجف وبومباي وغيرها من المدن والمعاهد الدينية الإسلامية، كما وفد بعض رواد النهضة العربية إلى المنطقة فشاركوا في التعليم والمحاضرات وفي توسيع نطاق الحياة الفكرية وتعميق مجراها.

الأدب في شرق الجزيرة العربية:

أولاً: النشر

جعلت اتجاهات المصلحين الفكرية، لنشر شرق الجزيرة العربية، خصائص معنوية وأخرى فنية، وأما الخصائص المعنوية فتتركز في المحافظة على جوهر الروح العربية وتعاليم العقيدة الإسلامية والدعوة إلى الاقتداء بالسنة النبوية الكريمة،

والأخذ عن نهجه وسيرته في الحياة يصاحب بعض الدعوات إلى الأخذ عن الغرب بالحذر، حتى لا تضيع الأصالة العربية، وهناك كتابات الشيخ إبراهيم بن محمد الخليفة، وهي من أول وأكثر الكتابات تمثيلاً لتلك الخصائص المعنوية والفنية، وخاصة رسائله المتبادلة مع أديب المهجر، أمين الريحاني ومع علماء الاحساء من آل عبدالقادر وآل مبارك مع أديب النهضة في الكويت عبدالعزيز الرشيد، وفيما يلي رسالة كتبها رجل الإصلاح الاجتماعي الشيخ إبراهيم بن محمد لصديق له حول مشروع تعليمي اجتماعي وفيما يلي نصه: (76)

«... ثم أيها الصديق إن الله تعالى ارانا آياته في أنفسنا وفي الآفاق وتبين لنا إنه الحق في أمره وفي أحكامه. جعلنا الله وإياك ممن إذا ابصر تفكر واعتبر إنه الوهاب الهادي لأولى الألباب إلى الصواب.

أيها الصديق العزيز: إن من أعظم مصائب هذا العصر ان اعيان كل بلد هم أرباب الثروة وإن كانوا على جانب عظيم من الجهل وجنابك يعلم ان الجاهل لا يهتدى مرشده فكيف يكون مرشدا لغيره.

أيها الصديق: ان بلادك في الوقت الحاضر هادئة ساكنة على مقتضى أحكام الظروف الزمانية الحاضرة، فعسى الله ان يمد في عمر هذا الظرف الزماني ويلهم قومنا ان يفهموا كيف يستفيدون من مقتضيات الأحوال الحالية إنه على كل شيء قدير.

أيها الصديق: إن المشروع الخيري الوطني الذي تأسس بحسن مساعيك وجميل جهادك هو الان يشكر اياديك البيضاء ويؤمل منك المدد... وهو الآن يسير في طريق التقدم على قدر نشاته في الوجود وعلى قدر معلومات المعلمين والمتعلمين فيه».

في الرسالة التي بعثها عبدالعزيز الرشيد إلى أمين الريحاني يتحدث فيها عن أربعة أمور هي في حقيقتها من الأهداف العميقة للنهضة الفكرية في شرق الجزيرة العربية، وتوصي برفع شأن الأمة بين الأمم، وتنبيه الأذهان إلى مطالب العصر، ودور المثقفين في المنطقة، والنظر إلى النهضة على أنها لأمة عربية واحدة وفيما يلي نصه (77):

«دعاني لكتابه هذه السطور - والدواعي جمة - ما يدعو المشتاق كبت اشواقه والرفيق للتحديث مع رفاقه ومجال القول في الشؤون الإنسانية واسع كل يأخذ فيه بحسب ميوله ومقتضى حاله، وأهم ما يتحدث به الإخوان وان تناءت بهم الأوطان، هو ما يتواصلون به من رفع شأن أمتهم بين الأمم وتنبيه أذهان خاصتهم إلى مطالب عصرهم وإذا نظرنا إلى ذلك بعين الاستحسان من وجه عام فلا شك أننا ننظر إليه بعين الواجب من وجه خاصة. وهذه الرسالة تمثل أهم عناصر الحركة الفكرية عن روادها في شرق الجزيرة العربية والمتعاطفة مع هموم رواد الفكر لدى أخوانهم العرب».

هناك نوع آخر من الرسائل التي كانت متبادلة بين حكام المناطق في شرق الجزيرة العربية، وبين الدول العثمانية، ولذا فإنها تعتبر خير دليل لأنها رسائل من الأمراء وحكام المناطق الإقليمية ولا بد ان تمثل الصورة المثلى لنشر تلك الفترة، وسوف نتعرض إلى رسالة الشيخ قاسم بن ثاني، قائممقامية قطر إلى السلطان العثماني، لأن هذه الرسالة يمثل في طورها الأول أعلى مستوى من حيث علمه وثقافته وبالنسبة لقومه في قطر، وما يصدر من رسائل يعتبر تقريبا مرآة للنشر القطري في زمنه، وفيما يلي رسالة الشيخ قاسم بن ثاني والتي بعثها إلى السلطان عبدالحميد الثاني عام 1893، وحاول كاتبها التنسيق في الأسلوب وخلع الألقاب وتعظيم شأن المرسل إليه مما هو معتاد في الرسائل الديوانية: (78)

بسم الله الرحمن الرحيم

«إلى حضور عالي حضرة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين السلطان ابن السلطان الغازي عبدالحميد خان ثاني ثبت الله أركان مجده، وجدد أوقات سعده، وكب الله ضده، وثم المهدي لحضرة سعادتكم الوسيم شريف لطائف التحية والتسليم مصحوبا بالتبجيل والتفخيم لجنابك الكريم والمرفوع لسامي المجد والاحترام بأن وصلا إلينا محمد مظفر بك، وإسماعيل حافظ بك بن باشية من أركان الحرب وكنا ممنونين ومشكورين ولأمير المؤمنين بالخير والنصر داعين، اللهم

ريد أمير المؤمنين على جميع المعادين، من خصوص أنا يا خادكم وخادم من يخدمكم قد خدمت الدولة العليا اربعا وعشرين سنة وأنا في سن الأربعين واليوم أنا ابن خمس وستين سنة، وكنت صاحب ثروة ومدخالها على من التجارة وجميع ما في يدي خدمت به الدولة العلية إلى أن ذهب الشباب والمال في خدمة الدولة العلية ولا يدخل على من الدولة معاش ولا بارة واحدة، ولا اخذ من الولاية ولا روية والآن قصرت الهمة والمال تلف ولا لي قدرة على القائمقامية فأنا طالب من الله ثم من أمير المؤمنين الاستعفاء من القائمقامية وأكون بذلك في نهاية الممنونة والمسروية، وأنا كذلك في الخدمة وتحت العبودية. وقد بينت لجناب والي ولاية البصرة حمدي باشا نبذة من النصيحة في هذه المادة والامر امركم ولا رلت مؤيدا بعناية الرحمن والسلام.

حرر في شهر محرم في 16 سنة 1311هـ خادكم قاسم بن محمد بن ثاني قائمقام قطر⁽⁷⁹⁾. وفي نهاية الرسالة تذييل يتضمن شكوى قاسم من البريطانيين وإنهم قد اخذوا منه مبلغ أربعة عشر ألفا واربعمائة روبية بالقوة وإنه يترجى الدولة العلية على استرجاعها، وأنه قد اخطر حافظ باشا بذلك.

نلاحظ في هذه الرسالة بعض الملامح الفنية من السجع وبعض التائق في اختيار الألفاظ والجمل المناسبة لمقام السلطان العثماني.

يبدو من تلك الكتابات أن جيل الحياة الفكرية في شرق الجزيرة العربية، قد قام بجهود واضحة في سبيل انهاض المنطقة، وتوزعت جهودهم في عدة ميادين، منها التعليمية والاجتماعية وثقافية عامة، مما اثرت هذه الجهود في التعبير الثري بأغراض ومضامين جديدة وأدت في النهاية إلى نقائه وحيويته، وبالتالي تطور الأسلوب فنيا من السجع والتزين إلى السلاسة والإفصاح، وعلى الرغم من أن النثر في تلك الفترة ظل يحمل بعض القيود الفنية القديمة، إلا أنها لم تزد على التقسيم المقبول والقييد الذي لا يشل حركة العبارة وأسلوبها في سياق متكامل، ويمكن القول بأن كتابات رواد الحياة الفكرية في شرق الجزيرة العربية، كما اتضح من النماذج السابقة قد دلت معظم المشكلات الأسلوبية بحيث أهلت النثر في أدب شرق الجزيرة العربية ليلحق بالآفاق التجديدية في الأقاليم العربية الأخرى.

ثانيا: الشعر النبطى

الشعر الشعبى أو النبطى ويعنى به ايضا الشعر العامى، وألفاظه هى الألفاظ الدارجة فى لهجة سكان شرق الجزيرة العربية، وسمى بالنبطى نسبة إلى الانباط الذين كان قد سكنوا بين نهري دجلة والفرات متاخمين لحدود الشام والعراق، وهم خليط من مخلفات الحروب القديمة وتختلف لغتهم عن اللغة العربية، وقد ظهر هذا اللون من الشعر فى عصور الانحطاط عندما قلت العناية باللغة العربية الفصحى، وانتشرت اللهجات العامية فى القرن العاشر الهجرى واختلط العرب بجنسيات مختلفة(80).

بما إن الشعر الشعبى كان منظوما باللهجة العامية التى تستغلق بعض المعانى فيها أحيانا على السامع، وخاصة إذا كان من خارج المنطقة التى نظم فيها هذا الشعر، ولهذا أطلق عليه «نبطى»، كناية عن عدم فصاحته ووضوحه وخروجه على اللغة العربية(81).

لهذا جاءت هذه التسمية نتيجة الأخلط من الناس الذين سماهم العرب نبطا، ويسمى هذا النوع من الشعر «بالأدب الشعبى» لأنه الأدب المتداول بين أوساط السكان بلغتهم الدارجة بينهم، وهذا النوع من الأدب له قيمته، ويمكن فهم كثير من مشاعر الأمم وخواصها، وقد خصص العلماء فى العصر الحديث دراسات وافية وازداد الاهتمام به وأصبح مظهراً من مظاهر المجتمعات الحديثة ووسيلة من وسائل الدعاية والتعريف بها(82).

بما أن العرب كانوا سبقوا الأمم فى كثير من مظاهر الحضارة فإنهم لن ينسوا هذا الجانب من الشعر الشعبى الذى يمثلهم خير تمثيل، وأدب العرب بطبيعته أدب شعبى، ففى عصر الفصحى كان العرب يعبرون عن مشاعرهم وخواطريهم بالشعر المعروف لدينا بالفصحى لأنها كانت لغتهم الدارجة، وعندما ضعفت اللغة الدارجة الفصحى بين العرب نتيجة اختلاطهم بغير العرب ظهرت اللهجة العامية الخليطة والمؤثرة من تلك الجنسيات، وكأثر لذلك أخذ هذا العامل يؤثر على العامية فجاء تعبيره بها، لأن كلماتها هى التى تسبق التعبير الشعبى أو النبطى، ومن هنا أيضا تظهر قيمته وتحدد ميزاته، وفى شرق الجزيرة العربية لدينا من هذا الأدب الشعبى الكثير، ونجد له شعراء معروفين ووقائع مشهورة ومداولات شائعة(83).

هذا الشعر النبطي، كان الوسيلة الوحيدة للتعبير شعريا وفكريا في شرق الجزيرة العربية قبل إنشاء التعليم الحديث، وكان الشاعر النبطي يعتبر خطيب قومه وقبيلته وحكيمها وصحفيها في تلك الفترة، وهو الذي كان يستثير الرجال في الحرب، وهو الذي يشيع انتصارات عشيرته أو قبيلته ومفاخرها، كما كان يرد على خصومها وايضا فإنه يسامر قبيلته بالغزل الممتع والوصف الرائع في ليالي الشتاء الصحراوية الباردة داخل مضارب الخيام(84).

لم يقتصر شعراء الشعر النبطي على ذلك، وانما حملوا سمات وصفات البيئة الشعبية، وارتكزوا على أرضيتها الثقافية والتاريخية، ولذا جاءت تجربتهم الشعرية تلبية لواقع حاجاتهم ومتطلباتهم، وصوروا الواقع الإقتصادي، وعالجوا القضايا الاجتماعية وخاصة الجوانب السلوكية والممارسات الأخلاقية، كما أكدوا الانتماء القومي العربي، وقد حفل الشعر الشعبي أو النبطي بالسخرية التي كانت أهم وسيلة والفعالة والنافذة والمؤثرة في نفوس الأهالي، إضافة إلى ذلك فإن الشعر النبطي يتغلغل في البناء النفسي الاجتماعي ويدرك لأدق تفاصيل معتقداتها، كما تصدت للمظاهر السلبية في المجتمع، ويتضح في الشعر الشعبي التعاطف الإنساني، والمشاركة الوجدانية والتبني لقضايا وهموم الفرد كإنسان في البنية الاجتماعية وخاصة الطبقات الفقيرة(85).

فيما يلي بعض النماذج من الأبيات التي تعالج بعض تلك القضايا:

وصف قوى في هذه الأبيات لقاسم بن ثاني عن القوة والشجاعة والعبر من التاريخ ويتأسى بمن سبقه من عظماء وملوك وفي مقدمتهم سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.

هو الدهر يستعدي الفناء بقاؤه	ونستصغر الخطب العظيم مصائبه
له عشرة بالمرء لا يستقيلها	إذا ما انبخت للرحيل ركائبه
أباح حمى كسرى بن ساسان صرفه	فلم تستطع عنه الدفاع مزاربه
وكر على أبناء جفنة كرة	سقاهم بها كأسا زعانا مشاريه
وأعظم من هذا وذاك مصيبة	قضى النحب فيها المصطفى وأقاربه
هم الأسوة العظمى لمن ذاق غصة	من الدهر أو من أجرضته نوائبه

أما الشاعر أحمد يوسف الجابر من قطر فيقول في أبياته: (86)

منال العلى صعب المراق واوعر	ويحر الأماني لاينى الدهر يزخر
ومن عجب الأيام والدهر كله	له عجب يعنى به من يفكر
وذو الجهل لايعبأ بشيء يقوله	ولا هو من أحموقه إليه مدبر
عجبت لأقوام تجنى سفيهم	ولم يلقي يوما من يرد ويزجر
على نفسى تجنى براقش أنها	مبادئ جهل وهى بالسوء تنذر

فيما يلي أبيات للشاعر عبدالله الفرج والذي يصور الواقع الأخلاقي والسلوك الاجتماعي الذي يتناسب مع الوضع الاجتماعي والمناخ الاقتصادي البسيط حيث قال: (87).

السد لا تبديه كود لواحد	يخفيه كالليل البهيم الياهدا
وأصبر على جور الزمان وميله	حيث الصبر راعية ما يترك سدى
واستحمل الزلة وسامع صاحبك	وأصفع عن الجاني وعده كالصدي
لاخير باللى ما يحمل الزلة	ولى دعى للخير ما سمع النداء
وارحل عن دار المذلة طالب	عز ولو حذك على الموت الحدا
وأن حذك الدهر وبغيت تعاشر	عاشر عفيف مائدنى بالردا
أنف اللثام وعاف لا مقربهم	فالحر ما ياله على شوف الحدا
العد ينهل والسراب بضده	بها لصالح المحكى سدا هو والصدى

يقول أيضا:

أشر الورا من يقرض العرض بالورا	سل الله عن قربه نوى مايزايل
وبالواجب الا نسان يعقل لسانه	إلى عاد مسلم عن عروض الحمائل
وبالصمت منجى عن أذى كل ذلة	وذى خصلة محمود بالخصايل
وترى ترك (مالا يعنى المرء) حجة	على حسن اسلامه من أقوى الدلائل
ومن لا يعز النفس ما عز قدره	ولا نال جناه بالضحى والأصايل
ومن كثر الترداد فى كل مجلس	على الدرب ، مل وحل وفوق الملايل
ومن زار غب، زاد حب ورحبت	وفاز به الناس لوماله عليهم جمايل

ومن «جاد» ساد وفاز بالحمد والثنا
وباعد عن المنزوع عن وجه الحيا
وترى اللبس ما يرفع على فوق منصب
ولا يدرك الحاجة من الناس عاجز
ولا خير بالحاجة إلى حال دونها
وبالرأى يمكن يطعن المرء ضده
يقول أيضا (88):

لا تلبس أثواب الردى وأنت لباس
ولا تصحب الغوغا وتعنيك ألا رجاس
من كل نمام حـود ديلاس
همه أملا بطنه وتحريك الأخراس
ثوب الثنا والحمد خير الملايس
أهل الدغاييل والذياب العماليس
يرش على الغيبة بخمس التفاليس
كالذيخ ما يرح يدور الدنافيس

أغلب الشعراء الذين ينظمون الشعر النبطي يستهلون قصائدهم بالثناء على
الله والابتهال إليه والتوسل، إلى أن يصل إلى غرضه الأصلي، ثم يختم قصيدته
بالصلاة على النبي وآل بيته الطاهرين، وهم بذلك يعطون القصيدة جوا دينيا محبياً
رقيقاً ويجعلون القارئ على صلة بربه وهو يستمع إلى هذا النوع من الشعر،
ويؤكدون في قصائدهم إيمانهم وثقتهم بالله وتفويض أمر حياتهم إليه مما
يدخلون إلى قلب السامع السكينة والطمأنينة.

سوف نورد بعض أبيات لقاسم بن ثاتى حيث يقول فى بعض شعره (89):

بالله يا والى على كل والى
يواحد عرشة على الناس عالى
الحمد لله والشكر أول وتالى
نسألك وحدك لا لغيرك نسألى
يا من بعلمه دبر الفلك والكون
وأمره وحكمه بين كاف مع نون
ولك الثنا والمجد يا عامر الكون
ونخلص لك الدعوى فرض وسنون
ثم يتابع القصيدة بقوله:

والقصر خلى له من الناس خالى
خلوه ما عاجوه بروس البغالى
نبغى السبب فيهم عساهم يمرون
يبنون السلامة جعلهم مايتنون

ماساقت الخادة لدور الحلالى ولا ترنضى باذل فى مسكن الهوى
ونفسنا ترخص لنا كل غالى ورخص بها فى ساعة الناس يغفلون

ثم يقول

فأقسمت ما أعطى السلاطين الطاعة ولا أحكم القانون فى القضاة
وجاهدت فىك الدولتين وتبعهم رجاء فىك يامن لا يخيب رجاء
وأجرنا بها الحبين من ضيم حقهم وتوسع لهم عقب المضيق فضاة
واجزنا بها أخو صافية يوم ضدته جميع النحيايا والرفيق جفاء
وأحميد أجرناه من مواعيد زايد ألين قلبه فى جسميغ أخطاه

ثالثا: الشعر العربى الفصيح:

فى هذه الفترة كان الشعر النبطى هو الأكثر انتشارا، وقد يرجع ذلك إلى أن الشعر العربى الفصيح يرتبط بانتشار التعليم ويحتاج إلى شاعر ملفت للنظر كما كان البارودى فى عصر عندما لفت الأنظار إلى المستوى الفنى للشعر العربى الفصيح فى أحلى عصور الازدهار الأدبى، أما فى شرق الجزيرة العربية، فقد حاول القيام بذلك الشاعر عبدالجليل الطباطبائى والذى عاش فى تلك الفترة وتنقل بين «البصرة» التى نشأ فيها، وتزوج فى «الزبارة» بقطر وعاش فترة فى البحرين ثم استقر فى الكويت حتى توفى هناك. ومن أشعاره هذه الأبيات: (90).

لك الله إنى من فراق الحبائب لفى لاعج بين الأضالاح لاهب
أكابد أشواقا يكاد لفرطها توقد فى جنبى نار الحبباح

يعتبر الشاعر «ماجد بن صالح الخليفى» 1873 - 1907، أول شاعر قطرى نظم بالفصحى وإن لم يكن متمكنا من اللغة العربية الفصحى، وهذا راجع لتأخره فى التعليم فى عصره مما اتسم شعره بالضعف، ومع ذلك فإن الفضل الأول يرجع إليه فى محاولاته لنظم الشعر بالفصحى فى وسط صحراء قاحلة فقيرة بالثقافة والمعرفة فى عصره، وهذه بعض أبياته فى الغزل (91):

وجه المليحة ذاك أم بدر السما وذوائب أم تلك ليل أظلمـا
لكنها محسوبة بكتائب لمجائب يحملن أسدا غشما

عجبا لقلبي يالها من حسرة
 في ليلة قد تميهبت وتجلبت
 قالت ألا ليت المحببة لم تكن
 أرخصت نفسك في الهدى وتركتنا
 فاحببتنا المت أهون فاعلمي
 قالت إذا قد نلت ما أملت
 في خيمة فيها الأعداء جثما
 بظلامها وسماؤها قد غيما
 إذ جئتنى والناس حولي نوما
 غرضاً لقول الحاسدين اللوما
 من نار شوق في الفؤاد تضرما
 أنت الحبيب فقر عينا وأنعما

أما في الأحساء فقد كانت هناك مطارحات شعرية وهى من أكثر الأغراض التى طرقها الشعراء فى الأحساء، وكثر الأدباء والمتعلمون وشاعت بينهم الثقافة أكثر من أى إقليم فى المنطقة، وهذا يدل على وعى بيئة الشاعر⁽⁹²⁾، ويقال «كل أهل المبرز»⁽⁹³⁾ شعراء» وأكثر ما شاع الرسائل الإخوانية من الشعر، حتى اتخذت هذه الرسائل الشعرية سمات رسالة النشر، وهناك مثل لعبد اللطيف المبارك يقول حول ذلك⁽⁹⁴⁾: «شاب عليها الوليد وهرم عليها الكبير».

من الملاحظ أن شعراء المنطقة لم يكن لهم خط فكرى إسلامى واضح مثل إخوانهم فى مصر والشام وخاصة تجاه الأحداث السياسية فى تلك الفترة مثل الدعوة للجامعة الإسلامية ودخول الدولة العثمانية أيام الخلافة وهذا ما نجده فى شعر شوقى وأحمد محرم على سبيل المثال، فى حين نجد شعراء المنطقة يحتفلون بالمناسبات الدينية كذكرى مولد النبى والإسراء والمعراج وشهر رمضان والعيدى، وهذه المناسبات الدينية تثير فى أنفسهم هموم رؤيتهم لأحوال المسلمين⁽⁹⁵⁾.

إن شعراء العربية الفصحى فى شرق الجزيرة العربية، كانوا ينظمون قصائدهم على نهج القصائد العربية القديمة، فيستهلون بذكر الأطلال والديار والغزل، ثم يذكر تعب المرحلة حتى يأتى إلى الهدف الذى من أجله أنشد القصيدة من مدح أو رثاء أو حكم أو نصيحة يوجهها إلى الأبناء أو الأصدقاء أو غير ذلك⁽⁹⁶⁾.

سوف نتطرق إلى نماذج هذا اللون من الشعر عندما نتحدث عن رواد الحركة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية وإنتاجهم الأدبى من الشعر.

رابعاً: قصائد من التراث الشعبى

بالإضافة إلى الشعر الشعبى والفصحى، فإن شرق الجزيرة العربية غنية بقصائد من التراث الشعبى ونختار بعض الألوان منها:

(1) قصائد التحميدة

عندما يحفظ الولد القرآن الكريم، يجتمع الأهل والطلاب في منزل المعلم أو المطوع، ويختارون أحد الطلاب الأذكياء، ويكلفونه بحفظ «أنشودة التحميدة» لاشتمالها على الحمد لله والثناء عليه وتمجيده، فإذا قرأها الولد وحفظها، جمع أبناء المدرسة ودار بهم في الحى وهو يقوم بالانشاد والأولاد يرددون من بعده وهى (97):

الحمد لله الذى هدانا للدين والإسلام واجتباننا

والأولاد يرددون من بعده آمين

سبحانه من خالق سبحانه - بفضلہ علمنا القرآنا

نمده وحقه أن يحمدا - حمدا كثيرا ليس يحصى عددا

طوال الليالى والزمان سرمدا - وأشهد أن الله فردا واحدا

آمين

ياوالدى انظر فى حالى لقد اتكم عصابة الرجال

فبيضوا وجهى ببذل المال ووجهنا يلمع كالهلال

كمطلع الشمس على الجبال

آمين

سيروا على اسم الله ثم سيروا

وهللوا الواحد الكبير

الحمد لله الحميد المبدئ

يأتيك طير من طيور الهند

الحمد لله الحميد المنعم

ورب من طاف بحول زمزم

ياشيخنا هذا بنوك فاعلم

فطلب منك واجب المعلم

الحمد لله الحميد الوالى

سيروا على الديباج والحرير

فإنه بسر كم خبير

سبح له طير السما والرعد

مخضب الريش حسين القدر

رب النبى الطاهر الكريم

وطاف سبعا وسعى فى الحرم

جئنا إليك مصير مرهم

معلم القارئ كشير الفهم

ذو المن والعزة والجلال

ب - قصائد «الجلوة»

تنشد هذه القصائد في الأعراس، عندما يعمدون إلى إجلال العروس على كرسى، ويجللونها بخمار واسع فضفاض من القماش الحريري الملون النفيس والمطعم بخيوط الذهب أو الفضة، وتقرأ قصائد تسمى «الجلوة» وهى قصائد نبوية دينية، وفيما يلى بعض هذه القصائد:

القصيدة الأولى:

صلوا على خير الأنام	المصطفى بدر التمام
صلوا عليه باكرام	سلم على المولى على
نادى المنادى فى السمام	فاطم إلى حامى الحما
كل الخلائق تفهمما	مازوجهما إلا على
نادى المنادى أفضىلى	هناك ريسى يا على
فاطمة عروس وفائزها	مازوجهما إلا على
سمعوا لقولى وافهموا	عن بعضمة الكرمو
كل الخلائق تفهمما	مازوجهما إلا على
ما أنزل المولى الجليل	أوراق ما لها مشيل
قالوا له قوموا المجليل	لخطبة الموالى على
خلاخل مصنوع عجيب	مريضع ابدر الرطيب
من أحمد ذاك الحبيب	لبنت النبى المرسل
فما قبل المولى يقول	أنا على فحل الفحول
إنى تزوجت البتول	بنت النبى المرسل

القصيدة الثانية:

أمينة في أمانيها
 تجلت وانجلت حقاها
 جبين كالبدرياض
 لها رب السمما راض
 لها حاجب كما الاقلاص
 فمما من مثلها بالناس
 لها عين غزالة
 خلقها جل جلاله
 لها قم كما المحبس
 نطق لها جمل أخرس
 ضفاير شعرها خلت
 وحات الحور وشملت
 فلمسا أتت الجلوة
 وكانت ليلة حلوة
 تجلت ليلة الاثنين
 محمد جد الحسين
 تجلت ليلة الخميس
 يا أهل العلم والتدريس
 تجلت ليلة الجمعة
 محمد باهى الطلعة
 تجلت فى قسبا ورد
 وحملت بالنبي العربي
 تجلت فى قسبا أصفير
 وحملت بالنبي الازهر
 مليحة فى معانيها
 سسالت الله يهنىها
 وريقا يشفى أمراض
 وأحسن فى معانيها
 وتمايل كعود الياس
 أبا المختار حظى فيها
 وفوق الخلد لها خالة
 وأحسن فى معانيها
 وجنب ناعم أملس
 وظل حاير فيها
 على أكتافها دلت
 وحور العين تجليها
 وراحوا فيها بالخلوة
 أبا المختار حظى فيها
 وحملت بالنبي الزين
 لقد شرفت أراضينا
 وحملت بالنبي الأنيس
 لقد شرفت أراضينا
 ولها خد كما الشمعة
 لقد شرفت أراضينا
 وفواح المسك والندا
 محمد خير من فينا
 وفواح المسك والعنبر
 سسالت الله يهنىها

القصيدة الثالثة:

صلى عليك الله يا العبدانى	يامصطفى ياصفوة الرحمانى
قوموا لآمنة على كرسى الرضا	حتى تراها الحسور والولدانى
ياخسها من ليلة جليت بها	بمحمد هو سيد الاكوانى
فى حلة ذهبية قد اقبلت	صفرا ومشرقة على السلطانى
فى حلة حمراء لنا المجلت	الله فضلهما على النسوانى
قد خمورها بالسواد وقد سبت	كل الورى يامعشر الاخوانى
لما مشت من بينهم وتبخنرت	قالت عطانى الله عظيم الشانى
يا آمنة قومى اسلبى سيف الرضا	قالت اريد وعدا يكون امانى
نزلت ملائكة السماء لعرسها	ونقطوها الدرر والمرجسانى
لما مشت خدامها جدامها	بباخر الفضة وعود البانى
ولبسوها التاج فوق جبينها	مرصع بالدر والمرجسانى
رضوان ربى دائما على النبى	وهى معه فى جنة الرضوانى

خامسا: التأليف

إذا ما تركنا جهود رواد الحركة الفكرية جانبا فى مجال التأليف الدينى فإننا نجد مؤلفاتهم التالية تصب مباشرة فى مجال التاريخ سواء العام أو الأدبى لمدن وأقاليم شرق الجزيرة العربية، وتوجد مجموعة من المؤلفات فى هذا السبيل، وبعضها لا يقف عند حدود التاريخ بمعناه الاصطلاحي بل يتعدى إلى تاريخ الحياة العامة بكل أبعادها، مما يعطى صورة لطرائق الجيل الماضى فى كتابة التاريخ، وتتضح طرائق التعبير الثرى وما أصابه من تطور بأقلام مؤلفى تلك الفترة.

من أهم المؤرخين فى تلك الفترة هو المؤرخ الكويتى عبدالعزيز الرشيد ويصفه الأديب العماني والذي كان وكيل وزارة الإعلام فى دولة الإمارات ثم أصبح وزيرا فى عمان بقوله: (98)

«وليس فى الكويت وارجاء الخليج جميعه من لا يعرف مؤرخنا فهو الشيخ المرحوم عبدالعزيز بن بداح الرشيد مؤلف كتاب تاريخ الكويت، فأنت إذ تقرأ

كتابه تعيش في موكب عامر بالحداء ملء بالرفاق حافل بالجديد ما تكاد تقرأ به الآثار حتى تشهد أمام عينيك إخباراً عن اللؤلؤ وما تكاد تسأل عن الحكم حتى تعلم أن حكام الكويت قد وضعوا منذ توليهم الحكم الشورى شعاراً، فلا تعجب إذا شهدنا الدستور اليوم بعد عام من الاستقلال، ثم ما تكاد تكشف سجل الحياة ونبض القلوب وحيوية المشاعر حتى يواتيك هذا المؤرخ الكبير بالأدباء من أبناء الكويت فتعلم بعد ذلك إنك إزاء رجل عظيم وتراث كبير⁽⁹⁹⁾.

قسم المؤرخ عبدالعزيز الرشيد كتابه إلى قسمين⁽¹⁰⁰⁾: الأول يتحدث فيه عن تاريخ الكويت سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، والقسم الثاني عن تاريخ الكويت الأدبي، ومن هنا جاءت ميزة كتابه، فقد ضم كل ما يهم المؤرخ، أما الناحية الأدبية، فقد عدد فيها الشعراء وأقام بذلك البرهان على حيوية الكويت وازدهار الأدب فيها⁽¹⁰¹⁾.

هناك مؤرخ آخر من الأحساء، وهو «محمد عبدالله عبدالمحسن آل عبدالقادر» الذي أرخ للأحساء في مجلدين خص الأول بالتاريخ السياسى للأحساء والثاني تاريخ الأدب للأحساء، وإن مؤلفات «محمد عبدالله آل عبد القادر» يتعرض لتاريخ الأحساء منذ بداية خضوعها للدولة العثمانية، والكتابة في هذه المرحلة متأثرة في الأسلوب بضوابط الرواية والتدوين التي عرفها العالم العربي منذ القرن الثاني الهجري، كما تشترك تلك المؤلفات في انفرادها بالتاريخ الحديث⁽¹⁰²⁾.

بعض رواد الحركة الفكرية في شرق الجزيرة العربية:

لم تكن هناك حدود سياسية تفصل الإنتاج الفكرى بعضه عن بعض، في حين كان الشعر هو الرباط المشترك من الماضى إلى الحاضر، وهو أهم روافد الثقافة الفكرية في شرق الجزيرة العربية، ولا يمكننا أن نحدد بالتحديد مكان الاستقرار لرواد الحركة الفكرية في شرق الجزيرة العربية بدقة، وذلك لأن الأغلبية منهم كانت تتجاذبها مجتمعات المنطقة ذات الفائض الاقتصادى، ولهذا يصعب تحديد انسابهم إلى الإطار السياسى الحديث، وإنما يمكن تحديد موطنهم الأصلى الحقيقى، وهو مجتمع الجزيرة العربية، وعلى سبيل المثال، عبد الجليل الطباطبائي نجد له تأثيراً في البصرة والكويت والبحرين وقطر، وعبدالعزيز الرشيد في الكويت

والبحرين، وعيسى القطامي بحار كويتي يكتب من عمان ويعمل فيها قاضيا ويتوفى هناك، والشاعر الكبير عبدالله بالخير حضرمي حجازي، وغيرهم كثيرون (103).

نجد خلال دراستنا أن معظم رواد الحركة الفكرية في شرق الجزيرة العربية كانوا من رجال الدين تقريبا، وهذا راجع إلى الجو الديني الذي كان سائدا ومحافظة، وأن النظام التعليمي والاجتماعي كان يدور حول التراث الروحي ولعبت الأسر والبيوت التي عرفت بتاريخها العلمي والديني دورا هاما في الحركة الفكرية، وإن البيئة الروحية التي خرج عنها هؤلاء جميعا في شرق الجزيرة العربية، كانت تجعل الإصلاح الديني واللغوي أساسا لكل إصلاح فكري وفني (104).

سوف نتطرق إلى بعض الشخصيات من كل إقليم من أقاليم شرق الجزيرة العربية الثلاثة، أثناء الحكم العثماني، فنأخذ من الكويت عبدالله محمد الفرج، ومن الأحساء الشيخ عبدالله علي عبدالقادر وأحمد عزة العمرى الوالى العثماني ومن قطر الشيخ قاسم بن ثاني.

أولا: الكويت

- عبدالله محمد فرج الصراف 1836 - 1901م

من الأدباء الذين تلقوا الثقافة العربية «والأردية» في مدينة بومباي بالهند وهو ينتمى إلى الدواسر وكان والده قد سكن في مدينة «الزبارة» القطرية، التي كانت مزدهرة وكان يمارس التجارة بين موانئ الهند وشرق الجزيرة العربية وبعد دمار مدينة «الزبارة» انتقل بعائلته إلى مسقط ثم إلى الكويت، واتخذها موطنًا، وفيها ولد عبدالله محمد فرج في عام 1836، أما والده فقد استقر في مدينة «بومباي» وجمع ثروة طائلة، وبعد أن نشأ وترعرع عبدالله في الكويت سافر إلى «بومباي» ونشأ هناك نشأة الأغنياء وتجول في القارة الهندية، وتعلم اللغة الأردية وتعلم آدابها وفنونها من الموسيقى والرسم، وبعد أن توفي والده ورث ثروته الطائلة، ورجع إلى الكويت وأكب على الأدب العربي مائلا إلى الخلوة، والابتعاد عن الأهالي لعدم ملائمة المعيشة في وسطهم، وأصبح غريبا بين أهله ومواطنه، يقاسى آلام العوز المرة، ومن قرأ مرثية لآبيه يعلم مقدار الآلام التي كان يعايتها، وتوفى عام 1901 بداء الصدر. (105)

أما انتاجه الأدبي فهو الشعر، الذي ينقسم إلى نوعين، الشعر النبطي والشعر العربي الفصيح، ولكن أشعاره النبطية نالت الحظ الوافر من تصوراته وشعوره الرقيق بلغة السليقة غير مقيدة، بخلاف أشعاره العربية التي يتقيد بالألفاظ اللغوية، وقد تأثر بالأمكان والمدن التي زارها في صباه، والثقافة الهندية التي تضلع فيها، وأثرت في نفسه وجعلته يغير أسلوب الشعر النبطي ويغير طريقته حتى ضرب المثل ببلاغته، وجرت أشعاره على الألسنة مجرى الأمثال (106). وقد تطرقنا إلى أشعاره النبطية عندما تكلمنا عن الشعر النبطي، وهنا سوف نورد بعض أبيات من شعره العربي الفصيح في الغزل وقد التزم فيه بالجناس:

لقد ذكر العقيق فهام وجدا	ولولا الوجد ما ذكر العقيقا
فساقط منه خائمه الداراي	على العافى ونرجسه العقيقا
غزال ما الحريق بوجنتيه	بمحرقها ولو سكن الحريقا
عجبت بخده نارا وماء	وذلك منه ما يطفى الحريقا
فلو لم يبحر ماء الحسن منه	بصحن الخد لم يبت شقيقا
تود بأن تكون الشمس اختا	له والزفران أختا شقيقا
فقرط بالسماك والثريا	تمنطق فاغتدى غصنا وريقا
أخال الدر والشهد المصفى	ثانيا منه فى فيه وريقا
يكاد لركة يجرى انسجاما	الست ترى له جسما رقيقا
فوذ والتاج أبصر ذا المقدى	لود بأن يكون له رقيقا
فساله يسمعا بغيه	مقالا منه أو معنى دقيقا
ونخشى أن نرى حربا رحاها	إذا دارت تغادرنا دقيقا
آخر مفوق السهمين لما	رمى عن قوس حاجيه الرفيقا
وهل أصمت من الناس الرماي	له إلا الشفيق أو الرفيقا
بصيد قلوبا بفخاخ سحر	وليس بمفلت منها وسيقا
فكم أبصرت حبا فى هواه	إلى النيران تزجيه وسيقا
رفيع دونه الجوزاء تبسدا	لقصد وافى من الأملاك نيقا
يشرد وصله اعن جهول	فلوا أهوى ركبت عليه نيقا

ثانياً: الأحساء

يوجد في الأحساء أدباء لو أتيح لهم الاحتكاك بأهل النهضة الحديثة في الشعر والأدب، والاغتراف من انتاجهم والاطلاع على الكتب التي الفت، لكان منهم اليوم شعراء وأدباء لا يقلون عن اخوانهم في مصر وبلاد الشام والعراق.

(1) الشيخ عبدالله آل عبدالقادر

الشيخ عبدالله على آل عبدالقادر النجاري الخزرجي، ولد عام 1290هـ في بلدة «المبرر» من الأحساء، وعمل بالقضاء، وهو عالم فقيه في الدين وشاعر معروف توفي عام 1344هـ، وهو عالم الأحساء، بلا نزاع، وأديبه، يرجع إليه في حل المضكلات، وامتاز على كثير من أقرانه في الأحساء بأدبه الجم وعلمه الغزير ودماثة أخلاقه، وطيب معاشرته ومراعاته لعواطف جليسه، وورع تضرب به الأمثال، والدعوى إلى الحق بالحسنى مع البعد عن الغطرسة والرياء، وكانت له منزلة رفيعة بين كبار وصغار مواطنيه، يحفها الإجلال والاحترام، وله أشعار يهتز له السامع بأسلوبه العذب، وكثير من أدباء الأحساء يحفظون أشعاره ويتمثلون بها، وله ديوان حافل بالقصائد والمقاطع البديعة (107) وفيما يلي بعض أبيات من قصيدة تائية يتغزل فيها بالقهوة البنية التي كان مولعاً بها:

وظبى أضـمحت الدهناء منه	خلا والحشا مرعى وبـيت
أهذا الظبى لا أرضاك شـبها	لمن أهوى؟ ولكنى كنـيت
رماني بالصـبابة من بعـيد	يمينا ما سممت ولا رأيت
تجلى لى خـيالاً فى منامى	فـمما من خلّة إلا سلـيت
اتعلم يارـعـاك الله أنى	أسـير فى يديك وما جنـيت
فلا تعـجل إذا أضـممت قـتلى	فحظى من جمالك ما قضيت
تصفـح سـنة الماضـين قـبلى	فمثلى فى مثالك ما رديت
فـمما سارت نسـيم أو تغـنت	هنسوف بالضـحى إلا بكـيت
فهذا باشر الأحباب دونى	وهذا ظل يعنى مـاعنيت
وقالوا قد سلـوت فـقلت كـلا	وربى مـاسلـوت ولا عـسـيت

أغشني أيها الساقى لعلى
بكأس من جنى البن اليمماتى
أهذا البدر فى كأس التهاتى
سلاف سلل راح رحمين
مشعشة يطيب لنا شذاها
شراب بيعت الأرواح حتى
إذا أم الخبائث نازعتها
تد نباهة عسلى كما قد
إلا زعمت بأن الكأس يصبو
أليست صبغة العشاق فيه
فغرت من الحبيب على حبيب
إذا زار الخيال وشيعته
ففاضت مهجتي دمعاً وثارت
على تلك الملامى فاسقيتها
ثلاثاً عد ساقبها علينا
معان جليت فى كل قلب

إذا أظنك نازلة سقيت
بنفس أنت من ساق فديت
مع الاشرار أم شفقاً حسيت
شفاء الهم حمراء كميت
متى آنت رباها انتشيت
لو أنى مقعد عمرى مشيت
لطيفاً من شمائلها زيت
يمس دباله النبراس زيت
إلى الساقى ويجنى ما جنت
فتشهد لى بأنى ما افتريت
وهل تدوى لايهما قضيت
مع الأسحار أنفاس هويت
من الأحشاء أشواق طويت
إذا ما الكأس أشهى ماشيت
إلى خمس ولاء فاشتفت
وقلب لم يجدها فهو ميت

(2) أحمد عزة العمرى الوالى العثمانى على الأحساء

كان أحمد عزة العمرى، أحد فضلاء وأدباء العراق الذين ضربوا فى الأدب العربى بسهم وافر، وله نظم بديع يدل على تمكنه من الشعر وامتلاكه لخاصيته، عين والياً على الأحساء من قبل الدولة العثمانية فى عهد السلطان عبدالحميد الثانى، وكان هذا الوالى مولعاً بالشعر ومجالسته لعلماء الأحساء وأدبائها، كما مدح بعض الأدباء بشعره الخالد الذى لا يزال أدباء الأحساء يتناشدون إلى يومنا هذا.

قدم قصيدة للشيخ راشد عبداللطيف المبارك، مدحه فيها وأظهر إعجابه بمواهبه، وأخرى لشيخ عبدالله آل عبدالقادر، قاضى مدينة البرز وفيما يلى القصيدة التى نظمها أحمد عزة العمرى:

عداها وحقق عداها
 دعاها الهوى فاستجابت له
 سقساها على اثلاث الأثيل
 وأوجسها وهي بابل
 وطاف بها طيفه سحره
 تهيم بنجد وأوطانه
 إذا هبت الريح تلقى
 نحن إليه حنين العشار
 فيا ضاحك البرق من أفقه
 ظمئت إليك إلا فاسقني
 وباساجعما فوق أفقائه
 إذا حسن مزهرا أحشائه
 طروبا ببهجة أوطانه
 نسيت هديلا فلم تبكه
 أليف مضى لم ينحن عهده
 أغرك هذا النعيم الذي
 أليس فتى العبد لما وفي
 طولاً كـمما خط ذو فكرة
 ولم يبكهـا لا ولكن بكى
 يفوه الحمام بدعوى الغرام
 وكل إدعاء قرين افتراء

تذكرها الهوى عداها
 وبالسفح المجزها موعدا
 بعذب العذيب وماطرنا
 شميم العرار فيما أبعدا
 فوا عجباً منه أنى اهتدى
 كأن بنجد لها مولدا
 سحيرا تعوم عليها غدا
 لقد الخوار إذا أبعدا
 كوجه الكريم إذا استرفدا
 فقد انضج القلب حر العدى
 يهيج القلوب إذا ماشدا
 يذكر اسحقاق أو معبدا
 رياضاً غدين بقطر الندى
 وقد أبقننه حروف الردى
 وختت العهود فتنبت بدا
 وإن طال لابد أن ينفدا
 بعهد الحبيب بكى شهيدا
 على التراب قد أصبحت همدا
 عهدا تقضت وزلقا عدا
 وما أن أقام له أشهدا
 سوى من إذا ما ادعى أشهد

ثالثاً: قطر

الشيخ قاسم محمد ثاني 1823 - 1912

ولد الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني المعضادى عام 1823 وحكم قطر فى
 الفترة 1868 - 1912 وعندما جاء العثمانيون إلى الأحساء، طلب منهم الشيخ
 قاسم أن يشمل به حماية السلطان العثمانى، ورفع علمهم وبنى قلعة للجنود

العثمانيين المقيمين عنده، وكان يمتاز بكافة صفات الرجولة ومكارم الأخلاق.

جمع قاسم بن ثاني بين هموم القيادة والسياسية، وبين هموم الشعر ونظمه ولم يحدث تعارض بين السياسة والشعر في شخصيته، بل حدث بينهما تفاعل وإخصاب وأصبحت الأحداث السياسية عاطفة الشعر، الذي قام بدوره في خدمة القضية السياسية والتعبير والدفاع عنها، والسياسة تستوجب التأني والحذر والكتمان وكتيم الشعور الشخصي والأفكار الذاتية، إلى أن يأتي الوقت المناسب للكشف عنها وإعلانها: في حين الأدب على خلاف ذلك لا يجيده الإنسان ولا يبدع فيه إلا إذا أطلق لمشاعره العنان، وخلقى بين إحساسه وبين الناس يذيعها بينهم بطلاقة دون تحسب، وإن دارت بقلبه وذهنه أفكار عبر عنها، في حين لا توقفه لومة لائم، ولكن يحدث في حالات نادرة أن تتمكن موهبة السياسة وموهبة الأدب في وقت واحد في نفوس بعض القادة السياسيين فيعرفون كيف يجمعون النقيضين ويقضون بينهما، وكان قاسم بن ثاني قد أعطى لبلده وشعبه طابعا مميزا عبر السنين، وفي غمرة مصارعة الأحداث والعوامل والظروف التاريخية⁽¹⁰⁸⁾، نشأ قاسم ثاني في كنف أسرة بدأت تتربع على السلطة، وتلقى علومه على أيدي رجال الدين، وتفقه حتى وصل مرتبة القضاء والحكم بين الناس، وقرض الشعر وسجل أحداث حياته شعرا، ويبدو أنه جمع بين دهاء السياسة وحرارة الشعر، وكانت له طموحات سياسية كبيرة وقد حاربه الاستعمار المسيحي البريطاني بخططه، ووقف في وجهه وتحداها في صراع خفي وظاهر لا يهدأ ولا يلين ويتضح ذلك في نفثاته الشعرية، وكان يترصد الظروف والقوى لتحقيق أهدافه، ونظر قاسم إلى أوضاع المنطقة بمنظار عقيدته، ورأى الفساد يعم النظم السياسية والاجتماعية ورأى الخضوع للاستعمار البريطاني يتزايد في بعض المناطق ويستشري، فقاوم سياسيا وعسكريا ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وعندما اشتدت أمامه الموانع والعقبات، انطلق في ثورة شعرية عارمة إلى أبعد حدود الصراحة يدين مظاهر الانحلال لدى أعيان القوم في ذلك الوقت، ويدين بنفس العنف الخضوع الروحي والقانوني لسلطة الاستعمارية المسيحية الأوربية، ولذلك فالشعر يمثل تنفيسا ذاتيا في معاناته لتناقضات عصره في جهاده بدافع عقيدة روحية في وجه واقع محلي ودولي متشابك، وترك لنا سجلا سياسيا وشعرا حافلا⁽¹⁰⁹⁾.

كان قاسم لا يقول الشعر جريا وراء الخيال، وإنما تعبيراً عن واقع حياته، فهزت كيانه وجعلته يقول شعراً، ويبدو أنه كان ملماً بأصول النظم الشعري، فتراه يفتح قصائده بالوقوف على الديار حسب تقاليد الشعر العربي التقليدي حيث يقول:

أرى الدار بعد الظاعنين خراب وعقت عليها الحادثات أنياب
مريتها وأنا على أكوار ضمير وجود يدوس الحديد أصلاب

يصور ألمه لحالة الانحلال الاجتماعي والسياسي في المنطقة بقوله:

ولكن ضعف الدين ينبي بما جرى فعلينا جنود الشرك والكفرا لبوا
فدانت لهم شيخان الأطراف واذعنت فلا عالم انكر ولا حاكم فكر
يوالونهم بالحب رغباً ورهبة كذا قد بدا الإسلام في حال غربة
وللحادثات المقبلات أسباب بغربانها واتباعها وأطواب
يسومونهم بالذل سوم عذاب يعدون شهار المشركين صواب
على شأن طرد اخوانهم القرباب ويرجع غريب وحنابن أعرباب

يعتز بدوره وجهاده ويحدد موقفه من حركة الغزو الاستعماري المسيحي البريطاني واستمرار مقاومته لهم وانفصاله عن الذين سالموها:

وخرجت بين السلاطين كأنني أراهم ينحزر العين شرار عداوة
لنا الساسة العليا على كل شرك لك الحمد يامن هو بتقواه عزنا
حجاب حجبنا نحن موالة غيره حر تعلق فوق رؤوس هضاب
ديننا أوينه ويكل أرياب وعلى كل من له أوثان القبيبا رباب
وجعل لنا الدين القويم احجاب وذا شأن من طاع الاله اثياب

يشير إلى جلد أصحابه وركوبه معهم المراكب الصعبة رغم ما يلومه عذاله من التمسك بالمسالك الوعرة من بين مطامع الدول ويذكر علاقته الوثيقة بأبناء بلده أوقات الشدة وعونه لهم قائلاً:

فأنا لى على كل البوادي قد ايم ابذل لهم نفسى ومالى وعصبتى
رقدا مرتقى العليا من رقى بها فلا خير فيمن يتبع الهوى والردى
يلومنى العذال فى مطلب العلى ترى فيه تلف المال والجند والسلع
إذا نابهم سنة الغلا والحرايب وحض لهم فى موجبات النوايب
حرار الدم بانسيابها والمخالب ورزقة سؤال بين معطى وطالب
يقولون يسلك بك دروب صعايب وحررايم سلاطين تدور السبايب

يرد قاسم على المخاطر بوقفه تذكرنا بمواقف أبى الطيب المتنبى وأبى فراس
الحمدانى :

فلولا ركوب الصعب فى كل شدة وصبر على شداتها والكرايب
مالذا فى الدنيا لذيد ومطعم ولا لذا لى فيها لذيد المشارب
فكم لذة لذت لنا غب كـوننا نهـار على الباغين عجة سكايب

فى قصيدة أخرى يصور لنا المجاهرة بقوله :

صبرنا لها مازعزع الدهر عزمنا وقلنا بها العليا على كل طایل
فيا ماحمينا كل من هو لجانبنا إذا حبكته جيلاتها والجدايل
وياما عطينا المال فى ساعة الرخا وأصغر عطايانا السبايا الأصايل
وأكبر عطايانا إذا ما لحقوا بها حناقا على شبحه اداهام غلايل

ثم يقول :

وطينا بها الأرض الذى هاب وطيبها سلاطين فى ماضى العصور الأوائل
هناك قصيدة رثاء وشعور الحزن العميق لزوجته، وفى هذه المراثية يصف
قاسم عن جسم مازال يعيش بين الناس، أما قلبه فقد ذهب مع زوجته الحبيبة تحت
التراب، فى وفاء لا يصدر إلا عن نفس عربية انسانية :

فلا ياعنا جسم مع الناس حاضر وقلبه جعل تحت اللحد والنصايب
وجفن جفاه النوم مالد بالكرى يراعى نجوم الليل طالع وغايب
وعين تهل الدمع مع حجر سوقها كما جدول حامى غروبة حبايب
وكم عبرة فى زفرة ضمها الحشا تفككت منها القنول الصلايب
على جامل مذعورة ضمها الثرى وقد كان ضمها صفوف الأطايب
فلو ينفدى بالمال والملك كله فـديناه به ولو تظهـر سـلايب
ولو تنقـسـم الأيام بينى وبينه مما بقى هانت على المصـايب

الختام:

خلصنا من دراسة الحياة الفكرية في شرق الجزيرة العربية في عهد الحكم العثماني (1871 - 1913) إلى أن البيئة المحلية قد لعبت دورها في إعطاء سمات خاصة كما وجهتها نحو نمط معين يتفق مع خصوصيات المنطقة، من البيئة الصحراوية الممتزجة مع السواحل البحرية، ومترابطة من جانب آخر مع أشقائها العرب من ناحية التراث العربي والدين الإسلامي الحنيف.

وعلى هذا فهو انتماء طبيعي للفكر العربي، على امتدادها الجغرافي من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي، وإن كانت تحت الحكم العثماني من الناحية السياسية، فإن ذلك لم يؤثر على الحياة الفكرية، بل العكس من ذلك فإنه سهل عملية التداخل سواء الأفكار أو الأشخاص دون حاجز أو حدود سياسية، وساعد على ترابطها مع بقية الأقاليم العربية الأخرى، وأن شرق الجزيرة العربية قد تأخر عن النهضة الفكرية عن غرب الجزيرة العربية، ونعني الحجاز واليمن شمالاً وجنوباً وكذلك عن مصر والشام والمغرب العربي.

لكنها على كل حال بدأت تأخذ مكانتها في النهضة الفكرية منذ اكتشاف النفط وزيادة عائداته التي ساعدتها في أن تلحق بركب اخوانهم العرب من الناحية الفكرية.

والله ولي التوفيق.

الهوامش:

- (1) د. جمال زكريا قاسم - بحوث في التاريخ الحديث - ص 63.
- (2) د. فتوح عبدالمحسن الخترش، د. عبدالعزيز محمد المنصور - نشؤ قطر ص 51.
- (3) ج.ج.ج، لوريمر - دليل الخليج جـ 3، ص 1453.
- (4) د. عبدالعزيز محمد المنصور - التطور السياسي لقطر ص 139.
- (5) ج.ج.ج. لوريمر - المرجع السابق ص 3 ص 1453.
- (6) د. عبدالعزيز محمد المنصور - المرجع السابق ص 140.
- (7) د. بدر الدين عباس الخصوصي - دراسات في تاريخ الكويت ص 77.
- (8) د. ماهر حسن فهمي - اشكالية الشعر الحديث في الخليج - ص 14.
- (9) د. ماهر حسن فهمي نفس المرجع ص 14.
- (10) د. محمد جابر الأنصاري - تراث قطر وثقافتها المعاصرة ص 19.
- (11) د. محمد رشيد الفيل - سكان الكويت ص 88.
- (12) د. محمد جابر الأنصاري - المرجع السابق ص 19.
- (13) محمد أحمد النشمي - الزواج قديما في الكويت ص 11.
- (14) د. محمد جابر الأنصاري - المرجع السابق ص 19.
- (15) محمد أحمد النشمي - المرجع السابق - ص 192.
- (16) د. محمد الرميحي - الخليج ليس نفط - ص 192.
- (17) د. محمد الرميحي - نفس المرجع ص 194.
- (18) د. محمد الرميحي - نفس المرجع ص 194.
- (19) د. عبدالله المبارك - أدب النثر المعاصر في شرق الجزيرة العربية ص 57.
- (20) د. إبراهيم سليمان الكروي - الأصول التاريخية للتعليم في الكويت ص 24.
- (21) د. إبراهيم سليمان الكروي - نفس المرجع ص 22.
- (22) د. عبدالله المبارك - المرجع السابق ص 57.
- (23) د. إبراهيم سليمان الكروي - المرجع السابق ص 24.
- (24) د. إبراهيم سليمان الكروي - المرجع السابق ص 57.
- (25) د. محمد رشيد الفيل - المرجع السابق ص 266.
- (26) د. بدر الدين عباس الخصوصي - المرجع السابق ص 21.
- (27) د. عبدالله المبارك - المرجع السابق ص 57.

- (28) د. محمد رشيد الفيل - المرجع السابق ص 266.
- (29) «المطلوع» وهي كلمة عربية ولكنها حرفت في الحركات وهي مشتقة من الفعل الماضي «طاع»، بمعنى انقاد يطلق كلمة «الطموعة» على معلمة البنات.
- (30) «الملا» وهي تسمية شائعة لدى أبناء المنطقة وتعنى رجل الدين.
- (31) د. محمد رشيد الفيل - المرجع السابق ص 267.
- (32) «بشتخته» كلمة تركية مأخوذة من «باشا» تخته أى الصندوق الملوكى، ويحفظ فيها أدواته.
- (33) مصدر غير معروف - الناشر.
- (34) د. بدر الدين عباس الخصوصى ص 22 وانظر العمران العدد (429) 8 سبتمبر عام 1909 ص 173.
- (35) د. ابراهيم سليمان الكروى - المرجع السابق ص 26.
- (36) د. جهينة سلطان سيف العيسى - المرجع السابق ص 122.
- (37) د. ابراهيم سليمان الكروى - المرجع السابق ص 29.
- (38) د. محمد رشيد الفيل - المرجع السابق ص 267.
- (39) د. جهينة سلطان سيف العيسى - المرجع السابق ص 122.
- (40) د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص 23.
- (41) د. محمد رشيد الفيل - المرجع السابق ص 267.
- (42) د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص 23.
- (43) د. بدر الدين عباس الخصوصى نفس المرجع ص 23.
- (44) د. جهينة سلطان سيف العيسى - المرجع السابق ص 122.
- (45) د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص 23.
- (46) د. ابراهيم سليمان الكروى - المرجع السابق ص 28.
- (47) د. محمد رشيد الفيل - المرجع السابق ص 269.
- (48) د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص 25.
- (49) د. ابراهيم سليمان الكروى - المرجع السابق ص 21.
- (50) عبدالله خالد الحاتم - من هنا بدأت الكويت ص 78.
- (51) د. جهينة سلطان سيف العيسى - المرجع السابق ص 122.
- (52) د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص 25.
- (53) عبدالله خالد الحاتم - المرجع السابق ص 76.

- (54) د. جهيئة سلطان سيف العيسى - المرجع السابق ص 123.
- (55) د. بدر الدين عباس الخصوصي - المرجع السابق ص 25 - 26.
- (56) د. إبراهيم سليمان الكروي - المرجع السابق ص 57.
- (57) د. عبدالله المبارك - المرجع السابق ص 57.
- (58) د. بدر الدين عباس الخصوصي - المرجع السابق ص 22.
- (59) د. إبراهيم سليمان الكروي - المرجع السابق ص 29.
- (60) صلاح العطية - العادات الاجتماعية في الكويت ص 116.
- (61) يوسف عبدالرحمن الخليفة - التحفة البهية والأدب والعادات القطرية ص 76.
- (62) د. إبراهيم سليمان الكروي - المرجع السابق ص 33.
- (63) د. إبراهيم سليمان الكروي - نفس المرجع ص 33.
- (64) يوسف عبدالرحمن الخليفة - المرجع السابق ص 76.
- (65) صلاح العطية - المرجع السابق ص 116.
- (66) د. محمد رشيد الفيل - المرجع السابق ص 269.
- (67) د. عبدالله المبارك - المرجع السابق ص 58.
- (68) د. بدر الدين عباس الخصوصي - المرجع السابق ص 75 وانظر مقابلة مع خالد العدساني عن الديوانيات الأدبية (برنامج تليفزيوني) أذيع في 15/1/68.
- (69) د. عبدالله المبارك - المرجع السابق ص 58.
- (70) د. إبراهيم سليمان الكروي - المرجع السابق ص 34.
- (71) عبدالله محمد الطائي - دراسات عن الخليج العربي ص 103.
- (72) د. إبراهيم سليمان الكروي - المرجع السابق ص 37.
- (73) عبدالله محمد الطائي - المرجع السابق ص 104.
- (74) د. محمد الرميحي - المرجع السابق ص 195.
- (75) عبدالله محمد الطائي - المرجع السابق ص 104.
- (76) د. عبدالله المبارك - نفس المرجع ص 64.
- (77) مصدر غير معروف - الناشر.
- (78) محمد عبدالرحيم كافود - الأدب القطري الحديث ص 99 - 100.
- (79) د. عبدالله المبارك - المرجع السابق ص 69.
- (80) عبدالله محمد الطائي - المرجع السابق ص 121.
- (81) يوسف عبدالرحمن الخليفة - المرجع السابق ص 150.

- (82) عبدالله محمد الطائي - المرجع السابق ص 121 .
- (83) عبدالله محمد الطائي - نفس المرجع 121 .
- (84) د . محمد جابر الأنصاري - المرجع السابق ص 8 .
- (85) د . عبدالله العتيبي - الشعر الشعبي في الكويت وقضاياها الاجتماعية مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد 31 ص 60 - 69 .
- (86) د . محمد عبد الرحيم كافود - المرجع السابق ص 201 .
- (87) د . عبدالله العتيبي - المرجع السابق ص 62 .
- (88) مصدر غير معروف - الناشر .
- (89) د . ماهر حسين فهمي - المرجع السابق ص 15 .
- (90) د . محمد عبدالرحيم كافود - الحركة الادبية والفكرية في قطر، حوليات كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية العدد الثاني سنة 1980 ص 257 .
- (91) د . محمد عبد الرحيم كافود - نفس المرجع ص 258 .
- (92) د . عبدالله الحامد - الشعر في الأحساء ص 521 .
- (93) «المبرز» هي إحدى المدن التي تقع في إقليم الأحساء واشتهرت هذه المدينة بكثرة ادبائها وشعرائها ورجال العلم والدين والقضاة .
- (94) د . عبدالله الحامد - المرجع السابق ص 521 .
- (95) د . ماهر حسين فهمي - المرجع السابق ص 16 .
- (96) يوسف عبدالرحمن الخليفى - نفس المرجع ص 57 .
- (97) يوسف عبدالرحمن الخليفى - نفس المرجع ص 75 .
- (98) محمد أحمد النشمى - المرجع السابق ص 45 .
- (99) د . عبدالله المبارك - المرجع السابق ص 95 .
- (100) عبدالله محمد الطائي - المرجع السابق ص 290 .
- (101) عبدالله محمد الطائي نفس المرجع ص 292 .
- (102) د . عبدالله المبارك - المرجع السابق ص 95 .
- (103) د . محمد المبارك - المرجع السابق ص 75 .
- (104) د . عبدالله المبارك - المرجع السابق ص 59 .
- (105) خالد سعود الزيد - سير وتراجم خليجية في المجلات الكويتية ص 10 .
- (106) خالد سعود الزيد - المرجع السابق ص 13 .
- (107) خالد سعود الزيد - نفس المرجع ص 37 .

(108) د. محمد جابر الأنصاري - المرجع السابق ص 8 - 11.

(109) د. محمد جابر الأنصاري - نفس المرجع ص 11.

المراجع:

أولاً: الكتب

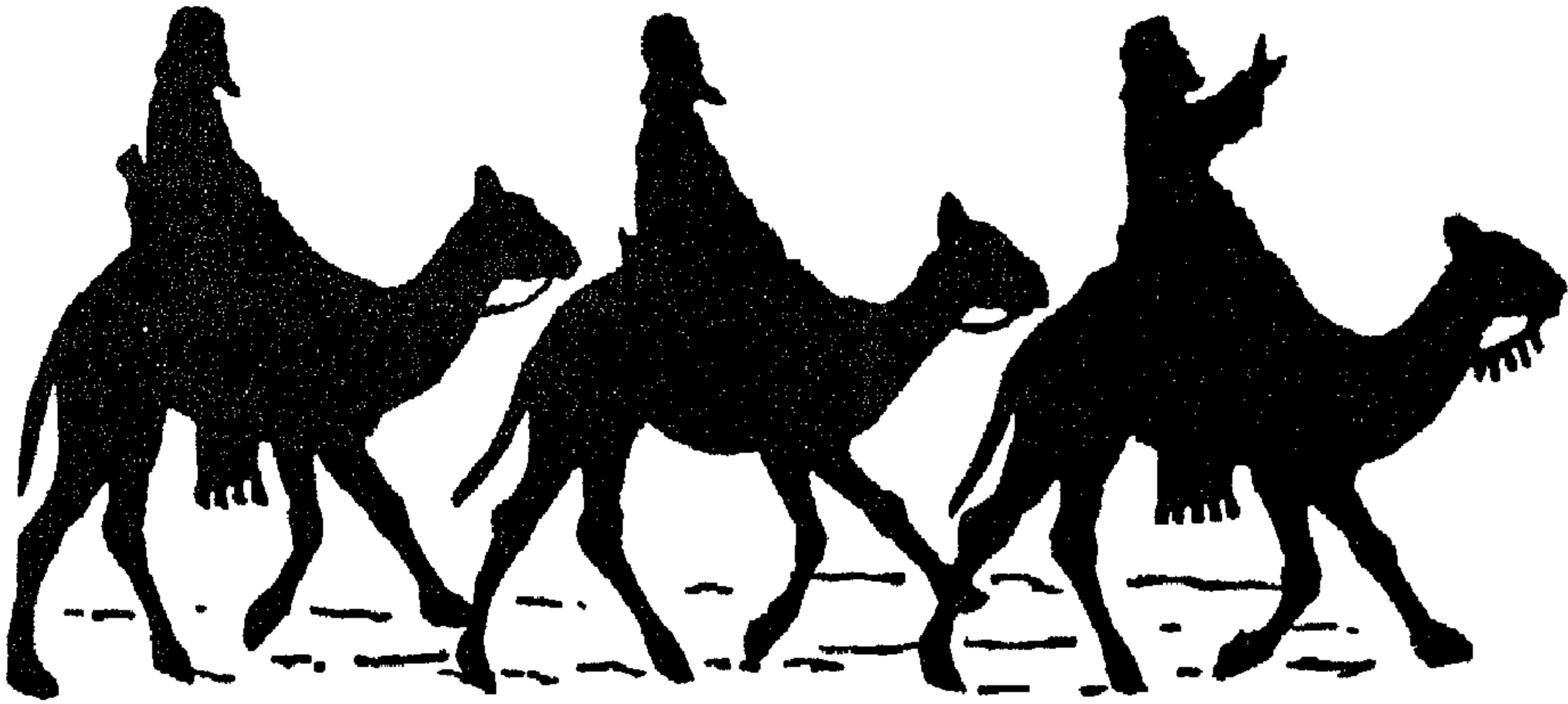
- (1) إبراهيم سليمان الكروي (دكتور) الأصول التاريخية للتعليم في الكويت - دار البحوث العلمية - الكويت - 1983م.
- (2) بدر الدين عباس الخصوصي - دكتور - دراسات في تاريخ الكويت الاجتماعي - الاقصادي في العصر الحديث الطبعة الثانية - ذات السلاسل الكويت 1983.
- (3) ج.ج. لوريمر - دليل الخليج - ترجمة مكتب حاكم قطر - الدوحة.
- (4) جهينة سلطان سيف العيسى - (دكتورة) - المجتمع القطري - القاهرة 1982.
- (5) خالد سعود الزيد - سير وتراجم خليجية في المجلات الكويتية - شركة الربيعان - الكويت 1983م.
- (6) صلاح العطية (دكتور) العادات الاجتماعية في الكويت.
- (7) محمد عبدالرحيم قافود - (دكتور) - الأدب القطري الحديث - القاهرة 1979.
- (8) محمد رشيد الفيل (دكتور) - سكان الكويت - شركة المطبوعات للتوزيع والنشر الكويت سنة 1969م.
- (9) محمد الرميحي (دكتور) - الخليج ليس نفطا - الكاظمة - الكويت 1983.
- (10) محمد جابر الأنصاري (دكتور) تراث قطر وثقافتها المعاصرة - وزارة الإعلام الدوحة - 1980م.
- (11) محمد أحمد النشمي - الزواج قديما في الكويت - ذات السلاسل - الكويت 1974.
- (12) فتوح عبدالمحسن الخترش (دكتور) وعبدالعزیز محمد المنصور (دكتور) مصادر تاريخ قطر - ذات السلاسل - الطبعة الثانية - الكويت 1984.
- (13) فتوح عبدالمحسن - (دكتورة) وعبدالعزیز محمد المنصور (دكتور) نشوء قطر وتطورها - ذات السلاسل - الكويت 1977م.
- (14) عبدالعزیز محمد المنصور - (دكتور) - التطور السياسي لقطر في الفترة ما بين 1868 - 1916 - ذات السلاسل - الكويت 1980.
- (15) عبدالله المبارك (دكتور) - أدب النثر المعاصر في شرق الجزيرة العربية القاهرة 1970.
- (16) عبدالله خالد الحاتم - من هنا بدأت الكويت - الطبعة الثانية الكويت 1980.

- (17) عبدالله محمد الطائي - دراسات عن الخليج العربي.
- (18) يوسف عبدالرحمن الخليفى - التحفة البهية فى الآداب والعادات القطرية الدوحة 1980م.

ثانيا - الدوريات

- (1) جمال زكريا قاسم (دكتور) بحوث فى التاريخ الحديث - حركة الجامعة الإسلامية وتأثيرها على إمارات الخليج العربى - جامعة عين شمس القاهرة 1976.
- (2) محمد عبدالرحيم قافود (دكتور) - الحركة الأدبية والفكرية فى قطر - حوليات كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية - العدد الثانى 1980م.
- (3) عبدالله العتيبي (دكتور) - الشعر الشعبى فى الكويت وقضاياها الاجتماعية - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية يوليو 1982 العدد 31.
- (4) عبدالله الحامد (دكتور) الأدب فى الأحساء خلال الفترة 1150 هجرية 1350 هـ مجلة كلية اللغة العربية - العدد التاسع 1979 - جامعة الإمام محمد بن سعود.
- (5) ماهر حسن فهمى - (دكتور) اشكالية الشعر الحديث فى الخليج حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية - العدد التاسع 1986 - جامعة قطر.

الفصل السابع



القرار السياسي البريطاني في ظل النزاع الأنكلو - عثماني في شرق الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

نشر هذا البحث في مجلة كلية الآداب - جامعة الزقازيق - العدد الثالث عشر - أبريل 1995 -
مصر.

مقدمة

تتناول هذه الدراسة القرار السياسى البريطانى فى ظل النزاع الأنكلو - عثمانى فى شرق الجزيرة العربية فى الفترة من عام 1871 إلى عام 1913، أى منذ مجيء الحملة العثمانية إلى المنطقة حتى بداية الحرب العالمية الأولى، وهى محاولة لفهم كيفية اتخاذ القرار السياسى البريطانى وإشكالية ونتائجه.

نشير فى هذه الدراسة إلى الخلفية التاريخية والأوضاع التى مهدت إلى تصعيد النزاع الأنكلو عثمانى، والسياسة العثمانية تجاه شرق الجزيرة العربية والتى مرت بثلاث مراحل فى عهد السلطان عبدالعزيز والسلطان عبدالحميد الثانى وجماعة الاتحاد والترقى، ثم نبداً حملة مدحت باشا التى كانت السبب المباشر فى تصعيد النزاع الأنكلو - عثمانى.

ندرس إشكالية القرار السياسى البريطانى فى ظل تفسير نزاع بريطانيا مع العثمانيين، والاعتداءات والأعمال البحرية فى الخليج العربى وتهديد السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية والقرار السياسى البريطانى بين حكومة الهند والخارجية البريطانية، ثم نتوصل إلى نتائج الدراسة.

الخلفية التاريخية:

سيطرت الدولة العثمانية على أجزاء واسعة من الجزيرة العربية، وإن كانت سيادتها متفاوتة إلا أنها لم تضم كلا من ساحل عمان وعمان وحضرموت.

تتابع فى حكم «الاحساء» كل من «العيونيين» و«آل الجبور» و«ال مغامس» حتى جاء الاستعمار المسيحى البرتغالى فاحتل «القطيف» بالتعاون مع قوات مملكة هرمز» فى يوليو عام 1521، واستمر الاحتلال المسيحى البرتغالى لها حتى تمكن العثمانيون من طردهم، عندما أرسل السلطان سليمان القانونى حملة بحرية إلى الخليج العربى بقيادة «محمد باشا فروخ»، الذى استطاع تحرير «القطيف» من الاستعمار المسيحى البرتغالى ودخلت قواته تلك المدينة عام 1550.

رحفت القوات العثمانية بعد ذلك إلى الهفوف» عاصمة الاحساء واستولت عليها، وعين ذلك القائد حاكما للاحساء، وتلاه فى الحكم مجموعة من الحكام العثمانيين، وكان آخرهم «عمر باشا» الذى ترك الاحساء عام 1670، ليخلفه فى الحكم «براك بن غدير»، زعيم قبيلة بنى خالد، واستطاع أبناؤه وأحفاده من بعده أن يؤسسوا دولة قوية فى هذه المنطقة.

تفاوت حكم الدولة العثمانية لشرق الجزيرة العربية حسب ظروفها الدولية أو الداخلية وبخاصة حروبها على الجبهة الأوربية، فكان يشتد ويضعف بين المد والجزر، ونتيجة لذلك ظهرت مشيخات قبلية كان بقاؤها مرهونا حسب قاعدة الصحراء القبلية «أى البقاء للأصلح أو الأقوى»، وبمعنى آخر حسب قدرتها فى الدفاع عن ذاتها ضد القوى القبلية الأخرى، سواء أكانت انتفاضة داخلية أم غارة خارجية حتى جاء الاستعمار المسيحى البريطانى وأدخل المشيخات تحت حمايته. ونظرا لهذه الطبيعة فى صحراء الجزيرة العربية، فكثيرا ما كان العثمانيون يفضلون ترك هذه المناطق لذلك النظام القبلى مادام أمراؤها من شيوخ القبائل يعترفون بالسيادة العثمانية ويدفعون الضرائب ويقدمون المال والرشوات لكبار موظفى الدولة(1).

نظرا لحالة الضعف والتفكك والقتال فيما بين القوى القبلية، أصبحت مهمة دخول الاستعمار المسيحي الأوربي وخاصة البريطانى سهلة إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية وهى البحرين وساحل عمان وعمان والتي اخضعتها تحت حمايتها فيما بين عامى 1820 - 1839.

تأخرت بريطانيا فى اخضاع بقية الأجزاء الشرقية من الجزيرة العربية إلى عام 1889، حيث اخضعت الكويت ثم عربستان، واحتلت العراق فى الحرب العالمية الأولى، وعقدت اتفاقية «دراين» مع ابن سعود عام 1915، والتي بموجبها أصبح تحت الحماية البريطانية مثله مثل بقية حكام القبائل فى كيانات شرق الجزيرة العربية، ثم قطر عام 1916.

استمر حكم «بنى خالد» على شرق الجزيرة العربية حتى عام 1793، عندما تمكن «النجديون» من الاستيلاء على الأحساء، وبات خطرهم يهدد الدولة العثمانية فى أقاليمها المجاورة مثل العراق والشام والحجاز.

فسيرت عليهم حملة من قبل واليها على مصر محمد على الذى استطاع اخمادهم وأعاد الأمن والاستقرار إلى «نجد» عام 1818، ثم توجه إلى الأحساء لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية لقواته فى «نجد» ولكنه لقي معارضة من الدولة العثمانية وواليها فى العراق الذى خاف من التوجه المصرى نحو البصرة، ولهذا طلب الباب العالى من محمد على الانسحاب من الأحساء فانسحبت قواته عام 1819.

عادت القوات المصرية من جديد إلى الأحساء عام 1838، ولكن فى هذه المرة عارضتها بريطانيا بعدما رحبت بها فى المرة الأولى، وهذا راجع لأنها كانت تريد من المصريين مساعدتها لاحتلال ساحل عمان.

رفض محمد على التعاون مع الاستعمار المسيحي البريطانى ضد عرب ساحل عمان، فقامت بريطانيا باحتلالها وعقدت معها اتفاقية عام 1820، ولهذا فإنها لم تكن بحاجة إلى مجيء القوات المصرية عام 1838، وعلى العكس من ذلك كان وجودها فى «الأحساء» يشكل خطراً على النفوذ المسيحي البريطانى، وخاصة عندما بعث خورشيد باشا أحد قواده إلى «البريمى» وأبو ظبى والشارقة

لتحريرها من النفوذ المسيحي البريطاني مما دفع بريطانيا إلى معارضة الوجود المصري ليس في الاحساء واليمن وإنما في الجزيرة العربية ككل، وهذا أدى إلى انسحاب القوات المصرية عام 1840 حتى لا تواجه التحالف الدولي المكون من بريطانيا والنمسا والدولة العثمانية.

عملت السلطات العثمانية في العراق على أن تراث الحكم المصري بعد انسحاب قواته عندما برزت أهمية الجزيرة العربية، وخاصة شرقها لدى العثمانيين بعد التوسع المصري، وأخذوا يفكرون في العودة إليها من جديد.

هذا ما دفع الباب العالي إلى إصدار فرمان أسند بموجبه ولاية «جدة» وتوابعها من «نجد» و«الاحساء» إلى والي العراق «علي رضا» الذي قام بتعيين نائب عنه ليقوم بمهام ولاية «جدة» وطلب من بريطانيا أن تحمل نائبه إلى مركز عمله الجديد في ولاية «جدة» على إحدى السفن الحربية التابعة للأسطول البريطاني خوفاً من تعرضه للخطر من جانب القوات المصرية. وكان من الطبيعي أن يلقي هذا العرض كل ترحيب من قبل بريطانيا التي أسرعت بنقل نائب الوالي العثماني إلى مقر عمله⁽²⁾ على إحدى سفنها الحربية إلى مدينة «جدة».

عادت الدولة العثمانية بذلك إلى الجزيرة العربية بمساعدة بريطانيا والتي لولاها لما انسحب محمد علي من المنطقة. ولم يحاول «علي رضا» الوالي العثماني في العراق، تغيير الأوضاع المحلية في داخل الجزيرة العربية، فترك «خالد بن سعود» على «نجد» و«أحمد بن مبارك» يدير شئون «الاحساء».

أطاح «عبدالله بن ثنيان» بالأمير «خالد بن سعود» عام 1841، وأعلن نفسه حاكماً على «نجد»، وفي عام 1843 أطاح «فيصل بن تركي» بالأمير «عبدالله بن ثنيان» وأعلن نفسه قائماً عثمانياً على «نجد»، وأصدر الباب العالي فرماناً بتعيينه وطلب منه دفع الضرائب إلى شريف «الحجاز» الذي يتولى دفعها إلى الحكومة العثمانية.

الأوضاع التي مهدت لتصعيد النزاع الأنكلو-عثماني 1865-1871:

يمكن القول بأن النزاع الأنكلو - عثماني يعود إلى فترة حكم «فيصل بن تركي» قائماً نجد العثماني، والذي بدأ يتدخل في شئون ساحل عمان وعمان

اللتين كانتا تحت حماية بريطانيا التي طلبت من «فيصل بن تركي» عدم التدخل في شئونها الداخلية إضافة إلى تدخلاته في شئون البحرين.

على أثر ذلك قامت القوات البريطانية برفقة الأسطول الحربى بطرد عامل «فيصل بن تركي» ويدعى «محمد بن عبدالله» من الدمام بالقوة، وقصفت سفن الأسطول البريطانى موانئ ساحل الاحساء بنيران مدافعها فى نوفمبر عام 1866.

أثارت تلك الأعمال الحكومة العثمانية باعتبارها سابقة خطيرة وانتهاكا لسيادتها فى شرق الجزيرة العربية لا يمكن السكوت عنها، ولكنها لم تكن فى موقف يسمح لها بتصعيد التوتر مع بريطانيا، فاكثفت بتقديم احتجاج شديد اللهجة باعتبار تلك المناطق تابعة «لفصيل بن تركي» القائمقام العثمانى فى نجد والذى يعتبر تابعاً من أتباع الدولة العثمانية وأرضه جزء من أملاك الباب العالى وجزء من سيادته التى لا تتجزأ.

تولى «عبدالله بن فيصل» الحكم فى قائممقامية نجد العثمانى بعد وفاة والده فى ديسمبر عام 1965، واستمر فى سياسة أبيه، وكان من أعداء الاستعمار المسيحى البريطانى فى شرق الجزيرة العربية، وكان نائبه «أحمد السديري» فى البريمى يتدخل ضد النفوذ البريطانى فى ساحل عمان وعمان، وقام بمساعدة بعض القبائل على الإغارة على بلدة «صحم» التى تبعد بضعة أميال عن مدينة «صحار» العمانية، وأرغموا الهنود المقيمين فيها «الهندوس» الذين كانوا يسيطرون على التجارة والحياة الاقتصادية على ترك المدينة لأهلها وإيقاف استغلالهم لها اقتصاديا.

أثناء ذلك مات أحد هؤلاء الهنود غريقاً عندما حاول ركوب سفينة فسقط فى البحر، واتخذت بريطانيا من تلك الحادثة ذريعة لتدخلها فى شئون «عبدالله بن فيصل» القائمقام العثمانى فى نجد عندما بعث «بيلي» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى أثناء وجوده فى مدينة «صحار» و«صحم» برسالة فى السادس من يناير عام 1866، أنحى فيها باللائمة على قائممقام نجد العثمانى على الهجوم الذى شنه نائبه فى عمان وعلى رفضه الوساطة البريطانية، كما وجه إليه اللوم أيضا على الاعتداءات التى وقعت على الهنود فى كل من «صحم» و«صحار» ودعاه إلى تقديم اعتذار رسمى عن تلك الأعمال ودفع 27000 ريال كتعويض عن الخسائر

والأضرار التي لحقت بالرعايا الهنود وطالبه بأن يتعهد بعدم تكرار مثل هذه الانتهاكات بأراضى عمان فى المستقبل، وطلب من الكابتن «بيلزلى» تسليم الرسالة إلى قائمقام نجد العثمانى ثم الانتظار سبعة عشر يوماً لتلبية تلك المطالب، علماً بأن المقيم السياسى البريطانى كان يعلم أنه من الصعب الاستجابة لتلك المطالب فى تلك المدة القصيرة إضافة إلى القسوة والإزلال والغطرسة الاستعمارية المسيحية الإرهابية البريطانية واستخدام أسلوب التهديد، وقد جاء فى رسالته (3).

«بأنه إذا لم تتم الموافقة على الشروط التى أوردتها بعد انتهاء المهلة المحددة فإن السفن البريطانية سوف تقوم بقصف المعازل الساحلية التابعة له والاستيلاء على السفن الموجودة فى الموانئ».

كما بعث «بيلزلى» برسالة أخرى إلى نائبه «فرير» بعد مضى بضعة أيام وفيها تفاصيل الخطة التى وضعها سلفاً لقصف ساحل «الاحساء» وقال فيها:

«أعزم توجيه الضربة فى هدوء وبهذا الأسلوب سوف أبدو فى حالة فشل الخطة وكأننى لم أوجه أى ضربة إلى هؤلاء الذين لا يمكن أن يرتدعوا إذا لم توجه إليهم ضربة قاصمة، إنهم يعتقدون بأن البريطانيين وحتى ضباطهم يخافون منهم».

اتخذ «بيلزلى» قراره بقصف مدينة «الدمام» بعد التشاور مع «بيلزلى» قائد الأسطول البريطانى فى الخليج العربى الذى وصل إلى «القطيف» فى 30 يناير 1866، وطلب منه «حاكم «القطيف» الانتظار اثنى عشر يوماً حتى يصله رد من «عبدالله بن فيصل» قائمقام نجد العثمانى، غير أن «بيلزلى» لم يوافق، وفى الثانى من فبراير أطلقت مدافع السفن الإرهابية البريطانية نيرانها نحو الميناء، وتم تدمير إحدى السفن الشراعية وحصن صغير، وفى اليوم التالى قصفت سفن الأسطول البريطانى حصن الدمام، وتم إنزال الجنود البريطانيين للاستيلاء عليه بعد ذلك القصف.

غير أن العملية فشلت نتيجة الاستماتة والمقاومة العنيفة التى أظهرها المدافعون عنه من القبائل العربية، وعلى الرغم من الأضرار التى لحقت بالقلعة فإن المدافعين عنها لم يتخلوا عنها، وخسر البريطانيون فى ذلك الهجوم عدداً من القتلى والجرحى من الجنود والضباط البريطانيين، وكان عدد القتلى ثلاثة جنود

وجرح ضابطان، وأمام هذه المقاومة الباسلة انسحبت القوات الإرهابية البريطانية مع أسطولها.

ثم عادت القوات الإرهابية البريطانية بقوة أكبر فى يوم 14 فبراير 1866 وقامت بقصف القلعة، غير أنها فشلت للمرة الثانية، وتلقى «بيلى» نبالاً فشل الحملة بخيبة أمل، وقرر القيام بعملية إرهاب كبيرة لاستعراض القوة البريطانية لتعويض الفشل الذى منيت به قواته، وكانت الضحية الجديدة قبيلة «الجنبة» العمانية المسالمة فى مدينة «صور».

لكى يخلق «بيلى» مبرراً لهجومه الإرهابى اتهم العمانيين بأنهم موالون «للعبدالله بن فيصل» وأنهم اشتركوا فى بعض الإغارات، وطلب منهم بصورة عاجلة دفع المبلغ الذى كان قد طلبه من قائمقام نجد العثماني، وهو 27 ألف ريال، وكان من الطبيعى أنهم لن يستطيعوا دفع هذا المبلغ الكبير فى هذا الوقت القصير وبهذه السرعة، ومع ذلك فإن رجال قبيلة «الجنبة» أبدوا رغبتهم بدفع المبلغ خوفاً من الخسائر التى تلحق بممتلكاتهم نتيجة القصف، وطلبوا مهلة حتى شهر مارس التالى، وهو الوقت الذى تعود خلاله سفنهم التجارية من البحر الأحمر.

رفض «بيلى» المقيم السياسى البريطانى طلبهم هذا، وأمر سفنه الإرهابية الحربية بقصف المدينة فدكتها وسوت منازلها بالأرض، وقامت بتدمير بقية السفن الشراعية الموجودة فى خليج «صور» وبذلك عادت إلى الأذهان ذكرى وحشية وإرهاب المسيحيين البرتغال فى مدينة «قلهات» و «قريات» القريبة من «صور» فى 22 أغسطس 1507.

علم «بيلى» بعد عودته من «صور» نبأ مقتل «ثوينى» سلطان عمان بطعنة خنجر من نجله سالم، بينما كان يغط فى نومه فى حصن «صحار»، واتهم «بيلى» فى هذه الحادثة «عبدالله بن فيصل» قائمقام نجد العثماني مدعياً اشتراكه فى هذه المؤامرة وأنه أمر واضح لا يحتاج إلى تفسير، والغرض منه هو أن يتولى الحكم فى مسقط شخص أكثر خضوعاً «للرياض» ومن المحتمل أيضاً أن يكون حاكم نجد الجديد «عبدالله بن فيصل» مشتركاً فى هذه المؤامرة، وربما يكون هو الرأس المدبر لها، وجاء ذلك فى التقرير الذى بعث به «بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بتاريخ 1866/7/9 إلى حكومته فى الهند.

يتضح من ذلك أن السلطات البريطانية في حكومة الهند وموظفيها في الخليج العربي لم يكونوا راضين عن «عبدالله بن فيصل» لأنه شكل خطراً على نفوذهم في المنطقة، ولهذا قاموا بمساعدة أخيه «سعود بن فيصل» الذي فشل في الإطاحة بعبدالله ففر هارباً إلى ساحل عمان وعمان والبحرين وتلقى مساعدات من حكامها إضافة إلى مساعدة بريطانيا، التي كانت تريد التخلص بأي شكل من «عبدالله بن فيصل» ونجحت في ذلك عندما حقق سعود نصراً على قوات أخيه عبدالله بمساعدة بريطانيا في معركة الاحساء عام 1870، ثم توجه إلى الرياض واستولى عليها في أبريل 1871، وفر أخوه عبدالله بن فيصل إلى بادية قحطان.

بدأ «عبدالله بن فيصل» يطلب مساعدة الباب العالي التدخل لإعادته إلى الحكم في قائمقامية «نجد» بعدما أطاح به أخوه «سعود بن فيصل» بمساعدة بريطانيا التي بدأت تتدخل في شئون شرق ووسط الجزيرة العربية.

بعث «عبدالله بن فيصل» برسالة إلى الخديو إسماعيل يتوسل فيها إليه أن يتوسط له لدى الباب العالي لكي يساعده في إعادته للحكم، واتهم السلطات البريطانية في الخليج العربي بأنها تطمح إلى الاستيلاء على أحد المراكز الهامة على ساحل الاحساء مثل «الدمام» أو القطيف، وأن «بيلي» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي قد عرض عليه ذلك، وعندما رفض أخذ المقيم السياسي البريطاني يقدم المساعدة لأخيه سعود حتى تمكن الأخير من طرده من حكم بلاده⁽⁴⁾.

جاء في نص رسالة عبدالله بن فيصل إلى إسماعيل باشا خديوى مصر «... وصل إلى طرفنا بنجد «بيلي Pelly» قنصل الإنجليز بالخليج ومعه هدية، وقد فهمنا أن مراده نعطيه مركزاً في ساحل البحر، إما البحرين أو الدمام أو بعض القطع وغيرها (فاعتذرنا) وأرجعنا هديته، حيث إن هذه الأماكن التي في يدنا في الممالك المحروسة الراجعة إلى خليفة رسول الله السلطان . . ورجع عنا يائساً . . وكان سعود قد استجلبه القنصل لوص إليه، وأغراه بما (يقضى) له من الأخيرة والمهيات . . والنفوذ بواسطة البحرين، ولما رأينا الأمر بهذه الصورة انتصرنا بالله، ثم بدولتنا وعرضنا الحال على والى بغداد».

من هنا جاءت الحملة العثمانية لإعادة «عبدالله بن فيصل» كقائم مقام عثماني على نجد، وكان مدحت باشا الوالي العثماني في العراق يعتقد اعتقاداً جازماً بأن بريطانيا قدمت مساعدات «لسعود بن فيصل»، لتركيز أقدامها في «الأحساء» و«نجد» ولإخضاع الخليج العربي لنفوذها الكامل بعد أن عقدت مع قطر معاهدة 1868.

لقد أصبح معها ساحل شرق الجزيرة العربية من عمان وساحل عمان وقطر والبحرين، أصبحت جميعها مرتبطة بمعاهدات الحماية البريطانية ماعدا «الأحساء» و«الكويت» وبإمكان البريطانيين أن ينطلقوا من «الأحساء» إذا ما أخضعوها لسيطرتهم عن طريق معاهدات الحماية مع «سعود بن فيصل»، لتوسيع نفوذهم إلى الشمال في اتجاه «الكويت» و«البصرة»، ولهذا أعلن مدحت باشا صراحة في أبريل عام 1871، أن السيادة العثمانية أصبحت ممتدة لتشمل «نجد» وأن الحملة ستزحف لتثبيت «عبدالله بن فيصل» كقائم مقام عثماني على «نجد»، وأن الهدف من الحملة ليس الاستيلاء عليها بل لتوثيق الروابط القائمة بينها وبين الدولة العثمانية وكبح جماح «سعود بن فيصل» وانهاء أعماله العدوانية(5).

عندما سأل «هربرت» القنصل البريطاني في بغداد مدحت باشا عن الحملة رد عليه بأن مهمته هي تنفيذ ما كان يتلقاه من أوامر حكومته في «الأستانة» وأوضح للقنصل البريطاني بأن الأمير «عبدالله بن فيصل» قد عين قائماً للباب العالي في «نجد»، وأن خلع أخيه له حدث لا يمكن السكوت عليه وبالتالي كان الباب العالي لا يستطيع أن يرفض طلبه للمساعدة(6).

لكننا لا نعتقد بأن تلك الأسباب التي ذكرها مدحت باشا لإعادة القائم مقام العثماني إلى حكمه في نجد كانت وراء الحملة، كما لا نعتقد أيضاً بأن العداء البريطاني لعبد الله بن فيصل يعود لمحاولته التدخل في شؤون ساحل عمان وعمان الواقعة تحت الحماية البريطانية. ولكن هناك عوامل أخرى أدت إلى تصعيد النزاع الأنكلو - عثماني في شرق الجزيرة العربية، وإكمال حلقتها بالسيطرة الكاملة على الخليج العربي وجعله بحيرة بريطانية برغم عملها الدؤوب منذ إحكام قبضتها على الهند وساحل عمان وعمان، إلا أنها نجحت بعد الحرب العالمية الأولى في ذلك.

نظراً لأهمية المرحلة التي سبقت ذلك، سوف ندرس سياسة كل من الدولة العثمانية وبريطانيا تجاه شرق الجزيرة العربية والتي أدت إلى تصعيد النزاع بينهما، وكيف لعبت الإدارة البريطانية دورها في اتخاذ القرار السياسى بشأنها.

السياسة العثمانية تجاه شرق الجزيرة العربية 1871.1913؛

مرت السياسة العثمانية تجاه شرق الجزيرة العربية بمرحلتين إن لم نقل بثلاث مراحل لأن المرحلة الثالثة قد تخرجنا من الدولة العثمانية إلى الدولة القومية التركية ومحاولة احتواء الاقليات الأخرى ومن بينها القومية العربية «وتتريكها» وفيما يلي هذه المراحل:

المرحلة الأولى: السياسة العثمانية في عهد السلطان عبدالعزیز 1861.1876؛

اتجهت السياسة العثمانية في عهد السلطان عبدالعزیز نحو الجزيرة العربية بشكل عام وشرق الجزيرة العربية واليمن بصفة خاصة. مما أدى إلى مجارة النفوذ المسيحي البريطاني وبالتالي إلى تصعيد النزاع الأنكلو - عثمانى في المنطقة وأصبحت بريطانيا تنظر إليها بعين القلق والتوتر.

لكن لماذا اتجهت السياسة العثمانية في هذه الفترة إلى شرق الجزيرة العربية بالذات؟ وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن ننظر إلى العوامل الداخلية والخارجية للدولة العثمانية والتي ساعدتها في هذا التوجه الذي ترتب عليه تصعيد النزاع مع بريطانيا في شرق الجزيرة العربية نظراً لتدعيم الحكم العثماني وتركيز نفوذها والذي كان منذ فترة طويلة حكراً على بريطانيا وحدها، وفيما يلي بعض هذه الأسباب التي ساعدت الدولة العثمانية:

1 - قيام الإصلاحات الإدارية والسياسية والتنظيمات العسكرية في أعقاب حرب القرم (1853 - 1856).

2 - رغبة الباب العالي في دعم الدولة وإعادة الهيبة والسيادة إليها بعدما أصبحت تتقلص حدودها في أوربا نتيجة للخسائر التي لحقت بأقاليمها في البحر الأسود والبلقان ووضع حد لتلك الخسائر.

3 - الاتجاه نحو تشديد القبضة على الأقاليم الآسيوية كتعويض عما فقدته

الدولة العثمانية فى أوربا وخاصة فى الجزيرة العربية التى يدين أهلها بالإسلام وبالمذهب السنى مذهب الدولة العثمانية، باعتبار هذا العامل الدينى من العوامل المهمة التى تجمعهم أكثر من المسيحية فى أوربا الشرقية. ويمكن اعتباره أفضل ضمان ورهان لبقاء الدولة العثمانية أطول فترة ممكنة فى هذا الوقت الذى اشتدت فيها ضربات الاستعمار المسيحى الأوروبى ليس فى الدولة العثمانية، وإنما لبقية الشعوب الإسلامية فى آسيا وأفريقيا.

4 - نتيجة للهدوء النسبى الذى ساد الدولة العثمانية على أثر الحروب التى خاضتها فى الداخل والخارج، أخذت تولى عناية خاصة للشئون العامة فى ولايتها الشرقية، وجاء ذلك فى المنشور الذى وزعه مدحت باشا على سكان إقليم «الاحساء» عام 1871 بأن الدولة العثمانية لم يكن لديها وقت تلتفت فيه إلى الحوادث الجارية فى وسط وشرق الجزيرة العربية، وذلك لكثرة الحروب التى كانت تخوضها على جميع الجبهات القتالية.

5 - افتتاح قناة السويس عام 1869 كان من العوامل الهامة والحيوية التى ساعدت فى التوجه العثمانى نحو المنطقة، لنقل القوات والحملات العسكرية البحرية وسهولة الوصول إلى مختلف أجزاء الجزيرة العربية سواء الغربية أو الشرقية، مما يسهل عملية الاختراق إلى العمق الداخلى للجزيرة العربية.

نقلت القوات العثمانية حملة مدحت باشا على السفن الحربية، والتى جاءت عن طريق «السويس» إلى «البصرة» ومنها إلى الاحساء عام 1871 ومنها توجهت الحملة إلى العمق الداخلى. وكان من الأسباب التى أدت إلى فشل الحملات العثمانية فى صراعها مع المسيحيين البرتغاليين أنهم كانوا يرسلون السفن الحربية مباشرة من «الشبونة»، فى حين كان العثمانيون ينقلون مختلف أجزاء السفن إلى «السويس» ويتم تجميعها هناك، مما يكلف الوقت والجهد ولم يحقق الهدف، لأنه من الصعب صناعة السفن الكبيرة كاملة التجهيز مثلما يتم فى ترسانة السفن نفسها.

لذا كان إبحار ونقل السفن يلعب دوراً مهماً فى الحروب الكبيرة، والتى تسمى بعمليات «اللوجستية» فى الحرب. وهذا ما دفع الولايات المتحدة إلى فصل

إقليم «بنما» وإعطاء الاستقلال «لبنما» ثم حفرت فيها «القناة» وسيطرت عليها لنقل سفنها الحربية فيما بين الشرق والغرب من سواحلها على المحيط الأطلسي والهادي.

المرحلة الثانية: السياسة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني 1876.1909،

وعد السلطان عبد الحميد الثاني، عندما تولى بإصدار الدستور للبلاد، وفعلا صدر عام 1876، وبذلك نجحت جماعة الإصلاح وتغلبت على القوى المعادية لها، وأخذت الدولة العثمانية مسارها الصحيح بين الدول الدستورية، ولكن الدول الاستعمارية المسيحية الأوربية لم تكن تريد للدولة العثمانية أية إصلاحات من شأنها إعادتها إلى مستوى الدول الكبرى في ذلك الوقت.

لم يكد مدحت باشا يتخذ الخطوات الأولى نحو الدستور حتى أعلنت روسيا الحرب ضد الدولة العثمانية وهزمتها، ولم تتدخل بريطانيا لوقف الحرب، وعقد مؤتمر دولي بشأنها في برلين 1878، وعملت بريطانيا على تمزيق الدولة العثمانية بتهيئة الأذهان للقبول بفكرة التقسيم بالتعاون مع التحالف الدولي المكون من فرنسا وروسيا وإيطاليا، وكذلك ألمانيا التي كانت ترى أن يتم التقسيم على مائدة المفاوضات بدلا من الحروب في القارة الأوربية التي قد تؤدي إلى نتائج لا يحمد عقباه. ثم سيطرت بريطانيا على قناة السويس عندما اشترت أسهم الخديوى وأصبحت تخطط لاحتلال مصر في حين بدأت الدولة العثمانية تفقد أقاليمها الواحد تلو الآخر.

أدت تلك النكسات إلى ردود فعل معاكسة في تفكير عبد الحميد الثاني، فبدلا من أن يتجه نحو الشعب ليستمد منه قوته لمحاربة الأعداء في الخارج عن طريق المشاركة الشعبية، ودعم إصلاحات مدحت باشا والعودة إلى الدستور، انقلب ضد الشعب نفسه في الداخل وألغى الدستور وأخذ يحكم البلاد بمفرده معتقدا أن بإمكانه وحده تقوية الدولة كما كانت في بداية عهدها أيام حكامها العظام أمثال السلطان سليم وسليمان القانوني، ونسى بأن تلك الفترة انتهت بلا رجعة، وهذا العصر هو عصر الديمقراطية والحرية والمشاركة الشعبية.

لم يستطع عبد الحميد الثاني عمل شيء بدون مشاركة الشعب بكافة قومياته

وخاصة بعدما قامت الدول الدستورية والديمقراطية على حدوده المواجهة في أوروبا، وبدلاً من التفكير بأسلوب هذا العصر بدأ يفكر بأسلوب قديم، كما حاول إحياء فكرة الجامعة الإسلامية، اعتماداً على مكانة الدولة من الناحية الدينية في حربه ضد الاستعمار المسيحي، في الوقت الذي كان الأخير قد سيطر سيطرة كاملة على الشعوب الإسلامية التي كانت تناضل من أجل الاستقلال.

لم يعد أحد من أقربائه أو مستشاريه يستطيع أن ينصحه ويرشده، فقد انشغلت السياسة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في السنوات الخمس الأولى بالحرب مع روسيا ومجابهة الأطماع البريطانية في قبرص ومصر، وفي السنوات الخمس التالية بقمع الحركة الإصلاحية التي تزعمها مدحت باشا، ومنذ قيام الأسطول البريطاني بضرب الإسكندرية عام 1882 أصبح عبد الحميد الثاني يكره بريطانيا التي اتبعت سياسة مسيحية صليبية استعمارية لاحتلال أكبر قدر ممكن من أقاليم الدولة العثمانية الإسلامية في منافستها مع روسيا وبقية الدول المسيحية الاستعمارية الأوروبية مثل فرنسا وإيطاليا والنمسا.

لهذا اتجهت السياسة العثمانية في عهد عبد الحميد الثاني نحو الجزيرة العربية عامة وشرقها خاصة، وتأثرت بتلك العوامل التي ذكرناها سابقاً في تعاملها مع بريطانيا سواء حكومة الهند البريطانية في الخليج العربي أو الخارجية البريطانية نفسها في لندن والتي كانت تعي ذلك جيداً، مما جعلها تتبع سياسة أكثر مرونة في تعاملها مع النزاع الأنكلو - عثماني في شرق الجزيرة العربية.

في حين اتخذت حكومة الهند البريطانية سياسة أكثر تشدداً وتدخلت في الأقاليم العثمانية في شرق الجزيرة العربية، مما جعل الدولة العثمانية تنظر إلى بريطانيا نظرة عدائية لسياساتها بانتقاص واقتطاع أجزاء من أقاليمها الشرقية في الجزيرة العربية.

فعلاً هذا ما كانت تعمل من أجله حكومة الهند البريطانية مع العثمانيين التي تراهم منافسين لنفوذها في المنطقة التي كانت حكراً عليها منذ فترة طويلة، وخاصة بعدما أنهت صراعها مع القوى الاستعمارية المسيحية الأخرى، مثل هولندا وفرنسا لصالحها، وأبعدتهم عن الخليج العربي عبر تلك السنوات الطويلة لتجد

أمامها الدولة العثمانية الآتية بقوة من خلال حملة مدحت باشا لتنافس مكانتها بعد تلك الجهود المضنية وخوفا من تغلغلها في بقية الأجزاء الجنوبية مثل ساحل عمان، وعمان، فعمدت حكومة الهند البريطانية إلى تصعيد النزاع تحت شعار الهجوم خير وسيلة للدفاع.

هذا ما جعل السياسة العثمانية تتخذ موقف الكراهية وتدخل في صراع عنيف مع بريطانيا بمحاولة إدخال جميع المسلمين تحت لوائها ومعهم رعايا بريطانيا من المسلمين في الهند، وبرغم أنها جاءت متأخرة إلا أنها لقيت تجاوبا وتعاطفا من المسلمين ضد الاستعمار المسيحي البريطاني وأحييت فكرة الجهاد، ومن هنا بدأت بريطانيا في تصعيد النزاع من أجل السيطرة الكاملة على شرق الجزيرة العربية كخطوة أولى نحو الانطلاق إلى الخطوة الثانية، وهي احتلال العراق العثماني قبل أن تحتله قوى أخرى.

بذلك يمكن القول بأن السياسة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني تأثرت بعاملين الأول قد يرجع إلى السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية ومحاولة تمزيقها سواء من الداخل أو الخارج باقتطاعها لأكثر قدر ممكن من أجزائها بالاشتراك مع القوى الاستعمارية المسيحية الأوربية الأخرى.

يرجع العامل الثاني أيضا للعامل الأول والذي تمخضت عنه فكرة الجامعة الإسلامية لتخليص وتحرير الشعوب الإسلامية من الاستعمار المسيحي الأوربي، وخاصة البريطاني، ولهذا أخذت الدولة العثمانية تقف أمام التطلعات الاستعمارية المسيحية البريطانية في جميع الأقاليم العثمانية بوجه عام، مما انعكس على شرق الجزيرة العربية وشكل عاملا مهما في تصعيد النزاع الأنكلو - عثماني في المنطقة بوجه خاص.

المرحلة الثالثة: السياسة العثمانية في عهد جماعة الاتحاد والترقي 1909، 1913،

تغيرت السياسة العثمانية في عهد جماعة الاتحاد والترقي بعد تولى السلطة تجاه القوى المجاورة بعامة، وبريطانيا بخاصة، وكانت سياسة تركية أكثر منها سياسة عثمانية بمعنى الكلمة والمفهوم، أي أنها اهتمت بالقومية التركية ومناطقها الجغرافية ومصالحها أكثر من اهتمامها بمصالح القوميات الأخرى التي كانت تعيش

داخل الدولة العثمانية، وكذلك اطارها الجغرافى، أى أنها لم تكن تهتم بالأقاليم العثمانية الأخرى، وكثيرا ما كانت تقدم تنازلات للقوى الاستعمارية المسيحية الأوربية ولجيرانها مقابل عدم التدخل فى شئونها الداخلية بشرط ألا تؤثر على القومية التركية أو حدودها الجغرافية حتى تتمكن من تقوية قبضتها وتدعم سلطتها فى الداخل.

نتيجة لهذه السياسة ضاعت كثير من الأقاليم العثمانية كما تنازلت الدولة لجيرانها بموجب بروتوكول «الآستانة» و«طهران» مع إيران فى عام 1913 فى إقليم العراق العثمانى التى كانت ومارالت سببا فى النزاع الإيرانى - العراقى إلى يومنا هذا، وغيرها من التنازلات.

فى هذه الفترة أيضا توصلت الحكومة التركية إن جار لنا التعبير، ليس الحكومة العثمانية مع بريطانيا حول تقسيم النفوذ ليس فى شرق الجزيرة العربية وإنما فى الجزيرة العربية ككل، وفيها تنازلت عن كثير من الأراضى ابتداء من «العقير» إلى الجنوب منه وقطر والكويت وغيرها بموجب الخط الأزرق⁽⁷⁾، الذى يمتد بالقرب من جزيرة «الزخنونية» حتى اليمن الجنوبية، واعترفت بجميع الأجزاء الجنوبية من هذا الخط مثل ساحل عمان وعمان وحضرموت ومحميات عدن للنفوذ البريطانى المسيحى، والاحساء ونجد واليمن والحجاز، لتركيا، وسميت هذه الاتفاقية بالأنكلو - عثمانية لعام 1913⁽⁸⁾.

بذلك انتهى النزاع الأنكلو - عثمانى ليس فى شرق الجزيرة العربية وإنما فى الجزيرة العربية ككل، بينما استمر هذا النزاع فى تصاعد أثناء حكم السلطان عبدالعزيز وعبد الحميد الثانى اللذين رفضا التنازل عن أى شبر من أراضى الدولة العثمانية مادامت قادرة على الدفاع ضد الأعداء والاستعمار المسيحى الأوربى وخاصة البريطانى.

حملة مدحت باشا والتصعيد فى النزاع الأنكلو.عثمانى،

اتجهت السياسة البريطانية فى الخليج العربى منذ تثبيت أقدامها إلى المحافظة على مكاسبها التى تحققت فى بعض أجزائه مثل السيطرة على جنوب الخليج العربى والتطلع شمالا وخاصة نحو العراق، لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية

ولأجل ذلك كانت تراقب الأوضاع في المنطقة عن كثب، كما راقبت السياسة الداخلية والخارجية، والتي كانت تحاول الاقتراب أو النيل من المكاسب أو النفوذ البريطاني، وبالتالي المحافظة على سلامة طرق مواصلاتها تجاه مستعمراتها في الهند.

جاء حرص بريطانيا على تلك المصالح أكثر من مصالح حكام ساحل عمان وعمان والبحرين التي فرضت عليهم اتفاقيات الحماية، ليس لمصالحهم بقدر ما هي لمصالحها الخاصة، بعد تخوفها من اقتراب المصريين في شرق الجزيرة العربية ولذا عارضت وجودهم حتى تم الانسحاب عام 1840، ولم تكد تنتهي منهم حتى بدت في الأفق تطلعات الدولة العثمانية نحو شرق الجزيرة العربية بعد غياب طويل عن المنطقة.

تجمعت لدى الإدارة البريطانية معلومات عن طريق موظفيها في المنطقة بخطط العثمانيين الهادفة إلى فرض سيطرتهم المباشرة على شرق الجزيرة العربية، بعد أن تثبتت تلك الخطط لدى «أرجيل - Argil» وزير خارجية بريطانيا عن طريق سفيرها في الأستانة، كما تأكد ذلك عن طريق كل من «هربرت - Herbert» القنصل البريطاني في بغداد، وكذلك قنصلها في مصر.

أرسلت الإدارة البريطانية تحذيرات إلى مدحت باشا والي العثماني في العراق لمنعه من التقدم تجاه شرق الجزيرة العربية، لأن ذلك سوف يصعد النزاع معها، ويتضح من ذلك أنها لم تكن في وضع يسمح لها بمنع الحملة عن طريق القوة العسكرية، ولذا فإنها لجأت إلى الطرق السلمية والدبلوماسية، واخذت تساعد حليفها «سعود بن فيصل» الحاكم الجديد الذي أطاح بشقيقه «عبدالله بن فيصل» قائم مقام نجد العثماني مما شجع مدحت باشا في المضي بخططه، وأخذ يقنع شيخ البحرين بأن يسمح للعثمانيين بإقامة قاعدة عسكرية في البحرين لينطلقوا منها في أعمالهم الحربية ضد «سعود بن فيصل»، إلا أن حاكم البحرين رفض التعاون مع العثمانيين بعدما استشار البريطانيين⁽⁹⁾ الذين طلبوا منه رفض التعاون أو تقديم أية تسهيلات للعثمانيين.

حققت الحملة العثمانية في شرق الجزيرة العربية أهدافها، لأن الظروف

كانت موالية ومشجعة لفرض سيادتها بشكل أقوى نتيجة للخلاف الذى نشب بين أبناء «فيصل بن تركى» قائم مقام نجد بعد وفاته، عندما أطيح «بعبدالله بن فيصل» قائم مقام نجد العثماني الجديد عن طريق شقيقه «سعود بن فيصل» بمساعدة بريطانيا وبعض حكام شرق الجزيرة العربية، مما دعا الأول إلى طلب المساعدة من والى العراق مدحت باشا الذى استغل تلك الفرصة وأخذ يستعد للحملة لإعادة الحكم العثماني لنجد «والأحساء».

وبذلك تكون الدولة العثمانية بعد إعادتها لسيادتها على وسط وشرق الجزيرة العربية قد حمت جنوب العراق بإقامة خط الدفاع الأول، خوفاً من امتداد النفوذ البريطاني الذى بدأ يتطلع نحو العراق فى تلك الفترة، وخاصة بعدما عقدت اتفاقية مع شيخ «قطر» عام 1868، ومساعدتها «السعود بن فيصل» الذى استولى على حكم «نجد»، وبالتالي قد تكون الخطوة القادمة نحو الشمال أى جنوب العراق.

بما أن الدولة العثمانية أسرعت بإخضاع شرق الجزيرة العربية تحت سيادتها فإنها أصبحت فى مركز أقوى استراتيجياً فى الخليج العربى، تستطيع معه الدخول فى وضع التكافؤ مع بريطانيا إلى حد ما حول سياسة الأخيرة فى المنطقة بعدما احتكرتها لفترة طويلة، وبذلك أصبح الباب العالى المنافس القوى والجديد لها فى الخليج العربى واستمر كذلك حتى الحرب العالمية الأولى.

نفذت الدولة العثمانية خططها الرامية لإعادة سيادتها على شرق الجزيرة العربية بمنتهى السرعة متعلقة بأسباب منها⁽¹⁰⁾.

1 - التخوف الشديد من التدخل البريطانى فى المنطقة بعد قيام بريطانيا بمساعدة «سعود بن فيصل» عن طريق حكام البحرين وساحل عمان وعمان والذين هم تحت حمايتها، مما جعل الباب العالى يرى أن نجاح بريطانيا فى مثل هذه المهمة يعنى تحكمها مستقبلاً فى مصير العراق العثماني.

2 - اعتداء «سعود بن فيصل» على القوافل التجارية لرعايا العثمانيين.

3 - وضع حد للفوضى السياسية فى وسط وشرق الجزيرة العربية.

بذلك أعادت الدولة العثمانية سيادتها على الأحساء عام 1871، وأطلقت عليها لقباً إدارياً جديداً وهو «سنجقية الأحساء» وضممتها لولاية «البصرة» وبذلك فصلتها عن قائممقامية نجد العثمانية.

بدأت العلاقات الأنكلو - عثمانية تمر بتوتر منذ أن كانت بريطانيا قد علمت باستعدادات العثمانيين، فسارعت عن طريق قنصلها في بغداد «هربرت» تستفسر من مدحت باشا الذي أجاب بأنه يتصرف بناء على أوامر تلقاها مؤخراً من الباب العالي وأن «عبدالله بن فيصل» كان القائم مقام العثماني في نجد وأن عزله من قبل «سعود بن فيصل» لا يمكن أن يتم ولا تستطيع حكومته أن ترفض مساعدته.

أكد الصدر الأعظم للسفير البريطاني في الأستانة أن «عبدالله بن فيصل» كان قائم مقاماً «لنجد» ولن يتخلى الباب العالي عن أناس يحكمون باسمه وبناء عليه أرسل السفير البريطاني برقية إلى قنصله في بغداد الذي أوضح فيه أن الصدر الأعظم أمر بنقل المعدات العسكرية والجنود بحراً على السفن الحربية العثمانية إلى موانئ الأحساء مما أدى إلى استياء حكومة الهند البريطانية، وعدم تقبلها للتأكيدات العثمانية من سفيرها في الأستانة، ويتضح ذلك من الرسالة التي بعث بها «مايو Moyo» حاكم الهند إلى «أرجيل Argyll»، وزير خارجية بريطانية في 31/3/1871 يقول فيها (11):

«إنه سيكون سعيداً إذا تمكنت حكومة صاحبة الجلالة من منع الحملة، لأن أي عملية حربية في أي جزء من الخليج العربي ستعمل على تقويض السلام والأمن في البحار، إلى جانب أنها ستلحق أضراراً بالغة بالتجارة البريطانية وغيرها، كما أنها من المحتمل أن تزيد من التعقيدات . . ثم أضاف يقول: «كان يجب على «اليوت» السفير البريطاني في الأستانة أن يستغل وقته في محاولة وقف الحملة من الإبحار بدلاً من أخذ التأكيدات من الباب العالي حول هدفها».

نجد من خلال هذه الرسالة اختلاف وجهات النظر بين حكومة الهند البريطانية والخارجية، ففي الوقت الذي اتخذت الخارجية عن طريق سفيرها في الأستانة وقنصلها في بغداد والبصرة نوعاً من التساهل والمرونة بطريقة دبلوماسية

حون حبر الحملة قبلها، وحتى بعد تأكيدها في «الاستانة» وتحميله المسؤولية عن عدم عرقلته للحملة، إضافة إلى سكوته على الإبحار وعدم منعه، يختلف «اتشيسون» وزير خارجية الهند في وجهة نظره عن حاكم الهند ويقول بأن هذه الحملة تختلف عن الحملات البحرية الأخرى التي حدثت سابقا في الخليج العربي، من حيث إنها لم تكن تريد الاصطدام بدولة أخرى في المنطقة وإنما ترمى إلى إخماد تمرد في أحد أقاليمها «نجد» ولذا يرى في خطابه إلى «مايو Moyo» حاكم الهند العام أن الحكومة البريطانية ليس لها سند قانوني لا في معارضة ولا في منع ساحل عمان والبحرين من مهاجمة العثمانيين بحرا، كما أشار إلى أن ثمة اعتبارات عملية تتفق كثيرا مع الموقف الحرج الناشئ حيثئذ في الخليج العربي، مما يجب أن يؤخذ في الحسبان وعلى أنها أكثر من مجرد مناقشات قانونية، وأضاف «اتشيسون» يقول:

«إننا لا نستطيع أن نجعل سياستنا البحرية تعتمد على السياسات العربية التي تجرى على الشاطئ، لأننا عندما نفعل ذلك فإننا سنتورط في علاقاتنا مع القبائل العربية التي نعرفها ولا نستطيع فهمها»⁽¹²⁾.

حسنت حكومة الهند البريطانية موقفها من الحملة التي توجهت بحرا، في حين لو توجهت برا لما عارضتها برغم استيائها الشديد من تدخل الباب العالي في شؤون الخليج العربي، وقد تكون أقل إزعاجا لأن استخدام الاسطول البحري العثماني يثير مخاوف حكومة الهند البريطانية، لا لأنها تهدد السيادة البحرية البريطانية في الخليج العربي أو تعرض السلام البحري البريطاني حسب مفهومها للخطر أو قد تكون سابقة جديدة لكيانات المنطقة، وإنما جعلت العثمانيين في موقف يحتم عليهم توسيع نطاق عملياتهم⁽¹³⁾.

في الوقت الذي نجد «بيلي» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي يكثر من تعيين الوكلاء الوطنيين في مناطق متفرقة من الأقاليم العثمانية ليحصل على معلومات عن سياستهم وتحركاتهم في المنطقة لنجده على اتصال مباشر مع حكومته في الهند يطلب منها تأكيد علاقاتها مع البحرين.

عندما وصلت القوات العثمانية إلى الدوحة ودخلت قطر تحت سيادتها تغيرت نظرة «اتشيسون» وزير خارجية الهند تجاه الدولة العثمانية، لأنه لم يكن يتوقع أنها سوف تصل إلى قطر وإنما سوف تكتفى بارجاع «المجد» لسيادتها فقط، ولهذا يقول عن السياسة العثمانية تجاه المنطقة ضمن محضر مؤرخ في 19 يوليو 1871 (14).

«إن احتلال البدع يبدو مناقضا لروح التأكيدات التي قدمها الباب العالي والباشا. إنها بلاشك المحاولة الأولى نحو تأسيس سيادة على القبائل في الشرق ممن أدخلت مدنها كما هو معروف في الجريدة الرسمية العثمانية على أنها بيوتات وحدائق ونجد، والعثمانيون أشد ذكاء من أن يشهروا أى تأكيد عنيف أو مفاجئ لسيادتهم.

يبدو أن حكومة الهند البريطانية لم تكن راضية عن أسلوب وزارة الخارجية البريطانية تجاه الحكومة العثمانية التي أصبحت تسيطر وتتجه نحو مناطق تعتبرها حكومة الهند البريطانية خاضعة لنفوذها، هذا ما جعل «مايو» حاكم الهند العام يكتب رسالة إلى «أرجيل» وزير خارجية بريطانيا يقول فيها (15).

«إن نصيحتك بالترتيب ستزيد من التعقيدات التي تتجسد بوجود القوة البحرية العثمانية، والتي باتت تهدد مركزنا في الخليج العربي الذي جاءت الحكومة البريطانية على أحسن الفروض لاحتلاله، فنحن نفهم أن وجودنا في الخليج العربي لم يكن في أى وقت ذا أهمية مادية، تفوق المصلحة البريطانية الحالية في تشجيع التجارة، وحفظ السلام في البحار الهندية، وسوف يعنى الأمر بالنسبة لنا الأسف الشديد على أن يكون حليف مخلص كالدولة العثمانية التي حافظت بريطانيا على قوتها بكثير من التضحيات هو البادئ في اتخاذ الخطوات نحو تغيير طبيعة الأشياء».

بعث «اليوت» السفير البريطاني في الأستانة برسالة في 22 أغسطس 1871 إلى «جرانفيل» وزير خارجية بريطانيا يقول فيها إنه تلقى برقية من نائب الملك في الهند تتساءل عن وجود أساس من الحقيقة عن أن الجنود العثمانيين سيرسلون إلى قطر وأن قلاع تبني في «القطيف» و«العقير» فقد سأل في ذلك «فيرافندي» الذي

قال له بأنه بعد مراجعة المراسلات الواردة له لم يجد أن الحكومة العثمانية ليس لها ما يسوغ أن تفضى بالمعلومات حين تسأل عن إجراءاتها فيما تعتبره أقاليمها الخاصة، وذلك يشير إلى «نجد» و «اليمن»⁽¹⁶⁾.

فوصول الحملة العثمانية إلى قطر بعد نجاحها في «الإحساء» و «نجد» قد سبب إحراجا لمركز حكومة الهند في الخليج العربي، ولعل تخوفها كان راجعا إلى امتداد التوسع العثماني إلى ساحل عمان وعمان وإنه ليس من السهل منع العثمانيين من فرض سيادتهم على شئون الجزيرة العربية بعد دخولهم إلى قطر على الرغم من أن الأخيرة كانت قد وقعت اتفاقية مع بريطانيا، مما زاد القلق لدى حكومة الهند البريطانية القائمة التي وردت في الطبعة الأخيرة من الجريدة الرسمية «الزوراء» التي تصدر في بغداد، وهي قائمة تضم أسماء المدن الرئيسية لاقليم «نجد» العثماني ومن جملة الأسماء التي احتوتها هذه القائمة: البحرين وثمانى مدن من بينها مشيخات ساحل عمان مثل الشارقة ودبي وأبوظبى وغيرها، الأمر الذى دفع بريطانيا إلى الاحتجاج على ذلك الإعلان، وطلب حاكم الهند العام من «هريت» القنصل البريطانى فى بغداد إبلاغ مدحت باشا بأن معالجة مثل هذه القضايا يجب أن تتم بين الباب العالى والحكومة البريطانية، ولكن مدحت باشا لم يعر الاحتجاجات البريطانية أى اهتمام، وإنما استمر فى بسط نفوذه إلى أبعد من قطر نفسها، وبهذا نجد الحملة قد تجاوزت الخطة الرسمية التى أعلنها مدحت باشا نفسه، وهى إعادة القائمقام عبدالله بن فيصل إلى منصبه فى نجد⁽¹⁷⁾.

يمكن القول بأن السياسة التى اتخذتها الدولة العثمانية تجاه الجزيرة العربية فى عهد السلطان عبدالعزيز، والتى نفذها مدحت باشا والى العراق عن طريق حملتها إلى الإحساء، كانت من أهم عوامل التصعيد فى النزاع الأنكلو - عثمانى فى شرق الجزيرة العربية، علما بأن الدولة العثمانية نفذت سياستها فى الأجزاء الغربية من الجزيرة العربية قبل الشرقية عندما أرسلت حملة إلى الأقاليم الشمالية من اليمن، وهى «العسير».

إشكالية القرار السياسي البريطاني في ظل النزاع مع العثمانيين:

في الوقت الذي كان القرار السياسي العثماني واضحاً إلى حد ما نظراً لعدم وجود جهات مختلفة في اتخاذ القرار السياسي سواء أكانت إدارية أم سياسية، إذ كان يرجع بدرجة أكبر إلى السلطان العثماني والباب العالي، حسب قوة كل منهما، وذكرنا كيف مرت السياسة العثمانية بمراحلها الثلاث في عهد السلطان عبدالعزيز ثم عبد الحميد ثم جماعة الاتحاد والترقي - فقد كانت القرارات السياسية البريطانية تمر بعدة مراحل قبل أن تخرج إلى حيز التنفيذ وتصبح سارية المفعول.

واجه القرار السياسي البريطاني عدة إشكاليات، من أهمها وجود إدارتين متباينتين لا متعارضتين، إحداهما في المستعمرات الشرقية، وهي حكومة الهند البريطانية، والثانية وزارة الخارجية البريطانية في لندن.

تتضح هذه الإشكالية من خلال المراسلات ووجهات النظر لكل من الإدارتين في المواضيع الهامة والمتعلقة بالنزاع الأتكلو - عثماني في شرق الجزيرة العربية، وسوف نورد بعض هذه النقاط فيما يلي:

أولاً: الاعتداءات والأعمال البحرية في الخليج العربي:

شجع مجيء القوات العثمانية في شرق الجزيرة العربية بعض أفراد القبائل العربية على مقاومة النفوذ البريطاني، وذلك عن طريق الاعتداءات على مصالح بريطانيا أو مصالح رعايا الكيانات الواقعة تحت حمايتها، وقد يرجع سببها إلى تساهل الحكومة العثمانية، أو عدم منعها أو اتخاذ أية إجراءات فعالة لمنعها، أو قد تكون السلطات العثمانية تغض نظرهما إن لم تكن تشجعها لتضايق الوجود البريطاني في المنطقة بطريقة غير مباشرة، وحتى لا تدخل في صراع أو صدام مباشر مع بريطانيا التي كانت تطلق عليهم لفظ القراصنة أو القرصنة، وهي لم تكن كذلك وإنما اعتداءات فردية ومتفرقة وقليلة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.

استغلت بريطانيا تلك الاعتداءات لصالحها لمقاومة السيادة العثمانية واعتبرتها غير قادرة على منعها، ولذا فإنها تريد اتخاذها ذريعة لتتدخل في السيادة العثمانية وتعمل على تقويضها، وهذا ما نلاحظه من خلال دراستنا.

هاجم بعض أفراد من قبيلة «بنى هاجر» سفينة من رأس الخيمة في صيف عام 1878 ثم هاجموا سفينة فارسية في جزيرة «الشيخ شعيب» علما بأن أفراد هذه القبائل من بنى هاجر لم يكونوا يعملون في البحر أو لديهم خبرة قتالية في البحر قبل مجيء العثمانيين، مما يعنى أن مجيئهم إلى شرق الجزيرة العربية قد دفعهم للعمل في هذا الاتجاه في الوقت الذي اعتبرتهم بريطانيا من أسباب تعكير الأمن في مياه الخليج العربي ودورها في حمايتها كشرطي المنطقة تحت شعار رائف لكى تحفظ نفوذها ومصالحها.

أبحر طراد بريطاني في شهر سبتمبر 1878 من قاعدته في بوشهر بعد سماع قائده تلك الأخبار لإجراء التحقيق، وقال القائد البريطاني بأن أعمال الاعتداءات البحرية في تزايد انطلاقا من «الظهران» بقرب «القطيف»، وأوضح ذلك لحكومته في الهند، وحمل الدولة العثمانية المسؤولية، وقال: لا توجد أسباب تدعو إلى اتهام الولاة أو السلطات المحلية بالتواطؤ مع المعتدين، إلا أنهم لم يتخذوا الإجراءات المناسبة لمنعها وسمحوا لهم بالاعتداء، وكان «روس» المقيم السياسى البريطانى لا يتوقع أن يقوم العثمانيون بأية إجراءات لوقف تلك الأعمال، إلا أنه يرى وجوب إبلاغ الحكومة العثمانية عنها، وتم ذلك عن طريق القنصل البريطانى في بغداد، وكان «روس» متأكدا من أن العثمانيين لن يردوا على أى خطاب بهذا الشأن فقرر أن يتصرف قبل وصول التعليمات من حكومته في «سملا»، ووصلت رسائل من حكومة الهند إلى «روس» يكلفه بتقديم الأدلة والبيانات على اشتراك أفراد القبائل في الاعتداءات البحرية إلى والى «البصرة» ويطلب فرض العقوبات على المعتدين، أما إذا رفض الوالى طلبه فيتعين عليه أن يفكر في إجراء يتخذه ويعرضه على حكومة الهند لأخذ رأيها وموقفها⁽¹⁸⁾.

غادر «روس» إلى البصرة في 22/10/1989 واجتمع مع الوالى العثمانى مرتين إلا أن الاجتماعين لم يسفر عن أية نتائج إيجابية، وقال الوالى إنه لا بد أولا من التأكد من صحة المعلومات التى أدلى بها قائد الطراد قبل اتخاذ قرار فى الموضوع، وقال بأنه لم تكن ثمة حاجة إلى تدخل الأسطول البريطانى إلى المياه الإقليمية فى الإحساء أو أية منطقة أخرى من المناطق التابعة للعثمانيين، وقد علق على ذلك أحد المسئولين البريطانيين بقوله⁽¹⁹⁾.

«وكان من الواضح أن عبد الله باشا آل سعود قائم مقام العثماني في نجد وهو من المتطرفين الدينيين يكن كراهية شديدة للبريطانيين» «أن يتشكك في نوايا البريطانيين من الإجراءات التي يستخذونها في مجال مكافحة الآفات والأمراض والأعمال البحرية داخل مياه الأحساء، وعلى أية حال فقد كان لعبد الله باشا آل سعود تصورات الخاصة بالنسبة للمشكلة، في حين كتب «روس» بعد مغادرته البصرة يقول: فعلى حين تبذل الحكومة البريطانية مساعيها لمكافحة الاعتداءات والأعمال البحرية ومعاقبة أصحابها فإن الوالي العثماني على ما يبدو يحاول استغلال إجراءات الحكومة البريطانية لفرض الحكم العثماني على «ريارة» وغيرها من المناطق الساحلية في قطر».

يتضح من ذلك كيف يبرر المسؤولون البريطانيون انتهاكاتهم في المياه الإقليمية العثمانية بمكافحة الاعتداءات، وهذا من اختصاص الدولة العثمانية، وليس بريطانيا، وهي حرة في اتخاذ ما تشاء من الإجراءات، وعندما حاول الوالي العثماني منعهم من الانتهاك لحرمة المياه الإقليمية، اعتبروه متطرفا دينيا ومعاديا لبريطانيا، أي أن كل من لا يطيعهم ويعمل لصالح بلاده يعتبر متطرفا دينيا، وبذلك يبررون تدخلهم في الشؤون الداخلية للغير تحت شعارات مختلفة.

نجد اختلافا بوجهات النظر بين الإدارتين لحكومة الهند البريطانية والخارجية البريطانية حول قضية الاعتداءات والأعمال البحرية، وكيفية اتخاذ القرار السياسي، فعندما اقترح «روس» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي القيام بمسح شامل للمناطق التي يعتقد أن بعض أفرادها يقومون بالاعتداءات البحرية منها أو يأوون إليها من الأحساء وقطر، وطلب تخصيص سفينة «نيكسون» القنصل البريطاني في البصرة، وقال إن مقترحات «روس» في الأحساء وقطر مبالغ فيها، لأنها تعد تدخلا في السيادة العثمانية، وبعث برسالة إلى «لايارد» السفير البريطاني في «الأستانة» في مارس 1879 ومما جاء فيها أن «روس» عندما اقترح على المسئولين في حكومة الهند الموافقة على أن يتولى الأسطول البريطاني مطاردة الأفراد الذين يقومون بالاعتداءات البحرية في مياه الأحساء، لم يكن يضع مسألة السيادة العثمانية في

اعتباره، ثم قال بأننى قد سبق أن أدليت بوجهة نظرى فى هذا الشأن، ولكن استتج من اجراءات المسئولين البريطانيين فى «بوشهر»، أن هذه الحقيقة قد غابت عن تفكيرهم، وهذا ما جعل «ليتون» نائب الحاكم فى الهند يستاء كثيرا من رسالة «نيكسون» القنصل البريطانى فى البصرة إلى سفيره «لايارد» فى «الآستانة» فكتب بشدة ينتقده بقوله (20).

«أعتقد أن «نيكسون» لا يعرف شيئا عن شؤون المنطقة التى يتحدث عنها، وأن الآراء التى عبر عنها فى رسالته إلى سفير صاحبة الجلالة فى «الآستانة» مشكوك فى صحتها، وأن المشكلة التى تعترضنا فيما يختص بالاعتداءات والأعمال البحرية وغيرها من الاعتداءات أنها تقع داخل المياه الإقليمية للعثمانيين أو قرية منها».

نلاحظ مدى الاختلاف فى وجهات النظر بين الإدارتين، حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية، فقد انتقد «ليتون» نائب الملك فى الهند ملاحظات «نيكسون» القنصل البريطانى فى «البصرة» لمحاولته منع تدخل الأسطول البريطانى فى المياه الإقليمية الخاضعة للسيادة العثمانية فى الإحساء وقطر.

يعتبر هذا خير اعتراف من الخارجية البريطانية والمتمثلة فى موظفيها مثل القنصل البريطانى فى «البصرة» و «بغداد» أو سفيرها فى «الآستانة»، فى الوقت الذى ينكر «ليتون» نائب الملك فى الهند وإدارته السيادة العثمانية على تلك المناطق، مما خلق معه إشكالية فى اتخاذ القرار السياسى البريطانى، حيث إن الجهة التنفيذية فى اتخاذ القرار هى الخارجية البريطانية، ولكن حكومة الهند البريطانية تلعب دورا أساسيا برغم أنه استشارى، ولكنه أكثر ارتباطا واختصاصا لمنطقة الخليج العربى، إضافة إلى أنه فى مجال اختصاصها، ومن هنا تأتى هذه الإشكالية، فلا بد من اقتناع حكومة الهند بقرارات الخارجية البريطانية، والتى تنتمى إليها من الناحية الإدارية.

مما زاد فى هذه الإشكالية طلب «نيكسون» من السفير البريطانى فى الآستانة إصدار التعليمات إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بإحالة أى خلاف مع السلطات العثمانية فى الإحساء بشأن الاعتداءات البحرية فى مياه سواحل شرق

الجزيرة العربية إليه، واعتبار العثمانيين مسئولين مسئولية كاملة عما يقع من اضطرابات أو إخلال بالأمن في الجزيرة العربية، وأن يتحاشى المقيم السياسى البريطانى اتخاذ إجراء منفرد.

بذلك يعارض «نيكسون» مبدأ التدخل فى شئون القبائل فى الجزيرة العربية مهما كان نوع التدخل أو أسبابه، ما لم يتم بالتعاون مع السلطات العثمانية هناك، والذين هم مستعدون للتعاون مع بريطانيا إذا طلب منهم ذلك.

ووافق السفير البريطانى فى «الأستانة» على آراء «نيكسون» واقترح على «سالسبورى» وزير خارجيته الجديد والذي اعتبر بدوره بأن السلطات العثمانية مسئولة عن الاعتداءات البحرية التى يقتربها بعض أفراد القبائل ضد رعايا الحكومة البريطانية انطلاقاً من الأراضى الخاضعة للسيادة العثمانية، وبعث وزير خارجية بريطانيا مقترحات سفيره إلى مكتب شئون الهند فى لندن، والذي أرسله إلى حكومة الهند البريطانية وبالتالى إلى «أى. س. لايل» الذى حل محل «اتشيسون» فى وزارة الهند الخارجية والذي أهملها⁽²¹⁾.

ثانياً: تحديد السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية:

تحديد السيادة العثمانية كان من أهم إشكاليات القرار السياسى البريطانى لحل النزاع الأنكلو - عثمانى، وإذا ما تم التوصل نحو تحديد السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية واعتراضها من قبل البريطانيين والتوصل نحو الاتفاقية بين الجانبين البريطانى والعثمانى، أمكن إنهاء النزاع بين البلدين وينتهى العديد من الإشكاليات التى ظهرت لدى البريطانيين نتيجة لعدم اعترافهم بالسيادة العثمانية أو تحديدها، ومنها على سبيل المثال:

(أ) القلق البريطانى من الوجود العثمانى على مصالح بريطانيا فى المنطقة.

(ب) التخوف من الاجتياح العثمانى تجاه ساحل عمان وعمان والبحرين، ولذا نجد إشكالية فى القرار السياسى البريطانى حول تحديد السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية، والراجع إلى أن بريطانيا كانت تسعى إلى تحجيم السيادة العثمانية وتحديد قطر عنها لتكون فاصلاً بينهما وأن لا تتعدى الحدود العثمانية جنوب «العقير»، وهذا ما سوف ندرسه.

(ج) نظراً للاعتداءات والأعمال البحرية انطلاقاً من المياه الإقليمية العثمانية كان يجب تحديد هذه السيادة وإلزام الدولة العثمانية بحفظ النظام في مياهها الإقليمية، وإذا لم تستطع ذلك فيطلب من الدولة العثمانية تفويض بريطانيا بهذه المسؤولية، وهذا ما كانت تسعى إليه حكومة الهند البريطانية بجعل الدولة العثمانية في الخليج العربي مثلها مثل ساحل عمان وعمان والبحرين الواقعة تحت حمايتها.

بذلك تدخل حكومة الهند في الشؤون الداخلية عن طريق سيادة المياه الإقليمية العثمانية في شرق الجزيرة العربية، وهذا ما دفع الباب العالي إلى رفضها أو تجاهلها أحياناً، بل عمل على تحريض بعض أفراد القبائل على الاعتداءات والأعمال البحرية أحياناً، لكي يكون الوضع عائماً وغير مستقر حتى مجيء جماعة الاتحاد والترقي الذين تنازلوا وعقدوا اتفاقية 1913 لتحديد السيادة والاعتراف فيما بينهما.

من هنا جاءت الإشكالية في وجهات النظر بين المسؤولين البريطانيين في اتخاذ القرار السياسي حول السيادة العثمانية في شرق الجزيرة العربية بين الإدارتين؛ حكومة الهند البريطانية، ووزارة الخارجية البريطانية، برغم أن العثمانيين كانوا قد حددوا السياسة وسيادتهم في شرق الجزيرة العربية من جانب واحد، إلا أن حكومة الهند البريطانية كانت ترفض تلك الحدود والسيادة، محاولة تحجيم العثمانيين بقدر الإمكان.

صرح مدحت باشا في أبريل عام 1871 أي قبل الحملة بأن السيادة العثمانية أصبحت ممتدة على «المجد» وفي الوقت نفسه اعتبر البحرين تابعة «لنجد»، وبالتالي للسلطة العثمانية، وهنا شعرت بريطانيا بقلق شديد لأن أقصى ما كانت تخشاه هو امتداد الحملة العثمانية إلى البحرين. واتضح لها أيضاً أنه في حالة اجتياح الحملة فإنها ستسير لضم كل من قطر وساحل عمان وعمان.

لم تعترض حكومة الهند البريطانية على الحملة العثمانية، وإنما استاءت من تصرفات وزارة الخارجية البريطانية لعدم منعها لأنها هي جهة الاختصاص من الناحية التنفيذية، وليس حكومة الهند، ولهذا وافقت على مفضض ولكنها حددت

السيادة العثمانية من جانبها واعتبرتها تمتد من شط العرب إلى نقطة قريبة من الدمام، ولكنها عترضت بقوة على ما صرح به مدحت باشا وتفسيره للسيادة العثمانية إلى قطر والبحرين وساحل عمان وعمان⁽²²⁾.

رفع العلم العثماني على قصر الحاكم في الدوحة، واعتبرت حكومة الهند هذا العمل نذيرا بتصعيد النزاع الأنكلو - عثماني ليس فقط في البر، وإنما في مياه الخليج العربي، لأن بريطانيا تيقنت من إصرار مدحت باشا على ترسيخ السيادة العثمانية في المنطقة.

أكد الباب العالي بأن عمان والبحرين وساحل عمان من رأس الخيمة إلى أبوظبي تعد ضمن السيادة العثمانية لأن رعاياها كانوا يدفعون ضرائب سنوية لقائم مقام نجد العثماني الأمير فيصل بن تركي «والذي كان بدوره يدفع «لشريف الحجار» الذي كان تابعا رسميا للدولة العثمانية وبعد وفاته اعتبر ابنه «عبدالله بن فيصل» ووريثه في الحكم تابعا للدولة العثمانية بالوراثة كقائم مقام «نجد» الذي كان يتبع مباشرة إلى والي بغداد في العراق⁽²³⁾.

هذا يعني أن حكام ساحل عمان وعمان والبحرين وقطر كانوا يعترفون بالسيادة العثمانية، وتجسيدا لفرض السيادة العثمانية على تلك المناطق التي ذكرها الباب العالي، عززت القوات العثمانية أسطولها الحربي هناك، وأكد ذلك «عارف بك» قائد الأسطول العثماني في الخليج العربي بمجيء عشر سفن أخرى للمنطقة، مما أثار قلق «مايو» حاكم الهند العام، الذي أعلن أن مثل ذلك الوجود للأسطول العثماني يشكل خطرا بل تحديا للنفوذ البريطاني في مياه الخليج العربي⁽²⁴⁾.

شغلت مسألة السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية اهتمام حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية من عام 1871 حتى عام 1913، وأصبحت من أهم الإشكاليات التي حالت دون اتخاذ قرار سياسي بريطاني محدد، خاصة أن الخارجية البريطانية وموظفيها مثل «لايارد» السفير البريطاني في الأستانة وقنصله في كل من بغداد والبصرة، كانوا يعترفون ضمينا من خلال رسائلهم بالسيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية دون تحديدها أو امتدادها، في الوقت الذي كان موظفو حكومة الهند البريطانية ينكرون ذلك ويعتبرون السيادة العثمانية تمتد إلى

«العقير» تقريبا .

حول اختلاف وجهات النظر وكيفية معالجة هذه الإشكالية في اتخاذ القرار السياسي البريطاني سوف نعرض بعض الآراء والمقترحات للمسؤولين البريطانيين فيما يلي (25).

أولاً: «بريدو» القائم بأعمال المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي؛

يلخص الكابتن «بريدو» (Prideaux) الذي كان يقوم بمهمة المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي عام 1876 أثناء غياب «روس» مقترحاته بما يلي:

«وحيث إن مصالحنا متأثرة بشكل كبير بما يجرى في المنطقة آخذين بعين الاعتبار نوعية الأحوال الراهنة ومدى ارتباطها بالحكومة العثمانية والبريطانية سيكون من غير الحكمة أن نطلب من الباب العالي تحديد المناطق التي يرغب في مد النفوذ إليها وأقترح أن تطبق السياسة الناجحة نفسها التي تبناها في اليمن، بمعنى أن الحكومة البريطانية تعرف بمطالب العثمانيين المتعلقة بالسيادة على بعض الأقاليم الواقعة على الساحل العربي . . . ولحسن الحظ فإن المناطق التي يطالب بها العثمانيون ليست واسعة، وهذا يجعل من السهل علينا تعيينها بحدود جغرافية، الأمر الذي لم يكن ممكناً في اليمن . . .

لذا أقترح محاولة اقناع الحكومة العثمانية بالتنازل ودياً عن المنطقة الواقعة إلى الجنوب من «العقير»، وخليج البحرين، وعندئذ ستجرى الأمور بشكل موات لمصالحنا وامتيازاتنا». وبرغم أن هذا الاقتراح لم يتخذ فيه قرار سياسي، أقرته الإدارة البريطانية بعد مرور ثلاثين عاماً تقريباً بطريقة أخرى، وذلك فيما جاء بالاتفاقية الأنكلو - عثمانية لعام 1913 والخط الأزرق.

ثانياً: اللورد ليتون Lytton نائب الملك في الهند؛

اقترح اللورد ليتون الذي خلف نور ثبروك Northbrook في منصبه كنائب الملك في الهند اتباع سياسة أكثر إيجابية مع العثمانيين، فكان يرى أن النزاع في الجزيرة العربية عام 1876 لم يصل إلى الدرجة التي تقتضى قيام مفاوضات طويلة ومعقدة لبحث إشكالية تحديد السيادة العثمانية.

ثالثاً: «نيكسون» Nixon، القنصل البريطاني في البصرة؛

يعتبر «نيكسون» القنصل البريطاني في البصرة من أكثر المعارضين للتدخل البريطاني في الشؤون الداخلية العثمانية في شرق الجزيرة العربية أو حتى انتهاك حرمة المياه الإقليمية العثمانية، ولهذا فإنه قال: يجب أن تكون مطالبنا بالطرق السلمية والودية عن طريق الباب العالي الذي قال عنه بأنه يستطيع أن يتصرف بطريقة سليمة وأنه يستجيب لمطالبنا عندما نطلب منه ذلك.

علق «ليتون» Lytton نائب الملك في الهند على اقتراح «نيكسون» بقوله:

«إما أن نقبل بمسئولية الحكومة العثمانية عن الفوضى على طول الساحل العربى بكامله، وأن نوجه في الوقت نفسه إلى السلطات البريطانية المحلية تعليمات تمتنع بموجبها عن التدخل، وفي هذه الحالة نناقض سياستنا في المنطقة، وهذا مما لا ريب فيه سيضعف النفوذ البريطانى والمصالح البريطانية في الخليج العربى .. وأضاف يقول:

«إن الاقتراح الفعلى الذى يتعين علينا أن نأخذ به قد عبر عنه «هنرى لايارد» Henry Layard السفير البريطانى فى الأستانة عندما قال: «إنه يتعين علينا قدر المستطاع أن نتجنب التدخل المباشر فى نزاعات القبائل العربية على البر، محملين فى الوقت ذاته الحكومة العثمانية كامل المسئولية تجاه أى تصرفات ترتكب ضد أرواح الرعايا البريطانيين وممتلكاتهم ضمن الأراضى التى تقع تحت سلطات الباب العالى».

هذا يعنى موافقة السفير البريطانى فى الأستانة على مقترحات «نيكسون» قنصله فى البصرة، وقد طلب من «سالبرى» وزير خارجية بريطانيا تبني تلك المقترحات.

رابعاً: «إن.سى. لايال» Lyall، وزير خارجية الهند؛

لم يوافق «إن.سى. لايال» وزير خارجية الهند على تلك المقترحات لأنه كان يعتبر أن حدود السيادة التى تمتد لشرق الجزيرة العربية قابل للتغير، وحدد الساحل العربى وساحل الإحساء من جانب واحد، أى الجانب البريطانى، فقال بأن الساحل العربى وإقليم الإحساء تعتبران مختلفين جغرافياً، فالأول يمتد من فم

شط العرب إلى «رأس الحد، أما الثاني فيمتد من «الكويت» إلى «العقير».

وصفت حكومة الهند البريطانية تلك الاقتراحات بأنها غير كافية، فقد كان «نيكسون» يرى بعض الفائدة في تحميل السلطات العثمانية مسئولية الاعتداءات والأعمال البحرية وعدم التدخل في المياه الإقليمية العثمانية، ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما نصح بعدم التدخل البريطاني في شئون ساحل عمان وعمان.

أى أن «نيكسون» نسف جهود حكومة الهند البريطانية وسياستها الاستعمارية في شرق الجزيرة العربية بفرض نفوذها في المنطقة عندما كرر للمرة الثانية ما قال في شهر مارس عام 1876 بأنه يجب على حكام ساحل عمان أن يدفعوا ضريبة إلى الحكومة البريطانية مقابل حمايتها لهم، في حين اختلف رد «روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى، الذى طلب من العثمانيين تحديد سيادتهم، ويمكنهم معها منع الاعتداءات والأعمال البحرية على أن تقوم بريطانيا بتحديد مصالحها وامتدادها والتي يجب على العثمانيين المحافظة عليها.

خامساً: مقترحات «ليتون»، نائب الملك فى الهند:

طالب «ليتون» نائب الملك فى الهند بقيام تفاهم مع العثمانيين موضحاً مدى فائدته فى رده على وزير الدولة لشئون الهند، وأن تعترف بريطانيا بهذه السيادة العثمانية، أما خارج الدوحة فلا يقر لهم بالسيادة، ويؤيد ما قاله «روس» بأن تدخل السيادة العثمانية وامتداد نفوذها داخل ساحل عمان وعمان سيكون نقيضاً لحماية حقوق البريطانيين والتزاماتهم مما يفسد نظاماً أثبت جدواه ومنفعته لكل مصالح الشعوب فى الخليج العربى، وأيد «ليتون» ما قاله «نيكسون» بأن يدفع حكام ساحل عمان ضريبة مقابل حمايتهم.

فنستغرب ما جاء فى أقوال «ليتون» نائب الملك فى الهند، فمنذ متى كان للاستعمار المسيحى البريطانى حقوق فى الأراضى العربية؟ وماذا يعنى بقوله: «نظاماً أثبت جدواه ومنفعته لكل مصالح الشعوب فى الخليج العربى»؟!

فلا يوجد أحد يقبل الاستعمار أو الحماية والاحتلال مهما كان نوعها أو تعددت أساليبها، فالشعوب دائماً تحب الحرية وهى أغلى ما فى الوجود، فليس

هناك أية مصلحة لشعوب المنطقة في بقاء الاستعمار.

ثم ما منطق الاستعمار المسيحي الجديد كما يقول «نيكسون» القنصل البريطاني في البصرة والذي يطلب من حكام ساحل عمان دفع ضريبة للاستعمار المسيحي البريطاني مقابل الحماية، أي حتى الاستعمار والاستعباد لحرية الشعوب يكون بضمن، وفعلا تعد هذه إشكالية جديدة في مفهوم الاستعمار أو الاستعمار الجديد أو في فهمنا للاستعمار.

سادسا: الكولونيل «بيرن»، السكرتير الأول في الدائرة السياسية في حكومة الهند؛

طرح «السبري» وزير خارجية بريطانيا برأى آخر بعد دراسته لمقترحات «ليتون» نائب الملك في الهند، وقال إنه برغم اقتناعه بموافقة العثمانيين على تحديد سيادتهم على الساحل العربي، إلا أن ذلك يجب ألا يمتد بأى حال من الأحوال أكثر من المنطقة المجاورة «للبدع» وأضاف قائلا⁽²⁶⁾:

«يجب على الباب العالي أن يمتنع عن المطالبة بحق السيطرة على البحرين وساحل عمان وعمان، وكان «السبري» يرى بأن العثمانيين سوف يسمحون لسفن الأسطول البريطاني بملاحقة أفراد القبائل الذين يقومون بالاعتداءات والأعمال البحرية في المياه الإقليمية والأراضي العثمانية التي تقع على مرمى من مدفعية سفن الأسطول البريطاني، وذلك إلى أن يكونوا قادرين على حماية الرعايا والمصالح البريطانية في المناطق الخاضعة لسيادتهم.

سابعا: «مور» من الدائرة السياسية في الحكومة الهندية؛

اعترض «مور» الذي كان يعمل مساعدا لسكرتير الدائرة السياسية في حكومة الهند البريطانية على الأسلوب الذي أوصى به «ليتون»، وقال إنه اعتمد على التوصل إلى تفاهم رسمي مع العثمانيين، ولكن التجارب الماضية أثبتت أنه من الصعب تحقيق ذلك، ولذا فإن «مور» اقترح إبلاغ العثمانيين أن بريطانيا تريد الحفاظ على الأمن في مياه الخليج العربي سواء تعاونت معها الدولة العثمانية أم لا، وأن سيادتهم على الساحل الواقع إلى الشمال والغرب من «خور العديد» ليست موضع شك طالما كانت فعالة.

محاولة تحديد السيادة العثمانية من الجانب البريطاني:

ذكر «أى . سى . لايل» وزير خارجية الهند أن الساحل الغربى للخليج العربى وساحل الإحساء من الموضوعات التى رسم حدودها، فالأول يمتد بمعناه الواسع من «البصرة» إلى «رأس الحد». والثانى من الكويت إلى «الدمام»، ثم تساءل عن المناطق التى تدعى الحكومة العثمانية السيادة عليها؟

لهذا الغرض بعث «لايل» رسالة إلى كل من «نيكسون» و «روس» يطلب آراءهما حول حدود السيادة العثمانية على الساحل الغربى للخليج العربى، والإجراءات التى ينبغى اتخاذها لمنع الاعتداءات البحرية على المياه الإقليمية العثمانية، وما مدى تأثير المصالح البريطانية فى الخليج العربى فى حالة الاعتراف للعثمانيين بحقوقهم والتزاماتهم على الساحل العربى، وماذا لو نتج عن ذلك الاعتراف تزايد قوة الأسطول العثمانى فى المنطقة؟

رد عليه «نيكسون» باقتراحه السابق، باخضاع كل من ساحل عمان وعمان لتبعية بريطانيا حتى تضمن الأسس القانونية لمقاومة التوسع العثمانى تجاه ساحل عمان وعمان، وكان «روس» يعتقد بأن «نيكسون» ضم «قطر» إلى إقليم «الإحساء»، وقال: لا يمكن اعتبار قطر ضمن إقليم «الإحساء» لا من الناحية الجغرافية ولا السياسية، ولا يمكن الاعتراف بالسيادة العثمانية عليها، وقال: لا بد من رسم خط فاصل بين الإحساء وقطر، وانحصار الوجود العثمانى على الدوحة فقط والمناطق القريبة منها، على الرغم من أن العثمانيين يحاولون تمويه هذه الحقيقة، ثم استطرد «روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بقوله:

«قد تتصور الحكومة العثمانية، وربما كان لتصويرها هذا بعض الأسباب، أن وجودها الفعلى على الجزء الساحلى من قطر يعطيها الحق فى فرض سلطتها على امتداد المنطقة الواقعة بين قطر والدوحة، غير أن مثل هذه الادعاءات قد تمس من ناحية أخرى الحقوق والالتزامات البريطانية على الساحل المذكور، غير أن الحكومة البريطانية لا تزعم بوجود اتفاقيات تسمح لها بالاعتراض على ممارسة الباب العالى سلطاتها الإقليمية على المنطقة ولا توجد أمام بريطانيا أسس أخرى تبني عليها اعتراضها. لقد كنا نحن الذين مهدنا الطريق لإقامة النفوذ العثمانى بعد أن أخذنا

نتخلى تدريجيا عن ممارسة الإشراف والسلطة المباشرة على ذلك الجزء من ساحل شبه الجزيرة العربية، وكان هذا سببا في الظروف التي تمر بها المنطقة الآن كما لم تظهر إلى الوجود سيطرة لدولة أخرى في المنطقة تحل محل البريطانيين، ومن الواضح أن هذه الأوضاع غير مستساغة ولا يمكن السماح لها بأن تستمر دون أن تسبب في عواقب وخيمة، وأصبح وجود نوع من المسؤولية من الأمور الواجبة والضرورية. ثم يتابع «روس» قوله:

«بأن ثمة حدودا للحقوق والمسؤوليات البريطانية لا يجوز للحكومة البريطانية أن تتعدها فيما يتعلق بالتوسع العثماني أو السلطة العثمانية في المنطقة، وهذه الحدود كما يبدو لي تمتد من «البدع» التي هي أقصى نقطة على الساحل يمكن أن تصل إليها الإجراءات البريطانية، كما اعتقد أن «الوكرة» وهي منطقة متاخمة للبدعة (البدع) تعتبر منطقة داخلية في البدعة (البدع) وبالتالي يشملها النفوذ العثماني المعترف به، أما الحدود الجنوبية لهذه المنطقة فإنها تقع على درجة 25 شمالا من خط الطول ثم إلى الجنوب من تلك المنطقة تشكل «العديد» أو لمنطقة أهلة بالسكان».

تأكد للإدارة البريطانية بالتحقيق أن «العديد» تدخل ضمن سيادة أبوظبي وبالتالي فهي ليست جزءا من «قطر» كما أن العثمانيين لم يحاولوا من جانبهم تأكيد سيادتهم عليها. وقد لخص «روس» المقيم السياسي البريطاني حدود السيادة العثمانية الفعلية على شرق الجزيرة العربية كما يلي:

«تشكل المنطقة الممتدة من «البصرة» إلى «العديد» المنطقة الساحلية المعترف بالسلطة السياسية والإدارية للدولة العثمانية عليها، وفي «القطيف» و «العقير» توجد للعثمانيين حاميات وجهاز إداري، أما في «البدع» على الساحل الشرقي من «قطر»، فإن السلطة العثمانية سلطة قوية وإن لم تكن منتظمة، أما المنطقة الواقعة فيما بين «العقير» و «البدع» فلم يحاول العثمانيون فرض سيادتهم أو ممارستها عليها».

إذا افترضنا أن ذلك الوضع لم يكن مستمرا فإن الخطوة السليمة أمام

الحكومة البريطانية هي فتح حوار مع الباب العالي يهدف إلى رسم حدود السيادة ومناطق النفوذ لكل دولة وتحديد مسؤولياتها في شرق الجزيرة العربية، وإن المطالب العثمانية الغامضة فيما يتعلق بسيادتها في الجزيرة العربية قد يمنعها من الموافقة على حدود واضحة ورغم ذلك يرى «روس» أنه لا بد من المحاولة واقتراح على حكومته توجيه الدعوة إلى الحكومة العثمانية لكي تحدد بدقة المنطقة الساحلية التي هي على استعداد للاضطلاع بمسئولية السيادة عليها، وبالمقابل تقوم بريطانيا بدورها بتحديد طبيعة وحجم المصالح في الساحل الغربي والمناطق الأخرى التي تتولى مسؤولياتها منها ساحل عمان بما في ذلك «خور العديد» و «البحرين»⁽²⁷⁾.

يتضح من خلال الإجابة التي طلبها وزير خارجية الهند لكل من «نيكسون» القنصل البريطاني في «البصرة» و «روس» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي حول السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية، اختلاف في وجهات نظرهما برغم أنهما يمثلان بريطانيا، إلا أن اختلاف إدارتهما وعملهما أدى إلى تفسير مختلف، فالأول يرى من وجهة النظر القانونية وخاصة الدولية والعلاقات الخارجية عدم التدخل في الشؤون الداخلية وخاصة المياه الإقليمية لاعتبارها تحت السيادة العثمانية، في حين ينظر الثاني والتابع لإدارة المستعمرات البريطانية في الهند نظرة مستعمرة أكثر من نظرة علاقة بين بريطانيا والدولة العثمانية، كما أنه ينظر من جانب المصالح المرتبطة بالمستعمرات في الهند أكثر، وتمسك بالنفوذ البريطاني، وإبعاد أو على الأقل تحجيم السيادة والنفوذ العثماني وإنكار حق العثمانيين في ممارسة تلك السيادة أو التردد في الاعتراف بحدودها وتقليصها. وفيما يلي بعض الملاحظات على الرسالتين:

أولاً: نجد في رد «نيكسون» مدى قانونية بريطانيا في الدفاع عن ساحل عمان وعمان إذا ما أرادت الدولة العثمانية التوسع أو الاجتياح، في الوقت الذي لم تكن تربط بريطانيا معها اتفاقيات الحماية وإنما اتفاقيات السلام العامة لعام 1820، واتفاقيات الهدنة البحرية لعام 1853 والاتفاقيات الإضافية لعام 1856 ولعام 1864.

لهذا أسرعت الإدارة البريطانية في حكومة الهند فيما بعد وفرضت اتفاقيات

الحماية أو اتفاقيات «المانعة» على ساحل عمان والبحرين 1892 ثم الكويت عام 1899 وابن سعود عام 1915 وقطر عام 1916، وبذلك حصلت على الصك الشرعى أو المستند القانونى بتفويض من حكام ساحل عمان والبحرين بالحماية البريطانية، ومن خلالها تستطيع مواجهة أى توسع عثمانى تجاهها بموجب اتفاقيات الحماية، وبذلك يمكنها مواجهة الدولة العثمانية بطريقة قانونية فى الدفاع عن ساحل عمان والبحرين.

ثانيا: كيف يحاول البريطانيون ومنهم «روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى تفسير الوجود العثمانى فى «قطر»، عندما قال «انحصر الوجود العثمانى فى الدوحة فقط»، وبالتالي لا يعترف بالسيادة العثمانية على قطر وإنما فقط فى «الدوحة». علما بأن الدوحة هى عاصمة «قطر»، ومن الطبيعى أن تتواجد القوات العثمانية فى العاصمة ومنها ينتشرون حسب خطورة وأهمية الوضع فى بقية أنحاء قطر.

نستغرب لماذا يتجاهل البريطانيون وجود حاميات عثمانية أو مراكز عسكرية لهم فى مناطق متفرقة من قطر مثل «الوكرة» و «الزبارة»، وبذلك يفسرون الوجود العثمانى حسب وجهة نظرهم، ويفصلون قطر عن إقليم الإحساء من الناحية الجغرافية والسياسية، فى الوقت الذى تعتبر فيه قطر امتدادا طبيعيا لشبه الجزيرة العربية ليس فقط جغرافيا وسياسيا، وإنما اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا.

ثالثا: لا نعرف ماذا يقصد «روس» بعبارة «المنطقة الواقعة بين قطر والدوحة» علما بأن الدوحة هى عاصمة قطر، أما قوله «تمس من ناحية أخرى الحقوق والالتزامات البريطانية» فهو يعنى اتفاقية 1868 التى فرضتها بريطانيا على الشيخ «محمد بن ثانى» الذى لم يكن حاكما بعد على قطر وإنما مسئولاً عن أخذ الزكاة من سكانها ودفعها لحاكم البحرين الذى وضعته ممثلا عنها فى «الدوحة».

لهذا استدرك فقال «غير أن الحكومة البريطانية لا تزعم بوجود اتفاقيات تسمح لها بالاعتراض على ممارسة العثمانيين سلطاتهم الإقليمية على المنطقة». «وخاصة أن الوجود العثمانى فى قطر» جاء بطلب من «محمد بن ثانى» نفسه الذى

وقع تلك الاتفاقية مع بريطانيا. ولهذا كان طلبه الدخول تحت الحكم العثماني يلغى أية اتفاقيات سابقة، وبذلك يضمن الشرعية على السيادة العثمانية على قطر.

رابعاً: عندما يقول «روس» لقد كنا نحن الذين مهدنا الطريق لإقامة النفوذ العثماني لاندري ماذا يقصد، هل يقصد انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية عام 1840، وحماية الدولة العثمانية من السقوط في عهد محمد علي؟ أم يقصد عدم اعتراض أو منع بريطانيا للحملة العثمانية إلى شرق الجزيرة العربية؟ فلا نعتقد أنها كانت في وضع يسمح لها بالتدخل في شئون الدولة العثمانية في تلك الفترة في شرق الجزيرة العربية خاصة بوجود رجل قوى معادى للنفوذ البريطاني مثل مدحت باشا، لتمنع الحملة العثمانية إلى شرق الجزيرة العربية.

يدل هذا ليس فقط على قصور في السياسة البريطانية برغم اعترافها بأخطائها بقدر ما يدل على تجاهلها لعدم وجود مصالح جديرة بالمحافظة لكي تخضع قطر وتجعلها تحت نفوذها، لأن وجودها قد يكلفها أكثر من مصالحها، وخاصة الحماية من الدخول أكثر من الخارج، نظراً لارتباط القبائل القطرية بعمق الجزيرة العربية، وهذا ما كانت تخشاه بريطانيا من تورطها في الداخل.

لهذا امتنعت بريطانيا عن تقديم أية وعود أو التزامات للمقيمين أو لزعميهم محمد بن ثاني، وبعد مجيء العثمانيين يقول «روس» إنهم هم الذين كانوا سبباً في ذلك، ولهذا لا نعتبر ذلك تقصيراً من جانب بريطانيا وإنما خطأ في سياستها تجاه قطر، وليس دائماً تحقق السياسة المسيحية الاستعمارية أهدافها.

خامساً: ونجد اقتراح «روس» محاولة التفاهم مع العثمانيين هو من أهم الخطوات في إنهاء النزاع الأنكلو - عثماني التي تم اقتراحها من قبل المسئولين البريطانيين، والتي ساعدت فيما بعد على التوصل إلى اتفاقية 1913، ولذلك قسمت ليس شرق الجزيرة العربية، وإنما الجزيرة العربية كلها ككل بين النفوذ المسيحي البريطاني والعثماني.

القرار السياسي بين حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية؛

بدأت حكومة الهند البريطانية ووزارة الخارجية البريطانية مشاوراتهما لاتخاذ

قرار سياسى بشأن إشكالية السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية والتفاهم مع الباب العالي حول ذلك، ولكن تصرفات «جرانبروك» النائب الجديد للملك فى الهند، الذى حل محل «ليوتون» لم تكن إيجابية فى هذا الاتجاه، إلا أنه أقر توصيات «مور» المتشددة دون مراعاة السيادة العثمانية على ساحل شرق الجزيرة العربية، ومداومة موانئها للملاحقة المعتدين على مصالحها باعتبارها خارجة عن السيادة العثمانية الفعلية حسب وجهة نظره.

ثم أصبح يهدد قائلاً: بأنه فى حالة اعتراض الباب العالي على هذه الإجراءات ستعرض حكومة الهند على السيادة العثمانية فى أى جزء من ساحل شرق الجزيرة العربية الممتد من الكويت باتجاه الجنوب، ولم يكتف بذلك بل وضع الأسطول البريطانى فى الخليج العربى تحت تصرف المقيم السياسى البريطانى فى المنطقة مباشرة، وبهذه الطريقة اعتقد نائب الملك فى الهند بأنه سوف ينهى إشكالية السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية. وأصبح المقيم السياسى البريطانى هو الموجه للأسطول لأول مرة فى تاريخ المنطقة، علماً بأن الأسطول البريطانى فى الخليج العربى كان يتبع قيادة القوات البحرية، فى أعالي البحار، وكان يتلقى الأوامر من الحكومة الأم فى لندن، وأحياناً من حكومة الهند، وهذا ما كان يؤثر فى اتخاذ القرار السياسى من قبل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلا عند الضرورة القصوى عندما تكون المصالح البريطانية فى خطر، كان يتخذ المقيم السياسى قراره بشأن الأسطول نظراً لوجود بعض قطع الأسطول خارج مياه الخليج العربى⁽²⁸⁾. كما نجده يساوم السيادة العثمانية بالسماح للأسطول البريطانى بالتدخل فى المياه الإقليمية، وهذه من الأساليب الاستعمارية المسيحية لممارسة النفوذ فى المنطقة.

ووضع الأسطول البريطانى تحت قيادة المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى يعتبر تصعيداً خطيراً فى النزاع الأنكلو - عثمانى، وقد اعتقد «جرانبروك» نائب الملك فى الهند باتخاذ هذا القرار بأنه سوف ينهى إشكالية السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية، وعلى الاعتداءات والأعمال البحرية من جانب واحد. بذلك اتخذت حكومة الهند البريطانية الموقف المتشدد، فى الوقت الذى

كانت وزارة الخارجية البريطانية أكثر تساهلاً ومرونة لأسباب سياسية ودبلوماسية خشية التصعيد في النزاع مع الباب العالي، ولو كان ذلك على حساب حكومة الهند البريطانية، وهذا ما نلاحظه من خلال مواقف وزارة الخارجية البريطانية في إصدار القرار السياسي.

وجد «سالمسبري» وزير خارجية بريطانيا بأن اتخاذ قرار سياسي بشأن إشكالية النزاع حول السيادة العثمانية من خلال مقترحات حكومة الهند، من شأنه أن يؤدي إلى عرقلة حل هذا النزاع بالطرق السلمية في تلك الفترة التي كان الباب العالي يعتبر بريطانيا تحاول تحجيم سيادته واحتلال إقليم الدولة العثمانية مما جعلهم يضايقون البريطانيين بمختلف الوسائل.

لهذا لم يوافق «سالمسبري» على مقترحات حكومة الهند بشكل قاطع، وأرجأ الموافقة على اتخاذ القرار السياسي للسماح للأسطول البريطاني بملاحقة المعتدين في المياه الإقليمية العثمانية وتحطيم معاقلهم في البر إلى أن يبت رجال القانون في هذا القرار، والذين فعلاً قد رفضوا تلك المقترحات بشكل قاطع لأنه انتهاك للقانون الدولي ولحرمة المياه الإقليمية العثمانية، وقد قبل ذلك القرار بمرارة وعدم الرضى من قبل حكومة الهند البريطانية لدرجة أن «بيرن» أحد موظفي حكومة الهند نعت رجال القانون البريطاني بالسطحية، وعلى الرغم من ذلك فقد اتخذ «سالمسبري» وزير خارجية بريطانيا القرار المذكور بثبات، وأمر حكومة الهند بضرورة التنسيق بين مواقف حكومة الهند ولندن (29).

يمكن القول بأن الخارجية البريطانية في هذه الفترة كانت ترى بأن هناك مصالح أخرى أوسع بكثير من إشكالية السيادة العثمانية في شرق الجزيرة العربية قد تتعرض للانهدام، ويجب عمل الحساب اللازم لها، لأن أي تدخل عسكري بريطاني مباشر في هذه الفترة يعني انهيار العلاقات بين البلدين، وأن بريطانيا تريد فعلاً إضعاف الدولة العثمانية وتقليص نفوذها كما تقول الحكومة العثمانية، في حين كانت نظرة حكومة الهند إقليمية واستعمارية لا تتعدى منطقة الخليج العربي واليمن دون النظر في المصالح البريطانية العليا في الدولة العثمانية ككل.

نتائج الدراسة

يتضح من دراستنا السابقة كيف كان القرار السياسى البريطانى فى ظل النزاع الأنكلو - عثمانى يمر من عدة قنوات، وخاصة عن طريق إدارة حكومة الهند المتمثلة فى موظفيها فى الخليج العربى، فقد وجدنا المقيم السياسى البريطانى فى «بوشهر» الذى كان يراقب النشاط العثمانى عن كثب، يكتب رسائله ويرفع تقاريره، وخاصة فيما يتعلق بالنزاع الأنكلو - عثمانى إلى حكومته فى الهند، وكذلك إلى القنصل البريطانى فى «البصرة» و«بغداد»، وهذان الأخيران يرفعان التقارير عن طريق المراسلات الرسمية إلى السفير البريطانى فى «الأستانة» الذى كان يرفعها إلى وزارة الخارجية التى تستفسر عن تلك المواضيع من جديد حكومة الهند ثم تتخذ بعدها القرار السياسى المناسب.

أى أن عملية اتخاذ القرار السياسى البريطانى كانت تمر بعدة مراحل، ليتهاً له أن يكون مدروساً بعناية من كافة الجوانب، ولهذا فإن بريطانيا استمرت منذ عام 1871 تراقب الأوضاع فى المنطقة، وخاصة التحركات العثمانية، ثم دخلت فى مفاوضات معها لعدة سنوات حتى أسفرت عن توقيع اتفاقية عام 1913، بين بريطانيا والدولة العثمانية والتى عرفت بالاتفاقية «الأنكلو - عثمانية» والتى تم بموجبها تقسيم النفوذ بينهما، بحيث يتركز النفوذ العثمانى فى كل من «الأحساء» و«نجد» و«الحجاز» و«اليمن الشمالية»، فى حين أصبح من نصيب بريطانيا المناطق الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية، وهى «ساحل عمان» و«عمان» و«اليمن الجنوبية» و«البحرين».

بناء على ذلك يمكن أن نتوصل إلى بعض النتائج خلال هذه الدراسة وهى تلخص بعدة نقاط فيما يلى:

أولاً: التردد والتعارض فى القرار السياسى البريطانى؛

ظهرت بعض الإشكالية فى اتخاذ القرار السياسى فيما بين الإدارتين البريطانيتين، وهما حكومة الهند البريطانية ووزارة الخارجية البريطانية فى لندن حول مدى تعارض واختلاف وتباين وجهات النظر فيما يتعلق بالنزاع الأنكلو - عثمانى فى شرق الجزيرة العربية وتأثيره على المصالح البريطانية، وتفسير كل من الإدارتين

حسب وجهة نظرها لهذا النزاع، واختلاف وجهات النظر قد يرجع إلى عدة عوامل منها:

1 - بعد المسافة بين كل منهما عن منطقة الأحداث، فإدارة الهند أقرب إليها من وزارة الخارجية بحكم الموقع الجغرافى إلى منطقة العمليات، أو منطقة التماس فى شرق الجزيرة العربية، بينما وزارة الخارجية المتمثلة فى قناصلها فى «البصرة» و«بغداد» وسفيرها فى «الآستانة» قريبة من مركز القرار السياسى ولكنها بعيدة عن المنطقة التى ينفذ فيها القرار، منطقة النزاع الأنكلو - عثمانى.

2 - الممارسة والخبرة التى يتمتع بها موظفو حكومة الهند أقرب إلى الواقع فى وجهة نظرهم من وزارة الخارجية التى تعتمد فى قرارها المبدئى من خلال تقارير موظفى حكومة الهند فى الخليج العربى بحكم معاملتهم لحكام المنطقة مباشرة وبحكم وجود هذه الإدارة التى خلفت شركة الهند الشرقية وبالتالي معرفتها للمصالح البريطانية أكثر من الخارجية.

3 - نظرة وزارة الخارجية البريطانية أكثر شمولية وليست سطحية أو إقليمية مثل حكومة الهند فى مجال تخصصها السياسى أى الهند والمناطق المجاورة لها مثل الخليج العربى، والتى قد تهدد مصالحها هناك فقط، فى حين تنظر وزارة الخارجية بنطاق أوسع بحكم إمبراطوريتها الاستعمارية الواسعة فى الشرق والغرب وحسب مصالحها وأهميتها الآنية والمستقبلية ليس فقط فى مناطق النزاع الإقليمية مثل شرق الجزيرة العربية، وإنما فى أقاليم أخرى مثل البحر الأسود والبحر المتوسط وبلاد الشام والعراق ومصر أى مختلف أقاليم الدولة العثمانية، وليس فقط فى الجزء الشرقى والجنوبى من الجزيرة العربية.

4 - نلاحظ أحيانا اختلافًا فى وجهات النظر بين المسؤولين فى الإدارة الواحدة فعلى سبيل المثال كانت هناك آراء مختلفة لدى موظفى حكومة الهند بشأن السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية وغيرها من المواضيع الأخرى، ومهما اختلفت الآراء فإن نائب الملك يتخذ قراره السياسى فى النهاية بناء على تلك المقترحات المشار إليها حسب اقتناعه أو عدم

اقتناعه، ولكن المهم المصلحة العليا لحكومة الهند.

يعتبر نائب الملك هو المرجع فى اتخاذ القرار السياسى لحكومة الهند، ومن ثم موافقة الحكومة البريطانية فى «لندن» وغالبا يتم اتخاذ القرار عن طريق وزارة الخارجية البريطانية التى قد توافق أو تعارض حسب وجهة نظرها، ويمكن القول بأن القرار السياسى يتم اتخاذه فى «لندن» وهو الحاسم والأخير، فى حين تكون قرارات حكومة الهند استشارية، ولكن فى الظروف الاستثنائية لها الحق أيضا فى اتخاذ القرار السياسى إذ كانت مصالح بريطانيا مهددة تستدعى اتخاذ قرار بشكل مستقل وعاجل قبل أن يتظر رد الحكومة البريطانية.

نجد أيضا اختلافات فى وجهات النظر بين الموظفين فى الخارجية البريطانية، وكما وجدنا لدراستنا بين القناصل فى «بغداد» و«البصرة» والسفير فى «الآستانة» الذى كان يتخذ بعض القرارات دون الرجوع إلى وزير خارجيته.

ثانياً: تخوف حكومة الهند من التوسع العثمانى تجاه ساحل عمان وعمان؛

تخوفت حكومة الهند من الاجتياح العثمانى تجاه ساحل عمان وعمان، بعدما أعلن مدحت باشا والباب العالى بأن ساحل عمان وعمان من توابع نجد التى تعتبر قائممقامية عثمانية، ولذا يجب إعادة السيطرة على كافة الأجزاء العثمانية.

خفت هذه التطلعات العثمانية فيما بعد لفترة حتى عام 1888 عندما حاول قاسم بن ثانى حث الدولة العثمانية على ضم ساحل عمان وعمان، ولكن لم ينجح للظروف التى كانت تمر بها الحكومة العثمانية فى حين نجد بريطانيا متخوفة منذ وصول الحملة العثمانية إلى الأحساء وقطر من اجتياحها لساحل عمان وعمان، التى تعتبرها منطقة نفوذها، ومن خلال دراستنا للمراسلات وجدنا كيف حاولت إبعادهم عن المنطقة تحت ستار قضية السيادة والاعتراف وعدم تجاوز حدودهم إلى جنوب «العقير» حتى يكون العثمانيون بعيدين عن «خور العديد» أول نقطة لإدارة أبو ظبى الواقعة تحت النفوذ البريطانى.

ثالثاً: كيفية اتخاذ القرار السياسى؛

لاحظنا كيف أن جميع الأفراد الذين يعملون فى حكومة الهند ووزارة

الخارجية البريطانية وإن اختلفوا فى وجهات النظر، كانوا يعملون كفريق واحد متكامل كخلية النحل، وتنصب جهودهم فى النهاية بمجرى المصلحة العليا.

من هنا كان يخرج القرار السياسى البريطانى فى النهاية بعد المناقشات والدراسات لينفذ فى كافة أدواته الرسمية دون مراعاة مصالح الآخرين أو أى اعتبار لوجودهم وخاصة السكان العرب فى شرق الجزيرة العربية والذين لم يكن لديهم أى اعتبار للقرار السياسى البريطانى برغم أنه كان يتعلق بمصيرهم. وكيف كان هناك تجاهل لهم فى تخطيط الحدود، وخاصة الخط الأزرق الذى قسم المنطقة إلى نفوذين بريطانى وعثمانى، برغم وجود القبائل العربية التى تعيش فى القسمين مما يؤدى إلى تقسيم القبيلة أو الأسرة الواحدة بين عدة جهات بعدما ظهرت الحدود الدولية، فعلى سبيل المثال تعيش قبيلة فى الاحساء وقسم منها فى الكويت وآخر فى البحرين وآخر فى قطر أى توزعت بين دول عديدة وتحمل جنسيات مختلفة مما خلق معه اشكالية اجتماعية.

رابعاً: عبد الحميد الثانى وصعوبة المواجهة مع بريطانيا

أصبح السلطان عبد الحميد الثانى يخشى المؤامرات التى تحيكها بريطانيا من الداخل ومحاولة فصل بعض الأقاليم من الجزيرة العربية واعتبرها المسئولة عن القلاقل فى المقاطعات العربية، وبذلك كان من الصعب عليه مواجهة المخططات الاستعمارية المسيحية البريطانية واليهودية والصهيونية من الداخل والخارج، وبرغم ذلك فإنه استطاع أن يحافظ على الدولة العثمانية طوال فترة حكمه على أكبر سياده ممكنة قبل أن يتمكن الاتحاديون العلمانيون القوميون من اسقاطه وبالتالي التنازل عن أجزاء كثيرة فى شرق الجزيرة العربية لبريطانيا بموجب الخط الأزرق أو الاتفاقية الأنكلو - عثمانية، كما تنازلوا أيضاً لإيران عن أجزاء أخرى من الأقاليم العربية مقابل تعزيز قبضتهم فى الداخل وبالتالي تقليص السيادة العثمانية.

بلغت الدولة العثمانية أشد مراحل الضعف وتعرضت لضربات القوى الاستعمارية المسيحية لانتزاع أجزائها الأوروبية والعربية ومخططات لقيام الكيان اليهودى الصهيونى فى فلسطين وحاول عبد الحميد الثانى تجميع المسلمين تحت شعار يا مسلمى العالم اتحدوا، واستطاع أن يصمد فترة طويلة قبل أن يسقط أمام

الهجمات الخارجية والداخلية بقيادة جماعة الاتحاد والترقي التي بدأت تعمل منذ عام 1879 حتى استولت على السلطة عام 1908 ويسقط عبد الحميد الثاني في العام التالي.

خامساً: قلة اهتمام الدولة العثمانية في الفترة المتأخرة بشرق الجزيرة العربية؛

نظراً للظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية في الفترة المتأخرة كما ذكرنا سابقاً في عهد عبد الحميد الثاني فإنه حدد مصروفات قواته في شرق الجزيرة العربية واستبدل القوات النظامية بقوات من القبائل في جنوب العراق والأحساء.

تم تعيين زعماء من عرب المنطقة بدلاً من الحكام العثمانيين، فعين من أسرة السعدون والنقيب وبنى خالد بزيع بن عريعر ثم ابنه مزيد لارتباطهم بسكان المنطقة.

سادساً: الضغط البريطاني على العثمانيين؛

مارست بريطانيا الضغط الدبلوماسي والسياسي عن طريق إدارتها في الخليج العربي، والتي تتبع حكومة الهند مثل المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي والوكيل المعتمد البريطاني في البحرين وفي ساحل عمان، وكذلك وزارة الخارجية البريطانية عن طريق سفيرها في «الآستانة» وقناصلها في بغداد والبصرة والقاهرة. ضد الباب العالي وسلطاته في شرق الجزيرة العربية.

رأى هذا الضغط مع بدايات الحرب العالمية الأولى وأخذت تضغط على حكام العرب في المنطقة، وكذلك شيوخ القبائل العربية لإخراج العثمانيين من شرق الجزيرة العربية والعراق بتحريض سكان المنطقة ضد العثمانيين.

سابعاً: هل حقق القرار السياسي البريطاني هدفه؟

نعم حقق القرار السياسي البريطاني هدفه أكثر مما كان متوقعاً، وهذا النجاح لا يرجع إلى الجهود البريطانية بقدر ما يرجع إلى الظروف المحلية والدولية التي خدمت القرار السياسي البريطاني وخاصة الظروف الداخلية والخارجية التي مرت بها الدولة العثمانية في الفترة المتأخرة إضافة إلى نتائج الحرب العالمية الأولى غير المتوقعة والتي كانت لصالح بريطانيا على حساب انهيار الدولة العثمانية وهزيمتها،

وفيما يلي بعض هذه النتائج.

1 - وقف الاعتداءات على الرعايا والمصالح البريطانية في المنطقة بشكل كبير.

2 - انتهاء القلق البريطاني من الاجتياح العثماني تجاه ساحل عمان، بعد سحب معظم القوات النظامية العثمانية، وإحلال قوات من القبائل العربية غير النظامية في شرق الجزيرة العربية.

3 - فرضت بريطانيا الاتفاقية «المانعة» أي الحماية المباشرة لعام 1892 على حكام البحرين وساحل عمان، وبذلك احكمت سيطرتها على تلك الكيانات في شرق الجزيرة العربية بشكل غير قابل للتنازل أو التفريط، خوفا من دخول حكام تلك الكيانات تحت السيادة العثمانية طوعا كما حدث لحكام قطر، أو مثلما طلب قائمقام نجد العثماني الأمير «عبدالله بن فيصل» مساعدة القوات العثمانية لإرجاعه للحكم، أو محاولة العثمانيين توسيع مناطق سيادتهم.

لهذا فإن الاتفاقية المانعة أو اتفاقية الحماية المباشرة، تمنع الكيانات العربية في المنطقة من إقامة علاقات أو اتصال مع أية دولة بدون موافقة بريطانيا، كما تحرم تكوين جيوش خاصة بها، وبذلك تجعل الكيانات تحت رحمتها.

4 - نجحت بريطانيا بالأسلوب الهادئ تارة والضغط الدبلوماسي والسياسي تارة أخرى واستغلال الظروف الداخلية التي مرت بها الدولة العثمانية بعد تولى جماعة الاتحاد والترقي في إيجاد مخرج لوقف وإبعاد النفوذ العثماني في المنطقة، عندما توصلت إلى عقد اتفاقية 1913.

5 - أصبحت الأمور في الخليج العربي عامة والجزيرة العربية خاصة تتحول من حكومة الهند إلى وزارة الخارجية البريطانية وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد الثانية حسمت لصالحها بعد استقلال الهند وباكستان.

6 - بعد هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى أصبحت بريطانيا سيدة الموقف ليس فى الخليج العربى الذى حولته إلى بحيرة بريطانية وإنما فى العراق والجزيرة العربية بعد اتفاقية 1899 مع حاكم الكويت واتفاقية دارين مع ابن سعود 1915 واتفاقية 1916 مع حاكم قطر حتى مجيء شركات البترول فى السعودية أصبح النفوذ الأمريكى فى تزايد حتى أصبح الطرف الجديد والمنافس القوى لبريطانيا بعد خروج الدولة العثمانية، واستمر النفوذ الأمريكى كذلك حتى الانسحاب البريطانى وأصبح سيد الخليج والجزيرة العربية بلا منافس وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وإلى حين عودة روسيا القوية أو ألمانيا مع الوحدة الأوربية من جديد إلى المنطقة مما جعل دول مجلس التعاون الخليجى فى تحد مع نفسها ومع جيرانها لأجل البقاء فى عالم الأقوياء.

الهوامش:

- 1 - محمد عدنان مراد - بريطانيا والعرب، ص 278.
- 2 - د. محمد عرابي نخلة - تاريخ الاحساء السياسى، ص 99.
- 3 - جون . ب. كيلى - بريطانيا والخليج، ص 465.
- 4 - د. محمد عرابي نخلة، المرجع السابق، ص 154 - نقلا عن عبدالعزيز نوار - تاريخ العراق الحديث، ص 413.
- 5 - د. محمد عرابي نخلة. نفس المرجع، ص 157.
- 6 - جون ، ب، كيلى - المرجع السابق، ص 586 - وانظر مكاتبات حكومة الوطن (سرى) مجلد 67 من «اليوت» إلى جرانفيل» - 1871/2/22 رقم (98) وقد أحيل إلى مكتب شئون الهند بتاريخ 1871/3/9 - راجع أيضا المرفقات والخطابات السرية من الهند مجلد (8) مرفقة للخطاب الخارجى (سرى) رقم 26 المؤرخ 1871/5/23 من «هربرت» إلى خارجة حكومة الهند 1871/2/24 - رقم (9).
- 7 - جون . س . وليكنسون - حدود الجزيرة العربية - قصة الدور البريطانى فى رسم الحدود عبر الصحراء، ص 90.
- 8 - جون . س . وليكنسون - نفس المرجع، ص 93.
- 9 - د. عبدالفتاح حسن أبو عليّة - دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، ص 115.
- 10 - د. عبدالفتاح حسن أبو عليّة، نفس المرجع، ص 113.
- 11 - د. زهدى عبدالحميد سمور - تاريخ ساحل عمان السياسى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ص 76. انظر F.O78/2174. Telegram from Elliot to Lord Granville, April, 1874. -
- 12 - د. زهدى عبدالحميد سمور - نفس المرجع، ص 78.
- 13 - د. زهدى عبدالحميد سمور، نفس المرجع، ص 79.
- 14 - د. فتوح عبدالمحسن الخترش - د. عبدالعزيز محمد المنصور - مصادر تاريخ قطر. ح 102 - أنظر - مكتبة وزارة الهند وسجلات الوزارة - سرى - 1888 (7) B49 - الخليج - الحامية التركية فى البدع على الساحل العربى.
- 15 - د. زهدى عبدالحميد سمور، المرجع السابق، ص 88 - وانظر - I.O.L/p & s/18 B 150, Limits of Turkish Jurisdiction on the Arabian Coast, p.7.
- 16 - د. فتوح عبدالمحسن الخترش. د. عبدالعزيز محمد المنصور - المرجع السابق، ص 101.
- 17 - د. زهدى عبدالحميد سمور - المرجع السابق، ص 84 - وانظر -

I.O.L/p &s/5108 vo. 19, Neged Expedition Precies. p. 12.

- 18 - جون . كيلى - المرجع السابق، ص 698.
- 19 - جون. كيلى - نفس المرجع ، ص 699.
- 20 - جون. كيلى - نفس المرجع، ص 715 - وانظر - الخطابات والمرفقات السياسية والسرية مجلد 22 من الحاكم العام إلى وزير الدولة 1879/5/22 - رقم 127 - الإدارة السرية الخارجية).
- 21 - جون . ب، كيلى - نفس المرجع ، ص 717.
- 22 - زهدى عبدالحميد سمور، المرجع السابق، ص 77 - وانظر
- I.O.L /p&s/18, Nejad Expeditaion precis, Vol. 91, p.60.
- F.O. 78. 5108, Turkish Jurisdiction along the Arabian Coast of the persian Gulf, part, I, pp. 3 - 5.
- 23 - د. محمد عرابى نخلة - المرجع السابق، ص 153 - انظر -
- F.O. 195/803 A. Letter No. 25 of 2866. from Herbert to Lord Lyonnem, Dated April 18 th 1866.
- L.O.R.L/p&s/18 vols. 91 - 160. Paragraph (10) p.7 &8.
- 24 - د. زهدى عبدالحميد سمور - المرجع السابق، ص 86 - وانظر -
- I.O. Secret Letters and enclosure from India Vol. 9 Government Gen. In, Coucil to Secretsry of State, 26 Sept, 1871.
- 25 - د. زهدى عبدالحميد سمور - نفس المرجع، ص 86 - 100 - وانظر -
- I.O.Political and Secret. Home Corresp, Vol, 28 Niton to Layand, 12 - Aug. 1878.
- 26 - جون . ب. كيلى - المرجع السابق، ص 708 - أنظر - الخطابات والمرفقات السياسية والسرية مجلد 22 مرفق للخطاب الخارجى 127 المؤرخ 1879/5/22 من «لايال» إلى «روس» وإلى «نيكسون» 1878/12/17 - رقم 255 و 256.
- 27 - جون . ب. كيلى - نفس المرجع، ص 711.
- 28 - د. زهدى عبدالحميد سمور - المرجع السابق، ص 102 - أنظر -
- I.O.Political and Secret, Home Corresp. Vol, 34 to Under Secretary, 17 Sept. 1879.
- 29 - د. زهدى عبدالحميد سمور - نفس المرجع، ص 105 - وانظر -
- I.O.Political and Secret Home Corresp. Vol. 36 Under Secretary, 22 Dec, 2879.

عرض هذا البحث في سيمينار قسم التاريخ بجامعة الكويت على المختصين وبعد العرض تمت مناقشته ولاطلاع القارئ ولمعرفة ما دار من مناقشات حوله للاستفادة نورد المناقشة كما هي لمقتضيات البحث العلمى وفيما يلى هذه المناقشة:

* أ.د. محمد عبدالغنى:

شكراً للدكتور محمد العيدروس على إلقاء محاضراته رغم أنه أسهب كثيراً فى ذكر التفاصيل. ولكن ربما طبيعة الموضوع تستلزم هذا. والآن نفتح الباب للنقاش، وأرجو أن يكون مختصراً هذه المرة.

* السؤال الأول:

بداية، أستفسر بعض الاستفسارات الصغيرة على بعض الجزئيات. وقد استوقفتنى ذلك التناقض بين وزارة الخارجية البريطانية وبين حكومة الهند البريطانية. هل كان هذا التناقض والاختلاف فعلاً حقيقياً، أم أنه مجرد توزيع أدوار لإظهار طرف متشدد أو جزء متشدد من الإدارة البريطانية وجزء آخر متساهل أو معتدل؟ هل هو تكتيكى؟ أم هو اختلاف استراتيجى؟ لا أعتقد أنه اختلاف استراتيجى، بل أعتقد أنه اختلاف تكتيكى بهدف الوصول إلى أفضل قرار ممكن لصالح بريطانيا وإظهار بريطانيا بمظهر المعتدل. لا يمكن أن تكون بريطانيا بهذا الغباء. فهذا التخطيط الواضح والصريح فى الوثائق لا أعتقد أنه اختلاف حقيقى، أعتقد أنه اختلاف تكتيكى كما تفعل حكومة إسرائيل، وهم فى النهاية يرتبون ويجهزون للقرار مسبقاً ليصبون فى وعاء واحد.

* السؤال الثانى:

السلطان عبدالعزيز مما دفعه إلى شرق الجزيرة بالذات افتتاح قناة السويس سنة 1969. وهنا جزيرة لم أفهمها وهى أن السفن البرتغالية كانت تأتى من لشبونة مباشرة فى حين أن السفن العثمانية تتجمع فى السويس. هل هذا كان قبل افتتاح قناة السويس أم بعدها؟. وشكراً،

* د محمد العيدروس:

بالنسبة للقضية الأولى، هى ليست قضية تكتيكية وتختلف تماماً بالنسبة لإسرائيل وقراراتها. بل هو اختلاف حقيقى موجود، ولكن هناك اختلاف فى

وجهات النظر باعتبار أن حكومة الهند معنية بالموضوع أكثر وتهتم بالمصلحة البريطانية أكثر في المنطقة، ولكن وزارة الخارجية تنظر بمنظار أكبر وأشمل ومصالحها أكبر كما ذكرت، بمعنى أن حكومة الهند تابعة للوزارة، وهي جهة استشارية، ولكن إذا كانت المصلحة البريطانية في خطر فإن هذا الاستشاري يتحول إلى تنفيذي بدون موافقة الخارجية البريطانية.

المصلحة الخارجية لها أهمية ولكن الحكومة الهندية كانت معنية وتستوعب أكثر من الخارجية لذلك إذا فهم الشخص هذا المعنى وهو مهتم بهذه المنطقة سوف يفهم هذا جيداً وأحياناً قد تكون نظرة حكومة الهند البريطانية في موضع قصير فتنسى المصلحة البريطانية العليا في منطقة أخرى. أحياناً أمريكا تضحي بشيء مقابل شيء وروسيا تضحي بشيء مقابل شيء، وأحياناً الإدارة العليا تستوعب وتقدر الأمور أكثر من الإدارة الأخرى.

- بالنسبة لقضية البرتغاليين، فإن وجودهم كان في القرن السادس عشر وهذا ما ضربته كمثال بأن العثمانيين سبب فشلهم في مواجهة البرتغاليين، لأن سفنهم الكبيرة كانت موجودة في اسطنبول، وبالتالي كان من الصعب عليهم أن يأتوا بها إلى البحر الأحمر. والسفن الموجودة في المحيط الهندي هي سفن كبيرة تختلف عن تلك السفن الصغيرة التي كانت تتجمع من قبل العثمانيين في البحر الأحمر، وفتح قناة السويس سهل عملية جلبهم فهذا كان عاملاً مساعداً.

* أ.د. عادل زيتون:

سؤالى أين الصوت الوطنى؟ فمن المعروف أنه في تلك الفترة في القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين كانت الحركة الوطنية في أوجها في الخليج على امتداد الجزيرة، فكسنت هذه الحركة امتداد لما هو في مصر والشام. فأين الصوت الوطنى لهذه الحركة الوطنية في صد مطامع السياسة البريطانية؟

* د. محمد العيدروس:

سوف أجيب عليك بأمرين، في البداية إذا ما تذكرنا الخليج العربى في القرن السابع والثامن عشر كان هناك فعلاً مقاومة قوية جداً، قاوموا البرتغاليين وقاوموا الهولنديين وآخر مقاومة سقطت في ساحل عمان عام 1819 وبعدها

انفردت بريطانيا في حكم المنطقة، فالمقاومة القوية كما اعتقد انتهت في عام 1819م. وبعد ذلك اتبعت بريطانيا أسلوباً آخر، أسلوباً هادئاً ودبلوماسياً للضغط على حكام المنطقة عن طريق الاتفاقيات السياسية وبعد ذلك اتخذت أسلوب حمايات الكيانات. وحدث بعد ذلك مجيء المصريين وحرص البريطانيون القبائل العربية ضدهم، هذا أولاً.

ثانياً:

نظرة العرب للدولة العثمانية كانت تختلف عن نظرة العرب لتركيا القومية. فقبل ذلك لم يكن لدى العرب أى اختلاف تجاه حكم العثمانيين ومن ثم لم يقوموا بأى انتفاضة أو ثورات بالنسبة للعثمانيين في منطقة الجزيرة العربية، باعتبار أن العثمانيين كانوا أعرف بطبيعتهم فجعلوا القبائل تحكم ولم يتدخلوا في شؤون القبائل الداخلية والبدوى عزيز النفس ولا يرضى أن يتدخل أحد في شؤونه الداخلية، فلو أن بريطانيا أو الدولة العثمانية تدخلت في شؤونهم أو حتى حدوا من حريتهم لقاوموهم. وبالفعل اتبع البريطانيون نفس أسلوب العثمانيين عند مجيئهم للخليج والجزيرة العربية واعطوا الحرية لشيخ القبائل للحكم وهم يديرون المنطقة عن طريقهم. لكن لو أن بريطانيا أقامت حكماً مباشراً عسكرياً كما فعلت في مصر والعراق وجلبت أناساً عسكريين أو جيشاً ووضعته داخل المنطقة لكانت هناك مقاومة. لذلك حكمت بريطانيا المنطقة عن طريق شيخ القبائل وكذلك الدولة العثمانية. ولو حكمت الدولة العثمانية حكماً مباشراً وتدخلت في الشؤون الداخلية للمنطقة لحدثت مقاومة من أبنائها.

وقد حدثت مقاومة في البحرين بعد الحرب العالمية الأولى والثانية عندما بدأت بريطانيا في فرض نظام مباشر عن طريق ضباط الشرطة، فبدأت الحركة الوطنية في البحرين ضد بريطانيا ضد تدخلهم بالشؤون الداخلية.

* د. جمال الزنكي:

يبدو لي أن الموضوع الذي تكلم عنه الدكتور في صلب الدبلوماسية الانجليزية وعلاقة بريطانيا بالأتراك في منطقة شرق الجزيرة. ويبدو أن النتائج تحتاج إلى نوع من التركيز.

* د. محمد العيدروس:

بالنسبة للملاحظة الأولى: هي ليست قضية دبلوماسية وليست علاقات دولية بل هي عبارة عن دراسة لكيفية اتخاذ القرار السياسى البريطانى والدبلوماسية تختلف. وعند دراسة كيفية اتخاذ القرار السياسى لابد أن ندرس السياسة العثمانية. فالقضية قضية نزاع. ويمكن أن نطلق على هذه الدراسة دراسة المنازعات الدولية وليست دبلوماسية أو سياسية. وتعتبر من ضمن النزاع الدولى. وعند دراسة أى نزاع دولى لابد من دراسة الخلفية التاريخية ثم سبب النزاع ثم الرد وبماذا تجاوب الطرف الأول وقرار الطرف الآخر، كدراستنا لموقف السياسة العثمانية وسبب اتخاذ البريطانيين هذا القرار. ففى ظروف هذا النزاع لابد أن نأتى بالأسباب. فأى مشكلة لابد لها من أسباب ولابد من دراسة أسبابها، وكيفية ظهور هذه الأسباب. فهى دراسة لنزاع دولى. وهناك نزاعات دولية وأخرى نزاعات قانونية ودراسات لمنظمات دولية وعلاقات دولية ودبلوماسية. فأردت التحديد الدقيق باعتبار هذه الدراسة دراسة من ضمن المنازعات الدولية أكثر من سياسية أو دبلوماسية ولكن تدخل فى ضمنها بالنسبة للنتائج، حاولت بقدر الإمكان التركيز عليها لأنها تعتبر مهمة إلى يومنا هذا، خاصة وأن اتفاقية 1913 كانت لاتزال سبب الكثير من المشاكل فى الجزيرة العربية فتعمدت التركيز عليها أكثر.

* د. نايف الشمروخ:

أنا لست متخصصا فى التاريخ الحديث وهذا استفسار وليس رأى لم يتطرق الحاضر إلى رده فعل سكان المنطقة فكان لم يكن لهم رأى فى عملية الصراع بين الدولة العثمانية وبين بريطانيا وكل ما سمعناه من المحاضر هو إجراءات قامت بها الدولة العثمانية تجاه بريطانيا أو العكس، بينما لم يتطرق بشكل أو بآخر إلى سكان المنطقة.

وذكر الدكتور أن الهند كانت تشكل مركز قوة بريطانيا فى الهند، والكويت باعتبارهم مرتبطين بالهند اقتصاديا فقد تكون من مصلحتهم القبول بالواقع.

* د. محمد العيدروس:

كما ذكرنا آنفاً، أن الهولنديين عندما بدأوا يتدخلون في منع المصالح التجارية أو الاقتصادية لأبناء المنطقة قاوموهم. لكن بريطانيا اعطتهم الحرية فلم يتفضوا، وبالنسبة للعثمانيين لا ننسى أنهم كانوا يمنحون أو يقدمون أموالاً لشيخ القبائل، ولابد من فهم التركيبة الاجتماعية في منطقة شرق الجزيرة العربية، فإذا ما فهمناها فإنه لن تكون هناك أى مشكلة. وعلى سبيل المثال حينما بدأ الهواجر يشنون هجماتهم على السفن البريطانية وتعرضوا للمصالح البريطانية، غضت الدولة العثمانية الطرف عنهم، بل أحياناً كانت تحميهم، ومن هنا لم تكن هناك أى مقاومة للعثمانيين ولكن عندما بدأ وصول الاتحاد والترقي للحكم، وعملية التتريك للشعب العربي هنا بدأت المقاومة للحفاظ على كيانات القومى العربى فى الإسلام نحن واحد وليست هناك أى مشكلة، ولكن إذا قالوا بقومية تركية فنقول بقومية عربية، وكما تحافظ على قوميتك أحافظ على قوميتى. ولكن إذا ما أردت إزالة قوميتى فأقول لا، فالإسلام يجمعنا ولكن تفضيل قومية على قومية فلا، كما يحدث للأكراد فى تركيا.

* د. رضوان الباريدوى:

طالما أننا لا نستطيع أن نتبع الأحداث المتشابكة والمتداخلة والمنطقة مليئة بالصراعات، وبالتالي بالنسبة لنا نحن غير المتخصصين فى هذا الفرع كنا نريد أن نعرف فكرة مبسطة عن تاريخ الخليج العربى أو الجزيرة العربية. وهذه ملحوظة جانبية.

هناك بعض الاستفسارات طفيفة وبسيطة:

العنوان يقول صنع القرار السياسى البريطانى فى ظل الصراع الأنجلو - عثمانى. ما معنى كلمة الأنجلو فى ضوء الانجليزى والبريطانى؟ لماذا اخترت كلمة الأنجلو - عثمانى؟.

النقطة الثانية: ذكرت أن حاكم نجد عبدالله بن فيصل بعث إلى الخديوى اسماعيل يرجوه ويتوسل إليه لكى يتدخل، ولكن لم تذكر لنا نتيجة هذه الرسالة، هل فعلاً تدخل الخديوى اسماعيل لدى الباب العالى؟

* د. محمد العيدروس:

بالنسبة لرسالة عبدالله بن فيصل واستعانت به بالخدوي اسماعيل فكانت النتيجة المباشرة ارسال حملة مدحت باشا، وذكر العثمانيون أن ارسال هذه الحملة جاء بناء على طلب عبدالله بن فيصل.

وأما قضية التفاصيل فهناك كتب كثيرة تكلمت عن هذه الحملة وهنا اقتصرنا فقط على عملية القرار السياسي وليس دراسة تاريخية ولهذا اقتصرنا على اشكالية القرار السياسي.

بالنسبة لمصطلح «المنجولو» في هذه الفترة فهو مصطلح استخدم في الاتفاقيات مثل «المنجولو - عثماني، الهولندي البريطاني، المنجولو - فرنسي» فقد استخدموا هذا الأسلوب أو المصطلح. وهناك أيضا اتفاقية اسمها الاتفاقية «المنجولو - عثمانية» في لغة الوثائق والمخاطبات وإذا ما قلت «البريطاني - العثماني» فسوف يكون هناك نوع من الغشاوة على الحدث.

* أ.د. محمود إبراهيم حسين:

شكرا للأستاذ المحاضر، ولدي بعض الاستفسارات.

اعتقد أن الموضوع ضخم بالنسبة للسمنار، والاستفسار هنا هل كان من الممكن تقسيم الموضوع إلى عدة موضوعات بحيث يسهل على الإنسان استيعاب محاوره، واستيعاب القضية كلها. ذلك أن المحاضر يتكلم عن مشكلة صناعة القرار بالنسبة للسياسة «الانجليزية» وبالنسبة للسياسة العثمانية، فهل كان من الممكن تقسيم الموضوع إلى جزئين رئيسيين؟ وهل يمكن الاستعانة بالجغرافية لتثبيت هذا التقسيم؟. وسؤال آخر: ذكرتم مراحل ثلاثة للقرار العثماني - وكيفية صناعته، هل هذه المراحل انعكاس لقوة الدولة العثمانية؟ هل التدرج أو التغير في السياسة الخارجية العثمانية اراء المنطقة كان انعكاساً لقوة الدولة العثمانية نفسها، وأن هذه السياسة بدأت من مرحلة الدولة الامبراطورية وانتهت إلى مرحلة الدولة الجغرافية، التي تنتهج سياسة واقعية تعبر عن قوتها الحقيقية؟

السؤال الثالث:

حول السياسة الداخلية العثمانية تجاه شرق الجزيرة العربية، والتي تشير إلى

أنها تركت للحكام المحليين مساحة كبيرة جدا من الحرية، هل هذه سياسة عثمانية خاصة بهذه الأقاليم؟ أم أنها سياسة عامة للدولة العثمانية فى كل ولاياتها؟. فمعرفة المتواضعة تشير إلى أن نفس السياسة قد طبقت فى الشام والعراق ومصر.

رابعا:

هل كانت علاقات الشعوب فى منطقة شرق الجزيرة العربية والدولة العثمانية، تظهر شكلا عاطفيا؟ بمعنى أن وجود الدولة العثمانية كدولة إسلامية يمثل أمرا مقبولا، أكثر من الدول الأوروبية الأخرى فى المنطقة وبالتالي لم تحدث مقاومة من قبل شعوب المنطقة للدولة العثمانية؟.

* د. محمد العيدروس:

سأجيب بإجابات مختصرة، ولو أن الأسئلة غير محددة وغير واضحة.

- بالنسبة للسؤال المتعلق بالواقعية السياسية لا اعتبرها واقعية سياسية، وكما ذكرت كانت السياسة البريطانية تلتهم الأقاليم واحدة تلو الأخرى من الدولة العثمانية. فالقضية قضية تنافس وصراع. فبالنظر إلى ضعف عبد الحميد وبرغم ضعف الحكام العثمانيين إلا أنهم لم يتنازلوا ولم يفرطوا بالأجزاء العربية كما فرطت فيها جماعة الاتحاد والترقى. وفعلا فى الفترة الأخيرة تكالب الاستعمار المسيحى الإرهابى والقوى الغربية مع الروس والنمسا ودول البلقان. وكل هذا أثر عليها وبالتالي لما فقدوا هذه الأجزاء قالوا أنه من غير المعقول أن نفقد الجزيرة، فلا بد أن نتمسك بهذه الأجزاء. وكان هذا قبل مجيء جماعة الاتحاد والترقى فى فترة السلطان عبد الحميد. فهى ليست واقعية سياسية بل هذا تهاون فى حقوق القوميات الأخرى وتنازل عن حقوق القوميات الأخرى وخاصة العرب فى ليبيا. فهى دولة ولا بد من الحفاظ على جميع القوميات، والعربية كباقي القوميات الأخرى. ولماذا لا تهتم بالقومية العربية؟ مع أن نفس الاختلال كان موجودا أيام السلطان عبد الحميد وعبد المجيد ولم يتنازلوا. وعندما تدرس جماعة الاتحاد والترقى والحركات الطورانية والتركية، الفتاة، أين نشأت؟ نشأت فى أوروبا وفى أحضان اليهودية الصهيونية، وغير ذلك، ومن الطبيعى أنهم لا يواجهون أسياهم الذين جلبوهم إلى الحكم، فدائما الجهة التى تجلبك تتحكم فى تصرفاتك. فالجماعات التركية التى ظهرت

والقوميات التركية ظهرت فى أوروبا المسيحية الاستعمارية، بل فى احضان أوروبا. وبالتالي لا يمكن لهؤلاء أن يعارضوا أسيادهم الأوروبيين. فهذا سبب. وفى نفس الوقت، يتمسكون بالحكم، وعلى سبيل المثال روسيا القيصرية والبلشفية لما قامت تنازلت عن أجزاء كثيرة مقابل الاستمرار وتدعيم الحكم. وهم كذلك لو واجهوا البريطانيين ولم يتنازلوا لهم عن الأقاليم العربية لواجهوا معارضة للحكم والشرعية وبالتالي يكون سقوطهم، ولهذا تفاضوا عن الاحتلال المسيحى البريطانى للأقاليم العربية مقابل تشديد قبضتهم على الحكم. والبريطانيون حرضوا العرب كما حدث فيما بعد فى ثورة شريف حسين فى الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك.

وبالمقارنة بين جماعة الاتحاد والترقى وبين السلطان عبدالحميد وعبدالعزیز، فرغم ضعفهما إلا أنهما واجها المواقف ولم يتنازلا للبريطانيين. ورغم ضعف شخصيته وتسميته بالرجل المريض إلا أن عبدالحميد وحافظ على وحدة أقاليم الدولة العثمانية إلى أن حاصروه وكان يدافع إلى آخر لحظة من حياته عن جميع الأجزاء حتى مصر التي فقدتها وكذلك قبرص، وهذا معناه أن الخلل فى جماعة الاتحاد والترقى الذين تنازلوا عن الأقاليم العربية بموجب معاهدة الانجلو - عثمانية 1913، وذكرت الدولة العثمانية وقصدت فيها دولة إسلامية، وقيام الدولة العثمانية وحكام السلاطين العثمانيين كان قياماً إسلامياً وتوجهاً إسلامياً وإن لم يطبقوا الشريعة الإسلامية مثلها مثل بقية الحكام المسلمين فى تاريخنا، فالتوجه كان إسلامياً.

بالنسبة للاستفسار عن رد فعل سكان العرب وعدم مقاومة السكان المحليين للدولة العثمانية وارتباطهم عاطفياً بالدولة العثمانية، هذا الأمر ليس له علاقة بالموضوع كما وأنى أجبت على هذا السؤال سابقاً.

* د. عبدالرحمن عبدالغنى:

اشكر الزميل الدكتور العيدروس على بحثه الشيق وعلى أسلوبه المسهب فى طرح موضوع المحاضرة. ولدى بعض الملاحظات:

لاحظت أن لمدحت باشا دوراً بارزاً فى أول النقاش إلى أن وصلنا إلى نقطة وجدنا فيها هذا الرجل قد شق أو قتل، ولكن أجد أن هذا الرجل بعد سياق

الأحداث يظهر له دور أيضا وذلك بعد عدة صفحات وبعد أن وصلنا إلى نهاية هذا الرجل بمقتله نجد له دورا في المشاركة. وهذا مجرد استفسار أو ملاحظة.

* د. محمد العيدروس:

مدحت باشا كان واليًا في بغداد ثم أصبح الصدر الأعظم وقد قتل فيما بعد وهذا هو دوره.

* د. عبدالرحمن عبدالغنى:

لى تساؤل، انجلترا كانت تسيطر على قناة السويس ودخلت في مرحلة من مراحل الأحداث في منافسة على الخليج العربى بينها وبين الدولة العثمانية، ووجدنا الأسطول العثماني في مياه الخليج العربى وأقام له مركزا في جزيرة بوبيان الكويتية، وأراد أن يقيم حامية. لماذا؟

* د. محمد العيدروس:

كانت أساطيل الدولة العثمانية تمر في قناة السويس قبل وبعد سيطرة بريطانيا على قناة السويس. وكذلك رغم الاحتلال البريطانى لقناة السويس ولمصر لم يكن لبريطانيا القدرة على منع مرور السفن العثمانية في قناة السويس، لأن العثمانيين سوف يمنعون الأساطيل البريطانية من المرور في البحر الأسود فالمصالح تقتضى هذا إلا أثناء الحرب العالمية الأولى فقط. وأنظمة المرور الدولية لم تكن تمنعها إلا في حالة الحروب.

ولفهم قضية التلبس هذه، محمد على باشا حين أراد التوجه إلى عدن أسرع الانجليز باحتلال عدن فبالتالى خافوا من محمد على فأثاروا حربا ضده حتى انسحب من الجزيرة العربية ورغم ذلك فإن سفن محمد على كانت تصل للخليج العربى.

وقد سمحت بريطانيا للأسطول العثماني ان يمر بقناة السويس حتى يصل إلى الخليج العربى، لأنه لو لم تسمح له بريطانيا لما استطاع أن يصل إلى مياه الخليج العربى، ويهدد النفوذ البريطانى في الخليج العربى. لما جاء الأسطول، لم تكن قناة السويس تابعة أو تحت الحماية البريطانية، ولكن بعد ذلك اشترت بريطانيا الاسهم وسيطروا عليها، أيضا حتى على الرغم من أنهم احتلوا قناة السويس

فكانت السفن العثمانية تتجه لغاية اليمن وبريطانيا لم تستطع أن تمنع السفن العثمانية ولو منعوها لكان العثمانيون دخلوا عدن من اليمن وهددوا النفوذ البريطاني هناك وقواتهم الموجودة في العراق وفي أي لحظة كانوا يصلون لعمان. فهي معروفة بأنها من الناحية البرية دولة قوية. ورغم ضعف الدولة العثمانية، إلا أنها كانت ذات قوة برية أقوى بالنسبة لبريطانيا، والدليل على ذلك أنه خلال الحرب العالمية الأولى عندما دخل الجيش البريطاني للبصرة وبكاملة حاصروهم وقادوا الأسرى مشياً إلى اسطنبول، فبرغم ضعفهم كانوا أقوىاء ولذلك لم يمنع الانجليز العثمانيين من دخول قناة السويس لأنهم لو منعوهم لانقضوا على قواتهم في عدن.

* د. عبدالرحمن عبدالغنى:

هل خضعت الكويت للحكم العثماني القائم في البصرة؟

* د. محمد العيدروس:

لم تكن الكويت تابعة للبصرة رسمياً، بل نجد أن كِلْتاهما كانتا خاضعتين للحكم العثماني. وفي الوقت الذي لم تخضع فيه الكويت للحكم العثماني المباشر فإننا نجد أن قطر والاحساء أخضعهم مدحت باشا تحت الحكم المباشر. وأقام لهم إدارات مباشرة، ولم يتدخل ولم يضم الكويت للبصرة وإنما حول الاحساء إلى سنجق ولى كتاب بعنوان «الحياة الإدارية في شرق الجزيرة العربية» من الناحية فقط. كيف أن العثمانيين قسموا هذه المناطق الإدارية في قطر والاحساء ولكن الكويت لم يقوموا بتقسيمها أو يتدخلوا في شؤونها الداخلية وإنما بقيت تحت حكم آل صباح الذين كانوا تابعين للدولة العثمانية.

* د. عبدالرحمن عبدالغنى:

سؤال أخير: أين يقع الخط الأزرق؟

* د. محمد العيدروس:

الخط الأزرق يبدأ من منطقة جنوب العقير بالقرب من «جزيرة الزخونية» بمنطقة الاحساء ويسير حتى محميات عدن بحيث إن الربع الخالي وعمان وساحل عمان واليمن الجنوبية كلها خاضعة للنفوذ البريطاني. والاحساء ولجند والحجاز واليمن الشمالية والكويت للعثمانيين.

الفصل الثامن



جوانب من الصراع السياسى فى جنوب
ساحل عمان (أبوظبى) من خلال الوثائق
البريطانية بين عامى

1926 - 1928

مقدمة

تعتبر هذه الدراسة من الدراسات القليلة عن تاريخ ساحل عمان الجنوبي خاصة «أبوظبي»، وبالذات هذه الفترة 1926 - 1928، التي كانت لغزا غامضا وحلقة مفقودة من بعض حلقات تاريخ ساحل عمان، وقد تم معرفته بعد دراسة الوثائق البريطانية التي كشفت عن حقائق جديدة لم تكن معروفة من قبل.

تتناول الدراسة بداية الصراع السياسى فى ساحل عمان الجنوبى بعد وفاة الشيخ زايد بن خليفة، وحكم أبنائه ثم مقتل ابنه الشيخ سلطان بن زايد، وهروب ابنه الشيخ شخبوط والشيخ هزاع، وملاحقتهم من عمهما الشيخ صقر بن زايد الذى استولى على حكم أبوظبي، ثم السياسة التى اتبعتها بريطانيا تجاه الأحداث والصراع السياسى الذى حدث فى ساحل عمان الجنوبى فى أبوظبى، ثم مقتل الشيخ صقر بن زايد وعودة الشيخ شخبوط والشيخ هزاع من الشارقة، واختيار شخبوط بن سلطان حاكما على أبوظبى، وبعدها ننول شخصية شخبوط وبعض النتائج التى جاءت فى الدراسة.

موجز عن التاريخ السياسي لأبوظبى:

جاء اختيار الشيخ زايد بن خليفة خلفاً لابن عمه الشيخ سعيد بن طحنون، وقدر لزايد أن يحكم الإمارة مدة طويلة ابتداء من عام 1855 حتى عام 1909، وكان عمره عندما استلم الحكم عشرين عاماً، وشهد عهده استقرار الحياة وازدهارها فى أبوظبى لحكمته وقوة شخصيته، وحالفه التوفيق فى سياسته الداخلية والخارجية⁽¹⁾، وألحج مجموعة من الأبناء لعبوا دوراً بارزاً فى تاريخ ساحل عمان منهم الشيخ خليفة بن زايد وطحنون وحمدان وسليطان وصقر ثم أحفاده الشيخ شخبوط والشيخ زايد بن سلطان الذى لعب دوراً هاماً فى تاريخ المنطقة وكان حاكم أبوظبى ورئيس دولة الإمارات العربية المتحدة.

اجتمع اعيان أبوظبى بعد وفاة الشيخ زايد بن خليفة لاختيار الحاكم الجديد، وأتفق الجميع على أن يخلفه ابنه الأكبر الشيخ خليفة بن زايد، الذى كان يمتاز برجاحة عقله وشخصيته القوية مثل أبيه، ولكن الشيخ خليفة لم يقبل أن يخلف والده ولم يكن راغباً فى الحكم بل كان يفضل أن يعيش هادئاً فى مزارعه فى مدينة العين⁽²⁾.

قرر المجتمعون أن تؤول المشيخة إلى الابن الثانى الشيخ طحنون الذى تقبلها رغم أنه كان مصاباً بالخدر فى رجله جراء سقطة من جواد جمع به⁽³⁾، لم يستمر حكم الشيخ طحنون بن زايد سوى ثلاثة أعوام من عام 1909 إلى 1912⁽⁴⁾.

سعدت إمارة أبوظبى فى عهده⁽⁵⁾ برخاء اقتصادى لا مثيل له، إذ قام سكان أبوظبى بمشاركة كبيرة فى أعمال الغوص فى مياه الخليج العربى بحثاً عن اللؤلؤ.

بلغ عدد السفن العاملة فى هذا النشاط الحيوى أكثر من أربعمئة سفينة، ويقدر عدد العاملين عليها من سكان أبوظبى بحوالى 20٪ من عدد الغواصين فى الخليج العربى، كما أصبحت جزيرة «دلم» التابعة لإمارة أبوظبى مأهولة بالسكان بصورة مكثفة، وخاصة أثناء موسم جمع اللؤلؤ، وكان يؤمها تجار من قطر والبحرين ولنجة وسواحل جنوب إيران والمدن الأخرى من ساحل الخليج العربى الذين يتاجرون باللؤلؤ والسلع المختلفة⁽⁶⁾.

توفي الشيخ طهحون عام 1912، وعرض حكم مشيخة أبوظبى فى جنوب ساحل عمان على الشيخ خليفة بن زايد للمرة الثانية، ولكنه رفض للمرة الثانية مثلما رفضها فى المرة الأولى، فتولى السلطة أخوه الشيخ حمدان بن زايد.

استطاعت أبوظبى أن تعيش خلال حكمه فى السنوات العشر التى قضاها، فترة كاملة من الهدوء والاستقرار والتقدم بفضل تجارة اللؤلؤ المزدهرة، واشتهر الشيخ حمدان بن زايد بالسماحة والحلم والكرم، وقد أحبته لذلك قبائل أبوظبى كثيرا، ونجح خلال الفترة التى قضاها فى الحكم فى تحقيق الأمن الداخلى لإمارته والاحتفاظ بالتطور والتقدم الذى ازدهرت واشتهرت به الإمارة منذ حكم والده عام 1855(7).

تعرضت إمارة أبوظبى لهزة عنيفة بعد مقتل الشيخ حمدان بن زايد على يد أحد إخوته الشيخ سلطان بن زايد عام 1922(8)، الذى أظهر شجاعته وحكمته أثناء نزاع نشب بين بعض سكان عمان من ناحية وبعض أتباعه من إمارة أبوظبى، وانتهى الأمر بفضله ومقدرته إلى استتاب النظام وعودة الهدوء إلى المنطقة، كما استمر فى خلال حكمه فى علاقات طيبة مع جيرانه(9).

مقتل الشيخ سلطان بن زايد وبداية الصراع السياسى

حكم الشيخ سلطان بن زايد خمسة أعوام من عام 1922 إلى عام 1926، قبل أن يقتل من جراء أخ له(10)، وذلك عندما هجم الشيخ صقر بن زايد على أخيه الشيخ سلطان بن زايد وقتله وسيطر على الحكم(11). وتلى ذلك سلسلة من الاغتيالات والاضطرابات، أفقدت أسرة البوفلاح هيبتها كما انصرفت بعض القبائل التى تسكن إمارة أبوظبى مثل قبيلة «المناصير» عن الولاء لها واتجهت إلى قطر والأحساء(12).

وصف الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة فى تقريره إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى بوشهر فى شهر أغسطس عام 1926 حادثه المقتل على النحو التالى نقلا عن المؤرخ البريطانى «جى . ب . كيلي»:

بعث الشيخ سلطان بن زايد فى أول محرم الموافق 12 يوليو 1926 بأسرته وولديه شخبوط وهزاع إلى «البريمى» فى مدينة «العين»، حيث يوجد مقره

الصيفي، كما سافر إليها إخوته أيضاً الشيخ خليفة ومحمد ولدى الشيخ زايد بن خليفة ومعهما عائلتهما، ولم يبق في أبوظبي إلا الشيخ سلطان بن زايد وولده خالد، والشيخ صقر بن زايد وأولاده دياب وراشد وزايد، ودعا الشيخ سلطان بن زايد أخاه صقر إلى العشاء ليلة الرابع والعشرين من محرم الموافق 4 أغسطس 1926، وعندما وصل هذا الأخير إلى منزل أخيه سلطان بن زايد، أطلق عليه النار فتوفي في الحال، وعندما رأى خالد ابن الشيخ القتل ذلك فر مسرعاً، ولكنهم أصابوه بخنجر في ثلاثة مواضع من جسده، ولكنه برغم تلك الطعنات القاتلة تمكن من الوصول إلى أخواله من شيوخ أسرة «القييسات»، وأراد الشيخ صقر بن زايد بعد دفن أخيه الشيخ سلطان أخذ خالد بن سلطان من أخواله قائلاً إنه يريد معالجة جراحه، ولكن أخوال خالد من «القييسات» رفضوا وقالوا أنه سيموت على أية حال⁽¹³⁾. ولكن هذا الصبي الصغير الذي شاهد مقتل والده، تعافى وكبر حتى عاصر حكم أخيه شخبوط وكذلك زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات، وتوفي الشيخ خالد بن سلطان في نهاية السبعينيات.

يتابع الوكيل السياسي البريطاني في ساحل عمان بالشارقة قوله:

بعث الشيخ صقر بن زايد بعد ذلك بولده دياب مصحوباً بثلاثين مقاتلاً من رجاله إلى «البريمي» في مدينة «العين» يحمل رسالة مزورة ادعى أنها من الشيخ سلطان بن زايد إلى ولديه شخبوط وهزاع، يطلب إليهما فيها العودة إلى أبوظبي، لإنجاز بعض الأعمال الملحة المستعجلة، وكان قد أصدر أوامره إلى رجاله بقتل الولدين الصغيرين بعد ابتعاد القافلة من مدينة «العين» وهي في طريق العودة إلى أبوظبي، في حين ذكرت الأنباء التي وردت من البريمي في مدينة «العين»، أن الشيخين شخبوط وهزاع كانا قد تلقيا أبناء مصرع أبيهما وكانا قد وجدا الملجأ عند الشيخ أحمد بن هلال شيخ الظواهر وان رعايا أبوظبي في منطقة العين كانوا قد اعترفوا بحكم الشيخ صقر بن زايد عن طريق ولده⁽¹⁴⁾.

يذكر د. جمال زكريا قاسم حادثة مقتل الشيخ سلطان بن زايد في كتابه «الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية 1914 - 1945» كما يلي:

«وصفت طريقة مصرع سلطان في تقرير بعث به الوكيل الوطني في الشارقة

إلى المقيم السياسى فى الخليج العربى فى 12 أغسطس 1926، أورد فيه أن الأنباء الآتية من أبو ظبى كانت تؤكد أنه تولى الشيخ سلطان بن زايد الحكم وهو لم يدفع المخصصات المالية لإخوته، وفى يوليو 1926 أرسل الشيخ سلطان أسرته ونجليه شخبوط وهزاع إلى مصيفه الخاص فى البورى، بينما بقى فى أبو ظبى مع ولده خالد، وفى 4 أغسطس 1926 دعا سلطان أخاه صقر إلى مأدبة عشاء وعند وصول صقر أطلق الرصاص على أخيه وعندما رأى خالد أن أباه يسقط صريعا فر إلى أعمامه زعماء قبيلة القبيسات بعد أن جرح جرحاً بالغاً فى أثناء عملية المطاردة، وقد أخذ الشيخ صقر خالداً من أعمامه دياب ومعه رسالة مزورة باسم الشيخ المقتول سلطان بن زايد موجهة إلى أبنائه شخبوط وهزاع يطلب منهما العودة إلى أبو ظبى، ولكن فيما يبدو أن شخبوط وهزاع علما بمقتل أبيهما فالتجأ إلى الشيخ أحمد بن هلال الظواهرى لفترة من الوقت ثم دخلا بعد ذلك فى حماية عبدالله بن جلوى، أما سكان أبوظبى المقيمين فى البورى فقد بادورا بالاعتراف بالشيخ صقر شيخاً على أبوظبى⁽¹⁵⁾.

نجد من خلال مقارنة ما ذكره المؤرخ البريطانى «جى . ب . كيلي» نقلا عن الوكيل البريطانى فى الشارقة، وما ذكره د. جمال قاسم نقلا عن الوكيل البريطانى فى الشارقة أيضاً، فإن مذكره الأول أقرب إلى الصحة وذلك استناداً إلى ما جاء فى التقرير الموجز للوكيل البريطانى الذى كان من رعايا بريطانيا وخاصة من الهند وباكستان ولكنه لم يكن من أبناء ساحل عمان ولهذا فإن تسميته بالوطنى خطأ وإنما الوكيل البريطانى أقرب إلى الصواب لأنه من رعاياها، وسوف نورد هذا التقرير بعد أن نشير إلى ثلاثة ملاحظات حول ما ذكره د. جمال زكريا قاسم وهى كما يلى:

(أ) حول ما جاء فى الفقرة «بأن خالداً فر إلى أعمامه زعماء قبيلة القبيسات» والصحيح أن القبيسات ليس بالأعمام وإنما أخوال، فأعمامه هو القاتل نفسه وكذلك الشيخ خليفة بن زايد والشيخ محمد بن زايد والشيخ حمدان وطحنون أبناء زايد بن خليفة. وقد يكون د. جمال زكريا نقله خطأ أو ترجمه خطأ.

(ب) حول ما جاء فى الفقرة «أخذ الشيخ صقر خالداً من أعمامه» والصواب

أن الشيخ صقر لم يأخذ خالداً، لأن شيخ القبيسات رفض إعطاء خالد الذي يعتبر ابن أخته الشيخه «سلامة» زوجة الشيخ سلطان بن زايد وأم الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة الراحل وشقيق خالد، وقال شيخ القبيسات لشيخ صقر بأن خالداً يتزف وجرحه بليغ وأنه سيموت على أية حال فلماذا تأخذه ونحن نحاول علاجه.

(ج) حول ما جاء، بأن شخبوط وهزاع دخلا في حماية عبدالله بن جلوى حاكم المنطقة الشرقية في السعودية، والصواب أنه رفض استقبالهم نظراً لموقف والدهم الشيخ سلطان بن زايد الذي كان من أشد المعارضين للتوسع السعودي في أراضي أبوظبي، كما أن ابن جلوى أراد أن يكسب الحاكم الجديد الشيخ صقر بغية الحصول على مكاسب توسعية، وهذا ما حصل فقد رفض استقبالهم بل طردهم ومنعهم من الدخول في أراضيه ولذا عاد شخبوط وهزاع إلى قطر ثم إلى جزر أبوظبي قبل أن يستقر في الشارقة وهذا ما سوف نوردّه أيضاً فيما بعد.

جاء في موجز التقرير الذي قدمه الوكيل البريطاني في ساحل عمان بالشارقة إلى دار المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بمدينة «بوشهر»، في شهر سبتمبر 1926، عن ساحل عمان الجنوبي حول حادثة مقتل الشيخ سلطان بن زايد حاكم أبوظبي:

«إنه في ليلة 4 أغسطس دعا الشيخ سلطان بن زايد حاكم أبو ظبي أخاه الشيخ صقر بن زايد لتناول طعام العشاء، فقبل الشيخ صقر هذه الدعوة، ولدى وصوله إلى مقر إقامة أخيه أطلق الشيخ صقر في الحال النار على الشيخ سلطان فأرداه قتيلاً⁽¹⁶⁾، يتابع الوكيل البريطاني في ساحل عمان تقريره بقوله:

«قيل إن سبب هذا الاغتيال، هو أنه منذ الفترة التي أصبح فيها الشيخ سلطان بن زايد حاكماً لأبوظبي لم يدفع لأخوته الشيخ خليفة والشيخ صقر والشيخ محمد، وشقيقاته مصاريف بدل معيشة، ونظراً لأنهم كانوا يمرون بظروف مالية صعبة فأجمعوا أمرهم ليقفوا ضد الشيخ سلطان بن زايد، ثم حاول الشيخ صقر بن زايد اغتيال أبناء الشيخ سلطان بن زايد الذي اغتيل، ولكن هذه المحاولة لم تنجح وفشل في قتلهم، وهم شخبوط وهزاع وخالد، فقد ركزا الشيخ صقر

بن زايد نفسه كحاكم بأبوظبى الآن، ويبدو أن شيوخ ساحل عمان الآخرين قد قبلوا به بالإضافة إلى قبائل أبوظبى»⁽¹⁷⁾.

إشارة إلى ما ذكره الوكيل البريطانى فى ساحل عمان التقرير الذى قدمه إلى رئيسه المقيم السياسى البريطانى، وعلل فيه بما ادعاه الشيخ صقر بن زايد، لتبرير جريمته بقتل أخيه من عدم حصوله هو وإخوته من «مصاريف بدل معيشة»، فهذا التبرير لا يستند إلى دليل نظراً لأن مجريات الأمور تدل على عكس ذلك، عندما نجد أن أخويه الشيخ خليفه والشيخ محمد ذهبا إلى العين برفقة أبناء أخيهما المقتول سلطان بن زايد، وحافظ عليهما بعد مقتل أبيهم، ولو كانا متفقين بسبب عدم إعطائهم «مصاريف بدل المعيشة» لما أقدما بالحفاظ على حياة أبناء أخيهما، وكانا قد حملهما إلى الشيخ صقر بن زايد حاكم أبوظبى الجديد الذى كان يلاحق أبناء سلطان لقتلهم.

نجد أيضاً فيما بعد أن الشيخ خليفة بن زايد، يلعب دوراً كبيراً فى قتل الشيخ صقر بن زايد، وتولييه ابن أخيه المقتول الشيخ شخبوط كحاكم لأبوظبى، مما يعنى عدم صحة ما قاله الشيخ صقر بن زايد أو ما ادعاه الوكيل البريطانى بالشارقة فى ساحل عمان، وإنما كان مجرد إيجاد زريعة أو تبرير لعمله اللا أخلاقى، والهدف هو تولى الشيخ صقر بن زايد الموالى لبريطانيا الحكم فى أبوظبى، بدلا من أخيه الشيخ سلطان بن زايد الذى كان مستاء من التدخل البريطانى فى شئون حكمه الداخلى، ومن ثم السكوت البريطانى عن محاولات الشيخ صقر بن زايد العديدة فى التخلص من أبنائه شخبوط وهزاع وخالد، إضافة إلى ذلك فإن أفراد صقر بالحكم دون مشاركة أخوته خليفة ومحمد فى الحكم كما كان يحدث سابقا يدل على عدم صحة تبريراته.

هروب شخبوط وهزاع من أبوظبى والبريمى؛

كتب الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة، فى شهر نوفمبر 1926 إلى دار المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بقوله:

«غادر شخبوط وهزاع ابنى شيخ أبوظبى المقتول مؤخراً قصر شيخ قبيلة النعيمى حاكم منطقة البريمى العمانية، وتوجها إلى إمارة دى حيث لم يتمكننا من

مقابلة حاكم دبي بسبب غيابه المؤقت خارج المشيخة، ثم توجهها إلى مشيخة الشارقة⁽¹⁸⁾.

وبذلك تمكنا من الهروب من أبو ظبي عن طريق الصحراء الواقعة بين البريمي ودبي دون أن يعتقلهما الشيخ صقر بن زايد، كتب الوكيل البريطاني في ساحل عمان في شهر ديسمبر 1926 تقريره إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى جاء فيه:

«بأن ابنى الشيخ المرحوم سلطان بن زايد قد غادرا دبي متوجهين إلى البحرين، ولدى سماع الشيخ صقر بن زايد حاكم أبو ظبي عن مغادرتهم قام باعتقال خالهما الشيخ حمد بن بطي (حامد بن بطي) زعيم قبيلة القبيسات وسجنه متهما إياه إنه كان السبب فى تحريض ابنى المرحوم الشيخ سلطان بن زايد على الهرب إلى دبي والشارقة ثم التوجه إلى البحرين لإثارة المتاعب ضد حكم صقر فى أبو ظبي»⁽¹⁹⁾.

يتضح من تلك التقارير عدم اهتمام البريطانيين، وخاصة الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بتحركات ابنى الشيخ المقتول، وكيف كان الأخير يراقب سيرتهم بكل دقة وتفصيل، ويكتب التقارير أولاً بأول، وقد يستعجل فى إصدار بعض الأحكام مما قد تتناقض فى بعض التقارير ثم يعيد كتابته فى التقرير التالى أو يلحقه بالتقرير السابق، مما يعنى أنه كان يتوقع أهمية شخبوط فى الصراع السياسى والذى لعب دوراً فيما بعد عند استلامه الحكم فى أبو ظبي.

ملاحقة حاكم أبو ظبي لشخبوط وهزاع

بعث عيسى بن محمد نائب الحاكم فى جزيرة «دلم»، رسالة إلى شيخه صقر بن زايد حاكم أبو ظبي فى 4 شعبان 1345، الموافق 7 فبراير 1927 يقول فيها:

أود إعلامك بصدد أحوال ابنى الشيخ سلطان بن زايد، إنهما أعدا بعض السفن ووضعوا رجالهما فيها، وكان قد أشيع سابقاً أنهما سيذهبان إلى جزيرة «غشة»، وقد وصلا فعلاً جزيرة «غشة» ومعهما أكثر من أربعين رجلاً مسلحاً، وكان هدفهما الاستيلاء على جزيرة «دلم» بأى ثمن، ولكنهما لم يتمكنوا لوجود الدفاعات القوية، وإن تلك الأعمال تسيء إلى سمعتك وتهدد مركزك بعدم اهتمامك بهم وعدم ملاحقتك لهم والتخلص منهم⁽²⁰⁾.

يتابع نائب الحاكم في جزيرة «دلم» رسالته إلى شيخ أبو ظبي طالباً منه إرسال المزيد من القوات والإمدادات بقوله :

«نرجو منك إرسال سفن محملة بالقوات والإمدادات العسكرية اللازمة بأسرع ما يمكن لحماية الجزيرة من هجمات شخبوط وهزاع»، ثم يعلن وقوفه إلى جانبه بكل قوة حتى يكسب ثقة حاكم أبو ظبي بقوله : «كنا قد أقسمنا بالله إننا مستعدون أن نساعدك ولم نحد عن وعدنا بمساعدتك»، ثم يشيد بأحد أتباعه بقوله : «أبو هلبية» هو الذي يتصرف بأمانة، الرجاء إرسال سفينة ذات «صار»⁽²¹⁾ أى سفينة ذات شراع كبير حتى يتم مطاردة شخبوط بسرعة فيما بين جزر أبو ظبي الكثيرة والمتناثرة في المياه الجنوبية من الخليج العربي.

تمكن شخبوط وهزاع بمساعدة قواته وبعض الأهالي أن يستولى على بعض أجزاء من جزيرة «دلم» وهنا أسرع نائب الحاكم في جزيرة «دلم» بإبلاغ الشيخ صقر بن زايد عن تطور الأوضاع الأخيرة وعلى أثر ذلك قام الشيخ صقر بن زايد بإرسال القوات اللازمة والمجهزة بالأسلحة والسفن السريعة كي يتم القبض على شخبوط وأتباعه في جزيرة «دلم»⁽²²⁾.

وصلت تلك السفن المحملة بالقوات العسكرية من أبو ظبي إلى جزيرة بنى ياس التابعة لأبو ظبي بالقرب من جزيرة «دلم»، نصح سكان جزيرة «دلم» الشيخ شخبوط وهزاع بمغادرة المكان بسرعة، نظراً لقرب وصول قوات أبو ظبي لاعتقالهما، فصعد الاثنان سفنهما وعادا من حيث أتيا في «الوكرة» في الجنوب الشرقي من قطر⁽²³⁾، ونلاحظ هنا مدى تعاطف سكان جزيرة دلم مع شخبوط.

وجه الشيخ صقر بن زايد حاكم أبو ظبي رسالة إلى الوكيل البريطاني في ساحل عمان بالشارقة في 26 شعبان 1345 الموافق 1927/3/1 جاء فيها:

توجه ابني دياب اليوم إلى الجزر الشرقية، وخاصة جزيرة «دلم» وما يجاورها من الجزر، لقضاء بعض الأعمال ولتفقد أحوال الرعية والحفاظ على الاستقرار والأمن، وخاصة بعد حدوث بعض القلاقل نتيجة لمجيء أبناء الشيخ المرحوم سلطان بن زايد إلى تلك الجزر ومعهما بعض رفاق السوء، وكنت أخشى من ارتكابهم لأعمال مخلة بالأمن والاستقرار، ومهاجمة أتباعي في المنطقة المذكورة مما

قد يحدث فوضى واضطراب الأوضاع، ولذا قمت بإرسال ابني دياب للمحافظة على أمن واستقرار الجزر الشرقية، ولإخراج ابني الشيخ سلطان⁽²⁴⁾.

الموقف القطري من الصراع السياسي في أبوظبي؛

بعث الشيخ عبدالله بن قاسم آل ثاني حاكم قطر برسالة جوابية إلى الشيخ صقر بن زايد حاكم أبو ظبي في 3 رمضان 1345 الموافق 1927/3/7 جاء فيها بعد التحية:

«تسلمت رسالتك فسعدت بقراءتها، وعلمت ماجاء فيها وبالنسبة لأسرة «القبيسات» الشريرة التي كانت تقف بجانب ابني الشيخ سلطان بن زايد، فلا تعرف مكان إقامتها، إلا أنه بعد أن سمحنا لهما بالذهاب في رحلة عادا وهما في حالة بؤس، ثم بعد فترة وكأنهما قد اتجها نحو «دبي»، ولكنهما في حقيقة الأمر ذهبا إلى «الوكرة»، وعندما قمنا باستفسار عنهما، فوجدناهما قد عبرا في سفينة تعود ملكيتها إلى «ابن مالغي» ولا نعلم بعد ذلك أين ذهبا»⁽²⁵⁾، يتابع بعد ذلك حاكم قطر رسالته وعن دهشته لهذا الاهتمام من قبل حاكم أبوظبي، ويحاول تخفيف المطاردة والملاحقة لشخبوط وبأنها غير مجدية حيث يقول:

«لم نعر ذلك كل اهتمامنا فنحن نشك بهما، فعملهما هذا غير مجد، فما الفائدة التي سيحصلان عليها من أهالي جزيرة «غشة» وبقية الجزر الأخرى. لاشك أن الخطر سيحذر بهما منك ومن أسرة «القبيسات»، وسيصدر شقيقى الشيخ عبدالرحمن إن شاء الله تعليمات هامة حولهما وسيعيدهما إليك، وبمشئة الله لن يحدث من جانبنا أى عدوان فنحن من قبيلة واحدة»⁽²⁶⁾.

بعث الشيخ عبدالرحمن بن قاسم آل ثاني، نائب حاكم قطر وشقيقه في منطقة «الوكرة»، برسالة جوابية إلى الشيخ صقر بن زايد حاكم أبوظبي في 4 رمضان 1345، الموافق مارس 1927 بقوله بعد التحية:

«تسلمت رسالتك في ساعة مباركة، وكان فيها اطمئنان عن صحتك الجيدة، أما بالنسبة لقبيلة «القبيسات» التي كانت تقف بجانب ابني سلطان (وهو تعبير يستخدم للسخرية لاسم سلطان بن زايد) فنحن لا نعلم عن مكان إقامتهما ماعدا أن الرجل الذى قام بمساعدتهما في العبور في سفينة يدعى «ابن مالغي» فقد كانا

يريدان عبور الشاطئ والذهاب إلى ناحية دبي، فلم نبد اهتمامنا بذلك، فكل شيء حولهما يشير الشك، ولكن يا صديقي إن عملهما هذا عديم الفائدة، فالخطر يتظرهما، ولن يحصلوا على شيء نافع من سكان جزيرة «غشة».

سوف نعيدهما وجميع المرافقين لهم، إليك قريباً، وستكون راضياً إن شاء الله، فنحن من نفس القبيلة والجماعة، طالما أنت تعرف كيف تحافظ على الود الذي بيننا»⁽²⁷⁾.

يلاحظ من الرسالتين، مدى تعاطف شيوخ قطر مع حاكم أبو ظبي في سبيل ملاحقة ومطاردة ابني الشيخ سلطان بن زايد، والقبض عليهما وتسليمهما إلى صقر بن زايد، كما نجد أنهما ينصحان بعدم الاهتمام أو الملاحقة وإنه غير مجد وعديم الفائدة.

يفيد شيوخ قطر في ردهما، بعدم علمهما بمكان وجودهما بطريقة دبلوماسية، مما يعنى محاولة التستر على وجود شخبوط وهزاع في «الوكرة»، ومن ثم نصحهما بأن يغادرا ويبحثا عن مكان آخر أكثر أماناً، وذلك خوفاً من تعكير العلاقات القطرية - الظبانية بسبب تواجدهما.

اتسمت العلاقات القطرية - الظبانية في هذه الفترة بالود وحسن الجوار، وذلك بعد ما كانت العلاقات بينهما عدائية في عهد أبيهما، الشيخ خليفة بن زايد، والشيخ قاسم بن محمد بن ثاني، وقد يرجع أيضاً إلى نهاية الحكم العثماني في قطر، حيث كان البريطانيون والعثمانيون يحرضون حكام أبو ظبي وقطر، مما أدى إلى حالة من العداء بينهما، وأما الآن فإنهما تحت الحماية البريطانية، والظروف المحركة تغيرت، فلا بد أن تكون العلاقات الثنائية ودية تمشياً مع الوضع الإقليمي السياسي للمنطقة.

تدل تلك الرسائل من ناحية ثانية على سياسة وحكمة شيوخ قطر بعدم التدخل في الشؤون الداخلية بأبوظبي، وعدم تقديم أية مساعدات عسكرية أو مالية لشخبوط وهزاع بغية إعادتهما إلى الحكم، وهذا ما يحدث عادة في مثل هذه الظروف، حيث يستخدم بعض الحكام اللاجئين أو المعارضين السياسيين كورقة ضغط لتحقيق مكاسب خاصة.

الموقف السعودي من الصراع السياسي في أبوظبي:

يبدو أن مهمة شخبوط في الأحساء، عند «ابن جلوى» فشلت لأن الموقف السعودي كان متعاطفًا مع الحاكم الجديد لأبوظبي الشيخ صقر بن زايد، حيث كان شقيقه الحاكم ووالد شخبوط معارضًا للتوسع السعودي في إمارة أبوظبي، وذلك عندما منع الشيخ سلطان زايد قبائل «المناصير» و«المزاريع» و«العوامر» و«المناهيل» في منطقة «الظفرة» من التعامل مع السعوديين وعدم السماح لهم بالتدخل في أراضي أبوظبي.

أرسل «ابن جلوى» حاكم الأحساء في السعودية قوة من قبائل «ال مرة» «لغزو» المناصير» و«بنى ياس» في منطقة «ليو»، كما وصل سعيد آل عرفة لجمع الزكاة من قبائل أبوظبي ولكن الشيخ سلطان بن زايد رفض الاعتراف به وبذلك فشل الوفد السعودي في الحصول على الزكاة من بعض قبائل منطقة العين التابعة لأبوظبي، في الوقت الذي اعتمد حاكم أبوظبي الشيخ سلطان بن زايد على دعم حليفه حاكم دبي، في حين أسرع «ابن جلوى» بالكتابة إلى الشيخ سعيد بن مكتوم حاكم دبي في نوفمبر 1925 يشير فيها إلى سلطان بن زايد بأنه وراء تحريض القبائل في البريمي ضد السعودية وقد جاء في رسالته⁽²⁸⁾:

«لقد بلغنا أن أخانا سلطان بن زايد قد بعث برسول يحذركم من سعيد آل عرفة ويقول إن المذكور قد أغار على منطقتكم بأربعمئة رجل من الهجانة وأنه يقوم بحفر الآبار وإننا سنلحقه، ولكنكم رفضتم تصديقه ولم يأخذكم الشك فينا، وأن هذا ليثبت أنكم لا تصدقون الأكاذيب التي تروج ضد ابن سعود وتعاقبون الكاذب، وإن أخانا سلطان مجنون وهو لا يدرى أننا أقوى منه عدة وعتادًا وأن الأكاذيب التي يبلغها إليه رجال البدو تستفزه، غير أن الاستفزاز لا يؤدي إلى نتيجة... وعلى أي حال فإننا سنتصر عليه وعلى غيره طال الزمن أم قصر».

تؤكد هذه الرسالة العلاقات العدائية بين أبوظبي والسعودية في عهد الشيخ سلطان بن زايد والد شخبوط، ولكن هذه العلاقات تغيرت في عهد الشيخ صقر بن زايد الذي كان حريصًا على إقامة علاقات قوية مع «ابن جلوى» و«ابن سعود»، لأنه كان يعتقد أنه بدون تأييدهما لن يستطيع البقاء في الحكم ومن الممكن أن يطاح

به من قبل ابنى الشيخ سلطان، ولذلك حاول الشيخ صقر بن زايد اقناع «ابن جلوى» بعدم تأييده لشخبوط أو السماح باستخدام أراضيه ضده، وأرفق بطلبه هذا هدايا قيمة كما وافق على السماح لعمال ابن جلوى بجباية الزكاة من منطقة العين والمناطق المجاورة لها، وقد وصل بالفعل عمال من السعودية إلى العين فى عام 1927، وبذلك كان الشيخ صقر حريصاً على علاقته الودية مع السعودية تأمينا لحكمه دون الاهتمام بوطنه⁽²⁹⁾.

طلب ابن سعود من هذا المنطلق ببعض المكاسب من الشيخ صقر بن زايد مقابل طرد شخبوط وهزاع من أراضيه، عندما لجأ إلى «ابن جلوى» فى الأحساء، وبذلك لم يستمر شخبوط وهزاع فى الأحساء، بعد ما رفض ابن جلوى مطالبهما أو استقبالهما ولهذا عادا إلى «الوكرة» فى قطر، وطلب الشيخ صقر بن زايد أيضاً من حكام قطر بعدم تأييدهما أو استقبالهما، اضطر شخبوط وهزاع أخيراً التوجه إلى جزيرة «غشة» ولكن نظراً لمطاردة الشيخ صقر بن زايد ولملاحقته لهما، فإنهما اضطرا أن يلجأ إلى الشارقة بالقرب من مقر الوكيل البريطانى حيث يكونان تحت رقابته من جهة وكذلك تحت حمايته من جهة ثانية بحيث لا يستطيع صقر ملاحقتهما أو اعتقالهما، وهذه الأحداث كان لها أثر فى نفس شخبوط عندما تولى الحكم فى أبو ظبى، مما كان سبباً فى اتخاذ سياسة معادية لابن جلوى وابن سعود وكذلك سياسته المتحفظة تجاه قطر ودبى والمعادية لبريطانيا التى وقفت ضده.

الموقف البريطانى من الصراع السياسى فى أبو ظبى،

بعث الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة، برسالة إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بيوشهر» فى سبتمبر 1927 جاء فيها:

«أود إبلاغك أن الرسول الذى أرسل إلى الشيخ صقر بن زايد حاكم أبو ظبى، لتسليمه رسائله والتى تطلب فيها أن يعيد الوالد الموجود لدى محمد بن راشد، قد أعلمنى لدى عودته إنه شاهد بأم عينيه 12 سفينة عادية وسفيتين حربيين أعدها الشيخ صقر بن زايد لتكون جاهزة للعمل، وكان على ظهر هذه السفن 400 رجل مسلح، أما السفينتان الحربييتان فعليهما أربعة مدافع وقذائف من النوع القديم.

توجهت تلك السفن إلى جزيرة «صير بنى ياس» وجزيرتي «دلم» و«غشه»، وكانت تلك الجزر تحت حكم دياب ابن الشيخ صقر بن زايد، وقيل إن شخبوط وهزاع ابني الشيخ المرحوم سلطان بن زايد قد توجهوا من قطر إلى «دلم»، كما قال خالهما وهو من أسرة «القييسات»، والإقامة في «دلم»، ولهذا توجه دياب إلى هناك ومعه قوات لمقاتلة شخبوط وهزاع، وبعد عودة الرسول المذكور آنفاً من أبوظبي، تسلمت رسالة من الشيخ صقر بن زايد، حيث أرفقت لك مقتطفاتها للاطلاع عليها⁽³⁰⁾.

يتابع الوكيل البريطاني في ساحل عمان رسالته إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي قوله:

«ذكر الشيخ صقر في رسالته أنه أرسل ابنه دياب إلى الجزر ويؤيد هذا ما صرح به رسولي، ثم وصلتني بعد ذلك أخبار من مدينة أبوظبي، مفادها أن ابني سلطان بن زايد غادرا جزيرة «دلم» إلى قطر، وقبل وصولهما بيوم واحد، وفي جزيرة «صير بنى ياس»، قام دياب بن صقر بمطاردتهما بواسطة سفينتين محملتين بأسلحة وعتاد وأكثر من مائة وخمسين رجلا، ولم يعرف حتى الآن ما حدث.

ولما علم شيوخ القبائل في ساحل عمان، خاصة شيوخ أسرة «القواسم»، بأن الشيخ صقر بن زايد قد أرسل ابنه دياب مع قوات عسكرية عبر البحر للقتال، فقد اعتقد هؤلاء شيوخ القبائل، أن السلطة البريطانية العليا قد رفعت الحظر بحراً (يقصد هنا اتفاقية الهدنة البحرية الدائمة الموقعة بين بريطانيا وشيوخ القبائل في ساحل عمان)، وإن شيخ أبوظبي قام بإرسال قواته بحراً للقتال لإخضاع هؤلاء الرعايا المتمردين، أو لاستعادة أية جزيرة كانت قد احتلت بالقوة، وإن شيوخ أسرة القواسم الذين يمتلكون جزراً وخلجان على البحر، قد تحدثوا عن هذا الموضوع، واعتقد أنه إذا ترك أو سمح لشيخ أبوظبي الذي ارتكب خرق القانون وشأنه، فإنه يحتمل أن يحدث خرق للسلام في البحر وفي هذه الموانئ، إن هذا الأمر متروك لك لتقرر بشأنه ما تراه⁽³¹⁾.

بعث الوكيل البريطاني في ساحل عمان برسالة جوابية إلى المقيم السياسي البريطاني في 18 إبريل 1927 جاء فيها:

«إشارة إلى رسالتك رقم 66 والمؤرخة في 27 مارس 1927 والتي تطلب فيها منى القيام بمزيد من الاستفسارات حول سبب مغادرة شخبوط وهزاع ابني الشيخ المرحوم سلطان بن زايد إلى جزيرة «دلم» وفيما إذا كانا مسلحين أم لا.

أود أن أعلمك أنني قمت باستفسارات وعلمت أن شخبوط وهزاع ذهبا إلى الشيخ عبدالله بن جلوى أمير الأحساء وطلبا منه أن يكتب لعمهما الشيخ صقر بن زايد للسماح لهما بالإقامة في جزيرة «دلم» (ولكنهما لم ينجحا في ذلك كما ذكرنا سابقاً)، ثم ذهب شخبوط وهزاع من الأحساء إلى «الدوحة» ثم «الوكرة» (ولكنهما أيضاً فشلا في ذلك) حيث أعدا سفينة وصعدا على متنها ومعهما بعض أفراد «القبيلات» المقيمين في «الوكرة» وكان جميعهم مسلحين»⁽³²⁾.

أرسل الشيخ صقر بن زايد حاكم أبوظبي رسالة جوابية إلى المقدم «ك. ب. هو. هاروث». المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى 16 صفر 1346 الموافق 14 أغسطس 1927 جاء فيها:

«تسلمت رسالتك فى ساعة مباركة وسررت أنك بخير ونشكرك على نصيحتك لنا بالنسبة لموضوع إرسالى لقوة عبر البحر تجاه أبناء أخى دون علمك، أود أن أعلمك أنهما لم يكونا على درجة من النضوج، وكان بصحبتهما بعض الأشرار الذين لا يعرفون الصالح من الطالح، وبما أنني كنت خائفاً إذا قمت بإعلامك أن تتأخر برسالة ردك، وقد يحدث بعض الاضطرابات وإراقة الدماء بين ابن أخى وبين رجالى، لذا أرسلت رجالى لإحلال السلام ومنع حدوث الاضطرابات فى البحر وليس لمطاردتهما. أتمنى أن أقوم بالمهمة المكلف بها بطريقة مرضية فى جميع الأحوال»⁽³³⁾.

نجد هنا فى الرسائل السابقة المتبادلة بين الوكيل البريطانى فى ساحل عمان، والمقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى وشيخ أبوظبي، أن موقف بريطانيا كان سلبيا من عملية الاغتيال وهى التى تدعى بأنها تحافظ على أمن المنطقة وأمن الحكام، كما أنها وقعت اتفاقيات معهم بأن يكون الحكم وراثياً، ولم يكتف بالموقف السلبى من الأحداث المتعلقة بالأمن، والصراع السياسى فى أبوظبي، بل اعترفت بالحكم الجديد وغضت الطرف عن عملية الملاحقة والمطاردة التى قام بها

الشيخ صقر بن زايد ضد ابني القليل شخبوط وهزاع فى ساحل عمان وقطر وفى المياه الإقليمية وجزر أبوظبى .

اكتفى المسئولون البريطانىون بقولهم: يجب أن تعلمونا عن عمليات الملاحقة والمطاردة والتي ليست بريطانية ضدها، وهى لا تحرك ساكنا أو تمنعه من الإخلال بالأمن والاستقرار ويخرق إتفاقية الهدنة البحرية الدائمة، مما يعنى أنها تريد الإعتراف بالحكم الجديد لتبعيته لبريطانيا بطريقة أو بأخرى، وكل ما يهم البريطانيين عن عملية المطاردة لشخبوط وهزاع أن لا يتم فيها خرق لاتفاقية «الهدنة البحرية الدائمة»، وللسلام والاستقرار فى مياه الخليج العربى، ومع ذلك حدثت عدة خروقات ولم تحرك بريطانيا ساكنا، مما يعنى أن تفسير تلك الاتفاقية راجع حسب المفهوم البريطانى، أى عدم التعرض للسفن التى ترفع العلم البريطانى ولرعاياها فى مياه الخليج العربى أثناء عمليات المطاردة والملاحقة، وما عدا ذلك لا يهم حتى لو كان هناك أضرار فى المنطقة ولأبنائها، أى أن مصلحة بريطانيا المسيحية الاستعمارية فوق الجميع وأهم من عملية الاستقرار والأمن فى ساحل عمان وخاصة أبو ظبى وأن عمليات القتل والاضطرابات فيها لا يعتبر من عملية السلام وان تفسير اتفاقية الهدنة حسب المفهوم البريطانى .

ولهذا لا ينبغى أن نغفل تأثير السياسة البريطانية ودورها فى الأوضاع الداخلية والأحداث المضطربة فى ساحل عمان، وإن ظهرت فى صورة المنقذ لها من تلك الأوضاع التى هى السبب الرئيسى فيها، لأن السلطات البريطانية كانت تستغل حدوثها أو تكون هى المحرصة عليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حتى تحقق أكبر قدر من السيطرة والنفوذ، إذ كانت الاضطرابات تتيح لها الفرصة لكى تفرض رقابتها الفعلية وأن تجعل من نفسها حكما فى المنازعات القائمة وتتدخل لآتفه الأسباب بحجة المحافظة على الأمن والاستقرار⁽³⁴⁾ .

مقتل الشيخ صقر بن زايد وعودة شخبوط وهزاع إلى أبوظبى،

بعث الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة بتقرير فى 9 يناير 1928 إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى وبمجيء شخبوط إلى الشارقة ومقتل الشيخ صقر بن زايد فى أبو ظبى فقد جاء:

«بالإشارة لرسالتي رقم 437 والمؤرخة في 8 سبتمبر 1927، والمتعلقة بحاكم أبوظبي وابني أخيه شخبوط وهزاع اللذين يقيمان في البريمي، وبتحريض من الشيخ خليفه بن زايد (شقيق الحاكم صقر بن زايد) فقد وصل إلى الشارقة ابني أخ الشيخ مرافقين لأسرتيهما وذلك في 2 ديسمبر 1927، وقاما بإرسال عبد من الشارقة إلى الشيخ خليفه بن زايد واثنين من البدو⁽³⁵⁾. (من الحرس الخاص). يتابع الوكيل البريطاني من الشارقة قوله:

«أرسل الشيخ خليفه بن زايد، رسالة من أبوظبي بعد ذلك إلى شخبوط وهزاع يطلب منهما المجيء إلى أبوظبي، وقاما بالتوجه بها إلى هناك يرافقهما أتباعهم ممن كانوا يقيمون معهما في الشارقة، في حين غادر أبناء الشيخ المقتول صقر بن زايد وأسرههم إلى دبي حيث استقروا هناك⁽³⁶⁾».

يبدو مما جاء ذكره في تقرير الوكيل البريطاني في ساحل عمان بالشارقة أنه كان متسرعاً أو كتب التقرير بمجرد سماع الأخبار دون التحري أو التريث لمعرفة كيفية وقوع الحادث، مما أحدث تناقضاً في حادث القتل، وقد يرجع ذلك إلى أهميتها وإلى سرعة إبلاغ السلطات البريطانية في دار المقيمة السياسية البريطانية في الخليج العربي في مدينة «بوشهر»، ولذا فإن الوكيل البريطاني، مستعجل في نقل أخبار مقتل الشيخ صقر بن زايد، ثم تدارك ذلك وبعث برسالة أكثر تفصيلاً عن مجريات الأمور والصراع الدائر على السلطة في جنوب ساحل عمان بأبوظبي وهذا ما قد يفسر بعض التناقض في الرسالتين عندما كتب الوكيل التقرير التالي بتاريخ 25 يناير 1928 جاء فيه:

«بالإشارة إلى برقيتي رقم 3 المؤرخة في 5 يناير عام 1928، والمتعلقة بمقتل الشيخ صقر بن زايد حاكم أبوظبي، أود أن أعلمكم أن نتيجة استفساراتي وتحرياتي تبين أنه في شهر ديسمبر عام 1927 كان الشيخ صقر بن زايد مستاء من أخيه الشيخ خليفه بن زايد (شقيقه الأكبر) وابنه محمد، وحاول في مناسبات كثيرة قتلها والتخلص منهما، إلا أنه لم تسنح له الفرصة المناسبة للقيام بذلك، وعندما علم الشيخ خليفه بن زايد بهذه المؤامرة لاغتياله، أرسل رسالة إلى القبائل الموالية له من «المناصير» (الذين كانوا قد توجهوا إلى الأحساء وقطر بعد مقتل سلطان بن

زايد كما يقطنون فى المناطق الداخلية فى صحراء «ليوا» التابعة لأبو ظبى) وطلب منهم المجئ، وجاء هؤلاء كضيوف، وبمجرد أن سنحت الفرصة للخدم وبدو «المناصير» (الموالين للشيخ خليفة بن زايد) أطلقوا النار على الشيخ صقر بن زايد فأردوه قتيلاً ثم قام الشيخ خليفة بن زايد ومعه قبيلة المناصير بالاستيلاء على مقر الحكومة، ثم أمر الشيخ خليفة بن زايد أبناء صقر بالخروج من أبو ظبى (ومغادرتها نهائياً خوفاً على حياتهم من الانتقام من أتباع شخبوط، كما أنهم لم يحاولوا أن يقتلوهم كما فعل والدهم الشيخ صقر بن زايد لأبناء الشيخ سلطان بن زايد) فقد قام أبناء صقر بن زايد باستتجار قاربين لنقلهم وأمتعتهم وغادرا متوجهين إلى دى بعد ما سمح لهم الشيخ سعيد بن مكتوم بالاستقرار والإقامة فى مشيخته»⁽³⁷⁾.

يتابع الوكيل البريطانى تقرير بقوله:

«كتب الشيخ خليفة بن زايد إلى شخبوط وهزاع ابنى سلطان بن زايد اللذين كانا فى الشارقة، وطلب منهما المجئ إلى أبو ظبى، متوجها إلى هناك برا ولدى وصولهما سلمهما الشيخ خليفة بن زايد مقر الحاكم وأصبح شخبوط الذى قمت بإرفاق رسالته إليك، أصبح حاكماً فى أبوظبى، علمت أن أبناء الشيخ صقر بن زايد المقيمين فى دى يقومون بترتيب بعض المكائد ضد شخبوط الحاكم، وحسب المعلومات التى وصلت من أبوظبى فإن البلدة فى حالة اضطراب، سأقوم بإبلاغك بمزيد من التطورات فى الوقت المناسب»⁽³⁸⁾. توجد هناك رواية أخرى عن حادثة القتل، ذكرها د. جمال زكريا من مصدر آخر هو شركة البترول الأمريكية «أرامكو»، وهى لا تختلف كثيراً عما ذكره المصدر البريطانى، إلا فى الدور المتزايد لقبيلة «المناصير» ذات العلاقة القوية وخاصة المصاهرة مع الشيخ خليفة بن زايد من جهة وعلاقة قبيلة المناصير مع السعودية من جهة ثانية، واستخدام شركة البترول الأمريكية «أرامكو» هذه الحادثة فى مشكلة الحدود السياسية المعروفة «بقضية البريمى» من جهة ثالثة، حيث جاء ذكرها على النحو التالى:

«إن الصعوبة التى واجهها صقر، والتى أدت فى النهاية إلى اغتياله، أتت أساساً فى عدم قدرته إيجاد علاقات طيبة مع المناصير إذ قلل من أعطياتهم السنوية التى كانوا قد تعودوا الحصول عليها من شيوخ أبو ظبى من فرع بوفلاح،

وزادت شكوك صقر بن زايد من المناصير إلى تأمره على اغتيال ابنه محمد وأخيه الأكبر خليفه (الشيخ خليفه بن زايد شقيقه الكبير وابنه الشيخ محمد بن خليفه) الذي كان مصاهراً لهم، ولكن لسوء حظ صقر انكشفت مؤامراته ووضع المناصير من ناحيتهم خططاً مناهضة، وفي نهاية عام 1927 استميل عبد في قصر صقر لاغتياله، ولكن العبد أساء التصويب، وعندما هرب صقر تتبعه أحد رجال المناصير وأرداه قتيلاً. وبدلاً من اقرار الانشقاق بين المناصير وال بوفلاح فإن مقتل صقر أدى إلى زيادة حدة الشقاق، إذ حاول المناصير تعزيز موقفهم في أبوظبي بتنصيب محمد بن خليفه حاكماً على المشيخة، ومن ناحية أخرى نجد أن أعضاء آل بوفلاح نظروا باستياء إلى تدخل المناصير في اغتيال صقر، ومحاولتهم التحكم في اختيار خليفة له، ولكن الأمور لم تلبث أن استقرت حينما قرر محمد بن خليفة الانسحاب من توليه المشيخة فوقع الاختيار على شخبوط، وهو أكبر أبناء سلطان بن زايد، وكان إذ ذاك شاباً في العقد الثالث من عمره⁽³⁹⁾.

نلاحظ من خلال الأحداث السابقة، مدى قوة المصاهرة في العلاقات الخاصة، وبالذات في النزاع الأسري بين الإخوان والأعمام على السلطة السياسية المتمثلة في الحكم، فقد كان معظم حكام الجزيرة العربية، يتزوجون من مختلف بنات القبائل القوية، وذلك لتعزيز الحكم واستمراره عن طريق المصاهرة، حيث يستمدون الدعم المادي والمعنوي من تلك القبائل القوية، ذات التأثير الفعال في المجتمع، ومن اتبع هذه السياسة على سبيل المثال، الشيخ زايد بن خليفه وابن سعود وجده الأمير فيصل بن تركي، وبرغم أن هذه المصاهرة لها إيجابيات فإن لها بعض السلبيات وقد تكون خطيرة، وهي تزايد تدخل هذه القبائل في الشئون والنزاعات الأسرية، وخاصة على السلطة السياسية حيث تأخذ بالشدة والعنف، وقد تؤدي إلى زوال الأسرة من الحكم كما حدث عندما قدمت قبيلة العجمان وهي من أقوى قبائل شرق الجزيرة العربية على الإطلاق، الدعم والمساندة باشتراكهم مع الأمير سعود بن فيصل الذي كان أخواله العجمان الذين نجحوا في إسقاط حكم أخيه عبدالله بن فيصل وتوليه سعود بن فيصل الحكم في نجد عام 1870، وما أعقبه من حملة مدحت باشا واستيلاء الشمر على الرياض.

نجد كذلك في الصراع السياسي بأبوظبي نفس الدور لعبته المصاهرة

والقبائل، فقد كان الشيخ سلطان بن زايد تصاهر مع أسرة «القييسات» أخوال الشيخ شخبوط والشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات الراحل، فقد قدمت هذه القبيلة الدعم والمساندة الكاملة لابنى الشيخ سلطان بن زايد فى هذا النزاع الأسرى والصراع على السلطة، وكذلك الحال بالنسبة لقبيلة «المناصير»، الذين قدموا الدعم والمساندة للشيخ خليفه بن زايد الذى كان مصاهراً لهم، واستجابوا لدعوته، وكان معروفاً عن الشيخ خليفه بن زايد زهده وبعده عن الحكم، ولهذا كان قد رفض الحكم عدة مرات فى السابق، وكذلك الآن أو حتى ابنه محمد بن خليفه الذى كان أخواله من «المناصير» يساندونه بقوة، ولكن الشيخ خليفه رفض ذلك وفضل ترشيح شخبوط ابن أخيه.

الشيخ شخبوط حاكماً لأبوظبى

لاحظنا كيف استطاع الشيخ خليفه بن زايد التخلص من أخيه الشيخ صقر بن زايد، عن طريق قبائل «المناصير» الموالية له، وترحيل أبنائه إلى دبی، ومن ثم استدعاء ابن أخيه شخبوط الذى عانى كثيراً من محاولات لقتله من عمه حاكم أبوظبى السابق، وكان طريداً وملاحقاً، وبعد مجيء شخبوط إلى أبوظبى، سلمه عمه الشيخ خليفه بن زايد قصر الحكم المسمى بقصر «الحصن»، الذى كان أفراد من قبيلة «المناصير» قد استولوا عليه وطرّدوا أبناء صقر بن زايد منه.

تداركت أسرة البوفلاح مغبة هذه الخصومات، فتعهد أفرادها عند اختيار شخبوط عام 1928، زعيماً عليهم، بأن يلتزموا جميعاً بطاعته والولاء له، ومما هيا له فرصة البقاء طويلاً، عدم تورطه فى الخلافات والصراع السياسى السابق إذ كان متغيباً فى خارج أبوظبى فى الشارقة، أثناء وقوع الاغتيالات⁽⁴⁰⁾.

سبق حكم الشيخ شخبوط، عديد من الحكام الذين اغتيلوا فى أبوظبى بعد فترة قصيرة من وصولهم للحكم، ولكن حكم الشيخ شخبوط بن سلطان الطويل لا يعود إلى شىء أكثر من حكمة والدته الشيخة «سلامة» من «القييسات» التى طلبت عند وصول ابنها إلى الحكم من جميع أبنائها أن يقسموا ألا يحاول أحد منهم خلع الشيخ شخبوط بالقوة من الحكم، وفيما يبدو أنه كان يتمتع بحظوة خاصة لديها⁽⁴¹⁾، أو لقوة احتماله ولصبره على المشاكل التى واجهها.

يرجع ذلك التخوف إلى الفترة التي سبقتها، حيث اغتيل الأخوة فيما بينهم، فخافت الشيخ «سلامة» أن يحدث ذلك على ابنه، مما يعرض ليس ابنه أو أبناءها لعملية الاغتيالات فقط، وإنما ما قد يسبب ذلك من مشاكل ومآس اجتماعية واقتصادية وعدم الاستقرار والأمن، ليس للعائلة وإنما لأبوظبي وسكانها جميعاً.

ليس من شك في أن حكم شخبوط الطويل بعد الاضطرابات السابقة التي شهدتها ساحل عمان الجنوبي في أبوظبي، أدى إلى إضافة عامل هام من عوامل الاستقرار لم تعرفه المشيخة منذ وفاة الشيخ خليفه بن زايد، فقد حكم الشيخ شخبوط بن سلطان أبوظبي من عام 1928 إلى عام 1966، وهذا الحكم الطويل الذي بلغ ثمانية وثلاثين عاماً كان شيئاً غير مألوف في المشيخة⁽⁴²⁾.

بعث الوكيل البريطاني في ساحل عمان بالشارقة، بتقرير عن الوضع في ساحل عمان بعامة وفي أبوظبي بخاصة بعد اختيار الشيخ شخبوط بن سلطان حاكماً، إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بتاريخ 1 مايو 1928 جاء فيه:

«بعد التحية، أود إعلامكم عن وصول سفينة «كركوس» إلى ميناء الشارقة في الأول من إبريل 1928، ذهبت على الفور إلى متن السفينة واستفسر الكابتن عن أخبار موانئ ومدن ساحل عمان، أعلمته أن كل شيء هادئ، وليس هناك مشاكل أو متاعب في أنحاء ساحل عمان، وجاء الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة، إلى السفينة، وزار الكابتن الذي قام برد الزيارة له، كما زار الوكالة ثم عاد إلى السفينة، وبعدها غادر الكابتن في 23 إبريل متوجهاً إلى «دبي» ووصلت أبوظبي في 24 من إبريل⁽⁴³⁾.

جاء الشيخ شخبوط ووجهاء إمارة أبوظبي إلى متن السفينة وسألهم الكابتن عن الأحوال في إمارة أبوظبي، فأفادوا أن هناك استقراراً وهدوءاً، ثم قمت مع الكابتن برد زيارة الشيخ شخبوط. وقد لاحظت عندما كنت هناك، أن جميع سكان أبوظبي يحبون الشيخ شخبوط ويمدحونه. ولقد حصلت من الشيخ شخبوط على رسالة تؤكد التزامه، بجميع المعاهدات والمواثيق الموقعة مع الحكومة البريطانية وتطبيقها تطبيقاً تاماً، تلك الاتفاقيات التي وافق عليها أسلافه، وقد أرفقت ذلك مع هذه الرسالة⁽⁴⁴⁾.

شخصية شخبوط:

قيل كثيراً عن الشيخ شخبوط ومعظم ما قيل كان غير صحيح، وقد يرجع ذلك إلى ما كانت تشنه بريطانيا وأجهزتها من حملة ضده لأسباب ذكرناها سابقاً، وكذلك بعض الأقلام العربية والتي لم تكن تعرف عنه الكثير، وإنما مجرد تخمين أو نقلاً عن البريطانيين والأجانب عن هذه الشخصية التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ ساحل عمان الجنوبي «أبوظبي».

سوف نورد بعض ما قاله اثنان من الكتاب البريطانيين أنفسهم عن شخبوط، الأول وهو من أهم الرحالة في المنطقة أنه كان الأول والأخير الذي قطع رمال «الربع الخالي» مرتين برفقة رجال من قبائل «الرواشد» القوية من «حضر موت» و«ظفار» و«أبوظبي» والعودة. وهو الرحالة والضابط البريطاني و«يلفرد تيسجر» المعروف في المنطقة باسم «مبارك بن لندن» حيث يقول عنه:

«دعانا شخبوط للجلوس، كان لطيفاً وودياً لكنه كان متحفظاً يتكلم بنعومة ويتحرك ببطء وتأن، وكان يبدو أنه يسيطر تماماً على مزاجه الانفعالي وقد ساورتنى شكوك بأنه لا يثق بكل الرجال (الأجانب). ثم سألنا شخبوط عن رحلتنا ثم ناقش الحرب في فلسطين وانتهى بنقد عنيف لليهود⁽⁴⁵⁾».

ويتابع «يلفرد» قوله:

«إنه كان من الواضح أن «ابن كبنية» (وهو أحد مرافقي «وليفرد» من البدو الرواشد «الحضارمة» في صحراء الربع الخالي) في حيرة فقد همس لي متسائلاً من «اليهود»، وهل هم عرب؟ وعند حلول الظلام حضر الخدم حاملين صينية كبيرة (صحن كبير) ملأى بالأرز ولحم الغنم، وبعد أن تناولنا الطعام جلسوا معنا بلا رسميات وتحذوا، إذ يعتبر الخدم في بيوت العرب جزءاً من العائلة ولا يوجد أي تمييز اجتماعي بينهم وبين أسيادهم⁽⁴⁶⁾».

يتضح مما سبق كيف أن بعض أبناء المنطقة إن لم يكن معظمهم في تلك الفترة لا يعرفون أو يجهلون مجريات الأمور أو الأحداث القومية في بلاد المشرق والمغرب العربي، وخاصة القضية الفلسطينية، وهذا راجع إلى الطوق الاستعماري الذي فرضته بريطانيا بعدم اختلاط أبناء المنطقة بإخوانهم العرب في المشرق، أو

الاهتمام بالقضايا القومية العربية، ويرغم ذلك ترى ما مدى اهتمام الشيخ شخبوط بقضايا العرب القومية وتعاطفه مع إخوانه عرب فلسطين وانتقاده لليهود والدور البريطاني.

يقول «إدوارد هندرسون» الذى كان أحد الضباط السياسيين فى ساحل عمان قبل أن يصبح أحد المسؤولين فى شركة نفط أبوظبى، والذى كان أكثر قرباً من شخبوط نظراً لاتصاله وعلاقاته بحكم عمله كسياسى ثم اقتصادى فيما بعد، وجاءت كتاباته كتعبير صادق عما رآه حيث يقول:

«بأن شخبوط كان يمتاز بدمائة خلقه، وسحر شخصيته وحسن ضيافته، وقد يحدثك شخبوط فى جميع الموضوعات أو فى أى موضوع يروق له، كما أن أسئلته المتنوعة كانت تمتاز بالفطنة، سواء أكانت عن الصحون الطائرة أو عن سكان «برستول»، وعن «سكوتلاندا»، أو عن السياسة فى الشرق الأوسط، وفى تلك الأيام كانت أبوظبى على عكس دى، فمنذ وفاة زايد بن خليفة فى السنوات الأولى من هذا القرن، تدنى مستوى التجارة فى أبوظبى، فضلاً عن ذلك فإن انهيار تجارة اللؤلؤ قد ضرب سوق أبوظبى بشكل مطرد، وقد يكون التدهور الاقتصادى والظروف المعيشية الصعبة بسبب اللؤلؤ الصناعى اليابانى، إضافة إلى الوضع الاقتصادى العالمى بعد الحرب العالمية الأولى، وهى الكساد الاقتصادى، الذى أثر على اقتصاديات الخليج العربى فى سواحل شرق الجزيرة العربية بصفة عامة، وأبوظبى بصفة خاصة، لأسباب أمنية وعدم الاستقرار السياسى برغم المحاولات الجادة لشيخ البوفلاح لتحسين الأوضاع الاقتصادية لأبوظبى حتى توليه شخبوط الحكم فى أبوظبى»⁽⁴⁷⁾.

يتابع «هندرسون» قوله:

«إن أبوظبى كانت فى القرن الماضى، وحتى مطلع هذا القرن، واحدة من أهم المراكز الرئيسية فى تجار اللؤلؤ، ولكن منذ مجئى إلى هنا، كانت أعداد قليلة من المراكب تتوجه إلى موسم الصيد وليس لفترات قصيرة، كما كان الحال فى الأيام الماضية، وكان يقوم بزيارة شخبوط فى مخيمه عدد من البدو يشاركونه الأمسيات حول النيران، ويعرضون أمامه مصالحهم ويطلبون مساعدته فى مسائل

مختلفة، هكذا كان مجلس الصحراء الذى يلتقى فيه الحاكم بشعبه، ويجلس أحد هؤلاء الرعايا إما بالقرب من الشيخ أو أمامه، يخاطبه باسمه الأول فقط، ونادراً ما يستعملون الألقاب، ويكون حديثه مزيجاً من المعلومات والأقوال المأثورة، وغالباً ما ينتهى هذا الحديث بطلب المساعدة فى أمر ما، فشعبية الشيخ وسلطته يجب أن تعتمد على سرعة بديهته وحكمته فى التعامل مع رعيته، فإذا لم يكن لديه إلا القليل من المال فإنه بحاجة إلى الكثير من الفطنة وحسن القيادة والمنطق، لجمع استعمال الموارد الضئيلة التى بحورته، هذا ما كان عليه شخبوط والذى إذا ما حصل على النفط، كما حدث فى شرق الجزيرة العربية، فإن مشاكله تتغير فجأة، ولكن هذا لا يعنى أنها تصبح أسهل حلاً، بل العكس، فقد يصبح بحاجة إلى مزيد من الدقة فى التعامل مع رعيته، ولكن يبقى نظام المجلس على الأقل فى المراحل الأولى من التطور وانطلاق المجتمع الحديث نحو النظام الأساسى الذى يعتمد عليه الشيخ⁽⁴⁸⁾.

نتائج الدراسة:

وصلنا إلى نهاية هذه الدراسة، التى كانت لمرحلة هامة من التاريخ المعاصر للمنطقة، وهى نهاية فترة الصراع السياسى فى ساحل عمان، وكذلك نهاية مرحلة الاغتيالات الدموية والصراعات الأسرية، وأيضاً نهاية مرحلة اقتصادية أو لظروف صعبة، خاصة بعد الكساد العالمى وركود اللؤلؤ الطبيعى التى مرت بها المنطقة، والتى كانت السبب فى قلة الموارد المالية وبالتالي عدم الاستقرار السياسى والنزاع الأسرى والاغتيالات، مما تسبب فى مأس اجتماعية وأمنية لساحل عمان، فى الوقت الذى وقفت بريطانيا موقف المتفرج إن لم تكن الشريك الأساسى فى تلك المشاكل والمحرضة لها.

عندما كانت بريطانيا تريد الاستقرار، أو حل لمشاكل المنطقة فإنها كانت تعمل فى الوقت الذى تريده، والعكس صحيح، فقد لعبت بطريقة مسا، أو بالسكوت عن ملاحقة الشيخ صقر بن زايد لابن أخيه الشيخ شخبوط، فى إردىاد الصراع السياسى، وقد يكون لموقف بريطانيا السلبى تجاه شخبوط إن لم يكن أنها قد وقفت ضده، بعد اعترافها لقاتل أبيه الشيخ صقر بن زايد، والمعاناة أثناء الهرب

واللجوء من منطقة إلى أخرى فى البر والبحر، خوفاً على حياته وحياة إخواته وأسرته، وحتى استطاع العودة والحكم بمساعدة عمه الشيخ خليفه بن زايد.

خلقت بريطانيا توتراً فى العلاقات بين شخبوط وحاكم دبی قبل وبعد تولی شخبوط الحكم، حتى تستطيع كسب الأخير إلى جانبها، لكى يطلب التوسط، وإذا لم يتمكن شخبوط من السيطرة على الأمور فإنه كان لابد أن يسقط، وهذا ما كانت تريده بريطانيا، ولكن مساعدة قبائل «العوامر» و«المناصير» و«المناهيل» القوية، منعت بريطانيا من تنفيذ مآربها ومخططاتها لهذا الحاكم، الذى عرف كيف يلعب معها نفس الدور بحذر قبل أن يسقط بعد فترة طويلة من الحكم فيما بعد. كل ذلك دفع شخبوط أن يكره بريطانيا، واتخاذ مواقف معادية لها، ولكنه لا يستطيع الخروج من التبعية البريطانية، التى كانت تعلم ذلك، ولكنها لم تكن تستطيع إقالته أو منعه من الحكم فى تلك الفترة بالذات، لأن الأسرة الحاكمة وقبائل أبوظبى هى التى كانت اختارته، إضافة إلى والدته التى منعت أبناءها من التعرض لأخيهم، فسكتت بريطانيا على مضمض حتى تسنح لها الفرصة المناسبة لخلعه، فى الوقت الذى نلاحظ تصرفات شخبوط المتحفظة ضد بريطانيا طوال حكمه كانت تدل على ذلك.

استمر الوضع فى ساحل عمان الجنوبى بين أبوظبى ودبى غير مستقر منذ تولی شخبوط الحكم، والذي أثر سلباً على دبى وازداد التوتر وأعمال العنف بينهما برغم المحاولات العديدة للصلح، وقد يرجع أيضاً هذا الاضطراب فى العلاقات، إلى طرد أبناء صقر بن زايد، ولجوئهم إلى دبى، كما يرجع إلى عدم استقبال شيخ دبى لشخبوط عندما تمكن من الهرب من أبوظبى، وحاول اللجوء إلى دبى، ولكنه لم يتمكن من مقابلة شيخها الذى تعلل واعتذر، فتوجه إلى الشارقة، ومنها إلى قطر.

زاد فى تعكير العلاقات فى ساحل عمان الجنوبى، قيام حاكمى دبى وأبوظبى بتحريض حلفائهم من القبائل ضد الآخر. ففى الوقت الذى قام شيخ دبى بتحريض قبائل بنى قتب ضد شخبوط، فإن الأخير قام بتحريض حلفائه من قبائل «العوامر» و«المناهيل» و«المناصير» ضد دبى وبعد تدخل بريطانيا التى كانت

السبب فيها، حدث تفاهم ولقاء بين الجانبين في الشارقة، وأسفر في إعادة العلاقات الودية بينهما.

شهدت الأعوام الأخيرة من حكم الشيخ شخبوط، بداية اكتشاف النفط وتصديره منذ عام 1962، مما أعطى مزيداً من الأهمية والاستقرار للمشيخة، وفي نهاية ذلك العام أنشئت في أبوظبي وكالة سياسية بريطانية خاصة بها، بينما كانت قبل ذلك تخضع للوكالة السياسية البريطانية القائمة في دبي، وكذلك تم الاتفاق بين شخبوط وبين السلطات البريطانية في ذلك العام على أن تكون السيادة القضائية على الأجانب في المشيخة في أيدي المحاكم المحلية، وأشرف أحد القضاة البريطانيين على وضع مجموعة من القوانين الخاصة بأبوظبي.

أخذت هذه المشيخة تتمتع بالثروة النفطية، وبدأ معه شخبوط في التغير الاجتماعي بخطوات ثابتة وبيطء، حتى لا يصبح سكان أبوظبي أقلية في بلادهم كما حدث بالنسبة لبعض مشيخات المنطقة، وكان يعتقد أن نتائج التحديث السريع لن تكون في صالح مشيخته قبل خلق كوادر محلية قادرة على استيعاب التطور الجديد، ومستعدة لهذا التغير⁽⁴⁹⁾.

اتسمت من هنا تصرفات شخبوط بالتردد والحذر، وقد يكون له وجهة نظره الخاصة إزاء ذلك، على أننا ينبغي أن نقرر هنا أن تصرفه تجاه الأموال التي كان يتحصل عليها من عائدات النفط لم تكن بمثل تلك السخريّة التي أشيعت عنه، وخاصة مطالبة بريطانيا له بزيادة ضخ النفط لكي يحصل على عوائد أكبر، وإن شخبوط، كان يريد الاحتفاظ بالكميات الكبيرة المتدفقة من النفط في باطن الأرض، والأخذ بما تحتاجه مشيخته وشعبه، وعدم الإهدار، والاحتفاظ للأجيال القادمة، والتي تستطيع التحكم فيها حسب مصلحتها في المستقبل، بعد تعلمه وأخذه بالأساليب الحديثة. ويتقد شخبوط جيرانه الذين عرضوا بلادهم لهزات اجتماعية شديدة، وكذلك رفض مقترحات بريطانيا لإقامة مشاريعه الضخمة والتي تنفذها شركاتها الرأسمالية، لمجتمع قبلي صغير على أساس أنها قدمت إليه مشاريع أكبر من احتياجات أبوظبي، وخاصة لما تستلزمه من آلاف العمالة الأجنبية⁽⁵⁰⁾.

الهوامش:

- (1) - جى . ب . كيلي - الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية . مشهورات دار مكتبة الحياة - بيروت 1971 ص 141 .
- (2) فالح حنظل - المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة . ج 2 - لجنة التراث والتاريخ - أبوظبي 1983 - ص 252
- (3) - فالح حنظل - نفس المرجع ص 252 .
- (4) - صلاح سالم زرنوقة - أنماط الاستيلاء على السلطة في الدول العربية - مكتبة مدبولي - القاهرة - 1993 ص 201 .
- (5) - حمدي تمام - زايد بن سلطان - القائد والمسيره - طباعة شركة داي نيون ليمتد طوكيو - الناشر حمدي تمام محمد - أبوظبي 1981 ص 41 .
- (6) - حمدي تمام - نفس المرجع ص 41 .
- (7) - حمدي تمام - نفس المرجع ص 43 .
- (8) - د . صلاح العقاد - التيارات السياسية في الخليج العربي - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة 1974 ص 287 .
- (9) - حمدي تمام - المرجع السابق ص 44 .
- (10) - جى . ب . كيلي - المرجع السابق ص 208 .
- (11) - حميد بن سلطان بن حميد الشامس - نقل الأخبار في وفيات المشايخ وحوادث هذه اليار - ديار الفكر الجديد - أبوظبي 1986 ص 75 .
- (12) - د . صلاح العقاد - المرجع السابق ص 287 .
- (13) - جى . ب . كيلي - المرجع السابق ص 209 - وانظر - مذكرة المملكة المتحدة الجزء الثاني - الملحق - ب - رقم 23 من وكيل المقيم إلى المعتمد السياسى فى 13/8/1926
- (14) - جى . ب . كيلي - نفس المرجع ص 209 .
- (15) - د . جمال زكريا قاسم - الخليج العربى - دراسة لتاريخ الإمارات العربية 1914 - 1945 - دار الفكر العربى - القاهرة 1973 ص 302 .
- (16) دار المقيمة السياسية البريطانية فى الخليج العربى . I. O. R- L/P 5/10/1177 بوشهر - موجز أخبار ساحل عمان لشهر سبتمبر 1926 - الفقرة (53) - مقتل الشيخ سلطان بن زايد - حاكم أبوظبي - صفحة (27 - 58) .
- (17) نفس المصدر . I.O.R. - L/P. & 5/10/177 .
- (18) دار المقيمة السياسية البريطانية فى الخليج العربى - موجز أخبار ساحل عمان لشهر نوفمبر 1926 الفقرة (71) - صفحة (48) .

I.O.R. L/P/& 5/10/1177. (19)

دار المقيمة السياسية البريطانية في الخليج العربي - موجز أخبار ساحل عمان لشهر ديسمبر 1926 وفقرة رقم (80) والفقرة رقم (71) - صفحة (53).

I.O.R. L/P/15/1/265 (20)

رسالة من عيسى بن محمد نائب الحاكم في جزيرة دلم - إلى الشيخ صقر بن زايد - حاكم أبوظبي - 4 شعبان 1345 - الموافق 1927 / 2 / 7 - صفحة (74) لعام 1927.

I.O.R. L/P/15/1/265. (21) نفس المصدر

I.O.R. L/P/15/1/265. (22) نفس المصدر

رسالة من الوكيل البريطاني في ساحل عمان - بالشارقة - إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي عن أحداث أبوظبي لعام 1927.

I.O.R. L/P/15/1/265. (23) نفس المصدر

I.O.R. L/P/15/1/265. (24) نفس المصدر

رسالة الشيخ صقر بن زايد حاكم أبوظبي الموجهة إلى وكيل السياسي البريطاني في ساحل عمان بالشارقة - المؤرخة في 26 شعبان 1345 - الموافق 1927 / 3 / 1 - صفحة (66) لعام 1927.

I.O.R. L/P/15/1/265. (25)

رسالة من الشيخ عبدالرحمن بن قاسم بن ثاني نائب حاكم قطر في إقليم «الوكرة» - إلى الشيخ صقر بن زايد حاكم أبوظبي - بتاريخ 4 رمضان 1345 - الموافق 1927 / 3 / 7 - صفحة (76) لعام 1927.

(28) - د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص 30.

(29) - د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص 303.

I.O.R. L/P/15/1/265. (30)

مذكرة من وكيل البريطاني في ساحل عمان بالشارقة إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي - بوشهر - بتاريخ 1927 / 3 / 9 - صفحة (65) - 66 لعام 1927.

I.O.R. L/P/15/1/265. (31) نفس المصدر

I.O.R. L/P/15/1/265. (32)

من الوكيل البريطاني في ساحل عمان بالشارقة إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي - بوشهر - رقم 91330 بتاريخ 1927 / 4 / 18 - صفحة (67) لعام 1927.

I.O.R. L/P/15/1/265. (33)

- رسالة من الشيخ صقر بن زايد - حاكم أبوظبي إلى المقيم ك. ب. - هو - هاورث -

- المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى - بوشهر - بتاريخه 26 صفر 1346 - الموافق 12/8/1927 - صفحة (84) - لعام 1927.
- (34) - د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص 286.
- (35) I.O.R. L/P/15/1/265.
- مذكرة من الوكيل البريطانى فى ساحل عمان - بالشارقة - المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى - بوشهر - 9/1/1928 - صفحة (92) لعام 1928.
- (36) نفس المصدر I.O.R. L/P/15/1/265.
- (37) I.O.R. L/P/15/1/265.
- مذكرة من الوكيل البريطانى فى ساحل عمان - بالشارقة - إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى - بوشهر - 25/1/1928 - صفحة (96) لعام 1928.
- (38) نفس المصدر I.O.R. L/P/15/1/265.
- (39) - د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص 304.
- (40) - د. صلاح العقاد - المرجع السابق ص 287.
- (41) - د. صلاح العقاد. نفس المرجع ص 204.
- (42) Clarenc Men Great Britain Central office of information - the Arab States of the Persian Gulf and East Arabia - London - P.00.
- (43) I.O.R. L/P/15/1/265.
- (44) I.O.R. L/P/15/1/265.
- مذكرة من الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة - إلى المقدم - هاروث - المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى - بوشهر - بتاريخه 1/5/1928 صفحة (99) لعام 1928.
- (45) - ويلفرد ثيسجر - الرمال العربية - موتيف ايت للنشر - أبوظبى 1991 ص 267.
- (46) ويلفرد ثيسجر - نفس المرجع ص 267.
- (47) - ادورد هندرسون - ذكريات عن الأيام الأولى فى دولة الإمارات العربية وعمان - روتيف ايت للنشر - دبی - 1991 - ص 31.
- (48) - ادورد هندرسون - نفس المرجع ص 77.
- (49) - د. جمال زكريا قاسم - الخليج العربى - دراسة لتاريخ الإمارات العربية 1945 - 1971 - دار البحوث العلمية - الكويت - 1978 ص 25.
- (50) - د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص 25.

الفصل التاسع



ظفار بين الماضي والحاضر

قدم هذا البحث إلى - الندوة العلمية عن ظفار بين الماضي والحاضر - وزارة التراث القومي والثقافة - المنتدى الأدبي - صلالة في 19 - 21 أكتوبر 1997 - عمان .

ظفار بين الماضي والحاضر

تستأثر ظفار باهتمام الباحثين الغربيين لما ورد عنها في الكتب المسيحية وخاصة «الإنجيل»، كما أنها تشكل الحدود الشرقية لأسرة القحطانيين ومن كونها أحد مصادر اللبان في العالم. ففي الفصل العاشر من «سفر التكوين» نقف على تقسيمات الجنس العربى من خلال أسماء أولاد سام فقد استولى أحد أحفاد هؤلاء الأبناء وهو قحطان على الجزء الجنوبي الغربى لشبه الجزيرة العربية ومن بين هؤلاء الأسماء الثلاثة عشر اللذين انحدروا من ذلك الجذء المؤسس وهو موطن هذه الأسر كما جاء فى الفقرة الثلاثين هو «مينا» وهو المكان الذى يقع فى اتجاه «سفار» أى «ظفار» وهو جبل يقع فى الشرق، وبالتالي فإن اسم وأوصاف ظفار وهى التى تقع إلى الشرق من حضرموت تتطابق مع أوصاف «سفار» أى «ظفار» كما ورد ذكرها فى الإنجيل وقد جاءت الأوصاف متطابقة ودقيقة، أما المخطوط السكندرى فى المتحف البريطانى فإنه يحدد بدقة أكثر الاسم وهو «سوفار» أى «ظفار»، وقبل الفترة التى تناولها الإنجيل بوقت طويل ورد فى السجلات المصرية القديمة مما يعنى أن ظفار كانت ميناء مزدهرا وسوقا رائجة فى فترة مبكرة من التاريخ وأنها كما يذكر «برنجر» كان إنتاجها من اللبان الذى كان واحداً من أثمن وأغلى المنتجات وكان اللبان فى تلك الفترة من المواد العطرية التى تستخدم فى المعابد وكان الطلب عليه كبيراً وكان يتم نقله بالبحر إلى جميع أنحاء العالم شرقاً وغرباً وشمالاً، ولهذا أقدمت مملكة «حمير» على ضم ظفار وبالتالي تمكنت من احتكار تجارة اللبان الرابعة، وقد حاول بعض الجغرافيين العرب أن يخلطوا بين هذا الظفار وأخرى وإنه ثمة مدينتين بنفس الاسم تعرف إحداهما بظفار آل زيد قرب صنعاء والأخرى بظفار حضرموت الساحل فقد سقطت الأولى بنهاية الأسرة الحميرية فى القرن السادس ولم يكن عمرها يتعدى أكثر من ستة قرون بينما ظفار حضرموت الساحل استمرت فى التوسع والازدهار وبقيت لآلاف السنين ميناء مزدهرا كثيف السكان(1).

وصل عكرمة إلى ظفار حضرموت قادما من عمان بعد أن تمكن من إخماد نار الفتنة بعد حروب الردة فى منطقة «دبا» والذى كان الخليفة أبو بكر أرسله بعد

وفاة الرسول ﷺ بعامين لإعادة تثبيت الدعوة الإسلامية، وكان عكرمة قد ترك حذيفة في عمان لاختضاع القبائل وعبر الصحراء التي تفصل إلى ظفار حضرموت، وسرعان ما نجح في إعادة تثبيت العقيدة الإسلامية فيما بين المهرة وقبائل الازد في عمان ثم رحف منها إلى حضرموت الداخل لفرض الطاعة والانضباط وبعد أن تحقق له ذلك عين سعيد بن لبيد حاكما على الإقليم، وخلال القرنين التاليين ترسخت جذور الدين الإسلامى، وقد خلف عباس بن سعيد بن العاص كوال على اليمن، جليه بن على عمير الذى فصله الخليفة عام 655 وعين بدلا منه عبدالله بن عباس وبانتهاء حكم الأمويين عام 749 عين محمد بن زيد واليا على الإقليم ويحتمل أن تكون سلطة ذلك الوالى قد شملت ظفار وحضرموت، وعين محمد بن زياد أميرا على اليمن عام 719 وبعد استيلائه على تهامة، بنى مدينة «زبيد» وجعل منها عاصمة حكمه واستطاع هذا بسياسته الشديدة أن يوسع من آفاق سلطته لتشمل حضرموت وظفار وغيرهما من المناطق وعين عليها ولاة من اختياره، ولم تستطع أسرة بنى زياد أن تدوم طويلا فقد ثارت عليها ظفار عام 900، وقد ورد فى صفات جزيرة العرب لأحمد بن يوسف الهمداني المتوفى عام 945 بعض الملاحظات عن قبائل ظفار كما نقلها د. «سبرنجر» والتي يمكن أن نذكر بعضها: (2).

«إن الأقاليم الذين يقطنون المنطقة السفلى من جبال «القمر» هم من بنى «خنزريت» وكان هؤلاء قد طردوا سكان «ريسوت» منها ثم انسحبوا إلى منطقة «الغيث» التابعة «للمهرة» واحتلوا بلدة «حاسك» و«مرباط» لفترة من الوقت إلا أن قبيلة «ثفارة» شجعتهم فيما بعد على استرداد «ريسوت» وطرد سكانها «الخنزريت» منها، أما زعيمهم محمد بن خالد فقد توجه مع قبيلته «الخنزريت» إلى «الرضا» التابعة «لبنى ريام» وهى فرع من قبيلة «القمر» استقرت هناك، أما السكان الأوائل «لريسوت» فهم «البياسرة» والتي كانت قبيلة حديد «الازدية» تسكن بجوارهم إلا أن قبيلة «حديد» قد اقصيت من جانب إحدى القبائل العربية التي كانت قد تزوجت مع «المهرة»، وأن الرجل الذى حكم المنطقة فيما بعد هو موسى بن ربيعة بن عبدالدار».

تاريخ مرباط:

عرفت «مرباط» منذ القديم كميناء تجارى مهم وكانت عاصمة ظفار، وكانت تقع على الطرف الشرقى للسهل الذى تقع عليه الآن قرية «طاقة» حيث لا تزال توجد آثار مدينة كبيرة كثيرة السكان أما مرباط نفسها والتي تمثل ميناء تجارياً والذى ذكره الجغرافيون العرب الأوائل فإنها تقع على بعد عشرين ميلاً تقريباً إلى الشمال من مدينة مرباط الحالية والتي كانت كميناء تحمى السفن من عواصف الرياح الموسمية، ومدينة مرباط القديمة تتوافر فيها مصادر وفيرة للمياه العذبة القادمة من الجبال وكان فيها ثلاثة خلجان كلها مرافئ للسفن التجارية وأشار إليها كل من «هينز» و«كارتر» و«تروينت» وكان أكبر تلك الموانئ يسمى «روى» ويمتد إلى مسافة ميلين تقريباً، إلا أن مدينة مرباط القديمة والتي تميزت لقرون كثيرة بوصفها الميناء والسوق الرئيسية لتجارة اللبان فقد انتهت فجأة فى منتصف أو نهاية القرن الهجرى الرابع عندما استولت أسرة «المنجوى» على مرباط ثم قاموا بتدميرها ونقل العاصمة إلى ضفة أحد الخلجان الواقع على بعد عشرين ميلاً تقريباً إلى الغرب وأنشأوا فى موقع إحدى المدن القديمة مدينة أخرى فى نفس الموقع الذى يضم الآن الآثار ويسمى «البلاد» أو «البليد» وهى نفس المنطقة التى ذكرها «كارتر»، ويقول ابن «الأثير» فى كتاب الكامل بأنه توفى حاكم ظفار راشد بن أحمد بن عبده عام 1096 وبأن قبيلة «القمر» قد اتصلت فى عام 1116 بعبد الله بن راشد تطلب مساعدة من قبائل ظفار وقد قدمت لهم تلك المساعدة، ويذكر الإدريسي بأن حاكم ظفار فى عام 1145 كان أحمد المنجوى⁽³⁾.

الإمام صاحب مرباط

ولد الإمام محمد بن على بن علوى حفيد الإمام أحمد المهاجر بن عيسى بن على العريضى بن جعفر الصادق حفيد الإمام الحسين بن على أبى طالب عليهما السلام فى مدينة «تريم» وتلقى العلم عن أكابر العلماء فى حضرموت واليمن والحرمين وحفظ القرآن وهو الجد الجامع الذى يرجع إليه جميع العلويين من نسل الإمام أحمد المهاجر فى الجزيرة العربية وعرف بصاحب مرباط لسكنائه بها وكونه توفى وقبر بها، ولا يعرف تاريخ مولده وقد يكون عام 1120 تقريباً.

استطاع الإمام صاحب مرباط أن يخرج كثيرا من النوابغ كابنه الإمام علوى وكذلك شيخ الإسلام سالم بأفضل والقاضى أحمد باعيسى والشيخ سعد الدين الظفارى، والشيخ على بن عبدالله الظفارى وأولاده الأربعة وغيرهم⁽⁴⁾.

انتفع بصاحب مرباط كثيرون فى العلوم والمعارف من جميع الفرق والمذاهب الموافق معه والمخالف، وكانت له زعامته الاجتماعية ومكانته الشعبية وقوة الشخصية وله هبة بين العشائر والسلاطين وكانت القوافل تسير فى خفارته حين تمر عليه «بيت جبير» حتى تصل إلى ظفار وكان يقوم بدوره فى تحسين العلاقات بين الدولتين الراشدية فى حضرموت و«المنجوية» فى ظفار مما كان له أثر فى تحسين الأحوال فى البلدين، كما كان لإمام صاحب مرباط الفضل فى إدخال مذهب الإمام الشافعى والعقيدة السنية، فقد قام بمثل الدور الذى قام به جده الإمام أحمد عيسى المهاجر فى إدخال ونشر المذهب السنى الشافعى بحضرموت، وكما هاجر الأول من البصرة إلى حضرموت هاجر الإمام صاحب مرباط من «تريم» إلى ظفار⁽⁵⁾.

ترجع هجرة صاحب مرباط من حضرموت بسبب حوادث الخوارج واتصالهم بعثمان بن على الزنجلى فى اليمن والمعروف بقسوته وقتله العلماء والفقهاء وذكر هذا أبو مخرمة فى تاريخه «ثغر عدن» وابن «سمرة» و«الجندي» والإمام علوى بن طاهر الحداد فى «عقود اللماس»⁽⁶⁾، وكان مجيء الإمام صاحب مرباط إلى ظفار فى عصر المنجويين وكانت داره فى مرباط مقصدا للزائرين من مختلف الطوائف والعلماء وكانت وفاته عام 1156 و1160⁽⁷⁾ وفى ظفار توجد أسر من العلويين منهم من ذرية الإمام أحمد بن علوى المتوفى بظفار وكذلك الإمام محمد بن أبى بكر بن أحمد العيدروس المتوفى بظفار أيضا⁽⁸⁾ ويرجع تتابع هجرة العلويين نحو مرباط وما حولها لكونها موطن جدهم ولكونها فى طريقهم عند اتجاههم نحو الشرق إلى الهند وجنوب شرق آسيا ومن ذريته فى ظفار حاليا أسرة «الكاف» والعيدروس و«باعمر» وبن «حفيظ» و«الذهب» و«العلوى» و«الغزالي» وغيرهم⁽⁹⁾.

أسرة المنجوى

حكمت أسرة المنجوى سلطنة ظفار فقد نقل أن فيهم علماء وقال المؤرخ أبو مخرمة في ترجمة عبدالمؤمن الأصبحي الظفاري: «أنه نفقه بسعد المنجوى» كما ذكره المؤرخ «شنبل» الذي اسمه «حارثة»، فقد قال «شنبل» في حوادث عام 605هـ الموافق 1208 بقوله: «وفي ذى العقدة قتل والي ظفار الذي يدعى إنه ابن حارثة بن منجوه» ومنهم السلطان الأكحل المنجوى وهو الذي تولى على مرباط واسمه محمد بن أحمد الأكحل ذكره المؤرخ الطيب أبو مخرمة فقال: سلطان مرباط قال الجندی: من قوم يقال لهم المجويون من بيت يقال لهم «ال بلُخ» بضم الباء واللام وآخره خاء معجمة ونسبهم في قبيلة «مذحج» وكان واحد زمانه كرما وحلما وتواضعا، وقيل عن مكارمه إن وفداً من أعيان حضرموت قصدوه وحملوا له هدايا تناسب أحوالهم ولكن فقيرا صحبهم وعندما سمعهم يذكرون هذا السلطان بالجوود والكرم كما سمعهم يذكرون ما لديهم مما أعدوه هدايا للسلطان اجتتى اضغاثا من الأرك عدده سبعة اعود وجعله حزمة فعندما وصلوا مدينة مرباط مقر السلطان الأكحل ودخلوا عليه وقدموا اليه الهدايا دخل معهم هذا الفقير فسلم ثم وضع حزمة «الارك» بين يدي السلطان الأكحل وانشد:

جعلت هديتي لكم سواكا ولم اقصد به أحدا سواكا

فقد أهديت عودا من اراك لعلی أن أعود وأن أراكا

فما كان من السلطان الأكحل المنجوى إلا أن أعطاه مثلما أعطى سائر ضيوفه الذين قدموا له الهدايا، وجعل له جاريتين ووصيفا يخدمونه مدة إقامته وعند عودته إلى وطنه اعطاه من كل ما في خزائنه سبعة أجزاء فما كان يورن بالبهار كالحديد اعطى سبعة ابهرة وما هو بالثقيل كالزعفران أو بالمكيال يعطى من كل سبعة سبعة، مما يدل على تأصل الكرم العربي في هذه الأسرة العربية، ولما لم يكن للسلطان الأكحل عقب ولم يكن في أهله من هو كفء حيثئذ للقيام للسلطنة وكان إذ ذاك رجل يعمل بالتجارة للسلطان وهو محمد بن أحمد «الحبوظي» فقد قام الأخير بالسلطنة بعد وفاة الأكحل⁽¹⁰⁾.

أسرة الحبوظي:

تولى محمد بن أحمد الحبوظي بتأييد سكان ظفار الولاية بعد وفاة الأكلحل واضطلع بأعباء السلطنة ولم تطل مدته وإنه توفي قبل عام 1223 وقد كان محمد هذا هو مؤسس الدولة الحبوظية بظفار، وتولى بعده الحكم ابنه أحمد بن محمد الحبوظي وكان جواداً شجاعاً شهماً حسن السيرة وهو الذي أنشأ مدينة ظفار الجديدة عام 1223 وطلب من سكان مرباط أن ينقلوا إليها فسميت باسمه واشتهرت بظفار الحبوظي، واستغرق بناؤها ثلاثة أعوام وكان الدافع الواضح من عمله هو أن العاصمة القديمة تبعد كثيراً عن الساحل وبالتالي فإن موقعها بعيداً عن مرافئ السفن حيث يجعلها غير مفيدة وهذا يرجع لكون أسرة الحبوظي عملت بالتجارة ويريد انعاش ظفار تجارياً ولهذا نقل العاصمة لدوافع تجارية اقتصادية.

ثار سكان ظفار على أحمد بن محمد الحبوظي وخلعوه واعتقلوه ونصبوا ابن أخيه مكانه فلما لم يجدوا ابن أخيه المذكور على ما توسموا فيه وسار فيهم سيرة غير مرضية وبلغ خبر ذلك إلى عمه أحمد بن محمد وهو في المعتقل كتب من معتقله إلى الوزير وأعيان دولته أودعه هذه الأبيات:

حاشاكم أن تئذطعوا صلة الذي أو تصرفوا علم المعارف أحمداً
هو مبتدأ لمجباء ابنا جنسه والله يأبى رفع غير المبتدا
اغريتم الزمن المعائد باسمه وحذفتموه كأنه ياء النداء

يلاحظ في هذه الأبيات دلالتها على اطلاع هذا السلطان الحبوظي على النحو والبلاغة إذ كلها تورية نحوية لا يدركها إلا من يعرف البلاغة، وعندما قرأوا رسالته وشعره أطلقوه وعزلوا ابن أخيه وأعادوه واليا عليهم، وبالرغم من ذلك لم يفكر السلطان أحمد الحبوظي في الانتقام من الذين كانوا قد ثاروا عليه واعتقلوه فلم يحدث إليهم ولا إلى ابن أخيه المعزول شيئاً يكرهونه بل عفا وصفح عنهم، ولم يذكر الطبيب أبو مخرمة تاريخ وفاته ولكن المؤرخ شبل ذكر ذلك فقال وفي عام 628هـ الموافق 1230 توفي ابن الحبوظي في رجب، وكانت الولاية لابنه ادريس بن أحمد الحبوظي وقد طالبت مدة ولايته على ظفار إلى نحو اثنتين وأربعين عاماً إذ توفي عام 670هـ في شهر رمضان الموافق 1271 وعند ذلك تولى

ابنه النابغة الشهير سالم بن ادريس الحبوظي، واصل الحبوظيين يرجع من حضرموت ولكنهم انتقلوا منها إلى ظفار ولعلهم ينسبون إلى «حبوظة» بلدة أو قرية كانت بحضرموت ولم تتفق المصادر التاريخية على كيفية استيلاء سالم الحبوظي على حضرموت ويقول المصدر الحضرمي بأنه اشترى مدينة شبام من سكانها وهم «بنو سعد» وخرج إلى حضرموت ثم إنه دخل مدينة «تريم» مع أفراد قبيلة «نهد» وحاصر فيها حاكمها ابن مسعود واستمر الحصار ثلاثة أشهر ثم استولى على مدينة «دمون» و«العجز» و«الغيل الأعلى» و«سيئون» وذلك في عام 673هـ الموافق 1274 ولما عجز ابن مسعود حاكم تريم عن مقاومة الحبوظي بعث بابنه إلى ملك اليمن يستنجد به فلم ينجح ولكن ابن شماخ حليف ملك اليمن وزعيم قبيلة «خيشمة» من «نهد» أقبل بعسكر امدادا لابن مسعود لمقاومة الحبوظي مما جعل الحبوظي يتحول من تريم إلى دمون ثم إلى شبام وهناك اجتمع بأخيه موسى بن ادريس الحبوظي ولعله رأى الوضع غير مناسب فقرر العودة والرحيل إلى ظفار بعدما قام بتولية آل كثير على مدن وقرى حضرموت وبفتنة ابن الحبوظي التي اشتدت فيها مقاومة ابن مسعود، خلت مدينة تريم من سكانها فلم تقم بها جمعة مدة إقامة الحبوظي بحضرموت وهي تسعة شهور⁽¹¹⁾.

ترك الحبوظي برغم قصر حكمه في حضرموت آثارا عديدة وأموالا كثيرة اطيانا ونخيلا وغيرها وأقام صدقات وأوقافا على المعوزين بكثير من المدن والقرى الحضرمية، وقد انتفع بها سكان حضرموت⁽¹²⁾ ولا زالت بعض تلك الأوقاف باقية إلى يومنا هذا.

حملة الملك المظفر الغساني

أرسل الملك المظفر يوسف بن عمر الرسولي - وينتمون إلى جيلة بن الأيهم الغساني⁽¹³⁾ - حملة إلى ظفار، وقد ترجع أسباب الحملة إلى أن الملك مظفر كان قد بعث بهدية إلى ملوك «الهرمز» مع بعض التجار فرست بهم الرميح إلى ساحل ظفار فاستولى ابن الحبوظي على تلك الأموال والهدايا، فكتب إليه المظفر يقول: «إنه لم تجر بذلك عادة من أهلك ونحن سنحاسبك على قطع السبل وأنت تعلم ما بيننا وبين والدك من الصحبة والمكافأة بيننا غير أننا نتأدب بأداب القرآن فإن الله

تعالى يقول: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا. وقيل إن ابن الحبوظي ازداد غلظة ورد له بجواب قال فيه: «هذا الرسول فأين العذاب» وقد تكون هذه التصرفات راجعة إلى العداوة والتنافس على حضرموت بينهما وكان ابن الحبوظي قد هاجم «الشحر» وهي تحت سيطرة الملك المظفر وبها «الغز أي الممالك أو العبيد» قد دحروها منها بالرغم من استعداده لهم بقوات بحرية وبرية وانتهى به المطاف إلى الرجوع إلى ظفار⁽¹⁴⁾.

يرجع ذلك أيضاً إلى العداوة بين ابن الحبوظي والملك المهدي حاكم «هرمز» الذي هاجم ظفار عام 658هـ الموافق 1259 ونال من سكانها بالقتل والأسر ثم انسحب، إضافة إلى ذلك فإن حاكم «الشحر» «راشد بن شجعنه» قال بأن ابن الحبوظي قد اتصل به واستماله إليه ثم اغراه وشجعه على الانفصال عن طاعة ملك اليمن والتخلص من دفع الخراج السنوي الذي اعتاد تقديمه إليه، فعند ذلك جهز المظفر على الحبوظي جيشاً بقيادة الأمير غازي بن المعمار الذي فشل في الاستيلاء على ظفار مما شجع ابن الحبوظي فأرسل حملة عسكرية إلى عدن فلم تنجح وكان المظفر في الجند فاستشاط غضباً ونزل إلى عدن وجهز بنفسه الحملة على ظفار وقسم الحملة إلى ثلاث فرق الأولى عن طريق البحر والثانية عن طريق ساحل حضرموت والثالثة عن طريق داخل حضرموت، أما الفرقة التي في البحر فكان على رأسها القائد سيف الدين سنقر «الزنجلي» نقيب الممالك البحرية وأما الفرقة الثانية عن طريق ساحل حضرموت فكانوا أربعمئة فارس من الممالك وحلفاء السلطان المظفر فجعل على الممالك القائد حسام الدين لولو النوريزي وعلى الحلفاء القائد فيروز وعلى الجميع الأمير «ازدمر» أما الفرقة الثالثة عن طريق حضرموت الداخل أو «نجد» حضرموت فكانوا ثلاثمئة فارس بقيادة الشيخ بدر الدين عبدالله بن عمر بن الجنيد وهم من العرب فاخترقوا حضرموت عنوة ولم تزل كل فرقة تسير على حسب الظروف وطبيعة الميدان بسهولة الطريق ووعورتها على مقدار ما يعترضها من العراقيل وأما أكثرها محفوفة بالمخاطر الفرقة العربية التي كانت طريقها من داخل حضرموت فما فارقوا الحرب ليلة واحدة لأنها كانت مشحونة بقلع ابن الحبوظي ولم يكن بها من أحلاف المظفر حتى إن ابن شماخ وابن مسعود كانا يميلان إلى ابن الحبوظي ولم تصل هذه الفرقة إلى ظفار إلا بعد

خمسة أشهر من خروجها من صنعاء ولم يبلغ إلى ظفار الحبوظي إلا مائة فارس وثلاثة عشر رجلاً، أما فرقة ساحل حضرموت فأنها كانت صعبة لوعورة الطريق والجبال ولكنها لم تكن خطرة لعدم وجود مقاومة لابن الحبوظي فكانوا يسرون بمحاذاة السفن الحربية التي فيها رادهم وعتادهم فإذا التوت الطريق وأبطأ عليهم المؤونة تعبوا وكانت السفن مشحونة بأنواع الأسلحة وأدوات وآلات الخيل وغيرها وكانت الأسواق فيها قائمة كأعظم ما تكون الأسواق في المدن وفيه من جميع أنواع الطباخين والخبازين وأرباب الصناعات ولم يزالوا حتى اجتمعوا معا في ميناء «ريسوت» (15).

أقبلت السفن في ميناء «ريسوت» والأعلام منشورة وفي الخزانة أكثر من أربعمئة ألف دينار ملوكية وأما القماش من البندقى والسوسى والموصلى والزبيدى وقال الخزرجى: «فله دره من ملك ملأت البحر والبر كتائبه ووسع العرب مواهبه ورغائبه».

ولما اجتمعت القوات العسكرية في ميناء «ريسوت» فكانت تتكون من خمسمائة فارس، سبعة آلاف راجل ولم يكن في ظن قائد القوات اليمنية «ازدمر» أن يبرر لهم سالم الحبوظي، فما رأى القوم إلا أن أقبل أهل ظفار يقدمهم ملكهم ابن الحبوظي مستقبلاً جيش المظفر الكبير دون خوفاً ثم اصطدم الجيشان وجرى قتال كبير وصمد الجيش الظفارى برغم قلة عدده وعتاده أمام كثافة الجيش اليمنى وعتاده المتطور الذى كان يستخدمه الأيوبيون وقواده وكان خسائر الجانبين أكثر من خمسمائة رجل وكانت هزيمة أهل ظفار بعد ما قتل منهم ثلاثمائة رجل في حين قتل من اليمن مئتان وقتل حاكم ظفار ابن الحبوظي والذى لم يعرف إلا بمصحفه الذى كان يصحبه معه دائماً أينما كان وفي جميع الأوقات، عرفه به أخوه موسى وأخذ الرأس ودفنه (16).

دخلت أعلام المظفر ظفار وكانت الواقعة يوم السابع والعشرين من رجب 678هـ الموافق 1279، وقبض الأمير «ازدمر» قصر ظفار، وبعد هذا استولى على مدينة شبام بحضرموت في يوم الثامن من شهر رمضان نفس العام وقد قبض جيش مظفر على كافة بنى الحبوظي فحملوهم إلى «رييد»، ثم أن الملك المظفر

اقطع ظفار لابنه الواصل واسمه ابراهيم الذي اتجه إليها بطريق البحر من عدن وكان حسن السيرة وتوفي بظفار عام 711 هـ الموافق 1311 واستمر حكم الرسولين حوالى قرن ونصف تقريبا.

وصل الرحالة «ماركو بولو» إلى مرباط عام 1285 ووصفها بقوله:

«وظفار بلد عريق وجميل، ويقع على منطقة تبعد مسافة 500 ميل إلى الشمال الشرقى من مدينة «الشحر»، وسكانها عرب ويحترمون زعيمهم الذى يخضع لسلطان عدن لأن هذه البلدة لاتزال تابعة لعدن وهى تطل على البحر ولها ميناء جميل يتيح لحركة نشطة بين السفن ويقوم التجار بنقل اعداد كبيرة من الخيول العربية إلى الأسواق ويربحون من ورائها أرباحا طائلة وللبلدة قرى ومناطق كثيرة تابعة لسلطتها وهى تنتج كميات هائلة من اللبان وسوف أقص عليكم كيف يتم انتاج هذه المادة فأشجار اللبان تشبه أشجار التنوب الصغيرة ويتم شق شقوق فى مواضع عديدة فيها بالسكين ومن تلك الشقوق ينبثق اللبان وأحيانا يسيل اللبان من شجرته من تلقاء نفسه عند اشتداد حرارة الشمس».

يتضح من ذلك بأن ظفار كانت مركزا تجاريا مزدهرا كثيف السكان وأن محصولها من اللبان كان المحصول الرئيسى الذى يصدر معظمه إلى الخارج اضافة إلى تصديرها الخيول العربية نظراً لوجود العشب الأخضر، واجتاح ظفار فى عام 1286 اعصار مدمر أحدث دمارا كبيرا فيها وأصاب مزارعها بالتلف ومات كثير من سكانها وأصيبوا بخسائر فادحة، كما اجتاح إعصار آخر ظفار وأحدث دمارا شاملا، كما زار ابن بطوطة ظفار فى نفس العام وقد يكون زيارته قبل الاعصار وكان زار ظفار للمرة الثانية فى عام 1347، ونجحت قبائل آل كثير الذين ينحدرون من الشنافة فى طرد الرسولين من ظفار عندما شن قائدهم الشيخ بدر بن الشهاب الجيرلى هجوما كاسحا وطرد حاكم الرسولين وأسرته بعدما جرده من السلطة واستولى على ظفار، فقد كان الأمير محمد بن أحمد القرا تولى منصب والى «الشحر» فى منتصف رجب 796 هـ الموافق 1393 خلفا لسعيد بن شماسه وفى شهر ذى الحجة من نفس العام اغتيل شهاب الدين أحمد بن عمر الجيرلى فى ظفار وفى العام التالى توفى الأمير ناصر الدين محمد بن عمر الترياقى فى ظفار

وفي عام 798 هـ الموافق 1395 دمرت منطقة «السواقي» و«المحاليف» كما اغتيل الشيخ الحبشى وابنه وتم الاستيلاء على الحصن المعروف باسم «الاحساء» ومن ناحية أخرى خرج بدر الشهاب الجيرلى بجيش من حضرموت إلى ظفار واستولى عليها بعد معركة مع الترياقى كما شن بدر الجيرلى هجوماً آخر فى عام 799 هـ الموافق 1396 على الترياقى فى ظفار وحاصر البلاد ليوم واحد ثم توجه إلى «رويات» متعباً فلول قوات الرسولوى فى انسحابها من المنطقة وبعد تسعة شهور من نفس العام جدد الترياقى بالاشتراك مع ابن جدوان ضربهم فى محاولة لاسترداد المنطقة من بدر الجيرلى الذى كان يسيطر عليها، وهزم فيها الترياقى متكبداً خسائر فادحة بينما انسحب ابن جدوان مع رجاله⁽¹⁷⁾ وبذلك نجح بدر الجيرلى فى طرد الرسوليين وبدأ حكم «ال كثير» لظفار.

أرسل نائب الملك البرتغالى فى «غوا» عام 933 هـ الموافق 1526 اسطولا حربيا ليقوم بأعمال النهب والسلب ضد عرب حضرموت واليمن وفى طريقه رسا الأسطول البرتغالى على ساحل مرباط ثم هاجمها وحاول احتلالها لنهبها واحراقها كما عمل قبل ذلك فى مسقط وقلهات وخورفكان، غير أن الهجوم منى بالفشل الزريع ورد المهاجمون على اعقابهم نتيجة للمقاومة العنيفة التى أبدتها الحكام من «ال كثير» وسكانها من ظفار، ونظرا لهذا الفشل أمر قائد الأسطول البرتغالى بنهب وسلب عدد من قرى ظفار وغادرها عائداً إلى قاعدة فى الهند دون أن يكمل مهمته. وقام البرتغاليون فى عام 1553 بمحاولة أخرى وبائية لاحتلال ظفار لتحقيق حلمهم غير أن المحاولة هذه اسفرت عن كارثة محققة لأسطولهم نتيجة لدفاع حاكمها من «آل الكثير» فقد أظهر السلطان بدر أبو الطويرق مقاومة عنيفة وهزم البرتغاليين فى عدة معارك ومواقع وأهمها فى «الشحر». وكان نائب الملك البرتغالى فى «غوا» قد أرسل لنجله «فرناندس» على رأس أسطول حربى لتدمير التجارة العربية فى سواحل حضرموت واليمن وكان هذا الشاب قائد الأسطول البرتغالى قد عقد العزم على اختبار قوته فى ظفار لكن سكانها وأبناءها بقيادة آل كثير دافعوا عن مدينتهم ببسالة فائقة مما أرغم سفن الأسطول البرتغالى المهاجم على الانسحاب تاركين عدداً كبيراً من القتلى والأسرى فى ساحة المعركة، وأثناء عودة القائد «فرناندس» جرت معركة مع الأسطول العثمانى الذى كان يقوده على

بك بالقرب من مسقط واستولى البرتغاليون على ست سفن من الخمس عشرة سفينة التي كان يتكون منها الأسطول، وفي عام 1292 زار «أوفينجتون» ظفار ووصفها بأنها بلد مزدهر بالتجارة ويقع على الساحل وأنه وجد الناس فيها لا يميلون إلى الأوربيين أو يقدمون لهم الضيافة وأن ظفار تنتج اللبان وجوز الهند والزبدة، كما زار ظفار الكابتن «هملتون» فأيد رأى «أوفينجتون» عن سكان ظفار تجاه الأوربيين بأنه موقف يتسم بالرغبة والحذر ويذكر أنه في عام 1705 رست سفينة بريطانية على ساحل ظفار للتزود بالماء وأن أهلها توافدوا على السفينة يعرضون منتجاتهم للبيع ويقدم الكابتن سيمون نفس الرأي عبر الزيارة لميناء ظفار فيما يختص بما تنتجه من محاصيل وفقا لما ذكره «أوفينجتون» ففي تلك الفترة كان القراصنة قد تعرضوا بالأذى لأهل ظفار⁽¹⁸⁾ وقد يرجع ذلك إلى قوة وشجاعة أهل ظفار وسمعتهم في المنطقة.

جاء في كتاب «عقد الأماس»: تولى حكم ظفار بعد زمن طويل أسرة من السقاف العلوى ثم من الامام أحمد بن علوى بن أحمد بن أبى بكر السكران بن عبدالرحمن السقاف العلوى عام 1205هـ الموافق 1790 وما بعده، وكان الأخير والشهير منهم الإمام محمد بن عقيل وكان جده الامام على بن عقيل توفى بالبصرة عام 1138هـ الموافق 1725 فى حين كان والد الأخير الامام عبدالله بن أبى بكر العلوى المتوفى 1663 أول من نزل من أسرة الامام محمد بن عقيل العلوى فى ظفار، وكان ذا ثروة عظيمة وهمة وشجاعة فائقة وكانت له مراكب تسير إلى سواحل افريقيا الشرقية والهند وأندونيسيا وقد أسر مرة مركبًا هولنديا من ميناء بتافيا «جاكرتا» فى أندونيسيا وهو الذى ذكره علامة عصره الإمام عبدالله بن عمر بن يحيى العلوى بعد رجوع الإمام محمد بن عقيل العلوى من أداء مناسك الحج عام 1238 هـ الموافق 1822 وحروره بمدينة الشحر⁽¹⁹⁾.

عملا الإمام محمد بن عقيل العلوى بالتجارة وكان يتاجر أيضا بالاشتراك مع أخيه عبدالرحمن كما كان الاثنان يمارسان العمل التجارى فى السفن والأملاك الذى كان يملكها والدهما كما كان لهما أخ آخر يقوم فى مكة المكرمة بحمله ضد الاحتلال الفرنسى لمصر ثم جمع أعدادا كبيرة من الاشراف وتوجه بهم من الحجاز إلى مصر واشترك مع المماليك فى عمليات عسكرية ضد الجنود الفرنسيين فى مصر

العليا، وكان الإمام محمد بن عقيل العلوى يستمد قوته ونفوذه من كونه من العلويين ومن سلالة الرسول ﷺ من أحفاد الإمام الحسين رضى الله عنه وكان قد توجه إلى جزر «موريشوس» وعاد منها فى شهر أغسطس عام 1805 ومعه سفيتان جميلتان هما «بنجوين» و«بيجوه» وكانت الأخيرة سفينة غنمها الفرنسيون من البريطانيين واستولوا عليها وقد حملها بكميات كبيرة من الذخيرة والأسلحة وأثناء وجود الإمام محمد بن عقيل العلوى فى جزيرة كمران استولى على سفينة «اسكس» الأمريكية التى كان يقودها الكابتن «إورم»⁽²⁰⁾ وكان نشاط الإمام محمد بن عقيل العلوى موجهاً ضد السفن الأوربية المسيحية التى كانت تنافس وتضايق التجارة العربية والإسلامية فى المحيط الهندى إضافة إلى تخوفه من تزايد النفوذ المسيحى الاستعمارى البريطانى والفرنسى فى المنطقة العربية والإسلامية وخاصة بعد احتلال الفرنسيين لمصر، ومن هنا فإنه لم يكن يثق بالأوربيين المسيحيين المستعمرين أو يرتاح منهم ولهذا كانت أعماله موجهة ضدهم باعتبار الهجوم والجهاد فى سبيل الله خير وسيلة للدفاع ولهذا اتهمه الغربيون وخاصة المؤرخون البريطانيون بالقرصنة وهى تهمة بريطانية موجهة لكل من يعمل ضد المستعمرين المسيحيين البريطانيين ومصالحهم فى المنطقة، كما تعمل إسرائيل وأمريكا حالياً بتوجيه تهمة الارهاب ضد كل من يتعرض لمصالح إسرائيل وأمريكا بصفة خاصة والغرب بصفة عامة.

اهتم الإمام محمد بن عقيل العلوى بالزراعة والتجارة لتحسين أحوال ظفار الاقتصادية وبنى قلعة كبيرة فى مرباط وزاد من أفراد الجيش واهتم بتسليحه كما نجح فى التغلب على قبائل «القرا» الذين كانوا يناصبونه العداء وقد ظل هؤلاء يترصدون له حتى تمكنوا من نصب كمين له أثناء عودته من مرباط إلى ظفار وهكذا انتهت حياته الملتة بالجهاد والكفاح وتطوير ظفار، ويقول «هينز» إن الإمام محمد ابن عقيل العلوى كان تقياً وورعاً وكان يحظى باحترام الجميع لرقته ونزاهته وأن تجارة ظفار وسكانها قد تطورت وزادت خلال عهده ولا يزال للإمام محمد عقيل العلوى معجبه ومريدوه. وعندما وصل خبر مصرع الإمام محمد بن عقيل العلوى إلى سعيد سلطان عمان، أرسل قوة عسكرية للاستيلاء على ظفار عن طريق نجلة محمد الرابع وهو عبدالرحمن غير أن هذا لم يقبل السلطة وعاد إلى مسقط، أما سعيد فإنه سرعان ما أمر بسحب القوات من ظفار⁽²¹⁾.

قدم الإمام فضل باشا بن علوى مولى الدولة العلوى⁽²²⁾ موفدا من قبل الدولة العثمانية⁽²³⁾ عام 1290 هـ الموافق 1873، وقال عنه الإمام عبدالرحمن المشهور العلوى فيه: ومنهم الآن الإمام فضل بن الإمام علوى بن سهل العلوى وهو شريف فاضل وكان والده من كبار العلماء والفقهاء المتصوفين توفى بميلبار (يعنى والده عام 1263 هـ الموافق 1846 وجده الإمام محمد بن سهل المتوفى عام 1069 هـ الموافق 1658) تولى الإمام فضل باشا بن علوى العلوى إمارة ظفار بعدما أتى إليه وجهاء ظفار وأعيانها ورؤساء قبائلها وعشائرها فبايعوه أميرا عليهم مستقلا يتبع الدولة العثمانية، وبقي هناك مع أنجاله سهل باشا ومحمد باشا وأحمد بك إلى أن ترك حكم إمارة ظفار مغادرا لها مع أنجاله إلى مصر ومنها إلى الآستانة وذلك عام 1296 الموافق 1878 وما كاد نبأ قدومه يصل إلى السلطان عبدالحميد الثانى الخليفة العثمانى فى تلك الفترة حتى بعث من وزرائه وحجابه لاستقباله إلى الباخرة التى اقلته ولابلاغه أنه ضيف الخليفة الخاص ثم استقبله السلطان عبدالحميد الثانى وجعله من خاصته وكان موضع ثقته وحفاوته طوال حياته وقد وجه إليه رتبة الوزارة، وتوفى عام 1318 هـ الموافق 1900 ودفن فى مدفن ال عثمان فى مقبرة السلطان محمود وقد بلغ من العمر ثمانين عاما⁽²⁴⁾.

اتجه سكان ظفار بعد مغادرة الإمام فضل باشا العلوى، إلى البوسعيد فى مسقط ليحكمهم ومن ثم استقر الحكم فى ظفار، وكان السلطان تركى بن سعيد هو الذى طلب إليه سكان ظفار حكمهم وكان سلميان بن سويلم قائدا عسكريا وله شهرة واسعة بين قبائل عمان إذ اشتهر بالشجاعة والإقدام وشدة المراس وهو خير كفاء لحكم بلاد مضطربة كظفار ولذلك عين السلطان تركى واليا عليها⁽²⁵⁾، واستمر حكم البوسعيد على ظفار من تلك الفترة حتى عهد قابوس بن سعيد.

ظفار حاليا

ذكرنا فيما سبق نبذة عن تاريخ ظفار باختصار شديد، أما اليوم فالصورة مختلفة تماما، فقد استطاعت سلطنة عمان أن تقوم بنهضة تنموية شملت مختلف المناطق ومنها ظفار، وفى مختلف الميادين والقطاعات فتغيرت الحياة فى ظفار

اليوم، واختلفت الصورة عما كانت عليه بالأمس فأصبحت ظفار تشهد إنجازات جديدة وعديدة.

اعتمدت عمان على ثلاثة مبادئ تنموية أساسية باعتبارها هي الأفكار الرئيسية للاقتصاد في الخطط التنموية المتتالية وهذه المبادئ هي:

الأول: يعتمد المبدأ الثابت الذي يؤكد أن الإنسان والمواطن هو الهدف النهائي الذي تخدمه كل الخطط والاجراءات الأمر الذي يستوجب تنمية الموارد البشرية الوطنية حتى تتمكن من القيام بدورها كاملا.

الثاني: عدالة توزيع الاستثمارات جغرافيا بحيث يعم النفع مختلف مناطق البلاد ومع اعطاء أولوية خاصة للمناطق الأقل تقدما لإزالة التفاوت في مستوى المعيشة بين المناطق.

الثالث: وهو تنوع مصادر الدخل القومي وتنمية مصادر جديدة تقف إلى جوار الإيرادات النفطية وتحل محلها مستقبلا.

فجاءت الخطة الخمسية الأولى التي بدأت عام 1976 - 1980 ثم الخطة الثانية عام 81 - 1985 والثالثة 86 - 1990 ومن أهدافها اعطاء الأولوية لمشروعات موارد المياه الطبيعية ومشروعات القطاعات السلعية المغلة للدخل كالزراعة وصيد الأسماك والصناعات التحويلية والتعدين والتوسع في التنمية الاقليمية والتركيز على أهمية تطوير الخدمات الاجتماعية في الأقاليم المختلفة وعلى وجه الخصوص في مجالات التربية والتعليم والصحة والتدريب المهني والإسكان الاجتماعي ثم جاءت الخطة الخمسية الرابعة عام 1991.

التنمية الزراعية في ظفار

تعتبر الزراعة في ظفار أحد المرتكزات الأساسية للاقتصاد المحلي لكونها مصدرا مهما لتوفير العديد من المنتجات الزراعية المتنوعة وأنها لاتزال الحرفة الأساسية لسكان ظفار وتشمل أشجار جور الهند وبعض الخضروات مثل الطماطم والبصل وغيرها، ولقطاع الزراعة والأسمك دور مهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لسكان ظفار اضافة إلى الرعي، واعتمدت وزارة الزراعة على إدخال

النظم الحديثة فى الزراعة والرى وتزويد الصيادين بالقوارب الحديثة وفى مجال الزراعة تمثل البحوث الزراعية أحد أهم الركائز العلمية التى يعتمد عليها فى تطوير هذا القطاع وتنميته بحيث توفر هذه البحوث الأسس العلمية التى يتم على أساسها وضع الخطط والبرامج للمواسم الزراعية حيث يوجد محطة للبحوث الزراعية فى ظفار تضم وحدات متخصصة فى مختلف فروع البحوث الزراعية كوحدة بحوث الخضروات وبحوث الفاكهة وبحوث الرى وبحوث التربة والمياه وبحوث الأمراض والحشرات وبحوث المحاصيل الحقلية وبحوث النحل، وفى مجال توفير مستلزمات الإنتاج المختلفة فى المواعيد المناسبة وقبل بدء الموسم الزراعى لضمان نجاحها. وفى مقدمة الأهداف التى تسعى إليها السلطنة فى التصنيع الزراعى يبرز تحقيق الاستغلال الأمثل للموارد الزراعية والحيوانية والسمكية المتاحة عبر إقامة المصانع والمشروعات المناسبة إلى جانب المساهمة فى رفع مستوى دخل المزارع فى ظفار وإتاحة فرص جديدة للعمالة وزيادة حجم الصادرات مما ينعكس أثره على زيادة الدخل القومى وفى هذا النطاق تشير البرامج التنموية لقطاع الزراعة والأسماك إلى تركيز الاهتمام على الصناعات الزراعية وقطاع الأسماك فضلاً عن استكمال المشروعات الخاصة بتنمية الحاصلات الزراعية والتى تم البدء بتنفيذها ضمن فعاليات عام الزراعة الأول عام 1988.

تم توقيع اتفاقية مع أحد بيوت الخبرة العالمية بغرض إعداد دراسة لتصنيع منتجات النارجيل «جوز الهند» ومشتقاته، وجاء التقرير الأول للدراسة أنه فى الإمكان الاستفادة من هذا المحصول فى تصنيع أكثر من ألفى طن من الأيس كريم إلى جانب كميات لا بأس بها من الزبدة والفحم الصناعى ومع وجود المزارع القائمة تقرر التوسع فى المساحات المزروعة بالنارجيل لتلبية متطلبات التصنيع حيث تم تخصيص مساحة تصل إلى 35 هكتاراً يمكنها استيعاب حوالى 70 ألف شجرة نارجيل فى منطقة ظفار، وإذا ما نظرنا إلى محصول النارجيل عموماً نجد أنه يعد من الحاصلات الاستراتيجية فى السلطنة ومع إضافة 70 ألف شجرة جديدة إلى أعداد الأشجار القائمة والذى يصل إلى 102 ألف شجرة فى حوالى 35 هكتار يمكن إتاحة الفرصة كاملة أمام إمكانات التوسع فى زراعة المحصول باعتباره مجدياً للاقتصاد القومى، كما أن الوصول إلى صناعات تعتمد على النارجيل من شأنه

تشجيع مزارعي منطقة ظفار على الاهتمام بمزارعهم للحصول على مزيد من الدخل، خصوصا أن تسويق الإنتاج أصبح مضمونا بشكل يخدم المزارع نفسه يضاف إلى هذا كله أن وجود مصنع يعتمد على الخامات الزراعية المحلية سيؤدي إلى تحقيق نتائج إيجابية تثرى التنمية الاقتصادية لعمان عامة ولظفار خاصة، وأن إقامة مصنع النارجيل في ظفار يعكس مدى سلامة التخطيط الذي يهدف إلى تحقيق عائد انتاجي بأقل التكاليف الممكنة على أساس أن وجود المصنع في وسط المزارع المنتشرة في ظفار من شأنه تقليل نفقات نقل الكميات المنتجة من مواقع المزارعين إلى مكان التصنيع إضافة إلى جذب للعمالة المحلية من أبناء ظفار للعمل في المصنع بما يشجعهم على الاستمرار في تنمية زراعات النارجيل⁽²⁶⁾.

اشتهرت ظفار باللبان قديما باستخداماته في البخور والعطور وحاليا تجرى تجارب للاستفادة منه في استخدامات أخرى ويقول الرئيس التنفيذي للهيئة العامة لتسويق المنتجات الزراعية العمانية بأن الهيئة في صدد إنتاج كحل للعيون من اللبان سيطرح في الأسواق قريبا بعدما ثبت أنه غير ضار بالعيون بل يفيدها، وشجرة اللبان شجرة معمرة يصل ارتفاعها إلى حوالي ثلاثة أمتار وتتفرع من بدء نموها ويصعب تمييز الساق من الفروع وهي تنبت على الطبيعة دون أن يكون للإنسان دور في تكاثرها الذي يحصل بواسطة البذور التي تجف من عناقيد مستطيلة فتسقط على الأرض وتنتشر بفعل الرياح على التربة وهي قادرة على الإنتاج بعد عشر سنوات، ويستخرج اللبان من الشجرة عن طريق مقبض خشبي على رأسه آلة حادة يسمونه «المنقر» تكشط به الشجرة في مواضع قد تبلغ الثلاثين بحسب حجم الشجرة وكثرة فروعها فتفرر سائلا يميل إلى الإصفرار لا يلبث أن يتجمد بعد أسبوعين أو ثلاثة فيجمع ويتكرر الكشط في المواضع نفسها أكثر من مرة لفترة تتراوح بين ثلاثة أشهر وأربعة ثم تترك الشجرة لتستجمع قوتها وتستعيد ما فقدته من عصارة إلى العام المقبل، وعرف اللبان منذ القدم وقد استخدمه قدماء المصريين في تحنيط المومياءات وبخورا مقدسا في جميع المعابد القديمة على اختلاف معتقداتها وتباين عهودها وعلاجا نافعا لعدد من الأوجاع وكان أفضل أنواعه بإجماع المؤرخين ما تنتجه ظفار التي ارتبط اسمها باللبان واصبحت سوقا شهيرة يقصدها التجار بحرا وبراً لشراؤها وهدفهم جنى الأرباح الطائلة في الأسواق الخارجية، وكان اللبان يصدر قديما عن

طريقين رئيسيين أولهما طريق القوافل الذى يمر عبر حضرموت إلى اليمن ثم إلى مصر والبحر المتوسط ومنها إلى أوروبا، أما الطريق الثانى فهو يجرى بالمحيط الهندى الذى يربط بين كل من سواحل شرق أفريقيا وشواطئ جنوب آسيا.

تتمتع ظفار بمناخ خاص ومميز ذى الحرارة والرطوبة والتربة ذات الخصائص المميزة فأصبحت موطناً لنمو شجرة اللبان وتكاثرها دون أن تمتد إليها يد المزارعين وأجود أنواع لبان ظفار هو ما تنتجه المنطقة الجنوبية الشرقية ولاسيما «سمحان» وتقل الجودة كلما اتجهنا غرباً، وهذا يرجع إلى تأثير المناخ فالأشجار القريبة من مناطق المطر تكون أقل جودة من الأشجار البعيدة عنها وينقسم اللبان إلى أربعة أنواع أجودها اللبان «الجوجرى» وتنمو أشجاره فى الأجزاء الشرقية من المنطقة يليه اللبان «النجدى» وهو الذى تنمو شجرته فى منطقة «نجد ظفار» الواقعة إلى الشمال من مرتفعات ظفار الوسطى ثم اللبان «الشزرى» وتنمو أشجاره فى الجزء الغربى بين نجد وظفار ومنطقة سقوط الأمطار، أما أقل أنواع اللبان جودة فهو اللبان «الشعبى» وتنبت أشجاره فى السهول الساحلية والشعاب وكلما كانت الشجرة بعيدة عن منطقة سقوط الأمطار ارتفعت جودة إنتاجها ومقياس الجودة هو اللون والنقاء، فاللبان الأبيض المشوب بزرقة تشبه زرقة السماء والخالى من الشوائب هو أجود أنواع اللبان وأغلاها ثمناً وتقل الجودة كلما مال لون اللبان إلى ما يقرب من الاحمرار أو اختلط بشوائب أخرى وعند الجنى تفرر الأصناف والصنف الأول يسمى «اللقط» ويمثل أعلى درجة فى الجدلة وهو عبارة عن الفصوص النقية البيضاء التى تلتقط وتتقى من محصول اللبان، ومن المصطلحات المتعارف عليها فى بيئة اللبان أن الشجرة التى تدر اللبان تسمى «معزة» والشجرة التى لا تعطى أو تدر قليلاً منه فيسمونها «التيس» وعندما تنبت الشجرة وتأخذ فى النمو قليلاً فإنهم يسمونها «التلية» وأوراق شجرة اللبان خضراء داكنة تشبه إلى حد كبير أوراق شجرة الزيتون وتسمى هذه الأوراق «الثال» ويستخدم البدوى هذه الأوراق علفاً للجمال والماعز، ولأغصان الشجرة قيمة هى الأخرى فى حياة البدو حيث تتخذ وقوداً وقد أدى ذلك إلى تناقص أشجار اللبان بشكل ملحوظ فى ظفار خلال الأعوام الماضية⁽²⁷⁾.

الثروة الحيوانية:

وضع فى الفترة الأخيرة سياسة عامة وشاملة لتنمية هذا القطاع تمثلت فى

تطوير التغذية للماشية من خلال دعم المراعى الطبيعية وتحسينها وتوفير الأعلاف عن طريق إقامة مزارع الإنتاج للأعلاف فضلا عن دراسة البدائل المحلية لتصنيع الأعلاف وخفض أعداد الحيوانات السائبة على جبال ظفار وتحسين نظم الإيواء وتطويرها ثم رفع مستوى الخدمات البيطرية والعيادات القائمة وإنشاء عيادات جديدة وتطوير المختبرات البيطرية إلى جانب اجراء التحصين القومى للحيوانات وتطوير المحاجر البيطرية واشتملت بحوث المحطة أيضا على جوانب عملية لتطوير بحوث الثروة الحيوانية والارشاد الحيوانى وتوفير الدعم لمربى الماشية والقروض اللازمة لتنمية المشروعات الانتاجية فى هذا المجال إضافة إلى تدريب الكوادر من أبناء ظفار فى مجال الثروة الحيوانية لرفع كفاياتها واعداد دراسات الجدى لمشروعات الأمن الغذائى وأن ظفار تعد من أهم المناطق فى السلطنة من حيث انتاجية الثروة الحيوانية حيث تضم أعدادا كبيرة من الأبقار كما تتيح مساحتها الزراعية وظروف المناخ فيها إمكانية توفير كميات لا بأس بها من الأعلاف الطبيعية وتؤكد الأعداد الكبيرة للأبقار الحلوبة امكانية إقامة صناعة وطنية للألبان فى ظفار (28).

الكهرباء والماء فى ظفار

تمثل الكهرباء والماء قطاعا من أهم قطاعات الخدمات باعتبارها مصدرا من أهم مصادر الانتاج والتنمية وتقوم بتوفير الخدمة للمواطنين عن طريق تحديد شبكات الكهرباء لجميع مناطق ظفار التى تتمثل مصادر الطاقة الكهربائية فى ثلاث محطات رئيسية هى محطة صلالة الجديدة ومحطة «ريسوت» (أ) ومحطة «ريسوت» (ب) وقد بلغت القدرة الانتاجية لهذه المحطات حتى نهاية عام 1989 - (99) ميغاوات مواكبة بذلك النمو والتوسع العمرانى الهائل الذى شهدته هذه المحافظة. وفى ريسوت تم تنفيذ المرحلة الثالثة لتدعيم محطة التوليد فى «ريسوت» (ب) وذلك بإضافة مولدين سعة كل منهما 7 ميغاوات خلال عامى 1991 و1992 وكذلك تنفيذ المرحلة الرابعة بإضافة ثلاثة مولدات سعة كل منها 7 ميغاوات وذلك لرفع القدرة الإنتاجية لمحطات التوليد بصلالة من 96 ميغاوات إلى 131 ميغاوات. وفى «مرباط» و«سدح» تم تنفيذ مشروع تدعيم محطتى التوليد فى كل منهما بإضافة مولدين لرفع القدرة الإنتاجية لمحطة «مرباط» إلى 32.5 كيلوات ومحطة

«سدح» إلى 21.3 كيلو وات أما المناطق الجبلية والساحلية فقد تم تنفيذ مشروع إنشاء محطة توليد بمدينة «ثمريت» وإنشاء محطة توليد باندركز الإداري «بحاسك» وتدعيم قدرة محطات التوليد في المراكز الإدارية بكل من «صنحوت» و«رخيوت»، كما شهد قطاع الماء تطوراً كبيراً في الأعوام الماضية، حيث تمتاز ظفار بوفرة المياه الناتجة من غزارة سقوط الأمطار فيها بسبب الرياح الموسمية وبسبب مناخها المعتدل الذي يعمل على عدم تبخر المياه بسرعة مما زاد في الإمكانيات المائية إلى حد كبير وقد بذلت الدولة جهودها في تنفيذ العديد من مشروعات تحلية المياه في الأعوام السابقة وكذلك مشروعات تحسين المحطات الموجودة ودعمها منها مشروع تحسين محطات التحلية في كل من «السعدنات» و«أبو مضابي» و«الظهر» وقد بدأ تنفيذ هذا المشروع في 6/6/1990 بتكلفة إجمالية مقدارها 405.486 ريال عماني ويقوم هذا المشروع بإنشاء نقطة إضافية لتعبئة الناقلات بالمياه في كل من المحطات الثلاث وإنشاء خزاني مياه لمحطة السعدنات وإنشاء خط طرد للمياه الزائدة الملوحة بدلاً من الخط الحالي إلى غير ذلك من الأعمال الأخرى التي ينفذها هذا المشروع.

قطاع السياحة:

تعتبر ظفار من أكثر مناطق الخليج والجزيرة العربية حظوة بالمقومات السياحية الحديثة وكل من زار ظفار في فصل الخريف يدرك أن الطقس المتغير الفجائي هو طبيعة أخرى لبيئة ظفار التي تشتهر بها خلال هذا الفصل الحالم وتعتبر بحق عاصمة الضباب ليس لعمان وإنما للجزيرة العربية. الطبيعة في ظفار غير عادية حالة الطقس المتقلب تزداد ضبابية الجبال تتعتم بالغيوم والسهول تكتسى بخضرة الأعشاب كمراع شاسعة المساحة تنتشر فيها قطعان من الأغنام والأبقار لذا فلا غرابة أن يتوافد السياح العرب والأجانب إليها من كل حذب وصوب، ولتطوير السياحة في ظفار أنشئ العديد من المطاعم الثابتة في الملتقيات السياحية التي يوجد فيها الزوار بكثافة كما تم تطوير الحديقة العامة في صلالة وذلك إضفاءً للجمال على مظهر المدينة العام ولأن الحداثق العامة بمثابة منتزهات يومية لكثير من الوفود وبمناخ محطات ترويحوية لكثير من أفراد الأسر والعوائل فقد انشئت حديقة أخرى طبيعية قرب «السعادة» وكذلك تمت صيانة الأماكن الأثرية وقد ذكرت جريدة «البيان» الإماراتية الصادرة في دبي قولها:

«إن الجمال الساحر الذى تنفرد به ظفار والتى تعرف بحدائق السلطنة الغناء ومهد أشجار اللبان الأسطورية ظل يجتذب إليها الرحالة عبر القرون، ولا غرو أن وصفها «ماركوبولو» بالمدينة العظيمة ذات الجمال الساحر واليوم تظل ظفار كما كانت وعاصمتها صلالة تمثل مزيجاً رائعاً من المقومات السياحية المهمة التى تعكس القديم وأمجاده والحديث ومظاهر نهضته، وقد اهتمت الحكومة العمانية فى الأعوام الأخيرة بمشاريع البنية الأساسية لصناعة سياحية ضخمة فى إطار خططها لتطوير هذا المجال فكانت البداية بالسماح لمواطنى دول مجلس التعاون بالدخول إلى السلطنة دون الحاجة إلى الحصول على تأشيرة مسبقة إلى جانب تيسير اجراءات استخراج التأشيرات السياسية للراغبين فى زيارة السلطنة ودراسة انشاء معهد للسياحة والفندقة وذلك لتخريج الكوادر العمانية المؤهلة للعمل السياحى، كما بدأ العمل فى تنفيذ مجموعة من الاستراحات والموتيلات السياحية فى عدد كبير من المناطق السياحية داخل السلطنة وإنشاء دائرة للسياحة بظفار وتخفيض أسعار تذاكر السفر وتشجيع الرحلات الخاصة بين السلطنة وأوروبا فى محاولة جادة لجذب السائح الأوروبى إلى المنطقة، وتعتبر ظفار من أكثر مناطق السلطنة تنوعاً فى التضاريس والمناخ وهى تتأثر بالرياح الموسمية التى تهب على الهند صيفاً مما يودى إلى سقوط الأمطار فى فصل الصيف على مدار ثلاثة أشهر فى السنة وهو ما يسمى موسم الخريف وقد أصبحت ظفار فى الآونة الأخيرة ونتيجة لذلك نقطة جذب لامعة ومثيرة لاهتمام الكثير من السياح اذ ان درجة الحرارة لا تتعدى 30 درجة مئوية على مدار السنة وحيث الخضرة والطبيعة الخلابة التى لا تضاهيها خضرة فى أى مكان من الخليج والجزيرة العربية، وتحفل ظفار بالعديد من الآثار القديمة حيث نجد آثار مدينة «البليد» وآثار ميناء «سمهرم» الذى اشتهر بتصدير اللبان ويوجد نقش يسجل تأسيس مدينة «سمهرم» التاريخية وتذكر بعض كتب التاريخ أن ظفار هى منطقة الأحقاف التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم كما يوجد فى «سدح» قبر النبى هود، وتذكر الروايات أن عاداً وثمود عاشا فى ظفار التى يوجد فيها أيضاً قبر النبى أيوب والنبى صالح وقبر الإمام محمد بن علوى صاحب مرباط.

الهوامش:

- (1) س. ب. مايلز - الخليج بلدانه وقبائله - وزارة التراث القومي والثقافة الطبعة الرابعة - 1990 ص 463.
- (2) س. ب. مايلز - نفس المرجع ص 465.
- (3) س. ب. مايلز - نفس المرجع ص 467.
- (4) صالح حامد العلوي - تاريخ حضرموت - الجزء الثاني - مكتبة الارشاد - جدة 1968 ص 463.
- (5) محمد بن عبدالله بن عمر الشاطري - ادوار التاريخ الحضرمي - عالم المعرفة - جدة - 1983 - ص 192.
- (6) الشريف عبدالرحمن بن محمد المشهور - شمس الظهيرة ج1 - عالم المعرفة - جدة 1984 ص 73.
- (7) محمد بن عبدالله بن عمر الشاطري - المرجع السابق 192.
- (8) الشريف عبدالرحمن بن محمد المشهور - المرجع السابق ص 74.
- (9) الشريف عبدالرحمن بن محمد المشهور - نفس المرجع السابق ص 74.
- (10) صالح حامد العلوي - المرجع السابق ص 585.
- (11) صالح حامد العلوي - نفس المرجع ص 598.
- (12) محمد بن عبدالله بن عمر الشاطري - المرجع السابق ص 182.
- (13) محمد بن عبدالله بن عمر الشاطري - نفس المرجع ص 183.
- (14) محمد بن عبدالله بن عمر الشاطري - نفس المرجع ص 182.
- (15) صالح حامد العلوي - المرجع السابق ص 603.
- (16) صالح حامد العلوي - نفس المرجع ص 604.
- (17) س. ب. مايلز - المرجع السابق ص 476.
- (18) س. ب. مايلز - المرجع السابق ص 479.
- (19) الشريف عبدالرحمن بن محمد المشهور - المرجع السابق ص 73.
- (20) س. ب. مايلز - المرجع السابق ص 480.
- (21) س. ب. مايلز - نفس المرجع ص 481.

(22) هو الإمام فضل باشا ابن علوى بن عبدالله بن محمد بن سهل محمد بن أحمد بن سلمان بن عمر بن محمد بن سهل بن عبدالرحمن مولى خيلة بن عبدالله بن علوى بن محمد مولى الدويلة بن على بن علوى بن الفقيه المقدم محمد بن على بن علوى صاحب مرباط.

(23) - صلاح البكرى - تاريخ حضرموت السياسى - مطبعة مصطفى البانى الحلبي - القاهرة 1956.

(24) صالح حامد العلوى - المرجع السابق ص 606.

(25) صلاح البكرى - المرجع السابق ص 208.

(26) خالد بن محمد القاسمى - عمان مسيرة قائد واردة شعب - دار الثقافة القاهرة 1993 ص 190.

(27) خالد محمد القاسمى - نفس المرجع ص 276.

(28) خالد محمد القاسمى - نفس المرجع ص 192.

الفصل الحاشر



العمل العربي المشترك وقيام مجلس التعاون

قدم هذا البحث باللغة الانجليزية إلى ندوة «جامعة مرمره في اسطنبول في 17 - 24 إبريل 1993
- تركيا.

العمل العربى المشترك لأقطار الجزيرة العربية وقيام مجلس التعاون

أولاً: العمل العربى المشترك لأقطار الجزيرة العربية الخلفية التاريخية والسياسية لأقطار مجلس التعاون

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها تعرضت أقطار مجلس التعاون لبعض التغيرات على ساحتها الداخلية والخارجية، وفى الوقت الذى شهدت فيه معظم الأقطار العربية، إن لم تكن قد مرت فى تلك المرحلة، وهى مرحلة القومية العربية فى خلال منتصف الخمسينيات وأوائل الستينيات والتى تمخض عنها حدثان رئيسيان فى منطقة الخليج والجزيرة العربية، وأولهما هو الثورة العراقية فى يوليو عام 1958 والتى استقرت بعد فترة من الزمن بحوالى عشر سنوات فى عام 1968، أما الحدث الثانى فقد وقع فى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وتمثل فى الثورة فى الشطر الشمالى من اليمن، وهذا التطور السياسى الجديد أدى إلى انعكاس إيجابى فى الشطر الجنوبى من اليمن ونتج عنه ثورة ضد الاستعمار المسيحى البريطانى، وأصبحت الثورة العراقية واليمنية تمثلان بعداً جديداً للقوى الفاعلة ليس فى المنطقة وإنما فى الوطن العربى⁽¹⁾.

كما بدأت الثروة النفطية تتجلى أهميتها فى المجتمعات التى كانت تعيش وقتئذ عند مستوى الكفاف فى ظل اقتصاد تقليدى وكانت هذه المجتمعات تعيش أساساً على البحر وما يجود به من اللؤلؤ وغيره من الثروات البحرية. وبدون أى استعداد أو مقدمات اندفع الخليج العربى إلى معترك الساحة الدولية دون اختياره وبدون أية خلفيات سابقة، ولذا وجد نفسه أمام هذا العالم الحديث بكل أبعاده وقد حدث ذلك بسرعة فى خلال سنوات قليلة، فى حين وجدت بريطانيا نفسها أمام تعاظم القوة التقدمية التى تمثلت فى حركات التحرر القومية العربية والتى كانت تهيمن على الخليج العربى منذ أكثر من قرن ونصف ولا يمكنها بعد الآن أن تتجاهل هذه القوى الجديدة فى المنطقة ولذا بدأت تعد العد التنازلى لحساب هذه القوى قبل أن يفلت الوقت من يدها ويتحول إلى العنف على نحو ما حدث فى

أماكن أخرى⁽²⁾، وهذا ما جعلها تتجه نحو اعطاء الاستقلال السياسى لأقطار شرق الجزيرة العربية.

برغم أن عمان والسعودية لم تكن تربطهما معاهدات حماية مباشرة مع بريطانيا إلا أننا يمكننا القول بأن أقطار مجلس التعاون رأت نور الاستقلال السياسى الحقيقى فى العقدين الأخيرين فقط، فقد كانت البداية لاستقلال الكويت السياسى فى عام 1961، ثم أعلنت بريطانيا الانسحاب العسكرى من الخليج العربى فى عام 1968 بحيث لا يتعدى عام 1971، وهذا الانعكاسات السياسية والأمنية والاقتصادية دفعت أقطار شرق الجزيرة العربية إلى الاتجاه نحو العمل العربى المشترك لإقامة اتحاد فيما بينها.

أعلنت مشيختا أبوظبي ودبى العمل المشترك من أجل الاتحاد فى المنطقة ودعت الامارات الاخرى للانضمام إلى هذا الاتحاد ولكن لظروف سياسية معينة لم ينجح المشروع الاتحادى ونتج عنه استقلال كل من البحرين وقطر وعلان الاتحاد السباعى من بقية المشيخات الاخرى وقيام دولة الامارات العربية المتحدة وذلك عام 1971.

سوف نقوم بدراسة الجهود التى قامت بها أقطار الجزيرة العربية نحو العمل العربى المشترك فى مجالات متعددة منها الاقتصادية والسياسية والثقافية نحو التكامل والتنسيق فيما بينها وذلك قبل قيام مجلس التعاون، تلك الجهود التى صاغت من خلالها قاعدة العمل العربى للتعاون الإقليمى لمنطقة الجزيرة العربية ضمن الدائرة العربية المتكاملة والهادفة نحو تحقيق التكامل على المستوى القومى العربى، ويمكن القول بأن بداية العمل العربى فى تلك المجالات قد أدى إلى ظهور هذا المجلس إلى الواقع العملى نتيجة للجهود والنتائج التى حققها على صعيد التعاون الثنائى والجماعى ودوافع واتجاهات العمل والإطار التأسيسى والتنظيمى، والمنجزات التى حققتها.

العمل العربى المشترك لأقطار الجزيرة العربية:

يعتبر العمل العربى المشترك لأقطار الجزيرة العربية امتداداً للعمل العربى بشكل العام رغم أن الأخير لم يحقق نتائج ملموسة حتى الآن نظراً للظروف

المحيطة به وبعض المشاكل التي يواجهها، والبعض يرى بأن الاندماج الاقتصادي بين أقطار الجزيرة العربية أقرب منه بين الأقطار العربية، لأن الهياكل الارتكازية في طور التكوين ولم تتكون بعد قواعد أساسية بمعنى أن أقطار الجزيرة العربية لم تصل بعد إلى مرحلة معقدة من الانتاج والتعقيدات التنظيمية والإدارية التي قد تكون عائقاً في وجه التعاون والتكامل والذي تعاني منه معظم الأقطار العربية وكما أن العمل لأقطار الجزيرة العربية ليس بديلاً عن العمل العربي المشترك وإنما هو جزء متكامل منه وأساسى⁽³⁾ وتقول إحدى الدراسات في ذلك:-

«إن الدعوة إلى التكامل الاقتصادي لأقطار الجزيرة العربية وإنشاء سوق مشتركة لأقطار الجزيرة العربية وسوق مالية تنطلق من أبعاد الهدف النهائي للتكامل الاقتصادي، إن التنسيق والتعاون والتكامل الاقتصادي المشترك لأقطار الجزيرة العربية ليس هدفاً في حد ذاته وإنما هو جزء لا يتجزأ من التعاون والتكامل الاقتصادي العربي الشامل».

إذا ما نظرنا إلى حركة التعاون الاقتصادي العربي والتي كانت قد بدأت منذ الخمسينيات فإنه لم يحقق التكامل الاقتصادي العربي المطلوب، وأن اختلاف الأنظمة السياسية والاقتصادية قد جعل من تحقيق هذا التكامل أمراً صعباً، وخاصة علاقاتها في السياسة الدولية والاقتصادية بين العالمين الرأسمالي والاشتراكي جعله مستحيلاً، مما ترتب عليه الكثير من القناعات المرتبطة بجدوى هذا التكامل العربي بين مجموعات أصغر من المجموعة الإقليمية وتضم الأقاليم مجموعات شبة إقليمية مجاورة لتلك التي ظهرت عام 1963 بين أقطار المغرب العربي كإنشاء اللجنة الاستشارية الدائمة للتعاون الاقتصادي فيما بينها⁽⁴⁾.

جرى التركيز منذ عدة سنوات على تحقيق التكامل الاقتصادي العربي نظراً لتعذر تحقيق الوحدة الاقتصادية حالياً، وربما لعدة سنوات قادمة خاصة في ضوء تضاؤل الرغبة للوحدة بمعناها الشامل من الناحية الاقتصادية والسياسية إضافة إلى تصاعد النزعة القطرية، وكان مجلس الوحدة الاقتصادية قد حاول حمل لواء التكامل إلا أنه في محصلة الحساب لا يزال تنافس الاقتصاديات العربية أقوى بكثير من تكاملها، وما تحقق من خطوات تكاملية لا يعكس التزاماً واضحاً بالاندماج وسلم الأولويات⁽⁵⁾.

يرجع عدم نجاح تجربة التكامل الاقتصادي لكونها كانت قد اعتمدت منطق السوق الأوروبية المشتركة، كتحرير التبادل التجاري وإطلاق حرية انتقال الأشخاص ورؤوس الأموال كوسيلة للوصول إلى التكامل الاقتصادي العربي، ولكن أثر ذلك كان ضعيفا جدا نظر لاختلاف السياسات العربية نحوها إضافة إلى ضعف البيئة الانتاجية ومعاملة الأجهزة التنفيذية المسؤولة عن تحقيق التكامل في السوق العربية من نقص في السلطة ومن عدم الاستقلال في اتخاذ القرارات وتنفيذها مما أدى إلى ضعف النتائج⁽⁶⁾ التي استطاعت دول السوق العربية تحقيقها في العمل العربي المشترك نحو التكامل الاقتصادي العربي من جراء هذه الاتفاقية، وقد يكون لعدم وجود تفهم عربي على المستوى السياسي. ويقول أحد المعلقين:

مأساة الكيانات العربية الآن هي عدم وجود حد أدنى للتفاهم والتواصل يمنع الانهيار والتصدع في علاقاتها ببعض، الأمر الذي ولد غياب الخط الأسفل الذي يمكن السياسي والمواطن من التكرس، والتعاون الإقليمي وهو الرد الذي يتلقف الانحدار العربي السياسي، ويستشق من السقوط، وهو الذي يأتي بالاجواء الأفضل التي تساهم في ردم المطبات العربية السياسية، وإذا كان مجلس التعاون قد غرس جذرة التعاون الإقليمي العربي فإن المحاكاة تملك أرضية مشتركة في المغرب العربي وفي وادي النيل وفي الشام وفي اليمن⁽⁷⁾.

ظهرت بعد دراسات التجارب الماضية بعض الدعوات على مستوى الفكر الاقتصادي العربي الوحدوي، تطالب بفكرة الوحدات العربية شبة الإقليمية المتكاملة على أن تنشأ ضمن دائرة التكامل الاقتصادي العربي الموحد، مما يساعد على خطوات أسرع في بناء وحدات شبة إقليمية من ضمن الاتجاه نحو التكامل العربي الشامل مباشرة والذي ما يزال يتعثر في خطواته رغم تحقيق بعض المنجزات⁽⁸⁾ في مجالات محددة.

كما أكد المجلس الاقتصادي العربي على أهمية وضع استراتيجية عربية تستند على الاعتماد على الذات، واعتبرها الصيغة المثلى الأسر تطبيقا ضمن المجموعة العربية منها بالنسبة لاية تجمعات إقليمية أخرى بحكم توفر عناصر التكامل، والتنسيق الاقتصادي في الموارد بين أقطار المجموعة العربية إضافة إلى

العوامل التاريخية والدينية والحضارية، أما الظروف القطرية الاقتصادية والاجتماعية فقد كانت عاملا محدودا لانعكاسات التنمية القطرية الذاتية على ميدان العمل العربى المشترك البديل الأوحد⁽⁹⁾.

يمكن التصور بأن هذه الوحدات شبة الاقليمية قد تشكل فى النهاية نواة التكامل والوحدة العربية ضمن المجموعات الاقليمية العربية، والتي أصبحت معروفة إلى حد ما فى الآونة الأخيرة نظرا لتقارب بعض العوامل فيما بينها مما يساعدها فى العمل المشترك نحو التكامل العربى الشامل، وذلك لاعتبارات جغرافية وللعلاقات التاريخية فيما بين ابناء هذه الوحدات الاقليمية المتداخلة والمتقاربة، وبعد ذلك يمكن مد الجسور التوفيقية فيما بين تلك الوحدات لبناء الوحدة العربية الشاملة⁽¹⁰⁾ وهذه الوحدات العربية هى:- وحدة الجزيرة العربية: وتضم اليمن والسعودية وعمان والإمارات والكويت وقطر والبحرين - وحدة الهلال الخصيب: وتضم العراق وسوريا والاردن ولبنان وفلسطين - وحدة وادى النيل وتضم مصر والسودان وأرتريا والجيبوتى والصومال - وحدة المغرب العربى: وتضم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا.

على كل حال لا يجب أن يفهم بأن العمل العربى المشترك بديل عنه، وإنما يجب أن يكون هناك تنسيق وتكامل وتعاون بينها، عن طريق وضع استراتيجية العمل الاقتصادى العربى المشترك وميثاق العمل القومى والخطة القومية، مما يسهل ويساعد التعاون ويصحح مسار التنمية الوطنية القومية وانتماء التدفقات المالية والفوائض النفطية من العمل لأقطار الجزيرة العربية إلى العمل الاقتصادى العربى المشترك، وزيادة مجال التنمية المتاحة من خلال النفط والمشاركة الأفضل ضمن المنطقة العربية ككل⁽¹¹⁾.

يقول يوسف صايغ حول هذا:- إن ذلك لن يعنى ان البلدان غير النفطية ستطالب بحق ملكية الموارد النفطية فى البلدان النفطية، بل إنه يعنى ان هذه البلدان الأخيرة ستحول نسبة كبيرة من مواردها المالية، الموجودة حاليا فى أسواق النقد الغربية نحو الاستثمار الانتاجى فى المنطقة العربية⁽¹²⁾.

هناك بعض الدراسات التى ترى بأن تشابه اقتصاديات كيانات الجزيرة العربية

قد تقف عقبة في وجه التكامل والاندماج الاقتصادي وكلمتا تأخر ذلك التكامل قويت النهائى والتعقيدات وصعب اجراء هذا التكامل فيما بينها فى المستقبل وتقول هذه الدراسات: (13)

«الملاحظ أن النموذج الحالى - نموذج التنمية - يقوم بخلق وقائع لا تسهل ابداء عملية التكامل الاقتصادى خصوصا بين الأقطار العربية المنتجة للنفط - وعلى الأخص بين أقطار الجزيرة العربية، فالحدود الإقليمية لا تبدو كإطار مرحلى مؤقت يمكن لعملية التنمية الشاملة تجاوزها. بسهولة فنموذج التنمية الواحدة ينتج عنه بنى اقتصادية متشابهة، وبالتالي منافسة، وفى جميع الأحوال مقاومة لاتجاه التكامل.

إذا ما نظرنا إلى الوضع الاقتصادى وخطط التنمية فى كيانات الجزيرة العربية قبل العمل المشترك أو فى بداية المرحلة، نجد أن صياغات خطط التنمية جرت أسوة بباقى الكيانات العربية، فقد كانت خطط التنمية القطرية تجرى بمعزل عن بعضها فى كيانات الجزيرة العربية اضافة لظروف التجزئة، كان كل قطر يمثل كيانا اقتصاديا بمفرده له مركز اتخاذ القرارات الخاصة به بما فيه سياسة توجيه التنمية الاجتماعية والاقتصادية وكل قطر كان حريصاً على مبدأ السيادة الوطنية وعلى مبادئ الحماية وحق الانفراد باقامة حواجز جمركية وغيره من الأمور الخاصة به مع الاتجاه نحو الاكتفاء الذاتى القطرى المرسوم بتبعية متزايدة للعالم الصناعى وخاصة الرأسمالى، والسبب فى تعزيز تلك الظاهرة كانت الانعزالية الإنمائية لدى أقطار الجزيرة العربية (14).

يقول د. على عبدالله الخلف رغم أن أقطار الجزيرة العربية متجانسة ومتشابهة فى معظم مناحى الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والمؤسسات العامة إلا أن هناك اختلافات أساسية فى بعض المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية والتي يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عند وضع برامج التنمية (15).

بغض النظر عن الآراء المختلفة حول التكامل والتنسيق فى المنطقة فإن العمل العربى المشترك لأقطار الجزيرة العربية أصبح واقعا ملموسا من الصعب تجاهله، وبعض الدراسات تشير إليه أنه نظام إقليمي فرعى. ويتساءل د. الرميحى إلى أى حد يعتبر هذا العمل متكاملا من جهة أخرى ومستمر من جهة أخرى، وفى النهاية هل يحقق آمال شعب المنطقة؟

ثم يقول «تلك الأسئلة لا يمكن الإجابة عليها بشكل قاطع في هذه المرحلة، إلا أن استعراض نتائج بعض الدراسات الموضوعية حول التعاون الخليجي قد يعطينا بعض الانطباع، ثم يورد بعض الأسئلة في هذه الدراسات وهي كما يلي: (16)

«ففي دراسة خواكجية - التي نشرت في يناير 1977 يقول في الخلاصة: يتضح مما تقدم أن التعاون الاقتصادي لأقطار الجزيرة العربية اليوم يفتقر إلى الكثير من مقومات النجاح، وأهم هذه المقومات تحديد الهدف وخلق الظروف الموضوعية».

يتحدث النجار في الإطار نفسه فيقول: «إن التبعية التي سادت قبل استغلال النفط (يقصد تبعية المنطقة إلى الخارج) لم تختفى (بعد النفط) بل أخذت صورا جديدة» كما يعلق على وجود اتجاهات الاندماج الاقتصادي في أقطار الجزيرة العربية بقوله «نعم توجد اتجاهات نحو الاندماج - بل وإنها عديدة، ولكنها لا تحقق الحد الأدنى المطلوب من التنسيق». وتوجز دراسة أخرى هذا الواقع بقولها عن الاتجاه الغالب بين أقطار الجزيرة العربية «هو الإعلان عن النيات الحسنة، والاقتناع بضرورة التعاون والتنسيق وحتى التكامل إلا أن المسافة لا تزال شاسعة بين النيات والاقتناع الذاتي من جهة وبين التطبيق والإخراج إلى الحيز العلمي من جهة ثانية».

العمل العربي المشترك لأقطار الجزيرة العربية:

منذ حصول اقطار الجزيرة العربية على الاستقلال ومنذ بداية السبعينيات بدأ العمل العربي في منطقة الجزيرة العربية يأخذ طابعا ثنائيا ثم تحول إلى العمل الجماعي المشترك والذي أدى إلى ظهور مجلس التعاون، وقد بدأ هذا التعاون في مجالات عديدة منها الاقتصادية والثقافية والتربوية والإعلامية، كما تعددت المستويات من وزارية إلى مؤسسات مشتركة ولجان وغيرها. وفيما يلي هذه الأطر التنظيمية التي تكون منها العمل العربي المشترك لأقطار الجزيرة العربية وسوف نحاول إبراز هذه النقاط دون الدخول في التفاصيل.

أولا: التعاون الثنائي:

وهذا التعاون كان البداية للعمل المشترك لأقطار الجزيرة العربية نحو التعاون

الحقيقي منذ السبعينيات، وكان هذا التعاون الثنائي عن طريق الاتفاقيات التفضيلية ذات الطابع الاقتصادي بين قطرين، وتعطيها أفضلية في المعاملة، وقد كانت الكويت سباقة إلى هذا العمل وفيما يلي بعض النماذج:

1 - اتفاقية التعاون الاقتصادي الكويتي - العراقي الموقع في 25 أكتوبر عام 1964 ولكنها بدأت من عام 1972.

2 - اتفاقية الترنزيت الكويتي - السعودي عام 1970.

3 - اتفاقية الترنزيت القطري - السعودي عام 1971.

4 - ترتيبات التعاون الكويتي - العماني في المجالات الاقتصادية والإعلامية عام 1972.

5 - اتفاقية التعاون الاقتصادي القطري - السعودي عام 1873، واشتملت على معاملة المواطنين بالمثل، معاملة رأس المال بصورة مماثلة، تشجيع إقامة المشروعات المشتركة، إلغاء الرسوم الجمركية، تشكيل لجان مشتركة.

6 - اتفاقية ثنائية بين قطر والإمارات - 1973.

7 - التعاون الاقتصادي والتربوي والإعلامي بين الكويت والبحرين في 29 يونيو 1973.

8 - اتفاق اقتصادي بين الكويت والإمارات العربية المتحدة الموقع في 30 نوفمبر 1973 والتي شملت تشجيع الاستثمار المشترك، حرية الحركة برأس المال وإرباح المشروعات المشتركة، إلغاء الرسوم الجمركية، لجان متابعة المشروعات المشتركة والعمل والنشاط الاقتصادي، الاستثمار والمسائل النقدية، التجارة والجمارك والثقافة والإعلام.

9 - ترتيبات التعاون الكويتي - السعودي في مارس 1975 وتوقيع مذكرة التفاهم.

10 - تشكيل لجنة التنسيق بين قطر والإمارات 1975.

11 - ترتيبات التعاون الاقتصادي القطري - العماني عام 1976

12 - ترتيبات التعاون الاقتصادي القطري - الكويتي عام 1978.

ثانيا: التعاون الجماعى:

هذا التعاون الجماعى يشترك فيه أكثر من قطرين، وقد اشترك فيها معظم أقطار الجزيرة العربية، وبدأ التعاون منذ أواسط السبعينيات، عندما بدأت اجتماعات ومؤتمرات الوزارية تنعقد فى هذه الأقطار، وما كانت تتمخص عنه من اتفاقيات جماعية تؤدى إلى العمل المشترك لأقطار الجزيرة العربية، وأصبح هذا العمل أكثر تخصصا ومن هذه الاجتماعات والمؤتمرات الجماعية هى:

1 - مؤتمر وزراء التربية والتعليم فيما بين 20 - 27 أكتوبر 1975 والذي عقد فى الرياض بالسعودية كان أول مؤتمر على المستوى الوزارى حضره جميع أقطار الجزيرة العربية بما فيها العراق ما عدا اليمن وتكررت هذه الاجتماعات فيما بعد.

2 - مؤتمر وزراء الإعلام فى 4 يناير 1976 فى أبو ظبى فى الامارات العربية المتحدة وكان أول اجتماع لوزراء الإعلام على مستوى الجزيرة العربية بما فيها العراق ما عدا اليمن. ثم الاجتماع الثانى فى الرياض 1976، ثم فى البحرين عام 1979، وقطر عام 1980، وعمان عام 1981.

3 - عقد المؤتمر الأول لوزراء الصناعة فى الجزيرة العربية عام 1976، وتولدت عنه منظمة الخليج للاستشارات الصناعية، ثم لم يجتمعوا بعد ذلك نظرا لارتباطهم بوزارة التجارة.

4 - المؤتمر الأول لوزراء الزراعة فى فبراير 1976 فى الرياض، ثم فى دبی والدوحة والكويت.

5 - مؤتمر التجارة الأول فى بغداد فى 7 أكتوبر عام 1977 والثانى فى الرياض عام 1979.

6 - المؤتمر الأول لوزراء الشؤون الاجتماعية والعمل فى فبراير 1978 والثانى عام 1979 والثالث 1981.

7 - المؤتمر الأول لوزراء التخطيط فى يونيو 1976 فى الرياض والثانى فى الدوحة 1980. وكذلك وزراء الصحة ومحافظى البنوك المركزية حيث عقد المؤتمر الأول فى أبو ظبى 1975 وغرف التجارة والصناعة عقد أول مؤتمر لهم فى الكويت

عام 1978 . وغيرها من المؤتمرات التخصصية في مجال النقل والمواصلات والأشغال والمالية . وتمخضت في هذه المؤتمرات لجان العمل والمتابعة وغيرها من أمور التعاون والتنسيق المشترك في مختلف المجالات .

ثالثا: قيام المؤسسات المشتركة للجزيرة العربية:

ظهرت هذه المؤسسات المشتركة للجزيرة العربية نتيجة لتلك المؤتمرات والاجتماعات الوزارية والتي أدت إلى ظهور المنظمات والمؤسسات التخصصية وتقوم بالأعمال الاستشارية وتقديم الخدمات المطلوبة وهي كالاتي:

1 - مكتب التربية العربي لاقطار الجزيرة العربية وقد وقعت اتفاقية انشائه في المؤتمر الأول لوزراء التربية والتعليم 1975، ومقره في الرياض ومن إسهامه متابعة تنفيذ قرارات مؤتمر وزراء التربية ورعاية الاجهزة التربوية المشتركة .

2 - مؤسسة الإنتاج البرامجي المشترك أنشأت في يناير 1976، ومقرها الكويت وهي مؤسسة إقليمية للإنتاج التلفزيوني .

3 - منظمة الخليج للاستشارات الصناعية - وقعت اتفاقية انشائها فبراير 1976 ومقرها الدوحة، تهدف إلى تنسيق التعاون الصناعي بين أقطار الجزيرة العربية .

4 - مؤتمر التنسيق التلفزيوني لأقطار الجزيرة العربية، عقد مؤتمره الأول في أبو ظبي في 1/6/1976 والآخر في الكويت في يناير 1981 .

5 - مكتب اتحاد الموانئ، وقعت اتفاقية انشائه في أكتوبر 1976 .

6 - وكالة انباء الخليج، أقرت في مؤتمر وزراء الإعلام الثاني في أكتوبر 1976 ومقرها في البحرين .

7 - المركز العربي للبحوث التربوية ومقره في الكويت وهو يتبع اداريا مكتب التربية العربي، ومن أهدافه تشجيع البحث العلمي في مجالات التربية وتنميتها وتطويرها في الدول الاعضاء وقد أقر نظامه في المؤتمر الثالث لوزراء التربية في أبو ظبي .

8 - هيئة البريد، عقد مؤتمرها الأول في الرياض في 24/9/1977 كما عقدت مؤتمرات في بغداد 10 - 20 في شهر يونيو 1978 - و 21/4/1979 .

9 - مركز التوثيق الإعلامي أقرته الدورة الثالثة لوزراء الإعلام في فبراير 1978 وتم التوقيع عليه في مؤتمر وزراء الإعلام في فبراير 1980، المؤتمر الخامس - ومقره بغداد.

10 - اتحاد غرف التجارة والصناعة بأقطار الجزيرة العربية، صودق على نظامه الاساسي في أكتوبر عام 1979 خلال انعقاد المؤتمر الثاني لغرف التجارة والصناعة والزراعة.

11 - جامعة الخليج أقرت فكرتها في المؤتمر الرابع لوزراء التربية والتعليم الذي انعقد في البحرين من 3 - 4 ابريل 1979 وتم التوقيع على نظامها الاساسي في المؤتمر الخامس مارس 1980 في الكويت ومقرها البحرين. إضافة إلى هذه المؤسسات والهيئات هناك مجموعة من الأعمال المشتركة في القطاع الصحي وهناك الندوات المشتركة في معظم المجالات.

رابعاً: انشاء المؤسسات الاقتصادية المشتركة:

تساهم في هذه المؤسسات الاقتصادية أقطار الجزيرة العربية، ولكن في بعض الحالات يساهم فيها قطران أو ثلاثة حسب امكانية كل قطر من النواحي المالية وذلك حسب ميزانية المشروعات وحجمها، ويلاحظ ان المشروعات الاقتصادية الاقليمية الرسمية قليلة نسبياً ولذا - فهناك بعض المشروعات الثنائية، وفيما يلي المشروعات الاقتصادية.

1 - شركة طيران الخليج ومقرها البحرين وتشترك فيها اقطار الجزيرة العربية الصغرى، ما عدا الكويت والسعودية والعراق، وقد تأسست في عام 1974.

2 - بنك الخليج الدولي، وقعت اتفاقيته في 14/12/1975 ومقره البحرين وتشترك فيه جميع أقطار الجزيرة العربية ما عدا العراق.

3 - شركة الملاحة العربية، وقع اتفاقها في 19/1/1976 وتحمل سفنها اعلام أقطار الجزيرة العربية ما عدا عمان واليمن.

4 - الشركة المشتركة للنقل البحري، وقع اتفاقها في الرياض في 17/2/1979 وتضم الكويت والسعودية وقطر فقط.

5 - شركة الخليج لصناعة البتروكيماويات، موقعها البحرين، وقع اتفاقها في

مايو 1980، وهو مشروع مشترك بين البحرين والسعودية والكويت، ورأسماله 60 مليون دينار بحريني، وقد اشتركت منظمة الخليج للاستشارات الصناعية في دراسة جداءة الاقتصادية.

6 - مشروع درفلة الألمنيوم وموقعه في البحرين.

هناك بعض المشروعات الاقتصادية والاتفاقيات لم تنفذ أو تظهر إلى حيز التنفيذ رغم أن البعض منها تمت دراسة مستفيضة عنه وهذه المشاريع هي:

1 - توحيد النقد والعملة، رغم الاجتماعات والدراسات فلم ير النور وما تزال الاجتماعات والدراسات مستمرة حوله رغم أنه كانت في المنطقة عملة نقدية موحدة قبل الاستقلال.

2 - إنشاء شركة موحدة للنقل الجوي، وعقدت لأجل ذلك عدة اجتماعات والتي تم البحث فيه أكثر من مره ولم تسفر عن شيء ملموس.

3 - مشروع انشاء سكة حديد وقد تم عرض المشروع الكويتي لربط المنطقة بشبكة خطوط حديدية في 12/4/1978.

4 - فكرة انشاء هيئة مشتركة للحفاظ على حيوانات ونباتات المنطقة، ودرست في الكويت في 18/11/1976، ولكنها لم ترى النور ولم توضع موضع التطبيق.

5 - حرية النشاط التجاري والصناعي، وتملك العقارات بين رعايا أقطار المنطقة وعلى الرغم من صدور القوانين المتعلقة بذلك إلا أنها لا تزال بعيدة عن التطبيق العملي.

ثانياً: قيام مجلس التعاون؛

دوافع قيام مجلس التعاون؛

هناك دوافع عديدة ساهمت في العمل العربي المشترك لأقطار الجزيرة العربية والتي أدت فيما بعد إلى قيام مجلس التعاون، ومن أهم هذه الدوافع، وجود النفط بهذه الكميات التجارية الكبيرة والتي تعتمد عليه الدول الصناعية والنامية وكيفية الحفاظ على هذه المادة الناضبة، والتغيرات التي برزت على أقطار الجزيرة العربية من جراء هذه المادة وما يحتاجه الآخرون أكثر من احتياجات أقطار المجلس،

والضغوط التى عاشتها المنطقة وأدت إلى استنزاف ليس نفطها فقد وإنما عائدات هذا النفط وجهدها السياسى والذهنى اليومى ، والتحكم فى الثروة النفطية يحتاج إلى سياسة موحدة ولمواجهة هذه التغيرات كلها أدى إلى ترابط عضوى بين أقطارها وحركتها واحدة، ومخاوفها واحدة، ومصيرها واحد، يثن بفردتها تحت وطأة الضغوط ويقوى ظهرها مجتمعة ويشد عودها⁽¹⁷⁾.

برغم أن الفترة الزمنية التى انقضت بين الاستقلال السياسى لقطار مجلس التعاون وبين قيام الثورة الإيرانية الإسلامية، كانت أقل من عشر سنوات فإن مشروع الرئيس الأمريكى «نكسون» قد فشل مع قيام هذه الثورة، وهو المهمة التى كانت قد أوكلت إلى شاه ايران بأن يكون شرطى المنطقة لحفظ أمن الخليج العربى، وبالتالي لحفظ المصالح الغربية المسيحية فى المنطقة، ولذا فإن شاه ايران كان قد قام بعدة ادوار بارزة فى المنطقة، اضافة إلى تكوين الترسانة العسكرية والتدخل أحيانا فى شئون بعض أقطار المنطقة واحتلاله للجزر العربية عام 1971، وانتزاعه معاهدة شط العرب مع العراق عام 1975، وذلك بعد أن كان قد دبر نشوب الحرب الأهلية فى الشمال بين العراق والاكرا⁽¹⁸⁾.

رأت الولايات المتحدة فى مساعدة شاه ايران عسكريا تدخلا غير مباشر فى الخليج العربى يخدم أهدافها ومصالحها الاقتصادية الواسعة والمتزايدة يوماً بعد يوم، وعلى هذا رأت الإدارة الأمريكية بأن ايران تمثل بؤرة الاستقرار فى المنطقة، ولذا أخذت توافق الشاه فى استعداده لملء الفراغ السياسى والايديولوجى العسكرى الذى سيعقب الانسحاب البريطانى، وكانت مصالح شاه أيضاً متطابقة مع الولايات المتحدة التى تهدد مصالحها الاقتصادية فى المنطقة دون أن تضطر للتدخل المباشر⁽¹⁹⁾ وهذا ما جعل الرئيس الأمريكى نيكسون يمد ايران بالأجهزة العسكرية المتطورة والمعقدة نوعاً وكماً ولكن وقوع الثورة الإيرانية أفشل جميع مخططات شاه إيران لحفظ أمن الخليج العربى والمصالح المسيحية الغربية.

لهذه المعطيات والتطورات السابقة، فقد أدرك أبناء المنطقة بأنه لا يمكن حفظ هذا الأمن إلا عن طريق العمل العربى المشترك فيما بينهم، وعدم اتاحة الفرصة أمام القوة الدولية أن تتدخل فى المنطقة مما قد يسبب نتائج عكسية ولهذا تم قيام مجلس التعاون بهدف العمل فى المجال الاقتصادى والاجتماعى بالدرجة الأولى، على أن يتوسع هذا التعاون فى مختلف المجالات السياسية والعسكرية وغيرها فى

المستقبل ولدرء الاخطار المحدقة من حولها بعمل جماعى مشترك .
وكذلك فإن الوزير البريطانى السابق دوغلاس هيرد يعلل قيام المجلس لتلك
الدوافع ويقول:

إن هذه الدول أصبحت تتطلع بشدة إلى متطلبات أمنها وبالعريضة، فإن
تفكيرها اتجه إلى أنه لما كانت أى دولة منها ليست قوية بمفردها فلا بد من قيام تعاون
بينها - الأمر الذى يراه معظم الناس صحيحا وطبيعيا .

لقد رأوا من مصلحتهم أن يتصرفوا على هذا النحو وبالطبع لم يكن هناك
تطابق بين كل هذه الدول من حيث الاستنتاجات الممتدة من الأوضاع الاستراتيجية
فى جنوب شرقى آسيا ككل، كما أن بعض هذه الدول قد سلك مسالك مختلفة
إلى حد ما . إلا أن قوة مصالحها المشتركة أهم فى الاعتبار من أى اختلافات . ثم
يتابع دوغلاس قوله: هذا الاتجاه نحو مزيد من التعاون والاحساس المتنامى
بالاعتماد المتبادل كان نتيجة طبيعية لرغبات دول الجزيرة العربية ذاتها . لا يمكن لأى
نمط من انماط التعاون والأمن، ولأى قضية من القضايا التى تهم دول الجزيرة العربية
أن تكتسب اية فعالية ما لم ترى الدول المعنية أن هذا التعاون يعكس مصالحها، وما
لم تقبل على هذا التعاون بحرية كاملة . ولا يمكن لأى - تهديدات من قوة خارجية
أن تجبرها على تغيير إحساسها الذاتى الذى تكمن فيه مصالحها وأولوياتها⁽²⁰⁾ .

يبدو بأن الدافع الأمنى كان واضحا خلف فكرة إنشاء المجلس، ولو أن
البعض كان يحاول إخفاء ذلك، والباعث الأمنى يشمل إضافة إلى الأمن
العسكرى، الأمن الاقتصادى وهو الأهم، وخاصة إن الولايات المتحدة سبق لها وأن
كررت مرارا بأن أى اعتداء على الخليج العربى اعتداء على مصالحها، ولهذا تحاول
ايجاد بديل عن شاه إيران من المنطقة نفسها، ولكن بطريقة أخرى بحيث لا ينكشف
تورطها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

كما أن التطورات التى سبقت أو التى رافقت قيام المجلس إضافة إلى الحرب
العراقية الإيرانية قد أكدت إلى حد ما سهولة تعرض حقول النفط فى المنطقة للخطر
من أى جانب، سواء الوجود العسكرى السوفياتى فى أفغانستان على مشارف
الخليج العربى، أو من الدول الاستعمارية المسيحية الغربية وعلى رأسها الولايات
المتحدة نفسها أو بالاشتراك مع العدو اليهودى . وقد كشفت تلك الأطماع من خلال

التعاون الاستراتيجي والعسكري اليهودي في المنطقة وخاصة إذا تعرضت المصالح المسيحية الرأسمالية في المنطقة لأي خطر كان. حتى من جانب أقطار الجزيرة العربية إذا ما فكرت في السيطرة على المصالح النفطية وعوائدها النقدية.

رغم إن التواجد السوفياتي كان لا يشكل خطراً على الخليج العربي، بقدر ما كانت تحاول الولايات المتحدة ابتزاز دول المنطقة عن طريق الخطر السوفياتي، حتى تحصل على مكاسب خاصة لها في مختلف المجالات ولكننا لا ننكر بأن الاحتلال السوفياتي لأفغانستان يشكل خطراً على أفغانستان وعلى العالم الإسلامي. وأن السوفيت لا يتطلعون إلى منابع النفط وليس لهم اطماع في الخليج العربي على عكس التطلع الأمريكي ولكنهم كانوا يريدون ضرب الإسلام والمسلمين، ومعظم حكام الجزيرة العربية أدركوا هذه الحقيقة وكذلك الدوافع الأمريكية وراء تحركاتها العسكرية في الخليج العربي.

صرح الشيخ صباح الأحمد - نائب ورئيس وزراء وزير الخارجية الكويتي لممثل وكالة «الاسوشيتدبرس» في فبراير عام 1980:

«بأنه لا يرى مبرراً للضغط الذي تحاول الولايات المتحدة ممارسته على العرب، وعلى أساسه تنشر الولايات المتحدة قواتها في منطقة الخليج العربي، ومن تريد انقاذه؟ ثم استطرده قائلاً. إن السياسة الأمريكية تسبب لنا الانزعاج. إن أحداث أفغانستان ليست لها أية صلة بمنطقة الخليج العربي. وليس لدينا أي قلق فيما يتعلق بنوايا الاتحاد السوفيتي تجاه الخليج العربي. إننا واثقون من هذا مائة بالمائة. وأنا لا أعبر بهذا عن رأي الكويت وحدها بل إن هذا هو رأي كل دول المنطقة»، كما أشار الوزير الكويتي إلى «إن الولايات المتحدة تحت ستار من نظرية الخطر السوفيتي المفتعلة، تمارس الضغط على العرب حتى لا يرفعوا سعر النفط، وحتى يوافقوا على منح قواعد وتسهيلات عسكرية لقوات الولايات المتحدة الجوية والبحري⁽²¹⁾.

على أية حال يمكن القول بأن حقول النفط قد تكون هدفا سهلا وسريعا لأي طامع في المنطقة بغض النظر عن هويته. وهذه الحقول يمكن اعتبارها مصدر الدخل القومي الوحيد لهذه الاقطار في المرحلة الحالية، مما يكون دافعا قويا لدى هذه الاقطار لحماية مصالحها، وكان وزير البترول في الامارات قد صرح إلى

صحيفة «الاوزرفر» في 15 مارس 1981 «بأن مسألة تحسين النظام الدفاعي واجراءات الامن الداخلى تحت أعلى مرتبة بين سلم اولويات عمل المجلس»⁽²²⁾. وكان السلطان قابوس سلطان عمان قد أشار إلى أهمية الأمن عندما ادلى بالتصريح التالي:

«إذا نحن اعطينا أهمية كبرى للناحية الامنية فى اتفاق مجلس التعاون فذلك لاعتقادنا بأن ليس فينا دولة واحدة قادرة بمفردها على حماية أمن الخليج العربى ولكن حتما فى تكتلنا الامنى الدفاعى الجماعى قوة يجب أن يتكفل بها مجلس التعاون»⁽²³⁾.

كانت هناك بعض الاختلافات فى وجهات الراى بين أقطار مجلس التعاون قبل الأشهر التى سبقت الدورة الأولى لاجتماع المجلس الأعلى لحكام مجلس التعاون فى أبو ظبى 1981، وكان هناك رأيان على صعيد مجلس التعاون الجديد، فوجهة النظر الأولى تقوده الكويت وتساطف معها علانية الامارات العربية المتحدة، وهذا الراى يحث على التعاون الاقتصادى والاجتماعى بوصفه أمرا مطلوبا عما عداه مجالات التعاون، خاصة التعاون العسكرى، أما وجهة النظر الاخرى فقد تزعمتها عمان مؤكدة على عنصرى الامن والتعاون العسكرى بوصفها نقطة انطلاق مجلس التعاون الجديد وسن ناحية أخرى لعبت كل من السعودية والبحرين وقطر دور التوازن والاعتدال بين هذين الرايين⁽²⁴⁾.

انعقد مؤتمر وزراء خارجية دول مجلس التعاون فى مسقط يوم 23 مايو 1981، للإعداد لمؤتمر القمة الأول للمجلس ولوضع اللمسات النهائية على مشروع مجلس التعاون ومحاولة تجاوز الخلافات فى وجهات النظر التى ظهرت حول اسلوب تحقيق الأمن، فقد كان الوفد العمانى قد تقدم بورقة عمل تركز على الجانب الامنى والسياسى وذلك لمواجهة التطورات التى حدثت مؤخرا فى المنطقة، وقد جاء التصور العمانى للخطر السياسى لاقطار مجلس التعاون مؤداه بأن اقطارها تواجه اساسا الخطر السوفيتى وأن التصدى له يكمن فى إيجاد علاقات أقوى مع الدول الغربية بحيث يكون أمن الخليج العربى مرتكزا على اساس توازن استراتيجى مع المعسكر الشرقى، وخاصة بعد اختلال ذلك التوازن بعد رحيل شاه ايران، ووصول السوفيت على مقربة من الخليج العربى بعد التدخل فى افغانستان بينما كان التصور الكويتى للعمل المشترك الخليجى يستلزم اساسا بناء قاعدة

اقتصادية مشتركة قوامها مجموعة من المؤسسات الاقتصادية فى المجالات المالية والصناعية والاستثمارية وتكرس هذه المؤسسات صيغة اقتصادية عالية جديدة فى السياسة الدولية، دون التورط فى انحياز إلى الكتلة الشرقية أو الغربية، وإيجاد علاقات دولية فى النواحي السياسية والاقتصادية بشكل متوازن بين أقطار المجلس والقوتين العظميين لكي يجنب هذا التوازن أقطار المجلس احتمالات التدخل الأجنبي فى شؤونها الخاصة. وقد لاقى هذا التصور الكويتى موافقة الأغلبية، كما ركز البيان الختامى لمؤتمر القمة الأول لدول مجلس التعاون فى أبو ظبى على الجانب الاقتصادى فى أعمال المجلس⁽²⁵⁾.

أعلن الجانب الكويتى قبل انعقاد القمة الأولى عن وجهة نظره عندما ألقى راشد الراشد - وكيل وزارة الخارجية - محاضرة عامة لوجهة النظر الكويتية مؤكداً فيها رفض الكويت لوجود أية قوة عسكرية أجنبية فى الخليج العربى وقال:

«إن مجلس التعاون المرتقب إنما يرمى إلى تحرير الخليج العربى من أية قوة أجنبية أمريكية أو سوفيتية وإنه برغم كون المجلس الجديد خطوة على طريق وحدة أقطارها، إلا أنه ليس غاية ما نريده أو نرنوا إليه، فإن الاستقرار فى منطقتنا يحتاج بالتأكيد إلى مزيد من العمل على الجبهة الداخلية فى سبيل توفير المزيد من الرخاء لشعبنا الذى يحتاج أيضاً إلى مزيد من الحريات العامة ومن المشاركة السياسية». وكانت وجهة النظر العمانية قد وردت بصورة غير مباشرة فى بيان صحافى صدر من وكيل وزارة الخارجية العمانية قال فيه «إن أقطار مجلس التعاون لا تستطيع حماية نفسها إلا بالتعاون مع الغرب أما صحيفة «الجزيرة» السعودية، شبه الرسمية، فقد أكدت الحاجة إلى الأسلحة وقالت إن الغرب «الولايات المتحدة» لا بد وأن يبعنا الأسلحة التى نحتاجها دون تدخل من جانب قواته⁽²⁶⁾.

لا تأتى حماية استقلال أقطار مجلس التعاون من الاتجاه نحو الأمن والتسلح فقط دون دراسة علمية لمدى تأثير التوسع فى التسليح وخلق الجيوش الحديثة على اقتصاديات هذه البلدان، أو حتى تركيباتها السياسية. ويقول د. حسن إبراهيم: «فوجود جيش كبير مدرب على الأسلحة الحديثة هو فى حد ذاته دعوة صريحة للانقلابات العسكرية ومن ثم عدم الاستقرار السياسى... أما التأثير الاقتصادى لسباق التسلح فهو واضح، فالدول المعنية تتجه بعائداتها النفطية نحو تكديس الأسلحة، لا نحو التنمية الاقتصادية، وهذا هو الهدف الأول والأخير لما يسمى

الان بالامبريالية المسيحية الاقتصادية للدول الصناعية الكبرى⁽²⁷⁾ كما أن العمل الاقتصادي المشترك لاقطار مجلس التعاون، من شأنه دعم الاستقلال السياسي لهذه الاقطار، ودعم عوامل الوحدة العربية على ضوء الروابط القومية، وكذلك المصير المشترك لاقطار المجلس وأن تنفيذ مشاريع صناعية وزراعية واسعة، والمشروعات الانتاجية في هذا المجال يعتبر ضرورة ملحة لدعم الامن القومي في منطقة الخليج العربي، والمهددة بالاحتكارات الرأسمالية⁽²⁸⁾.

كما أن منطقة الخليج العربي واهميتها السياسية والاقتصادية والدولية، قد فرضت عليها الحذر في السلوك الدولي، والمحافظة على أمن المنطقة واستقرارها، وهذا ليس مطلبها وإنما مطلب عالمي، فإن أى خلل في أمن المنطقة يعنى متاعب اقتصادية وسياسية على الصعيد المحلي والدولي ولا بد لاقطارها ان تتعاون وتتضامن للمحافظة على استقرار أمن المنطقة، وهناك دوافع أخرى تشترك فيها جميع الاقطار وهى مشاكل التنمية والقوى العمالية والهجرة الأجنبية وتشابه الاقتصاد والتركيب السياسي والاجتماعي مع الإدراك بأهمية التقليل من الاعتماد على النفط وتنويع مصادر الدخل القومي وإيجاد قاعدة انتاجية وصناعية وزراعية، تستطيع ان تؤمن احتياجاتها وخاصة الضرورية⁽²⁹⁾، إضافة إلى هذه العوامل وغيرها ساهمت في قيام مجلس التعاون وفرضت المواجهة الجماعية للمشاكل والتحديات الداخلية والخارجية، اقتصادية وسياسية واجتماعية وأمنية.

بداية العمل العربي المشترك لاقطار مجلس التعاون:

شملت الاطر السياسية لمجلس التعاون جميع مجالات التعاون الذي كان قائما بالفعل، في ميادين عدة بين اقطارها في إطار العمل العربي المشترك، وربما يكون المغزى الوحيد لمثل هذا العمل العربي، هو أن جميع المؤسسات المشتركة السابقة على قيام هذا المجلس وإعلانه قد شملت العراق في حين ان المجلس ذاته استبعد العراق من إطاره⁽³⁰⁾، وكان من الاخرى ادخال اليمنيين في هذا العمل العربي المشترك لتحقيق التكامل بين اجزاء الجزيرة العربية في كافة المجالات، وخاصة ان اليمن يعتبر تعبيرا عن امتداد طبيعي للجزيرة العربية بل وأساسا لها، إضافة إلى دورها الطبيعي في المنطقة وعلى مستوى الوطن العربي⁽³¹⁾ وتقول د - سعاد الصباح في هذا الصدد:-

«تجدر الإشارة إلى أنه لم يتحدث أحد من قادة المجلس عن الوحدة العربية منذ قيام المجلس حتى قمة الكويت في نوفمبر 1984، حيث سمعنا لأول مرة أن هدفه قيام الوحدة، لم يرد في الميثاق التأسيسي أى بند لانضمام أعضاء عربية أخرى أو حتى خليجية حيث استبعدت العراق كما استبعدت اليمن» (32).

شهدت مسيرة العمل العربى المشترك ولادة منظمة جديدة اقليمية من ضمن جسد التعاون الاقليمي العربى، عندما أعلن عن قيام مجلس التعاون فى اجتماع أبوظبى الأول فى مايو 1981، وقد جاء فى البيان الختامى بأنه مكمل للوحدة العربية وأن قيام المجلس لا يتعارض مع الجامعة العربية وإنما هو بداية لهذه الوحدة، وقد تكون تجربة مجلس التعاون، التجسيد العملى للتكامل والسير نحو الوحدة، حيث يشير المجلس إلى أن قيام هذا الإطار الاتحادى يأتى لتكريس حالة قائمة من التنسيق والتعاون بين الدول الست الأعضاء فى المجلس ولاستكمال الجهود المشتركة الرامية إلى تحقيق مستقبل أفضل وصولاً إلى وحدة دولها. فإذا كان لمجلس التعاون دوره فى تحقيق الوحدة العربية فإن هذا الدور يتلخص فى إعطائه نموذجاً يحتذى به فى عملية الانتقال من مرحلة التمنى والرغبة تجاه فكرة الوحدة إلى مرحلة العمل الجاد والدؤوب، وانتهاج أفضل السبل العملية لتحقيقها، أو على الأقل الاقتراب منها أكثر فأكثر. ومن هنا فإن أى تقارب أو تعاون بين أى مجموعة من البلدان العربية إنما يشكل خطوة فى الاتجاه الصحيح نحو ما يصبو إليه العرب جميعاً من الوحدة والارتقاء..

نظر لأهمية هذه التجربة الجديدة للعمل العربى المشترك لاقطار الجزيرة العربية فسوف نلقى الضوء على مسيرة التعاون الإنمائى العربى لاقطار الجزيرة العربية والتي تحمل فى طياتها تأثيرات تتضارب فى اتجاهاتها المحتملة بين الانعكاسات الإيجابية والسلبية.

ترجع خطوات انشاء مجلس التعاون إلى عام 1975، عندما كان الشيخ جابر الاحمد - رئيس الوزراء، قبل أن يصبح أمير الكويت فى زيارة لأبوظبى فى 16 مايو 1975 بدعوة من الشيخ زايد - رئيس الامارات، وبعد محادثات بين الجانبين، صدر بيان مشترك دعا فى حينه إلى تشكيل لجنة وزارية مشتركة يرأسها وزيراً خارجية البلدين يجتمع مرتين كل سنة على الأقل، وفى اثناء زيارة الشيخ سعد العبد الله إلى أقطار المنطقة صدرت البيانات المشتركة عن محادثاته فى هذه

الاقطار، دعت فيه إلى تحرك سريع تتضافر فيه جهود دول المنطقة للوصول إلى وحدة دولهم العربية التي تحتمها الروابط الدينية والقومية وأمانى شعوبها في تحقيق المزيد من التقدم⁽³³⁾.

بدأت مشاورات العمل العربى حيال مسألة التعاون العربى لأقطار الجزيرة العربية، فى مؤتمر وزراء خارجية هذه الاقطار الذى عقد فى مسقط، وبدعوة من عمان خلال عام 1976، - وحضره بالاضافة إلى اقطار المجلس الستة كل من ايران والعراق، لدراسة التطورات السياسية الجديدة فى الخليج العربى وخاصة حول موضوع أمن المنطقة، ولكن الاجتماع انفض دون تحقيق أية نتيجة، وطويت الفكرة مؤقتا وتم اعادة طرح تلك الفكرة من جديد اثناء انعقاد مؤتمر القمة العربى فى الأردن فى نوفمبر عام 1980، بين حكام الجزيرة العربية، نظرا لكثافة التطورات السياسية والعسكرية التى افرزتها الحرب العراقية - الإيرانية، والتدخل السوفيتى فى افغانستان، الذى جعل القوات السوفياتية على بعد 800 كم من منابع النفط، مما تحتم على هذه الاقطار ان تتجه نحو العمل العربى المشترك لإقامة هذا المجلس وخاصة بعد نضوج فكرة التعاون الاثنائى والتى كانت قد بدأت فعلا فى السبعينيات واثناء هذه القمة فى الأردن، تمت الموافقة على هذه الفكرة ومن ثم جرى الاعداد لورقة العمل المشترك وتمت مراجعتها فى الاجتماعات الجانبية للقمة الإسلامية التى عقدت فى الطائف خلال الاسبوع الاخير من يناير 1981، لمتابعة المشاورات حيال اخراج فكرة مجلس التعاون إلى حيز التنفيذ⁽³⁴⁾.

بذلك يمكن القول بأن الجهود المكثفة لبداية التفكير فى العمل لانشاء مجلس التعاون بدأت مع مؤتمر القمة العربى الحادى عشر الذى عقد فى الاردن، وفيها كان الشيخ جابر الاحمد - أمير الكويت قد أطلع حكام اقطار المنطقة على التصور الكويتى لاستراتيجية مشتركة للتعاون فى جميع المجالات. ومن ثم قام وزير خارجية الكويت بعرض التصور الكويتى الكامل لهذا العمل المشترك الجماعى على حكام اقطارها فى جولته التى شملت هذه الاقطار. وقد كان هذا التصور الكويتى يقوم على العمل المشترك لتقوية الروابط بين كافة أقطار الجزيرة العربية فى كافة المجالات السياسية والاقتصادية والنفطية والثقافية والعسكرية فى إطار تنسيق مشترك تجمعهم استراتيجية شاملة، وقد لقيت هذه الافكار الكويتية كل ترحيب وتقدير من المسؤولين فى المنطقة، ولهذا تم إرسال المشروع الكويتى للعمل المشترك

إلى الاقطار المعنية، واثناء انعقاد مؤتمر القمة الإسلامية فى الطائف جرت اتصالات بين حكام الجزيرة وتبلورت فيها هذه الافكار التى تركزت حول ضرورة ابعاد منطقة الجزيرة عن الصراعات الدولية والعمل المشترك على اقامة تعاون فيما بينها.

قيام مجلس التعاون

أولاً: الإعلان عن قيام مجلس التعاون:

نتيجة للجهود الكويتية تم عقد مؤتمر فى الرياض فى 4 فبراير 1981، ضم وزراء خارجية أقطار الجزيرة العربية الست، وتم فيه مناقشة خطة العمل العربى المشترك المقدم من الكويت. كما قدمت السعودية مشروعاً لعقد اتفاقيات تعاون أمنى ثنائى بينها وبين كل قطر من أقطار الجزيرة، بحيث تشكل هذه الاتفاقيات الثنائية فى النهاية اتفاقية أمنية واحدة. . فى حين اسفرت نتائج اجتماع الرياض عن الاتفاق على انشاء مجلس للتعاون بين هذه الاقطار لبلورة وتطوير التعاون والتنسيق والعمل المشترك بين الأقطار الست، وفضلت هذه الاقطار ان تقوم المجالس على شكل التعاون بين الاقطار الاعضاء وليس فى شكل وحده أو اتحاد، وقد يكون ذلك استرشاداً بالتجربة العربية فى الوحدة ولهذا فإن اجتماعات الرياض قد ركزت على التفكير فى التعاون فى مختلف المجالات الفنية وعدم التركيز على النواحي الأمنية، لأعطاء الفرصة للعمل المشترك للتعاون، والبعد عن الخوض فى مواطن الخلاف بين وجهات نظر الأقطار الأعضاء بقدر الإمكان فى البداية

وفى نفس اليوم تم فى الرياض، الاعلان عن قيام تعاون مشترك بين اقطارها الست باقامة مجلس للتعاون على أن تكون له أمانة عامة وتعقد اجتماعات دورية من أجل تحقيق اهدافه، كما قرر وزراء الخارجية، عقد مؤتمر لهم فى مسقط بتاريخ 8 مارس 1981، على أن يسبقه اجتماعات للخبراء بتاريخ 24 فبراير 1981، فى كل من الرياض ومسقط، لوضع نظام متكامل لما اتفق عليه بشأن إنشاء مجلس التعاون لأقطار الجزيرة العربية، أما البيان الختامى لهذا المؤتمر فقد جاء فيه: (35)

«إدراكاً من كل من دولة الامارات العربية المتحدة، ودولة البحرين والمملكة العربية السعودية وسلطنة عمان ودولة قطر ودولة الكويت، لما يربط بينها من علاقات خاصة وسمات مشتركة نابعة من عقيدتها المشتركة وتشابه انظمتها وبوحدة

تراثها وتماثل تكوينها السياسى والاجتماعى والسكانى وتقاربها الثقافى والحضارى ورغبة من هذه الدول فى تعميق وتطوير التعاون والتنسيق بينها فى مختلف المجالات بما يعود على شعوبها بالخير والنمو والاستقرار.

ثم تابع البيان قوله: «وقد اتفقوا على إنشاء مجلس التعاون بين دول الجزيرة العربية المذكورة وتكوين أمانة عامة لهذا الهدف وعقد اجتماعات دورية على مستوى القمة وعلى مستوى وزراء الخارجية وصولاً إلى الغايات المرجوة لهذه الدول وشعوبها فى جميع المجالات.

جاءت هذه الخطوة تمشياً مع الأهداف القومية للأمة العربية وفى نطاق ميثاق جامعة الدول العربية الذى حث على التعاون الاقليمى الهادف إلى تقوية الأمة العربية وما يؤكد تدعيم انتماء هذه الدول لجامعة الدول العربية وتعزيز دورها فى تحقيق اهداف ومبادئ ميثاقها وبما يخدم القضايا العربية والقضايا الإسلامية.

يقول سعود الفيصل وزير خارجية السعودية: «وإذا كانت جامعة الدول العربية تشكل أشمل مظلة متوفرة للعمل العربى المشترك، فإن مجلس التعاون يمثل النجح صيغة تعاونية أقدم عليها عرب الجزيرة تمشياً مع ما نصت عليه المادة التاسعة من ميثاق جامعة الدول العربية التى تتيح للدول الاعضاء إمكانية الدخول فى اتفاقات أو أى ترتيبات من شأنها تحقيق أعلى درجة من التعاون والترابط فيما بينهم» (36).

ثانياً: اجتماع أبو ظبى الأول وقيام مجلس التعاون:

بعد اجتماعات وزراء خارجية مجلس التعاون فى مسقط فى ٩ مارس 1981، تمت فيه الموافقة على الهيكل التنظيمى لمجلس التعاون والنظام الاساسى، وطريقة التصويت والاجتماعات الدورية، وقعوا بالأحرف الأولى على الإطار العام لهذا المجلس، وفى الفترة ما بين 26 - 27 مايو من العام نفسه، عقد حكام المجلس أول اجتماع لهم فى أبو ظبى بدولة الامارات، واتفقوا فيما بينهم على إنشاء مجلس يضم أقطارهم ويسمى مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وقاموا بالتوقيع على النظام الاساسى للمجلس الذى يهدف إلى تطوير التعاون المشترك بين هذه الاقطار وتنمية علاقاتها وتحقيق التنسيق والتكامل والترابط وتعميق وتوثيق الروابط والصلات القائمة بين شعوبها فى مختلف المجالات، وإنشاء المشاريع

المشتركة ووضع انظمة متماثلة فى جميع الميادين الاقتصادية والثقافية والإعلامية والاجتماعية والتشريعية، فيما يخدم مصالحها ويقوى قدرتها على التمسك بعقيدتها وقيمها، كما تم تعيين عبدالله يعقوب بشارة - أميناً عاماً لمجلس التعاون وأن تكون مدينة الرياض مقراً دائماً للمجلس. وإدراكاً منهم لخطمية التكامل الاقتصادى بين اقطارهم والاندماج الاجتماعى بين شعوبهم، يرون أن الظروف المرحلية التى تعيشها دولهم والقضايا والمشاكل المتشابهة التى تواجهها علاوة على تماثل نظمها الاقتصادية والاجتماعية تقضى بوجوب وضع الاسس وإقامة المؤسسات وإنشاء الاجهزة المؤدية إلى جعل ذلك التكامل والاندماج الاجتماعى حقيقة ماثلة للعيان⁽³⁷⁾.

تحقيقاً لهذه الاهداف ووضعها فى إطار التنفيذ مع ما جاء فى المادة الرابعة من النظام الاساسى قرروا انشاء لجان متخصصة، وارفقوها فى ورقة العمل الخليجى المشترك مع موافقة حكام مجلس التعاون. كما استعرضوا الأوضاع فى المنطقة، وأكدوا على حق شعوبها ودولها فى المحافظة على أمن واستقرار المنطقة، وبأن المجلس يعبر عن ارادة اقطارها وحققها فى الدفاع عن أمنها وصيانة استقلالها ورفض أى تدخل اجنبى فى المنطقة مهما كان مصدره، وابعادها عن الصراعات الدولية، وعدم السماح بايجاد أية قواعد عسكرية لاية دولة كانت، وأن ضمان الامن فى الخليج العربى مرتبط بتحقيق السلام فى الشرق الأوسط وضرورة حل القضية الفلسطينية ومنع انتهاك اسرائيل لسيادة لبنان، كما أيدوا الجهود المبذولة لوقف الحرب العراقية - الإيرانية باعتبارها من المشاكل التى تهدد أمن المنطقة وتزيد من احتمالات تدخل القوى الاجنبية وتأكيدهم والتزامهم بميثاق جامعة الدول العربية والقرارات الصادرة عن مؤتمرات القمة العربية، وجددوا دعمهم لمنظمة المؤتمر الإسلامى والتزامهم بقراراتها وعبروا عن تمسكهم بمبادئ عدم الانحياز وميثاق الامم المتحدة⁽³⁸⁾.

يتضح من ذلك أن اهم ما جاء فى النظام الاساسى للمجلس، هو وحدة المصير ووحدة الهدف لاقطار مجلس التعاون وهى السمات المشتركة والفردية من أجل الوصول إلى وحدة هذه الأقطار، وبأن المخاطر الخارجية تهدد هذه الاقطار جميعاً، وتشترك أيضاً فى الخصائص الداخلية، كالتركيب الديمغرافى وبنيتها

الاقتصادية، وهذا كله يفرض على هذه الاقطار، ايجاد صيغة مشتركة للعمل الجماعي، كما اختارت هذه الاقطار صيغة التعاون فيما بينها وليس صفات الكتلة أو الحلف أو المنظمة، وحددت الهدف النهائي هو وحدة الاقطار كمرحلة نهائية، كما ابتعدت عن القوالب السياسية التي تجمد وتحد من المرونة فلا هو من ضمن الإطار الفيدرالي أو الكونفدرالي، وأن هذا التعاون ليس لخدمة أقطار الجزيرة العربية، وإنما يخدم أهداف الامة العربية، واعتماد شرعية العمل المشترك بانسجامها مع ميثاق الجامعة العربية الداعي إلى تحقيق تقارب أوثق وروابط أخرى، وهي لدعم القضايا العربية والإسلامية، وأهم أهداف النظام الاساسى للعمل المشترك هو (39):

1 - تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بين الدول الاعضاء فى جميع الميادين وصولاً إلى وحدتها.

2 - تعميق وتوثيق الروابط والصلات وأوجه التعاون القائمة بين شعوبها فى مختلف المجالات.

3 - وضع أنظمة متماثلة فى مختلف الميادين بما فى ذلك الشؤون المالية والاقتصادية والتجارية والعلمية والثقافية وشؤون الصحة والاجتماع والإعلام والشؤون التشريعية والإدارية.

ليس هناك تحديد سوى وضع أنظمة متماثلة فى جميع الميادين كما لا توجد إشارة إلى التعاون الامنى وشؤون الدفاع، ولكن فى اجتماع القمة الثانية فى الرياض فى نوفمبر 1981، أشير لأول مرة إلى التعاون العسكرى فى البيان الختامى رغم خلو النظام الاساسى منه، كما جاء أيضا فى البيان الختامى لقمة المجلس الاعلى فى البحرين فى نوفمبر 1982، عن العمل العسكرى المشترك أى بعد عام واحد تقريبا، وأصبح المجلس يعتمد على قدراته الذاتية الجماعية للعمل، ومنها تطور إلى مناورات مشتركة كدرع الجزيرة الاول فى أبوظبى فى سبتمبر 1983، ثم درع الجزيرة الثانى فى أكتوبر 1984، وهى مغزاها الاصرار الجماعى على حماية أمن دول المجلس وحتى هذا الوقت فإن الجدل فى الأقطار العربية بالذات يدور حول مصداقية الاعتماد على الذات وعن المدى الذى قطعتة دول المجلس فى تحقيق

هذا المبدأ. وقد اقترن التعاون الدفاعي بين الدول الاعضاء بارتفاع حدة الدبلوماسية، التي نشطت من أجل أن تحوذ على الاهتمام العالمي بمشاكل الخليج لا سيما الحرب العراقية - الإيرانية⁽⁴⁰⁾.

ورقة العمل العربي الخليجي المشترك:

وافق حكام اقطار مجلس التعاون والوفود المرافقة في الدورة الأولى للمجلس الأعلى المنعقد في أبوظبي بتاريخ 26 مايو 1981 على ورقة العمل العربي المشترك والتي جاء فيها بأن ظهور مجلس التعاون إلى الوجود جاء تلبية للواقع التاريخي والثقافي والاقتصادي والسياسي والاستراتيجي، الذي مرت به منطقة الخليج العربي، وخاصة في الوقت الراهن، ونتيجة لتطور الاحداث الأخيرة أو أن التضامن الطبيعي الذي يربط أقطار الجزيرة العربية يجب أن يظهر في إطار العمل المشترك بعد الخطوات الإيجابية والفعالة الثنائية والجماعية التي اتخذت قبيل قيام المجلس وحتى الآن. وأن يعود هذا التضامن بصورة أفضل لصالح ابنائها. كما أن العالم يتجه إلى الواحدات السياسية الكبيرة والكتل الاقتصادية لحفظ الامن والاستقرار، وسد الثغرات التي وقعت فيها وخاصة النزاعات الاقليمية وإذا كانت التحديات تكفي لايجاد تعاون مشترك في أي منطقة من العالم فإن ظروف اقطار الجزيرة متداخلة أكثر بما تشكله من قومية تدين بدين واحد وتراث حضاري وقيم وعادات مشتركة، وإن الموقع الجغرافي السياسي والثروة النفطية جعل من اقطار الجزيرة عرضة للاطماع الاجنبية والدولية مما دفعها إلى الاتجاه نحو التعاون المشترك، وأن أهمية الترابط بين الدول وبالتالي عملية الاندماج الاقليمي وخاصة في الجزيرة، سوف يكون من العوامل المساعدة لاهداف الأمة العربية والإسلامية ويصبح مطلباً اساسياً في هذه الفترة التاريخية⁽⁴¹⁾.

كما جاء في ورقة العمل المشترك بأن التعبئة الفعالة للموارد والكفاءات، في بناء منظمة اقليمية تعزز الوضع القائم وتساعد في العملية التنموية لاهتمام المنطقة خاصة والعرب بصفة عامة، وأن الاندماج سوف يساعد في مواجهة التحديات الصناعية والاقتصادية كما تبعد المنطقة عن المساومة والمنافسة الدولية، أما إذا كانت هذه الاقطار مجزأة ومتفرقة ذات كيانات صغيرة فإنه يسهل افتراسها.

أما بالنسبة لموضوع الأمن فإن الورقة جاء فيها أن الحديث عن فراغ القوة في المنطقة والثروة التي ليس لها أصحاب يمكن أن ينتهي إلى الأبد، إذا قام أصحاب المنطقة بعزم ثابت وأكد بدورهم الجماعي في العمل المشترك مما يجعل لها هدفا موحدا في المجال العالمي والاقليمي يعبر عن مكانتها في الاقتصاد العالمي، وكذلك في علاقاتها الدولية، وتساهم بفعالية في قضايا الأمة العربية، ويأن الوحدة العربية منذ بزوع فجر التحرر العربي بعد الحرب العالمية الثانية، كانت محطة أنظار الشعوب العربية، وأن الخطوات الايجابية يجب أن تبزغ في هذا الطريق من منطقة احتضنت الإسلام ورعت العروبة وسارت في دمها المصلحة القومية منذ فجر التاريخ (42).

ثم تحدثت ورقة العمل المشترك عن الصعوبات التي تواجهها اقطار المنطقة ولا يمكن مواجهتها إلا بالعمل الجماعي المشترك حيث إن هذه الاقطار اعتمادها الوحيد على ثروة ناضبة وهي النفط، وأن تعمل لصالح شعوبها في الوصول إلى التنمية الحقيقية واقامة بنية أساسية وقاعدة انتاجية ثابتة وذلك بإعداد وتدريب الكوادر البشرية لكي تساهم في تحويل النفط إلى تنمية شاملة ومستقرة، وخاصة أن الفرصة المتاحة اليوم لا تتاح غدا، ولذا على هذه الاقطار العمل الجماعي المشترك نحو الاندماج الحقيقي والشامل للقطاعات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وعن طريق الخطط الاندماجية الصحيحة بين الاقطار في الجزيرة العربية يمكن مواجهة هذه التحديات المعاصرة والمحافظة على الاستثمارات المادية؛ ولهذا تم انشاء العديد من اللجان من الوزراء المتخصصين للعمل المشترك بالتنسيق والتعاون مع الامانة العامة للمجلس (43).

يتضح من ورقة العمل المشترك بأن اقطار الجزيرة العربية إذا لم تعمل في إطار العمل المشترك فإن القوى الخارجية لن تتركها تنعم بخيراتها والاضطراب أكبر من الانتظار، وفي الورقة دعوة صريحة للعمل السياسي والأمني والاقتصادي، بالإشارة إلى فراغ القوة في المنطقة دعوة نحو تحقيق الاستقرار بالعمل المشترك، والذي يعتبر أمن الخليج من أمن الأمة العربية، كما تشير ورقة العمل الخليجي

المشترك، بإنشاء سبع لجان هي لجنة التخطيط الاقتصادى والاجتماعى ولجنة التعاون المالى الاقتصادى ولجنة النقل والمواصلات ولجنة التعاون الصناعى ولجنة النفط، ولجنة الخدمات الاجتماعية والثقافية، ولجنة التعاون المالى والنقدى، وقد باشرت هذه اللجان الوزارية أعمالها بعد انشائها وأصبحت الآن لجانا دائمة عددها حوالى إحدى عشرة لجنة⁽⁴⁴⁾.

نتائج الاجتماع الأول للمجلس الأعلى:

يعد الاجتماع الذى عقد فى أبوظبى فى الفترة من 25 - 26 مايو 1981، مؤتمر القمة الأول للاقطار الست، ويعتبر هذا الاجتماع المرحلة النهائية والأخير لإنشاء مجلس التعاون، وأول لقاء قمة يساهم بنتائج ايجابية فى اثراء مسيرة العمل العربى المشترك، ويشكل تنظيمًا دوليًا شبه اقليمى قومى عربى فى المنطقة كما يعتبر هذا المؤتمر التأسيس الاول لمجلس التعاون، وقد حضره كل من الأمين العام للجامعة العربية والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى.

تمت فيه المصادقة النهائية على النظام الاساسى لمجلس التعاون، وبذلك يشكل البداية القانونية لهذه المنظمة الاقليمية، وتم التصديق على اختيار أول أمين عام للمجلس والموافقة على تشكيل هيئة لتسوية المنازعات والنظام الداخلى لكل من المجلس الاعلى والمجلس الوزارى وتكليفه للاجتماع فى وقت لاحق لتبادل وجهات النظر حول الوضع السياسى والامنى فى المنطقة وتقديم ذلك إلى الدورة الثانية لاقطار المجلس، وكذلك تم تشكيل خمس لجان للعمل من أجل تعزيز التعاون ووضع تفاصيل العمل المشترك العربى من الوزراء المتخصصين، وتكون هذه اللجان ذات مهمة مؤقتة تعمل بالتنسيق والتعاون مع الامانه العامة للمجلس، تبدأ أعمالها وفقا للمواعيد التى يقترحها الأمين العام وهذه اللجان⁽⁴⁵⁾ هي:

1 - لجنة التخطيط الاقتصادى والاجتماعى:

تتولى هذه اللجنة التنسيق والتخطيط فى مجالات العمل العربى المشترك فى الشؤون الاقتصادية والاجتماعية، ويهدف إلى تحقيق التجانس والتكامل بين الخطوط الاقتصادية الوطنية فى تلك الاقطار ووضع الأسس لتصور تخطيط متكامل مستقبلى وبصورة مستمرة بغية الوصول إلى وحدة اقتصادية بين الاقطار الاعضاء.

2 - لجنة التعاون المالى والاقتصادى والتجارى:

دور هذه اللجنة القيام بدراسة الوسائل الكفيلة بتنسيق التعاون المالى، والاقتصادى، ويكون اختصاصها توحيد الانظمة الخاصة بالاستثمار وتنسيق السياسات المصرفية والتنفيذية ووضع الاسس الكفيلة بمعاملة رعايا اقطار المجلس فى أى قطر من هذه الاقطار نفس معاملة مواطنيها دون تفریق أو تمييز، ووفقا لما يتفق عليه فى مجالات حرية الانتقال والعمل والاقامة والتملك والارث والاىصاء وحرية ممارسة النشاط الاقتصادى، وتشجيع القطاع الخاص وازالة الحواجز الجمركية بين الاقطار الاعضاء، والتعاون فى مجال النقل والمواصلات.

3 - لجنة التعاون الصناعى:

تقوم هذه اللجنة بتنسيق النشاط الصناعى فيما بين الاقطار الاعضاء، وتوزيع الصناعة على رقعة الاقطار الاعضاء بتشجيع وإقامة الصناعات المكملة للمشروعات الاساسية موزعة فى الاقطار الاعضاء حسب الميزات النسبية والجدوى الاقتصادية.

4 - لجنة النفط:

تتكون هذه اللجنة من وزراء الخارجية والبترول والمالية وتقوم بالعمل المشترك فى تنسيق دراسات أقطار المجلس فى مجال الصناعة النفطية بجميع مراحلها ووضع سياسة نفطية موحدة، ومواقف مشتركة نحو العالم الخارجى فى المنظمات المتخصصة والمنظمات الدولية.

5 - لجنة الخدمات الاجتماعية والثقافية:

من مهام هذه اللجنة التنسيق والتكامل فى مجالات العمل المشترك فى التربية والتعليم والصحة والعمل والشئون الاجتماعية والثقافة ووضع أسس لتكاملها وتجانسها⁽⁴⁶⁾.

يمكن أن نقول بأن البيان الختامى لمجلس التعاون، قد حدد السياسة الخارجية للمجلس حيث بدأ بأهمية أمن الخليج العربى واستقراره خاصة بعد انشاء الولايات المتحدة قوات التدخل السريع، وردود الفعل السوفيتية حول ذلك ومراقبتهم لقيام المجلس، وقد رفض حكام المجلس التدخل الاجنبى مهما كان مصدره، وأصروا

على أن أمن المنطقة مسؤولية ابنائها، كما أن ربط قضية فلسطين، جاء بأمن الخليج العربى واستقراره خير دليل على ربط المصير المشترك للأمة العربية، كما أعلن تمسك المجلس بسياسة عدم الانحياز كما قرر حكام المجلس دعوة وزراء المالية والاقتصاد لوضع اتفاقية اقتصادية موحدة، تحل محل الاتفاقيات الثنائية المعقودة بين الاقطار الاعضاء خلال فترة شهرية على أن تعرض على الرؤساء فى الاجتماع القادم⁽⁴⁷⁾.

أما فيما يتعلق بالتنظيم السياسى والهيكلى لمجلس التعاون، فإنه يتكون اساسا من المجلس الأعلى وهيئة لفض الخلافات بين الاقطار والمجلس والأمانة العامة.

فالمجلس الأعلى: يتكون من حكام هذه الاقطار وتكون رئاسته دورية حسب الحروف الابجدية ويعقد المجلس دورتين عاديتين سنويا بالإضافة إلى أى جلسات طارئة، ويحق لأى حاكم من الاقطار الاعضاء ان يدعو إلى اجتماع طارئ، وينعقد المجلس الأعلى إذا تمت الموافقة من أى قطر آخر. ومن مهام هذا المجلس صياغة السياسة العليا، ورسم الاهداف المتعلقة بالعلاقات بين المجلس وبين الاقطار، ولمراجعة الاوضاع سياسيا وأمنا واقتصاديا وتدارس السيرة وشؤونها، ومناقشة الاقتراحات والقوانين المعروضة من قبل المجلس الوزارى والأمانة العامة قبل الموافقة عليها والقيام بتشكيل هيئة لفض المنازعات بين الاقطار الاعضاء.

اتبع المجلس سياسة مرنة بين الاعضاء، سواء فى اتخاذ القرارات أو تنفيذها حتى لا تخلق عقبات فى الطريق والسير تجاه التعاون والتكامل بكل هدوء وثقة تامة فى تنفيذ الاهداف المرجوة من قيام المجلس. وحول هذه السيرة السياسية يقول عبدالله بشارة: وقد اتبع المجلس فلسفة الاقتناع والاقتناع، فلا احراج فى عمل المجلس ولا فرض على من لا تسمح ظروفه بالقبول، فإذا برزت صعوبة لبلد ما فى تطبيق القرارات، ارتضتها البلدان الاخرى، فلا غضاضة من اعقابها حتى تسمح ظروفها. وقد أعطى هذا النهج المرن مجلس التعاون حصانه، وفرت له حماية من التعثر والتصلب. النهج الآخر الذى اتبعه المجلس ووفر عليه الكثير من الاذى، هو الاعلان بأنه ليس شريكا فى الشؤون الداخلية، فلكل بلد قوانينه وظروفه، ولكل

شريحة خصائصها، ولكل دولة سيادتها، وفي هذا الوقت وقاية للمجلس وللدول الاعضاء، وقد استثمرناه للإسراع بتأكيد نمو المجلس⁽⁴⁸⁾.

المجلس الوزاري

يتكون من وزارة خارجية الاقطار الاعضاء وسيضع المجلس نظام الامانة العامة، واعداد المقترحات اللازمة والقوانين والانظمة ورفعها للمجلس الاعلى، والترتيب لاجتماعاته ويجتمع المجلس الوزاري ست دورات سنويا، أو مرة كل ثلاثة أشهر، وتكتمل نصابه بحضور ثلثي الاقطار الاعضاء، ويلعب المجلس دور الحكومة ويضع أيضا السياسات والتوصيات والدراسات المناسبة لدعم وتنمية التعاون والتكامل والتنسيق بين الاقطار الاعضاء في مختلف المجالات، والاشراف على الاتفاقيات المشتركة القائمة وتحسينها، وتصدر قرارات المجلس الوزاري بموافقة جميع الاعضاء الحاضرين، ويتولى كذلك اعتماد موازنة المجلس والامانة العامة. ويعطى تعليماته بتجاوز المشاكل. وفي القاعدة لجان وزارية كثيرة انبثقت منها لجان فنية تجتمع باستمرار اقرار استراتيجيات صناعية وزراعية موحدة.

الامانة العامة

يتولى إدارتها أمين عام من مواطني الاقطار الاعضاء، يعينه المجلس الأعلى. وحددت وظائف الامانة العامة على الوجه التالي: إعداد الدراسات حول التعاون والتنسيق المشترك ومتابعة تنفيذ قرارات وتوصيات المجلس الاعلى والمجلس الوزاري واعداد التقارير والدراسات اللازمة التي يطلبها المجلس الوزاري، واعداد الميزانية والحسابات الختامية وكذلك اعداد المشاريع والقوانين والانظمة الإدارية والمالية المنسجمة، ومتطلبات تطوير أعمال ومسؤوليات مجلس التعاون⁽⁴⁹⁾.

أهداف المجلس : 1 - يمكن استخلاص الأهداف المعلنة لمجلس التعاون من وثيقتين رسميتين: ورقة العمل المشترك التي تشكل القاعدة الفكرية النظرية لنشوء المجلس - (النظام الأساسي) الذي يشكل دستور المجلس.

ورقة العمل المشترك : 1 - الأهداف - التحديات التي تواجه دول مجلس التعاون وتدعوها لتوجيه جهودها في مجلس جامع، هي التالية:

1 - تلبية نداء العصر الذى يتجه نحو الوحدات السياسية - الاقتصادية الكبيرة كمدخل إلى الاستقرار والأمن والتقدم والابتعاد عن النزاعات الاقليمية التى تضيع فيها جهود الشعوب وطاقاتها .

2 - الاستجابة لظروف منطقة الخليج العربى كموقع جغرافى سياسى وواقع حضارى (قومى - دينى) ذات تراث مشترك وقيم وعادات مشتركة والمحافظة على الثروة النفطية الخليجية التى هى عرضة للأطماع الدولية .

3 - دعم أهداف الأمة العربية والإسلامية من خلال الترابط بين الأمم والاندماج الإقليمى لتحقيق التنمية المتوازنة التى تفيد الجميع .

4 - إسقاط مقولة (فراغ القوة فى الخليج العربى) (الثروة التى ليس لها أصحاب) بتشكيل قوة سياسية - اقتصادية ذات مكانة عالمية وصوت محترم ومهاب .

5 - السعى لابعاد الخليج العربى عن التنافس الدولى الذى يزداد شراسة بارتفاع حاجات العالم الصناعى للنفط وهذا ممكن ما لم تواجه دول المنطقة (الشهوات الدولية) بصوت واحد ورأى واحد وقوة واحدة . وما لم تفعل ستبقى دول المنطقة كيانات صغيرة يسهل انتزاعها .

6 - تحقيق الوحدة العربية انطلاقاً من منطقة احتضنت الإسلام ورعت العروبة وصارت فى دمها المصلحة القومية .

7 - تحقيق المعادلة الاقتصادية - الاجتماعية الصعبة وهى تنمية حقيقية ومستمرة من جهة وسلام اجتماعى وامن وتقدم من جهة ثانية، أى تحقيق التنمية الشاملة، وهذا يستدعى إقامة قاعدة انتاجية ثابتة من جهة وإعداد وتدريب رأس المال البشرى من جهة ثانية .

إن تحقيق هذه الأهداف والتحديات يفترض حتما حصول اندماج صحيح بين أقطار وشعوب الجزيرة العربية على قاعدة تنمية شاملة وتوزيع عادل وحكيم للثروة، مما يعطى المجلس دوراً فى بناء السلام العالمى .

النظام الأساسى للمجلس: حددت المادة الرابعة من النظام الأساسى للمجلس التعاون أهداف المجلس بالأمور التالية:

1 - تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بين الدول الاعضاء فى جميع الميادين وصولاً إلى وحدته .

2 - تعميق وتوثيق الروابط والصلات وأوجه التعاون القائمة بين شبابها فى مختلف المجالات .

3 - وضع أنظمة متماثلة فى مختلف الميادين بما فى ذلك الشؤون الآتية :
الشؤون الاقتصادية والمالية - الشؤون التجارية والجمارك والمواصلات -
الشؤون التعاونية والثقافية - الشؤون الاجتماعية والصحية - الشؤون الإعلامية
والسياحية - الشؤون التشريعية والإدارية .

4 - دفع عجلة التقدم العلمى والتقنى فى مجالات الصناعة والتعدين والزراعة والثروات المائية والحيوانية وإنشاء مراكز بحوث عالمية وإقامة مشاريع مشتركة وتشجيع تعاون القطاع الخاص بما يعود بالخير على شعوبها . ويتبين أن نص المادة الرابعة من النظام الأساسى أغفل عمداً فى أهدافه ذكر النواحي السياسية والأمنية والعسكرية ومع أنها كما رأينا فى أساس قيام المجلس إلا إذا كان نص الهدف الأول التنسيق والتكامل والترابط فى جميع الميادين يمكن أن يشمل ضمناً الميادين السياسية والأمنية والعسكرية .

5 - عبر عنه د. غسان سلامة فهو يذهب إلى أن الدفاع عن المجلس يتوزع على خانات ثلاث الأولى هى التأكيد بأن قيامه يوافق ميثاق الجامعة والثانية هى الجزم بأن المجلس هو خطوة على طريق الوحدة العربية الشاملة والثالثة هى القول بأن المجلس هو مثال ناصع للأعمال العربية الوجدوية الناجحة . وفى اعتقاده أن هذه الصورة لا تعكس الواقع الحقيقى للمجلس ، فالمجلس لم يثر حماسة الجماهير العربية فى المنطقة ، وهو الابن الشرعى لحالة الشؤم العربية بجميع أشكالها القصوى ، ولقد قوبل عربياً بالانتقاد والتحفظ وعدم الاكتراث والترقب الحذر وحالات الامتناع الواضحة - وفى ذات الاتجاه يرى دكتور سعد الدين ابراهيم انها الهوية المنافسة للهوية العربية القومية (ودعائم الجامعة العربية بالهوية المحلية للجزيرة العربية وادى النيل والهلال الخصيب - المغرب العربى . .) عندما تتأسى (أى عندما تتجسد فى مؤسسات فلإنها تدخل فى علاقات منافسة مع الهوية الأم ،

وتتحول مع الزمن إلى علاقة صراع يشغل أو يضعف أو يهدد الطاقات العربية - ولقد ثبت بالبرهان خلال أربعين عاما أن المؤسسة الأم هي الأثبت والأقوى بين الهويات المنافسة التي عادة ما تضر المضمون والمصالح والطموح مما يحكم عليها مسبقا بالموت المبكر .

هذا يعنى بأن الأمانة العامة قد اعطيت لها النظام الاساسى للمتابعة والإشراف على تنفيذ القرارات وتقديم المقترحات وأخذ المبادرات المتعلقة بالعمل الجماعى المشترك، ولهذا فقد اعطيت الامانة العامة ميزة الرصد وحق الاستجواب المؤدب أو الاستفسار ونقل نتائج ذلك إلى المجلس الوزارى ويمكن القول إن شيئا من السلطة فوق الوطنية منحت للأمانة العامة عبر الممارسة والثقة⁽⁵⁰⁾.

هناك بعض الخبراء القانونيين يرون بوجود بعض الثغرات فى دستور مجلس التعاون، وخاصة بعملية التصويت داخل المجلس الأعلى، كما أن لديهم شكوكهم بالنسبة لأعمال المجلس، إلا أن ذلك لا يمنع من اعتبار قيام هذا المجلس ثمرة من ثمار العمل العربى المشترك لأقطار المنطقة، ويمثل خطوة تاريخية، فهذه هى المرة التى وافقت فيها هذه الاقطار على اتخاذ سبيل العمل العربى المشترك، دون اشراف أو تدخل من قوة أو نفوذ اجنبى فى المسائل المتعلقة بالشؤون الخاصة ومستقبل اقطار المنطقة، والبعض ينظر إلى مجلس التعاون بأنه عمل جماعى مشترك يفيد شعوب المنطقة اقتصاديا واجتماعيا وربما سياسيا، قد يؤدى مع مرور الوقت إلى إدخال نظام سياسى حديث داخل المنطقة فى حين يتشكك البعض فى أمر مجلس التعاون ولا يرى فيه سوى «كارتل» سياسى تتجمع فيه دول المنطقة التى لا يعنىها سوى المحافظة على الوضع القائم لمصلحة بعض الطبقات⁽⁵¹⁾.

لكن على أى حال فإن مجرد قيام هذا المجلس يشكل نواة العمل العربى المشترك نحو تعاون أشمل وأكبر والتطلع إلى الوحدة العربية والتى هى أمنية كل مواطن عربى وقد تكون بداية من المشرق العربى وخاصة بعد نجاح تجربة الامارات الاتحادية ونتمنى أن يتحول هذا المجلس أيضا إلى دولة اتحادية تضم كافة أقطار الجزيرة العربية .

إن نجاح هذه التجربة لاقطار مجلس التعاون قد تدفع أقطارا عربية أخرى فى

المغرب العربى أو الهلال الخصيب أو وادى النيل إلى تحقيق تعاون وتكامل فيما بينها على غرار هذا المجلس أو تتعداه إلى أبعد من ذلك إلى المجال السياسى والاتحادى مباشرة.

ردود الفعل المحلية والعربية والدولية تجاه قيام مجلس التعاون:

اختلفت ردود الفعل على المستوى الشعبى وغير الرسمى، فمثل الطبقات الوسطى فى المنطقة رحبوا بهذه الخطوة الجديدة لقيام مجلس التعاون، ولكنه لم يكن ترحيباً بغير شروط، فقد اعربوا عن رغبتهم نحو مزيد من المشاركة فى مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية، ودرجة أكبر من المشاركة فى السلطة، فى حين رفضت بعض الجهات المتطرفة واليسارية هذه الخطوة واعتبرتها خطوة استعمارية ترمى إلى تسهيل تواجد القوات الامريكىة فى المنطقة، إذا ما استدعيت من الجهات المعنية، وكانت الإشارة فى هذا المضمار إلى ما تكرر من بعض التصريحات التى صدرت من المسؤولين العمانيين على إنها دليل على نوايا مجلس التعاون، وقد بلغت بعض الجهات فى التفكير إلى استبعاد عمان عن المجلس، ولكن الامر لم يصل إلى حيز التنفيذ. ولذا فإن أقطار المجلس عمدت إلى التأكيد بشكل جدى على أن الأهداف الاقتصادية والاجتماعية هى الأهداف الاساسية للمجلس، وجاء ذلك على خلاف ما أعربت عنه الجهات الرسمية فى عمان. وقد بلغ الأمر لبعض قطاعات المجتمع فى الجزيرة العربية بأن هذه الخطوة تمثل قيذاً جديداً من العناصر الرجعية فى بناء مجلس التعاون على أى تقدم سياسى على الجبهات الداخلية فى أى من دول المجلس، ومن هذه الزوايا يعنى بأن المجلس خطوة كبيرة نحو «إطالة حياة النظم القائمة»⁽⁵²⁾.

أما د. حسن إبراهيم - فيقول عن المجلس بأن «عامل الامن والبقاء كان من أهم أسباب قيام المجلس، يأتى بعده فى الأهمية العامل الاقتصادى، ولكن إذا ركز المجلس على عامل الامن فقط، فلننا فى اعتقادنا - سندخل فى بداية تجرية وحدوية عربية فاشلة، فالمجلس فى هذه الحالة سوف ينتهى مع نهاية الأسباب الأمنية التى أدت إلى تأسيسه. أما إذا تمكن من خلق نظام اقتصادى متكامل قائم على المصالح المشتركة للمواطن فى هذه الحالة يضمن استمرارته عن طريق تمسك

المواطنين به لأن من أهم أسباب فشل التجارب الوحدوية العربية، قيامها على مبادرات فردية شخصية تزول بزوال اصحابها. والوحدة هي وحدة شعوب لا وحدة حكام، وهنا يأتي دور النظم الديمقراطية، وأهمية تكريسها وتثبيتها حتى تستطيع الشعوب تقرير مصيرها⁽⁵³⁾.

أما من جانب الدول المحيطة بالمجلس فقد رفضت إيران بصورة قوية فورية معربة بأن الاتفاق جاء ضد إيران، ورغم ذلك فلم يصدر عن إيران أى شيء ذى طبيعة عملية ليجسد رفضها هذا، أما موقف العراق فبدأ وكأنه مستعد للموافقة ولكن سرعان ما بدأت صحيفة شبه رسمية فى طرح تساؤلات حول الأهداف التى يرمى إليها المجلس، وبعد ذلك صدر رفض غاية فى الوضوح عن صدام فى مقابلة صحفية نشرت فى الكويت فى أوائل يوليو 1981 - جاء فيها «لم يكن لدى وقت لمناقشة قضية مجلس التعاون مع أى من الأشقاء (رؤساء - دول مجلس التعاون) ولكنى ابلغت أخى فهد (ولى العهد السعودى وقتها) عندما ذكر أمامى الموضوع فى عمان - (نوفمبر) أن عليه ان يتذكر دائما العراق الذى يحارب إيران بالنيابة عن أشقائه من التجمع الخليجى الوليد» وهذا يوضح أن استبعاد العراق من المجلس كان عن عمد وسبق اصرار⁽⁵⁴⁾.

بذلك يكون الرد الفعل الرسمى من جانب العراق قد اتضح بشكل جلى، ولكنه لم يكن بالغ العداء، وإن كان استبعاد العراق قد اثار بعض الأسئلة فى حين كانت الاجابة شبه الرسمية بأن اقطار مجلس التعاون بينها ارضيات مشتركة اكثر مما بينها وبين العراق، فى حين ان العراقيين فى هذه الظروف التى يخوضون فيها حرباً طويلة مع إيران إنما هم احوج إلى تعاون جيرانهم العرب دون اكتساب عداوتهم، ويضيف بعض الصحافيين بأن العراق سوف يدعى إلى المشاركة فى مجلس التعاون فى مرحلة لاحقة وان كان يبدو ذلك بعيد الاحتمال⁽⁵⁵⁾.

أما كلمة الامين العام للجامعة العربية فى المؤتمر الاول لمجلس التعاون فقد جاء فيها بأن الامة العربية تنظر بعين الارتياح إلى الجهود المشتركة لاقطار شرق الجزيرة العربية والهادفة إلى تحقيق الامن لخير الامة العربية. وأكد قدرة اقطار الجزيرة العربية على حماية نفسها من الاعداء وان قرارات المجلس تعبر عن ارادة

هذه الاقطار نحو السلام والامن العادل انطلاقا من مصالحها الخاصة ووعيتها بالتفاعل مع المجتمع الدولي، وبأن التحديات التي تواجهها الامة العربية ليست آتية من خارج الوطن العربي، وإنما من الخلافات والانقسامات القائمة، وأكد بأن أقطار الجزيرة العربية اقامت البرهان على أن الأقطار العربية قادرة دوما للرد على أى عدوان أو تهديد تقوم به اسرائيل ضد الامة العربية، وأضاف ان حربنا ضد العدو كانت متشابكة فى مجال السياسة والاعلام والتنمية الاقتصادية والتكنولوجيا إلى جانب المجال العسكرى⁽⁵⁶⁾.

بعد ما أكدت أقطار الجزيرة العربية بأن مجلس التعاون ليس تحالفا أو محورا موجها لأحد وإنما هو لبنه فى الصرح العربى وإنه تنظيم اقليمى يعمل فى إطار جامعة الدول العربية ويهدف إلى تحقيق السلام فى المنطقة، فقد جاءت ردود الفعل السوفيتية والامريكية متباينة وإن كانت قد اتسمت بالحذر، فى آن واحد، وكان وزير خارجية الكويت قد قام بزيارة لموسكو فى مايو 1981، وجاءت تصريحات المسؤولين السوفيت، بأن على أقطار مجلس التعاون ان تعتمد على نفسها فى الدفاع عن أمن الخليج العربى مع استمرار المناداة بإبعاد المنطقة عن الصراعات الدولية، وسحب القوات وكل أشكال الوجود الاجنبى من المنطقة مع احترام حياد اقطارها، ويرى السوفيت بضرورة مشاركتهم فى اجراءات الامن الخاصة بالخليج العربى⁽⁵⁷⁾ والتي توافق أقطار المنطقة عليها بشرط الا تنفرد بها الولايات المتحدة الامريكية.

أما الولايات المتحدة وبريطانيا فقد رحبتا بقيام مجلس التعاون، على أمل ان يكون امام مجلس التعاون فرصة أكبر لتحقيق التعاون الاقليمى مع الدول المسيحية الغربية فى حماية أمن الخليج العربى وذلك طبقا للمفهوم الغربى بتأييد وجهة نظرهم بأن الغرب مازال المورد الوحيد لاغلبية دول مجلس التعاون⁽⁵⁸⁾. وفيما يلى ما قاله الرئيس الأمريكى كارتر عن أهمية الخليج العربى للمصالح الامريكية والتي عرفت فيما بعد بمبدأ كارتر، وذلك فى «رسالة الاتحاد» الموجهة منه للشعب الأمريكى بتاريخ 1/20/1980⁽⁵⁹⁾ قوله:

«إن اية محاولة من جانب اية قوة أجنبية للسيطرة على منطقة الخليج

العربى، سوف تعتبر بمثابة عدوان على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية، وسوف يقابل مثل هذا العدوان بكافة الوسائل الضرورية بما فى ذلك القوة العسكرية». وأيضا فإن هارولد بروان - وزير الدفاع الأمريكى كان قد قال امام لجنة الشؤون الخارجية بالكونغرس «إن ما نراهن عليه فى الخليج العربى هو الرخاء الاقتصادى والعافية السياسية للولايات المتحدة وحلفائها، فلو حرمت الدول الصناعية فى العالم من حرية الوصول إلى مصادر الطاقة فى الخليج العربى فستكون النتيجة على الأرجح هى الانهيار لحلفائنا وللإقتصاد العالمى»⁽⁶⁰⁾.

كما لم تقف الولايات المتحدة عن حديثها حول الادوار الموكلة لقوات الانتشار السريع والأهداف التى من أجلها انشئت هذه القوات، وعن مناوراتها المشتركة «النجم الساطع» مع القوات المصرية، ويضاف إلى ذلك التصريحات المتكررة بأن الولايات المتحدة لا تقنع بالانتظار وراء الأفق وأنها بحاجة إلى قواعد برية فى منطقة الخليج العربى مما يشكل موضع شك كبير حول حياد المنطقة، ويرى البعض بأن الولايات المتحدة تحاول إيجاد قاعدة لقوة محلية جديدة وإن مجلس التعاون يناسب خططها هذه بصورة تدعو للإعجاب⁽⁶¹⁾ ولكن موقف امريكا من هذه القضية قد اتضح فى وثيقة رسمية، فى مشروع موازنة عام 1980 والتى تقول⁽⁶²⁾ «إن أمن الدول المشاطئة للخليج العربى وتطورها المنظم أمران مهمان للمصالح القومية الأمريكية ولقد أيدت الولايات المتحدة وهى ما زالت تؤيد نحو قيام فيدرالية فى الخليج العربى نافذة ولديها قدرة دفاعية مناسبة».

نظرة مستقبلية لمجلس التعاون؛

إذا ما نظرنا نحو مستقبل مجلس التعاون فنجد هناك تحديات داخلية وخارجية، فعلى المستوى الداخلى فإن التطورات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن الستينيات والسبعينيات، ستؤدى إلى زيادة المطالبة على الساحة السياسية الداخلية فى عدة قضايا وأهمها المشاركة السياسية والاقتصادية وحسن توزيع الثروة، وتحديث للعملية السياسية فى أقطار المجلس وأن بعض الطبقات فى المنطقة ستفاعل لكى تشكل مجموعة من الضغوط السياسية والاجتماعية الجديدة لم يسبق

اقتارها ان شهدتها من قبل ، كما تحتاج الطبقة الوسطى النامية إلى المشاركة في السلطة السياسية من جهة بقدر حاجتها إلى سوق أكبر وأوسع من جهة ثانية، وإنه ليس من الواضح ان الدوائر الحاكمة تستسلم لهذه المطالب بسهولة في بعض (63) الاقطار مما يعنى صراعا داخليا متظراً وقد يكون كذلك في المستقبل .

كما يلاحظ التطور النوعى داخل المجتمع القبلى والذى رافق حركة التمدين السريع وبرزوا الحواجز السكانية والمدن الجديدة، وجيل قبلى جديد تربطه بالمجتمع علاقات ذات محتوى جديد ليس بالضرورة لصالح الأوضاع الحالية . وأن أية أخطاء فى المعاملة مع المتغيرات الجديدة فى المجتمع قد يخلق بعض الارتباكات، ولذا يجب الاعتراف بهذه القوى الاجتماعية الجديدة التى أفرزتها عملية التعليم والتمدن، وتوظيف هذه القوى توظيفاً مناسباً مع قدراتها، وفتح المجالات أمامها، لتلعب دورها فى المجتمع السياسى الجديد .

أما العائق الاجتماعى الآخر والذى يقف أمام تنمية حقيقية فى اقطار مجلس التعاون فإنه يضع أمام الأطراف المعنية خيارين وكلامها صعب، فالأول إما أن يحمل الناس على العمل ، وهنا يجب اتخاذ سياسة حازمة وصادقة نحو ذلك، رغم أنه ينجم عن ذلك رد فعل سياسى حاد، وإما أن يستمر فى استيراد العمالة الأجنبية وبصورة متزايدة، مع الأيام مع ما ينطوى عليه ذلك من مخاطر كثيرة (64) بنفس القدر .

ومن التحديات والشغرات الاقليمية هو عدم السماح بأنضمام أعضاء جدد لمجلس التعاون، ويشير الى ذلك د. النفسى فيقول (65) لقد جاءت وثيقة المجلس خالية تماماً من أى نص يسمح بقبول أعضاء جدد فيها، وكان من الحكمة أن تتضمن الوثيقة التأسيسية نصاً يسمح بأنضمام دول خليجية للمجلس فيما بعد .

أما على الصعيد الخارجى فإن صراع الدول الكبرى وسياساتها الاطماعية لمصالحها الخاصة تجاه المنطقة، يضع ضغوطاً أشد على الأنظمة الحاكمة دون أن يتيح لها فرصة التفكير لكى تباشر تطورها بصورة سليمة . ان شعارات الخطر القادم من المارج تسود كل مكان، فهناك من يرفع شعار الخطر الامبريالى والآخر شعار الخطر الدينى، فى حين ان البيروقراطيين يحاولون أن يوجهوا السفينة فى خضم

البحار العاتية، مما يعنى بأن المرحلة القادمة سوف تكون حاسمة ودقيقة، إضافة إلى أن السياسات التى سيتخذها المجلس، ستؤدى إلى إنشاء أو تدمير النظام العربى الجديد. وهناك الثورة الايرانية والصحة الإسلامية الجديدة تمثلان تحديا جديا لهذا المجلس الوليد، فهناك عدد كبير من الشباب الذين يتجهون إلى الحركات السياسية الإسلامية الناشئة، بغض النظر عن الانتماء الطائفى الشيعى أو السنى الأصولى وهذا بحد ذاته نتاج التنمية الاقتصادية السريعة التى تترافق فى الوقت نفسه مع التطور السياسى المحدود، كما يمثل الشباب والمرأة تحديا جديدا لهذه المجتمعات.

إن الخلافات التى تراكمت فى الآونة الأخيرة باتت تتطلب منافسات تسود فيها الادارة الجماعية الموجهة نحو إعادة صياغة مجلس التعاون، ولا أحد يستطيع أن يدعى أن هذا المجلس لم يتعرض إلى هزات عنيفة فى الآونة الأخيرة، لكنه على ذلك كان ولا يزال أحد الانجازات الرئيسية التى أسفرت عنها مسيرة العمل المشترك وهذا فى حد ذاته مبرر قوى لتحفيز قادة المجلس على إعادة تنشيط المجلس وتطوير ادواته المؤسسية بما يخدم الأغراض والأهداف التى من أجلها قام المجلس، وتحقيقها.

هناك تناقضات حقيقية بين أهداف مجلس التعاون التى أرساها بيان المبادئ الصادر عن القمة الأولى وهى تحقيق الوحدة وبين أدوات هذا المجلس التى حولته إلى مجرد صيغة استشارية. وقد يكون هذا صحيحا ولكن الصحيح أيضا أنه ليس من الصعب ولا من المستحيل حل الإشكالات بين الشرعية الوجدية وبين شرعية الدولة العربية وهى الاشكالات التى تشكل السبب الحقيقى لعدم تمكن مجلس التعاون من ممارسة دوره المطلوب، والمدخل نحو حل هذه الاشكالات يمكن أن نطلق عليه الشرعية المزدوجة أى التبادل بين الشرعية الوجدية وبين شرعية الدولة.

النقطة الثانية تتعلق بضرورة المضى قدما فى تطبيق الاتفاقيات التى أبرمتها دول مجلس التعاون فى المجالات كافة: الاقتصادية والتجارية والثقافية والأمنية حتى ولو تم هذا التطبيق بخطوات صغيرة وكفى هنا أن نتذكر الصدى الشعبى الواسع الذى حظى به قرار الامارات وعمان بتسهيل مواطنى البلدين كى ندرك

مدى الأهمية البالغة لمثل هذه الخطوات فحين نغمس مواطنى مجلس التعاون فى العمل المشترك كواقع معاش تتولد تلقائيا ديناميات داخلية تسهل تجاوز كل الصعاب والرفض.

فالعمل الجماعى مطلوب لتحقيق الطموحات وتوفير الرخاء والاستقرار لدول المنطقة لتتفرغ إلى البناء والتنمية الاقتصادية والاجتماعية وإبعاد المنطقة عن شبح الحروب التى تضر بالبشرية وأن التفاهم والحوار البناء يحلان كافة المشاكل، ولقد حان الوقت لنعرف أن الخلافات والاشكاليات وما نتج عنهما من حروب لا تحل المشاكل ولا تؤدي إلا إلى المزيد من هدر الطاقات والموارد البشرية. والأزمات التى مرت بها المنطقة حافلة بالدروس التى على الجميع أن يتفهمها ويستخلص منها العبر والتجارب الناجحة المفيدة بعد أحد عشر عاما بل وأثناءها تخللت المسيرة كثير من التحديات أولها وأهمها تحديات الخطر الخارجى والمتمثل بالتحدى السياسى والذى يستلزم تجهيزه ببناء قوة أمنية ذات بعد اجتماعى واقتصادى لحماية ثروات المنطقة من الأطماع الخارجية والتى تمثل 65٪ من واردات العالم النفطية وما يمثله ذلك من اقتصاد هام للعالم ومن تلك التحديات والثغرات أيضا، انكشاف دول المنطقة على العالم الخارجى تصديرا أو استيرادا يأتى تحدى التخلف والتجزئة السياسية ومشاكل الحدود التى تمثل قلقا خطيرا وقنابل موقوته قد تعصف بديمومة هذه المنطقة.

إن بلدان الخليج والجزيرة العربية بمواردها المالية الضخمة فى وضع أفضل من أى بلد عربى آخر لتبنى مشروع قومى تنموى بديل يتمثل بوضوح حول القضايا المحورية للأمة ولا يكفى أن يبنى هذا المشروع على شعارات مبهمه غامضة تدور كما كانت فى السابق حول عموميات الوحدة. وقد بين محمد عابد الجابرى ببلاغة مبلغ الضرر الذى يمكن أن يلحق الإبهام والغموض بالقضايا القومية والفرص الثمينة التى يعطيها للزعماء السياسيين الغوغائيين الانتهازيين أن مشروع قوميا نمويا معبرا عن رغائب السكان هو الأداة المناسبة لإعادة تعبئة عامة السكان نحو تحقيق البديل الواضح فى الحكم الدستورى الديمقراطى وإعادة قدر من التوازن إلى حياة المجتمع العربى فى الجزيرة العربية ليخرجه من الجمود السياسى والاقتصادى والحضارى الذى تفرضه عليه سياسات الدول السلطوية.

فثمة تغيرات سياسية لاسبيل إلى استبعادها، وهذه التغيرات لم يسبق أن شهدت المنطقة ولا توقعتها من قبل (66).

برغم الجهود التي تبذل لمواجهة وتحقيق الأهداف العسكرية والدفاعية لاقطار مجلس التعاون، فإن قدرة هذه الأقطار على مواجهة أعبائها الدفاعية في وجه الأخطار الخارجية، ما تزال تحتاج إلى دراسة، فإنها ليست تجابه أعباء عسكرية وإنما تشمل نواحي اجتماعية وبشرية وسياسية متعددة، تجعل من امكانية تحقيق هذه الأهداف مستبعدة في المستقبل القريب، وأهم هذه المشاكل هي الافتقار إلى القوة البشرية اللازمة لتعبئة القدرات العسكرية لتشغيل الأسلحة والمعدات المتوافرة لقواتها، وخاصة المتطورة والمعقدة، والتي يحتاج تشغيلها وصيانتها لعدد كبير من العناصر المتخصصة (67).

من خلال متابعتنا لخطوط المجلس نرى أن القضايا الاستراتيجية الرئيسية والتي بدأ بها عمله من الممكن تذليل عقباتها من أمامه، وفي حالة متابعتها أن تؤدي إلى تغيرات جذرية في البناء الاقتصادي والسياسي لصالح شعوب المنطقة، ولكنها قد تراجعت لتحل محلها قضايا تكتيكية مؤقتة، مثل التنسيق الاقتصادي والثقافي، مما جعل الأمانة العامة للمجلس تنخرط في تشعبات بيروقراطية متعددة دون انجازات حقيقية ملموسة لأبناء المجلس، ومع ذلك، يجب الاعتراف بالإنجازات الكثيرة التي تحققت دون اعلان أو ضجيج، فهناك مثلاً الاتفاقية الاقتصادية والتي تعم فائدتها على أبناء المنطقة والمؤسسات الجديدة التي بدأت تظهر إلى الوجود. والخطط التي تدرس لابد وأن تأتي بإيجابيات جديدة، لا يمكن انكارها، ويمكن القول بأنه في النهاية تبقى خطط المجلس معرضة للجمود أو الانتكاس ما لم تبدأ بالأولويات وتتخذ خطوات عملية تجاه القضايا الاستراتيجية الخاصة بهذه المنطقة وهي التنمية الشاملة.

إن التأمل في أوضاع العالم العربي التي تتجه من سيئ إلى أسوأ على المستويات الاقتصادية والسياسية والأمنية ومتابعة هذه الأوضاع بما يجري في العالم حولنا من تحولات فكرية وتجمعات اقليمية يفرضان قيام قيادة فكرية مستقبلية

تخرج الشعوب العربية من واقع الأوهام والضياع والارتجال والتفكك وترسى أسسا جديدة للعمل العربى المشترك. إن تجربة مجالس التعاون العربية هى خطوة مهمة فى الطريق الصحيح إذا ارتكزت هذه المجالس على عدة قواعد جوهرية.

من ضمن هذه الرؤية يكن تصور قيام تجمعات عربية بالشكل المناسب للشعوب العربية وهو شكل تحدده المصالح الحقيقية لهذه الشعوب ويتبلور بالممارسة انطلاقا من قاعدة اقتصادية ثابتة هى السوق العربية المشتركة كحافز لقيام الجماعة العربية على نسق الجماعة الأوربية⁽⁶⁸⁾.

إن تجربة مجالس التعاون العربية التى بدأت عمليا بقيام الجامعة العربية ثم بقيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية فى بداية الثمانينيات ومن ثم بقيام مجلس التعاون العربى واتحاد المغرب العربى فى أوائل العام 1989 هذه التجارب تؤكد التوجه الجديد للعمل العربى المشترك أى التوجه الاقليمى، وغير خاف أن لمثل هذا التوجه حدين، إما النجاح والانطلاق نحو المزيد من التعاون والتكامل وإما الفشل والعودة إلى مزيد من القطرية والانغلاق⁽⁶⁹⁾.

ولأننا نؤمن أن هذه التجارب تستجيب من حيث المبدأ، للتحديات الكثيرة المطروحة على الواقع العربى المعاصر، فقد سعينا فى حدود الامكان إلى التعريف بهذه التجارب فى إطار نشوئها التاريخى والدوافع والخلفيات الفكرية والسياسية والاقتصادية لقيامها لكى يمكن على ضوء ذلك اعطاء حكم على مدى جديتها ومصداقيتها فى معيار مصلحتها والمصلحة العربية العليا، وفى معيار التوجهات التاريخية للعالم المعاصر.

وبعد، هذه محاولة متواضعة نعرضها للدراسة والمناقشة والحوار فهى تطرح افكارا وترسم بعض ملامح الفكر السياسى العربى المعاصر انطلاقا من فكرة مجلس التعاون، علها تشكل لبنة جديدة وايجابية فى بناء العمل العربى المشترك.

الهوامش:

- 1 - د. محمد الرمحي - الخليج ليس نفط ص 161.
- 2 - د. محمد الرميحي - نفس المرجع ص 161.
- 3 - د. محمد الرميحي نفس المرجع ص 140.
- 4 - د. فؤاد حمدي - التعاون الاثنائي بين اقطار مجلس التعاون العربي ص 159.
- 5 - د. فؤاد حمدي - نفس المرجع ص 159.
- 6 - د. محمد هشام خواكجية - التكامل الاقتصادي في الخليج العربي ص 399.
- 7 - عبدالله بشارة - المستقبل العربي العدد 79 / 9 / 85 ص 126.
- 8 - د. فؤاد حمدي - المرجع السابق ص 16.
- 9 - د. محمود على الدواد - الخليج والعمل العربي المشترك ص 297.
- 10 - منير شفيق - المستقبل العربي - العدد 11 / 1 / 1980.
- 11 - د. يوسف صايغ - سياسات النفط العربية في السبعينات ص 293.
- 12 - د. يوسف صايغ - نفس المرجع ص 293.
- 13 - د. ناصر ثابت - التنمية والتغير الاجتماعي ص 103.
- 14 - د. محمد الرمحي - المرجع السابق ص 142.
- 15 - د. على عبدالله الخلف - مجلة الدراسات الخليج والجزيرة العربية العدد 32 - أكتوبر 1980.
- 16 - د. محمد الرمحي - المرجع السابق ص 142.
- 17 - عبدالله بشارة - المرجع السابق ص 126.
- 18 - د. محمد الرمحي - المرجع السابق ص 181.
- 19 - د. محمود على الدواد - المرجع السابق ص 243.
- 20 - دوغلاس هيرود - النفط والأمن في الخليج ص 188.
- 21 - روين اندونيسيان - النفط والأمن في الخليج العربي ص 153.
- 22 - د. فؤاد حمدي - المرجع السابق ص 181.
- 23 - د. فؤاد حمدي - المرجع السابق ص 181.
- 24 - د. محمد الرمحي - المرجع السابق ص 176.
- 25 - د. يحيى حلمي رجب - مجلس التعاون لدول الخليج العربية - ص 67.

- 26 - د. محمد الرمحي - المرجع السابق ص 179.
- 27 - د. حسن ابراهيم - الخليج العربى فى مواجهة التحديات - ص 206.
- 28 - د. محمود على الدؤاد - المرجع السابق ص 308.
- 29 - مصدر غير معروف - الناشر.
- 30 - د. محمد الرمحي المرجع السابق ص 161.
- 31 - د. سعاد الصباح - المستقبل العربى العدد 76 - 85 / 9 ص 133.
- 32 - مصدر غير معروف - الناشر.
- 33 - د. يحيى حلمى رجب - المرجع السابق ص 63.
- 34 - د. فؤاد حمدى - المرجع السابق ص 181.
- 35 - د. يحيى حلمى رجب - المرجع السابق ص 65.
- 36 - سعود الفيصل - المرجع السابق ص 130.
- 37 - وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى - وزارة الإعلام «أبوظبي» ص 36.
- 38 - وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى نفس المرجع ص 37.
- 39 - عبدالله بشاره - المرجع السابق ص 122.
- 40 - عبدالله بشاره المرجع السابق ص 127.
- 41 - وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى المرجع السابق - ص 40.
- 42 - وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى نفس المرجع ص 40.
- 43 - وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى نفس المرجع - ص 41.
- 44 - عبدالله بشاره - المرجع السابق السابق ص 123.
- 45 - وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى المرجع السابق ص 42.
- 46 - د. يحيى حلمى رجب - المرجع السابق ص 71.
- 47 - عبدالله بشاره - المرجع السابق ص 124.
- 48 - عبدالله بشاره - المرجع السابق ص 125.
- 49 - د. فؤاد حمدى - المرجع السابق ص 713.
- 50 - عبدالله بشاره - المرجع السابق ص 125.
- 51 - د. محمد الرميحي - المرجع السابق ص 174.
- 52 - د. محمد الرميحي - نفس المرجع ص 177.

- 53 - د. حسن الابراهيم - المستقبل العربى العدد 79 - 85 / 9 ص 134 .
- 54 - د. محمد الرميحي - المرجع السابق ص 178 .
- 55 - د. محمد الرميحي - نفس المرجع ص 178 .
- 56 - وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى - المرجع السابق ص 58 .
- 57 - د. يحيى حلمى رجب - المرجع السابق ص 71 .
- 58 - د. يحيى حلمى رجب - نفس المرجع ص 71 .
- 59 - جيفرى ريكورد - قوة الانتشار السريع ص 14 .
- 60 - جيفرى ريكورد - نفس المرجع ص 14 .
- 61 - د. محمد الرميحي - المرجع السابق ص 179 .
- 62 - د. عبدالله فهد النفيسى - مجلس التعاون الخليجى ص 14 .
- 63 - د. عبدالله فهد القيسى - المرجع السابق ص 180 .
- 64 - د. عبدالله فهد القيسى - المرجع السابق ص 46 .
- 65 - د. محمد الرميحي المرجع السابق ص 710 .
- 66 - د. عبدالله فهد النفيسى - المرجع السابق ص 46 .
- 67 - د. محمد الرميحي - المرجع السابق ص 710 .
- 68 - د. حسين أغا وأحمد الخالدى - قضايا الخليج العربى ص 33 .
- 69 - د. محمد الرميحي - المرجع السابق ص 181 .

الفصل الحادي عشر



مجلس التعاون الخليجي بين الأمن الإقليمي والتحديات الخارجية

قدم هذا البحث إلى - الندوة العلمية الرابعة لمجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - دول
مجلس التعاون - وحدة التاريخ والمصير وحتمية العمل المشترك 15 - 17 نوفمبر 1993 -
الكويت.

مقدمة

يتناول هذا البحث مجلس التعاون بين متطلبات الأمن الإقليمي والأمن القومي، والتحديات الخارجية، لأن الأمن العربى فى هذه الدول يتعرض للتهديد والتحديات الخارجية وليس الأمن الإيرانى، فقد تحررت إيران من السيطرة الأمريكية بعد قيام الثورة الإسلامية وإسقاط الشاه الشرطى الأمريكى فى الخليج العربى، الذى لم يكن يهدد أمن الدول العربية فى الخليج فحسب، وإنما الأمن القومى العربى بتعاونه الوثيق مع الكيان اليهودى.

لهذا فإن الأمن العربى لدول مجلس التعاون هو المعنى بالتحديد، نظرا لانحسار المصالح الأمريكية من جمهورية إيران الإسلامية وفقدانها السيطرة على نفط العراق وإيران، وبالتالي ازداد التحدى والمخاطر بعدما اعتبرت الولايات المتحدة أن منابع النفط فى دول مجلس التعاون من أمنها القومى، مما شكل تهديدا للأمن القومى، لأن دول مجلس التعاون جزء من الأمة والوطن العربى.

يتناول البحث فى البداية الأمن الإقليمي والمخططات الأمريكية لإيجاد نوع من الأمن الإقليمي ومشروع سيسكو - روجرز والمشاريع الأخرى كالمشروع الإيرانى والعمانى والكويتى ثم تأتى بعد ذلك دراسة الأمن القومى العربى.

نتقل إلى التحديات الخارجية وخاصة التهديدات الأمريكية للمنطقة والتخوف على مصالحها وخاصة من انقطاع النفط أو ارتفاع أسعاره، وبعدها التهديد السوفيتى الذى كان قائما حتى مجيء غورباتشوف، ولا نعتقد أنه سوف يهدد فى المنظور القريب، ولكن التهديد الحقيقى قائم فعلا من الاستعمار المسيحى الغربى والإرهاب اليهودى.

دول مجلس التعاون بين الأمن الإقليمي والقومي:

جرت عدة محاولات لإيجاد أمن إقليمي خليجي، ولكنها لم تظهر إلى حيز الوجود لتدخل الولايات المتحدة لربط أمن المنطقة بأمنها القومي، غير أن معارضة الدول التقدمية العربية لها أفشل المخطط الأمريكي، ولهذا يجب أن ينطلق الأمن من تحليل دقيق لواقع دولها ونتناول الأمن الإقليمي أولاً ثم الأمن القومي العربي ثانياً.

الأمن الإقليمي الخليجي:

يرتبط الأمن الإقليمي الخليجي بعدة عوامل منها العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وجميعها مترابطة بعضها البعض بشكل يصعب تقديم أي منها على الآخر برغم أهمية العامل العسكري، وهذا هو مفهوم الأمن الإقليمي الشامل المتكامل، الذي قد يكون غائباً أو متجاوزاً من دول المنطقة، لكون الأمن العسكري الضيق أكثر شيوعاً برغم عدم جدواه دون الأمن السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدفاع عن أمن أو حماية الموارد والثروات ضد سياسات النهب والاستغلال والتسلط.

برزت فكرة الأمن الإقليمي الخليجي من جديد بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران لإيجاد تعايش سلمي بين أنظمة الحكم العربية ذات التوجهات المختلفة في المنطقة وبين السعودية من جهة وكل من العراق واليمن من جهة أخرى، للحفاظ على أمنها ضد التدخل الخارجي، ولكن ما هو مصدر هذا الخطر؟ وهل استطاعت هذه الأنظمة إيجاد حد أدنى من التقارب السياسي وليس التطابق حول طبيعة التحديات والتهديدات لأمنها؟

تحاول دول المنطقة الحفاظ على أمن أنظمتها وشعوبها، في حين تعمل الولايات المتحدة ليس فقط على حفظ أمنها القومي وإنما أمن مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية في العالم بما فيها دول مجلس التعاون وذلك بإخفاء حقيقة مصالحها وأمين سيطرتها على النفط الخام بكميات معقولة وبأسعار رخيصة تحت ستار أمن الخليج العربي.

لذا يجب أن تكون هناك استراتيجية أساسية ثابتة للأمن الإقليمي الخليجي نابعة من تقدير شعوبها، ووضع المصالح العربية القومية فوق الاعتبارات القطرية الوطنية الضيقة، انطلاقاً من وعى أمنها الإقليمي الخليجي بدوافع ذاتية دون تدخل القوى الكبرى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بفرض وممارسة سياستها الاستراتيجية على دول المنطقة، كما حدث عند قيام حلف بغداد والحلف المركزى بتحريض من الولايات المتحدة وبريطانيا، إضافة إلى طرح العديد من مشاريع الأمن الإقليمي من قبل الولايات المتحدة عن طريق حلفائها من دول الخليج العربى نفسها.

لم تتوصل دول المنطقة إلى تحقيق الأمن الإقليمي بالمفهوم الشامل لعدم وجود الأرضية الأساسية لاختلاف التصور، فالبعض كان يرى أن التهديد الخارجى قادم من الاتحاد السوفيتى، فى حين يراه البعض الآخر من الولايات المتحدة، وذلك لكثرة النزاعات العلنية والخفية بينهم.

فشلت الولايات المتحدة باعتمادها سياسة التحالف بين الحكومات الصديقة (كما تسميها) فى تخطى نزاعاتها بعمل ترتيبات أمنية إقليمية سواء كانت رسمية أو غير رسمية تكون قادرة على تخفيف حدة الخلافات والتناقضات لتحضى المصالح المسيحية الغربية الرأسمالية أمام التهديدات السوفيتية المحتملة⁽¹⁾، التى كانت ترددها الإدارة الأمريكية لدى بعض دول المنطقة ولكن احداث الكويت أثبتت بأن التهديدات نابعة من داخل المنطقة وليس من خارجها ضد المصالح الأمريكية.

لتحقيق الأمن الإقليمي يجب تخفيف حدة التوتر إن لم يكن إزالة الخلافات السياسية لمختلف الأنظمة التى استغلتها القوى الكبرى لمنع تحقيق الأمن دون مساعدتها أو مشاركتها، وهذا سهل لوجود التناقضات فى المصالح واختلاف الأنظمة السياسية ومشاكل الحدود والمنافسة التقليدية ومحاولة كل دولة الحفاظ على المكاسب النفطية.

فبرغم أن شعوب الخليج العربى تدين بالإسلام⁽²⁾، إلا أن هناك فرقا ومذاهب مختلفة لا تلعب دوراً فى تقريب شعوب المنطقة بقدر ما تلعب دوراً فى تفريقها، ففى الوقت الذى تتزعم إيران المذهب الشيعى الإمامى، تتزعم السعودية المذهب الوهابى⁽³⁾، وهما طرفا النقيض، إضافة إلى الترسيبات التاريخية

والعلاقات العدائية بينهما عبر الفترة المتأخرة وخاصة بعد هجوم الوهابيين على الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف حيث مرقد الإمام على والإمام حسين وآل بيته الطاهرين، في نهاية القرن الثامن عشر، ومرورا بأوضاع الشيعة في إقليم الأحساء بشرق السعودية وأخيرا وليس آخرا حوادث الشغب والقتل في مواسم الحج بمكة المكرمة، والتي جرت بتحريض من إيران عن طريق مواطنين يحملون جنسيات دول مجلس التعاون من أصل إيراني مما يعنى وجود أقلية إيرانية نشطة في دول مجلس التعاون تعتمد عليها إيران في تحقيق أهدافها، إضافة إلى أحداث البحرين مؤخراً.

يوجد المذهب الزيدى والشافعى في اليمن وظفار، والإباضى في عمان، والشيعة والسنى المالكي في الإمارات والبحرين الكويت والعراق، ولكن هذه المذاهب الإسلامية باستثناء المذهب الإمامي الشيعة في إيران الإسلامية ليست لها سلطة سياسية إدارية تستطيع بها فرض آرائها.

هناك تيارات فكرية وعقائدية مختلفة في أنظمة الحكم السياسية منها ما يسمى بأنظمة محافظة ورأسمالية، وهى جميع دول الجزيرة العربية ما عدا اليمن، الذى كان فى جنوبها تيار ماركس اللينينى فى عدن، ولكن تلاشى إلى حد ما بعد الوحدة اليمنية وبدأ يبرز تيار تقدمى اسلامى إضافة إلى بعض التيارات العلمانية الأخرى. وجميعها تعمل من أجل تقدم وتطور اليمن، وهناك التيار البعثى فى العراق وتيار الثورة الإسلامية فى إيران.

انطلاقاً من تلك المعطيات نضع بعض الأسئلة لنستشف المستقبل حول ما مدى إمكانية قيام تعاون إقليمي خليجى.

- هل يمكن من الناحية العملية أن يقوم حكام المنطقة بتطوير إحساسهم بالمسؤولية المشتركة للأمن؟ وهل الأمن هو أمن الشعوب أم أمن الأنظمة؟ وخاصة أن جميع شعوبها تدين بالإسلام، فهل سيكون الإسلام عامل جمع بينهم فى وجه الغرب المسيحى الرأسمالى والشرق الاشتراكى المنهار بعد فشل الانقلاب الشيوعى الأخير، وكلاهما ضد الإسلام؟

هل يمكن لهذه الأنظمة إيجاد صيغة مشتركة للأمن الإقليمي للحفاظ على كيائها وأنظمة حكمها من المخاطر الدولية والخارجية؟ وإيجاد حد أدنى للتعامل المشترك على الأقل لمنع التجاوزات والخلافات الإقليمية مما يهدد كيان بعضها البعض مثلما حدث باجتياح العراق للكويت؟

نشك كثيرا فى انجاح أو اقامة تعاون أمنى خليجى حاليا إن لم يكن العكس من ذلك هو ظهور نوعين أو حليفين مختلفين متناسقين إن لم يكن أكثر فى المنظور القريب، بعد الوجود الأمريكى والأوروبى فى دول الخليج العربى والشكوك حول نواياها.

سوف نورد بعض المشاريع والاقتراحات التى قدمت حول الأمن فى الفترة الماضية للتعرف على الخطوات التى تمت ومرت على المنطقة لإيجاد نوع من التعاون للأمن الإقليمي الخليجى.

المخططات الأمريكية لإيجاد نوع من الأمن الإقليمي:

بدأت الولايات المتحدة منذ إعلان بريطانيا الانسحاب من المنطقة، تخطط لملء الفراغ الاستعماري المسيحي البريطانى بالأمريكى، أى استعمار مسيحي جديد من نوع جديد متطور وتقنى وعقدى، ، بما أنها تكبدت خسائر كبيرة فى فيتنام، أن تغير سياستها بتوكيل حفظ المصالح الغربية إلى القوى المحلية الحليفة، لإيجاد نوع من الأمن الإقليمي للحفاظ على مصالحها دون التدخل المباشر خوفا من عقدة فيتنام الجديدة الذى عرف بمبدأ نيكسون عام 1969 وبدأت تشكل قوة عسكرية كبيرة فى إيران وتسند إليها مهمة حماية النظام الاقتصادى⁽⁴⁾، يتعدى حماية الأمن القومى إلى حماية وحفظ الأنظمة الحليفة للغرب وتأمين الإمدادات النفطية إلى العالم الرأسمالى⁽⁵⁾.

وبهذا يمكن القول بأن إيران أصبحت تطبق نظام الأمن الإقليمي الخليجى من جانب واحد وبتفويض من الولايات المتحدة وحلفائها فى المنطقة.

شروع سيكو وروجرز لعام 1972:

وجدت الولايات المتحدة بأن شرطيةا فى المنطقة برغم قوته العسكرية لم يستطع إيجاد نوع من الأمن الإقليمي مع الدول العربية الحليفة والصديقة، فأوفدت

إليها وزير الدفاع ومساعدته لإطلاع المسؤولين فيها على المخططات الأمريكية للأمن الإقليمي، فقد قال جوريف سيكو:

«إن الولايات المتحدة تهتم بالمحافظة على الاستقرار في الخليج العربي».

ثم قال:

«إن الولايات المتحدة لا تنوي أن تحل محل بريطانيا في الدفاع عن مصالح الغرب في الخليج العربي، ولكنها مصممة على مساعدة دول المنطقة في الدفاع عن نفسها، إن سياسة الولايات المتحدة في المنطقة تقضى بتشجيع إيران والمملكة العربية السعودية والكويت وإمارات الخليج العربي على التعاون بكل إخلاص من أجل أن تظل المنطقة آمنة».

بهذا الإعلان الذي صرح به «سيكو» دون لبس أو غموض عن المخطط الأمريكي للأمن الإقليمي بتحالف ضمني وغير معلن بين دول المنطقة، تحت رعايتها وإشرافها وتوجيهها الاحتياجات اللازمة لهذا الحلف من الخبراء والمعدات العسكرية⁽⁶⁾.

كما صرح أيضا وليم «روجرز» عندما وصل إلى الكويت في صيف يوليو عام 1972:

«بأن هذه الزيارات تعكس اهتمامنا القومي بأمن هذه المنطقة المهمة من العالم وفي نفس الوقت فإن الولايات المتحدة لا تطالب ولا تسعى إلى امتياز خاص، بل إننا نعتقد أن الاستقرار والتقدم في الخليج العربي بتعاون إقليمي فعال يأتي بجهود دول المنطقة نفسها ونحن بدورنا سنساعد بالوسائل الفعالة التي بمقدورنا».

هذا يعني بأن زيارة «وليم روجرز» كانت لوضع النقط على الحروف في المخطط الأمريكي لإقامة حلف سياسي وعسكري بين دول المنطقة والذي لم يكن رغبة مفاجئة بل إنها ثوب قديم في لبس جديد، فكان هذا المخطط قد صرح به «مستر روستر» وكيل وزارة الخارجية الأمريكية عام 1968 عندما أعلن إقامة مثل هذا الحلف بين دول الخليج العربي بما فيها العراق، في حين استثنى من مشروع

«سيكو - روجرز» العراق وأدخل الكويت ضمن المخطط الأمريكى للأمن الإقليمى⁽⁷⁾.

استمرت الجهود الأمريكية فى هذا المضمار سواء عن طريق الإدارة أو عن طريق الجلسات البرلمانية للكونغرس ومجلس النواب، ومما جاء فى تلك المناقشات معبرا عن ذلك التصور الأمريكى للأمن الإقليمى ما يلى⁽⁸⁾.

«فى رأينا إن على دول الخليج العربى نفسها، وبخاصة الدولتان الكبيرتان، إيران والعربية السعودية أن تتحمل العبء الأكبر لتأمين الاستقرار فى المنطقة، لقد كان لنا ولا يزال تقليد طويل من التعاون العسكرى مع تلك الدول من خلال تجهيزنا إياها بالمعدات العسكرية أو من خلال التدريب فى الخليج العربى، أعدنا النظر من جهتنا فى سياستنا بعناية واعتمدنا سياسة تؤكد على النقاط الآتية:

1 - الاستمرار على تعزيز التعاون الإقليمى عن طريق تشجيع أقوى دولتين ساحليتين إيران والمملكة العربية السعودية على تحمل مسؤوليات أعظم بما يخدم الأمن الجماعى فى المنطقة.

2 - إقامة علاقات أمريكية مباشرة مع الكيانات السياسية الجديدة التى لم تكن موجودة من قبل.

3 - تطوير مشاريع للمعونات التقنية والتعليمية والتبادل الثقافى من خلال برامج خاصة وعامة من أجل التطوير بصورة منظمة.

إن تنفيذ استراتيجية إقليمية تركز على هذه المؤشرات العامة استلزم توجيه نشاطاتنا نحو الدول المعنية مباشرة آخذين بعين الاعتبار مواردها البشرية وحجمها وسماتها الجغرافية ودرجة تطورها والتهديدات الأمنية التى تعتقد أنها تواجهها.

المشروع الإيرانى:

قدمت إيران عدة مشاريع ولكن لم تنال ثقة عرب المنطقة لسياستها التوسعية الرامية إلى بسط هيمنتها عن طريق المخططات الأمنية لتلعب دورا أكبر فى الخليج العربى بفرض نفوذها على الكيانات الصغيرة⁽⁹⁾، ومن أهم تلك المشاريع ما قدمته إيران عام (1975) إلى دول المنطقة، والتى تتضمن ما يلى⁽¹⁰⁾:

1 - إقامة حلف عسكري تحت مسميات مختلفة «منظمة الدفاع الإقليمية»، الحزام الأمني الخليجي.

2 - حماية أمن وحدود الدول الأعضاء.

3 - إخلاء المنطقة من القواعد العسكرية مع الأخذ بنظر الاعتبار جعل خليج عمان خارج نطاق المياه الإقليمية.

المشروع العماني:

طرحَت عمان مشروع أمن إقليمي في اجتماع وزراء خارجية دول المنطقة الذي عقد بمسقط في نوفمبر عام 1976 ودعت فيها إلى تحالف عسكري فيما بين دول الخليج العربي إضافة إلى الولايات المتحدة وألمانيا، لحماية الممرات المائية، ورفضها العراق لجعل الأمن الإقليمي الخليجي كإحدى المسؤوليات الرئيسية لحلف شمال الأطلسي «ناتو» وعودة المنطقة إلى النفوذ الاستعماري الغربي من جديد، بحجة حماية أمن المنطقة للسيطرة على مقدراتها، مما جعل المشروع طبق الأصل للمشاريع الأمريكية السابقة للسيطرة على حقول النفط مع إدخال ألمانيا الغربية وبريطانيا في العمليات العسكرية المزمع إجراؤها عند الضرورة⁽¹¹⁾، علما بأن الدستور الألماني لا يسمح لقواتها بالتدخل أو العمليات خارج نطاق حلف الناتو إلا إذا كان ذلك امتدادا لعمليات الحلف أو مكملًا لها.

المشروع الكويتي:

برغم أن مجلس التعاون الخليجي أكد مواقف أعضائه الذين يرون أن أمن الخليج العربي مسؤولية دولها ولذا يجب إبعاده عن صراعات القوى الكبرى لمنعها من التدخل في شؤونها الداخلية ومنع إقامة قواعد أو منح تسهيلات عسكرية⁽¹²⁾، إلا أن وزير خارجية الكويت حاول إزالة مخاوف البعض بوجود روابط أو علاقات لمجلس التعاون الخليجي مع الولايات المتحدة أو حلفائها وذلك عندما أدرج في جدول الأعمال اقتراحا بمشروع للأمن الإقليمي الخليجي موضحا الهدف منه بما يلي⁽¹³⁾:

«إن الأمن الخليجي نوع من المشاركة الجماعية للحفاظ على أمن المنطقة حتى

لا يصبح حكرا على دولة واحدة لأن الأمن الجماعى هو الضمانة الأفضل لاستقرار المنطقة، وإن أمن الخليج العربى ليست فكرة مطروحة ضد أحد، بل ضد كل من يحاول إيذاء أمن المنطقة. فالثروة الطائلة والحجم الصغير لدول المنطقة كل ذلك يشير مطامح ومطامع الدول الأقوى. والخيار أمام دول المنطقة هو إما قبول الأمر الواقع دون تعديله أو توحيد الجهود وتقويتها لخلق تيار موحد لمواجهة التحديات».

الأمن القومى العربى:

تهدد كيان الأمة العربية أخطار كثيرة يتحتم علينا على الأقل العمل من أجل الأمن القومى برغم أنه مرتبط بالوحدة العربية وبكيان عربى موحد، ولكن الواقع الحالى بكل إفرزاته يدل على صعوبة تحقيقها، ولكن يمكن إيجاد الأمن القومى على ضوء الأخطار المحدقة.

يستند الأمن القومى إلى روابط وحقائق ثابتة للأمة العربية، مع الأخذ بأن الأمن الوطنى القطرى يجب ألا يتعارض مع الأمن القومى بل يساير، ويتوافق معه جنبا إلى جنب. والأمن القومى يعنى حماية دولة أو مجموعة دول عربية من الأخطار التى تتهددها وحماية المصالح الحيوية وأمن وسلامة واستقرار وتهيئة الظروف المناسبة لتحقيق الأهداف والغايات⁽¹⁴⁾، لاستغلال مواردها الاقتصادية بما يخدم مصالحها المشتركة، والحفاظ على الطابع القومى والحضارى للأمة العربية وحقوقها فى السيادة والتقدم⁽¹⁵⁾، وتسعى فى إطار قومية واحدة فيما بينها لمواجهة الأطماع الخارجية والتكتلات الدولية بإيجاد استراتيجية مشتركة قادرة على التعامل مع التحديات السياسية والاقتصادية والعسكرية التى يتعرض لها، والعمل على التكامل فى كافة المجالات للوصول نحو إرادة عربية بتنمية وتوظيف الموارد القومية مثل الثروة النفطية وعوائدها والموارد الاقتصادية الحيوية لرفع مستوى الإنسان العربى⁽¹⁶⁾.

ليس الأمن القومى هو الأمن الإقليمى، ولكنه تعبير عن الحماية الذاتية للأمة العربية فى حين تنظر القيادات السياسية فى أنظمة الحكم العربية إلى الأمن القومى العربى نظرة ذاتية، ولذا يجب إيجاد مفهوم موحد للأمن القومى يعكس المصالح الحيوية المشتركة للأمة فى الوقت الذى تعاني من تهديد لأمن شرق الجزيرة العربية وخاصة منابع النفط وعوائده، وقد أضعف الموقف المصرى بعد كامب ديفيد مما جعل

إسرائيل تضرب المشرق العربى (بغداد) والمغرب العربى (تونس) وتحجم التضامن العربى بالتعاون الاستراتيجى مع الولايات المتحدة لإثارة النعرات الطائفية والحروب الباردة والقضاء على عناصر القوة السياسية العربية، وإحياء النظام الإقليمى من محور لسياسة ضد الأطراف على حساب النظام القومى العربى، والأهم من هذا كله زيادة التغلغل الأجنبى⁽¹⁷⁾، وخاصة الوجود العسكرى الأمريكى فى المنطقة.

تهدد الأخطار الكيانات العربية بل والأمة العربية ككل، فى ظل غياب الأمن القومى إذا لم يوضع تعريف مشترك للأمن القومى العربى، الذى يصعب تحقيقه فى ظل واقع التجزئة المرير لوجود عشرين دولة وعشرين إرادة سياسية عربية بدون كيان سياسى موحد، ورغم اعتراف حكام الاقطار العربية فى المؤتمرات والاجتماعات بأن الأمن القومى العربى هو تعبير عن المصير الواحد، ولكن الواقع عكس ذلك، فالأقوال لا تتفق مع الأفعال لعدم وضوح رؤية موحدة للأمن العربى وتهديداته سواء على مستوى القيادات أو المفكرين.

لذا نجد الاستراتيجية الأمريكية تحاول عزل أمن دول مجلس التعاون الخليجى عن الأمن القومى العربى وربطه بأمنها عن طريق حلفائها فى المنطقة أو بأمن غرب آسيا والصراع الدائر حول المحيط الهندى⁽¹⁸⁾، وهذا يعنى ضمن أشياء أخرى⁽¹⁹⁾.

1 - فصل الأمن الإقليمى الخليجى عن مشكلة الصراع العربى - اليهودى بجوانبها وحساسياتها المتعددة.

2 - عدم السماح باستخدام سلاح النفط فى أية محادثات لتسوية القضية الفلسطينية.

3 - عزل دول مجلس التعاون ومواجهتها منفردة ومنع أية إمكانية عربية لدعم مواقفها، الأمر الذى يفتح الباب على مصراعيه أمام محاولات الضغط عليها وإقناعها بقبول الاستراتيجية الأمريكية بأبعادها المختلفة.

4 - الاستمرار فى تحقيق الالتزام الأمريكى الدائم والمتعلق بالحفاظ على أمن إسرائيل وقوتها فى المنطقة.

تعطى الولايات المتحدة عن طريق تأكيد الخطر السوفياتى قبل مجيء

غورباتشوف للحكم فى روسيا المبرر الشرعى لدعم موقف العدو الاستعمارى اليهودى بكافة تصرفاته، ولا ينبغى على دول مجلس التعاون أو غيرها من الأنظمة العربية، التحدث عن أخطار الكيان الإرهابى اليهودى أو تهديد لسياستها لأمن المنطقة، وتكليفها بعمليات حفظ الأمن والاستقرار⁽²⁰⁾، ليس فى دول مجلس التعاون وإنما الوطن العربى من المنظور الأمريكى.

لذا يجب أن يكون هناك حد أدنى للتعاون القومى فى المجال الاقتصادى والسياسى والعسكرى بإيجاد عمل مشترك على غرار السوق الأوروبية المشتركة بهدف حماية المصالح الحيوية وتشجيع وتنشيط التعاون على مستوى القاعدة لتعميق أواصر التلاحم العربى وإزالة موانع الانتقال لرؤوس الأموال والأفراد فيما بين كياناتها، وإقامة صناعة ثقيلة متطورة وخاصة العسكرية لتدعيم استقلالية القرار السياسى والعسكرى، مما يعزز الأمن القومى العربى، وإلا فإن الأنظمة العربية تكون مهددة داخليا وخارجيا، وقد يحدث تغير فى وجودها السياسى أو الوحدة بالقوة وما ينتج عنه من تدخلات خارجية وخاصة الأمريكية، كاجتياح العراق للكويت وما كان هذا ليحدث لولا غياب التضامن والأمن العربى، وما يفرض من الأمن الأمريكى بتواجده والعسكرى فى السعودية مما يعنى صعوبة الخروج من هذا المأزق الأمريكى بدون إيجاد الأمن القومى العربى.

خلاصة القول بأن اختلاف تفسير الأمن الإقليمى الخليجى من قبل الدول العربية وعن التهديد الخارجى، أصبح عديم الجدوى وإلى حدما الأمن القومى العربى، فى حين تركز معنى الأمن حول كيفية حماية الأنظمة من الداخل لمنع تفريغها، ولم يعد التهديد الخارجى ذا أهمية إذا ما قورن بأمنها الخاص، كما مارست بعض الأنظمة التدخل ضد بعضها الآخر ليس بهدف الدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية وإنما كان بهدف تثبيت النظم الداخلية والإبقاء عليها فى السلطة.

التحديات الخارجية:

تنحصر التحديات الخارجية فى ثلاث قوى أجنبية وهى: التهديدات الأمريكية والسوفيتية واليهودية.

أولاً: التهديدات الأمريكية لأمن شرق الجزيرة العربية:

بعد سقوط الشاه وقيام الثورة الإسلامية في إيران والتي انتقلت من دولة حليفة للكيان اليهودي وأمريكا إلى دول المواجهة، ورفض التواجد العسكري الأجنبي وخاصة الأمريكي بعد تراجع السوفيت إلى وراء نتيجة البروستريكا «غورباتشوف» وما يعاينه من المشكلات الداخلية وانسحابه من أفغانستان والتخلي عن الأصدقاء والحلفاء مثل أثيوبيا والعراق واليمن واتباع سياسة الوفاق مع الولايات المتحدة حول الخليج العربي الذي كان خارج محور الوفاق أثناء التنافس التقليدي والحرب الباردة، وحتى موقف السوفيت المعارض للحليف السابق العراق لاجتياحه الكويت، وما نشأ من تقارب إلى حد التباين بعد لقاء الغداء في «هلسنكي» بين «غورباتشوف» و«بوش» في العاشر من سبتمبر 1990، وما نتج عنه زيادة القوات الأمريكية حول منابع النفط في السعودية شرق الجزيرة العربية إلى أكثر من ربع مليون جندي بأحدث الأجهزة الحربية المعقدة مع ما يمكن أن نعتبره المرحلة القادمة بالأمن الأمريكي لدول مجلس التعاون الخليجي إذا ما صحت توقعاتنا للسيطرة الأمريكية على الأقل في المستقبل القريب إن لم يكن البعيد لبتروول وأمن المنطقة حتى عام 2020.

على ضوء تلك التطورات السريعة التي قد لا نستطيع ملاحقة أحداثها ورصدها وتحليلها، يمكننا دراسة الولايات المتحدة تجاه أمن المنطقة إلى يومنا هذا منذ أن كانت آراء وخطط متحفظة إلى التدخل العسكري المباشر وفرض السيطرة والأمن الأمريكي في عهد جورج بوش.

اتبعت الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية سياسة لضمان سيطرتها على دول مجلس التعاون الخليجي بأساليب خبيثة والتدخل في الشؤون الداخلية وعمل الانقلابات العسكرية والاعتقالات والمؤامرات واشعال النزاعات الاقليمية والطائفية ومشاكل الحدود، وإقامة القواعد والأحلاف العسكرية وزيادة التواجد العسكري والضغط السياسي.

تطور مفهوم السيطرة والأمن الأمريكي للمنطقة مع تطور الإدارات السياسية للبيت الأبيض بشكل أساسي لحماية مصالحها وليس مصالح دول وكيانات المنطقة،

ابتداء من مبدأ ايزنهاور إلى مبدأ نيكسون ومبدأ كارتر وحتى بوش، وتهدف تلك المبادئ إلى المحافظة على استمرارية الأوضاع القائمة وحمايتها وإحكام الخناق على شعوبها⁽²¹⁾، وتعميق ارتباطها بالغرب المسيحي الرأسمالي وتغلغلها إلى المؤسسات المهمة بعد اقناعها بأن الاستقرار والأمن في المنطقة لا يمكن تحقيقه إلا بالاعتماد عليها⁽²²⁾، وحتى لا تخرج خارج نطاق المرسوم لها من قبل ادارتها.

منها تغلغلت إلى المؤسسة العسكرية بإرسال الأسلحة والخبراء واستجلاب كوادر عسكرية إلى المنطقة⁽²³⁾.

يعتبر النفط من أهم المواد الخام حيوية للولايات المتحدة وهي بعيدة عن مكان الاستهلاك بعدة آلاف من أميال عبر البحار، مما يعرضها لمخاطر كبيرة قد يؤدي إلى انقطاعها⁽²⁴⁾، وتقول وجهة النظر الأمريكية حين تصل مصالح الغرب إلى حافة الخطر فعلى كل من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ان تتفقا على الحاجة إلى قوة غربية للتدخل وأن تتخذ خطوات لتحسين الوسائل اللازمة لهذا العمل⁽²⁵⁾، كما حدث مؤخرا بمجيء القوات المسيحية الأمريكية والاوربية وخاصة من فرنسا وبريطانيا إلى الخليج العربي.

من هنا تطورت المفاهيم والمبادئ الأمريكية تجاه المنطقة عندما خلفت تركة وإرث الاستعمار المسيحي البريطاني بعد انسحابها عام 1971 ونتيجة لهزيمتها في فيتنام وتخوفها من تجربة جديدة فاشلة وملاحقتها ما يعرف بعقدة فيتنام فقد خططت لبناء قوة محلية لحماية مصالحها بدلا من تورطها المباشر، وهو الموقف الأمريكي الذي كان واضحا من مبدأ نيكسون لحماية استمرار تدفق النفط بحراسة ايران وبدرجة أقل من السعودية مما أدى إلى بناء القوة العسكرية لايران⁽²⁶⁾. ودعم الشاه سياسيا واقتصاديا للقيام بدور شرطى المنطقة لحماية المصالح الأمريكية والعالم المسيحي الرأسمالي كما طورت علاقاتها مع السعودية بدرجة كبيرة، وعملت على إيجاد تنسيق أمني بين ايران والسعودية للمحافظة على مصالحها، حاول الشاه استغلال هذا الدور لمصلحته ايضا، باتباع سياسة التوسع والهيمنة والقيام بدور القوة الرئيسية الاقليمية الوحيدة في المنطقة.

نتيجة لمبدأ نيكسون حصلت ايران على كميات كبيرة من الأسلحة الحديثة

والمتطورة برغم عدم قدرة ايران على استيعابها، واستهدفت السياسة الامريكية بمبدأ المشاركة او سياسة تخويف الأنظمة المحلية الاخرى والتي لا تخضع لسياساتها كالعراق واليمن وتهديدها بالتدخل الأمريكى المباشر ومحافظة الأنظمة الحليفة⁽²⁷⁾.

لكن بقيام الثورة الإيرانية وظهور الدولة الإسلامية بكل أبعادها تخلت ايران الثورة الإسلامية عن دور شرطى الخليج العربى لحماية المصالح الامريكية وسحبت قواتها التى أرسلها الشاه لقمع الثورة الشعبية فى ظفار، وأعلن رئيس الأركان الإيرانى الجنرال محمد قرنى فى 3/3/1979: «إن الثورة جعلت ايران دولة مجابهة مع اسرائيل» وبرر قرار الحكومة الخاص بسحب الوحدة الإيرانية (2500) رجل من قوة حفظ السلام الدولية العاملة فى الجولان بقوله: «ليس من المنطقى أن تعمل القوات الإيرانية كحاجز بين العرب واسرائيل فى حين أننا نعتبر أنفسنا دولة مجابهة مع اليهود جنباً إلى جنب مع الدول العربية»⁽²⁸⁾.

بذلك انتقلت ايران من حليف إلى معارض بعد الثورة الإسلامية، وأفشلت المخططات المسيحية الاستعمارية المعروفة بالركائز الامريكية الثلاث لحماية أمن الخليج العربى، فالأولى والثانية كانتا ايران والسعودية فى حين كانت الثالثة الإرهاب اليهودى، وبقيام الثورة الإسلامية فى إيران انهارت الركيزة الثالثة الإرهاب اليهودى وباتت تهدد الركيزة الثانية.

بسقوط الشاه سقط مبدأ نيكسون وما أعقبه من إعادة للسياسة الامريكية فى المنطقة من نوع جديد لمفهوم الأمن الأمريكى عندما قال كارتر⁽²⁹⁾: «سنحافظ على قدرتنا الاحتياطية لاستخدام القوة العسكرية الاضافية اللازمة لمساعدة الدول المهددة فى المنطقة عندما تدعو الحاجة وسنختار سبلنا بعناية من اجل ضمان ألا تخلق الأعمال الامريكية مسؤوليات سياسية محلية تقلل من فعالية جهدنا العام، وقد أقمنا أيضاً علاقات مع عدد من دول المنطقة تقضى بتزويدها بالعتاد العسكرى ولا تساهم هذه العلاقات فى زيادة قدرات هذه الدول على الدفاع عن النفس وحسب بل تسهم أيضاً فى تنمية شعورها بالاستقرار واستعدادها للمشاركة فى جهد الأمن المشترك».

هذا يعنى التراجع عن مبدأ نيكسون والانتقال من مرحلة التدخل غير المباشر

عن طريق ايران والسعودية قبل الثورة الإسلامية إلى التدخل المباشر، ومن التركيز على الإجراءات الدبلوماسية إلى التركيز على الإجراءات العسكرية، ومحاولة احياء النزاعات التقليدية في السياسة الأمريكية في المنطقة والتي خمدت منذ الستينيات حتى مجيء كارتر وبدأت بإحياء التحالفات الأمنية وإقامة القواعد والتسهيلات العسكرية⁽³⁰⁾.

لم يكن اهتمام الولايات المتحدة بأمن المنطقة ومحاولة تثبيت الأوضاع ما هو الا طريقة لاستمرار تدفق النفط الى العالم المسيحي الرأسمالي⁽³¹⁾، باستخدام القوة العسكرية لمواجهة أى تهديد لمصالحها الحيوية في الخليج العربى، اى انها تحت رحمة الأمن الأمريكى.

لجعل هذا المبدأ فى حيز التنفيذ اتجهت السياسة الأمريكية الى زيادة حجم التواجد العسكرى فى المناطق المحيطة وايجاد القواعد والتسهيلات العسكرية ابتداء من شمال الخليج العربى فى تركيا واسرائيل والبحر الاحمر فى مصر والقرن الفريقى فى الصومال وكينيا والمحيط الهندى وفى داخل كيانات شرق الجزيرة العربية وإنشاء قوة الانتشار السريع وتقوم هذه السياسة على:

1- التدخل العسكرى الأمريكى إذا كان هناك تهديد لمصالحها الحيوية التى تتلخص بضمنان امدادات النفط لها ولحلفائها بأسعار معقولة وبالكميات التى تحتاجها.

2- ايجاد نوع من التقارب فيما بين الانظمة الحليفة للمحافظة على أمن المنظمة من المنطلق الأمريكى لحماية مصالحها.

التخوف الأمريكى على مصالحه فى المنطقة؛

يبرر المسؤولون فى البيت الأبيض تخوفهم على أمن المنطقة من انقطاع النفط والسيطرة الوطنية عليه مما يودى إلى التحكم فى الأسعار والإيرادات وكمياته والقرار السياسى الذى قد يرتبط به وخاصة الربط بين المصالح الأمريكية والمصالح العربية بقضية فلسطين، ولذا نتناول أولا تخوف الأمريكيين من انقطاع النفط ومواقفهم المعلنة، ثانيا: ماذا لو احتلوا منابع النفط؟

أولا: التخوف الأمريكى من انقطاع النفط:

صرح براون وزير الدفاع السابق فى شهادة له أمام لجنة الشؤون الخارجية بالكونغرس ضرورة استمرار تدفق نفط منطقة الخليج العربى معتبرا ذلك بمثابة مصلحة حيوية فى منطقة تفتقر فى رأيه إلى القدرة الكافية للحماية⁽³²⁾: «إن ما نراهن عليه فى الخليج العربى هو الرخاء الاقتصادى والعافية السياسية للولايات المتحدة وحلفائها. فلو حرمت الدول الصناعية فى العالم من حرية الوصول إلى مصادر الطاقة فى الخليج العربى فستكون النتيجة على الأرجح هى الانهيار لحلفائنا وللإقتصاد العالمى».

كما صرح ريغان على ضرورة الاستمرار فى الحفاظ على أمن الخليج العربى ولكن من خلال التنسيق مع الحلفاء: «إن التزامنا بالمحافظة على الأمن والاستقرار فى الخليج العربى لن يضعف التزاماتنا الأخرى بل إن العكس هو الصحيح، إن أوروبا واليابان والولايات المتحدة تحتاج إلى النفط الذى ينتجه الخليج العربى، كما أن أصدقاءنا فى الخليج العربى يحتاجون إلى مساعدتنا لوقف امتداد النفوذ السوفيتى».

وأضاف: «إن هناك تهديدات متزايدة فى الثمانينيات لأمننا المشترك ليس فى أوروبا فحسب بل فى الخليج العربى أيضا، ولذلك ندعو أصدقاءنا وحلفاءنا الأوروبيين إلى القيام بدور كبير لا غنى عنه فى مجال تنظيم أمننا، لأن الرد على التهديد يكمن فى الاستخدام المشترك لموارد الولايات المتحدة وحلفائها وجهودهم السياسية»⁽³³⁾.

يتضح من تلك التصريحات التخوف الأمريكى من انقطاع النفط أو توقف الامدادات لفترة طويلة مع ما ينتج عنه من مخاطر للأمن القومى الأمريكى ولحلفائه، أو وقف امدادات النفط لفترة قصيرة لا تؤثر كثيرا على الأمن القومى الأمريكى ولحلفائه، ولكن قد يهيج الظروف المناسبة لرفع الأسعار مما يعنى تراكم عشرات البلايين من الدولارات كفوائد مالية لعوائد النفط تهدد النظام النقدى والمالى العالمى بالانهيار فى حالة عدم إعادة تدويرها⁽³⁴⁾، وذلك كما حدث من انقطاع النفط العراقى والكويتى نتيجة للحظر الأمريكى، برغم زيادة الانتاج السعودى بما يكفى إلا أن التخوف من الانقطاع لفترة قصيرة عندما وقعت الحرب

بين الولايات المتحدة وحلفائها ضد العراق، أدى إلى ارتفاع قيمة البرميل الواحد إلى أكثر من أربعين دولاراً بعدما كان لا يتجاوز ثمانية عشر دولاراً.

لذلك يهدف الأمريكيون بإرسال الأسلحة إلى حلفائهم وأصدقائهم في المنطقة كوسيلة يستطيعون بها الدفاع عن أنفسهم حتى تحضر قوات أمريكية لحماية أمن الخليج العربي⁽³⁵⁾، ولذا قررت الولايات المتحدة أن يكون التوكيل لحماية المصالح الغربية من دول منطقة الخليج العربي⁽³⁶⁾، وإرسال الأسلحة للصمود مؤقتاً حتى تصل القوات الأمريكية، ويقول الكاتب الأمريكي «انتوني ديوك»: «ليس هناك حاجة لحماية المصالح الحيوية عن طريق تواجد القوات الأمريكية للدفاع عن الكيانات الستة لمجلس التعاون وإنما يجب علينا تقديم كافة المساعدات لأن أمنهم المباشر مرتبط وتابع لأمننا»⁽³⁷⁾.

يكمن التخوف الأمريكي في عدة نقاط وهي:

أولاً: على منابع النفط في دول مجلس التعاون وخاصة في شرق السعودية، ومحاولة العراق الاستيلاء على حقوله الرئيسية أو من القوة الإقليمية الأخرى كإيران في المنطقة، أو قفل الممرات الملاحية لناقلات النفط عند النقاط المهمة والمضايق البحرية.

ثانياً: التخوف من مناطق الاضطراب والتوتر التي تحيط بمرافق النفط والتدخل في عمليات الإنتاج والشحن، ومحاولات قلب الأنظمة الخليفة لأمريكا كما حدث لشاه إيران أو حظر تصدير النفط أو التحكم بأسعاره وبكمياته.

ثالثاً: التخوف من ضعف الأنظمة الخليفة وعدم قدرتها على الصمود أمام أي طماع خارجية.

ثانياً: ماذا لو احتلت أمريكا منابع النفط؟

ماذا لو تعرضت منابع النفط السعودية للاستيلاء عليها من قبل الولايات المتحدة؟

احتلال منابع النفط السعودية في شرق الجزيرة العربية وارد في جميع الظروف وفي كل الأحوال في ضوء احتياجاتها المنطقية، لأنها أساسية واستراتيجية حتى النصف الأول من القرن القادم أي إلى عام 2050.

سوف تتدخل الولايات المتحدة عسكريا لحماية واحتلال منابع السعودية إذا ما تعرضت لتهديد خارجي سواء كانت قوة إقليمية أو دولية كما حدث في اجتياح العراق للكويت فدخلت القوات الأمريكية وطلبت من حلفائها العرب مساعدتها في تحقيق حماية منابع النفطية لإعطاء شرعية دولية لتدخلها السافر، تحت مبرر حماية السعودية من العراق.

ولكن ماذا لو كان التهديد لأمريكا نابعا من الداخل، فعلى سبيل المثال إذا هدد السعوديون بعدم تصدير النفط إلى الولايات المتحدة أو زيادة الأسعار أو تخفيض الانتاج من أجل عدم الاهدار أو الاستنزاف للمورد الوطنى القومى الوحيد، والوقوف مع دول المواجهة العربية لاسترجاع الحقوق الشرعية الفلسطينية من العدو الإرهابى اليهودى؟.

وماذا لو استطاعت الولايات المتحدة الاستيلاء على منابع النفط السعودية برغم الصعوبات وبعمل عسكري.

جميع هذه الأسئلة واردة فى ظل الظروف الراهنة، علما بأن خطة الاستيلاء على حقول السعودية من قبل الولايات المتحدة كانت موضوعة منذ فترة وان لم تظهر فى البيانات والوثائق الرسمية للبيتاغون، ولكن الاستراتيجيون الامريكيون درسوا دائما وإن كان بشكل مكتوم تلك الاحتمالات التى ذكرناها سابقا، ومفهوم الاستيلاء على نفط العرب ايضا كان دائما موجودا، وقد برز ذلك على السطح فى كل مرة رفع فيها السعوديون أسعار النفط الخام، أو هددوا باجراء جماعى ضد الاستعمار اليهودى⁽³⁸⁾.

وفى الحالتين سواء تهديد المصالح الامريكية فى دول مجلس التعاون الخليجى من الخارج أو من الداخل، كما حدث من قبل العراق أو ما قد يحدث مستقبلا، فإن النتيجة قد حصلت فعلا ما كان يتمناه الامريكيون وهو تأمين السيطرة على نفط الخليج العربى فى ظل ظروف مناسبة وتحت مبررات شرعية بقرارات مجلس الأمن الدولى.

لكن يبقى سؤال ملح: هل تستطيع الولايات المتحدة أن تتحمل تكاليف حماية آبار النفط فى غياب المساندة الخليجية معنويا وأمنيا.

إن حماية حوالي (700) بئر نفطى وسبعة آلاف متر من خطوط الانابيب المعرضة للتخريب أو المخاطر، تحتاج من امريكا إلى قوة عسكرية دائمة للحفاظ عليها لا تقل عن مائة ألف جندي، هذا غير الحماية من هجمات داخلية أو خارجية، والسؤال المطروح ما هى تكاليف الإقامة لهذا العدد الضخم فى منطقة تعتبر من أعلى المناطق فى مستوى المعيشة، سواء من المأكل والمشرب والمسكن وحماية مستمرة ضد الهجمات من الداخل أو الخارج أو اعمال انتحارية، كل ذلك يتطلب جهدا يوازي فى المال والرجال تورط الولايات المتحدة فى فيتنام⁽³⁹⁾، وهى قضية تقلق الأمريكان وتجعلهم يراجعون حساباتهم جيدا قبل الاقدام على مثل هذه الخطوة.

ثانيا: التهديد السوفيتى:

طرح السوفيت عدة مبادرات للأمن فى الخليج العربى وهى تدعو إلى التعاون والسلام دون هيمنة القوتين وتتناول مبادرتين الاول عن الأمن الجماعى والثانية عن مبادرة بريجنيف.

فكرة الأمن الجماعى:

قدم الاتحاد السوفيتى مبادرة للأمن الجماعى فى اسيا بما فيها الخليج العربى الذى يمكن توطيد العلاقة ما بين دوله وكياناته إذا ما تم تطوير التعاون وتعزيز الأمن والامتناع عن استخدام القوة العسكرية وعدم التدخل فى الشؤون الداخلية والحفاظ على الحدود القائمة والاحترام المتبادل للسيادة، ووحدة الأراضى والتعاون الكامل على مبدأ المساواة والمنفعة المتبادلة، وحرية الملاحة فى الخليج العربى والمياه الدولية المجاورة له والمؤدية إليه.

تؤكد الفكرة بأن التعاون المشترك بين الجانبين العربى والإيرانى ممكن تحقيقه إذا راعى كل جانب مصالح الجانب الآخر فى سبيل منع استغلال الاستعمار المسيحى الرأسمالى وخاصة الولايات المتحدة لموارد النفط والعمل لصالح شعوب المنطقة، وعدم اللجوء إلى الحروب المحلية، وعدم إراقة الدماء وتخفيف الميزانيات العسكرية وتحويلها للتنمية الاقتصادية الاجتماعية⁽⁴⁰⁾.

مبادرة بريجنيف:

يرى الاتحاد السوفيتى أن مبادرة بريجنيف ذات أهمية لعدة أسباب أهمها ما يلى:

1 - إعطاء دليل على عدم وجود أطماع سوفيتية فى المنطقة كما يردده المسؤولون الأمريكيون.

2 - كانوا يرون بأنها تحل المشكلة الافغانية وتؤدى إلى الانسحاب السوفيتى وقد انسحبوا منها مؤخرًا.

3 - ينهى مشكلة أمن الخليج العربى لإعطائه الضمان الكامل بجانب حرية الملاحة والتجارة الدولية منه وإليه.

انتقل السوفيت بذلك من المبادرات الثنائية إلى المبادرات الجماعية لضمان أمن الخليج العربى، ومراعاة مصالح الأطراف المختلفة وخاصة المصالح الغربية، وفى المقابل تأكيد لحماية أمن السوفيت الجنوبية أى مبادلة بين الإقرار السوفيتى بوجود مصالح غربية نفطية مقابل اعتراف الغرب بتواجد مخاوف سوفيتية أمنية شرعية⁽⁴¹⁾.

شكل الاتحاد السوفيتى نوعًا من التهديد، ولكن لم يصل بمستوى التهديد الأمريكى لأمن الخليج العربى، وإنما مجرد الحفاظ على حدوده الجنوبية، ومساعدة حلفائه فى المنطقة، أكثر من التهديد بالتدخل العسكرى مثل الولايات المتحدة، ولا نعتقد بأن السوفيت سوف يشكلون أى تهديد لأمن الخليج العربى على الأقل فى المنظور القريب إن لم يكن حتى فى المنظور البعيد إلى نهاية القرن الحالى، وهذا راجع لعدة أسباب منها:

1 - حالة الوفاق مع الولايات المتحدة لتخفيف حدة التوتر فى العالم مع الموافقة الضمنية للسيطرة الأمريكية فى المناطق الحيوية والخليج العربى بعد قمة هلسنكى.

2 - تزايد المشاكل الاقتصادية والسياسية فى داخل الاتحاد السوفيتى، فمن الجمهوريات التى تطالب بالانفصال وبعضه أعلن الاستقلال مثل لتوانيا إلى مشاكل القوميات العرقية، وأعلن البرلمان السوفيتى اتخاذ قرار التحول من الشيوعية إلى

الاقتصاد الحر يوم 24 / 9 / 1990 عندما فرض غورباتشوف ايجاد صيغة للتحويل من الاقتصاد الشيوعى الذى دام أكثر من 73 عاما إلى اقتصاد السوق الحر، وفى 19 / 10 / 1990 وافق البرلمان السوفيتى على خطة غورباتشوف المعدلة بين خطتى «لشتالين» المتطرفة وهو خبير اقتصادى و«ريمكوف» المحافظ وهو رئيس الوزراء مع السماح للجمهوريات السوفيتية بتطبيق ما تراه مناسبة فى نطاق الانفتاح للاقتصاد الرأسمالى.

هذا التحويل الاقتصادى للسوفيت أخذ أبعادا جديدة وخاصة بعد فشل الانقلاب الشيوعى واستقلال الدول التى سميت بالكومنولث.

3 - انسحاب السوفيت من افغانستان ومن ألمانيا الشرقية وتخفيض تواجداتها العسكرية فى بقية الدول الحليفة، والتقليل من المساعدات العسكرية والاقتصادية إلى اليمن واثيوبيا قد ساعد على إزالة المخاوف من السوفيت أو حلفائه فى المنطقة.

4 - تحسين علاقة روسيا مع دول مجلس التعاون الخليجى ابتداء من عمان والإمارات وقطر وانتهاء بالسعودية ورفع المستوى الدبلوماسى إلى إقامة السفارات، جعلها أقرب إلى المعسكر الأمريكى بعد موقفها من الاجتياح العراقى للكويت برغم وجود معاهدة الصداقة.

5 - السماح لأكثر من مليون يهودى بالهجرة إلى اسرائيل ومحاولة إعادة العلاقات برغم خطورة ذلك على العلاقات مع العرب، مما يعنى عدم الاهتمام كثيرا بالقضايا العربية وخاصة الشرق الأوسط وفى مقدمتها القضية الفلسطينية.

كل تلك التطورات التى ذكرناها نقلت روسيا إلى المواقع الخلفية فى حين عززت المواقع الأمامية للولايات المتحدة اضافة إلى احتياجات روسيا للدعم الاقتصادى والتكنولوجى الأمريكى والغربى جعلها تخفف من معارضتها لخطط الهيمنة والتوسع الأمريكى فى مختلف أرجاء العالم، وخاصة الخليج العربى مما يعطيها اليد العليا فى الحكم بمصائر الشعوب المغلوبة دون رادع حقيقى لسياستها.

عودنا التاريخ الروسى بأنهم كأموج البحر ينحسرون لفترة لأسباب داخلية كما حدث بعد ثورة أكتوبر 1917 ثم يعودون مرة ثانية أقوى من السابق، وبمعنى آخر إن عودة روسيا من جديد لابد منه كقوة عالمية تلعب دورا مهما فى القضايا

الدولية الاقليمية وخاصة أمن الخليج العربى ولا محالة من ذلك، ولكن بعد ترتيب البيت الداخلى وتعزيز الاستقرار الاقتصادى الجديد ثم الخروج إلى العالم الخارجى أو الانضمام إلى الاتحاد الأوربى بعد عام 2020.

ثالثاً: تهديد الإرهاب اليهودى؛

لا تقل خطورة الإرهاب اليهودى وتهديده لأمن الخليج العربى عن الولايات المتحدة، لأنها تمثل القاعدة الأمريكية المتقدمة فى الشرق الأوسط، ومما زاد أهمية ذلك هو التحالف الاستراتيجى وخطورته ليس فقط لتهديد أمن دول مجلس التعاون، وإنما على الأمن القومى العربى، وهذا هو الأهم بعد توقيع الولايات المتحدة الأمريكية مع إسرائيل الاتفاقية الاستراتيجية عام 1981 وتجديدها عام 1983 اعتبرت إسرائيل أمن الخليج العربى من أمنها الوطنى فى الوقت الذى تنظر إلى دول مجلس التعاون على أنه الخط الثانى أو الظهير الخلفى للجبهة الأمامية وبالتالي جزء من الأمن القومى العربى الذى يشكل خطراً على الأمن الإسرائيلى.

أعطت الاتفاقية الاستراتيجية مع الولايات المتحدة حرية الحركة واستخدام كل إمكانياتها لحماية المصالح الحيوية فى دول مجلس التعاون، وأصبحت الشريك الاستراتيجى الأمثل الذى يضمن تعزيز ترتيبات الأمن الأمريكى فى المنطقة، ويمكن الاعتماد على اليهود فى التقليل من مشاكل نقل القوات فى الظروف الطارئة، وكذلك يمكن للقوات الجوية الأمريكية استخدام إسرائيل كمحطة لضرب الأهداف المطلوبة فى الخليج العربى إذا دعت الحاجة، ولتحقيق ذلك قام الكيان اليهودى ببناء قاعدتين «رامون» و «دافدا» فى صحراء النقب بمساعدة الولايات المتحدة، إضافة إلى قاعدة بئر سبع المخصصة لاستخدام القوات الأمريكية فى حالة التهديد المباشر لمصالحها فى المنطقة، وراجع التهديد اليهودى لأمن الخليج العربى باعتبارها جزءاً من الاستراتيجية الأمنية المشتركة مع الولايات المتحدة انطلاقاً من عدة مؤشرات أهمها⁽⁴²⁾.

1 - حرب يونيو 1967 وأكتوبر 1973 واجتياح لبنان 1982.

2 - استخدام نفط العرب كسلاح فى المعركة ضد الكيان اليهودى المحتل لفلسطين .

3 - مساعدة دول المنطقة ماليا ومعنويا وسياسيا لمنظمة التحرير والفلسطينيين ودول المواجهة العربية .

4 - استضافة دول مجلس التعاون للأخوة العرب من الفلسطينيين بتوفير الفرص المناسبة للإقامة .

إن استمرار النزاع العربى - اليهودى يزيد من خطورة أمن الخليج العربى ، ليس فقط من جانب أطماع الإرهاب اليهودى ، ولكن من جانب آخر وهو تعقيد العلاقات بين دول مجلس التعاون وبين دول الغرب المسيحى الرأسمالى وخاصة الولايات المتحدة ، ويقف حائلا دون تطويرها وقد شدد بعض حكام المنطقة فى الأحاديث التى جرت مع اللجنة الثلاثية المكونة من اليابان وأوروبا والولايات المتحدة ، على المسألة بتحذير هؤلاء الزوار من أنه ما لم تتم تسوية هذا النزاع خلال خمس سنوات فإنهم (الحكام المعتدلون) قد لا يكونون بعد ذلك فى موقع السلطة⁽⁴³⁾ .

كانت دول مجلس التعاون ترى أن التعاون الأمريكى مع الإرهاب اليهودى لا يقل خطورة عن التهديد السوفيتى لاستقرار أمن المنطقة ، لأن دولة الإرهاب اليهودى دولة عدوانية استعمارية توسعية تهدد الأمن القومى وهى تنفق ميزانية ضخمة لشراء الأسلحة ، وفى السنوات القليلة القادمة تواجه مشكلة اقتصادية خطيرة والبعض يطالب بوضع خطة إرهابية يهودية أمريكية شاملة لغزو حقول النفط فى شرق الجزيرة العربية .

لدى دولة الإرهاب اليهودى القدرة العسكرية للوصول إلى آبار النفط ، وخير دليل على ذلك عدوانها السافر فى 7/6/1981 على العراق عندما قامت بتدمير مركز الأبحاث النووى العراقى «تموز» ، فما الذى يمنعها من غزو آبار النفط فى دول مجلس التعاون ، بل هناك تهديدات إرهابية يهودية بضرب كيانات المنطقة ، كما ظهر عقب إعلان نية ألمانيا الغربية بيع أسلحتها للسعودية .

لكن الأحداث الأخيرة بعد الاجتياح العراقى للكويت ودخول القوات الأمريكية الى السعودية ، لم تقم دولة الإرهاب اليهودى بأى دور يذكر بل العكس

من ذلك إن بعض الدول العربية أسرعت بنجدة أمريكا، ومع هذا لا نعتقد بأن الإدارة الأمريكية سوف تتخلى عن دولة الإرهاب اليهودى وأكبر دليل على ذلك الموقف الأمريكى وخاصة الكونغرس المؤيد للمذبحة الإرهابية اليهودية فى الحرم القدسى الشريف للعرب والمسلمين، تجاهل ودون مراعاة شعور المسلمين فى سوريا ومصر والسعودية نفسها من المذابح الإرهابية اليهودية، ونعتقد بأن الدور اليهودى الإرهابى سيكون كبيراً بحجم تحالفها مع الولايات المتحدة كضرب العراق أو أى كيان عربى إن عاجلاً أو آجلاً.

نظرة مستقبلية:

يخبئ المستقبل الكثير لدول مجلس التعاون ولذا نحاول التوصل إلى استنتاجات للنظرة المستقبلية التى تنحصر فى المادة الاستراتيجية الأولية وهو النفط والطلب المتزايد عليه، هناك بعض النقاط التى يجب التذكير بها وأهمها:

1 - الاهتمام العالمى وتركيزه على النفط وخاصة من قبل العالم المسيحى الرأسمالى والسوفيت ودول أوروبا الشرقية فى المستقبل القريب.

2 - المنافسة الدولية على الخليج العربى وسوف تتركز بين ثلاث قوى رئيسية إن لما تكن خمسة وهى:

أ - الولايات المتحدة الأمريكية.

ب - أوروبا الموحدة بزعامة ألمانيا وفرنسا.

ج - روسيا الاتحادية.

د - اليابان والصين وكوريا الموحدة وأستراليا (شرق آسيا).

هـ - البرازيل، الهند، الأرجنتين وبقية دول العالم الثالث.

3 - احتمال قيام تحالفات عسكرية وأمنية بين دول المنطقة وبين دول العالم الرأسمالى المسيحى الغربى وخاصة القوات الأمريكية والفرنسية والبريطانية الموجودة حالياً فى الكويت والسعودية، مما ينتج محوراً آخرًا مضاداً له من دول المنطقة الكبيرة مثل إيران والعراق واليمن وقد تنضم إليهم دول عربية وأجنبية أخرى مثل روسيا والصين.

قد تكون هذه الاستنتاجات راجعة إلى تزايد الطلب العالمى على نفط الخليج العربى . مقابل تناقص فى أماكن أخرى واحتمال أيضا توفر فائض أو أماكن تكتشف ولكن الأهمية الأولى ستكون للمنطقة، لكثرة الإنتاج وقلة الاستهلاك وإعادة تدوير عوائد النفط بسهولة ووجود أكبر احتياطي فى العالم . وخاصة فى السعودية والعراق .

تقول التقديرات العالمية بأن النفط سيشكل (6%) والغاز الطبيعى (5%) من موارد الطاقة التى يتم استيرادها، إضافة إلى أن تطور التقدم العلمى يجعل الاستفادة القصوى من كافة منابع النفط، ومزيد من الاكتشافات وإيجاد البدائل، وقد يبلغ فى عام (1999) ذروة الانتاج العالمى من انخفاض فى الأسعار مع ازدياد الطلب عليه فى حين تستمر دول المنطقة فى الانتاج بمعدلاتها الحالية وقد تزايد قليلا بما يعادل أربعة ملايين للإمارات، عشرة ملايين للسعودية، وستة ملايين للعراق، وما بين مليونين وثلاثة ملايين لكل من الكويت وإيران واحتمال دخول اليمن نادى المنتجين بحوالى مليونين أو أكثر قليلا، مع وضع كافة الاحتمالات بإيجاد البدائل أو الاكتشافات الجديدة والتطور التكنولوجى للنفط وخاصة نفط سيبيريا وآلاسكا وشمال كندا ودول وسط اسيا .

يؤكد وجود الاحتياطي ما لا يقل عن (585) مليون برميل فى العالم ما عدا روسيا، وحصص الأوبك منه ثلاثة أرباع ودول المنطقة ثلاثة أخماس منها، مع تزايد الاعتماد الغربى على نفط الخليج الغربى، وانخفاض إنتاج بحر الشمال والنرويج⁽⁴⁴⁾، وازدياد أهمية المنطقة وتزايد دور المنتجين الرئيسيين مثل السعودية والعراق والإمارات، مع تزايد اعتماد أوروبا الشرقية على نفط المنطقة بعد استقلالها أكثر من الاعتماد على نفط روسيا الذى بدوره يلجأ إلى الاستيراد برغم وجود الاحتياطي لديه إذا ما استمر فى التحولات الاقتصادية إلى النظام الرأسمالى مما يجعله يتقرب أكثر وأكثر إلى الخليج العربى مما يعنى عودة المنافسة من جديد ولكن ليس بين قوتين وإنما أكثر وخاصة بين الولايات المتحدة وأوروبا الموحدة وروسيا ان لم تدخل دول أخرى فى هذا الصراع والمرشحة اليابان والصين والبرازيل وأيضا احتمال قيام تعاون إقليمى أو كيان سياسى موحد للجزيرة العربية أو إضعاف الدور الأمريكى أو إقامة حلف برئاستها، والاحتمالان فى المنظور القريب فى حين أن الاحتمال الأول وارد فى المنظور البعيد.

تخوف قائم فى المستقبل من أن يصبح سكان دول مجلس التعاون الخليجى أقلية مع استمرار تدفق الأجانب اذا لم يوجد حل لهذه المشكلة، أما اذا ما تمت إقامة كيان موحد للجزيرة العربية وحتى عملية الاستقطاب الدولى وخاصة الغربى تكون أقل برغم أنها سوف تمنع ولو بالقوة أية محاولات جادة لادخال اليمن فى هذا الاتجاه.

ينظر جون بولوك نظرة متفائلة ولكن مستشائمة للعرب لخطورتها على الأمن القومى اذا ما أصبحت نظرتة حقيقية حيث يقول: «من المحتم أن تصبح المجتمعات فى الجزيرة العربية أكثر استقرارا وسيزداد الضغط من أجل المساواة فى الحقوق. وفى نفس الوقت سيكون هناك جيل جديد من الحكام عنده قابلية أكثر للإصغاء لصوت الشعب، كل الشعب، وستكون النتيجة أن القطرى أو الكويتى أو البحرينى وربما كان أصله من الهند أو الباكستان أو تايلاند وحتى كوريا!! إن التزاوج بين الأجناس المختلفة قد بدأ بالفعل ومن المحتمل أن الخليج العربى يصبح عالمى الطبع أكثر من البلدان الأخرى⁽⁴⁵⁾».

يلعب الغرب المسيحى الرأسمالى دورا رئيسيا فى التنظيم السياسى بدعمه لإقامة الكيانات السياسية والحفاظ عليها لاستمرار مصالحه، وإذا ما أراد العرب توحيد تلك الأنظمة والكيانات الخليفة للغرب يحب اقناع وتطمين الولايات المتحدة بأن هذا الاتحاد لكيانات الجزيرة العربية يضمن استمرارية تلك المصالح وكفيل بضمان الاستقرار السياسى والاقتصادى للجزيرة العربية الموحدة، وحماية أمنها الوطنى وبداية حقبة جديد، ويجب على الغرب فى ظل هذا التغير التخلّى نهائيا عن التدخل العسكرى الباهظ التكاليف ذى النتائج العسكرية العالمية بالاستياء الشعبى لدى أرجاء الوطن العربى، وبدلا من ذلك إقامة علاقات قوية بتنمية مشاريع اقتصادية تكون المصلحة فيها متبادلة ومتكافئة بين الطرفين مما يزيل الأعباء والالتزامات السياسية والاقتصادية من كاهل الغرب المسيحى الرأسمالى لفترة طويلة فى المستقبل، فالتعاون مع دولة قوية اتحادية أفضل بكثير من ستة كيانات مجزأة، وذلك انطلاقا من صعوبة إخضاعها لسياسة معينة سواء كانت اقليمية أو دولية أو أن تنفرد فى تغير مجرى الأحداث⁽⁴⁶⁾ ودون موافقة جميع دول الجزيرة العربية. وانطلاقا مما سبق ذكره نضع التصورات المستقبلية الآتية:

1 - اختلاف وجهات النظر حول مفهوم أمن الخليج العربى والجزيرة العربية أدى إلى عدم الاتفاق حتى ولو على الحد الأدنى لإقامة أو وضع استراتيجية مشتركة لأمن المنطقة رغم أهميته الحيوية والقصى للحفاظ على كياناتها السياسية.

2 - يجب أن يكون مفهوم الأمن فى المنطقة مفهوما شاملا وليس الجانب العسكرى فقط ويشمل التعاون والخطط فى جوانب التكامل الاقتصادى والثقافى والاجتماعى والتنسيق السياسى بين دول مجلس التعاون الخليجى .

3 - إن ضياع إيران من دائرة النفوذ الأمريكى بعد الثورة الإسلامية دفع الولايات المتحدة بالتمسك بالسعودية بديلا غير قابل التفريط فيه وخاصة بعد احداث الكويت، مما يعنى تحجيم النفوذ الأمريكى وتهديد لمصالحها فى المنطقة، وتواجد قواتها فى السعودية والكويت حاليا يأتى من هذا المنطلق وسوف تستمر لفترة طويلة إن لم تكن دائمة ما لم تواجه بقوة عربية موحدة وبذلك يمثل خطرا يوارى خطر الإرهاب اليهودى فى فلسطين إن لم يكن أكبر.

4 - برغم ميل أوروبا وروسيا إلى جانب الولايات المتحدة فى الفترة الحالية نظرا لأزماتها الاقتصادية والمشاكل الداخلية إلا أنه سوف يعود أقوى من ذى قبل فى المستقبل القريب إلى الخليج العربى للحصول على مكاسب استراتيجية أو على الأقل شريك الولايات المتحدة فى المنطقة، بعدما تكون الولايات المتحدة قد ثبتت أقدامها بشكل أقوى فى المنطقة، ولهذا يجب على دول وكيانات الخليج والجزيرة العربية أن تعى جيدا للصراعات وسياسات تلك الدول، وتعمل جهدها لأخذ المبادرات الذاتية حول التحديات بالمبادرات الفردية الآتية التى تنصب فى مجرى سياسة الهيمنة للدول الكبرى.

5 - عدم تقديم التسهيلات للدول الكبرى، أو توقيع اتفاقيات ثنائية معها فى مجالات استراتيجية تؤثر على قدراتها الوطنية وتحجم من استقلالية قراراتها وسيادتها الداخلية والخارجية وتنوع مصادر التسليح إن لم يكن ايجاد قاعدة للصناعة العسكرية العربية حتى لا تقع تحت رحمة تلك الدول.

6 - نبذ الخلافات الجانبية وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للكيانات الأخرى.

7 - سحب الأرصدة والودائع من الدول الرأسمالية المسيحية الغربية وإيجاد بدائل للتنمية فى الكيانات العربية ودول العالم الثالث.

8 - نهج سياسة أكثر استقلالية فى التصنيع وخاصة الصناعات الثقيلة والتحكم فى المصادر النفطية والصناعات المشتقة منها، والتنسيق والتعاون المشترك فى اتخاذ القرارات الحيوية.

9 - تحقيق الأمن الجماعى العربى القومى، وتشكيل قوة الردع العربية، وبناء القدرة الذاتية القادرة على حماية الأمن القومى العربى ولو اقليميا فى الجزيرة العربية كبداية الطريق.

10 - العمل على إيجاد استقرار سياسى فى الجزيرة العربية بالمشاركة الشعبية فى اتخاذ القرارات المصيرية بالسماح بالمؤسسات الدستورية والممارسة الديمقراطية.

الخلاصة؛

فى الختام أتمنى من الله العلى القدير بأن أكون قد وفقت فى هذه الدراسة لاعطاء القادة العرب دورهم فى اتخاذ القرار السياسى والقاعدة الشعبية العربية، للاهتمام بالتحديات للأمن العربى فى دول مجلس التعاون ذو أهمية استراتيجية دولية قبل العربية، والمفروض أن تكون العكس عربية قبل الدولية، ولكن التمزق والشتات العربى والانانية القطرية فى كيانات أوجدها الاستعمار الغربى الرأسمالى، كل ذلك جعلنا نهتم بهذه الأمور لتتوصل إلى قناعة تامة بضرورة المشاركة الشعبية لدرء الأخطار واتخاذ القرارات السياسية والمصيرية لمواجهة التحديات الداخلية قبل الخارجية والتوجه بقوة نحو العمق القومى العربى الامتداد الطبيعى للجسد الواحد قبل القطرى والاقليمى.

ولم أقصد بهذه الدراسة إلا محاولة بسيطة الغرض منها كشف المخاطر والتحديات التى تحدى بالأمة العربية والأمن القومى لعلنا نستطيع المجابهة بالواقعية بدلا من العاطفة والانانية الذاتية، ولا أعتقد بأننى توصلت إلى ما كنت أصبو إليه، ولكننى اعتبر هذا بداية المشوار نحو دراسات أكثر شمولية لواقعنا لرفع معاناتنا الفكرية والسياسية نحو تمزق الأمة العربية، لتأخذ طريقها بين الأمم التى بدأت بعدنا وأخذت مواقعها أمامنا ولعل انتفاضة شعبنا بفلسطين وشعوب اوربا

الشرقية ووحدة ألمانيا تكون خير معين وحافز لنا، للوقوف أمام القوى التي تحاول النيل من تجزئة وطننا العربى الكبير وخاصة مشرقه الغنى بالنفط وعوائده، حتى تنهل سيوف الغرب المسيحى الرأسمالى غنائه دون اعطاء المجال لأبنائه للنهوض من كبوته بالتسلط والتبعية الاقتصادية قبل السياسية.

وأخيرا وليس آخرا أمنياتنا القادمة قيام وحدة أو اتحاد الجزيرة العربية بين جميع كياناتها.

وأختتم دراستى بالثناء والحمد لله تعالى وأصلى على نبيه الكريم وعلى آل بيته الطاهرين.

الهوامش:

- 1 - البرت دولستر: أنصاف حروب وانصاف سياسات فى الخليج - دراسات استراتيجيه . دراسة رقم (26) السنة الثانية 1981 / 2 ص 29.
- 2 - ر. ك. رمضانى: الأمن فى الخليج العربى - منشورات مركز دراسات الخليج العربى - جامعة البصرة ص 25.
- 3 - ر. ك. رمضانى : نفس المرجع ص 25.
- 4 - J. B. Kelly The Gulf & The West - Basic P. 308.
- 5 - د. عبدالجابر وآخرون: دراسات عن تاريخ الخليج ص 263.
- 6 - سامى المنيس: الطلبة فى معركة الديمقراطية ص 67.
- 7 - سامى المنيس: نفس المرجع ص 68.
- 8 - الخليج العربى: المناقشة البرلمانية الأمريكية المستمرة بشأن مبيعات الأسلحة إلى أقطار الخليج العربى ص 26.
- 9 - د. عناد فواز الكبيس : إيران عصا الامبريالية فى منطقة الخليج العربى - مجلة الخليج العربى العدد الأول عام 1983 ص 69.
- 10 برزان التكريتى : الصراع الدولى فى منطقة الخليج العربى والمحيط الهندى وتأثيره على أقطار الخليج العربى ص 97.
- 11 - اسماعيل صبرى مقلد - أمن الخليج وتحديات الصراع الدولى ص 47.
- 12 - د. عبدالله الأشعل: العلاقات الدولية فى اطار مجلس التعاون الخليج العربى - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية . العدد (37) يناير 1984 ص 78.
- 13 - د. حسن على الابراهيم: الدول الصغيرة والنظام الدولى - الكويت والخليج ص 16.
- 14 - مصطفى نبيل : مثلث الخطر، مضيق هرمز، جبل طارق، باب المندب ص 28.
- 15 - السيد رهرة: استراتيجية القوتين الأعظم وقضايا الأمن فى الخليج - الفكر الاستراتيجى العربى - العدد الثانى اكتوبر 1981 ص 91.
- 16 - د. بكر مصباح تنيرة التطور الاستراتيجى لصراع القوى العظمى على الخليج العربى مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية . العدد (46) ابريل 1986 ص 77.
- 17 - د. خليل الياس مراد: حرب الخليج وانعكاساتها على الأمن القومى العربى ص 68.
- 18 - د. خليل الياس مراد: نفس المرجع ص 13.

- 19 - السيد زهرة: المرجع السابق ص 90.
- 20 - د. اسماعيل صبرى مقلد: المرجع السابق ص 145.
- 21 - د. عبدالله فهد النفيس: مجلس التعاون ص 7.
- 22 - ادوردريس: التوسع الأمريكى فى الخليج ص 281.
- 23 - ادوردريس: نفس المرجع ص 281.
- 24 - فريد هاليدى: السياسة السوفيتية فى قوس الأزمة ص 25.
- 25 - كارل كايزر - ونستون لورد: أمن الغرب: دراسات استراتيجية الدراسة (33) السنة الثانية 1981/9 ص 37.
- 26 - J. B. Kelly - Op cit . P. 308.
- 27 - د. خليل الياس مراد: المرجع السابق ص 89.
- 28 - الهيثم الايوبى: نفس المرجع ص 36.
- 29 - محمد عدنان مراد: صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج العربى ص 520.
- 30 - د. اسماعيل صبرى مقلد: المرجع السابق ص 145.
- 31 - محمد عدنان مراد: المرجع السابق ص 226.
- 32 - د. أحمد عبدالرازق شكارا: الدور الاستراتيجى للولايات المتحدة الأمريكية فى منطقة الخليج ص 137.
- 33 - نهى تادرس: السياسة الخارجية لإدارة ريغان. مجلة الفكر الاستراتيجى . العدد الثانى اكتوبر 1981 ص 34.
- 34 - Richard w. Murphy: protecting U. S. Interests In the Gulf p. 5.
- 35 - David H. Aibert: Tell the American people.
- 36 - John Duke Anthony: Goals In The Gulf an Americas Interests In The Gulf Cooperation Council, p. 6.
- 37 - د. حسن البدرى: الولايات المتحدة ومشاكل أمن الخليج العربى فى الثمانينات السياسة الدولية العدد (57) 1979.
- 38 - مايكل كلير: نفس المرجع ص 157.
- 39 - جريدة الخليج الصادرة فى 1984/4/3.
- 40 - جريدة الخليج الصادرة فى 1984/4/3.

- 41 - د. خليل الياس مراد: المرجع السابق ص 64.
- 42 - غارسيت فيتزجيرالد: دراسات استراتيجية الدراسة 35 - 36 السنة الثانية 11/12/1981.
- 43 - د. توفيق حصو: العلاقات الخليجية العربية - الأمريكية ص 77.
- 44 - جون بولورك الخليج 216.
- 45 - جون بولورك: نفس المرجع ص 217.
- 46 - رياض نجيب الرئيس: الخليج العربى. رياح التغير ص 83.

فهرس المحتويات

الصفحة

5

مقدمة

الفصل الأول: الصراع العثماني - البرتغالي في النصف الثاني من القرن السادس عشر في الخليج العربي . 9

الفصل الثاني: تنافس شركتي الهند الشرقية الهولندية والبريطانية في بندر عباس في النصف الأول من القرن السابع عشر . 57

الفصل الثالث: هجرة القبيسات الأولى من أبوظبي إلى «العديد» والدور البريطاني في النصف الأول من القرن التاسع عشر . 99

الفصل الرابع: محاولة انفصال «العديد» عن أبوظبي والموقف البريطاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . 123

الفصل الخامس: الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود في قائمقامية قطر العثمانية 1871 - 1882 . 157

الفصل السادس: الحياة الفكرية في شرق الجزيرة العربية في العهد العثماني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . 209

الفصل السابع: القرار السياسي البريطاني في ظل النزاع الانكلو - عثماني في شرق الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر 261

الفصل الثامن: جوانب من الصراع السياسي في جنوب ساحل عمان (أبوظبي) من خلال الوثائق البريطانية بين عامي 1926 - 1928 . 321

الفصل التاسع: ظفار بين الماضي والحاضر 353

الفصل العاشر: العمل العربي المشترك وقيام مجلس التعاون الخليجي 379

الفصل الحادي عشر: مجلس التعاون الخليجي بين الأمن الاقليمي 427

والتحديات الخارجية

كتب صدرت للمؤلف

- 1 الأمن السياسي لدول مجلس التعاون
- 2 الحياة الإدارية في سنجق الإحساء العثماني
- 3 السياسة العثمانية تجاه الخليج العربي
- 4 الأفلاج في مدينة العين
- 5 ابن ماجد الملاح الفلكي
- 6 العلاقات العربية الإيرانية
- 7 العلاقات العربية الأسبانية
- 8 أشرف حضر موت ودورهم في نشر الإسلام في جنوب شرق آسيا
- 9 الموقف البريطاني من الوجود العثماني في الإحساء
- 10 إمارة أبوظبي في عهد زايد الكبير
- 11 تاريخ العرب الحديث
- 12 دراسات في الخليج والجزيرة العربية ج1 - ج6
- 13 دراسات في العلاقات العربية الإيرانية
- 14 تاريخ الجزيرة العربية الحديث
- 15 التطورات السياسية في دولة الإمارات العربية
- 16 الدولة الإسلامية الأولى
- 17 دراسات في المشرق العربي المعاصر
- 18 تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر
- 19 الفاجار والجزر العربية الجزء الأول
- 20 رضا خان والجزر العربية الجزء الثاني
- 21 محمد رضا خان والجزر العربية الجزء الثالث
- 22 جمهورية إيران الإسلامية والجزر العربية الجزء الرابع من 1979 - 1997
- 23 جمهورية إيران الإسلامية والجزر العربية الجزء الخامس من 1997 - 2000
- 24 تاريخ الكويت الحديث والمعاصر
- 25 الإمارات من الاستعمار إلى الاستقلال
- 26 الإمارات بين الماضي والحاضر
- 27 الحدود السياسية للجزيرة العربية

المؤلف في سطور

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة.
- رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات ومجموعة العيدروس التجارية.
- حاصل على الليسانس من لبنان والماجستير في التطورات السياسية في الإمارات العربية 1932 - 1971 والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الإيرانية 1921 - 1971.
- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي 1970 - 1973 ثم مديرا للعلاقات الثقافية بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة 1979 - 1984، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة 1984 - 1993 وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الظفرة الجوية في أبو ظبي، كما شارك في دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة، ثم في جامعة الكويت 1993 - 2000 ثم في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا 2000 - 2002، ثم في القوات المسلحة لدولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة من 2002-2006: الأمين العام للجنة الإمارات للتاريخ العسكري، ثم رئيس مؤسسة اسكاندافيا للاتصال الثقافي والتجاري في السويد من عام 2007 حتى الآن، وهو عضو في العديد من الجمعيات العلمية الإقليمية والدولية وعضو في الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب منذ عام 1991 وحتى الآن ورئيس تحرير مجلة دراسات روتردام الإسلامية.

- صدر له أكثر من اثني عشر كتابا وأكثر من أربعين بحثا معظمها في الخليج العربي والدراسات العربية والإسلامية.

الفصل الأول: الصراع العثماني- البرتغالي في النصف الثاني من القرن السادس عشر في الخليج العربي.

الفصل الثاني: تنافس شركتي الهند الشرقية الهولندية والبريطانية في بندر عباس في النصف الأول من القرن السابع عشر.

الفصل الثالث: هجرة القبيسات الأولى من أبو ظبي إلى "العديد" والدور البريطاني في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

الفصل الرابع: محاولة انفصال "العديد" عن أبو ظبي والموقف البريطاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

الفصل الخامس: الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود في قائمقامية قطر العثمانية 1871 - 1882.

الفصل السادس: الحياة الفكرية في شرق الجزيرة العربية في العهد العثماني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

الفصل السابع: القرار السياسي البريطاني في ظل النزاع الانكلو- عثماني في شرق الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

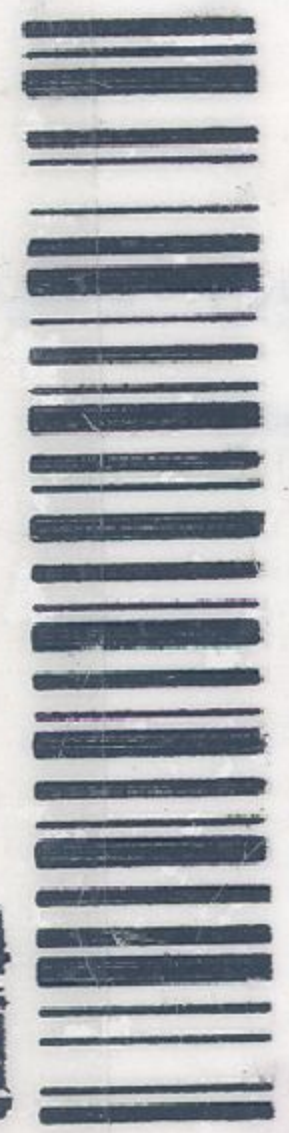
الفصل الثامن: جوانب من الصراع السياسي في جنوب ساحل عمان (أبو ظبي) من خلال الوثائق البريطانية بين عامي 1926 - 1928.

الفصل التاسع: ظفار بين الماضي والحاضر.

الفصل العاشر: العمل العربي مجلس التعاون الخليجي.

الفصل الحادي عشر: مجلس بين الأمن الإقليمي والتحديات

Bibliotheca Alexandrina



0666264



هذا الكتاب